

اقرأ

نماذج من النساء

٢٧١

محمد زكي عبد القادر

رسم الغلاف بريشة يوسف فرنسيس

٥ قروش ج. ع. م.	١٠٠ مليم فى ليبيا	١٫٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق. ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق. س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	

نماذج من النساء

محمد زكي عبد القادر

نماذج من النساء

اقرأ ٢٧١

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٧١ – يولية سنة ١٩٦٥

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج . ع . م .

هذه نماذج من النساء ، رسمتها من الواقع ، فيها سمات من تضحية تبلغ أحياناً حد القداسة ، وفيها قلق يبلغ أحياناً حد الانحدار ، ولكنها جميعاً تصور نماذج من المرأة تسعى بيننا ونصادفها فى كثير من الأحيان .

وهى ، بعد ، تسرى فيها جميعاً الغريزة بنبضها السليق والعاطفة بسموها الوجدانى . ومن الالتحام بين الاثنتين تجد المرأة ، ولكن لماذا المرأة ، قل تجد الإنسان .

محمد زكى عبد القادر

الخطيئة . . هل ورثناها ؟

ما من ضجة حولى الآن ، كل شيء هادئ ، الساعة جاوزت الحادية عشرة ليلاً ، هل أقرأ فى كتاب أو أقرأ نفسى ؟ هل لى اختيار حتى فى هذا ؟ كلا ، أحياناً تحلو لى القراءة وأحياناً يحلو لى التأمل ، وأحياناً لا تحلو القراءة ولا التأمل ولا يحلو شيء فى الحياة ، يثقل كل ما فيها .

وراجعت ما حدث اليوم ، استحضرته ورحت أتأمل فيه ، المخطئة التى اعترفت لى بذنبها وسألتنى : ماذا ترانى ؟ هل أنا امرأة فاجرة ؟

واستعدت فى خاطرى كيف أجيبها فرأيت أننى لم أجب بشيء ، سكت فترة من الوقت ، ثم قلت لها كلاماً ، لا هو صريح ولا غامض . . لا هو تأثيم ولا تبرئة . ولم تقنع أو تقتنع بحديثى قالت : أنت لا تريد أن تجابهنى بحقيقة رأيك فىّ ، ولكننى أعرفه . . أنت تحتقرنى الآن .

وأحسست بنفسى تنتفض وأنا أقول لها : كلا . . وهل من حقى حتى إذا كنت مخطئة أن أحتقرك . . ربى وربك هو الذى يرعاك ، وما أنا إلا بشر ، إنسان ركبته الذنوب من يمين ويسار . . أنا وإياك ، نحن البشر جميعاً ، نخطىء ونتوب .

سكتت لحظة ثم قالت : العجيب فى الأمر أننى لم يتولنى ندم على ما فعلت .

— وضميرك . .

— هذا هو ما يزعجنى . . كنت أشعر كأن زوجى شريك فى الجريمة . . كنت كأننى أنتقم منه . . أهملنى وانصرف عنى ، حتى كلمة العطف الرقيقة لا أسمعها منه ، إنه هو الذى دفعنى . كنت أحس بشبحه ورائى ، يستحثنى إلى الخطيئة إذا ابتعدت عنها . .

وتأملت : هل نحن فضلاء لأن غيرنا لا يدفعنا للخطأ ، أم ينبغى أن نكون فضلاء حتى ولو دفعنا الغير إليه ؟ هل الفضيلة نبض فى النفس مجرد من كل مؤثر خارجى ، أم أنها نوع من المعارضة والمفاضلة ؟ هل هى التزام ذو طرفين ، لا بد أن يفى كل واحد بالتزامه حتى يصح التزام الطرف المقابل له ، أم أنها جوهر أصيل لا دخل له بأى التزام من الخارج .

وهذه المرأة التى سكت ضميرها ، هل سكت لأنه لم يكن موجوداً من قبل ، أم سكت لأنه هو الآخر فهم الفضيلة على أنها التزام فى مواجهة طرف آخر ؟ هل سكت لأن المفاجأة أسكتته وسيستيقظ حينما تذهب المفاجأة وآثارها ؟ هل سكت لأن الرغبة فى الانتقام من الزوج المهمل أسكتته ، وسيستيقظ حينما تهدأ سورة الغضب فلا يبقى إلا الخطأ والصواب ، الفضيلة واللافضيلة ؟

لقد قالت لى هذه المرأة إنها فى عذاب مر ، لأن صديقها بعيد عنها . . إنها تبكى ليلاً ونهاراً ، تصرخ أحياناً وتهدأ أحياناً وسكتت لحظة ثم استطردت : أريد أن أتخلص منه . لا استطيع أن أقضى الحياة فى هذا الوله وفى هذا القلق . .

هل بكاؤها وقلقها ولهفتها وولهها يرجع إلى أنها تريد حقا أن تفترق عن هذا الرجل ، أم أنها جميعاً غطاء للشعور بالذنب ؟ هل البكاء والصراخ من أجل الرجل البعيد عنها ، أم أنهما من أجل الخطيئة التى ارتكبتها . . وهل صحيح أن ضميرها لم يندم أم أنه إختار وسيلته للندم على هذه الصورة المغطاة ؟

هل تريد أن تتخلص من هذا الرجل لأنها لا تطيق أن تعيش فى عذاب البعد عنه ، أم أنها تريد أن تتخلص منه لأنها تريد أن تتخلص من الخطيئة والندم ؟

ثم قالت شيئاً آخر : المأساة عندى إننى لست واثقة من أنه يحبنى كما أحبه . . لقد فاجأته مع امرأة أخرى وغضبت . . انقطعت عنه شهراً أو شهرين ، ثم عدت إليه . . إننى لا أؤمن أنه يحبنى .

ــ وأنت هل تحبينه ؟ أواثقة أنت من شعورك ؟

ــ وماذا يكون هذا الشعور إذن ؟

ــ ربما كان اندفاعاً للانتقام؟ ربما كان رغبة فى الذنب . . مجرد رغبة . أنت ترين زوجك منصرفاً عنك، وأنت ترينه لا يرعى حرمة العهد بينكما ، ربما كان دبيب شر خفى يغريك بأن تذنبي أنت أيضاً . . ربما كان ما تحسينه من لوعة الآن ليست لوعة الحب الخالص ، ولكن لوعة الإهمال الذى تعانينه من زوجك ، ولوعة الحاجة التى دفعتك إلى أن تخطئى . لا تقولى إن ضميرك مات . . لا تقولى إنك لست نادمة ، ولكن قولى إن الأمر مختلط عليك . . إن ما فى قلبك خليط متداخل من

الغيظ والقلق والندم والرغبة فى أن ترى رجلا يهتم بك ، والتمنى او كان هذا الرجل هو زوجك . فكرى فى الأمر قليلاً ، تأملى نفسك . . حللى مشاعرك، فربما كان فى هذا التحليل ما ينقذك من الاندفاع فى الخطأ.

والسؤال الآخر الذى تأملته والليل يوغل والهدوء شامل واعترافات هذه المرأة تعود إلى خاطرى ثم تلح إلحاحاً: هل الحب شعور مجرد هو الآخر لا يعتمد على شعور الطرف الآخر، أم أنه معارضة ومقابلة ، لايمكن أن يعيش وحده فى التربة الجافة ؟

وربطت السؤالين أحدهما بالآخر : هل الفضيلة والحب كلاهما يمكن أن يكونا مجردين عن تصرف الآخرين ، أم أنهما مشدودان بهذا التصرف وجوداً وعدماً ؟

والجواب شاق . فإذا قلت إنهما مجردان وجدت عشرات الأمثلة التى تؤيد هذا الرأى . وإن قلت إنهما مرتبطان بتصرف الآخرين وجدت عشرات الأمثلة الى تؤيد هذا الرأى . إلا أن الأمثلة وإن كثرت لا تضع قاعدة عامة ، فلا بد من تحليل هذين الجوهرين : الفضيلة والحب.

هل ورثنا الفضيلة والحب بين ما ورثناه من عواطف ونزعات وغرائز أم هما نتاج المجتمع وإملاؤه . هل الوراثة هىالتى تشكلهما أم هو المجتمع ، فإذا كنا قد ورثناهما فهل ورثناهما مجردين أم ورثناهما ومعهما ميراث آخر هو الخطيئة بالنسبة للفضيلة والتحول أو الغدر بالنسبة للحب ؟

إن الديانات والأساطير تقول إن آدم وحواء ارتكبا الخطيئة فى أول الخليقة فطردهما ربهما من الجنة . الخطيئة إذن صاحبت الإنسان منذ

البداية ، ولا بد أنها اختلطت بدمه منذ الميلاد الأول. ولو أراد الله للمخلوق الأول أن يكون مبرأ من الخطيئة ما أغراه بها ، ولو أراد للمخلوقة الأولى أن تكون مبرأة من الخطيئة ما أغراها بها .

لا شبهة إذن فى أن الخطيئة ولدت مع الإنسان ، كما ولدت معه الفضيلة ، وهما ما يعبر عنهما بالخير والشر ، وهما جوهران متقابلان ، وهما طرفا الصراع منذ بدء الخليقة ، وسيظلان كذلك إلى أن تنتهى الخليقة ، والقول بأن الفضيلة جوهر مجرد من الخطيئة قول غير مقبول ، فإنها لا تتميز إلا بالصراع مع الخطيئة ، ولولا وجود الخطيئة ما أصبح للفضيلة مدلول متميز واضح المعالم .

وقد قال المسيح إن الإنسان هو ابن الخطيئة ، وهو يعنى أن الخطيئة ولدت معه . ولو كانت الفضيلة جوهراً مجرداً ما احتجنا إلى تعلمها والحض عليها ، وما احتاج الله جل جلاله إلى إرسال الرسل وإنزال الكتب السماوية.

وإذا كانت الفضيلة تولد مختلطة بالخطيئة وتعيش فى صراع معها ، وجب أن نسلم بنتيجة لا بد منها وهى أنها تتأثر بتصرفات الآخرين ، وبالوسط والمجتمع والقوانين والنظم وحكم التطور .

أما عن الشطر الآخر من الموضوع ، وهو المتعلق بالحب ، فيمكننا أن نسائل أنفسنا أيضاً : هل وجد الحب كالخطيئة ، منذ الخليقة الأولى ، وهل كان ما بين آدم وحواء حبا أم كان شيئاً آخر .

لا يمكن التسليم بأن ما كان بين آدم وحواء حبا ، لأن الحب يتطلب الاختيار والاختصاص وكلاهما لا يكون إلا بين أشخاص متعددين ،

ولم يكن هناك تعدد ، كان هناك مخلوقان اثنان فقط .

ما كان بين آدم وحواء إذن لم يكن حبا ، بل كان غريزة خالصة بين امرأة ورجل . وهو ما يجعلنا نقرر بأن الغريزة سبقت الحب . وليس معنى أنها سبقته أنها حتما أقوى منه .

متى نشأ الحب إذن ؟ وهل هو مجرد من الغريزة أم أن فيه طابعاً منها ؟

نشأ الحب حينما تكاثر الناس وارتقوا فى سلم الحضارة والفهم ، وتخلصوا من بداوة الغريزة ، ولا يمكن القول بأنه مجرد من الغريزة ، والصحيح أنه أسلوب مهذب للتعبير عنها . وأن ينشأ من لا شيء أو غير مستند إلى شيء قديم موجود أمر غير متصور . والذين يتحدثون عن الحب العذرى يتحدثون فى الواقع عن الغريزة المتسامية ، فهم لا يهملونها حتى فى هذا النوع من الحب .

هل الحب عاطفة مجردة من تصرفات الآخرين ؟ هل هو جوهر مستقل بذاته يمكن أن ينشأ ويعيش وينمو ويزدهر دون نظر إلى ما إذا كان الطرف الآخر يحسه أو يمارسه ؟

الجواب أنه بطبيعته يتطلب التجاوب فإذا نما فى قلب واحد ولم يجد له صدى فى قلب آخر ، فلا بد أن يضمر ويضعف مع الأيام ، وينحدر إلى منطقة الذكريات ومنها إلى منطقة اللاوعى .

هل الحب فضيلة كاملة مجردة من الخطأ وفى عبارة أخرى هل الحب لا يمكن أن يقبل الغدر أو التحول ؟

إن ما قررناه عن الفضيلة يصدق أيضاً على الحب ، وليست فى الدنيا

١٣

فضائل مجردة . وإذا قلنا إن الحب فضيلة فهو فضيلة يتصارع معها الشر ، والشر بالنسبة للحب هو الخداع والغدر والتحول ، وما هو مطلوب منك لكى تحمى فضيلتك من الشر ، مطلوب أيضاً لكى تحمى حبك من الشر وحياته السليمة موقوفة على مقدار ما تبذل لكى تحميه من عوادى الزمن .

ودعك ممن يقولون إن الحب إذا وجد فلن يموت ، فإن الحب كائن حى ككل الكائنات الحية . وما يصدق عليها يصدق عليه ، ولا حياة لكائن تهب عليه الرياح فلا تحميه منها . . لا حياة لكائن تتركه من غير رعاية ، من غير ماء إذا جف ، ومن غير هواء نقى إذا أوشك أن يختنق بالهواء الفاسد . . وما نسميه غدراً فى عالم الحب ليس إلا نوعاً من جفاف الحب أو اختناقه .

ماذا تريد المرأة ؟

قالت : « إنى سعيدة . أحب زوجى وأولادى . لا ينقصنى شىء . أجد الحب والعطف والحنان . وأشعر أنى معززة . زوجى يمنحنى ما يستطيع أى زوج أن يمنح. لست فى حاجة إلى مال؛ فعندى منه ما يكفى وزيادة. ولكننى أشعر أننى مقيدة . كنت أريد أن أكون حرة أذهب حيث أشاء وأصنع ما أشاء . لا تسىء الظن بى فلست أريد أن أبحث عن حب ولست مستعدة له . لست أريد أن أجرب نزوة فليست لى نزوات . لست أحب أن أجرب مغامرات العاطفة ، فقد جربت بما فيه الكفاية قبل زواجى . كل ما يضايقنى أننى لا أستطيع أن أذهب أو أجىء إلا بأمر من زوجى أو من والدى . وإنى لأخاف زوجى بصورة لا تكاد تتصورها . وقد تعجب إذا عرفت إنى أحب هذا الخوف وأضيق به . وكثيراً ما فكرت أن أتمرد عليه ، ولكن حنيناً خفيا إليه ، إلى الخوف ، كان يجذبنى دائماً إليه . ولست أدرى إذا منحت الحرية التى أريدها هل أكون سعيدة بها أم لا ؟

« إنها مجرد خواطر أردت أن أفضى بها إليك . وفى أحيان كثيرة يحلو لى أن أغيظ زوجى ، فلا يزيد على أن يقول : إذن سأذهب إلى السهر فى الخارج ، فلا أكاد أسمع هذا حتى يتولانى خوف مرعب فإذا أنا أعتذر إليه وأكاد أقبل يديه وقدميه . . لست أدرى على التحديد ماذا أريد ؟ أريد أن

أخاف وأن أطمئن . أريد أن أكون حرة ومقيدة . أريد أن أحس بشخصيتى وأريد أيضاً أن تنمحى شخصيتى . أريد أن يثور زوجى فيقذفنى بما فى يده وأشعر إزاءه بضآلة وخوف ورعب . أريد أن أبكى فيتذلل ويمسح دموعى ، وأريد أن يغضب ، فأركع عند قدميه أسأله المغفرة والصفح . كأننى أسألها من إله . أريد أن أتصوره كأنه لعبة فى يدى ، ثم يطغى شعور أكثر صدقاً إننى أنا اللعبة فى يده . أريد أن أتخيل — مجرد تخيل — إننى صاحبة سلطان عليه ثم أؤمن فى قرارة نفسى أنه صاحب السلطان ، وإننى رعية ضعيفة ضئيلة فى ظل قوته التى لا حد لها .

وكثيراً ما فكرت فى أن أغضبه ، لأن هدوءه أحياناً يثير أعصابى ، وكثيراً ما أفعل فيستهوينى غضبه ويستهوينى أكثر أننى أخاف . ولا تظن أننى غير قادرة على التمرد والحصول على الحرية الكاملة التى أنشدها ، ولكننى أتمرد فقط إلى الحد الذى أشعر فيه أن سلطانه قائم ثم أعود كالقط الوديع آوى إلى صدره وكأنه قلم أظافرى وهزمنى فى معركة خيالية من صنعى.

هل أنا شاذة ؟ لا أدرى ولكن هذا هو أنا ؟ .

سكت لحظة ثم قلت : ليس فيك شذوذ . . هذه هى المرأة .

أنوثة مجروحة

شهدت فيلم « سجن النساء » ورأيت كيف تتحكم المرأة فى المرأة وكيف تذيقها مما فى نفسها من عقد ألواناً من القسوة والعذاب . وحمدت الله أن النساء فى البرلمانات لم يزد عددهن إلا زيادة طفيفة جدا . . وفى السجن مجتمع كله من النساء . لا يدخله الرجال أبداً . ومع ذلك فإن الإنسان الوحيد الذى أحس بقسوة المرأة على المرأة كان رجلا ، وكان الرجل الوحيد فى السجن ، وهو طبيبه .

وقف الطبيب يصارح مديرة السجن ، ويقول لها : أنت تكرهين كل بنت فى داخل هذا السجن . ما من واحدة منهن إلا أحبت وشعرت بسعادة الحب . . أما أنت فتعانين قحطاً فى عواطفك . لا بد إنك سكبت قلبك عند قدمى رجل ولكنه لم يجد فيه الدفء والحرارة والأنوثة فهجرك إلى أخرى . . امرأة قد تكون فى هذا السجن أو فى خارجه . . ولا سلطان لك على الخارجات منه فأنت تصبين نار نقمتك على التعيسات اللاتى أوقعهن القدر تحت يديك . .

وتقول له المديرة . إننى أصلح ، أنفذ القانون . .

فيقول لها : لا ، إنك تنتقمين . . تنتقمين لحبك الخائب ، لأنوثتك التى أهينت .

وتقول له : نحن هنا لا نعالج حالات الهستريا .

فيقول لها : أنت هنا توجدين حالات الهستريا .

وتقول له : لا تتدخل فى عملى . . اخرج من هنا .

ويخرج . ولكنها تعرف أن ما يقوله هو الحق ، فتمسك رأسها بيديها ولكنها بدل أن تزداد عطفاً ، تزداد قسوة فلا يجرح المرأة شىء قدر أن ينكشف من نفسها ما تريد إخفاءه . إن سرها أعظم شىء لديها وأعز شىء عندها . . إنها تجفل ممن يقرأ خوالجها ، لأنه حينئذ يجردها من سلاح غموضها وسحرها .

وتعرف المديرة أن إحدى السجينات تنتظر مولوداً ، بينما هى فى السجن منذ سنتين . وتدل التحريات على أن زوجها سجين فى قسم الرجال الملاصق لسجن النساء وأنه استطاع أن يتسرب إلى قسم النساء ويتصل بامرأته . ويجن جنون محافظ المدينة ويقول للمديرة : لا بد أن تعرفى كيف دخل الزوج قسم النساء .

وتستدعى المديرة الزوجة وتسألها كيف وصل إليك زوجك ؟ فتقول المسكينة إنها لا تعرف ، ولا تصدق المديرة فتضربها وتقسو فى ضربها .

أكان غيظها لأن الزوجة المسكينة تحجب عنها معلومات تعرفها ، أم كان غيظها لأنها زوجة ولأنها ستصبح أما ولأن زوجها يحبها ، واستطاع أن يتخطى القضبان لكى يصل إليها ؟

أكان غيظها من الزوجة لأنها أنثى استمتعت بكل ما تحب الأنثى أن تستمتع به ، بينما حرمت هى كل متاع ؟ أكان الصراع بين المرأتين صراع أنوثة مهيضة محرومة وأنوثة نامية مشبعة ، أم صراع سجينة خاضعة

للأوامر مع مديرة عليها أن تنفذ الأوامر .

أغلب الظن أن طبيعة الصراع تجعله صراعاً بين أنوثة وأنوثة ، فقد كانت فيه مرارة لا تكون إلا نتاج الغيظ من قلب مجروح ونفس مريضة .

وأثقلت المديرة على الزوجة بالضرب والركل المشرب بالغيظ حتى قضت عليها . وتمردت السجينات وأوثقن المديرة وأردن قتلها . فقال لهن الطبيب : كلا ، اتركوها إنها متهمة بالقتل لا تضيعن حقكن بجريمة أخرى . .

وأحس الزوج السجين بأن امرأته ماتت بسبب اعتداء مديرة السجن عليها فأخذ مسدسه وذهب يبحث عنها . . وتدخل البوليس والحراس ، وساد السجن هرج شديد . وفى الوقت الذى كان الزوج يوشك أن يطلق الرصاص على المرأة القاسية القلب ، الأنثى التى تمردت على أنوثتها لأنها لم تعرف كيف تستمتع بها ، جاء الطبيب والمحافظ ، فإذا المرأة قد اختلط عقلها وأصيبت بمس من الجنون .

الملل أو الهروب ؟

شكت إلى صديقتها والدموع فى عينيها ، قالت : لست أدرى ماذا دهانى . . كنت أحب زوجى، أحبه حب العبادة . . تزوجته بعد قصة غرام طويلة أنت تعرفينها، كانت نظرته تأسرنى، حديثه يهز كيانى هزا. . . ومرت سنوات وأنا فى غمرة من هذا الحب كأنها السحر. . . كنت أقارن بينه وبين أصدقائه فأجده أحسنهم خلقاً ، وأقواهم شخصية وأوضحهم رجولة . . . هل كنت مخطئة لأننى قارنت . . . إن الذى يحب لا يسمح لنفسه أن يقارن حبيبه بأحد . إن المقارنة باب خاسر تدخل منه ريح ملعونة . . إن وجودها ، مجرد وجودها ، أعنى المقارنة ، تؤدى إلى نتيجة حتمية هى أنه من المحتمل أن يوجد من يروق فى عينى أفضل منه ، وأنه إذا وجد فمن المحتمل أيضاً أن تخون عينى ويخون قلبى . . .

وظللت هكذا فترة من الوقت ولكننى لم أجد أحداً يفوق زوجى فكان حبه يزداد ويثبت . . هل كان حبا خالصاً أم كان ما يسمى بحب المقارنة أعنى الحب القائم على أن هذا الإنسان أفضل من غيره . . إلى أن وقع ما سأرويه لك الآن . .

أنت تعرفين فلاناً هذا إنه صديق جديد لزوجى لم يكن ممتازاً عن غيره وأدخلته فى المقارنة فرجحه زوجى بمراحل... ومرت الأيام وانشغل زوجى أكثر مما كان مشغولاً ، كنت إذا احتجت إلى شىء من الأشياء الصغيرة

التى تحتاج إليها كل زوجة وكل بيت ، تركيب عداد النور فى الشقة الجديدة ، كهربائى لإصلاح الأسلاك ، نجار لإصلاح الموبيليات ، شماعة صغيرة للملابس ، متر قماش تكملة لفستان ، تأشيرة على جواز سفر ، . . زراير من لون معين ، دبابيس ، أى شىء من الأشياء الصغيرة العديدة . . كنت إذا احتجت أى شىء من هذا وأبديت رغبتى فى الحصول عليه ، سرعان ما أجده حاضراً . . كان هذا الصديق من النوع « الخدوم » بينما زوجى من هذا النوع — الرجالى — الذى لا يهتم بالأشياء الصغيرة . . كان زوجى يوفر لى كل شىء مهم ، ويترك لى هذه الأشياء الصغيرة معتمداً على أننى أستطيع أن أقضيها بنفسى ، ولكننى كنت أجد متعة كبيرة إذا قضاها هذا الصديق لى . . . كنت أدفع لكل خدمة مقابلها ولكن اهتمامه بأن يقضى لى هذه الأشياء الصغيرة أخذ يتسرب إلى نفسى شيئاً فشيئاً وأعده كأنه فضل ، كأنه تقدير ، كأنه احترام ، كأنه اهتمام بى أنا نفسى ، . . لست أدرى ماذا حصل ؟ هل يمكن أن تتسرب العاطفة من هذا الباب الصغير التافه ، وهل يمكن أن ينشأ الحب ، وهو شىء عظيم شامل كامل ، من زاوية ضئيلة كهذه الزاوية ؟

* * *

هذه هى مأساتى أخذت أدهم بهذا الرجل شيئاً فشيئاً وكما قلت لك لم يكن يفضل زوجى فى شىء بل كان زوجى يفضله فى كل شىء . . لكن أعجب ما حدث . أن أخذ خاطر مزعج يتسرب إلى نفسى قليلا قليلا ، بطيئاً ضئيلاً غير منظور أول الأمر ، ثم واضحاً قويا شيئاً فشيئاً . . إننى أبدى

رغبتى فى هذه الأشياء أمام زوجى فإذا بهذا الرجل يقضيها بينما لا يعيرها زوجى إلتفاتاً . . . . إذن أنا امرأة لا قيمة لها فى عين زوجى ، طلباتى يهملها أو ينساها أو لا يبذل أى مجهود لكى يقضيها لى . . . بينما يفعل هذا الرجل الذى لاتربطه بنا إلا رابطة صداقة كل شىء من أجلى . . يحصل أن أطلب شيئاً أكون قد بحثت عنه فى السوق ثم لم أجده ويكون زوجى حاضراً ، ويكون الطلب ليس موجهاً لأيهما ؛ بل لا يكون طلبا على الإطلاق مجرد روايه ، بحثت عن هذا الشىء فلم أجده ، وتمر أيام أكون أنا نفسى قد نسيت هذا الشىء أو افترضت أنه من المتعذر الحصول عليه فإذا بهذا الصديق فاجئنى بأنه عثر عليه . .

أخذت أمثال هذه الأشياء الصغيرة تترك فى قلبى لمات صغيرة حتى كثرت وأصبحت لكثرتها كأنها شملت قلبى كله . . . هل هذا معقول . ؟. هل معقول أن تتحول هذه الاهتمامات الصغيرة بأشياء صغيرة من مجرد صداقة إلى شىء فى القلب ؟

وسكتت الصديقة !

وتابعت المرأة حديثها بينما استمرت صديقتها فى الإنصات إليها باهتمام : لست أريد أن أحلل عواطفى كيف بدأت وكيف تحولت وكيف عمقت . . يكفى أن أقول لك الآن إننى فى محنة . تحول اهتمامى كله من زوجى إلى هذا الصديق . . أصبحت أضيق بوجود زوجى ، وأتمنى اللحظة التى يجىء فيها هذا الصديق . . . إنها مأساة يا صاحبتى .. هل تتصورين إلى أى مدى بلغ بى الحال ، لقد تمنيت لو تركت زوجى وتزوجت هذا الصديق .

وشهقت صديقتها وقالت فى دهشة : وتتركين أطفالك . .

أجابت المرأة وهى شبه منومة : وأترك أطفالى .

قالت الصديقة : إن هذا ليس حبا .

سألتها الزوجة : وماذا يكون إذن ؟

قالت : نوع من الهروب . . نوع من الملل .

وسألت الزوجة : ومن المسئول عن هذا الملل ؟ من المسئول عن هذا الهروب ؟ أنا أم زوجى ؟

وسكتت لحظة ثم سألت : ألا يمكن أن يموت الحب بسبب الملل ؟ ألا يمكن أن ينشأ بسبب الرغبة فى الهروب . .

قالت صديقتها : إن المرأة الملول لا تحب والمرأة الهاربة لا تحب . . إنها مجرد امرأة تنشأ فى قلبها عاطفة جديدة كنوع من التعويض أو هروباً من حياة الملل . .

— تعنين أنى لا أزال أحب زوجى . .

قالت الصديقة : أنا واثقة إنك ما زلت تحبينه . . . هل لو لم يظهر هذا الصديق . . أعنى قبل أن يظهر هل كنت تشعرين بفراغ فى قلبك ؟

— كلا ، كان زوجى يملؤه . ولكن ألا يمكن أن يطرد حب جديد حبا قديماً ؟ وفى عبارة أخرى ألا ينشأ الحب إلا إذا كان القلب فارغاً . .

قالت الصديقة : الحب الجديد لا يطرد حبا قديماً ، ولكنه يدل على أن الحب القديم لم يكن حبا كاملاً .

قالت الزوجة : إذن أنا بين حالتين ، إما أن حبي القديم

لزوجى كان حبا ناقصاً ويكون حبي للرجل الجديد حبا كاملاً ، وإما أن يكون حبي لهذا الرجل مجرد هروب أو مجرد ملل . . ولكن من يستطيع أن يقطع فى أى الحالتين أنا ؟

— أنت . . أنت وحدك . . قولى لزوجك أن يقلل من اتصاله بهذا الصديق واجتهدى أن تقضى شئونك بنفسك . . . جربى . .

— لا أستطيع ؟ .

— بل تستطيعين . . ولا تنسى أيضاً أن العاطفة التى نشأت فى فؤادك قد لعبت فيها العادة دوراً كبيراً . . لقد اعتدت أن ترى هذا الرجل . أصبح بعض الروتين فى حياتك ، أشبه بالتدخين أو شرب الخمر . . المدخن أو شارب الخمر يظن أنه لن يستطيع أن يعيش سعيداً من غير الخمر أو الدخان ولكنه لو استطاع أن يتخلى عنهما ، أعنى عن العادة ، لوجد أنه يستطيع أن يعيش بدونهما أفضل مما كان يعيش بهما . .

— تعنين أن الحب عادة أيضاً .

— هو كذلك، حتى إذا فرضنا أن حبك لهذا الرجل حب كامل . .

وفرت دمعة من عين الزوجة ، وجاء ولدها الأكبر من المدرسة فى هذه اللحظة . . طرق الباب واندفع منه إلى أحضان أمه وقال الصبى : اليوم عرفت أننى الأول فى الإنشاء العربى يا ماما. وأخذته أمه فى أحضانها وغمرته بقبلاتها وفرت دمعات أخرى من عينيها ونظرت إلى صديقتها وقالت وهى تكاد تشرق بالدمع والابتسام والحنان : سأحاول وسأستطيع .

حياة كاملة

بدأت معه حياة نصف ميتة ، وبدأها معها موتاً فيه نصف حياة ، وما البال ببداية ليس فيها إشراق ولا ابتسام .

ماذا صنعت ؟ كانت تكمل ما ينقصها بالأخيلة والأحلام ولكنها خشيت أن تنفصل عن الواقع فتصبح أمامه جثة وتصبح بينها وبين نفسها ناراً شديدة الاضطرام .إنه ينشد الزواج وهى تنشد الحياة. إنه ينشدالجسد وهى تنشد الروح والجسد . تعبيره عن الحب حسى ، وتعبيرها عنه روحى ، كثيراً ما حاولت أن تجذبه إلى الروح فجذبها إلى الجسد . ولا جسد لها ما دامت لا روح لها .

فكرت أن تنفصل عنه ولكن مضات من حب ربطتها إليه ولمحات من عقل حكيم ردتها إلى شيء من الأناة والصبر .

وقالت : لعل الأيام تصلح ما أفسدته خيالاتى ، أو تصلح ما أفسده الواقع الذى يعيش فيه ، كانت تحلم بالقبلة فى فيض من المنى والأحلام فمنحها إياها فى فيض من رغبة الجسد والشهوات . تمنت أن تضمه إلى صدرها والطيور مغردة والصباح ينشر على العالم بشارة الهناء فضمها إليه والليل موهن والأضواء حمراء .

قالت له : انظر ما أجمل الصباح .... دعنى أستقبله على صدرك وأحلم ... أغمض عينى . إننى فى حاجة إلى أناملك أحس

بإطباقها الحلوة على جفونى . . . هل تعرف إننى أحب أناملك إنها أجمل شيء فيك . .

ضاق بها ولم يطق صبراً وقال : أعدى الإفطار إن ورائى اليوم لعملاً طويلاً . دعينا من الأحلام ، إن الدنيا واقع والزواج امرأة ورجل .

ـ وهل قلت أنا إن الزواج رجل ورجل أو امرأة وامرأة ؟ إنك لا تحس أجمل ما فى الحياة . أنت تفصلنى عنك وتردنى إلى أحلامى وحدى . أنت تعيش فى واقع عملك طول النهار ، لا تعيش معى فى أحلامى ساعة من نهار ، إنها غذائى . لقد أحببتك فمالك تردنى إذا أردت أن أستمتع معك بفيض مما فى هذا الصدر ساعة من ليل أو ساعة من نهار ؟

ـ كنت معك ليلاً بطوله . . .

ـ كان جسداً ياصاحبى . ألا تعرف أن الروح أيضاً تريد الارتواء . . .

ـ دعينى من هذا السخف . . . إنه خيال كتاب وشعراء .

* * *

وخرج وانطوت على نفسها . . . نظرت إلى ما حولها من جمال والتمست الشريك الذى يفهمه معها فلم تجد إلا الصمت ولم تسمع إلا همسات فؤاد كليل وجسد أنهكته شهوات عمياء . لقد كرهته . . . كرهت هذا الجسد الجميل . لقد أحبه زوجها ولم يحبها ، إنه غريمها . . شعرت باشمئزاز . إنها هنا جسد ، لحم وعظم ، امرأة محجوزة على ذمة رجل ورجل محجوز على ذمة امرأة .

يا لغبائها . . . لم تفهم . لقد قال لها من أول يوم : الزواج امرأة ورجل .

وقالت له بل الزواج حياة كاملة .

وجعلها جزءاً من حياته وجعلته هى كل حياتها .

إنها تعسة وأتعس ما فى الأمر أن أحداً لا يفهمها .

الأمومة والجنس

جرى الحديث فى هذا المساء حول الصداقة والحب وأيهما أدوم .
وسأل أحد الحاضرين : إذا تحولت الصداقة إلى حب هل تبقى الصداقة عنصراً منفصلاً عن الحب أم أنها تندمج فيه حتى إذا انتهى الحب أو اختفى ، ذهبت الصداقة أيضاً .

وتطرق الحديث إلى تفاصيل عديدة . ما هى عناصر الصداقة وما هى عناصر الحب ؟ وهل الأنانية صفة ملازمة للصداقة كما أنها صفة ملازمة للحب ، وهل يوجد حب من غير أنانية ؟

واختلف المتحدثون كل فى سبيل . وكان بين الحاضرين رجل واسع الثقافة عميق النظرة والصوت ، هادئ قليل الكلام . اعتصم بالصمت منذ احتدم الجدل والحديث ، ثم بدا أنه يريد أن يتدخل ، فصمت الجميع . وبدأ الرجل يتكلم . قال :

ربما كانت القصة التى سأرويها لكم الآن ليست حاسمة فى الإجابة على أى سؤال من الأسئلة التى أثيرت الآن . ولكن خذوها من واقع الحياة وصوروها كما تشاءون . كان لى صديق ، بل زميل نشأنا معاً منذ الطفولة ودرجنا إلى الصبا والشباب ، لا نكاد نفترق يوماً حتى نلتقى فى اليوم التالى . انقطع عنى هذا الصديق فترة من الوقت كأنما قد غيبه جب أو أخذته جنية من جنيات البحر . بحثت عنه فى كل مكان ، فلم أعثر

عليه. سألت عنه من يعرفونه ، فقالوا إنهم يبحثون عنه ولا يهتدون إلى مقراه.

ثم ظهر بعد غياب دام بضعة أشهر . لمحت عليه إشراقاً لم أكن أعهده فيه ، ونضارة كانت قد ذبلت بعد وفاة أمه، وكانت له كل شئ . قال : لقد وجدت الأم والصديقة . فتاة من الإسكندرية . وأنت تعرف أن عملى يقتضينى السفر إلى هذه المدينة من وقت إلى آخر . وهناك التقيت بها فى حفلة عامة . وقدمنى إليها صديق قديم . وهى عذراء ربما لا تعدو الثالثة والعشرين من عمرها . وكانت أول عبارة وجهتها إلىّ بعد أن انصرف صديقى: يبدو أنك حزين .. قلت : ولكننى أضحك أحياناً . قالت : الضحك يظهر الحزن أكثر مما يخفيه ، لا بد أنك فقدت إنساناً عزيزاً عليك .

قلت : بل أعز إنسان . .

قالت : أمك ؟ .

دهشت وسألتها كيف عرفت ، وهى لم تلتق بى إلا الآن ، فأجابت : لأن أعز إنسان هو الأم ؟

قلت : ولمَ لا تكون الزوجة أو الحبيبة ؟

قالت : إن حب الأم فيه الصداقة والإيثار وحب الزوجة والحبيبة فيه الأنانية والتملك . وأنا فقدت أمى قبلك وأشعر بحاجتى إلى صديق .

واستطردت فى همس وكأنها تحدث نفسها ؟ . . إلى إبنى .

شعرت بعزاء عجيب . وتصورت روح أمى وكأنها انتقلت إلى روح هذه الفتاة ذات الثلاثة والعشرين ربيعاً .

ضحكت فى عمق وسلام نفس وقلت : ولكننى عجوز لكى أكون ابناً .

ومن غير وعى ، رويت لها قصة حياتى كلها . لا تتعجب . شعرت كأننى أروى متاعبى لأمى . وكانت عينا الفتاة تضيئان فى إشراق علوى ، وربتت على كتفى والدموع تترقرق فى عينى وقالت : أخى هنا ، سأقدمك له .

ولا أطيل عليك . عرفت أخاها ودعانى إلى منزلهم . ومنذ ذلك اليوم أحسست أننى إنسان جديد . لا أقول لك إننى أحببتها كما يحب الرجل المرأة ، ولكننى سموت بحبها إلى ما هو أعلى وأقدس . أحببتها كأم وصديقة ورائدة ومرشدة . هل تتصور أن الشعور الجنسى لم يتحرك فىّ قط وأنا أنظر إليها وأتحدث .

وعجبت أيضاً لأنها كانت كذلك . سألتنى ذات مرة : ألم تحب فى حياتك ؟

وعجبت أكثر لأننى وجدت فى نفسى إستجابة سريعة فحدثتها عن حبى وأملى وخيبتى وحرمانى . وأنت تعرف هذا كله . واستمعت إلىّ دون أن تضيق بشىء . إنها أمى التى تستمع . فى عينيها بريق حنان وفى وجهها إشعاع رحمة وبين نبرات صوتها إعزاز ومحبة .

هل تتصور ؟ استغنيت بها عن كل أصدقائى ومعارفى . وأحسست بالضعف العجيب من دونها وبالقوة العجيبة معها . هل هذه العاطفة حب؟ صداقة ؟ أمومة ؟ أم هى مزيج من هذا كله ؟

* * *

وسكت الرجل . ولاح أنه يريد أن يسمع منا ويعرف صدى قصته فى

نفوسنا . سأله أحدنا : وهل انتهت القصة ؟ أجاب : إنها بدأت ، ولا تزال واقفة عند هذا الحد .

وقال واحد من الحاضرين : إن هذه العاطفة ليست صداقة ولا حبا . إن الفتاة تشبع فى نفسها رغبة الأمومة . والرجل يلتمس العزاء عن أمه التى فقدها .

وقال آخر : بل هى عاطفة حب ، تستخفى فى رداء الأمومة

وقال ثالث : يصعب الحكم عليها قبل أن تعرف النهاية . إن العواطف تتحول وتتبلور وتتخذ أشكالاً عديدة .

وقال رابع : مهما يكن من أمر ، فإن الصداقة ستظل عنصراً ثابتاً فى هذه العلاقة .

وقال الرجل الذى روى القصة : إن صاحبى لا ينظر إلى الفتاة كصديقة . إنه ينظر إليها كأم .

واتفقنا جميعاً على أن فى هذه العلاقة عنصراً جنسيا وإن بدا غير ظاهر فى هذه المرحلة .

٣١

إشعال السيجارة

دخلت النادى ومعها رجل .

سيدة فى ثياب سوداء حداداً أو أناقة ؟ لست أدرى . ولكن إذا صدقت فراستى فإنها حداد ، وحداد من أجل زوجها ، فقد كان فى وجهها أسى وفى جمالها انطواء، و بين شعاع عينيها خفوت ذابل . . . من هذا الرجل الذى يرافقها إذن؟ لولا ثياب الحداد لقطعت بأنه زوجها . . . ربما كان أخاها أوأحد أقربائها، وربما كان صديقاً من أصدقاء زوجها الراحل، بدأ يرثه . ومن يدرى لعله رمى شباكه من قديم، وهو الآن يجنى الثمرة التى دان قطافها .

وكانت المرأة من هذا النوع الذى يتلظى فى نار محرقة لا يحسها إلا من يعرف سر الشعاع المنبعث من عينيها أما الذى لا يعرف فيكاد يقول : ملاك أضعفه الحزن وهدّه سهد الكارثة . وكانت تسير فى سلام يقظ وصمت صاخب . حفيف ثوبها كأنه يتحدث ويتحدى . وقع خطواتها موج متدافع . وهمس كلامها عطر مخدر . فى الثلاثين من عمرها ، وربما فى الخامسة والثلاثين ، جمعت الأسلحة كلها فى يدها ووقف الحزن على هامتها ، والحزن فى ثياب امرأة فى الثلاثين سحر لا يقاوم .

الرجل الذى كان إلى جوارها ضئيل، ضئيل . . هو ضخم ، ضخم ، طويل عريض، ولكن ليست فيه سمات رجل .. وماذا يصنع المسكين والشعاع

الذى يسير فى ظله يكاد يحجبه عن الأعين ، فلا ترى غير هذه المرأة ذات الرداء الأسود .

ألم يصادفك رجل وامرأة فى الطريق، فى النادى،فى المدرسة فى أى مجتمع وأحسست مع ذلك كأن هذه المرأة تسير وحدها ، وكأن هذا الرجل واحد من غمار الناس ينظر إليها كما ينظر غيره . . ألم تشعر كأن هذه المرأة يمكن أن تقتحمها الأعين ، وأنها حصن من غير حارس ، لأنها حصن شامخ بنفسه على الحارس الضئيل الذى وضعته الأقدار عند بابها .

كان هذا شعورى وأنا أرى هذا الرجل وهذه المرأة .. شعرت أنها أقوى منه عشرين مرة . لم أشعر أنها تحس فى أعماقها بظل يحميها وإنما شعرت كأنها ترجو ظلا آخر يحميها .

* * *

وأقبلا على حوض الاستحمام . وسلمت المرأة على رجل خشن سميك، برى أو يكاد . ولاح أن رفيقها يعرفه أيضاً ولكن معرفتها به كانت أوثق من معرفة صاحبها ، لأنها وجهت إليه سهام عينيها . . شعاعهما وسحرهما ، وأضاء الشعاع والسحر ، وانبثقت منهما ابتسامة رقيقة فيها فتنة ، فيها إغراء فيها نداء ، فيها عرفان، فيها يقظة كانت نائمة ، فيها لمحة ماض بدا كأنه مات وهو الآن يتثائب ، وكأن الروح تدب فيه من جديد . لست أعرف ربما جمعت الابتسامة هذا كله ، فمن فى الدنيا يعرف ماذا تعنى ابتسامة امرأة فى الثلاثين ترتدى ثياب الحداد . .

وقدم إليها الرجل سيجارة . أخذتها فى عمق وكأنها تقبض على شىء



السيدة هور مع ابنها — للفنان رينولدز — مجموعة دالاس بلندن



مريم المجدلية — للفنان روتاري — متحف درسدا

عزيز طال شوقها إليه وترقبها إياه . ولم تشكره ولكن أرسلت من عينيها بريق شعاع فيه معنى جديد . لاح لى أنها انفصلت عن كل ما حولها ومن حولها. وعاشت بكيانها فى نظراتها. لاح لى أنها لم تعد ترى صاحبها الذى يرافقها ولا عشرات الناس المنبثين هنا وهناك ، بعضهم يستحم ، وبعضهم يتهيأ للاستحمام ، وبعضهم الثالث يرقب هؤلاء وهؤلاء .

* * *

وكان الرجل فى ملابس الاستحمام على وشك أن يغمر جسده بالماء البارد فى هذا الحر اللافح . فلما قدمت المرأة نسى الحر والبرد والماء وملابس الاستحمام وكان عليه أن يشعل لها سيجارتها فأوقد عوداً من الكبريت، وأدنت وجهها منه ، وأدنى يديه من سيجارتها ، ولاح أن أنفاس المرأة أضحت أكثر توهجاً من النار التى أدناها الرجل منها ، وكاد عود الكبريت يحرق يديه، والسيجارة لم تشتعل . . أكان الخطأ منه أم كان منها .. أتراه ليس بارعاً فى إشعال السيجارة لامرأة فى ملابس الحداد أم ترى المرأة ليست بارعة فى تلقى النار من يد رجل وهى فى ملابس الحداد . . أكان خطأ أم كان قصداً ؟ . . أكانت السيجارة هى التى استعصت على عود الكبريت المشتعل ،أم كانت المرأة هى التى أرادت لسيجارتها ألا تشتعل حتى يظل لفح النار قريباً منها وكأنه أنفاس قلب وعقل وكيان . هل هى ذكريات ماض ذهب وتريد أن يعود أم أحلام مستقبل ترجو أن يجىء ؟ .

ولم ألاحظ ما إذا كانت السيجارة قد اشتعلت أم لم تشتعل ، ولكننى رأيت الرجل يشعل عوداً ثانياً .

وظيفة القلب

استمعت إلى صديق يروى حكاية أنصت إليها بكل جوارحى . قال :

إن القصة بسيطة يمكن إجمالها فى عبارات قليلة، ولكنى مع ذلك أرجوكم أن تتأملوها : فتاة فى ريعان الشباب، تزوجت كما يتزوج بنات العائلات المحافظة . سألوها رأيها بعد أن أختاروا لها شريك حياتها ، وكان قلبها خالياً فنظرت إلى خاطبها نظرة عقل لا أثر للقلب فيها ، وأعلنت قبولها ، فالشاب من أسرة غنية متعلم على خلق حسن وسيرة طيبة . وقد رأته فراقها منظره ، وزفت إليه .

ومرت فترة الزواج الأولى فى سحر الجديد الذى يجذب القلب ويبهره ، ثم استقرت بها الحياة فإذا بها تشعر بفراغ قاتل . إنها لا تكره زوجها ولكنها لا تحبه . ليس فى قلبها ما يرجه ويملؤه ، وليس فى خاطرها ما يشع فى عينيها ذلك البريق العذب المضىء ولا ما يرسل إليها الدمع لوعة وشكا .

وعنيت ببيتها وحاولت أن تخلق منه شيئاً يشغلها ، ولكن البيت قد يشغل الحواس . . أما القلب والشعور والهوى والضنى والعذاب فلا سبيل إليها بغير حب يتسلل إلى القلب . وقد صانته جهد ما استطاعت . أقفلته على فراغه وقالت ، إنه نصيب ، وهناك كثيرات يعشن من غير حب .

عالجت أن تحب زوجها ولكنها لم تفلح . عالجت أن تتركه ولكنها لم تفلح فلم تجد سبباً مقبولاً للترك . كان الرجل مهذباً رقيقاً مدركاً لبواعث

النفس الإنسانية وانفعالاتها . وقد أحس أن زوجته لا تحبه ولكنها لا تكرهه . وأعتقد أن العشرة قد تخلق حبا أدوم وأثبت. ومرت الأيام وأحس أن أمله لم يتحقق . وكان يحبها فترك للزمن فترة أخرى وقال : عله يعالج هذا القلب العصى .

والتقت الفتاة برجل من أقرباء زوجها وكان أول لقاء . واستولى عليها العجب إذ أحست بشعور جديد لم تألفه . كان نغم صوته فى أذنيها أحلى نغم . وأطالت النظر إلى عينيه ثم تنبهت إلى ما هى مندفعة إليه فانصرفت عنه . ولما عادت إلى بيتها لم تستطع أن تذود التفكير فيه عن خاطرها وقلبها ، وتساءلت : ماذا دهانى ؟

وقررت فى نفسها أمراً . قررت ألا تراه . ولكن القرار شىء والتنفيذ شىء آخر . فما أن أتيحت أول فرصة لرؤيته حتى ذهبت مع زوجها لزيارته . . وتأكد لديها ما كانت فى شك منه . أحست أن قلبها ينبض ويديها ترتجفان ونظراتها ترتبك وألفاظها تتلعثم . . ولم تتمالك أن ضغطت على يده وهى تودعه للانصراف ، وأدهشها أيضاً أنه ضغط على يدها .

وراحت ليلتها فى أحلام . انهارت قلعة المقاومة فى سرعة . سلمت دون نضال . وتكرر اللقاء وتكرر الحديث . وجاءت اللحظة الحاسمة فى تاريخ كل قلب وتاريخ كل شعور . انفرد أحدهما بالآخر قال : يبدو على عينيك أنك لم تنامى نوماً كافياً . .

قالت : بل لم أنم . .

قال : كنت مسهدة ؟ .

قالت : كنت أفكر . .

قال : تفكرين ؟ . . كل شيء لديك منعم مرفه . . جمال وشباب ومال .

قالت : وهل المال والشباب والجمال كل شيء ؟

قال : ماذا ينقصك . . إن فى عينيك سحراً يذيب الرجال . .

واغضت فى حياء، وأوشكت أن تطبق أجفانها كأنها تحلم ثم قالت: إنك لا تعلم .

قال : بل أعلم . . كنت أفكر أنا أيضاً فيما كنت تفكرين فيه . .

وانطلق وجهها فى بشر رقيق ساحر وانبعث من عينيهما لمحة فيها تمن ورجاء وقالت ملهوفة : صحيح ؟ . .

ولم يجب بل أخذ يدها فى يده وضغطها . ومرت عليها لحظة جمعت فيها الدنيا أحلى ما فى الدنيا .

* * *

وعادت وكأنها خلقت من جديد . النور له معنى ، الأغاريد لها معنى الموسيقى لها معنى ، الحياة أصبحت ذات معان لم تكن تعرفها أو تعهدها.

ومرت الأيام . وأخذت تفيق من الحلم على الحقيقة المروعة . ما من شيء يظل خفيا مكتوماً . أحست بالهمس يتناقله العارفون عن هواها . وارتاعت . إنها من بيت محافظ ، ولا تزال أمينة لزوجها لم تحنث بعهده، ولكن شعورها، أليس ملكاً لها . لقد اشترى المجتمع جسدها فهل انسحب عقد الشراء على شعورها ؟ إن خيالها ملك لها . . يا رب هل خلقتنا أحراراً أم عبيداً ؟

وأحست بالسهام تصوب إليها من كل عين . ربما كانت مخطئة وربما كان وهماً ؟ وربما لا يعرف أحد عن شعورها شيئاً ؟ ولكن ماذا تصنع ؟ إن إحساسها لا يكذب . . إنها تكاد تفسر كل حركة وكل نظرة وكل كلمة كأنها سخرية منها . . يا لهذا المجتمع الظالم ؟

وأفضت بمخاوفها إلى صديقة لها فقالت : لا بد لك من النسيان . إنه العلاج الوحيد . . .

أجابت الفتاة : إننى أخاف النسيان . فى استطاعتى أن أنساه . ولكننى أجفل من مجرد التفكير فى هذا النسيان . إن معناه فراغ قلبى مرة أخرى ، ولا يمكن أن أعيش فارغة . سأنتقل من حب إلى حب ، لماذا خلقت قلوبنا ؟ أتستطعين الجواب ؟

قالت : والمجتمع أليس له عندك حساب ؟

أجابت : إن حسابه فى جسدى وقد استغنيت عنه لهذا المجتمع . تركته له يبيع فيه ويشترى على هواه . صانه عليه أبى إلى أن كبرت ، واستولى عليه زوجى بعد أن تزوجت ، ماذا تريدوننى أن أصنع ؟

قالت : لا وسيلة لك إلا النسيان . لا تقابليه . لا تتحدثى إليه . بعد أيام ، بعد شهور ، بعد سنة أو أكثر ستنسينه كأنه لم يكن .

أجابت : إن مشكلتى ليست فى النسيان . إن مشكلتى الحقيقية هى أننى لا أريد أن أنسى . أريد أن أعيش ، أن أتنفس ، أن أحزن وأفرح ، أن أرتاب وأستيقن ، أن ابتسم وأبكى . . أن أصرخ وأهدأ . . أريد أن يؤدى قلبى وظيفته .

* * *

وسكت الصديق . وكنا جميعاً فى صمت عميق . استهوتنا القصة لا بوقائعها ولكن بالأسلوب الذى اختار الصديق أن يصوغها فيه . وبعد لحظة قال : والآن إنى أسألكم أكانت هذه الفتاة على صواب فى كلامها ؟ هل ينبغى أن تترك القلب يؤدى وظيفته على هواه أم لا بد أن تتدخل فى هذه الوظيفة ؟ المعدة مثلاً لا تأكل فى كل الأحوال ما تريده . أحياناً نمنعها من شىء ونبيح لها غيره . اللسان لا يتكلم على هواه . نحن نفرض عليه السكوت أحياناً . اليد قد تميل إلى الضرب والاعتداء ، ولكننا لا نقرها عليهما . العقل أيضاً لا ندعه يفكر كما يشاء ، أحياناً يتدخل المجتمع لكى يقول له : هذا التفكير حلال وهذا التفكير حرام .

ولم يجب أحد منا . سكتنا سكوتاً تاما . كان السؤال محيراً . ولكن السكوت لم يطل ، فقد انطلقنا فى اختلاف مر . بعضنا قال إن القلب يجب أن ينطلق من غير قيد ، فالقلب جوهر الحياة . قد يعيش الإنسان من غير يد ومن غير لسان ومن غير عين ، فيعوضه القلب عنها جميعاً . ثم إن القلب المنطلق هو أجمل ما فى الحياة ، هو الفن ، هو الأدب ، هو الذى أقام هذه الدنيا وملأها بما هى ممتلئة به من بهجة وحب ، من دموع وأحزان ، من مثل رائعة فى التضحية والوفاء ، وأعمال خسيسة فى الغدر والبغضاء . كل قيد عليه يغض من جمال الحياة وما فيها من تناقض وإنسجام . . من خير وشر .

وقال آخرون بل إن القلب المنطلق مدمر . العقل يجب أن يكون

صاحب السلطان .

وسأل واحد : أى عقل تعنون ؟ عقل الفرد أم عقل الجماعة ؟

وبقى السؤال بغير جواب حاسم . . كما بقى السؤال الأصلى أيضاً بغير جواب حاسم وسيظلان كذلك ، لأن الحسم فيهما يفقد الحياة عنصراً من عناصر بقائها ، وهو الصراع من أجل الأسمى والأعظم .

الديدبان الساهر

سألتنى : هل أفكارها وخيالاتها ملك لها . وهل إذا أثمت فيها تكون قد ارتكبت خطأ ؟

وقد حيرنى هذا السؤال كما لم يحيرنى سؤال آخر . إن الإثم يكون بالعمل ، والخيال ضرب من التمنى أو التمثيل لما يحب الإنسان أن يكون ، فإذا لم يخرج عن نطاق الخيال إلى التنفيذ لم يبلغ مرحلة العمل . والقوانين الوضعية ذاتها لا تعاقب على النية والتفكير . فإذا فكرت أن أحتال على مالك عمارة واستولى عليها ، ثم لم يخرج هذا التفكير إلى أى مجال عملى ، لم أصبح مستحقا للعقاب طبقاً للقانون ، ولا للعتاب الأدبى طبقاً لتقاليد الجماعة . ولو فكرت فى أن أتخاص من خصم بقتله أو ضربه أو إحداث عاهة جسمية فيه ، أو تمنيت لو قتل أو فشل أو أصيب بكارثة ثم لم أتجاوز مرحلة التفكير والتمنى إلى أية مرحلة عملية ، فأنا أيضا غير مستحق لعقاب من القانون أو تحقير من الجماعة ، ما دامت هذه الأفكار حبيسة لم تعلن .

فهل الأمر كذلك فيما يتعلق بمستويات السلوك والأخلاق ؟

يصعب أن يضع الإنسان ، الذى يعترف بالضعف الإنسانى ، قاعدة ثابتة لا سبيل إلى التسامح فيها ، كما أن التسامح نفسه قد يغرى بنقل التفكير والخيال إلى مجال العمل .

ومجرد التفكير والخيال لا أثر له فى الخروج الظاهر على مقتضيات الخلق والسلوك الحسن ، فهو عمل خفى لا يعرفه أحد ولا يحسه أحد . فالسؤال إذن مرجعه رغبة الإنسان بينه وبين نفسه أن يتحرر أيضاً من الخيال الآثم والتفكير الذى يحس أنه مما لا يليق به ، فهو ليس إلا انشدانا للكمال ، ورغبة فى طهارة مطلقة فى الجسد والعقل والخيال .

وفرق بين الشعور والسلوك . الشعور عمل لا إرادى محض . فالحب والبغض كلاهما ينبع من القلب ، والقلب ينبض من غير إرادة ، يهوى ويصد لأسباب لم يدركها أحد حتى الآن . وما أحسب أن فى الاستطاعة إدراكها يوماً من الأيام . وأغلب الظن أنها ستظل سرا محجباً لا سبيل إلى كشفه . . ومن الخير أن تظل ، لأنها تنثر على الحياة أجمل ما فيها وأقوى ما فيها من نوازع ونزعات .

فإذا سلمنا أن الشعور له هذه الخاصية ، أصبحت المطالبة بالقضاء عليه مطالبة غير ممكنة ، فكيف أقتل بإرادتى شيئاً صدر عن غير إرادتى. كل ما أستطيعه هو أن أحصره فى نطاقه ، فلا يتجاوز منطقة الشعور إلى منطقة العمل والتنفيذ . قد يكون من واجبى حتى أتخلص منه ومما يمكن أن يؤدى إليه، أن أبتعد عن كل ما يثيره ، وأن أجبر نفسى بوسائل عديدة على الكف عن الاسترسال فيه .

ولكن هناك ناحية أخرى، لا يستطيع إنسان مدرك للطبيعة الإنسانية أن يتجاهلها ، هى أن هذه المحاولات جميعاً تؤثر فى الأعصاب وتتلفها وقد تجنى عليها جناية لا يمكن إصلاحها . والخيال وسيلة للتخفيف من

حدة الكبت . وقد يجد الفقير المحروم فى خيالات الغنى والثروة والتمتع ما يريحه بعض الشىء ، وقد يجد المحروم من الحب والعطف فى خيالات الحب والعطف ما يخفف عنه حدة ما يلقى من حرمان .

على أن الاسترسال فى الخيالات ضار أيضاً ، لأنه قد يفصل الإنسان عن الواقع وهنا تكون المصيبة التى قد تذهب بتوازن العقل .

وإذا كان الخيال الآثم قضية بين الإنسان وبين نفسه ، فإن السلوك الآثم قضية يدخل فيها طرف ثالث هو المجتمع ومستويات الأخلاق المتعارف عليها والسلوك الذى تراه الجماعة أمثل وأفضل .

وإذا كان الشعور ، وهو مصدر الخيال عملاً لا إراديا ، فإن السلوك عمل تدخل فيه الإرادة حتما . وهو يتشكل فى عقل الإنسان بأسباب وعوامل كثيرة ، منها مقدار احترامه لتقاليد الجماعة وإيمانه بما فيها من حق أو باطل ، ومقدار حرصه على أن يحظى برضائها ويسير طبقاً للدائرة التى وضعتها وحددتها ، والناس فى هذا مختلفون اختلافاً كبيراً . .

وأساليب السلوك والتقاليد ومستويات الأخلاق ذاتها عرضة لتغيير مستمر لأنها ليست قوانين طبيعية ، ولكنها نتاج عوامل عديدة متداخلة ، ترجع إلى التاريخ والحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدين والتعليم والمناخ وطبيعة الكفاح المطلوب للحصول على الرزق ، وترجع أيضاً إلى الوراثة والصفات الغالبة فى شعب من الشعوب أو مجتمع من المجتمعات .

* * *

أترانى وصلت إلى جواب أطمئن إليه فى هذا السؤال ؟ أشعر أنى لم

أصل ، وما أحسبني مستطيعاً أن أفعل . كل ما حدث أن السؤال أثار جملة خواطر سجلتها بما لها وما عليها . وإن الإنسان ليأثم بعينه أحياناً ، ويأثم بسمعه وذوقه وقلبه وخياله وتفكيره . . . فهل في استطاعة أحد أن يقول إنه لم يفعل هذا الإثم ؟

حسبه ، كي يكون إنساناً ، أن يرد نفسه إلى الخير والطهر ، وأن يستيقظ فيه الديدبان الساهر ، كلما أحس أن عينه قد طرفها النوم الرقيق أو شملها النوم العميق .

ما هو هذا الديدبان ؟ قد يكون الضمير أو العقل أو الدين أو المجتمع أو الخوف وقد تكون كلها مجتمعة .

وعلام يسهر ؟ على القلب ، أجمل ما في الإنسان وأتعس ما فيه .

ذنب المرأة

فتاة فى ريعان الشباب . تزوجت وطلقت . بنت الآمال على بيت مستقر وزوج كريم قوى يسعدها بكرم خلقه وقوة حنانه . ولكنه كان طفلا فى عقله وتفكيره . لم تنضج رجولته وإن نضجت سخافاته . بدا لها أن عقليتها أكثر نضجاً وشخصيتها أكثر استقراراً . كتمت حزنها فى صدرها واحتارت فى نفسها هل هى الرجل أو المرأة . . كانت ترجو أن تشعر بالضعف الجميل فى ظل الرجولة القوية فأحست بالأنوثة القوية فى ظل رجولة باهتة . كانت أمينة وظلت على أمانتها لجسدها وقلبها وهنائها الذى دمرته أحلام كاذبة .

قال لها زوجها : إننى أسافر وأتركك .

قالت : بل أرافقك ؟

قال : لا أستطيع : إن عملى يستغرق وقتى . . إبقى أنت هنا .

قالت : إن النظرة الآثمة قد تفسد طهرى .

قال : وماذا لو كانت ؟ هذه أفكار قديمة . اصنعى ما يروق لك . . أنا مسامح .

وقضت ليلتها باكية ، وقالت لأبيها كيف تريدنى أن أبقى ؟ لابد أن أنفصل عن الرجل الذى يقول هذا . إنسان لا يمكن أن أعيش معه .

وطلقت . ومع الطلاق بكت . لا لأنها كانت تحبه . فقد كانت

وهى معه تحجب عينيها بيديها حتى لا تراه . ولكنها بكت لأن أملاً داعب خيالها يوماً وهى عذراء قد تحطم . . وعليها الآن أن تجابه العالم لتبدأ الحياة من جديد . . الحياة التى اضطربت موازينها فى عقلها وقلبها وخيالها .

ومرضت . وفى المستشفى عرفت شاباً تحبب إليها . والتقت به مرة ومرة فى محال عامة ، قال : إن المحال العامة ليست مكاناً مناسباً للقاء ، تعالى إلى بيتى قالت : كلا . . . إذا أردت أن تكون علاقتى معك شريفة ، فاذهب إلى أهلى واخطبنى .

قال : ولكن ظروفى تحول دون ذلك ، مرتبى صغير .

قالت : أنا راضية به . .

ثم جاءها ذات يوم واقترح عليها أن يتزوجها سراً . قالت له : إذا كنت قد لجأت إلى هذا لأننى رفضت أن أطاوعك . فاعلم أنى أرفض الزواج على هذه الصورة . ما معناها ؟ هل نحن نأتى عملاً غير مشروع ؟

وقالت الفتاة لى وهى تختم حديثها وفى عينها بريق دموع محبوسة : وهكذا نعيش . ألسنا مظلومات ؟

وانصرفت . وتأملت كلمتها وقصتها . هل هى كلمتها وقصتها وحدها ، أم كلمة وقصة تتردد وتتكرر كل يوم . إذا أثمت الفتاة فهى التى تتحمل الإثم . إذا فشل الزواج فهى التى تتحمل الفشل . إذا أرادت أن يكون لمشاعرها وإحساسها وحبها وقلبها وزن ، قالوا : فاجرة خرجت على التقاليد. وإذا حبست نفسها فى بيتها وشربت كأسها وحدها ، ضاق بها من حولها ..

ضاق زوجها وأهلها وجيرانها وأصدقاؤها ، وإذا كشفت نفسها قالوا : متمردة .

الرجل يأثم ويذنب ويعربد ويهمل بيته وأولاده وزوجه ثم لا يجد عقاباً ولا رادعاً . يتزوج ويطلق . ويعيش وحده أو مع الناس . يسهر أو لا يسهر . يحب أو يكره . يطالب بحقه فى المتاع الجسدى والعقلى والروحى ، وإذا فكرت الفتاة فى أنها إنسان لها مثل هذه الحقوق ، طاردها المجتمع ، وطاردها الناس . وانصرفت عنها الصاحبات والصديقات وكل منهن فى قرارة نفسها مثلها ، تشكو شكواها ولا تستطيع إلا النجوى مع آهاتها وأحزانها .

هل هذه هى المساواة التى يقال إن المرأة حصلت عليها . ساووا بينها وبين الرجل فى القلب والشعور والإحساس وحق الحياة والمتاع ، واجعلوا منها بعد ذلك أمة فى السياسة والوظائف ، أمنعوها من كل شىء وامنحوها هذه الحقوق .. أما إذا أعطيتموها كل شىء ، وحرمتموها من هذه الحقوق فستظل أمة حبيسة بين أحزانها المكتومة وقلبها الذى لا يستطيع الإفضاء ، وجسدها الذى يستعبده الرجل .

عبء المال

شهدت فيلم « الباحثة عن الحب » . . امرأة ورثت الملايين وأذلت الرجال باسم المال . ولكنها كانت تبحث عن رجل يذلها ، كانت تحس بعطش فى قلبها ، لم تستطع الملايين أن ترويه . . وما هى الملايين !؟ لتذهب إلى البحر. إن كل إنسان حولها، ربما كان يجاملها من أجلها ، ربما كان يسكب عواطفه بين يديها وبريق المال يخطف بصره ، فلا تعرف هل يمجدها ويعبدها أم يمجد الملايين ويعبدها .

واستبد بها الوهم . أصبح المال عبئاً ثقيلاً ، هو الذى يتمناه الكثيرون وهم لا يعرفون . كانت تريد رجلاً يأمرها ويطويها بين ذراعيه فتنسى أنها صاحبة الملايين ولا تذكر إلا أنها امرأة بين يدى رجل ، يحبها لنفسها وروحها ، وليس لما تحمل فوق ظهرها من أسلاك الذهب .

وكانت مترددة .. أى رجل تختار لكى يكون شريك حياتها . وقال لها الطبيب النفسانى : إنك تحبين رجلاً معيناً . اذهبى إليه وإذا طلب منك الزواج فوافقى بسرعة ، لا ترددى .

وقبلت النصيحة ، وقررت فى نفسها أن تقبل دون تردد .

وفى الوقت نفسه كان الرجل يستشير طبيبة نفسانية فقالت له: لا تكن عنيفاً مع صديقتك ، لا تتبع معها طريقتك فى الأمر والإملاء .

وقبل الرجل النصيحة وقرر فى نفسه أن يكون رقيقاً ويكف عن طريقة

إصدار الأوامر . والتقى الحبيبان . المرأة كانت تنتظر الأمر لتطيع . والرجل كان قد قرر ألا يأمر .

واشتركت فى حفلة راقصة ولف أحد الراقصين ذراعيه حولها . وسألته من أين أنت ؟ قال من البرازيل . قالت : وهل تعاملون المرأة هناك هكذا ؟ قال : نعم ! إن هواء البرازيل يجعل الرجل يخطف المرأة ، إذا أراد شيئاً أقدم عليه دون تردد .

وحزمت حقائبها وأخذت أول طائرة إلى البرازيل ، وتبعها صديقها الجديد .

وحينما استنشقت هواء أمريكا اللاتينية أحست أنها تتجدد ، وأن قلبها يتفتح . ودعاها رجلها إلى غرفته وقال ستتناول الغداء سوياً وفى غرفتى دون أن يكون معنا أحد .

وفرحت ، وقالت : إن هواء البرازيل بدأ يفعل فعله . سأقبل الزواج منه دون تردد

وذهبت إليه كأنها تطير ، جناحاها حب ورغبة وهواء البرازيل .

وألفت رجلها راقداً فى فراشه ، رجله مكسورة . واعتذر لها من اضطراره إلى دعوتها فى غرفته الخاصة .

وأصيبت المرأة بخيبة أمل . وخرجت صارخة تسأل هواء البرازيل سحره . وانطلقت تحدث كل إنسان ، وتبتسم لكل شيء . . ورأت سباق الخيل وأخذت تسير بعد السباق فى اسطبل الخيل تغنى وتنظر وتتسكع . وما هى إلا لحظة حتى أمسكت بها ذراعان ، وطواها رجل فى ركن من

الإسطبل . ولفها بين أحضانه . ودون كلمة وضع شفتيه على شفتيها فى قبلة مغتصبة، ولكن فيها سحر المفاجأة وصدق العزم وقوة الاستيلاء . وألفت نفسها فى سحر لم تعهده وآمنت بالبرازيل وهوائها .

وتركته وهى شبه منومة . لا تردد هنا . . . يا للبرازيل العجيبة . هكذا يحبون ويقبلون ويفهمون المرأة . . . يا لخيبة رجلى الرقيق الأنيق الذى يأبى إلا أن يترك لى وقتاً للتفكير ؟

وأحبت ريكاردو البرازيلى . وعرضت عليه الزواج فقبل . وسألته : هل إذا كنت غنية تكرهنى ؛ فقال: لما ولماذا ؟

قالت : ألا تهرب منى ؟ قال : كلا بل أحبك أكثر . . قالت : إذن أنت تحب المال .

وهربت إلى رجلها الأول وقالت : إننى أخطأت ، معك حق . إن المال عبء؛ قال: أنت لى . إن عندك ٣٧ مليون دولار ،وأنا عندى ٤٨ مليون دولار . . تصورى ماذا يكون حينما أضم ملايينى إلى ملايينك لا بد أن نسيطر على الأسواق كلها ... تصورى هذا الاندماج .

وفرت منه . قالت : من أجل ذلك تريد أن تتزوجنى .

وانفردت بنفسها ودعت سكرتيرتها وقالت : أعدى كل شىء . إننى مقدمة على قرار خطير . سأهب أملاكى وأموالى كلها إلى أى إنسان، سأتنازل عنها للشيطان . . . إنها سبب شقائى ، إنها تحرمنى من الحب .

وذهبت إلى حفلة عرسها من البرازيلى وقالت له: لدى قرار سيسعدك، قال : وما هو ؟

وأسرت إليه بقرارها؛ فقال لها : إن الموقف تغير . لقد أحببتك ولا أعرف أنك صاحبة ملايين ، ثم عرفت ، والآن تتنازلين عن ملايينك . اتركي لي فرصة للتفكير .

وعادت إلى سكرتيرتها تقول لها : اجعلي التنازل لريكاردو البرازيلي .

وبين أحضانه قالت له : لقد ألقيت عن كاهلي عبء المال، وجعلته على كتفيك . إنما أريد الحب لا المال .

* * *

هل صحيح أن المرأة تريد الحب ولا تريد المال ، أم أنها إذا كان المال لديها طلبت الحب ، وإذا أضحى الحب بين يديها طلبت المال !

الحياة أمل

تلقيت هذه الرسالة وهى من فتاة لم تتزوج ، بلغت الثالثة والأربعين من عمرها ، مفرغة فى عبارة جميلة معبرة ، بدأتها بهذه العبارات « قل بربك أين الطريق إلى الله ، بل كيف أصل إليه ، كيف أدعوه حتى يستجيب لرجاء طال فأمتد إلى عشرين عاماً مضت ، فأنا لم أكف لحظة عن خطابه ... انظر إليه فى سمائه وتتمتم شفتاى بما لم يسمعه سواه أبداً . أتطلع إليه وأسمع قلبى وهو يتوسل إليه ، وتعلو ضراعاته حتى يخيل إلى بعد فترة طالت أو قصرت إنه لم يعد يقوى على الاحتمال لفرط ما أتوسل » .

ثم تقول « وهكذا تمر بى الأيام راضية هانئة أنام على أمل وأصحو على رجاء ولكن لحظات شقائى تأتى حين أحس بشىء من الشك يتسرب إلى نفسى فيزعزع يقينى ويوهن صبرى ، وأعود فأتساءل وأنا أكاد أضيق لكثرة ما يتوارد على خاطرى من أسئلة كلها فى حاجة إلى ما يشفى غليلها ويلقى عليها بلسم الراحة والطمأنينة .. أحقاً يا رب أنت راض عنى ؟ هل يصل إليك نداء هذا القلب الذى يقف ببابك منذ خلقته . . إذن يا ربى لم لم تستجب له وتحقق له ما يرى فيه حياته وبقاءه ؟ وأظل أسأل وأسأل ويدفعنى إلى هذا طمعى فى كرمه واطمئنانى إلى عدله ، ولكننى لا أكاد أصل إلى نهاية الطريق ، حتى أحس بنفسى تذوب بين جوانبى ضعفاً وأشعر بقلبى ينوء تحت ثقل ذنوبه . أسمع صوته خافتاً لا أكاد أتبينه وهو

يبكى ويئن . . كيف جرؤت ؟ كيف تطاولت ؟ ثم يعود إلى صوابه ، فلا يرى إلا طريق التوبة يكفر بها عما داخله من شك وزيغ » .

وبعد هذه المقدمة تدخل فى الموضوع فتقول « ولأبدأ أولاً برأيى فى الحب بين الرجل والمرأة ، فأنا أراه قدراً ليس للإنسان يد فيه فهل توافقنى على هذا ؟

« ثم إنى أومن بأن الزواج قدر أيضاً يهبه الله لمن يشاء ويمنعه عمن يشاء ، لا يشترط فيمن ينال هذا الفضل أو يحرم منه مواصفات معينة وإنما هو الله الذى يعرف سر العطاء وسر الحرمان ، فهل ترى هذا صحيحاً ؟

« والزواج فى تقديرى نوع من الحب والعطف والتعاون والإيثار ، فإذا لم نجعل من هذا كله أساساً له ، أصبح فى نظرى باطلاً كتب عليه أن يولد ميتاً ، فهل ترى هذا الرأى مجانباً للصواب ؟

« وأنا أرى فى الاستقامة والتعفف طريق حياة وضحت معالمها وأضاءت جوانبها — ولو أنه طريق طويل شاق — إلا أنه ينتهى بنا إلى حياة أفضل ، فهل تؤيدنى فى ذلك . ؟

« لكننى أختلف فى هذا كله مع من حولى من أهل وصديقات .. أرى ما لا يرون وأدين بما لا يؤمنون به ، وأنا موضع لومهم على سوء تقديرى للحياة ، ولأننى بجمودى وقلة فهمى للأمور قد أضعت عمرى سدى وفوت على قلبى الشباب والحب .

« جاوزت الأربعين — كما قلت — دون أن أحب ودون أن أتزوج ، أشغل وظيفة محترمة ، وأنا مثقفة ثقافة عالية ، أحب عملى وأتفانى فيه ،

وأنا مع ذلك لا أفتقر – كما يقولون – إلى مواصفات الحب والزواج وهى حسن الخلق والعلم والمال وشىء من الجمال ، ولهذا فأنا متهمة فى نظرهم بأننى أرفض النعمة بعد النعمة ويقصدون بالنعمة الزوج الرجل ، أى رجل وأى زوج . . . ألا يكفى أنه رجل تعيشين فى ظله . . . فإذا قلت إن الحب أساس الزواج ، قالوا إنه يأتى مع الأيام ، وإذا قلت إن الزواج لا بد أن يخلو من الأنانية والطمع ، قالوا ألا تطمعين أنت أيضاً أن يكون رجلك موسراً ؟

« وهم يرون أن على الفتاة أن تسعى أحياناً إلى خاطبة ولم لا ؟ أو تلجأ إلى المجتمعات تعرض عليها بضاعتها لعلها تجد الشارى . . أليست الحياة فرصاً تغتنم ؟ ولكننى أرى فى الخاطبة كارثة ، وأرى فى الاختلاط العادى الرزين الذى يسوده الوعى والتفكير السليم شيئاً ترضى عنه النفس ويقبله العقل ،وهم يقولون أنت لا تريدين الاختلاط بالناس حتى تتاح الفرصة لمن يعجب بك أن تذهبا معاً هنا أو هناك لتهيئة جو من التفاهم والود فهل سيسقط عليك الزوج من السماء ؟ وأنا لا أسمح لنفسى أن أمتهنها فمن يريد شريكة تحفظه فى ماله وفى عرضه فعليه أن يلقاها فى وضح النهار . . »

ثم تذكر عينة من « النعمة » التى رفضتها . . والنعمة هنا تعنى من رغبوا فى الزواج منها ، « مثلاً شاب يصغرنى بثمانى سنوات وآخر يكبرنى بما يزيد على عشر تزوج مرتين وأنجب عدداً من الأولاد منهم من تزوج وأنجب ، وثالث أقل منى فى المستوى الأدبى والمادى ، ورابع لا هم له إلا السؤال عن درجتى ومرتبى وموعد العلاوة القادمة . » ثم يتساءلون بعد هذا ،

أليس الزواج من أى من هؤلاء أفضل من حياة بغير زواج ؟

« فإذا كنت لم ألتق بعد بمن أحس أن فى استطاعته أن يملأ حياتى وتطمئن إليه نفسى فأبذلها فى سبيل راحته وسعادته فهل هذا ذنبى ؟

« وإذا كان قلبى لم يخفق بعد بحب رجل فهل هذه جريمتى ؟ وإذا كنت لم أتزوج حتى الآن فهل هذه مأساة تجعلنى أندب حظى وأبكى على شبابى الراحل بقية عمرى ، وهل هى كارثة تستحق ممن حولى الرثاء والعطف . . وأخيراً هل علىّ أن أفقد الأمل الذى عشت له عمرى كله ، مع إيمانى بأن الحياة نفسها أمل ما دمنا نتمتع بها » .

* * *

أما أن الزواج والحب قدر لا بد لنا فيه ، فالمسألة فرع من أصل كبير ، فإذا سلمنا بهذا كان علينا أن نسلم بأن كل شىء فى الدنيا قدر لا يد لنا فيه ، والصحيح أن الزواج والحب وسائر ما فى الدنيا لا بد أن تتداخل فيه إرادتنا بصورة من الصور ، وإلا كنا أدوات لا نسأل عن شىء ولا فضل لنا فى شىء . . ولست أنكر فى ذلك حكم القدر والظروف ولكننى لا أحب أن يتخذ الإنسان هذا الموقف السلبى من الحياة ، فعليه أن يسعى جهد ما يملى عليه تفكيره وتعليمه ومثله والمبادئ التى يدين بها . . ترى هل التلميذ الذى يريد النجاح فى الامتحان، ألا يتذرع لذلك بالسهر والاجتهاد . . ؟ والسعى للحصول على زوج لا عيب فيه بالنسبة للمرأة ، كما أن السعى للحصول على زوجة لا عيب فيها بالنسبة للرجل ، والعيب يجىء فى الوسائل والأساليب وليس فى الهدف . . ولا أنكر

أن الأمر فى هذه المسألة بالنسبة للمرأة أدق وأشق ، وظروف المجتمع هى المسئولة عن هذا ؛ وهو حديث طويل وليس هذا موضعه على كل حال ، أى على كل فتاة تنشد زوجاً أن تتصرف فى حدود الظروف الاجتماعية القائمة . والمجال بالنسبة لها الآن خير ألف مرة مما كان بالنسبة للفتاة فى الأجيال الماضية .

والحب أيضاً قدر من ناحية ، وإرادة من ناحية أخرى . . هو قدر من حيث وقوعه وإرادة من حيث السعى إليه ، فالفتاة أو الشاب لابد لكل منهما من توسيع نطاق نشاطه الاجتماعى ، فحيث يكون النطاق واسعاً ، يكون احتمال العثور على الشخص الذى يخفق له القلب أقرب وأيسر .

أما الخاطبة فلا أوافق عليها ، وكذلك الزواج من غير اقتناع . وهو دون أساس من التعاون والود والإيثار ، خير منه عدم الزواج ، فالإنسان ينشد السعادة والهناء ، وإذا كان شقياً وحده فمن قصر النظر أن يشقى آخر معه .

وأحب أن أقول لك يا سيدتى أن الالتزام بموقفك الكريم خير من الاندفاع فيما تريد صواحبك وأهلك أن تندفعي إليه.والزواج بالنسبة لك، وأنت المثقفة المتعلمة الواعية ، إن لم يكن عن أختيار حر ورضاء كريم ، ينتهى إلى مأساة .

بقى أن الزواج ليس شرطاً ضرورياً للسعادة ، فللسعادة مسالك عديدة ، وهى تنبع من نفس الإنسان ، وهنالك آلاف من النساء لم

يتزوجن ، ومع ذلك شعرن بسعادة لا حد لها ، حينما انصرفن إلى خدمة الغير وإسعاده . إن العطاء هو السعادة والذى يعطى من المحتم أن يأخذ ، وهو لا يأخذ من نوع عطائه حتما ، ولكن عطاءه يرتد إليه راحة وطمأنينة

وإنى لأحس أن هذا كلام لا قيمة له إلا عند من يستطيع أن يروض نفسه على العطاء وليس كل الناس على هذا النهج . . إنهم الأقاون الذين يدركون المعنى العميق للسعادة . وتستطيعين يا سيدتى أن تسألى المتزوجات أو أن تتحرى حالتهن وسيدهشك أن الكثرة الغالبة فيهن ، إن لم يكن كلهن ، لا يشعرن بالسعادة الحقيقية . . إن المظاهر تخدع والسعادة شيء أصيل وجوهر دقيق جداً لا دخل له بالمظاهر .

ثم إن الأمل لا ينبغى أن يتلاشى من قلبك أبداً . . إن فرصتك باقية ومستمرة وأكاد أثق إنك ستجدين الرجل المناسب الذى يعوضك عما فات ، وفى طبيعة الحياة التعويض ، والسعادة لا تقاس بالطول ولكن بالعرض ... وقد توقفت عند كلمة عميقة وردت فى رسالتك وهى قولك « إن الحياة ذاتها أمل ما دمنا نتمتع بها » ، فلا تأسى على ما فاتك ، فأنت لا تعرفين ما يأتى به الغد ، ولك أطيب تمنياتى بالتوفيق والهناء .

تعاسة الانتصار

مدت ذراعيها وتمطت وهى فى فراشها . . الصباح جميل مشرق ، والحياة مملوءة بالبهجة والصفاء ، ولم تنهض . . شعرت أنها فى حاجة إلى مزيد من الاسترخاء ، وطرأ على خاطرها سؤال غريب : هل يمكن أن ينقسم قلبها هذا الانقسام المر الأليم ، فى أحيان تكون قاسية قسوة من غير حدود ، وأحياناً تمتلئ حناناً حتى ليسع حنانها الناس أجمعين . أحياناً تقتل قلبها حتى لتصبح امرأة من غير قلب ومن غير حب ، وأحياناً تندفع فى الحب حتى ليبدو كأنه الحياة .

وما هو الحب ؟ سألت نفسها هذا السؤال واستطردت : هل يمكن أن يوجد ويذهب ، أم أنه ، إذا وجد لن يذهب ، وراجعت حياتها . . أحبت مرة ومرتين وثلاثا . . هل كان حباً ؟ وترددت فى الجواب ، تلهفت فى كل مرة حتى لكأنها كانت تموت لو نزع هذا الحب منها . . ثم فجأة نزعته هى برضائها ، وشعرت بالطمأنينة أن تخلصت منه . . هل هى قاسية ، يرضيها أن تكسر القلوب وتحطم الهناء ؟ . .

ونظرت فى وجهها فى المرآة . . نهضت ووقفت ، واسترخت حيث هى واقفة واهتز كيانها كله ، وازدهت حينما لمحت أن جمالها يكتمل ولا ينقص . . أهداب عينيها تزداد سحراً ، انثناء خطوها إذا خطت فيه لمحات من غزال . . وتبسمت راضية عن نفسها ، ثم غام على وجهها ظل كئيب ،

لماذا إذن لا تحس بالسعادة ؟ أنها لا تجدها فى الحب إذا أحبت ، ولا تجدها فى فراغ القلب إذا أضحت ذات قلب فارغ . . إنها لا تشكو من خيانة الرجال ، ولكنها تشكو من خيانتها هى للرجال . .

وكثيراً ما استمعت إلى صاحباتها وقد كسر الرجال قلوبهن ، فتبتسم لأنها وحدها المنتصرة على الرجال ولكنها اليوم ، فى هذا الصباح المشرق الجميل ، تشعر بتعاسة هذا الانتصار . . تمنت لو أحست ذات مرة بتعاسة الهزيمة مع رجل . . هل هذه التعاسة هى السعادة ؟

وضحكت ساخرة ، هل يمكن أن تكون التعاسة هى السعادة ؟ ثم زمت شفتيها واكتسى وجهها نوعاً من الجد الصارم وقالت تحدث نفسها : ولكن أليست التعاسة هى البديل للسعادة . وهؤلاء الصاحبات لم يشعرن بالتعاسة لضياع الحب إلا لأن الحب كان يمنحهن السعادة الكاملة . .

وهى لا تذكر أنها أحست مرة بمثل هذه التعاسة . . لا بد إذن أنها لم تشعر بالسعادة الكاملة . . هل الحب عندها تلهية؟ هل هو دمية جميلة يستهويها أن تحصل عليها ، فإذا فعلت حطمتها ، لأن هناءها ليس فى الدمية ذاتها ، ولكن فى الحصول عليها ؟ ..

ولكن لماذا إذا شعرت بالحب فنيت فيه فترة ثم نبذته راضية ؟ هل هى تمثل دور الحب أم أنها تحب فعلاً ؟ واحتارت بماذا تجيب ؟

وسكتت لحظة استعادت فيها الرجل الأخير الذى حطمت قلبه ، ثم لم تمسها فى أمره لمحة من إشفاق . . إنها امرأة عجيبة معقدة . . « نعم لا بد إننى معقدة . . ما ذنبه ؟ أراد أن يتزوجنى فرفضت . . عرض علىّ كل

ما أريد فهربت .. هل ضعف الرجال أمامى هو الذى يغرينى بالطغيان؟..»

وعند هذا الحد توقفت وتأملت ثم قالت : «الطغيان أسوأ شىء للمرأة» . . إنها لا تحب أن تمارسه ، وإن تاقت إليه . . إنها تريد الرجل الذى يطغى عليها ، وليس الذى تطغى عليه ..تريد الرجل الذى يشعرها بضعفها وخوفها وقلقها .. «إننى امرأة تعسة . ربما كان جمالى هو اللعنة التى حلت بى . . جمالى الصارخ . . كم كرهتهما ، هذا الجمال وهذه الشخصية . تمنيت لو كنت امرأة عادية تنتظر رجلها مشفقة خائفة أن يتحول عنها ، ترتعد إذا لم يمنحها كلمة الحب وتسأل نفسها هل أحب غيرها فتشعر بالتعاسة . . ثم تنتشلها من تعاستها كلمة حب كانت تنتظرها . . أما أنا فما أشقانى . . كلمات الحب والإعجاب تحت قدمى ووراء أذنى أينما سرت وإينما كنت» .

واستدارت وهى واقفة أمام المرآة ، وراعها جمالها ، ولكنها شعرت بحزن كظيم أليم . . وابتعدت عن المرآة ، وأحست أنها تكرهها . . هل هذا الجمال هو الذى أغراها بالطغيان ؟ وماذ تصنع ؟ تمنت أن تتألم وترجو وتستعطف وتشعر بالحسرة والألم والخوف أمام رجل، ولكنها لم تحس بشىء من هذا أبداً .

إنها مدللة ، يدللها جمالها وثروتها ، وعلمها وذكاؤها . . هذه اللعنات التى نزلت على رأسها . . ما أكثر ما تقسو تعاسة الفيض من النعم ، كما تقسو تعاسة الحرمان ؟

واستعبرت باكية . انهمرت دموعها ، وأحست أنها فى ضياع . .

لا شيء تريده ولا تجده . . ليس فى حياتها كفاح ولا خوف ولا هناء . . إن الحياة بالنسبة لها لعبة سهلة ، لعبة لا طعم لها لكثرة ما استذلت أمامها وتدحرجت تحت أقدامها . .

إن التعاسة بديل السعادة ، وهى لم تشعر بالتعاسة ، ولذلك لم تشعر بالسعادة ، إنها لم تنهزم وهذه هى مأساتها . . إنها امرأة فى حاجة إلى الهزيمة فى حاجة إلى أن تستسلم لرجل يكون إلهاً وسيداً . . لا تريد أن تقف وحدها ، حتى ولو استطاعت ، تريد أن تستند بذراعها على كتف رجل تريد أن تشعر بأنها فى حاجة إلى هذا السند . . إن هذه الحاجة هى حياتها كامرأة . . كلا ، إنها ليست امرأة ولا تستطيع أن تكون رجلاً .

وانهمرت دموعها ، بينما كانت نسائم رقيقة تهز ستائر النافذة الموشاة بالذهب .

النفور من الرجال

يندر أن تتبلور الأحاديث فى سهراتنا كما كان شأنها فى هذه الليلة وربما كان التحمس للموضوع ، لأنه يمس المرأة والرجل هو الذى أضفى عليه ما أضفى من تركيز وتشويق .

قال صاحبنا ، وهو رجل مجرب ، صلب القلب والعقل : أتصدقون أن هناك امرأة تستغنى عن الحب . . ؟

وانقسمنا إزاء هذا السؤال المفاجئ فريقين قال واحد منا اشتهر بتحمسه واندفاعه : هذا مستحيل . .

وقال ثان ، عرفنا عنه التؤدة والعمق والتحليل : ولماذا المرأة وحدها . . لماذا لا تعمم تساؤلك فتقول المرأة والرجل . ثم ماذا تعنى بالحب . أتعنى به العاطفة والجنس أم العاطفة وحدها . . أم الجنس وحده ؟. .

واعترف صاحب السؤال بأنه لم يتعمق الموضوع على هذه الصورة ، ولكنها حالة سمع بها واستوثق منها ، أحب أن يرويها ، ويدع لنا استخلاص ما تشاء منها .

وأنصتنا إليه ، وبدأ يروى قصته . قال :

– نشأت الفتاة فى كفالة والدين يعزانها ويحبانها حباً جماً . ولم تكن وحدها ، فقد كان لها أخوة وأخوات . ولكنها كانت أدناهم إلى قلب والديها ، ربما لأنها كانت رقيقة عذبة القلب والفؤاد ، وربما لأنها كانت

بارعة الجمال . وعاشت مدللة ، شديدة الحساسية تعشق الموسيقى والغناء تقضى أكثر وقتها فى الحديقة المنوعة الأزهار المحيطة ببيتها ، تشدو بأحلام غامضة ، وتناجى أخيلة تطوف بكل فتاة فى هذه السن .

وخطبها شاب ، فرجف كيانها بشعور لم تعهده . وكانت أسرتها محافظة. خطبت وتزوجت على الطريقة القديمة، ولكنها أحست بجسدها وقلبها وصدرها وكل جارحة من جوارحها تهتز . . ولم تكن تعرف شيئاً عن علاقة الرجل بالمرأة . لم تكن تدرك منها إلا ما تدركه الغريزة الغضة الخارقة من غير تجربة ولا علم ولا تلقين .

وجاءت تجربتها القاسية ليلة الزفاف .

كانت تغرد قبلها كالعصفور وهو ذاهب إلى العش ، وتحلم كالمهاجر المجهد وهو عائد إلى أرض الوطن، وتشدو كالمحارب الذى أضنته الغربة وأثخنته جراح الحرب والسنين ، يجرى إلى الأهل والأحباب والصحاب . .

واستقرت فى الغرفة البهيجة التى ملأتها بالأحلام . وسكتت الأغاريد والأهازيج . وانتصف الليل أو كاد يميل ، واختلت بالشاب الذى جعلت إليه ومنه الأحلام . توقعت أن تسمع حديثاً رقيقاً تنتشى منه . . أرهفت كل حاسة فى جسدها وعقلها وفؤادها وقلبها لكى تمتلئ من رحيق الحب . . خيل إليها أن حديثه سيكون شدواً ، وتعبيره همساً ، ونظراته سحراً .

وجلس إلى جوارها ، فأخذ يعبث بجسدها . . أمتعضت . . كانت

تتوقع أن يقول لها ما كانت تهوى أن تسمع . . فإذا به حيوان ، لا تحركه إلا رغبة الحيوان . . . .

حاولت هى أن تتحدث عن الحب وهى العذراء الخجول ، فقال لها وكأنه ينهرها :

– كلام فارغ . . ليس فى الدنيا شىء اسمه الحب . بل امرأة ورجل. جسد وجسد . .

أحسست بمهانة واشمئزاز ، واندمج فى كيانها تيار قاس مر . . أهذا هو الشدو والتنغيم والسحر ؟ أهذا هو الحب ؟ أهذه هى الحياة ؟ أهذا هو الزواج . . . ؟

وانفصلت من يومها عن حياة الجنس . أضحت جسداً لا نبض فيه . سكتت ،وماذا تستطيع أن تفعل ؟ ومرت الأيام والليالى والشهور وهى تبكى فى أسى وحسرة ... تسكب دموعاً غزيرة فى صمت ليس أشد مرارة منه ما من أحد تفضى إليه بأساها . ما من صديقة ، ما من أب ، ما من أم يفهم أو ينصت . وماذا تقول ؟ لقد حاولت أن تفعل ، فإذا بصديقتها التى أفضت إليها تضحك منها وتقول : أنت ساذجة . . . ستتغيرين . .

ومرت السنوات ، وهى تمارس حياة زوجية لا روح ولا جسد ولا حب ولا إشراق فيها ، انتهت كامرأة .

وقد حاولت أن تفتح قلبها لأى رجل . عالجت أن تحل هذه العقدة التى أفسدت أحلامها . مات زوجها . وتقدم إليها خطاب عديدون ولكنها نفرت منهم . كان مجرد الحديث عن الزواج يزعجها .

واستطرد صديقنا يروى قصته ، قال : لقد كنت أحد هؤلاء الخطاب واستطعت أن أخلو بها وأسألها سر نفورها ، فسكتت ، ولكن أساها بدا على ملامحها ، وهى قريبتى ، ابنة عمّى ، وكنت أحب أن أكون منذ البداية عريسها لولا ظروف حالت دون ذلك .

وبعد جهد روت لى قصتها ، وما إن انتهت منها حتى سقطت دموعها على وجنتيها وقالت : إننى امرأة أعيش بلا حب ولا أمل ، لا قلبى ولا عقلى ولا جسدى أنتفع منه بشىء .

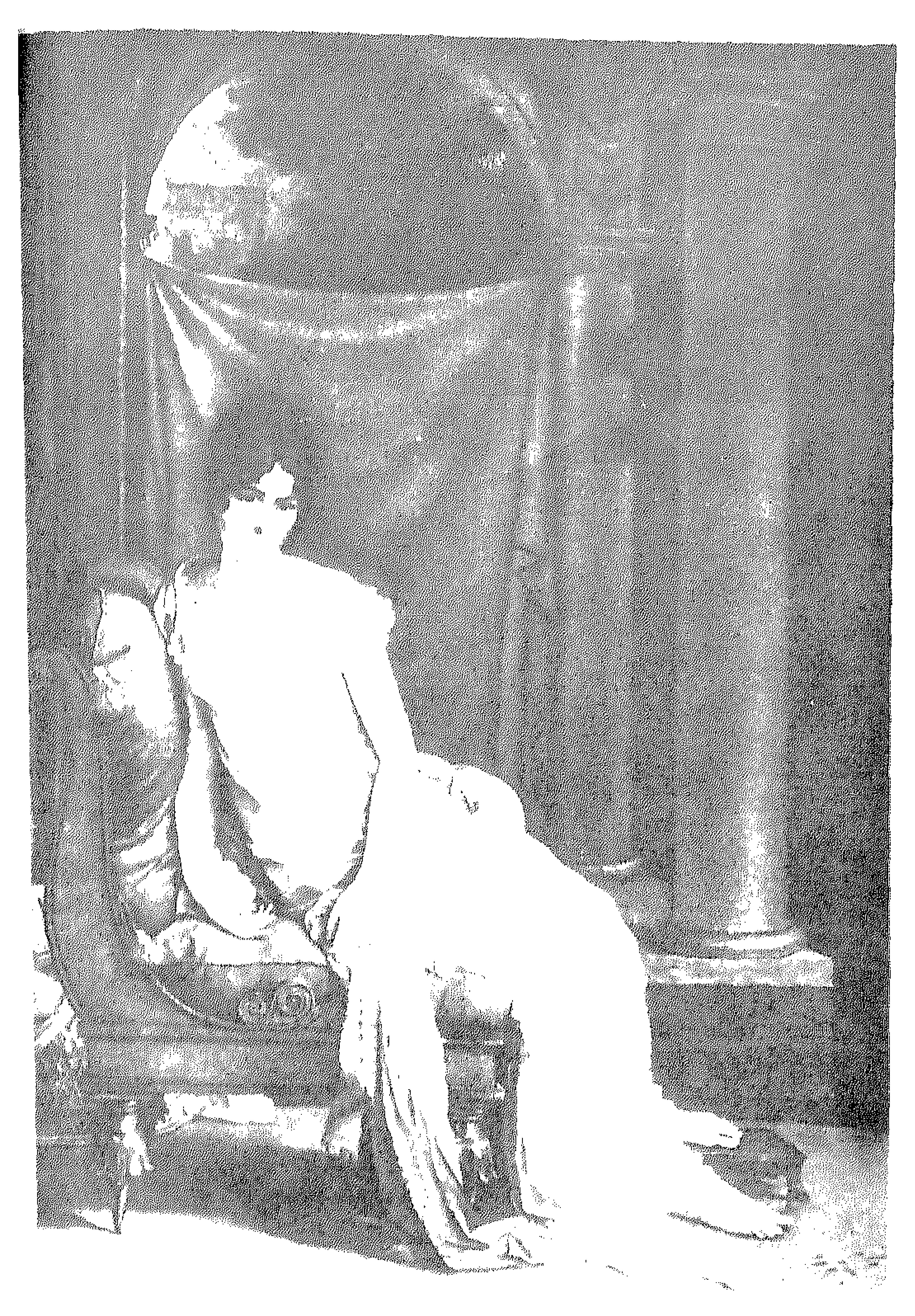
وسكت صديقنا ، واستولى علينا وجوم شديد ، قطعه أحدنا ، هذا المتعمق المتئد . قال : ولكن هذا ليس استغناء عن الحب . إنه عقدة حدثت لها ليلة زفافها جعلتها تنفر من الرجال .

وسأل أحدنا : أليس لها من حل ؟

أجاب : رجل آخر قوى يستطيع أن يعيد ثقتها بالحياة . يعرف كيف يقترب منها ويدخل إلى فؤادها ويهز عواطفها ، ويطرد منهاهذا البرود نحو الرجال ، وحينئذ ترتد إليها أنوثتها أقوى مما فقدتها . ترتد جارفة تنتقم من سخف الرجال .



الجيوكوندا — للفنان دافينشي — متحف اللوفر



مدام ركاميه للفنان جيرار — متحف اللوفر

حارس الشباب

احتارت أى قلب تحمل . وسألت نفسها وقد اقتربت من نصف العمر هل أحبت يوماً من الأيام ؟ عرفت الكثير من الرجال كان لكل سحره وسره ونجواه، ولكنها لم تشعر أن واحداً ملأ فؤادها كما كانت تحب أن يمتلىء . لم تشعر أن الدنيا اجتمعت لديها فى هوى رجل . وقالت أنها شاذة ، حائرة مترددة تتلظى فى نار من الرغبة والخوف وسعير من الإحساس . إن الأيام تمر دون أن تلتقى بالرجل الذى ينسيها كل رجل ، بهذا الكائن الذى يطويها فى صدره فتفنى فيه ، ولا تذكر من كل ما تضطرب به الحياة شيئاً . تمنت لو نسيت معه أن الأيام تمر ، وأن العمر يتقدم وأن سحر أنوثتها يذوى ، لأن سحر رجولته سيرد عليها كل ما ذهب ، ويمنحها الإحساس بأنها امرأة لا مثيل لها . امرأة لا تشيخ ، ولا تأخذ السنوات منها إلا ما تأخذ العواصف من قطرات البحر ترجها وترجها حتى إذا هدأت عادت كما كانت .

تولاها هذا التحدى العجيب للزمن الذى يتولى كل امرأة بلغت قمة أنوثتها وتهيأت للانحدار . . أرادت أن يكون الوميض الأخير هو الوميض الخالد . وأحست بفراغ قاتل فى قلبها ، كأن كل من مر عليها من الرجال ذهب ولم يترك أثراً . أحست كما لو كانت عذراء تريد أن تعب من بحر الحب لأول مرة .

واستنشقت فى كل نسمة عبير هذا الهوى الذى تنتظره . وذهبت

كالمجنونة مفتوحة الذراعين والقلب والعين والبسمات كلطائر المحلق يريد أن يقع على فريسة دسمة تغنيه طول العمر عن التحليق والسعى .

أكانت تريد الزواج أم الحب أم تريد هما معاً ؟ لم تعرف على التحديد كانت تريد الحياة . الشباب والأنوثة من غير أن يعدو عليهما الزمن . ولم تكن قد تزوجت على كثرة ما واتتها الفرص للزواج . كانت تكره القيود وترى أن الحياة التى يقيدها الموت لا ينبغى أن نضع عليها مزيداً من القيود . كانت تؤثر الانطلاق ، تحيا بقلبها وكيانها وذاتها لنفسها ، ولنفسها وحدها. ولم تكن للأمومة حساب عندها ، أو هكذا شعرت .

كانت تقول : الأولاد يأخذون من شبابى وجسمى وصحتى وعافيتى . وقد منحنى الله هذا كله . منحه لى أنا ، فلماذا أعطيه غيرى وبيدى . سأترهل إذا تزوجت وارضعت وربيت وحملت الهموم . لأبق إذن على شاطئ السعادة . إن السعادة والهناء هما فى نفسى وجسمى وشبابى وكيانى وقلبى ، أستطيع أن أحيا فيهما كما أشاء .

وكانت مشكلتها الوحيدة أن الشباب قد يتسرب ، بل إنها انزعجت إذ أحست دبيب هذا التسرب . وقالت إن الحب الغامر الطاغى ، الذى ينسينى حتى مرور الأيام هو العلاج . إنه يحفظ الشباب . إن الجسم يهرم إذا هرم القلب أما القلب الذى ينبض بقوة فهو المعين الذى يحرس الجسد ويحرس الشباب .

وواتاها الحب الذى أرادته . التقت برجل أحست فى نظرات عينيه وميض السيطرة والأمر ، وأحست معه كأنها تفنى فيه . وأشع عليها نور

من السعادة لا حد له . كانت ترجو أن تلتقى برجل تنطوى فيه ، وكأنها جزء منه ، تتحرك بأمره ، وتنطلق بأمره . ليس لها كيان مع غيره . همومها يحملها ، بل ما هى الهموم ، إنها لا تعرفها ، لأنها لم تصبح كياناً مستقلاً . لقد أنطوت فى كيان أكبر وحسبت أن شبابها سيطول . . وماذا يمكن أن يؤثر فيه ؟ إنها لا تكاد تحس بمرور الأيام . الساعات والشهور لحظات فى جنة الحب . . لا هموم ولا أحزان ، لا خوف ، ولا قلق ، لا جزع من أجل الأولاد . . أولاد ، يا للسخرية . . إن الحب هو الخلود .

ومرت شهور . . ومرت سنة . . سنتان . الرحيق عذب . الشباب باق. الحب صامد .. الحياة بسمات وضمات وعناق . . جنة ، وماذا تكون الجنة غير هذا ؟

وضاق الرجل بها . امتص رحيق الزهرة حتى لم يبق فيها جديد . وأحست بالهاوية تحت قدميها . . وراحت تبحث عن الحرارة التى عهدتها فى قلبه وجسده وكيانه . فإذا هى آخذة فى البرود . وارتاعت . أهو شبابها أخذ يذوى أم شبابه ؟ أهى حرارتها التى أصابها البرود أم هى حرارته ؟ أخدعها الحب هذه الخدعة الكبرى ، ملأها غروراً ، وأغواها ضلالاً ، رفعها إلى القمة ، وها هو يقذف بها إلى السفح ؟

أكان منها شهوة غرور وكان منه شهوة سيطرة ؟ أتراها ضلت الطريق وهى الآن فى الأفول ؟ . . ونظرت فى المرآة وأطالت النظر والتحديق . . . (هذه الخطوط والتجاعيد. . أين كانت إنى لم أرها إلا الآن . حسبت أنى نسيت مرور الزمن . أعمانى الحب عن حساب السنوات ، ولكن الزمن لم

ينس . كانت السنوات تمر فعلاً ، ولم يمنعها الحب من أن تترك طابعها .

«لا ، بل كان حباً ولم يكن شهوة . كان انطواء مني فيه ولم يكن ذلة ، وكان طياً منه لى ولم يكن سيطرة . لقد شعرت بالحب الذى تمنيته ، ونسيت فعلاً السنوات والأيام . أكنت فى غفوة ؟ أكان حلماً لا حقيقة له . . لا . لا . كان حقيقة وحلماً . . إن أجمل الحقائق تأتينا وكأنها أحلام ، وأجمل الأحلام تطوف بخواطرنا وكأنها حقائق . خطئى الأكبر أنى حسبت الحب يصون الشباب ونسيت عنصر الزمن . لقد ولى شبابى ، وهو لا يزال فى فترة الشباب . يا للحقيقة القاسية المروعة التى أردت تجاهلها . . لقد كنت أنانية . .

«آه . . لو كان لى أولاد ، كنت أرى شبابى يتجدد فيهم ؟ »

أم . . وولد

لكل إنسان منا ثلاث شخصيات ، إحداها الظاهرة للناس ولنسمها الشخصية الاجتماعية ، وفى هذه الشخصية تتصالح جملة عناصر ، السمعة ، المصلحة ، قيود المجتمع وهى شخصية يحكمها خليط من العقل والقلب وقليل أو كثير من الخروج على قواعد الخلق الجامدة .

والشخصية الثانية هى التى يتعامل معها الإنسان وهو فى عزلته بعيداً عن أعين الناس . ولنسمها الشخصية العارية ، لأنها لا تحاذر شيئاً ولا تخاف شيئاً . وفى هذه الشخصية تتصالح النفس على سجيتها مع القلب المنطلق من القيود مع العقل النائم أو شبه النائم ، اليقظ أو شبه اليقظ .

والشخصية الثالثة هى التى يريد الإنسان أن تكون له ، وهى أشبه بالميزان المنصوب يقيس به خطأه إذا أخطأ ، وصوابه إذا أصاب . وهى خليط من المثالية وحاصل القراءة والدرس والتطلع إلى الأفضل والأعلى .

ولنسمها « الشخصية المثالية » والتعبير بالمثالية هنا نسبى محض ، أعنى بالنسبة لصاحبها ، وهى لذلك تختلف من شخص إلى شخص وهى — بهذه المثابة — ليست مثالية مطلقة وإلا لتساوت فى كل الحالات وطبقاً لكل الموازين .

وقد تتقارب هذه الشخصيات وتتباعد ، ولكنها فى كل الأحوال لا تفقد قدراً مشتركاً بينها جميعاً ، هذا القدر المشترك يبدو فى خفاء ملفوف

فى « الشخصية الاجتماعية » وفى صراحة واضحة فى « الشخصية العارية » وفى تيار معاكس أو موات فى الشخصية المثالية .

وكى نقرب المعنى المقصود نقول : لنفرض أن شخصاً ما وهب شجاعة كاملة فى نقد ما يرى من عيب فى الآخرين. هذه الصفة الطيبة قد تجد ما يعوقها عن الظهور تماماً فى « الشخصية الاجتماعية » لما يحكمها من مصلحة أو رغبة فى الظفر بمحبة الناس أو حرص على ترقية أو منصب أو ما إلى ذلك من المطالب العادية للإنسان ، فهى تظهر فى حدود ولا تكشف نفسها تماماً .

أما فى « الشخصية العارية » حيث لا قيود ولا مصالح ولا رغبات فإنها تظهر بوضوحها الكامل . وفى « الشخصية المثالية » كما يصورها صاحبها قد يسمح لها بظهور أكثر وهى هنا تيار موات ، أو لا يسمح لها بظهور على الإطلاق وهى هنا « تيار مضاد » ولكنه لا يستطيع فى حال من الأحوال أن يكبتها تماماً .

هذا هو مثل على « القدر المشترك » الذى قلت أنه لا بد أن يطبع الشخصيات الثلاث بصورة أو أخرى . وهذا القدر المشترك هو الذى يميز إنساناً من إنسان ، ويجعل الناس مختلفين أشتاتاً كل فى سبيل .

ولنضرب مثلاً آخر : لنفرض أن شخصاً ما لا يؤمن بقيود فى العلاقة بين المرأة والرجل ، إنه لا يستطيع فى أكثر الأحيان أن يفضى إفضاء تاماً بهذا سواء بالسلوك أو الرأى فى « شخصيته الاجتماعية » وهو إن فعل اتهم بالانحلال وانصرف عنه المجتمع ، ونحن نفرض هنا إنه إنسان سوى ،

أعنى يهمه رأى المجتمع فيه ، وهنا لا بد له أن يخفى هذا الاتجاه جهد ما يستطيع ، ولكن إخفاءه إياه لن يكون تاماً ، ولا بد أن تشف تصرفاته عنه قليلاً أو كثيراً .

أما فى شخصيته العارية فسيكون واضحاً تماماً ، وفى « شخصيته المثالية » حيث يشترك التطلع وحاصل الدرس والقراءة وتدبر العقل ومقاييس الخلق ، يبدو هذا الاتجاه تياراً معاكساً بعض الشيء ، ولكنه بصورة أو أخرى سيكون طابعاً لهذه الشخصية أيضاً .

وفى كتابى « الصدفة العذراء » قصة عنوانها « ثلاثة السنة » جرت وقائعها فى ديوان من الدواوين ، بين رئيس ومرءوسيه ، وكان كل من أبطالها يتحدث بثلاثة السنة أطلقت من عقالها ، وتشابكت الحوادث ، وأفضى كل منهم برأيه فى أصحابه ، رأيه الحقيقى ، ورأيه المغلف بالمصلحة وقيود المجتمع ، ورأيه المنبعث عن العاطفة وحدها دون العقل .

وانتهت القصة بانتصار اللسان الذى يعبر عن « الشخصية الاجتماعية » لا لأنها هى الأفضل ، ولكن لأنها الوحيدة التى يستطيع الإنسان أن يعيش بها فى المجتمع .

ولكن لماذا كتبت هذا كله ؟ إننى لا كتب فى العادة عفو الخاطر ، فلا بد من شيء يثيرنى للكتابة ويدفعنى إليها دفعاً ، والذى أثارنى هنا رسالة تلقيتها منذ فترة من الوقت ، وظلت فى خاطرى ، أعود إلى قراءتها كلما تهيأت للكتابة . وفى كل مرة كنت أدعها إلى فرصة أخرى ، ربما لأننى

لم أمتص الموضوع تماماً أو ربما لأن خاطرى لم يمتلئ به تماماً، وربما لأننى وجدت ما هو أيسر منه فى التناول .

ومهما يكن من أمر فإن أمر الشاب الذى وقع الرسالة باسم مجهول فلم يزد على قوله « مواطن مجروح » ظل يلح علىّ إلحاحاً إلى أن قررت أن أكتب عنه وعن رسالته .

وأوحت لى الرسالة أنه كما أن لكل منا « شخصيات ثلاثا » فإن لكل منا ثلاثة أنواع من المتاعب والهموم ، نوع نفضى به إلى الناس ونظهر به ، ونوع نخفيه عن الناس جميعاً ويظل سراً بيننا وبين أنفسنا ، ونوع ثالث نرجو لو كان هو كل متاعبنا وسبب همومنا .

والمشابهة قائمة بين ما ذكرته عن « الشخصيات الثلاث » و « أنواع الهموم الثلاثة » أنت لا تظهر أمام المجتمع إلا بالهموم التى يقرها طبقاً لمقاييسه ومثله وما تعارف عليه وهذه أيسر الهموم . ولست أعنى أنها أيسر من حيث الكم والنوع ، ولكنى أعنى أيسر لأنها هموم شريفة تستطيع أن تشرك الآخرين فى حلها ، بل تستطيع أحياناً أن تفخر بوجودها ، فلو كانت زوجك مريضة مثلاً ، وأنت تسعى هنا وهناك لإيجاد دواء لها .. هذا هم ، ولكنه هم شريف تظهر به أمام الناس إنساناً وفياً . ولو كان همك لأن صديقاً لك يواجه أزمة ، فأنت فخور بهذا الهم أيضاً ، والأمثلة كثيرة والقياس ميسور .

هذا النوع من الهموم تستطيع أن تجعله عنصراً من عناصر « الشخصية الاجتماعية » .

وتستطيع أن تلحق «بالشخصية العارية» النوع الثانى من الهموم الذى لا تستطيع أن تفضى به إلى أحد، لأنه يخجلك، ويكلل بالعار حياتك، ويدخل فى هذا النوع الأخطاء الأخلاقية المتعلقة بالسلوك أو النقص الجسمانى فى بعض الحالات، والأمثلة عديدة أيضاً والقياس ميسور.

ومن الهموم ما هو مثالى أشبه بالشخصية المثالية ويمكن أن يلحق بها ويؤلف عنصراً من عناصرها، فأنت مثلاً فى رسمك لشخصيتك المثالية كما ترجو أن تكون، تتمنى لو كانت همومك الدفاع عن المظلومين أو استخلاص حق ضائع أو الدفاع عن قضية عامة تجعلك بطلاً من الأبطال.

هذا هو إيحاء الرسالة التى أشرت إليها أما الرسالة فهذه هى :

« ما دمت أكتب إليك بشخصيتى المجهولة، فلا داعى للمبالغة أو إخفاء الحقائق وهذه صورة عارية واضحة، أنا شاب فى بداية الحلقة الثالثة من عمرى لى أم سيئة السيرة، ومرد ذلك إلى سببين : أولهما : أن من شابهت أمها فما ظلمت. وثانيهما أنها تزوجت من رجل هو أبى — « مودرن» للغاية سهل لها طريقها المعوج لسذاجته وضعف شخصيته.

« وكذلك لى أخت متزوجة نهجت طريق أمها، ومن شابهت أمها وجدتها فما ظلمت أيضاً، والذى ضاعف من ألمى أن زوجها فى مثل شخصية أبى.

وهذه الأم وهذه الأخت لا تبغيان من سوء سلوكهما سوى المزيد من

المال والترف والعيش الرغيد .

« ترى ماذا يكون شعورى تجاه والدتى؟ إن جميع الأديان والشرائع والأعراف تحض الأبناء على محبة الأم وإكرامها والتضحية فى سبيلها . . ماذا يكون موقفى كابن لمثل هذه الأم ؟ لقد أعيتنى المشكلة حتى البكاء المر، وأخيراً صارحتها ذات يوم وبدون مقدمات فبكت وكان بكاؤها شبه اعتراف وطلب للغفران ، وبكيت معها وفرحت فى الوقت نفسه ، لأننى شعرت بالانتصار فى حل هذه المشكلة ، وعرضت عليها كل ما أملك من نفس وجهد ومال فى سبيل أن تحافظ على سمعتها وشرفها .

« ولكن دموعها كانت دموع التماسيح . . وسرعان ما عادت إلى سيرتها وفهمت من روحها أن ليس فى الأمر أزمة بالنسبة لها ، وإن الإنسان يستطيع أن يستغفر ربه فى آخر أيامه وخلاص ؟ .

« إن أمى تقتلنى قتلاً أدبياً باستمرار فماذا أصنع ؟ . . إنها تستحق — فى رأيى — أكثر من القتل ، فإذا أجهزت عليها ، كنت مجرماً فى نظر القانون والدين والمجتمع ، ثم إننى لا أحب أن أكون ضحية أم لا تستحق أن أكون ضحية لها ، فضلاً عن إننى سوف أسىء إلى سمعة إخوتى فى وظائفهم ومدارسهم ..

« إذا انحرفت الزوجة ، فأمرها يسير ، إذ يمكن للزوج أن يطلقها ، ولكن إذا انحرفت الأم أو الأخت فماذا يستطيع إنسان أن يفعل ؟

« إن نفسى جريحة ، وقد ارتحت قليلاً بعد كتابة هذه السطور لشعورى بأننى ألقيت قليلاً من حملى الثقيل ، وقد كرهت الحياة ونفسى

وأظلمت الدنيا فى عينى وأصبحت أطلب الموت وأنا ما زلت فى بداية حياتى وريعان شبابى » .

هذه هى الرسالة ، ولست أعرف نوع المعونة التى أستطيع أن أمد هذا الشاب بها ، إن من مشكلات الحياة والنفوس ما يبدو وكأنه المرض المزمن الذى لا بد أن يلازم الإنسان طول حياته . وما أحسب أن هذا الشاب هو وحده الذى يعانى مثل هذه المشكلة . وإنى لواثق أن كل من يقرأون قصته سيشعرون بالعطف عليه والرثاء له . . ولكن ما يطلبه ليس العطف والرثاء . . إنه يطلب وسيلة يصحح بها حياته . . ولا فائدة فى أن أقول له أو يقول غيرى . . دع أمك وأختك وشأنهما . . ابتعد عنهما وحاول أن تنسى ، تبرأ منهما وبذلك تصحح وضعك فى المجتمع . . لا فائدة من مثل هذه النصيحة ، لأنها نوع من الهروب ، والهروب لا يحل المشكلات.

هل لنا أن نناشد هذه الأم عواطف الأمومة والشرف ، ولكن مناشدة ابنها لها لم تثمر وأولى أن تذهب مناشدتنا إياها هباء .

هل يستطيع أحد من علماء النفس أن يحلل الموقف ويلقى عليه بعض الضوء . . لماذا تضل بعض الأمهات على هذه الصورة . . ولماذا يكون الاستهتار الذى كأنه تحد لكل المقاييس والمعايير

وما هو ذنب الابن حتى يحمل أمراً لا يد له فيه ، ولماذا يقسو المجتمع عليه . . ألا يكفيه ما هو فية من قسوة تجاوز كل قسوة فى الوجود ؟

منذ سنوات سألتنى فتاة تقدم لخطبتها شاب أحبته ورأت فيه فتى أحلامها وقالت : ولكن أمه . .

قلت : ماذا عن أمه ؟

أجابت : سيئة السيرة . . إن هذا الأمر يزعجنى .

قلت : وهل لعنة الأم تصاحب الابن .

قالت : هكذا يقول أبواى .

سألت : وماذا تقولين أنت ؟

أجابت : لا ذنب له .

قلت لها : وهذا ما أراه . .

ولكننى بعد أن أفضيت إليها بهذا الرأى راجعت نفسى . . . إننا لا نستطيع أن نخرج على مقاييس المجتمع من غير متاعب وتعقيدات ، وقد يكون هذا الخروج ممكناً فى الآراء والاتجاهات ، بل هو واجب فى كثير من الأحيان لأن المجتمعات لا ترسب ، بل هى كائنات حية متطورة متغيرة ، وهى بطبيعتها كذلك وفى كل النواحى ، بما فيها تقاليد الزواج وفهم الخطأ والصواب والفضيلة والرذيلة ، والجريمة والعقاب ، وربما كان إيمانى بهذه الحقيقة هو الذى دفعنى إلى أن أؤيد الرأى الذى فضلته هذه الفتاة ، وربما تصادفها بعض المتاعب ، بل من المؤكد أنها ستصادفها ، ولكن ربما أيضاً نجح هذا الزواج ، وأعطى مثلاً على أن خطايا الأمهات والآباء ليس من المحتم أن تنتقل إلى الأبناء والبنات . .

إننى فى حيرة تامة إزاء مشكلة هذا الشاب . تفكيرى المطلق يقول له : إن أمك شخص آخر غيرك ، لا ذنب لك فيما تدع وتأخذ ، ولكن

تفكيرى المقيد بصرامة المجتمع وجوره فى أحكامه يقول لى إن هذه النصيحة غير مجدية ولا ممكنة . فإذا كنت أنا أو أنت منطلقاً أو نستطيع أن ننطلق من قيود المجتمع ومقاييسه ، فإن غيرك لا يستطيع ، والنصيحة غير الممكنة التنفيذ أشبه بعدم النصيحة على الإطلاق .

وتمنيت أيضاً لو أنصتت هذه الأم وهذه الأخت لعذاب هذا الشاب وهو ابن وأخ .

الوفاء للذكرى

هل يمكن التوفيق بين الإخلاص للزوج والوفاء لحب قديم ؟ وهل يملك الزوج جسد امرأته وفكرها وخيالها وهل إذا شردت بخيالها وتمنياتها تعد أنها خرجت على قواعد الحياة الأمينة ؟ وهل الأمر كذلك بالنسبة للزوج. هل تملك زوجته تفكيره وخياله كما تملك جسده ، وهل إذا شرد بخياله وتمنياته يعد أنه لم يلتزم قواعد الحياة الأمينة ؟

السؤال دقيق والإجابة عليه أشد دقة . وقد سألتني إياه زوجة ذات ضمير يقظ حيّ . التزمت الوفاء لزوجها التزاماً كاملاً . لم تحنث بقسمها ولم تلوث جسدها بنزوة ولكن قلبها يخفق باستمرار لحب قديم.ماذا تصنع وهي لا تفعل غير أن تستحضر الذكرى . تحب أن تظل وفية لرجل حالت بينها وبينه الظروف وتحس في هذه الذكرى بعض العزاء وبعض الوفاء . وهي تشعر أنها هي التي حطمت قلبه . وكان يمكن أن يكون زوجها لو استمسكت به ووجدت من نفسها الشجاعة أن تقول رأيها ولكنها استحيت على ما يفعل العذارى، وخضعت للمصير المكتوب .

وهي لا تحاول أن تتصل به ولا حتى أن تراه . كل ما تسأل عنه وما يؤرقها ويشعرها كأنها غير أمينة لزوجها أن التفكير فيه يلح عليها إلحاحاً . وقد حاولت أن تتخلص منه فلم تفلح . وهي لا تريد أن تترك زوجها وأولادها . وتؤكد أن هذا التفكير لا يصرفها في قليل أو كثير عن العناية

بيتها والقيام بكل واجباتها الزوجية على صورة تجعل بينها وزوجها فى سعادة كاملة. مشكلتها بينها وبين نفسها دفينة فى صدرها وقلبها . تجد العزاء فى التفكير ، مجرد التفكير . ولكنها تخشى أن يكون هذا التفكير منطوياً على معنى من معانى الخروج على الإخلاص الواجب بين الزوجين .

هل هناك أتعس من مثل هذه الحالة ؟ وكم حالة مثلها توجد فى فى البيوت ووراء الضحكات والبسمات ؟

من يستطيع أن يقول لها إن أحلامها وخواطرها ملك لها . إنها الحرم الذى لا يستطيع مخلوق أن يطأه ؟ من يستطيع أن يقول لها ، إنسى ، ولو كان النسيان فى يدها ما احتاجت إلى مشورة ، ولا احتاجت إلى سؤال وجواب .

إنها تقاوم لكى تنسى . ولكنها ترى نفسها مشدودة بين ماض تعتقد إن له عليها واجب الوفاء ، وحاضر تعتقد أنه يوجب عليها الولاء . . . كيف توفق بينهما ، كيف تتخلص من أحدهما لكى تعيش مخلصة لفكرة واحدة ، بعقل واحد ، وولاء واحد ، ووفاء واحد .

هذه مشكلة من غير حل . واحدة من عشرات المشكلات التى تعيش فى القلوب والعقول والأفئدة . تزكو فى صمت ، وتنمو أو تموت فى قداسة لأن نموها هوى القلب ، وموتها تضحية القلب .

وهل هناك أقدس من العواطف الإنسانية تلك التى تدخل فى الأفئدة وكأنها القدر وتعيش بين حنايا الضلوع سراً من الأسرار التى لانعرف كيف جاءت ولا كيف ترحل ؟

لقد تجرأ القاضى الإنجليزى ماكاردى منذ عشرين سنة وأصدر حكماً قال فيه :

« إن الزوجة تملك جسدها ، وليس للزوج أن يجبرها على غير ما تريد » فهل هذا صحيح . وإذا كان صحيحاً فهل هو واقع ؟

وطالبت « جورج ساند » لبنات جنسها منذ عشرات السنين بالحرية في العواطف والتعبير عنها .وقالت إنها أولى من المطالبة بالحرية الاقتصادية والحرية السياسية .

المرأة الأخرى

وصفت تجربتها كما يلى :

« لست أدرى من أكون عل التحديد ؟ مخطئة ؟ كلا . . طاهرة لا أخطىء ؟ . . كلا . . محبة لا آثم ؟ . . كلا . . آثمة لا أحب ؟ . كلا . . أحس كأن لى شخصيتين منفصلتين ، وأعجب أحياناً من تصرفاتى كأن امرأة أخرى هى التى أقدمت عليها .

قال الرجل الذى أحببته من كل قلبى ، وكان مناى وأحلامى منذ عرفت فى الدنيا المنى والأحلام : سمعت أنك تخطئين . . لا تحاولى . .

قلت وكأن امرأة أخرى تتحدث : ومن قال إننى سأحاول ، ما سمعته صحيح .

— حتى قبل أن أرويه لك ؟ .

— أنا أعرف نفسى . . . كلا ، أنا أعرف المرأة الأخرى التى فى داخلى . . . سبق أن اعترفت لك بأغلاطى . .

قال وهو مضطرب مكفهر الوجه : هذه أغلاط جديدة لم تكشفى عنها

أجبت فى بساطة : لأننى شطبتها ، لاأعرف الآن إننى أخطأت ، امرأة أخرى هى التى . . .

وقبل أن أتم حديثى قال وهو مبهوت : امرأة أخرى . . . أنت مجنونة .

قلت فى هدوء : المرأة الفاضلة فى .. هى التى تعرفها وهى التى تحبك ،

هى حياتى الحقيقية ، أما المرأة الأخرى فطارئ يظهر ويختفى . .

تبسم فى سخرية وقال : يلوح أن ظهورها كثر فى هذه الأيام . .

أجبت غاضبة : لا تجرحنى ، أنا الآن المرأة الفاضلة . .

زادت سخريته : نظرية جديدة لتبرير الخطأ . .

قلت وأنا أغالب ألماً فى أعماقى : أنت الذى تقول هذا ؟ ساعدنى . . إننى أختنق ، المرأة الأخرى تتحرك فى داخلى . .

وانتفضت وأنا جالسة وارتعشت أوصالى ، خيل إلى أنها تدخل فى جسدى وأنا أقاومها ، وصرخت : أنقذنى . .

وجمعنى بين ذراعيه ، وغمرتنى منه نظرة فيها مغفرة وعتب ، قلت : احمنى .

واندلقت دموع غزيرة من عينى ، بينما قال وهو متشبث بى : أحميك مماذا ؟ .

ــ من هذه المرأة . . . الشيطان ، أنا ضعيفة .

ــ ألا يعطيك الحب قوة ؟

ــ ويعطينى أحياناً الضعف . . . أريد أن انتقم منك .

ــ بالخطأ ؟ . .

ــ ليس لدى وسيلة أخرى ، أعنى ليس لدى هذه المرأة وسيلة أخرى .

ــ توافقين على تصرفاتها ؟

ــ إننى أشطبها ، لا أعترف بها . .

ــ ولكن الخطأ يقع ، تقعين فيه .

وسألته وعينى تذهب إلى بعيد ، فى شىء مجهول : ما هو الخطأ هل هو الواقعة المادية أم الإحساس به ؟

أجابنى بعد أن نزعنى برفق من أحضانه : كلاهما ، أنت امرأة عجيبة . .

سألت أيضاً : وما هى المرأة العجيبة ؟ . أنا وحدى ؟ . أليس لى نظائر

ـ المرأة العجيبة هى المخالفة للمألوف . .

ـ وما هو المألوف ، صنعه الناس ، أم صنعته الطبيعة . .

قال فى ضيق : أنت تحاولين أن تسترى خطأك بالسفسطة ؟ . .

ـ كلا ، أنا لا أحاول أن أستر خطأ . . أنا لم أخطىء . .

ـ وتكذبين ؟

ـ لا أكذب ، هذا هو شعورى الحقيقى ، المرأة الأخرى هى التى أخطأت ، أنت لا تستطيع أن تطردها ، الحب لا يستطيع ، إنها تعذبنى ، تنفذ إلىّ من نقطة الضعف ، وتلبسنى كالشيطان .

صرخ : أنت الشيطان ، ابتعدى عنى .

همست فى هدوء وبرود : ستأخذنى المرأة الأخرى ، ستستولى علىّ تماماً . . إنها الآن تملك منى فترات ضعف قليلة . . وها أنت ذا تتخلى عنى ، أنت عدوها الوحيد ، أنت الفضيلة الوحيدة الباقية .

وسكت ، بينما التمعت عيناه بشعاع غريب وقال : والآن . . .

قلت فى سكون ذليل : الحل فى يديك .

ـ وأنت ؟ . .

ــ كما ترى . . سامحتنى من قبل ، لماذا تصر الآن ؟

ــ الخطأ المتكرر لا يقبل المغفرة . .

ــ إذن أنت لا تريدنى . . .أنامنصرفة، لن ترى وجهى بعد الآن ، إن المرأة الأخرى سعيدة ، أنا سعيدة ، تخلصت من القيود .

ــ وهل كان الحب قيداً ؟ . .

ــ بالنسبة للمرأة الأخرى نعم .

ــ وبالنسبة لك . .

ــ لم أعد أنا . . . أنا الآن المرأة الأخرى . .

ــ ألا تندمين ؟

ــ الشيطان لا يندم .

وتهيأت للانصراف، كنت أضحك وأعبث وأغنى ، لم أكن أنا فعلا. ونظر لى الرجل دهشاً وهو لا يكاد يصدق . قال فى حزن كظيم : أنت ؟ .

قلت فى برود : لست أنا .

سأل : وإلى أين ؟

قلت : كما تريد سيدتى ، المرأة الأخرى ، إلى الشارع ، إلى الكاباريه ، مع أول نداء ، وأنت ما شأنك بى ؟ عرفتنى فى مرقص ، إلى المرقص مثلاً . .

ــ حاولت أن أنقذك ولكن . . .

وأضفت فى دلال : فشلت ، أنت رجل فاشل ، المرأة الأخرى أقوى منك .

ـ بل قولى الشيطان . ؟

ـ سمها كما تشاء . . . أنا ألوذ بالأقوى ، وهى الآن كذلك .

ـ ستتخلى عنك .

ـ متى تخلت عنى عدت إليك . . .

ـ أنا بالنسبة إليك مجرد ملجأ ، أخرجي ولا تعودى .

وخرجت منطلقة كأننى سعيدة ، واستبدت بى المرأة الأخرى أسوأ ما يكون الاستبداد وامتهنت جسدى وروحي وعقلى حتى أصبحت حطاماً . . . وذهبت إلى الرجل كسيرة متهاوية ، قال : عدت .

أجبت : كان لا بد أن أعود . . . قتلتها .

ـ من ؟

ـ المرأة الأخرى .

ـ تطهرت ؟ . .

ـ حتى النفس الأخير . . . أصبحت امرأة جديدة . مارست التجربة إلى أقصاها . . . الفتات لا يشبع ، واللمحات تغرى بالمزيد » .

أكانت خطيئة ؟

تلقيت رسالة من سيدة مريضة . . . ولم توقع خطابها . فأنا لا أعرف من هى حتى ولا اسمها ، وهى لا تطلب إلى أن أدعو لها بالشفاء ، ولكنها تقول إنها تموت راضية . لقد تمنت الموت لكى ينقذها من آلامها ومتاعبها . سألتنى . أكانت مخطئة حينما أحبت . إنها تشعر أنها تكفر عن خطيئة هذا الحب ، ولكنها تحس أيضاً بأن روحها إذ تصعد إلى ربها ، إنما تصعد راضية مؤمنة ، محبة وفية .

إن قصتها أروع قصة للوفاء . إن الرجل الذى أحبته لا يعرف حتى اليوم أنها تحبه كل هذا الحب ، ربما ظن أنها نسيته أو هربت منه . ربما ظن أنها كانت تؤثر عليه أحداً آخر فى هذا الوجود . ربما كان لاهياً فى هذه اللحظة التى يخبو فيها آخر قبس من تلك النفس الوفية المطمئنة الراضية. أحبت من غير أمل ، وعاشت فى الحب واليأس خمسة أعوام ، كانت هى كل حياتها . كانت عالمها الذى ذاقت فيه السلام والخوف والندم والغبطة والمتاع .

حاولت أن تكف نفسها عن هذه العاطفة . عالجت أن تسافر ، أن تلهى بعمل ، عالجت حتى أن تقنع نفسها بأنه لا يستحق كل هذا الوفاء. وكثيراً ما ارتابت فيه وحاولت أن تنمى هذه الريبة ، وأن تجعله إنساناً ككل الناس ، ولكن الحب كان يجرده أمام ناظريها من كل النقائص ، ويرفعه

إلى مرتبة القديسين . جعلته مع الأطياف العلوية ، مع النور المتمع فى انبثاق الفجر ، مع الموج المتكسر فى البحر ، مع الأريج المتضوع من الزهر . جعلته فى كل شىء جميل ساحر آسر ، بل جعلته كل شىء جميل ساحر آسر .

وهدتها العاطفة . استنفدت من قلبها كل نبض ، ومن فؤادها كل نجوى ، ومن كيانها كل قوة ، فإذا هى تجثو على ركبتيها أمام المرض ، وكأنها تجثو متعبدة فى محراب .

ووعدت أن تبعث لى برسالة أخرى إذا طالت حياتها . . قالت : لعلك تعجب إذا عرفت إنى أقابل الموت ببسمة فيها سكون عجيب . لقد طالما تمنيت أن أموت . إن الموت وحده هو التكفير عن الخطيئة . ولكننى أسألك : هل الحب خطيئة ؟ إذن لماذا خلق الله لنا قلوباً تنبض؟ إنى سأذهب إلى لقائه مطمئنة إلى عدله ورحمته ، فهو وحده يعلم السر والنجوى .

وما أحسب إلا أن كل إنسان سيدعو لها بالشفاء . إنها قلب معذب ، وروح صفت من الشوائب . إنها تقابل مصيرها بشجاعة نادرة . ولكنها ستعيش ، ستعيش ، سيمنحها الحب الحياة . لقد حول حياتها — كما تقول — من جحيم إلى نعيم . جعلها تذوق ما فى الدنيا وتحس ما فيها . كانت ، قبل أن ينبض قلبها ، فى جفاف . لم تكن تكترث بشىء . كان البحر والزهر والفجر وهذا الجمال الذى منحنا الله إياه لاقيمة له . لم تكن تشعر به . ولم تكن تشعر بما هى فيه من حياة رخية مترفة . كان كل

شيء لا طعم له ، لا مذاق فيه . لا تنفعل بشيء ولا تتحرك لشيء .
فلما طلعت عليها هذه العاطفة ، جعلتها أشد ما تكون إحساساً بالحياة ، لأنها وجدت الشريك الذى يثير فيها التمتع بالجمال . وشكرت لله نعمته . شكرت له أن ردها إلى الحياة . ولكن الشعور بالخطيئة والندم أخذ يتسرب إليها شيئاً فشيئاً . ونما فى قلبها وكيانها وفؤادها ، فاختلط هناؤها بغصة ، واختلطت نعماؤها بشقاء مقيم . كانت تسأل نفسها وتجيب ، وتطوى جوانحها إذا جاء الليل، وكأنها فى حلم لاتريد أن تستيقظ منه، وإذا استيقظت ، ردت نفسها إلى غفوة حتى تستر عن عينيها الحقيقة المروعة .

وأخذت صحتها تتدهور . كانت فى صراع مر مدمر . أرادت أن تعود إلى ما كانت عليه ولكنها لم تستطع . أرادت أن تستمر فيما هى فيه من هناء، ولكنها لم تستطع .

ورحبت بالمرض إذ جاء . ولمحت أنه يزداد ويثقل ، ويطل عليها من ثناياه لمعة من ضوء منير . إنه وجه الله الكريم ، يدعوها إليه لكى يرحمها ويغفر لها .

وضمت يديها على صدرها كأنها تصلى . . أحست أنها أقرب ما تكون إلى الله . لقد كفرت بالمرض عن الخطيئة . وكفرت بالجسد المعذب الذى يخبو رويداً رويداً عن لمحات السعادة التى رفعتها فوق العالمين ، وإنها لقسمة عادلة . أنها لا تشكو . لقد شربت من السعادة حتى ارتوت . لم يبق لها فى الدنيا ما تأسى عليه أو تخاف ، إنها تبتغى رحمة الله . . وسيمنحها إياها.

لمن تكون الرحمة إذن ؟

فات الأوان

استسلمت لحزنها أرق ما يكون الاستسلام. ألفته كصديق طالت عشرته فلم تنكر منه ما ينكر الناس وليس كالألفة شيء يضفى الستار على المحاسن والعيوب جميعاً. أضحى الابتسام غريباً عن دنياها ! وأضحى الرعب من المجهول زادها . فقدت زوجها فعاشت لأطفالها . كان الزوج هو السند والظل والأمان ، فلما فقدته أنهار الجدار ، وأحست أن دنياها أصبحت مكشوفة وعرينها صار هدفاً للسهام .

ودخلت فى القوقعة تستر بالإنطواء ما فى نفسها من خوف ، وتجبر ما فى قلبها من انكسار . وشمل الحزن الصامت حياتها ولفها فى رداء أحست أنه القرين والقريب والصديق وإنه قسمتها من الحياة

كانت تنظر إلى طفليها الراقدين إلى جوارها فتحسب جسدها قد شف وشف حتى أصبح ملاكا يرفرف بأجنحته مع رؤاهما وأحلامهما ، وتذهب فى هذا الخيال إلى أبعد مما يمنح الخيال ، فإذا هى راضية فى كساء حزنها ، متبسمة فى علياء نفسها !.

ونما الطفلان . ونما معهما حزنها وحبها. حجبت نفسها عن متعة الحياة وجعلت شبابها وجمالها فداء حزنها وحبها . كانت تراهما فتأنس إليهما ويأنسان إليها وأدخلتهما قوقعتها وأطبقت الصدفة عليها وعليهما ، وحسبت أنها أكثر اطمئناناً من شر الدهر على قوقعة صغيرة مطوية .

وقالت: كلما انتشرت المساحة زادت المخاوف وأنا امرأة حولى إغراء وفى قلبي ضعف. القوقعة تحميني وتصد عنى الإغراء والضعف.

وكبر الصبي وكبرت الفتاة وأصرت الأم أن تحفظهما فى قوقعتها وتطوى جناحيها عليهما نذرت وقتها كله لهما ونذرت حبها وحنانها.

كانا دنياها وعزاءها وأملها.

ثم كان هذا المساء.

اتصلت بها صديقة ورجتها أن تأتى إلى زيارتها وتخرج من هذه العزلة التى فرضتها على نفسها. وقالت الصديقة ستقضين وقتاً ممتعاً تسمعين فيه الموسيقى وتشاهدين رقصاً وفيلماً سيمائياً.

وقالت الأم: شكراً يا صاحبتى: أوثر أن أظل فى البيت هذا المساء من أجل الأولاد.

وفرغ الفتى من طعامه وبقى فى البيت برهة ثم استأذن فى الانصراف وسألته أمه: إلى أين يا بنى ؟

قال: سألعب بنج بنج مع طارق ابن الجيران.

وأجابت فى صوت فيه ضراعة وتوسل: ابق معى يا ممدوح.

قال: وهو يقفز منصرفاً: سأعود حالاً يا أمى.

وفرغت «منى» هى الأخرى من تصفيف شعرها وعقصته ديل حصان، وقالت: أنا خارجة يا ماما..

زاغت عينا الأم وبللهما دمع مكتوم وقالت: وأنت أيضاً يا منى! أجابت: سلوى ستسمعنى قطعة موسيقية ألفتها..

وسكتت الأم بينما انطلقت « منى » فى مرح العمر المتفتح وجمال الزهر المتبسم تقفل الباب وراءها .

وانكفأت الأم على المائدة التى كانت أمامها ودفنت وجهها بين كفيها وأخذت تنتحب .

لقد خرج الفتى والفتاة من القوقعة ، وأضحت وحدها فيها . . كيف تقتات ؟ كيف تعيش ؟

نذرت شبابها لهما وحسبت أنهما سيؤنسان أبداً وحدتها ، وها هما ينصرفان كل لشأنه ، وتبقى هى وحيدة ليس معها سوى الذكريات ، وليس فى قلبها إلا الألم على العمر الذاهب والولد الذاهب .

أدركت أنها لا تستطيع أن تجمع فى قوقعة واحدة إلا حياتهاوحدها . أدركت أن ولديها فرع من شجرة وقد كبرا وآن لهما أن ينفصلا ويتركا الشجرة فى مهب العواصف .

وأحست المرأة الوحيدة بالبرد يسرى فى أوصالهافضمت ملابسها إلى جسدها وانكمشت بعضها فى البعض الآخر وانطوت كأنها كتاب فرغ صاحبه من قراءة سطوره . .

وفكرت : هل أخرج أنا أيضاً من القوقعة ؟

وأحست همساً مريراً كأنه يهتف بها : لقد فات الأوان .

قلب المرأة

كنا نتحدث عن قلب المرأة .

وقال واحد : تستطيع أن تملكه بالحنان . وقال ثان : إن الطريق إليه العنف . . وقال ثالث : بل الإهمال . وقال رابع : إن أحداً لا يستطيع أن يملكه ولكن المرأة إذا أرادت قدمته من غير ثمن ولا أمل .

وقال خامس : إنها مخلوق تافه ، متقلب لا تستقر لها عاطفة . إنها معقدة وخير سياسة معها أن تقاد ولو صرخت وبكت . وقد بحثت البابوية القديمة فى روما فيما إذا كان للمرأة روح مستقل أم لا ، وعندى أنها تابع للرجل ، ناقصة عقل ودين .

واشتد الحوار وعنف . وطال الوقت دون أن يسلم أحد أو يسكت . وقلت : لعل كل واحدمنكم يحكم بتجربته وربما كان كل ما قلتموه صحيحاً وتحسبون أن ما يصلح للاقتراب من قلب يصلح للاقتراب من قلب آخر وهل صيغت القلوب جميعاً على غرار واحد ؟

وأدى هذا التدخل إلى تلطيف الجو وانقلب الحديث من الجد إلى الفكاهة ولكن الموضوع بقى فى ذهنى ورسب . وسألت نفسى . هل للمرأة قلب يختلف عن قلب الرجل أم أن الانفعالات التى تصيب كلا منهما تؤدى إلى نتائج واحدة .

عندى أن المرأة أعمق فى عواطفها من الرجل . وقد يسهل عليك أن

تكشف قلب الرجل ، ولكنك لا تستطيع بسهولة أن تكشف قلب المرأة . إن من الزوجات من تقضى السنوات مع زوجها وهى تمثل دور المحبة الولهانة ، بينما يكون قلبها فى واد آخر ، وهى تحفظ الإساءة أطول مما يحفظها الرجل ، ولا تغفر قط ما يمس أنوثتها . وكما تخفى البغضاء تخفى الحب ولكنها يوم تكشف نفسها ، لا تتسامح فى اللعب بعواطفها . وهى مثالية أكثر من الرجل . الخطيئة تعصف بكيانها ، والذنب يؤرقها ولكن عواطفها دائماً أقوى من الخطيئة والذنب .

ومعين الحنان الذى فى قلبها يسع الدنيا إذا أحبت ، فإذا أبغضت انقلبت قاسية كالحجر . الحب حياتها ، فإذا أقفر قلبها منه أقفرت حياتها . الحب عندها تملك ، وهو عند الرجل إيثار .

والرجل لا يفهم عواطفه كما تفهم المرأة عواطفها . وقد يضطرب الأمر على الرجل فلا يعرف ما إذا كان شعوره حبا أو إعجاباً أو رغبة أو تهوراً ولكن المرأة قلما تخطىء فهم شعورها .

وقلب المرأة ملفوف فى وراثات وتقاليد ومخاوف ونزعات ورغبات وشهوات مكبوتة ، ومن هنا كان استخفاؤها وغموضها واضطرابها . . وكان هذا العمق الذى يشاهد فى تعبيراتها وتصرفاتها .

وكل امرأة تجمع فى قلبها شعور الأم والأخت والعشيقة والقديسة والمستهترة فإذا أحبت بعمق فقد اجتمعت كل هذه الأنواع فى قلبها ، وتفجرت منه ينابيع سعادة لا مثيل لها وأضحى حبها كالعاصفة لا يبقى على شىء .

وحياتها العاطفية مضطربة اضطراباً لا حد له ، فإذا فهمها رجل أوت عليه ، وإذا أساء فهمها ، فقد دخل وإياها فى جحيم لا غاية لعذابه .

وهى كتوم . دموعها نجواها ، وخيالها حبيبها ، ونظرات عينيها واختلاجات شفتيها أصدق من لسانها . جسدها أعز عليها من كل شىء ، قد تبذله سماحاً تحت ظروف ضاغطة ، ولكنها تفعل ذلك فى مرارة وغيظ وضيق ، وتتمنى او انتقمت من الرجل الذى اشتراها زوجة أو عشيقة أو ائعة هوى .

عودة الإيمان

وضعت رأسها على وسادتها ، وأغمضت عينين فيهما قلق وخوف واضطراب . . ومن عجب ألا يكون فى الصمت الهدوء والسلام . . ؟ كانت كمن كان فى معركة وانتهت . فهى اليوم تقف على أشلاء الضحايا . . ضحاياها هى . . أم كانت هى الضحية ؟ اختلطت فى خيالها الأشلاء فلم تعرف على التحديد هل هى التى وجهت السهام أم أنها هى التى تلقت السهام . . وفرت دمعة من عينيها فى مثل الصمت الذى يشملها . . كانت محرقة لأنها كانت دمعة مزجت فيها خيالها وأملها وحبها وحياتها . . آمنت بكل شىء جميل فى الدنيا ، بوجه رقيق تحبه ويحبها ، بإنسان عذب يطوى مخاوفها وينشر عليها طمأنينته . .وحسبت أنها لقيته ولكنه خانها ؛ فلم تحتمل الصدمة . . وتولاها جزع عنيف وراحت كالمجنونة تدمر كل شىء وتسخر من كل قيمة . . ولكنها كانت فى سورة غضبها لا تزال تؤمن بالحب. كان فى أعماقها خيالا حياً لا يموت . كان صمام الأمان يشدها ويحفظها ويحميها ويذود عنها. وجدت أن كل شىء وكل تجربة تنكره . . ولكنها لم تشأ أن تؤمن بالشىء والتجربة وآثرت أن تؤمن بالهاتف العميق فى نفسها . . لم تستطع أن تتصور حياتها بغير حب . ودخلت فى تجربتها الأخيرة . رمت شباكها . كانت المعركة الحاسمة فى حياتها . . ولاح لها فى وقت من الأوقات أنها انتصرت . . ظفرت أخيراً

بالحب الذى تريده . . واستراحت . . أرخت رأسها على الصدر الحنون . كانت مجهدة من طول السير . . قالت : أنت حياتى . . هل تستطيع أن تفسر الحب . . . ؟

قال : فسريه أنت . . إنى فى نشوة ومن يكون فى نشوة لا يستطيع أن يتكلم . . إننى أعيش للحب .

سألته : ولن تمله . . ؟

قال : هل يمل الإنسان السعادة . . ؟

سألته : وما هى السعادة . . ؟

قال : لا أعرف أن أصفها ، لأنها فى داخلى . . جزء من كيانى . . ترينها فى عينى ، وأراها فى الحقيقة والخيال . .

سألته : ألا تستطيع أن تحدد معالمها ؟

أجاب : إن الشىء الذى نستطيع تحديد معالمه ينبغى أن يكون بعيدا عنا لا يشملنا ولا يسيطر علينا . وأنا الآن فى غمرة السعادة ؛ فكيف أستطيع تحديد معالم شىء يشملنى من يمين ويسار ؟ أنا جزء منه وهو المسيطر . وكيف يستطيع الجزء أن يحدد معالم الكل ؟

سألته : هل الحب هو السعادة ؟ .

أجاب : تخلطين ولا تعرفين كيف تسألين . . إن الحب يشمل الإنسان والسعادة تشمله وكيف يمكن تحديد المعالم بين شيئين كلاهما شامل محيط ؟

قالت : أنت تتفلسف . .

أجاب . كلا نحن نلتمس التعريف للشيء لكى نحاول تحقيقه ، فإذا كنا نعيش فيه فلماذا نشغل أنفسنا بالبحث عن تعريف له . . ؟

* * *

وعاشت فى عقله وحلمه وخياله . احتوتها سعادة لم تعرف هل هى الحب أم غيره . . عاشت فى معجزة من صنعه ، ويكفى أن تكون المعجزة من صنع رجل لكى تكون الحب . ورجعت إلى أعماقها ، فألفت كأنها تتحرك، كأنها تضطرب ، كأنها تموج بأضواء وإشعاعات وأحلام عذبة جمعت الدنيا من أطرافها ، وملأتها حنيناً وشوقاً . .

ثم وقعت الكارثة . أفاقت من حلمها . . لقد ذاقت الخيانة مرة ونهضت لكى تسترد إيمانها بالحب وارتد إليها أقوى مما كان . . أما الخيانة الثانية فماذا تكون . . ؟ لم تتصورها . . كان فى داخلها إيمان قوى . إنه شيء غير طبيعى أن ينتهى هذا النور الباهر العجيب إلى ظلام كئيب . لم تتصور أن ينبت من هذا الزهر العذب ذى الأريج الساحر شوك قاتل..؟

ولكنه نبت . . عرفت أن رجلها ليس أميناً . وارتاعت ، لماذا . . ؟ هل سئم السعادة . . ؟ هل سئم الحب . . ؟ هل سئم أن يشمله أو أن تشمله السعادة . . ؟ هل اشتاق للضياع بين هذه وتلك . . ؟ هل سئم الطهر والهناء وأراد أن يجرى على هواه. ؟واضطرب إيمانها، واهتزت أعماقها ، وتسلل من قلبها الإيمان بكل شيء جميل ؟ وكان أن فرت هذه الدمعة من عينيها وكأنها تحمل معها أسى العمر كله، وهناء العمر كله .

* * *

وشعرت بوحشة عجيبة . . شعرت كأن الدنيا تحولت إلى صحراء مجدبة. أين الزهور والأحلام والأماني . . ؟ أين الضياء الذى شملها يوماً من الأيام. وانهارت فى خاطرها كل المثل والقيم وأحست أنها وحدها . . كل ما حولها تحول إلى أنقاض . وانقبض صدرها كأنه قصف المبنى الضخم وهو يتشقق ، وهو يتبدد ، وهو يتحول إلى تراب . .

ولم تستطع أن تتنفس. . انكفأت على وجهها وأخفت عينيها عن الدنيا ، وأخفت الدنيا عن عينيها . . ولكن كل ما فيها أضاء فى قلبها . . فإذا الصورة التى هربت منها تلاحقها . . ونهضت من فراشها وأشعلت نور غرفتها . . تصورت أنها مملوءة بأشباح تطاردها وفتحت القرآن وأخذت تقرأ . . وطامن صدرها ترتيل عذب أخذ ينفث فى فؤادها شيئاً من الطمأنينة وتابعت القراءة وكأنها تقترب من الله شيئاً فشيئاً . . وأخذ ضوء خافت مضطرب متلعثم يشع من قلبها وشيئاً فشيئاً أخذ يزداد . . وثابت إليها نفحة من السكون والسلام . .

وبدأت ذاكرتها تنتعش . . وأطبقت الكتاب الكريم. . وأخذت تتأمل . . تهافتت عليها ذكريات حبها الجميل . وأحست براحة لأنها بدأت تعيش فيه من جديد . . فيه . . ؟ كلا . . فى ذكراه . . ؟ ثم انتفضت وقالت تحدث نفسها : كيف أسعد بالذكرى ، بذكرى شيء لم أعد أومن به .

وسألت نفسها : هل هذا إشعاع إيمان جديد . . ؟ إيمان جديد بالحب . . ؟

واضطربت وهى تتأمل : هل تتكرر المأساة مرة أخرى . . ؟

بائعة الهوى

كان الصف الذى أمامى خالياً أو يكاد . . بضعة أفراد فى جانبيه وفراغ كبير فى وسطه ، ولمحت فى هذا الفراغ فتاة جالسة وحدها ، سمراء صغيرة ، لم تبلغ الخامسة والعشرين . زينتها تدل على أنها ليست أنيقة بنشأتها ، الألوان صارخة ، شعرها أكرت ، تقاطيعها فيها صمت وامتهان نظراتها فيها جوع ونداء .

ولست أدرى لماذا لفتت نظرى فأخذت أرقبها. ربما لأنها كانت وحدها ، أو لعل ثيابها وأسلوب زينتها وما كان يشع من عينيها ، كل أولئك أثار حولها — فى نظرى — جواً غير مألوف. . وربما لأن كثيرين ممن كانوا فى السينما كانوا يلتفتون إليها . . مهما يكن ، فقد ألفيت نفسى أرقبها . وفتحت صندوقاً وتناولت منه سيجارة وأخذت تنفث دخانها فى استهتار ، وترفع رأسها مع دوائر الدخان كأنها تحلم معها ، أو تسألها سر الغيب المستور وراءها . .

وفى الاستراحة نادت على البائع وأخذت مشروباً ، ثم نهضت وبعد لحظة عادت . . وما كادت تستقر حتى نهضت من جديد ، نظراتها موزعة على الجميع .. ليس فى وجهها استقرار ، ولا فى كيانها هدوء . . وأدركت أنها بائعة من بائعات الهوى. بدأت الحرفة منذ أمد وجيز . كان ذلك ظاهراً فى مشيتها وحركاتها ولفتاتها . ولم تكن جميلة ، ولكنها كانت

ساذجة تريد أن تقفز مرة واحدة إلى مركز المرأة الجريئة، ولعلها تضع أمام ناظريها أنموذجاً تريد تقليده . ومن هنا كانت ابتساماتها الخليعة وتثنيها الذى تقصد به إلى الإغراء أكثر مما تقصد إلى الإدلال بالجمال .

وعادت ومعها شاب ، ولم تشعر بالعيون التى كانت ترمقها باشمئزاز . لاح أنها فخور بنجاحها ، وكان الشاب ساذجاً ، ربما لم يعرف من قبل فتيات وربما لم يجرب سحر ابتسامة فيها نداء . . ولعله أحس أن ابتسامة الفتاة له فتلقاها ببراءة ، وتلقته صيداً لا بأس به .

وجلست إلى جواره . وكانت الرواية قد بدأت ، ولاح أن الشاب خجول جدا ، ربما كان يفكر فى كلمة غزل رقيق يبدأ بها مغامرته الأولى، بينما كانت الفتاة تقيسه طولاً وعرضاً ، وتحسب فى دماغها الصغير كم يستطيع أن يدفع وهل هو غنى أم فقير . . متعلم أم جاهل ؟ لا ليس هذا هو المقصود . ليكن أجهل الناس ، إنها تريد شراء فستان أغلى ، وعقد أفخم، وعطور من التى يجعل أريجها رءوس الرجال تميل .

ولم أسمع حديثهما فقد كان همساً، وإن بدا أن الفتاة تتحدث أكثر وتنظر أكثر وتعبر عن نفسها أكثر مما يفعل المسكين الذى غرق فى الأحلام.

ولما انتهت الرواية ، وضعت الفتاة يدها فى يد الشاب ، وخرجت فى زهو عجيب .

كانت أنوثتها راضية ، وحرفتها راضية . فى وجهها ابتسام ازداد اطمئناناً إلى قدرتها على صيد القلوب . . وعلى بعد قليل من دار السينما ، وقف الشاب فى أدب وهو يفتح سيارته الصغيرة الأنيقة ويطلب إلى

الفتاة أن تركب ، وركبت فى رشاقة . ومن المؤكد أنها لم تكن تتصور أن له سيارة صغيرة أو كبيرة ، ومن المؤكد أنها أخذت تعيد فى رأسها الصغير الحساب القديم ، ومن المؤكد أنها استرسلت فى آمال جميلة وجديد :

ولما انطلقت بهما السيارة قلت فى نفسى . أنها هنا تبدأ . . . ترى كيف تكون نهايتها ؟

الإعجاب بالذات

قالت : أترانى غير طبيعية . لقد كفرت بالرجال . استبدت بى رغبة شديدة أن أرى دموعهم ولا أجففها . أن أحرق قلوبهم ولا أطفىء نارها أصبحت معجبة بنفسى إلى حد أخذيزعجنى . أقف أمام المرآة فتروعنى ابتسامة وجهى ، ويفتننى سواد شعرى وغزارته . وأستدير وأنثنى وأقف وأضطجع ، أخلع هذا الفستان وألبس ذاك ، أتعرى وأكتسى ... أعيش مع فتنتى وشبابى وإغرائى ساعة بل ساعتين وأكثر فى بعض الأحوال ، فى غرفة مقفلة . . وأسائل نفسى : كل هذا الجمال والشباب ، هل يستحقه أحد ، رجل . . . يا للسخرية ، بل كلب . . . نعم كل الرجال كلاب ، فيهم ذلتها وشرهها ، وليس فيهم أمانتها ووفاؤها . . . كلا ، لن يكون ، لن أسمح لرجل أن يمس شعرة من جسمى . . . ولن أسمح لعواطفى أن تضطرب لمخلوق . ستظل ملكاً لى . . . لى أنا سأنفق كل ما عندى كى اشترى أجمل الفساتين وأحصل على أبدع التسريحات وأقتنى أغلى الجواهر والعطور .

وسكتت لحظة كأنما تسترد أنفاسها واستطردت : ستقول إنى مجنونة ، فليكن . سأسير فى الشارع وأنفى فى السماء . لن أكون جافة . سأجعل فتنتى مطمع كل رجل ، حتى إذا اقترب من النار تلذذت بجلده وهو يشوى ، وقلبه وهو ينسكب تحت قدمى عصباً بعد عصب . استيقظت فى رغبة

عجيبة فى الانتقام . ستقول إنى شريرة ، لقد كنت رقيقة هادئة . نشدت الحب والهناء والسلام ، أعطيت لها كل شىء . نذرت نفسى لهيكلها المقدس . ثم أحسست أن الرجل الذى أحببته كالكلب يلعق كل طبق ... هل تلومنى ؟ هل أنا متجنية؟ هذا الشباب ، هذا الجمال هذا الطهر ، لن يكون لأحد .

ولعلها كانت تنتظر أن أتحدث ، ولكننى آثرت أن أنصت فقالت : لقد كرهته . تحول الحب الذى بذلته له إلى حب لنفسى ، لجسدى وجمالى وشبابى ، ونذرت أن أضن بها جميعاً على الناس ولكنها سلاحى أيضاً للانتقام . سأذهب إلى كل حفلة ، سأشهد كل مجتمع سأسير مزهوة كملكة . لقد حطمت قلبى ، كان هو الذى يصفعنى وقد نذرت أن أعيش بغير قلب ، بغير عاطفة .

قلت : ستكون حياتك جافة ، لن تطيقيها ... امرأة بلا عاطفة ، جسد بلا روح . . . كلا ، إنها ثورة الأنوثة الجريحة ، ستستردين ثقتك بالناس .

قالت : أراهنك لقد خلقت خلقاً جديداً . كنت غافية وصحوت .

قلت : إننا لا نخلق إلا مرة واحدة . وقلبك الذى قدس الحب مرة لا يمكن أن يكفر به إلى الأبد .

وضحكت ضحكة هسترية ساخرة :

وقالت : الحب أكذوبة كبيرة .

الأيقونة المقدسة

بدأت حياتها كالأيقونة المقدسة، كالزهرة المختفية فى الأكمام ، فلما بدأت تخرج إلى العالم ، خرجت فى رقة وعذوبة وتغاريد .

بدأت الأنوثة تتسلل إليها كما يتسلل النور فى الظلام . واستقبلتها كأنها تستقبل الأسرار المقدسة ، واستنشقتها كأنها تستنشق عبير زهر ذى عطر ملائكى . أحست فى جسدها بدبيب رقيق عذب عجيب ، وتولاها شىء من الخوف والرهبة وتمنت لو تسأل عن هذا الطارق الجديد ، ولكنها استحيت فتركت آية الكون الكبرى تبلغ ميلادها المحتوم . ولمحت فى جسمها تغيراً ، وفى صوتها نعومة ، وفى عينيها خفراً وحياء . . بدأت تغضى وتحمر خجلاً .

وكانت أول أمرها لا تحاول أن تستر شيئاً . أما الآن فقد خيل إليها أن كل شىء أضحى كنزاً غالياً لا ينبغى أن تقتحمه العيون . لم تكن ترى أن عندها سرًّا تخفيه ، فإذا بها اليوم تحس أنها تحولت إلى سر يجب أن تخفيه . بدأ نور القمر يأسر لبها ، وحفيف الشجر يحرك كوامن مشاعرها . أضحى الفجر له مغزى ، والظلام له مغزى والمطر والعواصف والكواكب كلها أصبحت ذات مغزى.

كان الأولاد والبنات ، كلا الجنسين ، لا تفريق بينهما فى نظرها . . . الصور التى تنشرها الصحف لم يكن يلفت نظرها منها إلا ما

يلفت نظرها دائماً، تضحك من الوضع المضحك ، وتزم شفتيها من الوضع الذى لايعجبها . صور الرجال كصور النساء ، كصور البيوت ، كصور الحوادث والأنهار والشوارع والجبال كلها مرئيات ، ميزان التفريق بينها الجمال والقبح .. ثم لا شيء غيرهما ... ما بالها الآن تفتح عينيها على معان جديدة .. ما بال جسدها وقلبها وعقلها وكيانها يضع اليوم موازين جديدة . . . مالها بدأت تحس بشعورين مختلفين لصور الرجال وصور النساء . . . مالها تطيل التحديق فى صورة هذا الرجل ؟ ما لها ترتاح إذا استمرت تنظر فيها ؟ وما لها تشعر بحقد إلى صورة هذه المرأة ؟ مالها تنظر إلى جمال عينيها وتقاسيم جسدها ولفتاتها وانثناءاتها .

وجاء ابن عمها ذات يوم، فتى فى مثل سنها أو يكبرها بعام أو عامين قال سنعوم فى البحر اليوم .

واضطربت على غير عادتها، كم من مرة فعلت ذلك دون أن تضطرب، كم من مرة جرت وإياه فى حديقة منزله ؟ كم من مرة لاعبته ولاعبها ؟ كم من مرة اشتركت وإياه ومعهما إخوتها وأخواتها وبنات عمها دون أن تحس بهذا الشعور الغريب الذى أثاره فى نفسها مجرد تنبيه إلى أنهما سيعومان فى البحر سويا

وأغضت حياء وأسبلت جفنين التهبا كالنار. وحدجته بنظرة ، فيها من الشعاع الناطق أكثر مما فيها من مجرد رؤيته . . . ولو سألوها ماذا كان يلبس ما عرفت كيف تجيب . . لو سألوها كيف كان يتكلم ما عرفت كيف تجيب . كانت لا تنظر إليه بمقدار ما كانت تفكر فى الخجل

الذى استحوذ عليها، والشعور الذى شملها من رأس إلى قدم . ما هو ، هذا الدبيب الرقيق العذب المفعم خوفاً وهناء وتطلعاً وقلقاً كأنه مولود يدخل الحياة لأول مرة ، فرح بها ، قلق منها ، سعيد إذ يرى جديداً ، خائف لأنه لا يعرف هذا الجديد ؟

ولم تكد تجيب على دعوة الفتى بغير هذه النظرة الحيية ، فقد هربت جارية وكأنها تخشى أن يكشف من شعورها ما تخفى ، وكأنها تقول له : كلا ، لقد كبرت .

وبدأت تقرأ القصص وتطيل النظر فى الصور وتنتظر حتى يكمل القمر ، وتقضى الساعات تتأمل بهاءه ونوره وشعاعه وكأنها تناجيه وتناغيه ، وأخذت ترى فى موج البحر المتلاحق صورة فارس يطاردها ، وفى ضوء الفجر اللامع صورة لقاء عذب فى صدر الليل أو آخر النهار ، وفى زقزقة العصافير وحفيف الأشجار همس عاطفة ونجوى غرام .

كانت تقرأ عن الحب أولاً فلا ترى إلا أنه الحب الذى يوجد بينها وبين إخوتها وأخواتها وصديقاتها ، وهى تقرأ عنه الآن ، فيأخذها فى نشوة ، ويستولى عليها ، فإذا أصفاده أرق من الانطلاق ، وإذا الذراعان اللتان تلفانها أحنى عليها من كل مافى الدنيا من حنان .

وشكرت الله أن منحها كنزاً هذا جماله وجلاله . ورأت أن روعته يغض منها الإعلان والكشف فأحاطته بقدسية ، وجعلت منه عبادة . وفهمت الحب والجنس أسمى ما يكون الفهم . ضنت بهذا الكنز على العيون النهمة والأجساد الدنسة ، وصلت لله أن يحميها من الذئاب ويصون هذا

الكنز العظيم الجليل إلى أن يأتى صاحبه الذى يريده الله ، فتقتسم وإياه نعمة العيش طول العمر وما يشاء الله من مصير .

ونمت العاطفة بينها وبين ابن عمها وارتبطا بعقد الزواج . وأحست أن الدنيا أضيق من هنائها . وأن العاطفة التى تحملها فى قلبها أحلى من النسائم وأرق من الفجر وأبدع من تكسر الموج . . . كانت عبادة تقدس فيها ربها وكنزها وشريك حياتها .

* * *

ثم وقع ما كسر الأيقونة المقدسة وحلم الزهرة وهى فى ربيع تفتحها ... شاهدت فتاها بعينيها يخونها مع فتاة أخرى . سكتت ، لم تصرخ ، لم تبك لم تتألم ، فقد كان هناك شىء أقسى من الألم والصراخ والبكاء يجرى فى داخلها . كانت حياتها تنفصل عنها . كانت امالها تتبدد . كانت قداسة الحب والجنس والكنز والأنوثة كلها تتهاوى . . كان المعبد تسقط أعمدته والمعبود يذهب إلى الجحيم .

نزعت خاتم الخطبة ، وعادت كما كانت .

رجعت إلى الصلاة ، إلى الله . كانت تقدس فى ذاته العليا أنوثتها وحبها وشريك حياتها ، وها هى تعود من غير حب ومن غير شريك ، ومعها أنوثتها مجروحة ومعها الله .

كرهت أبي

لست أدرى هل يمكن أن تكره البنت أباها ؟ وقد سألت نفسى وأنا أسمع قصة هذه الفتاة اليوم هل العلاقة التى تنشأ بالدم تستلزم حتماً الحب والوفاء والتضحية ، أم أن علاقة الدم لا تحمل هذه الخلال حتما ، وأن وجودها الحقيقى قائم على المعاملة الحسنة والتبادل فى العواطف والإحساسات

قالت الفتاة : منذ طفولتى وأنا أكره أبى . . . لست أدرى لماذا ؟ كان قاسياً علىّ أنا وأخواتى البنات . كان متجهماً . لا يرانا إلا قسا فى العبارة . لم نسمع منه إلا الأوامر والنواهى . . كان إذا دخل البيت دخلنا غرفنا وانكمشنا فيها كأننا قطط . . . ألغى شخصياتنا وقضى على تفكيرنا . لم نر منه تصرفاً رقيقاً ولا كلمة فيها حنان أو عطف . كنت أخافه كأنه (دراكولا) أو شبح مخيف . .

ولما تزوجت خرجت من بيته وأنا سعيدة . كنت مغتبطة لأننى سأخرج من السجن إلى الحرية . . . لم أتصور أن يكون هناك سجن آخر أقسى من هذا السجن . ولكن حدث ما لم أكن أتوقعه . . رأيت فى زوجى صورة أبى . . لست أعنى بذلك أنه كان قاسياً فى معاملتى أو كان يحول بينى وبين حريتى . . . كلا ، لقد منحنى من هذه الناحية كل ما أريد بل أكثر مما أريد . . . ولكنى أعنى أننى كرهته . . كان أبى هو الشخص الوحيد ، الرجل الوحيد الذى عرفته . . تمثلت لى فيه الرجولة كلها ،

الصنف كله . . . من سوء حظى أن عيون زوجى كانت مثل عيون أبى . . . كان إذا نظر لى تصورت أنه أبى ، وكان يدهش وأنا أقول له صارخة : أبعدهم عنى أنت بتفكرنى ببابا . . .

ويقول : ولكننى لست بابا . . .

وأبعد وجهى عنه وأقول : ولكنك مثله . . . أنت من صنفه . .

تكونت عندى عقدة قاسية ضد الرجال كلهم . . لم أحب أحداً . . . لا زوجى ولا غيره . . . ثم حدث تطور صغير فى حياتى . . . خالى . . . لست أدرى كيف حدث هذا ؟ أحببته على الرغم من أنه رجل . . كان عطوفاً رقيقاً كثير الفكاهة والمرح . . كنت أرتاح له وأجد فى نفسى الرغبة أن أفضى إليه بكل متاعبى . . أعطانى عواطف الأبوة التى حرمت منها . . كان بالنسبة لى أباً . كنت أشعر معه كما لو كنت طفلة صغيرة ... وجهت إليه كل عواطفى . . الطاقة التى كانت مكبوتة انطلقت

ثم مات خالى ، أصبت بصدمة شديدة . ما زلت ألبس السواد عليه . . لقد مات منذ أربع سنوات . . أنت لا تتصور الحزن الذى دخل قلبى . . الحزن والوحدة والضياع . طاقة الحب التى فى قلبى ، كان لا بد أن أجد شخصاً أمنحها له . . . وأعطيتها لأبى ، لست أدرى كيف حدث هذا ؟ ربما كان نوعاً من المصالحة بين نفسى وبين الرجال . . وربما لأن خالى عدل فكرتى عن الرجال . . . المهم إننى أحببت أبى حبا جنونيا . . أصبحت أخاف عليه وأكره أن أسمع كلمة تمسه . . ارتفع أمام عينى ارتفاعاً كبيراً . كان أنموذجاً للرجل الكامل . . كان يصلى ويتلو القرآن

ويحرص على السلوك الحسن أو هكذا تصورت . وكانت أمى أحياناً تشكو منه فكنت أدافع عنه وأنا مغمضة العين . . لا أطيق أن أسمع اتهاماً يوجه إليه وكانت أمى تقدم الأدلة الكافية لاتهامه ، ولكننى لم أكن أسمعها أو أقبلها . . إن الحب أعمى كما يقولون . .

كنت فى هذه الفترة أحب أبى أكثر كثيراً من أمى . . . ووقع فى حياتى حينئذ ما حول حياتى تماماً . لم أكن أحب زوجى . كان قلبى من هذه الناحية فارغاً . والتقيت برجل أسرنى برجولته وقوته ودهشت لأننى شعرت أن قلبى يتحرك له وينبض به . . . ؟ لقد تمثلت فيه رجولة أبى أو تمثلت فيه الجنس الذى منه أبى .. . لماذا لم أحب زوجى مثلاً بدلاً من هذا الرجل ؟ . سؤال لم أستطع أن أجيب عليه، ولا أستطيع الآن . . . ربما لأن زوجى تمثل لى أول الأمر فى صورة أبى الذى كنت أكرهه . . . وربما لأنه لم يعرف كيف يعاملنى . . . كان يؤثر الجانب الجسدى على الجانب الروحى وأنا أكره الجسد . . وربما لأسباب أخرى . .

وماتت أمى ، فتركز الحب كله فى أبى. أصبحت أحبه بشكل جنونى ولو مات أبى قبل أمى لجننت . . . والآن مات خالى ، وماتت أمى ، فأصبحت طاقة الحب كلها فى قلبى موجهة إلى أبى . سهرت عشر ليال كاملة بجوار سريره حتى شفى من الصدمة التى أصابته بموت أمى . كنت أبذل له نفسى راضية . لم يكن يهمنى شىء فى الدنيا إلا هو ، إلا أن يشفى ويعيش . . .

طول عمرى لم قبل يده ، ولكننى فى هذه الأيام كنت أمسك بيده ومن غير مناسبة أقربها إلى فى وأضمها وأقبلها كأننى أقبل كنز الحياة والخلود . . .

ثم وقع التطور العجيب الخطير .. بدأت أكره أبى . بدأت أرد عليه ، وأكاد أقول ، أشتمه . انهار المثل الأعلى فيه . عرفت بحكم اتصالى الكثير به بعد موت أمى أنه لم يكن أميناً لها ، وأنه ليس أميناً بعد وفاتها . كانت الأمانة أعظم صفة فيه . كنت أدافع عنه إذا اتهمته أمى . . والآن أشعر بذنب قاس لأننى كنت أفعل هذا . . . عرفت أن كل اتهاماتها له صحيحة . . عرفت أنه لم يكن أميناً لها فيما مضى ، وأنه ليس أميناً لها بعد أن ماتت .

انهارت الصور الجميلة كلها فى نفسى . . تدهورت الأفكار المثالية . . واختلطت فى داخلى الشرور كلها . وأصبحت أعتقد أن الدنيا كلها شر . . وكيف لا أتصور هذا والرجل الذى جعلته المثل الأعلى أراه يتدهور أمامى ويتعرى فإذا هو إنسان لا يرعى حرمة ولا يفكر إلا فى متعة نفسه .

وبدأت أكره الرجل الذى أحببته . اضطربت المقاييس كلها فى قلبى وعقلى وتفكيرى . . لا بد أنه مثل أبى ، رجل غير أمين وغير صادق ، لا يفكر إلا فى شهواته وملاذه ومتعته .

كنت أجد فى هذا الحب بعض العزاء . كان حبًّا روحيا لا جسد فيه ، ولكنه تدهور هو الآخر ، تحطم . . . وأصابتنى هزة خطيرة جعلتنى فى

مفترق الطرق . . وأصبح تفكيرى الآن : هل توجد فضيلة أو لا توجد . ؟ هل يوجد رجل أمين أو لا يوجد ؟

وكان الجواب الذى ألح علىّ إلحاحاً أنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد . . وأصبحت فى خطر شديد أن أنحرف أنا الأخرى انحرافاً كاملاً . . إن ما يعصمنا من الخطأ أنه توجد مقاييس ويوجد ناس يتبعون هذه المقاييس ، فإذا تبين لك أن أعظم من كنت تعتقد فيه أنه بعيد عن الانحراف ، منحرف شديد الانحراف ، كيف يكون تفكيرك فى الآخرين وتقديرك لهم . . . إننى فى خطر شديد . . وليس أمامى إلا واحد من طريقين ، أما أن أنقلب قديسة زاهدة متبتلة ساخطة على الدنيا وما فيها ومن عليها ، وإما أن أنقلب شيطاناً انطلق من كل القيود وحطم كل القيود ، ليس له من هم فى الدنيا إلا أن يسخر من الدنيا ، وينتقم للمثل التى عاش من أجلها والفضائل التى آمن بها .

حاول الرجل الذى أحببته أن يعيد إلىّ ثقتى بالناس وبالحب ، فسخرت منه وقلت له : أنت مثل أبى . . لابد أن تكون مثله . . تخدعنى وتخدع الناس مثل ما كان يفعل أبى فيما مضى ، ومثل ما يحاول أن يفعله الآن . .

قلت له : لا تتعب نفسك . كان كلامك فيما مضى غذاء وسحراً ، وهو الآن شوك يغز جنبى . . كنت أتأثر منه وبه فيما مضى وهو الآن لا يثير فى شعورى مثقال ذرة من تأثير . . أنت مثل كل الرجال . مثل أبى . .

والآن أنا فى دوامة .. فى حيرة ، فى قلق ، فى حزن . . هل تتصور أنى أتمنى أن يموت أبى .. أبى الذى عبدته يوماً من الأيام . . هل تتصور إننى أشعر أننى أذنبت فى حق أمى ، وأتمنى لو استطعت أن أستغفرها وأن أجثو تحت قدميها وأقول لها : حقا كنت ملاكاً . . أما أبى فهو الشيطان، اغفرى لى أن دافعت عن الشيطان يوماً من الأيام .

لماذا علمونا أنه توجد مثل عليا .. لماذا علمونا أنه توجد فضائل وفضلاء . قل لى : هل يجب أن يكون الأب محبوباً حتى ولو لم يكن أميناً ، حتى ولو لم يكن مثلاً حسناً ، حتى ولو كان مثلاً سيئاً . . .

وأنا أيضاً أخطأت ، لأننى أحببت غير زوجى ، ولكن الله يشهد أنه كان حبا شريفاً ، لم تدنسه لمسة من جسد أو عين خائنة ، ومع ذلك فقد أفقت إلى خطيئتى وأحسست بها أقسى ما يكون الإحساس . . إننى أفكر الآن فى التكفير عنها .. وكثيراً ما شعرت كأن ما أنا فيه الآن ليس إلا تكفيراً عن هذه الخطيئة ، وإلا فما بالك بإنسانة فقدت الثقة فى كل إنسان ، فقدت الثقة حتى فى نفسها وحياتها .

* * *

ولم أستطع أن أقنعها بشىء ؟ قلت : إن الأب يجب أن يحب حتى ولو كان مخطئاً حتى ولو ركبته الذنوب من يمين ويسار . . إن الذين يحتاجون إلى الحب أكثرهم المذنبون الخطاة .. أما الأطهار الأبرار فليسوا فى حاجة كبيرة إلى الحب . . يجب أن تعطى أباك الحب . . الحب الكامل المتسامح الغفور ، فلعله يرده مما هو فيه من شر . .

قالت : هل البنت هى التى ترد الأب إلى الخير ، أم الأب هو الذى ينبغى أن يردها إلى الخير ؟ .

قلت : الأقوى هو الذى يجب أن يفعل ، سواء كان هو الأب أو الأبن أو البنت وأنت هنا الأقوى . .

سكتت وفرت من عينيها دمعة وقالت : أبى . .

كانت هذه الدمعة إيذاناً بعودة الحب . . الحب الذى لعله لم يذهب.

العاطفة الآفلة

أحست أنها تدفن شعوراً لكى تستقبل شعوراً . . كان قلبها يفرغ شيئاً فشيئاً لكى يمتلئ شيئاً فشيئاً . وأحست بضياع مر ، هل هى سعيدة أم شقية ؟ .

ما بال القلب الذى امتلأ حتى ظنت أنه لا يطيق جديداً أخذ يتسع لمكان جديد . . بل ما بال القديم يتضاءل ويتضاءل وينتزع منها انتزاعاً ، وإنها لتحاول أن تستبقيه ولكنه يذهب . . تحاول أن تظل أمينة له ، ولكنها لا تستطيع . . تحاول أن تستعيد ذكرياته فإذا بها باهتة لا تثير نبضاً ولا حنيناً . . هل هى متقلبة ضالة الشعور والإحساس ؟

هل هى من بنات الهوى يجذبها الريح الأشد ؟ . . وقاومت الطارق الجديد . قاومته بكل ما فى قلبها من حب قديم . . حاولت أن توقظه . هزت شعورها وإحساسها عله نائم ، وقد ينقذه من غفوته الرج الشديد . . وأصفاه ولكنها كانت ترج زجاجة مثقوبة كلما زادت فى رجها زاد تسرب السائل الذى يملؤها .

ولم تكن تعرف أن قلبها مثقوب وأن حبها القديم أصابه تلف ، وراحت تدافع وتدفع عنه كل شر ، ولقيت صاحبها وفى عينيها شعاع مر كله دمع وقلق .

قالت وهى تسكن إلى صدره كالحمامة المذعورة : ضمنى وضمنى ..

أيقظ هواى كما كان يوم رأيتك . أعد إلىّ اللهفة والشوق والخوف والغيرة . تكلم كما كنت تفعل فيما مضى . . لا أريد أن تهدأ النار المقدسة . . لا أريد أن تنطفىء الجذوة التى منحتنى أحلى ما تمنح الحياة .

ونظرت إلى عينيه . . حاولت أن ترى فيهما ما اعتادت أن تراه . وله كما هو ، حبه كما هو ، حنانه السابغ الحلو كما هو . لماذا إذن ، لا يلتقى الشعاع المنبثق من عينيه بأوتار قلبها كما كان يفعل ؟ . . إذن هى التى تغيرت ، وليس هو وأحست كأن الخناجر تندس فى جسدها من كل مكان . . أحست بالذنب يشملها من رأس وقدم . . كانت تتمنى أن تشعر أنه هو الذى تغير . كانت ترجو أن تجد تبريراً لحرارتها التى تضعف ونبضها الذى يخبؤ ونور حبها الذى يشمله الظلام ، كانت تلتمس تبريراً من سلوكه هو ، وليس من سلوكها هى .

هى إذن التى ثقبت القلب كى يتسرب منه الحب ، إنها مذنبة . . وماذا يكون مصيرها ؟ أتراها تملأ قلبها ثم تفرغه لكى تعود فتملأه .

وكرهت نفسها .

وأجهشت بالبكاء بين يديه ، وسألها : ماذا يؤلمك . . أنت التى ملأت شعاع حياتى سعادة وهناء .

ولم يكن يعرف أنه يقتلها بهذا الكلام فزاد انهمار دمعها ، وزاد احتواؤها بصدره . . التصقت به أكثر وأكثر كأن غولاً تحاول أن تأخذها منه .

وقالت له : لا تدع الدنيا تعصف بى . . دافع عنى . . دافع عن

حبي . لقد عجزت أنا عن الدفاع عنه . أنت أقوى . . كلا ، أنت لست قويا . أنك لا تستطيع أن تنسيني الناس . . لا تستطيع أن تنسيني الدنيا . . إنك ضعيف . . لا ، بل أنا الضعيفة . . أنت مذنب فى حق حبنا . . كلا ، بل أنا المذنبة ، سامحنى .

ومسحت دموعها وشملتها طمأنينة عجيبة كما لو كانت قد اعترفت للكاهن بذنبها .

ولكن الكاهن تلقى الاعتراف وسكت . . كانت تنتظر منه أن يفهم الصراع الخفى فى قلبها ، ولكنه لم يفهمه . . ظن أنها موجة من موجات الشك والخوف ، وهل الحب إلا شك وخوف ؟

وسارت الأمور كما كانت قبل أن تلقاه . ظل الثقب فى القلب كما كان وظل الحب يتسرب رويداً رويداً لكى يحل محله الشعاع الجديد . وللجديد بريقه العذب وللقديم حنينه الأصيل . . كانت المعركة بين البريق الخاطف الباهر والشعور المستقر الهادئ . وكان القلق الجديد أقوى .

وخيل لها أن صفحات الكتاب القديم تطوى صفحة صفحة . .

ونامت ذات ليلة فإذا الطارق الجديد هو هواها وتفكيرها وأملها وهناؤها . وبكت كما لم تبك من قبل . لم يكن بكاؤها جزعاً ولا خوفاً ولا لهفة ولا محاولة لاستعادة الحب القديم . . كانت دموعها رثاء له ، كانت دموع فى المأتم ، مأتم الحب الذى ذوى .

ختام أم بداية ؟

كازينو فى الإسكندرية . . البحر رقيق طويل بعيد عميق . المائدة إلى جوارى مملوءة مردحمة بالناس والكلام والنظرات والانفعالات . . عالم من الناس إلى جوارى . . كان فيهم شاب فى ميعة الصبا فيه طراوة الشباب دون أن تكون فيه رجولة الرجال . . . أنيق متناسق أكمامه قصيرة ووجهه فيه نضارة شباب غض وعيناه فيهما نظرات تائهة شاردة حالمة . . يلف سلسلة فى يده يداعبها ، شعر متموج مهدل ، أهداب مسدلة كأهداب العذارى ، وإلى جواره فتاة فى مثل سنه وفى مثل نضارته . . جمالها أقرب أن يكون جمال شباب متفجر من أن يكون جمال وجه متناسق ، فيها أنوثة باكرة وشعاع عينين يسرى منهما نداء خفى . . الشعاع كأنه لغة ، والفم كأنه نقطة فى الظلام تومض ، شفتان فيهما شوق واحتشام ، نداء واستحياء . . ربما كانت الفتاة صديقة الفتى . . لا بل لعلها مخطوبة له أو زوجته . . كان هذا واضحاً مما فى اليدين . . وإلى جوار الفتى جلس رجل قارب الخمسين ليس فى وجهه جمال ولكن فيه رجولة . . عينان فيهما تجربة عميقة . . ومأساة مستورة . . من يدرى لعلها أكثر من مأساة . . لا يمكن أن يجعل الوجه فى مثل هذا التعبير والإغراء إلا تجربة عميقة طويلة فيها مأساة بل مآس . . وليس كالمأساة شيء يجعل الوجه عميقاً والنظرة نافذة والعقل فى مثل سعة الكون . . من المآسى ما يهد الرجل ومنها ما يبنيه

ومن الرجال من تهده المأساة ومنهم من تبنيه ، كان واضحاً أن هذا الرجل بنته المأساة وجعلت فيه هذا السحر الأخاذ ، سحر الرجولة المناضلة الأبية الباهرة الانطلاق . . لست أعرف من كان هذا الرجل وما هى صلته بالفتاة والفتى . . ربما كان صديقاً لوالد الفتاة الذى كان جالساً فى مواجهته إلى جوار ابنته . . الوالد رجل حازم سعيد فى الحياة ، كما يبدو ، شغوفاً بابنته راضياً مغتبطاً إنها وخطيبها ضيوفه .. كان ينظر إليهما أحياناً فى رفق ودعاء وأحياناً أخرى ــ أكثر الأحيان ــ ينصرف عنهما إلى جار له ربما كان صديقاً أو قريباً بينهما سر أو عمل أو تجارة أوما شئت من شئون الحياة ، كان أكثر أنساً إليه وأكثر انطلاقاً فى الحديث معه والاحتفال به . . بينما كان الرجل ذو الخمسين صاحب الوجه المحفورة فيه المأساة شديد الاهتمام بالفتاة والفتى ، لعله كان يرى فيهما صورة من شبابه . . لعله كان يرى فيهما صورة من ابنه وابنته ، لعله حرم الأولاد فهو يرقب حبهما وكأنه حبه . . . ويرقب هناءهما وكأنه هناؤه .

* * *

كانت الفتاة شديدة الإنصات إليه، دائمة النظر فى وجهه. هل تقرأ المأساة أم تعجب بها ؟ هل تسأله سر رجولته أم أن رجولته المكتومة الجريحة بهرتها . . . هل تمنت أن يصبح فتاها يوماً من الأيام فى مثل صرامة هذا الرجل وسكونه ووقاره ؟ كانت كلها آذان مصغية إليه كأنما تسمع همس قلبه وخفق وجدانه . . . تسأله وتسأله ولا تكف عن توجيه السؤال إليه وتلقى الجواب منه .. أما فتاها فقد رجع إلى وراء الصورة . .

ترى ماذا دار بخلد الفتاة حينئذ ؟ هل أرادت أن تأخذ من ضوء هذه التجربة بعض القوة فى الحياة . . . أرادت أن تستشف من تاريخ الرجل بعض ما يهديها فى صحراء الأيام المقبلة .. كان الرجل أمامها كتاباً ضخماً قويا مثيراً وكان فتاها أمامها جزءاً من كتاب صغير تكاد تعرف كل شىء فيه . . ليس هناك سر ولا خوف ولا قلق ولا مأساة . . حياة صغيرة لا يزال صاحبها على الشاطئ . . أما هذا الرجل الذى خاض الموج واصطلى بالنار وشرب المرّ والحلو . . وعاش الخير والشر ماذا فى كتابه الضخم ترى ما وراءه من مغامرات ؟ ماذا فى حياته من نجاح وإخفاق ؟

* * *

وأدرك الرجل ما فى صوته من سحر ، هل كان السحر فى حديثه أم فى صوته أم فى هذا العمق العميق الذى يصدر عنه الحديث والصوت ؟ كان فى حياته كلها ، كان فى سنوات عمره الطويلة وما حفلت به من تجارب وما عاش فيه من مأساة أو ملهاة . . كانت الفتاة أمامه زهرة صغيرة جميلة ليست فيها تجربة تستهويه وهل صاحب التجارب فى حاجة إلى تجارب تستهويه؟ لقد فرغ منها وشبع . إنه فى حاجة إلى زهرة جميلة صافية أنيقة يشمها ويحس بعطرها ونمائها .

وضاق الفتى بما أسرفت فيه فتاته من التفاتها إلى هذا الكهل العجيب . هل يمكن أن تستهوى الكهولة فتاة فى ميعة الصبا . . . وكذب عينيه ولكن الفتاة ظلت على موقفها من الرجل واحتفالها به وانطلاقها معه .

وأراد الرجل أن يطفئ سيجارته . . فرغ ما فيها من دخان استنشقه مع

عطر الفتاة الجميلة التى جعلت حديثه أعمق مما هو وتجربته أروع مما هى وجعلت وجهه يشرق بما لم يشرق به من سنين ومد يده لكى يطفئ السيجارة فى الطقطوقة الموضوعة على مقربة من الفتاة ، وفى الوقت نفسه كانت الفتاة تتهيأ لإلقاء ورقة فارغة كانت فيها بعض الحلوى ومست أصابعها وهى تضع الورقة فى الطقطوقة أصابع الرجل بينما كان يلقى بالسيجارة المحترقة .

* * *

هل كانت مصادفة أم تدبيراً ؟ هل كانت مجرد رغبة أن تمس يد الرجل الذى سحرها حديثه وسحرتها رجولته .. وما خطب الشاب الصغير الجالس إلى جواره .. إنها فى مثل سنه ، ترى هل رأت فيه ميوعة وخفة وضآلة ووجدت فى الكهل العميق الصارم المبتسم رجولة واتزاناً وضخامة . هل قارنت بين فتاها وبين الكهل فرجحت كفة الكهولة على كفة الشباب ، أم أنها لم توازن ، وكل ما فى الأمر أنها رأت فى الرجل المكتمل صورة فتاها حينما يكتمل ، فذهبت بخيالها تستعجل السنين لكى ترى خطوطها العميقة على وجه الفتى الذى اختارته الأقدار زوجاً لها ..

هل الأقدار هى التى اختارته ، أم أن ما بينها وبينه حب ؟ إنها لتزعم هذا وأنه ليزعم هذا ، ولكن مالها ارتجفت واضطربت وهى تسمع حديث هذا الرجل . . . مالها أحست أن فتاها بالنسبة له طفل غرير . . . وهى أليست طفلة أيضاً . ربما كانت فى السن ولكن من يدرى لعلها بالعقل عميقة بعيدة الغور لا يستهويها إلا عقل قوى ناضج تشعر فى ظله بالضآلة

الجميلة والحنان القوى . .

ونهض الجميع . وسلم الأب واصطحب العروسين وانصرف بينما سلم الرجل على العروسين وانطلق بعدهما ... والتفتت العروس وراءها للرجل فحياها بابتسامة فيها شبه اعتذار وأسى . . . إنه يعرف أنه حطام رجل يسير إلى المغيب وهى نجم مشرق يسير إلى سمت السماء . .

* * *

ولاح للكهل المحب مدى الفرق البعيد . . وبعد أن كان متهيئاً للخروج ، عاد وجلس حيث كان يجلس ، والمائدة حوله فارغة ووضع رأسه بين يديه وراح يفكر ويتأمل . .

هل انتهى كل شىء مع انتهاء السيجارة التى انطفأت أم أن لهذه القصة بقية .

مغيب وإشراق

توفى زوجها ، فلبست الحداد . كان ذلك منذ عشرة أشهر .

الدنيا المظلمة ، اليأس القاتل ، الموت والحياة يتساويان أمام ناظريها ، لماذا نعيش وكيف نعيش بعد أعزائنا؟ إن الحياة ليست إلا الصحبة الجميلة والأرواح المتلاقية والأفئدة التى يفهم بعضها بعضاً ، وإذا خلت من ذلك لم يصبح لها طعم . الموت إذن هو العلاج .

وقرأت عن الموت ما لم تكن قد قرأته من قبل . وتولتها صوفية عجيبة . إذا رأت الناس يكدحون ويجرون تبسمت ساخرة وقالت : ليتهم يعلمون من أمر الموت والحياة ما أعلم .

حجبت نفسها عن المسرات ، وكتمت فى قلبها الألم الذى فى الدنيا كله ، وخيل إليها أن الحكمة التى تطلع على الناس ، وهم فى الظل بين الموت والحياة ، قد طلعت عليها .

الظل بين الموت والحياة ، إنها تعيش فيه ، هذا الخط العجيب الذى لا مسرة فيه ولا طموح ، لا خوف ولا طمأنينة ولا اهتمام ولا أسى ، بماذا نهتم وعلى أى شىء نأسى ؟ زوجها مات ، الرجل الذى اعتمدت عليه تركها وذهب . العصا السحرية التى كانت تتوكأ عليها انكسرت . قلبها انكسر ، روحها المشتعلة انطفأت . ماذا بقى لكى تقول إنها ماتت ؟ لم يبق إلا القبر وهى تعيش فيه . .

وانعزلت عن العالم بين ذكريات زوجها . هنا كان يقرأ ، على هذه العتبة ضمها بين جناحيه . فى هذا المخدع قضت أسعد لياليها . وهذه الحديقة المحيطة ببيتها كانت فى عرائس أحلامها ؛ اعتادت أن تستقبل مع صباحها خيوط الذهب وزوجها نائم ، وأن تستقبل مغيب الشمس كل يوم وهو بين أحضانها ثم يلفها الليل فى صمته . . ويلفهما الحب فى حنانه

وبكت عند كل مشرق وعند كل مغيب ، وملأت وسادتها الدموع

أطفأت الشموع والمواقد وانسحب سواد الليل على بياض النهار . وماذا يعنيها من الليل والنهار ؟ كان زوجها هو الساعة والميقات . ترقب انحدار الشمس لأنه هنا يأتى وترقب إشراقها لأنه هنا يذهب ولكنه ذهب ولن يعود فاستوى لديها أن تشرق الشمس أو تغيب .

كانت متعتها القراءة والسفر والنظر فى الكون والناس فلم تعد تحب أن تقرأ أو تسافر أو تنظر فى الكون أو فى الناس . كانت تحيا هذا كله بعينى الرجل الذى اختارته لكى يكون رفيق الحياة ، وها هو قد تعجل السفر فقيم المقام . وألحت عليها فكرة ظلت تتضخم وتتضخم . . . . إنه يدعوها إلى السماء فلماذا تتريث ؟ إن صوتاً يهمس فى أذنها وكأنه القدر يقول لها : ألا تسمعين ؟

* * *

واستيقظت ذات يوم ولأول مرة منذ وفاة زوجها ، أحسست فى نفسها رغبة فى أن ترقب مشرق الشمس ، وفتحت نافذتها ، واستقبلها مع الصباح نسيم بارد ندى ، ولأول مرة أحست همساً رقيقاً وشملتها طمأنينة عجيبة ،

وتأملت الشمس وهى تبزغ من وراء الأفق خلال الشجر واستغرقها هذا الجمال الساحر ، وكأنه ميلاد أمل ، ميلاد حياة ، وجفلت وأقفلت النافذة ، وارتمت على فراشها تبكى واستغفرت زوجها مما أثمت .

واستعاذت من شر هذه الطمأنينة . وفى هذه الليلة قرأت لأول مرة عن موضوع آخر غير الموت والحياة بعد الموت ، كانت خلاصة القصة أن الوقت هو أحسن عزاء وأن مرور الزمن هو البلسم الذى يشفى كل الأحزان واستقرت عيناها عند عبارة تقول : « إن الحياة أقوى من الموت وأن إرادة الحياة تقهر الموت » .

وأطبقت الكتاب ، وطفقت تتأمل هذا الكلام ، واستغرقت فى النوم وفى قلبها صراع مر وفى فؤادها أسى قاتل ، هل يمكن ؟ هذا مستحيل ، كلا . كلا .

ومرت الأيام وبدأت تستقبل الناس ، وافتر ثغرها من الابتسام ، واعتنت بهندامها وصففت شعرها ، ووقفت أمام المرآة ، وأنكرت هذا الذى تصنعه ولكنها لم تتوقف استمرت فى زينتها ، ضعف الصراع ، انتصرت الحياة .

فتحت بيتها ، فتحت نوافذه . بدأت الأشجار فى الحديقة تهتز والنسيم يداعبها . بدأت ترقب مشرق الشمس كل يوم ، وترقب مغيبها كل يوم ، حتى إذا أقبل الليل ، أوت إلى فراشها واستغرقت فى النوم والأحلام .

وحام حولها الرجال .

جهالة الرجال

فتاة بارعة الجمال مثقفة أمينة هادئة هائمة فى الأحلام، تزوجت رجلاً من رجال الأعمال موفقاً موفور الحظ والنجاح . ملأ حياتها ثروة ومتاعاً . . فساتين وجواهر وسفر إلى الخارج وخدم وسيارات وحفلات . ومرت الأيام فرحت الفتاة أول الأمر بهذه المظاهر أو شغلتها فترة من الوقت . وأنجبت طفلة فازدادت مشغوليتها ووضعت فيها كل حنانها وأحلامها .

وكانت الزوجة تحاول أن تصرف زوجها بعض الشيء عما هو مندفع إليه من جمع المال ، ملأت بيتها بكل أنواع الموسيقى ولكن زوجها لم يكن يستطيب السماع إلى عزفها . كان مشغولاً دائماً بمشروعاته . لا حديث له إلا هذه الصفقة وكم ربحت ، وهذه الصفقة وكم تكلفت . لم يكن بخيلاً ولا محبا للمال ، ولكنه كان كريماً محبا للنجاح . المال عنده رمز التفوق والقدرة والكفاية . كان يسعده أن ينجح لا لأنه سيزيد ما لديه من مال ، ولكن لأنه سيزيد ما حققه من نجاح .

ومرت الأيام ، وفراغ القلب يرعب الزوجة . كانت تحب زوجها ولكنه لم يكن يشعر بهذا الحب أو يشعر به ولا يغذيه . كان واثقاً من أمانتها وإخلاصها ولعله كان يردد بينه وبين نفسه « إننى ألبى كل مطالبها. ما من شيء ينقصها» ولكنه لم يكن يعرف عمق الفراغ الذى شتت أفكارها وجعلها تأوى إلى فراشها كم من ليال باكية موجوعة الفؤاد .

وحام حولها الرجال فإن أنوفهم تشم بمهارة كما يشم الصياد رائحة الفريسة . وأكثر الذين حاموا حولها كانوا من معارف زوجها وأصدقائه وممن يغشون حفلاته أو يشتركون معه فى مشروعاته وأعماله فكانت تردهم فى رفق حتى لا تثير زوبعة فى بيت هادئ ، وإن كان ميتاً . ورضيت بقسمتها ودفنت أحلامها فى مهدها ، وكتمت أساها ودموعها وبدت كأنها زوجة سعيدة تعيش بهواها فى بهر النجاح الذى يحالف زوجها وكأنهما صديقان لا يفترقان .

ثم وقعت الكرثة الى كانت تتحاشاها .

استعصى عليها أن ترد صائداً ماهراً من صائدى النساء . كان شابا يصغرها بأعوام . لمحت فى عينيه بريقاً عجيباً ، وفى صوته دفئاً يهز كيانها هزا . واستعاذت من الشيطان وهربت من كل مكان تلقاه فيه . وغضت من بصرها حتى لا تلتقى بنظراته ، ولكنه كان قريباً من بيتها أثيراً لدى زوجها فهو ابن أحد أصدقائه وشركائه فى عمله . وكانت السن قد تقدمت بها فأضحت تطرق أبواب الأربعين ، فضجت أنوثتها حتى أضحت نداء عميقاً ، تحاول إخفاءه فلا تستطيع ، وكأنما أحلام حبها التى ظلت فى ستر بين مخدعها ونفسها بدأت تتنفس ، وراعها أن تشعر بضعف نحو شاب يصغرها بهذا العدد الكبير من الأعوام ، وأوت إلى ربها تسأله المعونة وتصلى وفى قلبها نار تتلظى .

وكان الشاب يكاد يجن بها ، حديثه ، نظراته ، حركاته ، تلميحاته ، تخايله على الانفراد بها . . . وكانت تتغاضى عنه وتهرب منه مرتاعة وتتحاماه كأنه

وباء وفى داخلها صوت كئيب كأنه فحيح الأفاعى يقول لها ، أنت جاهلة حمقاء . لقد أرقت دماء شبابك وأضعت أحلى سنوات عمرك دون أن تحسى لهيب العاطفة المشتعل .. لا تجيبى ، لا تخافى . . . ثروة ، فساتين ، جواهر ، سيارات ، حفلات . . هل أنت دمية ، إنك امرأة ، حياتك فى قلبك وعاطفتك .

وكان الصوت يرتفع أحياناً فى داخلها حتى لكأنه طنين صاخب مجاجل فتخرج من وحدتها إلى الناس وتندفع فى المجتمعات تضحك وتقهقه ، من ينظر إليها يشعر أنها أسعد امرأة فى الوجود ومن يعرفها يدرك أنها أشقى امرأة فى الوجود .

* * *

وكانت ليلة أقام فيها زوجها حفلة ساهرة جمعت رجال الأعمال والسياسة والأدب والصحافة وأشرقت فيها زوجته بكل أنوثتها وجمالها وأساها ونظراتها الحائرة القلقة . كانت حيثما سارت تتابعها أعين نهمة ، أخفت نهمها وراء ستار من أدب الحديث والمجاملة . ولم تكن تخشى هذه العيون جميعاً . كانت بالنسبة لها رعية وهى الملكة . . إنما كانت تخشى عين رجل واحد كانت تلاحقها وكأنها صخب صاخب ونداء صامت . ترقبها وكأنها تأسرها ، تبتعد عنها وكأنها تقترب إليها . . تهرب منها وشعاعها فى قلبها وكيانها . . .

وانتهز الشاب فرصة استطاع أن ينفرد فيها بالمرأة المرتاعة الملتاعة ، وكساها الخوف والقلق واللهفة والإيمان والخطو الخفى الرهيب نحو الخطيئة

جمالاً ساحراً وعذوبة آسرة . . . كانت كالطير الجارح، وقد انكسر جناحه فهو ينزل من سمائه إلى أرض يعرف أنه فيها فريسة ضائعة .

قال : سيجارة

قالت : أنت تعرف أنى لا أدخن . .

قال : إنى لا أعرف عنك شيئاً ، أنت لغز محير . .

قالت : ولم تستطع حله

قال : تمنيت أن أفعل ، ولكنك تزدادين كل يوم غموضاً .

قالت : أنا نفسى ، لا أعرف نفسى .

قال : وهاتان العينان اللتان لم أر لسحرهما مثيلاً . . ألا تدلانك على نفسك ؟

قالت : أنت تبالغ . . . (وبلعت ريقها الذى جف وتماسكت وهى تكاد تتهاوى)

قال : انظرى فيهما وأنت تعرفين نفسك ، تعرفين كيف تنفذين إلى القلوب . انظرى إلى ما فيهما من شعاع . إنهما وحدهما عالم . من الفتنة والسحر والجمال والأسر ، أنت ظالمة . .

قالت : كفى . . كفى . . دعنا نندمج فى الناس . لا بد أن أحييهم إنهم ضيوفى .

قال : إنك تهربين منى . . إنى لا أعرف . . أعرف . . أعرف كل شىء .

ارتاعت . . كانت نبرة صوته قوية خافتة ، وكأنها يد تنزع

ملابسها عن جسدها ، أحست أنها عارية تماماً ، وأن كل ما تخفيه قد انكشف أمامه .

قالت : إنك تخرف . . أنت لا تزال قليل التجربة . . ولماذا أهرب منك ، أنت مثل ابنى .

قهقه الشاب ضاحكاً وقال: هذا ما تقولينه . ولكن ما تحسينه شيء آخر إنى لأعرف . . أعرف . . لن أدعك تفلتين منى . أنت هواى وأحلامى وسرى ونجواى. . أنت كل شيء لى فى الوجود . .

وارتاحت أذنها لهذه العبارات، وأوشكت أن تغمض عينيها وكأنها تقول له ، لا تكف عن الكلام . . استمر. . استمر . ولكنها ارتجفت وصرخت بصوت مبحوح : اسكت . . أسكت . . أنت وقح . . اذهب عنى . سأقول لزوجى كل شيء . .

أجاب فى ابتسامة كلها ثقة وطمأنينة : لن تقولى له شيئاً. إنى أعرف . . أعرف .

* * *

وكانت ليلة حاسمة قضت ما بقى منها فى فراشها تئن وتتوجع وتسائل نفسها ماذا يكون المصير ؟ وقالت: سأقول لزوجى يجب أن يمنع هذا الفتى عن المجيء إلى بيتى . . لا بد . لا بد .

وأصبح الصباح ، ولكنها لم تقل شيئاً . استرجعت ما حدث أمس . وأحست برجفة رقيقة جميلة وتبسمت.

ومرت الأيام، ثم وقعت كارثة أخرى . تقدم الشاب لخطبة ابنتها ،

وثارت تقول لزوجها : لا يمكن أن أوافق على هذا .

قال الرجل : ولكنه شاب ناجح موفق متعلم ، طيب الخلق ، أبوه صديقنا وشريكنا . وقد سألت ابنتى فوافقت ورحبت . . إنها تحبه . . تحبه . . أنا واثق من ذلك .

وهوت المرأة المتعالية بين يدى زوجها تنتحب كطفلة . واحتار الرجل ماذا يصنع وحسب أنها تبكى لأنها لا تريد فراق ابنتها الوحيدة ، فوضع يداً حانية على كتفها وقال : انهضى يا عزيزتى . ستقيم ابنتك وزوجها معنا . .

وازداد نشيجها وصرخت . كلا . . كلا . هذا ان يكون . . أو تدخل النار إلى بيتى . . ارحمنى . . ارحمنى . أنت لا تعرف . .

هز الرجل رأسه فى ابتسامة وقال : بل أعرف . إنه حبك لابنتك . . لا تريدين أن يشاركك أحد فيه . .

صرخت : يا للجهالة . . جهالة الرجال ، إنكم تعرفون فقط كيف تجمعون المال .

مات رجل وجن رجل

شهدت فيلم « آخر الفضائح » ولم أذهب إليه لأننى مغرم بالفضائح ولكن لأن فيه — كما عرفت — تحليلاً لعاطفة من العواطف العميقة التى تنشأ فى صمت عجيب وتعيش مع الإنسان ، وكأنها جزء من كيانه . ولعلنى عرفت فى الحياة أعظم منها ، ولكن للشاشة سحرها. والقصة فيها تكون معروضة أمامك من أولها إلى آخرها ، ترجك رجا عنيفاً ، وتكاد تحبس أنفاسك حبساً ، فإذا بك مبهور ، متلاحق النبض ، مأخوذ وكأنك تعيش مع الأبطال ، وتقاسمهم الهناء والشقاء .

فتاة بكر العواطف . فيها جمال ساحر كجمال الندى ، وانطلاق آسر كانبثاق الفجر ، وسلام نفس وقلب كأنها زهرة تداعبها النسائم . . لم تكد تبلغ العشرين فلها ، عدا الجمال ، بكور الحياة فى أصباحها المتفتح للهوى والحب والهناء . .

التقت برجل أشرف على الستين أوجاوزها . له زوج وأولاد وحياة طويلة من الكفاح والنصر ، وفيه قوة رجولة نضجت ومالت إلى المغيب وكأنها تتكسر على شاطئ صلب ، فهى تقترب منه فى بطء عجيب . . والله وحده يعلم كيف انطلق الشعاع من قلب الطفلة الغريرة إلى قلب الرجل المفعم بالمزائم والانتصارات . . . الله وحده يعلم كيف اجتمع المشرق بالمغيب . وكيف انسجمت ابنة العشرين ، فرأت فى كهل يخطو إلى

الستين فارس الأحلام الحبيب .

ونظرت إليه بعينين فيهما الضراعة والنداء ، وانتفض الرجل وتولاه رعب عميق . . وكأنه يسأل نفسه : هل هذا ممكن ؟ . . كلا . كلا . .

ولكن نداء العينين كان أقوى من المنطق والعقل . . كان انبعاث وجدان وقلب وشعور ، وهو . . أتراه أشفق عليها ؟ أتراه أحبها ؟

لم يكن يستطيع الإشفاق . كان الحب . ولم يسعه إلا أن يقترب منها . ووضع فمه على فمها وقبلها فى لهفة وعنف ولكن فى حنان وحب أعمق من اللهفة والعنف ، وكأنه أودع فيها سحر رجولته وتجربته ، وجماع ما كسب فى الدنيا من نصر وفخر . . وتلقت الفتاة القبلة الهادئة الرقيقة وكأنها أعصار هزها هزا . . وانفرجت شفتاها فى نداء أعجب وكأنها تقول له « مرة أخرى يا مولاى . . يا حبيبى يا أبى ، يا فارس أحلامى . . يا دنياى كلها »

وأوشك الرجل أن يستجيب لها ، ولكنه كف نفسه تحت ثقل السنين وكأنه يقول لنفسه كيف يلتقى المغيب بهذا المشرق الجميل ؟

ونهرها بل قسا عليها . . اتخذ دور الأب . وكان منذ لحظة فى دور الحبيب ، وقال لها : هيا انصرفى . . . لا تعودى إلىّ ثانية ، . إياك أن تفعلى .

ولكنها لم تستطع إلا أن تفعل . استولى عليها وكأنه ساحر . ولم يجد الرجل إلا أن ينقذ نفسه منها وينقذها من نفسها فأودعها مدرسة داخلية فى ضاحية بعيدة عنه . وقال لها : ستعيشين هنا ، ستتعلمين ، ستصبحين

زوجة وأما . . . اتركي حياة المسارح والرقص . . . لا أريدها لك .

وتولى عنها وكان يترك معها نفسه وقلبه ، وانصرفت الفتاة إلى صاحباتها تائهة اللب موزعة النظرات. وخيل إليها كأن المدرسة الراقية الجميلة سجن قاتم ، واصطلح عليها السقم والمرض .

قال الطبيب : ليس بها من علة . . وتهالكت والوقت نصف الليل والسكون شامل والأرق يعذبها . وذهبت تطلب رقم تليفونه ، ورد عليها صوت يقول : إن هذا الرقم تغير . . . الرجل الذى تطلبينه لا نعرف رقمه الجديد .

وصرخت كأن أمواج المحيط تبتلعها وقالت وهى مخنوقة : غير رقم تليفونه . .

وهجرت مدرستها . فرت منها كالمجنونة والتقت بشاب غنى عرض عليها الزواج والسفر إلى أوربا . . وسافرت ورأت أجواء جديدة . وفوق جبال الألب والثلج الأبيض يتوج القمم ، والصوت يدوى فى الفضاء كأنه دعاء إلى السماء قال لها الشاب : هل توافقين على الزواج منى ؟ فرفعت عينين مبللتين بالدمع والريح يصفر والثلج منثور والدنيا من حولها فضاء وما من حجاب بينها وبين السماء وقالت : دعنى أفكر .

وعادا إلى أمريكا . وفى الطريق بين ردهات القطار المنطلق فى جنون كأنه الغيب النازل ، قالت له : أتزوجك .

وأقام الزوجان فى بيت أنيق . فيه ثروة وذوق وجمال ، ولكن ليس فيه حب . واستبدت بالشاب غمرة قاتلة ، وغلبها بشكه . وفسر كل حركة

بأنها عودة إلى هواها القديم . قالت له : إننى لن أقابله لقد انتهى كل شيء .

وذهبا ذات ليلة إلى أحد الملاهى. الزوجان على مائدة ومعهما بعض الأصدقاء . . وجاء الرجل الكهل ولمحته الفتاة ودارت برأسها معه ، وتملكها وجوم فيه كبت وعذوبة وعذاب وصبر .

وقالت : أريد أن أنصرف ، فقال زوجها : بل تبقين . .

وأصرت فنهض معها . وساعدها فى ارتداء معطفها ، وتركها فى صحبة بعض أصدقائه وعاد إلى الصالة يسير فيها ثابتاً أومجنوناً مستقر الخطى ثائر الوجدان ، حتى إذا وصل إلى مائدة الرجل أخرج مسدسه وأفرغ فى دماغه الرصاص وكانت مفاجأة أذهلت الحاضرين ، فانصرفوا فى رعب وهلع ، بينما صرخ الشاب فى وسط القاعة الخالية والمسدس فى يده ـ : لقد قتلت هذا الرجل لأنه أفسد زوجتى .

وطغى رجع الصدى ، وكأنه حكم على حب باليتم وعلى زوجة بالترمل .

وحوكم الشاب وبرأه المحلفون ، ولكنهم قرروا أنه مجنون . وسيق إلى مستشفى الأمراض العقلية بينما عادت هى إلى حياة الملاهى ترقص وفى قلبها حزن وفى عينيها غموض شبيه بغموض القدر .

وقال متعهد حفلاتها وهو يعلن عنها : ستشاهدون رقصات المرأة التى مات من أجلها رجل وجن رجل . . .

هل أنا الصانعة ؟

سألت نفسها وهى فى شبه غفوة: إلى متى سيظل حبى فى الظلام ؟ ضقت بالكتمان . فيض السرور الذى يشملنى أحب أن أعلنه للناس ، فيض الحزن الذى يكاد يقتلنى أحب أن أعلنه للناس . . أو كتب على أن أفرح، إذا فرحت ، فى سر من الناس ، وإذا حزنت ففى سر منهم أيضاً . . . إن بريق عينى أحياناً يبهر زميلاتى . . يطلن النظر فيهما . . . سألتنى واحدة منهن ذات يوم : أنت سعيدة؟أجبت : أسعدمخلوقة فى الدنيا ؟ . .

قالت : تحبين . . .

وسكت لحظة ولم أعرف كيف أجيب ثم قلت منكرة أشد الإنكار : لا . . . لا . . . حب أيه . .

ولم تصدق صاحبتى . . قالت : هذا البريق لا ينسج شعاعه إلا الحب . .

سألتها : أو تعرفينه ؟ هل أحببت ؟

أجابت فى بساطة : لا أستطيع أن أعيش من غير حب ..

— وتعلنينه لكل الناس . . .

فنظرت إلىّ دهشة وقالت : وما شأن الناس بحبى ؟

— تحبين فى الظلام ؟

ــ الحب عالم كامل . ليس فى حاجة إلى عوالم أخرى . فيه النور والظلام الهناء والشقاء . . . فيه كل شىء ، إنه حياة متكاملة .

ــ ألم تشعرى ذات مرة أنك فى حاجة إلى أن تعلنى للناس حبك ؟

ــ وما حاجتى إلى أن أعلنه لهم ؟ . . إن شعورى بالحب يجعلنى أحب كل الناس . . . وهذا هو الإعلان . .

وعند هذا الحد افاقت من غفوتها ، ثم نهضت ترتب شعرها وتغنى وجلست إلى كراستها وكتبت « كل الكائنات الحية تنعشها الشمس والنور الحب أيضاً لكى يعيش فى حاجة إلى الشمس والنور . إن الظلام يقتله » .

وتوقفت لحظة ثم سألت نفسها ، كيف أحببته ، ولماذا هو دون الناس كلهم . . لماذا إذا حدثته اضطرب قلبى ، وإذا سمعته يتحدث شعرت أنه يتحدث لى وحدى كأننى أنا وحيه وملهمته ؟ . . أراه فى ضوء القمر وحفيف الشجر وسكون الليل . . . هو . . . وحده . . لماذا ؟ هل أستطيع أن أقول لأمى إننى أحبه؟ هل أستطيع أن أقول لأبى ؟ هل أستطيع أن أقول للناس إننى أحبه ؟ . . كلا . لا أستطيع . . لا بد أنه عمل غير لائق لا يجوز أن أقدم عليه وإلا لاستطعت أن أفضى به إلى الناس . . ولكن لماذا هو عمل سيىء ؟

وأرادت أن تسجل هذه الخواطر ولكنها توقفت . . . حتى الكتابة فيه ممنوعة . لا مكان له فى غير القلب « إنه المستودع الوحيد الذى أشعر بالاطمئنان وأنا أتحدث إليه

إننى أعيش هنا وكل ما عدا ذلك كذب . أعيش فى هذا البيت وأنا

غريبة عنه ... سألتني أمي أمس لماذا أنت مكتئبة ؟ هل تحسين بالصداع ؟ أنا عارفة إن صحتك ضعيفة . . . أنت مهملة .

« وكان لا بد أن أعترف بأنني مهملة وبأن صحتي ضعيفة وبأنني أشعر بالصداع . . . وكان هذا كذباً آخر.

سمعت أبي يقول أمام ضيوف كثيرين إنه يكره شخصاً بالذات واسرف فى ذمه والتشهير به وأعلن اسمه صراحة .. إن أبي لا يكف عن إعلان هذا أمام كل الناس .. الكراهية يمكن أن تعلن ، أما الحب فيجب أن يعيش فى الظلام .

ولكن هل هو يعيش فى الظلام . إن صاحبتى قالت لى إن الحب عالم وحده ، حياة مستقلة متكاملة يمكن أن يعيش . . . منعزلاً عن الدنيا . يمكن أن ينمو لأن شمسه منه . . كيانه منطو فيه ، حيويته تنبع من ذاته ، ليس فى حاجة إلى شيء آخر خارج عنه . عواطف الدنيا مركزة فيه، هناؤها وشقاؤها ، نورها وظلامها . . كل شيء هنا فى هذا القلب .

ما حاجتى إلى الإعلان ؟

ولكننى كى لا أعلنه لا بد أن أكذب وأنافق وأضلل . . . كل الرذائل التى كنت اضيق بها أول الأمر ، ثم أصبحت لطول الممارسة وكأننى لا أستنكرها .

هل الحب هو المسئول، أم أن الذين يمنعوننى من أن أعلنه هم المسئولون ؟

إذا كنت أنا المسئولة ، فهل أنا صانعة هذا القلب ؟

الملاك ينزل إلى الأرض

أحسست أن شخصيتها تنفلق إلى شخصيتين. أنكرت منهما امرأة ثائرة متمردة بدأت تنمو بين جنبيها كأنها جنين لا تعرفه . . من أين بذوره ؟ من أين نطفته؟ من أى العوالم جاءها؟ وقاومته. . . وقاومتها، هذه المرأة الجديدة التى بدأت تدخل حياتها لكى تهمس لها دائماً بالخطيئة والشر والذنب . . إذا سكنت الحركة حولها وأوت إلى فراشها ، أخذت هذه المرأة المتمردة توسوس لها : أنت تعيشين . . كلا أنت تقتلين نفسك . . هل تستطيعين أن تقولى لى لماذا تعيشين ؟ للحب . . كلا ، أنت لا تحبين تأكلين وتشربين كالأنعام لا أكثر ولا أقل . . الأضواء . . المباهج ، الدنيا التى تدور وكأنها طاحونة من بلور ماحظك منها ؟ . . افتحى الراديو إلى جوارك ، اسمعى الموسيقى الحالمة .. أديرى المفتاح تسمعى صخباً وضجيجاً وضحكاً وحياة . . وأنت أنت ..هنا فى هذا الفراش البارد ، فى هذا الضوء الخافت دون صوت هامس يبثك حبه ونجواه . .

وتتململ المرأة وتضىء النور وتهرع إلى كتاب تقرأه ، ولكن رنين الصوت الخفى لا يكف . أنت تقرئين ؟ يا للجاهلة الضائعة . . حكمة تنشدين ؟ لقد قرأت عشرات الكتب ، لا عمل لك إلا أن تقرئى؟ ماذا كسبت ؟

وأحست كأنها ترد: ولكن القراءة متعة . . إنها غاية ، أنا أشعر بالهناء

والسعادة حينما أقرأ . . الكتاب صديق وحبيب . . الكتاب كل شيء . .

— أوهام يا صاحبتي ؟ إذا أطبقته ارتددت إلى وحدتك وبرود حياتك وضممت ذراعيك على لا شيء . .

— بل ضممت أحلامي على كل شيء .

— أوهام مرة أخرى يا صاحبتي .. لو أخذ كل الناس بفلسفتك ، لأقفرت الدنيا . . أجدبت من الموسيقى والحب والوله والخوف والقلق والصبر والجزع وفرحة الانطلاق التي لا تبارى .

— كل هذا أحس به ، إن لي عالمي الذي لا يشاركني فيه أحد . . إنني اتكلم معه كما لو كان حقيقة موجودة . أغضب منه وأرضى عنه . . أصده ثم أرتمي في أحضانه . . أكرهه وأحبه . .

— عمن تتحدثين . . يا للمسكينة ؟ . فارس أحلامك . . . من القصص والروايات .

وتشعر كأن المرأة الشريرة في نفسها تضحك وتقهقه . كتب وقصص وفارس أحلام مصنوع في الخيال . .

وتنهض من فراشها وترمي كتابها وتنتفض وهي تسير في غرفتها ذهاباً وإياباً وتتحدث بصوت عال : كلا ، لن أسمع لوسوسة الشيطان . .

— كلا أنا لست الشيطان . أنا المرأة الحقيقية فيك .. إن كل ما تضعينه على وجهك مما يراك الناس به ليس حقيقتك . . أنت لست فاضلة كما تظهرين أمام الناس . . أنت ممثلة بارعة . . أناهو أنت..لقد قتلتني ثلاثين سنة . . انتصرت على هذا العمر الطويل دون أن أنشب أظافري

فيك . . دون أن أفرض نفسي عليك . . أنت أنا ؟ . .

وتصرخ المرأة : كلا أنت لست أنا . . أنا هو أنا . .

وتقهقه الشيطانة التي في داخلها : مخدوعة . . انظرى إلى المرآة . . اخلعى عنك نظرة البراءة والعبط ، نظرة المرأة الساذجة . . لطول ما ارتديتها أصبحت لا تستطيعين نزعها . . ولكنك الآن والليل صاف وكل ما فيك لا حاجة به إلى الاستخفاء والخوف ، تستطعين أن تنزعيها . . انزعيها . . كفاك خداعاً لنفسك وللناس . .

ويروع المرأة وهى تتطلع إلى المرآة أن نظرتها البريئة الساذجة تتسلل من شعاع عينيها وابتسام شفتيها ، وتحل محلها نظرة فيها توهج رقيق متكسر وتشعر في جسدها بدبيب فيه مثل هذا التوهج والتكسر وترتمى على فراشها على حين تقهقه الشيطانة التي في داخلها : هذا هو أنت . . . أنت امرأة كسائر الناس . . لست قديسة كما تزعمين ، لست من نور كما تتوهمين ، أنت ماء وطين . .

وتتندى عيناها بالدمع وهى تشعر بثقل المعركة التي تخوضها وتسكت . . وتشعر أنها انهزمت وأنها أيضاً جسد كما أنها روح . . كانت تنكر على الناس ما يقولون . . كانت تتحداهم وتقول إنها تستطيع أن تحتقر الجسد . لم تعرفه قبل أن تتزوج ولم تعرفه بعد أن تزوجت . . وها هى ذا الآن امرأة كباقى النساء . . وبكت . . شعرت بمهانة . .

وضحكت الشيطانة التي فيها : تبكين أيتها التعسة . . وكان أجدر بك أن تفرحى ؟ . . لقد قتلت في نفسك المرأة ثلاثين عاماً حتى لقد

ظننت أنك هكذا خلقت .. شيئاً ممتازاً رقيقاً عظيماً لا يتمرغ فى الجسد الذى يتمرغ فيه الناس ولا يشعر بالقلق الذى يشعرون به . . . انهضى وانظرى مرة أخرى فى المرآة . . لماذا تهربين منها .. انظرى إلى الوهج الذى شملك، إلى الشعاع كأنه رداء سحرى . . أنت دمية ، فيك تراب آدم وحواء . .

وتصرخ وهى تنهض إلى المرآة : كلا. لا أريد . . لا أريد . .

وتنظر فى المرآة ويروعها سحر الجمال الذى يشع من عينيها وسحر الوهج الذى ينتفض من كل ذرة فى جسدها وتبتسم عيناها راضية وينتفض قلبها وتضطرم فى نفسها شتى الانفعالات ، وتسبل أجفانها وتحلم . . ثم تفتحها منزعجة صارخة .

* * *

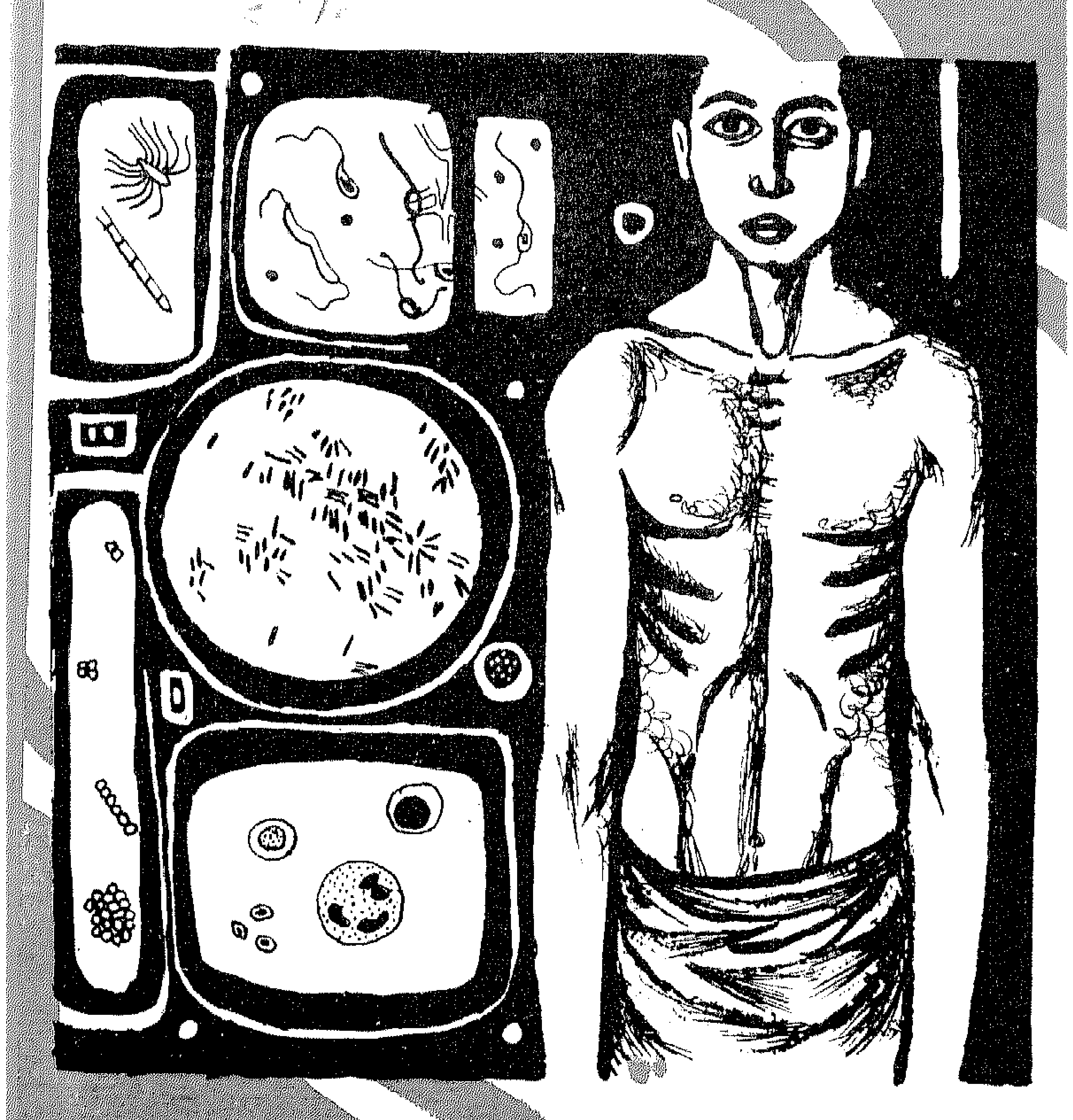
وتأوى إلى فراشها امرأة فاضلة كما كانت أبداً .

فهرس

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

اقرأ

الجسد والميكروب



الدكتور مصطفى عبد العزيز

الجسد والميكروب

رسم الغلاف بريشه عبد الغفار شديد

الدكتور مصطفى عبد العزيز

الجسد والميكروب

اقرأ ٢٧٢
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٧٢ – أغسطس سنة ١٩٦٥

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

مقدمة

يعرف المرض بأنه انحراف بحالة الإنسان عن المعتاد ، إما فى تركيب الأجساد وإما فى وظيفتها ، ويستدل على اختلال الوظيفة بما يبديه المريض من أعراض تعد بمثابة مظهر للمرض وليست المرض ذاته... والأمراض أنواع ، منها البيئية ومنها الفسيولوجية ومنها الوراثية ، والأمراض البيئية هى التى ترتبط بالبيئة الى يعيش فيها الإنسان ، مثل الأمراض المسببة عن الإصابات الميكروبية ، أو عن قسوة الظروف الجوية أو عن نقص التغذية ، ومن أمثلة الأمراض الأخيرة تلك المسببة عن نقص الفيتامينات ، كأمراض البلاجرا وجفاف العين والكساح ! . . . وترتبط الأمراض الفسيولوجية باختلال الوظائف الداخلية لجسد الإنسان ، كاختلال الغدد الصم المفرزة للهرمونات ، فهناك من الأمراض الفسيولوجية ما تنتج عن عجز الغدد الصم عن القيام بوظيفتها ومواصلة إفرازاتها ، ومنها ما هى مسببة عن نقص أو زيادة كمية الهرمونات التى تقوم بصنعها . . . ومن بين الأمراض الهرمونية تضخم الأطراف وتضخم الغدة الدرقية (الجواتر) والبلاهة ومرض السكر .

أما الأمراض الوراثية فهى تلك التى تنتقل — حسب قوانين الوراثة المعروفة — من الآباء والأجداد إلى الأبناء والأحفاد ، وتتمثل فيما يظهره

الأبناء والأحفاد من عيوب وأمراض تركيبية ووظيفية وعقلية كان يوصم بها الأجداد والآباء . . . فمن العيوب التركيبية الموروثة ما نراه فى بعض العائلات من شواذ الصفات ، كالتحام سلاميات الأصابع أو ما تبديه الأصابع من التصاق ، ومن الأمراض الوظيفية الموروثة أمراض الحساسية، التى تتمثل فى صفة فسيولوجية خاصة هى شدة حساسية بعض الأفراد لبروتينات دخيلة أو لغيرها من مواد ، كحبوب اللقاح والغبار وأصناف معينة من الطعام . . . أما الأمراض العقلية الوراثية فمن أمثلتها مرض الجنون الخفيف (الشيزوفرينيا) والصرع ، ويتسبب المرض الأخير عن توارث تذبذبات الموجات المخية .

وفيما عدا طراز واحد من طرز الأمراض البيئية ، هى الأمراض المسببة عن ميكروبات (أو الأمراض الميكروبية) ، فإن جميع ما عداها من أمراض لا تعد أمراضاً معدية ، إذا أنها لا تنتشر وتصيب من جاور المريض واختلط به من أفراد . . . أما الأمراض الميكروبية فهى أمراض معدية تنتقل من المصابين بها إلى غيرهم من الأصحاء ، بمعنى أن المرض يتسبب عن ميكروب معين يغزو الجسد وينفث فيه سمومه وقد يودى به إلى الهلاك ، ثم يلتمس وسيلة ومنفذاً لينتقل بهما من المرضى إلى الأصحاء ، ولذلك كانت الأمراض الميكروبية من أخطر الأمراض التى تؤثر فى المجتمع الإنسانى فتهز كيانه وتنهك قواه . . . وقد يؤدى الخطأ فى تشخيص مرض ما ، عما إذا كان ميكروبياً أو وراثياً ، إلى كثير

من المتاعب والأضرار . . . فقد كان يعتقد فيما مضى أن مرض الجذام هو مرض وراثى ينتقل من الآباء والأجداد إلى الأبناء والأحفاد ، واستمر هذا الاعتقاد الخاطئ أمداً طويلا حتى تقدم علم الميكروبات واستطاع أن يميط اللثام عن الميكروب الحقيقى المسبب لمرض الجذام . . . وإبان الاعتقاد بتوارث مرض الجذام كان هناك قانون يحول بين المصابين به وممارسة بعض الحقوق الشرعية كالزواج وإنجاب الأطفال ، ولكن كانت لهم الحرية المطلقة للانتقال من مكان إلى مكان ، وبهذا التشخيص الخاطئ للجذام والسماح للمجذومين بحرية الانتقال كان المرض يزداد حدة وانتشاراً على الدوام . فلما عرف أن مرض الجذام هو مرض ميكروبى وليس وراثيا ، انعكست الأوضاع ، ورد إلى المجذومين ما حرموا منه من حقوق شرعية يتمتع بها سائر ما عداهم من بنى الإنسان ، فسمح لهم بممارسة حقوقهم الشرعية من زواج وإنجاب أطفال بعد إتمام العلاج ، ولكنهم وضعوا فى معازل خاصة — أو مستعمرات — حتى لا يمتد هذا المرض الميكروبى الخطير منهم إلى غيرهم من الأصحاء .

وقد مضى على الإنسان حين طويل من الدهر لم تكن فيه العلوم شيئاً مذكوراً ، ثم أخذت بتقدم الإنسان تتعثر فى أولى خطواتها ، فكانت للميكروبات حينذاك سطوتها وشرورها ، تتطاول على من تشاء وحين تشاء لتنفث فيه سمومها وقد تودى به إلى الهلاك ، وكانت الأوبئة الناتجة عن بعض الأمراض الميكروبية المميتة — كالكوليرا والحمى الصفراء — تشب كالنار فتجعل الإنسان كهشيم تذروه الرياح ، وبتقدم

العلوم وازدهارها أينعت وأتت ثمارها ، فتضاءل سلطان الميكروب [واضمحلت سطوته ، واستغل العلم جميع ما لديه من أسلحة لكسر شوكته وتوهين عزيمته . . . بل تناوله بالترويض والتهذيب ليجعل منه أداة للعلاج أو وسيلة صناعية للإنتاج . . . وإن شاء عمل على زيادة سطوته وحدته ليجعل منه سلاحاً فتاكاً يستغله في الحروب لإتلاف المزروعات وحصد الأرواح . . . وأصبح الميكروب في هذا الزمان بمثابة مطية للإنسان يصل بها إلى ما يهدف من مطامع وآمال ، إن شاء عمل على توهينه وتهذيبه ليجعل منه ملاكاً رحيماً لمعالجة الأمراض أو استغله كأداة لإنتاج بعض الصناعات ، وإن شاء جعل منه شيطاناً رجيماً يعمل على تدمير ما في الحقول من مزروعات وحيوان . . . بل يحصد جميع الأرواح !

ولم تكن تلك الفتوحات التي حققها العلم في عالم الميكروبات وليدة شهور وأيام ، بل كانت نتاج مجهودات مضنية قام بها نفر من العلماء خلال عدة قرون وأعوام . . . وهذا الصراع بين العلم والميكروب هو ما يتضمنه هذا الكتاب !

اكتشاف الميكروب .

مضى على الإنسان حين طويل من الدهر لم يكن فيه على بينة بمسببات الأمراض ، فكان يتداعى جسده صريع المرض وهو أكثر وهنا من نسيج العنكبوت ، وكان لا يستطيع أن يجد له من ملاذ إلا أن يلتمس معونة رجال الدين أو يستعين بأعمال السحرة والمشعوذين ، إذ كان يعتقد أن المرض إنما يرجع إلى أحد سببين ، إما لعنة إلهية تحل بالعليل وإما روح شريرة تتقمص جسد المريض ، ومن ثم فقد بلغ سلطان رجال الدين فى ذلك العهد أقصى مداه ، لأن الناس كانوا يعدونهم بمثابة وسطاء ليزيلوا عن المريض اللعنة الإلهية ويسبغوا عليه نعمة الشفاء ، كما كان للسحر والشعوذة أسمى مكان ، لأن لهما فى بعض الأحيان تأثيراً نفسياً يبعث الطمأنينة والاستقرار . . . فكان اكتشاف الميكروب – أو الكائن المسبب للأمراض – من أهم الفتوحات العلمية الخالدة فى تاريخ الإنسانية ، وكان بمثابة مفترق طريق بين سراديب الجهل بظلماتها وميادين العلوم بمعجزاتها وسمو آفاقها !

يرجع الفضل الأول فى اكتشاف ميكروبات الأمراض إلى تاجر منسوجات هولندى يدعى « أنتونى فان ليفنهوك » ، ولد بمدينة دلفت عام ١٦٣٢ . . . انحدر ليفنهوك من عائلة عريقة اشتهرت بغناها ويسر

حالما ، فكان يعيش فى بحبوحة الحياة لا ينقصه مال ولا جاه ، لو شاء أن ينعم بماله فهناك معين لا ينضب يستطيع أن يبعثره ذات اليمين وذات الشمال ، وإن أراد أن يقضى أوقات فراغه فى أحضان الملذات لكان له ما يريد شأن من على شاكلته من الأثرياء ، إلا أن الأقدار هيأته ليكون للإنسانية بلسماً وهادياً ، فكان يقضى أوقات فراغه فى هوايات مجدية ، أبرزها صناعة الأدوات الزجاجية والمعدنية ، وقادته هوايته هذه

(شكل ١)



أنتونى فان ليفنهوك (١٦٣٢ - ١٧٢٣) ، ويرى هنا ممسكاً بإحدى المجاهر التى قام باكتشافها .

إلى صنع عدسات زجاجية دقيقة وقوية ، وكان أكثر أوقات فراغه بهجة ومتعة تلك التى يقضيها مع عدساته يفحص بها جميع ما يصادفه من أشياء ، ففحص بها اللعاب وقطع الفلين وأوراق النباتات والدم أثناء سيره فى ذيل السلامندر والبول وروث الأبقار والبقايا الغذائية الملتصقة بالأسنان ، ووجد فى كثير من هذه الأشياء مخلوقات تعد من الدناءة والبدائية بمكان ، إلا أنها تنبض بومضات الحياة ، وأطلق عليها ليفنهوك اسم الدقائق الحيوانية ، وهى الكائنات التى يعرف بعضها حالياً بالحيوانات الأولية ويعرف البعض الآخر بالبكتيريا ، وكان ذلك أول دليل على أن الأرض التى نعيش عليها لا تذخر فقط بما تستطيع العين المجردة أن تراه من مخلوقات كبيرة تدب عليها ، من إنسان وحيوان ، بل هناك من المخلوقات الدنيئة ما لا تستطيع العين المجردة تبيانها ولكن تستطيع أن تتبينها العدسات !

وبرغم ما صادف ليفنهوك من نجاح فى صناعة العدسات ، وبرغم مهارته الفذة وتمتعه بقوة خارقة للملاحظة واستجلاء ما لم يستطع أحد من قبله ملاحظته واستجلاءه من أدنى المخلوقات ، فقد كان محدود الثقافة ولم يتلق تعليماً فى آية جامعة من الجامعات ، ولذلك بقيت استكشافاته غير معروفة للعالم أمداً طويلا لعدم اتصاله بالمجالات العلمية . . . إلا أنه حدث فى ذلك العهد ما لم يكن فى الحسبان ، وكانت إحدى المصادفات السعيدة التى خدمت ليفنهوك وأبرزت للعالم جميعه ما تمخضت عنه قريحته من استكشافات ، إذ ظهرت فى ذلك الحين جمعية علمية بانجلترا ،

هى الجمعية الملكية ، هدفها تبادل ونشر الاستكشافات العلمية ، وكان أول سكرتير لها هو « هنرى أولدنبرج » ، الذى قام باتصالات مستفيضة بهواة العلوم فى مختلف البلدان الأوربية ، وفى عام ١٦٧٣ قام أحد من راسلهم « أولدنبرج » من العلماء الهولنديين — وهو عالم الفيزياء الشهير « رينير دى جراف » — بتقديم ليفنهوك واستكشافاته الفذة إلى الجمعية الملكية ، واستمر ليفنهوك منذ ذلك الحين حتى وافته المنية عام ١٧٢٣ على اتصال دائم بالجمعية الملكية يمطرها بسيل من الخطابات مبرزاً فيها ما توصل إليه من استكشافات مجهرية ، وأخذت هذه الخطابات تنشر تباعاً بمجلة الجمعية ، ومن ثم اتخذت استكشافاته صبغة عالمية ، ومن أبرز تلك الخطابات ذلك الذى أرسله عام ١٦٧٦ يصف فيه مشاهداته على الكائنات الدقيقة فى ماء الفلفل ، الذى يمكن تلخيصه فيما يلى :

« بعد عدة محاولات أجريت هنا وهناك بغية استجلاء كنه اللذعة والحرارة التى يسببها الفلفل للسان ، وضعت حوالى ثلث أوقية من الفلفل فى الماء رهن المشاهدة لجعله أكثر ليونة ، وترك الفلفل فى الماء لمدة ثلاثة أسابيع ، وأضيفت إليه بين كل حين وآخر مياه الأمطار لتعويض ما فقد من ماء ، ولشد ما كانت دهشتى عندما رأيت الماء — عند فحصه بالعدسات — يذخر بشتى الجزيئات الحيوانية الصغيرة المتعددة الأنواع ... منها ما يبلغ طولها ثلاثة أو أربعة أضعاف عرضها ، ولا يكاد يختلف سمكها عن سمك الشعيرات الصغيرة التى تكسو جسد القملة . . . ومنها البيضاوى الشكل ذو الأذناب . . . إلا أن منها ما هو من الضآلة بمكان ،

بحيث إنى أتصور أن هذه الجزيئات إذا رصت جنباً إلى جنب فإن مائة منها لا تكاد تبلغ طول حبة دقيقة من حبات الرمال ! »

أما المرحلة التى تلت اكتشاف ليفنهوك للدقائق الحيوانية فكانت مرحلة ميدانها الفلسفة الطبيعية ، إذ تلقف علماء الفلسفة الطبيعية مشاهدات ليفنهوك وأخذوا يناقشون دلالتها ويستشفون ما وراءها لكى يميطوا اللثام عن أصل الحياة . . . فاعتبر البعض دقائق ليفنهوك الحيوانية بمثابة الطرز البدائية التى بعثت بها الحياة على الأرض من الجماد ، وافترض البعض الآخر الصلة الوثيقة بين هذه الدقائق الحيوانية وبين ما يقاسيه الإنسان من أمراض وويلات ! . . . وهكذا تعددت النظريات واحتدمت المناقشات ، وكانت الغلبة لهؤلاء الذين يربطون أصل الحياة بهذه الدقائق الحيوانية ، وظهرت تبعاً لذلك عدة نظريات لتعليل أصل الحياة!

كانت الخطوة التالية ، بعد تحقيق ما قام به ليفنهوك من معجزات ، هى إيجاد مدى مطابقة مشاهداته لما كان منتشراً بين الناس حينذاك من افتراضات ومعتقدات ، وكانت أكثر المعتقدات تغلغلا فى النفوس هى نظرية تعرف بنظرية « التوالد الذاتى » . . . كان يعتقد فيما مضى من أزمان أن ما يعرفه الإنسان من شتى الحيوانات — من ضفادع وفئران ونحل وغيرها من كائنات — إنما نشأت كاملة التكوين من طمى خصيب أو أجداث موتى متحللة أو مطر دافئ متساقط أو تمخضت من سحاب

مارق ، ومن ثم فتفترض هذه النظرية أن الحياة بدأت ــ منذ أن بعثت فى الأرض ــ تامة التكوين معقدة التركيب ، وأنها نشأت من جماد !...
وقد تغلغلت هذه النظرية حينذاك فى النفوس حتى كادت أن تبلغ مرتبة اليقين ، بحيث وصف أحد المشتغلين بالعلوم فى الفترة ما بين عامى ١٥٧٧ و ١٦٤٤ طريقة لصنع الفئران من الجماد ، وذلك بأن توضع بعض حبوب القمح مع خرق كتانية وقطع من الجبن فى مكان مناسب منعزل ، وتترك هذه الأشياء مدة كافية فى هذا المكان دون أن يقترب منها إنسان ، حتى إذا ما اكتملت جميع الظروف المواتية لتخليق الحياة ظهرت الفئران رائحة غادية . . . وأقامت إحدى السيدات فى ذلك الحين دعوى غش على أحد التجار لأنه باعها معطفاً من الصوف كان فى مرحلة التخليق ، فلم يلبث أن تحول إلى فراشات منتثرة فى الهواء عندما فتحت الصوان ، وكانت قد تركته فيه لبضع شهور !

ولو قدر لنظرية التوالد الذاتى البقاء حتى الآن ، لظهرت فى سجلات المحاكم قضايا تعد من الغرابة بمكان ، وهاك بعض العينات : . . .
أعطت إحدى السيدات قماشاً لإحدى الخياطات لتحيكه لها ثوباً تتحدث عن أناقته الزميلات ، ولكن قامت الخياطة بتخزينه لمدة طويلة قبل التفصيل ، مما أتاحت له فرصة التخليق ، إذ ادعت الخياطة بعد مضى عدة أسابيع من استلام قطعة القماش أن الحياة دبت فيها فى مرحلة التخليق واعترتها ظاهرة التوالد الذاتى شأن غيرها من ضروب الجماد ، فتحولت على غفلة منها إلى فراشات انتثرت فى الهواء . . . أو اشترى

أحد الناس صفيحة جبن من البقال ، وبعد أن قام بالتشطيب عليها أحضر للبقال مجموعة من الفئران مدعياً أنها نتاج التوالد الذاتى للجبن الذى كان فى مرحلة التخليق والبعث إلى الحياة ، ليسترد ما دفعه من مال ، وهكذا فما كان أكثر طرق النصب والاحتيال !

وكان انبلاج القرن الثامن عشر بمثابة انبلاج شمس ساطعة قضت على ليل الجهالة بظلماتها وأنارت الطريق أمام فجر جديد لإسعاد الإنسانية وإعلاء شأنها ، إذ بدأوت أزهار العقلية العلمية المتطورة فى الإنسان تتفتح وتؤتى ثمارها . . . ففى عام ١٧١٠ لاحظ « لويس جوبلوت » أنه إذا نقع الدريس فى الماء وترك لعدة أيام ظهر فى المنقوع عدد لا يحصى من الدقائق الحيوانية ، واعتبر ذلك بمثابة دليل حاسم على صحة نظرية التوالد الذاتى ، إلا أن جوبلوت ما لبث أن أثبت بعد ذلك خطل هذه النظرية بإجراء التجربة الآتية : قام بتحضير منقوع الدريس فى الماء وقسمه إلى نصفين ، سخن أحدهما فى وعاء مغلق وترك الآخر دون تسخين فى وعاء مفتوح ، فلم تظهر فى محتويات الوعاء المغلق آية ومضة من ومضات الحياة ، أما الوعاء المفتوح فقد ازدخر منقوع الدريس فيه بعد أيام قليلة بعدد لا يحصى من الدقائق الحيوانية ، مما أثبت بطريقة لا ريب فيها أن منقوع الدريس إذا ما تخلصنا مما به من حياة بالتسخين عجز على أن يولد حياة جديدة توالدا ذاتياً ، وقد أيده الكثيرون ممن تبعوه من علماء ، وأثبتوا بالمثل أن الحياة لابد أن تتوالد من حياة سابقة ، ولا تستطيع أن تنشأ من جماد كما كانت تفترض نظرية التوالد الذاتى !

لويس باستير

كانت الخطوة التالية فى سلسلة المشاهدات التى قادت إلى اكتشاف ميكروبات الأمراض هى تلك التى قام بها العالم الفرنسى الشهير « لويس باستير » ، إذ أثبت العلاقة الوثيقة بين دقائق ليفنهوك الحيوانية وبين عمليات التخمر ، وكان يعتقد من قبل أن عمليات التخمر ما هى إلا عمليات احتراق كيميائية بطيئة تتحد فيها الأجزاء القابلة للاحتراق بما فى الجو من أكسيجين . . . ولد لويس باستير بمدينة « دول » الفرنسية فى ٢٧ ديسمبر عام ١٨٢٢ ، وكان أبوه من المشتغلين بدباغة الجلود ، وخدم كجندى فى الجيش الفرنسى تحت قيادة نابليون ، واشترك فى عدة معارك حربية منحه نابليون من أجل بسالته فيها وساماً تقديراً لخدماته واعترافاً بتاريخه العسكرى المجيد ، ولذلك شب باستير فى بيئة منزلية مشبعة بالروح الوطنية مقتفياً أثر أبيه فى العمل على ما فيه خدمة فرنسا وإعلاء شأنها وازدهار تجارتها ، واشتغل باستير بعد تخرجه من مدرسة النورمال بباريس — عام ١٨٤٧ — كيماوياً ، إلا أن دراسته تحورت فيما بعد — استجابة لمصالح فرنسا التجارية — إلى دراسة التخمر ومسبباته من الدقائق الحيوانية ! . . . فنى عهده ارتبطت فرنسا مع إنجلترا بجملة معاهدات تجارية ، إلا أنه وجد برغم هذه المعاهدات التجارية

أن الإنجليز يفضلون البيرة والأنبذة الألمانية على الخمور الفرنسية ، لأنهم لاحظوا أن الخمور الفرنسية يعتريها تغيير وفساد ، فيصبح طعمها مراً كريهاً ، وقوامها لزجاً طرياً ، كما تسبب لجارعيها بعض الأمراض ، أما البيرة والأنبذة الألمانية فكانت أفضل صنفاً ولا ينتج عن تجرعها مثل هذه الأضرار الجسام ... ووضح لباستير أن ما يعترى الخمور الفرنسية من تلف أو يحل بها من مسببات الأمراض إنما تظهر جنباً إلى جنب مع ظهور وتكاثر كائنات دقيقة مجهرية ، وتوصل باستير بعد إجراء عدة تجارب إلى اكتشاف أن النبيذ لا يصيبه تلف أثناء النقل إذا سخن لدرجة حرارة تتراوح بين خمسين وستين درجة مئوية لبضع دقائق ، ومن ثم أصبح من المستطاع بالتسخين الاحتفاظ بالأنبذة دون أن يعتريها أى تغيير ، كما أمكن تجنب ظهور الكائنات المسببة للأمراض فى البيرة بتسخين الزجاجات الحاوية عليها إلى درجة حرارة تتراوح بين خمسين وخمس وخمسين درجة مئوية . وقد ظهر نتيجة لاستعمال طريقة التسخين الذى استحدثها باستير للتعقيم لفظ جديد هو « البسترة » ، وأصبح يطلق فى ذلك الحين على البيرة المعقمة بالتسخين اسم البيرة المبسترة ، وأصبح لفظ اللبن المبستر (أى الذى سخن لدرجة ٦٢ مئوية لمدة ثلاثين دقيقة) من الألفاظ الشائعة الاستعمال حتى الآن ، وهكذا عادت للبيرة وللأنبذة الفرنسية شهرتها بفضل مجهودات باستير ، وازدهرت تجارة فرنسا للخمور واستردت سمعتها !

وقد توصل باستير بثاقب فكره إلى نتيجة تعد من الأهمية بمكان

إثر تجاربه العديدة على عمليات التخمر ، إذ كتب فى أحد مؤلفاته على البيرة يقول : « إذا نظرنا إلى ما يعترى البيرة والنبيذ من فساد بسبب تلوثها بكائنات دقيقة حلت بها بطريقة غير منظورة ، فليس من العسير علينا أن نستنتج أن حالات مماثلة قد تحدث فى أجسام الحيوانات والإنسان فتسبب لها الأمراض ! » . . . كانت تلك الأعمال الجليلة التى قام بها باستير لخدمة بلاده وازدهار تجارتها سبباً فى ذيوع شهرته ، واستدعى عام ١٨٦٥ إلى مناطق فرنسا الجنوبية ليعمل على مقاومة مرض خطير أصاب ديدان القز فكاد يهلكها ويقضى على صناعة الحرير قضاء مبرماً ، فلبى باستير النداء واستمر فى دراسة المرض بمعاونة بعض مساعديه لمدة خمسة أعوام ، حيث اكتشف أن ديدان القز يصيبها مرضان مسببان عن دقائق حية ، واستطاع أن يبتكر طريقة فعالة ميز بها السليم والسقيم من الديدان ، فعمل على التخلص من الديدان السقيمة ليحفظ للسليم منها ما تتمتع به من نشاط وحياة ، وكان اكتشاف باستير للعلاقة بين الدقائق الحية وحدوث أمراض ديدان القز بمثابة أكبر حافز لتعزيز النظرية الجرثومية للأمراض ، وهى النظرية القائلة بأن الأمراض مسببة عن كائنات ، وليست كما كان يعتقد قديماً مسببة عن عمل ضار يقوم به السحرة والمشعوذون أو غضب تصبه الآلهة على عبادها الجاحدين أو عن روح شريرة تقمصت الأجساد ... وبتعزيز باستير للنظرية الجرثومية للأمراض أنبلجت صفحة جديدة فى سجل الإنسانية للتعرف على مسببات الأمراض التى تصيب الإنسان والتعرف عليها والعمل على

إيجاد السبل الفعالة لمقاومة أضرارها والقضاء عليها ، وفى هذه الفترة المزدهرة من حياة باستير العلمية وقع عام ١٨٦٨ صريعاً لمرض النزيف المخى ، إلا أنه صارع المرض وتغلب عليه ، وقدر له الشفاء ليعاود نشاطه لخير الإنسانية وإسعادها !

كان استكشاف باستير للنظرية الجرثومية للأمراض بمثابة الحجر الأساسى لعلم الجراحة التعقيمى الحديث . . . فقد كانت العمليات الجراحية تجرى فى ذلك الحين دون آية وسيلة من وسائل التعقيم ، فكان كثيراً ما لاتحدث الوفاة نتيجة للعملية الجراحية بل لما يعقبها من تلوث خطير للجروح ! . . . كان أول من وضع استنتاج باستير موضع التنفيذ هو الجراح الإنجليزى « لورد ليستر » عام ١٨٦٧ ، إذ أوضح أن الجروح تتلوث أثناء العمليات الجراحية بكائنات حية يحملها الغبار أو تكون ملتصقة بالأدوات الجراحية أو بجسد الطبيب ، وأنه لا بد من العمل على تعقيم جميع الأدوات المستعملة لتجنب تلوث الجروح .

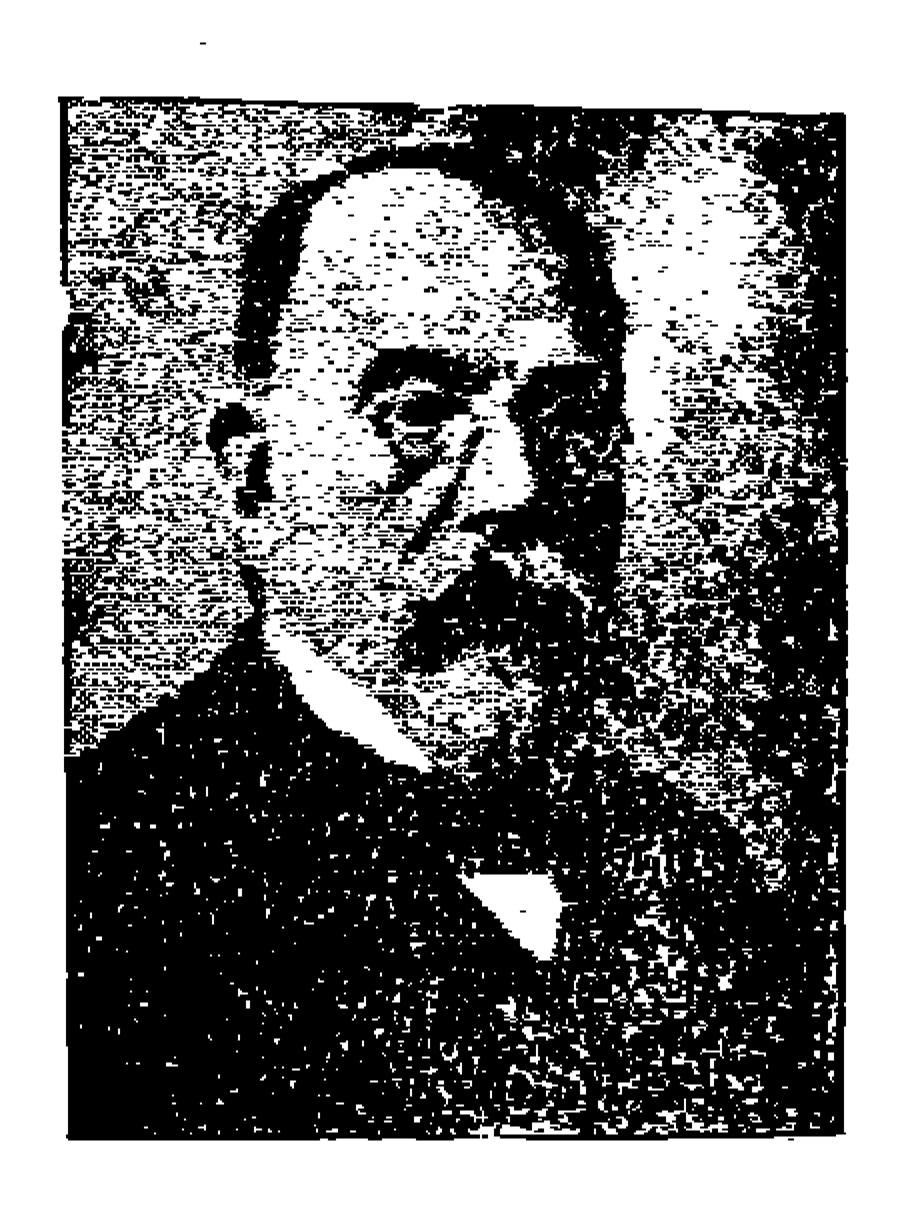
واتبع ليستر طريقة خاصة لتجنب التلوث بهذه الكائنات أثناء العمليات الجراحية ، وهى القيام بإجراء هذه العمليات فى مكان ضيق محدود مشبع ببخار حامض الفنيك الذى ينبثق من جهاز قريب .

روبرت كوخ

كانت الخطوة الطبيعية التالية ، بعد هذه السلسلة المتعاقبة من المشاهدات ، أن يهيئ الله للإنسانية من يأخذ بيدها ويعمل على استجلاء كنه مسببات الأمراض الإنسانية لرد ويلاتها واتقاء شرورها ، ولكن لابد قبل الوصول إلى هذا الهدف من العمل على تهيئة المنابت الغذائية المناسبة لتربية مسببات الأمراض — من بكتيريا وغيرها من شتى الكائنات — ودراسة دورة حياتها وطرق القضاء عليها . . . لم تدرس البكتيريا ككائنات فردية قبل عام ١٨٧٠ ، بل كانت تفحص على هيئة مخلوط من جملة أجناس وأنواع مجتمعة ، وكان من العسير الحصول على كل نوع على حدة فى حالة نقية لدراسة خواصها الفسيولوجية والمرضية ، إذ أن من المعروف أن تحضير مزرعة بكتيرية نقية تعد على أكبر جانب من الأهمية للدراسات التفصيلية ، مثلها فى ذلك مثل أهمية المواد النقية للمشتغلين بالكيمياء التحليلية ، وتدين الإنسانية بكل ما وصلت إليه من تقدم فنى فى تحضير المزارع البكتيرية النقية إلى العالم الألمانى الفذ «روبرت كوخ» ، الذى بدأ دراساته المخلدة على مرض يصيب الحيوان والإنسان على السواء ، هو مرض الجمرة الخبيثة ، وقبل أن نتناول بالتفصيل التاريخ العلمى لروبرت كوخ ، وما أداه للإنسانية من أجل الخدمات ، يجدر بنا أن نلق بنظرة عابرة على مرض الجمرة الخبيثة الذى

بدأ به بحوثه ، فكان هذا البحث بمثابة أولى القطرات لسيل منهمر من الاكتشافات التى أزاحت الستار عن ماهية مسببات الأمراض الإنسانية ، ومهدت السبيل لإيجاد الطرق الفعالة المختلفة لمقاومتها والتغلب عليها !

(شكل ٢)



روبرت كوخ (١٨٤٣ - ١٩١٠)

غالباً ما يعد مرض الجمرة الخبيثة من الأمراض التى تصيب حيوانات المزرعة ، إلا أنه ينتقل منها بسهولة إلى الإنسان ، وينتج عن الإصابة به بثرات ملتهبة لا تلبث أن تغطيها عند اكتمال نموها قشرة سوداء ، وتزخر كل بثرة بعدد لا يحصى من الميكروبات ، لأن ميكروب الجمرة الخبيثة يتميز بقوة طراوته وسرعة تكاثره ، ولا تستمر الإصابة سطحية فحسب لمدة طويلة بل لا تلبث أن تنتقل إلى الأعضاء الداخلية والدورة

الدموية ، ويأخذ الميكروب فى التناثر داخل الدم بسرعة فائقة مسبباً إنسداد الأوعية الدموية . . . مما ينتج عنه الوفاة !

ولد «روبرت كوخ» بألمانيا عام١٨٤٣ ،وعاش معاصراً «لباستير» بعض الوقت ، وتدين الإنسانية فى كثير مما وصلت إليه من تقدم — نتيجة لاستكشاف الميكروبات كمسببات للأمراض — إلى «كوخ» ، إذ كان أول من أثبت بطريقة تجريبية حاسمة أن كثيراً من الأمراض التى تصيب الإنسان والحيوان مسببة عن كائنات دقيقة مجهرية — تسمى البكتيريا أو الميكروبات — لا ترى بالعين المجردة ولكن تميط عنها اللثام المجاهر والعدسات ، وهى تنفذ إلى داخل الأجساد الحية لتنفث فيها من السميات ما تورثها السقام أو تودى بها إلى الهلاك ... لم يسبق «كوخ» فى التكهن بأن الأمراض قد تسببها كائنات إلا «لويس باستير» ، إلا أن تكهنات «باستير» كانت مبنية على المقدرة الاستنتاجية ، أما «كوخ» فقد أثبتها بطرق تجريبية لا تدع للشك سبيلا !

بدأ «كوخ» حياته باحتراف مهنة الطب كأحد الضباط الصحيين لولاية ولشتاين الألمانية ، وفى عام ١٨٧٦ كلف رسمياً ببحث مرض الجمرة الخبيثة ، وهو مرض كان حينذاك ذائع الانتشار ، يصيب الإنسان والحيوان على السواء ... وقد بلغ الولع بكوخ ليزيح الستار عن مسببات هذا المرض الخطير أن أهمل وظيفته كطبيب ، وكرس جميع وقته لهذا البحث الجديد ! ... وبدأ «كوخ» أولى تجاربه بفحص دماء أغنام قضى عليها مرض الجمرة الخبيثة ، فوجد أنها تذخر بكائنات

دقيقة عصوية الشكل ، ففصلها وعمل على تنميتها فى منابت غذائية مناسبة داخل المعمل، وعندما اكتمل نموها فحصها فحصاً مجهرياً وتيقن أنها لا تمثل إلا طرازاً واحداً نقيا من الكائنات الدقيقة المعروفة بالبكتيريا ، وبدا له أن يزداد ثقة واطمئنانا بأن هذه الكائنات هى بذاتها المسببة للمرض فحقن بها أغناماً أخرى سليمة ، ولشد ما كانت دهشته عندما أحدثت الكائنات المفصولة نفس أعراض المرض التى سبق أن رآها فى الأغنام التى قضى عليها المرض بالهلاك ، وفصل البكتيريا — أو الميكروبات — مرة ثانية من الأغنام المحقونة صناعياً ووجدها نفس الكائنات العصوية التى فصلت من قبل من الدماء . . . وتعد تلك التجربة بمثابة أولى التجارب التى سجلت فى تاريخ البشرية لإماطة اللثام عن ماهية الأمراض المسببة عن ميكروبات !

وقد وضع «كوخ» نتيجة لدراساته على مرض الجمرة الخبيثة اشتراطاته الشهيرة ، المعروفة باشتراطات «كوخ»، وهى اشتراطات يجب توافرها لإثبات علاقة المرض بين أى عائل وميكروب . . . وقد بلغت هذه الاشتراطات من القوة والرسوخ أن ظلت حتى الآن — وستظل على الدوام — النبراس الذى يهتدى به علماء الميكروبات ، وتتلخص هذه الاشتراطات فى أربع نقاط :

١ — أن يكون الكائن المسبب مصاحباً للمرض على الدوام .

٢ — أن يكون فى حيز الإمكان فصله وتنميته فى مزرعة نقية .

٣ — تحدث المزرعة النقية منه المرض إذا حقنت بها حيوانات

قابلة للإصابة .

٤ ــ إمكان استرداد الكائن الممرض مرة أخرى ، فى مزرعة نقية ، من الحيوانات التى حقن بها حقناً صناعياً .

وحينما بدأ «كوخ» أبحاثه على مرض الجمرة الخبيثة لم يكن الطريق أمامه ممهداً ميسوراً بل كان شائكاً وعسيراً . . . فلكى يستطيع إثبات العلاقة المرضية بين عائل وميكروب كان لابد له من إيجاد الوسائل المزرعية الملائمة لتنمية الميكروب المسبب للمرض على حدة وفصله فى حالة نقية ، وذلك للتعرف بطريقة تفصيلية على مميزاته الشكلية ودقائقه التركيبية وحدته المرضية ! . . وحتى عام ١٨٧٠ ــ حين بدأ كوخ أولى محاولاته لدراسة الأمراض الميكروبية ــ لم تكن البكتيريا أو الميكروبات تدرس ككائنات فردية ، بل كانت تفحص كمخلوط يحتوى على عدد من الأجناس والأنواع ! ... ونجح «كوخ» فى إيجاد طرق خاصة لفصل الميكروب المسبب للمرض وتنميته خارج جسم العائل فى مزرعة نقية ، وكان مرق اللحم منبتاً غذائياً معروفاً للبكتيريا فى ذلك الوقت ، وما زال هو المنبت المفضل لنموها حتى الآن ، فما هو معروف أن الكائنات الدقيقة البكتيرية ــ المسببة للأمراض الميكروبية ــ على شتى أنواعها لها ما للإنسان من مزاج فى اختيار مواد طعامها ، ويتوقف هذا المزاج على ما لدى الكائن من أسلحة إنزيمية تعمل على تكسير المعقد من المواد لتحيلها إلى مركبات أبسط منها يمكن هضمها وتمثيلها ، ولما كان غذاء البيكتيريا ــ أو الميكروبات ــ يعتمد على لحوم الأجساد

تتطاول على مكوناتها وتنفث فيها سمومها ، فإن مستخلص اللحم – أو المرق – كان على الدوام هو أشهى مواد غذائها ، إلا أن مرق اللحم بسبب سيولته لا يعد منبتاً غذائياً مناسباً لفصل الأنواع المختلفة من البكتيريا ، ولا بد من العمل على إكسابه صلابة بطريقة ما ، فعمل « كوخ » على إضافة مواد لها القدرة على السيولة بالتسخين والتصلد بالتبريد ، لتجعل تلك المنابت المرقية صلبة العود بعد التعقيم ، واستعمل لذلك فى بادئ الأمر مادة الجيلاتين ، ثم استبدلها فيما بعد بمادة الآجار ، وهى مادة تستخرج من بعض الطحالب الحمراء ، فاستطاع « كوخ » باستعمال هذه المنابت الغذائية الأجارية الصلدة إيجاد السبل الكفيلة بفصل البكتيريا المسببة للأمراض فصلا نقياً ، وذلك للتعرف عليها تفصيلياً واختبار حدتها المرضية ومدى استجابتها الإنمائية لمختلف المواد والعقاقير الكيميائية . . . ومما عمل على تيسير نموها أن ابتكر أحد مساعدى كوخ – ويدعى بترى Petri – طبقاً زجاجياً ذا غطاء لسهولة التنمية ، وهو الطبق المعروف باسم « طبق بترى » ، وهو الذى يتداول حالياً .

وكانت هناك صعوبة أخرى من حيث فحص البكتيريا الممرضة – بعد فصلها من العائل – فحصاً دقيقاً مجهرياً ، لتصنيفها وتحديد سائر صفاتها وكافة تفاصيلها الداخلية . . . إذ وجد كوخ أن الحركة المستمرة للبكتيريا وشدة شفافيتها تحولان دون تمكنه من دراساتها دراسة متقنة تصنيفية ، فابتكر وسيلة لتثبيتها ، واستعان بغيره من العلماء المعاصرين – من أمثال ديجارت – لإيجاد طريقة لصبغها ،

واستعمل لذلك أصباغ الأنيلين ، وهى أصباغ ناتجة عن تقطير قطران الفحم ، وهكذا وضع «كوخ» الأسس العلمية الأولية لتثبيت وصبغ البكتيريا لإمكان دراستها دراسة مجهرية تفصيلية !

وفى عام ١٨٨٢ قام «كوخ» بأعظم فتوحاته العلمية ، وذلك بإماطة اللثام عن الميكروب المسبب لمرض الدرن ، وكان هذا المرض يعد من أكثر الأمراض الحاصدة للإنسان وأعلاها فى نسبة الوفيات ، فنجح فى فصل الميكروب وحالفه التوفيق فى تنميته والحصول على مزرعة نقية منه . . . وعندما حقنت به حيوانات التجارب ، وهى أنواع من الفئران تعرف بخنازير غينا ، أحدث المرض بكافة ما يتضمنه من أعراض ! . . .
وكان «كوخ» أول من استغل النواتج الأيضية للميكروب لتشخيص المرض ، ونعنى بالنواتج الأيضية المركبات الكيميائية المستحدثة التى يكونها الميكروب عند تنميته على منبت غذائى ... إذ وجد «كوخ» عام ١٨٩٠ أن ميكروب الدرن — وهو بكتيرة عصوية متشعبة إلى حد ما — إذا نمت على مرق لحم يحتوى على مادة الجليسيرول أنتج مركباً جديداً فى المنبت ، لم يكن موجوداً فيه من قبل ، أسماه التيوبركيولين Tuberculin ، وهو لفظ مشتق من الاسم العلمى الإنجليزى للمرض وهو التيوبركيولوزس Tuberculosis ، وهذا المركب إذا حقن فى جلد المريض أحدث استجابة حساسية خاصة يمكن منها التعرف على وجود المرض !

ويمكن تلخيص اختبار التيوبركيولين فيما يلى . . . يتميز الأفراد الذين شاء لهم سوء الحظ أن يصابوا بمرض الدرن بشدة حساسية جلودهم

لبعض بروتينات الميكروب التى يلفظها لتسرى فى المنبت الغذائى ، والتى سميت بالتيوبركيولين . . . وترجع أسباب هذه الاستجابة إلى حقيقة أن الإصابة بالميكروب تزيد إلى حد ما من مناعة الجسد ، لأن ما يفرزه الميكروب من سميات تسرى فى الجسد والدورة الدموية ، ويعمل الجسد بما لديه من إمكانيات على معادلتها ومقاومة ما تبديه من تأثير ، وينتقل هذا التفاعل إلى سطح الجلد حيث يتفاعل الأخير مع إفراز الميكروب من البروتين ، فإذا كان المرض موجوداً كانت الاستجابة إيجابية ، بمعنى حدوث احمرار وتورم فى الجلد نتيجة للحقن بالتيوبركيولين أما إذا كانت سلبية فإن ذلك يدل على خلو الجسد من الميكروب !... ولما كان مرض الدرن من أشد الأمراض فتكاً بالإنسان وإنهاكاً لقواه ، فإنه يعمل إلى حد كبير إلى إنقاص الطاقة الإنتاجية للأفراد ، ويعمل بالتالى إلى الحد من طاقة البلد التى ينتمون إليها فى الإنتاج . . . ولذلك يستغل الاختبار التيوبركيولينى فى كثير من البلاد الآن لتشخيص مرض الدرن لموالاة المصابين به بالعلاج ، والجمهورية العربية المتحدة على وشك استغلاله على نطاق واسع لمصلحة الأفراد !

وكان « كوخ » يشغل منصب أستاذ الصحة العامة بجامعة برلين ، وقد أنشئ هذا المنصب بالذات تكريماً له ، كما كان يشغل منصب مدير معهد الأمراض المعدية ، وفى عام ١٨٨٣ أرسل على رأس بعثة طبية ألمانية إلى مصر والهند لدراسة وباء الكوليرا ، الذى كان منتشراً فى ذلك الحين ، فقام ببحث دقيق ومستفيض على الكوليرا الأسيوية ونجح فى

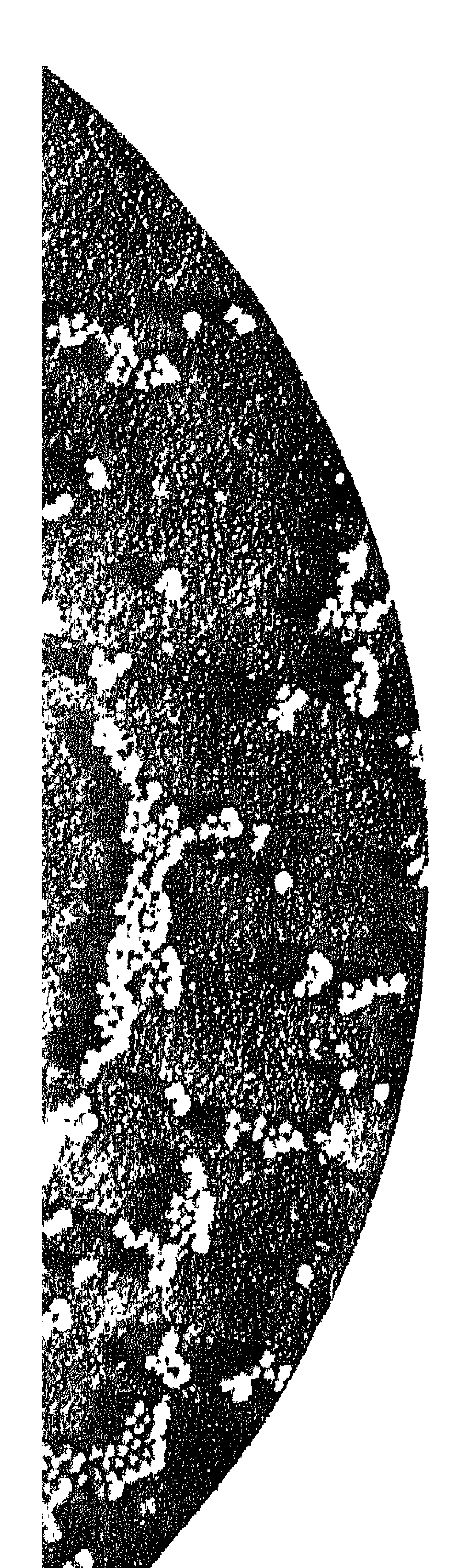
فصل الميكروب ، فكان هذا الاستكشاف بمثابة أولى القطرات لسيل من الأبحاث لمقاومة هذا الوباء الخطير ، وفى عام ١٩١٠ طوى الثرى جسده بين أجداث من سبقوه من قادة وعلماء ، وبقيت أعماله مخلدة فى سجل الزمن تؤتى ثمارها كل حين وتنطق بمقدار ما بذله «كوخ» من جهد وعناء ... وبرغم مرور ما يزيد على الخمسين عاماً على وفاة «كوخ» فما زالت أعماله حية فى سجل الزمان ، وما زالت كثير من البلاد التى أدى لها أثناء حياته إحدى الخدمات فى مقاومة الوباء تعرف بأفضاله على الدوام ، وما زلنا نذكر ما قامت به الجمهورية العربية المتحدة فى مستهل هذا العام لتخليد ذكراه ، إذ أقامت كلية الطب بجامعة الإسكندرية احتفالا تحدث فيه الخطباء عن مآثر «كوخ» وما أداه للإنسانية من أجل الخدمات ، كما أشادت بذكره وأفضاله كافة الصحف والمجلات !

كان اكتشاف كوخ للعلاقة بين الميكروب والمرض بمثابة الضوء الذى أنار الطريق أمام من تبعه من علماء ليميطوا اللثام عما يكتنف أمراض الإنسان من أسرار ، وتوالت خلال الجزء الأخير من القرن التاسع عشر اكتشافات تعد من الأهمية بمكان ، لو تناولناها بالتفصيل لاحتاج ذلك إلى عدة مجلدات ، ولكن لنلق بنظرة عابرة إلى أكثرها أهمية وتأثيراً فى تاريخ الإنسان . . . فمع أن كوخ قام بتوضيح العلاقة بين المرض والميكروب ، إلا أنه لم يتناول بالدراسة الآلية التى يعمل بها الميكروب لإظهار أعراض المرض والكيفية التى يؤثر بها على الأجساد ،

وفى عام ١٨٨٩ اكتشف كل من روكس ويرسن أن التأثير المميت لمرض الدفتيريا إنما مرده قدرة الميكروب المسبب للمرض على إفراز مادة سامة — أو توكسين — يسرى فى الأجساد المصابة فيسبب لها الهلاك ، وفى عام ١٨٩٠ نجح كل من بهرنج وكيتاساتوا وفرنكل فى إيجاد مضادات لسميات الدفتيريا والتيتانوس ، ثم اتجهت البحوث بعد ذلك لاستجلاء ماهية الآلية الجسدية لمقاومة هذه الميكروبات ، وأثبت متشنكوف الآلية الالتقامية لكرات الدم البيضاء ، كما أظهر ثيوبولد سميث أن الحيوانات المفصلية تعمل على نقل بعض الأمراض !

وبلغت هذه الاكتشافات ذروتها فى القرن العشرين ، فاكتشف كل من تورت ودى هيربل فى الفترة ما بين عامى ١٩١٥ و ١٩١٧ أن تلك البكتيريا التى تتطاول إلى الأجساد فتوردها الهلاك تصاب بدورها بنوع من الميكروبات يسبب لها الفناء ، تعرف بالفيروسات ، وأن هذه الفيروسات لا يقتصر ضررها على البكتيريا بل يمتد إلى الإنسان فتسبب له أخطر الأمراض ، كأمراض الحصبة والانفلونزا وشلل الأطفال والجدرى والحمى الصفراء ، وما لبث ستانلى أن تعرف على ماهية هذه الفيروسات . . . ومن الاكتشافات ذات الأهمية الحيوية ما اكتشفه جود باستر عام ١٩٣١ وزملاؤه من أن كثيراً من مسببات الأمراض الفيروسية يمكن زراعتها فى أجنة بيض الدجاج ، وتستعمل هذه الطريقة الآن لإنتاج الفيروسات التى تستخدم كلقاح ، كما أن اكتشاف وتقدم طرق تنمية الفيروسات فى مزارع أخرى من الأنسجة الحية — وهى

طرق ابتكرها أندرز ومساعدوه — جعل فى الإمكان إكثار فيروس شلل الأطفال وغيره من الفيروسات على أوسع نطاق ، كما كان لابتكار «كوخ» للمنابت الغذائية الأجارية أكبر الفضل فى اكتشاف أملاح السلفا كعقاقير علاجية ، وكانت صناعة واستعمال مشتقات شتى من أملاح السلفا من العوامل الرئيسية فى تحسين علاج الأمراض الميكروبية المعدية ، وتبع ذلك ما اكتشفه فلمنج ومن تبعه من علماء للمضادات الحيوية !



الفيروسات — التى تسبب أخطر الأمراض كشلل الأطفال — تبدو تحت المجهر الألكترونى وكأنها لآلئ منثرة .

باستير والتطعيم

فى عام ١٨٧٧ بدأ باستير صفحة جديدة أخرى فى سجل الإنسانية لمقاومة ما تسببه الكائنات الدقيقة الضارة — أو ما تعرف حالياً باسم الميكروبات — من أمراض ، إذ اتخذ من بعض الحيوانات مطايا تجريبية لاختبار ما تحدثه الميكروبات فيها من أضرار ، والاستفادة من دراسة العلاقة بين حيوانات التجارب والميكروبات لإيجاد وسيلة فعالة لتمكين الأجساد الحية من اكتساب مناعة صناعية ضد مهاجمة وشرور هذه الميكروبات . . . وكان أول مرض حيوانى بدأ به باستير هذه الدراسات هو مرض كوليرا الدجاج ، وهو مرض ميكروبى خطير كان حينذاك واسع الانتشار فى فرنسا ، وكان يودى بكثير من الطيور الداجنة إلى الهلاك ! . . . فصل باستير الميكروب المسبب للمرض ونماه على منبت غذائى مناسب وأثبت قوته على إصابة الدجاج وإحداث المرض ، إلا أن فرحة الانتصار لتحقيقه النظرية الجرثومية للأمراض شغلته عن أن يتفقد بعض مزارع الميكروب ، وتركها دون قصد منه لتنمو فى درجة حرارة المعمل لعدة أيام ، ولكن بدا له أن يختبر مدى قدرة الميكروب على إحداث المرض بعد ما قدمت المزرعة التى نما فيها ، ولشد ما كانت دهشته حينما وجد أن الميكروب الذى قدمت مزرعته

لعدة أيام قد فقد قدرته على إحداث مرض كوليرا الدجاج . . .
فاستنتج بما وهب من قوة الملاحظة أن قدم المزرعة كان سبباً فى إضعاف
أو « توهين» الميكروب ، وبالتالى فقدانه القدرة على إحداث المرض ،
وأطلق على مثل هذا الميكروب اسم « الميكروب الموهن » ، وعندما حقن
باستير الدجاج — التى سبق حقنها بالميكروبات الموهنة — بميكروب
الكوليرا ذى الحدة المرضية القوية الفعالة عجز الأخير عن إحداث
المرض ، بينما أهلك غيرها من دجاج لم يسبق حقنها بالميكروبات الموهنة ،
ومن ثم اكتشف باستير بمحض المصادفة وقوة الملاحظة أن حقن
الدجاج بميكروب الكوليرا — الذى أوهنه قدم المزرعة — أكسبها مناعة
ضد المرض ، أو بمعنى آخر يمكن الاستفادة من الميكروب الممرض
— بعد توهينه وكسر شوكة حدته المرضية — ليسبغ على الأجساد الحية
مناعة صناعية ، فكان اكتشاف مبدأ التطعيم الوقائى ضد الأمراض
الميكروبية ، واستطاع باستير بقوة بصيرته أن يستشف ما وراءه من
إمكانيات واستغلالات تطبيقية !

كان الزمن الذى عاش فيه باستير غير ذلك الزمن الذى ننعم
بالعيش فيه الآن ، فنحن نعيش — بفضل التقدم العلمى — فى مأمن
من كثير من الأمراض ، أما زمن باستير فكانت فيه الأمراض كالمناجل
تحصد بالآلاف ، وكان كل عمل يهدف نحو تخفيف ويلات الإنسانية
من شرور هذه الأمراض له ما للسحر من قوة وإعجاز ، وكان النجاح
البالغ الذى حققه باستير باستغلاله الموهن من ميكروبات الكوليرا

لمقاومة ضراوة الممرض منها للدجاج بمثابة بصيص أمل تطلع إليه الإنسان ليزود عن جسده مهاجمة الأمراض ، مما حفز باستير واستحثه لمتابعة بحوثه فى هذا الاتجاه . . . وفى عام ١٨٨١ وجه اهتمامه لدراسة ميكروب الجمرة الخبيثة ، الذى يسبب مرضاً خطيراً يصيب الأبقار والأغنام والإنسان فيودى بها إلى الهلاك ! . . .

اعتقد باستير فى بادئ الأمر أن الميكروبات سواء ، وأن قدم المزرعة توهن ميكروب الجمرة الخبيثة كما أوهنت ميكروب كوليرا الدجاج ، إلا أن التجربة أثبتت خطل هذا الاستنتاج ، فعندما ترك ميكروب الجمرة الخبيثة فى المنبت الغذائى لعدة أيام لم تكسر شوكته أو تلين عزيمته عن إحداث المرض ، كما هو الحال فى ميكروب كوليرا الدجاج ، بل ظل محتفظاً بضراوته وشدة حدته المرضية . . . إلا أن باستير لم يعدم الحيلة لتوهين جبروت ميكروب الجمرة الخبيثة ، إذ ما لبث أن استكشف طريقة لتوهينه بتنميته على منبت غذائى خاص عند درجة حرارة تتراوح بين ٤٢ و ٤٥ درجة مئوية ، فالتوهين هنا يتم بتأثير درجة الحرارة العالية ، ولا يتم — كما هو الحال فى ميكروب كوليرا الدجاج — بقدم المزرعة الغذائية ، ومثل توهين الميكروب كمثل من وقع فى شباكه أسد مفترس شرس الطباع ، فأخذ فى ترويضه حتى استطاع أن يلين من شراسته ويبدل من طباعه ليتخذ منه مطية مستأنسة يحقق بها ما شاء له هواه من أغراض ، وتوهين الميكروب معناه العمل على إبطال قدرته على إحداث المرض ، ولكنه لا يعنى تبديلا فى تركيبه أو مكوناته

الكيميائية ، ومن ثم فهو بعد توهينه يستحث الجسد الحى على تكوين أجسام مضادة — كتلك التى تتكون استجابة للإصابة بالميكروب المرض — إلا أنه لا يسبب حدوث المرض ، وهذا الاستحثاث لتكوين الأجسام المضادة هو الذى يعمل على إكساب الجسد مناعة صناعية ضد الإصابة الميكروبية ! . . .

ولما كان مرض الجمرة الخبيثة يختلف عن مرض كوليرا الدجاج فى أن أضراره لا تقتصر على الحيوانات بل تمتد أيضاً إلى الإنسان ، فقد كانت التجارب التى أجراها عليه باستير محط جميع الأنظار وتطلعت إليها الآمال . . وقام باستير بعرض عام لاختبار مدى نجاح لقاحه — أو الميكروب الموهن لمرض الجمرة الخبيثة — فى مزرعة تقع قريبة من مدينة ميلون الفرنسية ، ووضعت الجمعية الزراعية لهذه المدينة تحت تصرفه ستين خروفاً ليجرى عليها تجاربه ، وقسمت الخراف إلى ثلاث مجموعات : . . . أما المجموعة الأولى — وعددها عشرة خراف — فقد تركت وشأنها دون إصابة أو تطعيم للمقارنة ، وقسم ما تبقى من خراف إلى مجموعتين متساويتين ، كل مجموعة منها عددها خمس وعشرون خروفاً ، حقنت مجموعة منها باللقاح مرتين ، بحيث تكون الفترة بينهما أسبوعين ، وتركت المجموعة الأخرى دون تلقيح ، وبعد مضى عدة أسابيع حقنت المجموعتان معاً — الملقحة وغير الملقحة — بالميكروب المرض الفعال ، فكانت النتائج أشبه بالمعجزات ، إذ قدر للخراف التى سبق تلقيحها بالميكروب الموهن البقاء والحياة ، أما تلك التى لم يسبق

تلقيحها – أو تطعيمها – فلم تلبث إلا قليلا حتى طواها الردى وحاق بها الهلاك . . . وكانت تجربة الخراف – وما انطوت عليه من دلالة وقائية – بمثابة أولى الجسور التى انتقلت عليه إمكانية استغلال المناعة الصناعية من الحيوان إلى الإنسان !

وكان مرض الكلب هو الجسر الحقيقى الذى انتقل بالمناعة الصناعية من الحيوان إلى الإنسان ، وهو مرض فيروسى يصيب الإنسان إذا عضه كلب مسعور ضال ، وكان المصاب به يتحمل من الآلام فوق ما تتحمله طاقة الإنسان ، ولا يجد له منفذاً لمقاومة المرض أو سبيلا لالتماس الشفاء ، بل يقف له الموت فى النهاية بالمرصاد . . . فأثبت باستير بما قام به من دراسات تجريبية أن الميكروب يصيب الجهاز العصبى المركزى ، وأنه إذا حقن لعاب كلب مسعور فى الأرانب فلا تلبث الأخيرة أن يظهر عليها المرض فى فترة لا تتجاوز الخمسة عشر أو الستة عشر يوماً ، كما وجد أنه إذا أخذت مادة من مخ أرنب مصاب بالميكروب وحقن بها مخ أرنب آخر فإن قدرة الميكروب على الإصابة تأخذ فى الازدياد بالتدريج ، بحيث إنه إذا استمر مثل هذا الانتقال للميكروب من مخ أرنب إلى مخ أرنب آخر – لعدد من المرات يبلغ الخمس والعشرين أو ما يزيد – فإن آخر الأرانب المحقونة بالميكروب لا يلبث أن يطويها الردى فى اليوم السادس أو السابع بعد الحقن بالميكروب ، مما يدل على بلوغ الميكروب ذروة ضراوته وحدته المرضية بعد الانتقال المتعاقب على أمخاخ الأرانب . . . إلا أنه وجد فى نفس الوقت أن ازدياد الحدة المرضية

للميكروب فى إصابته للأرانب بتوالى الانتقال فى أمخاخها يقابله توهين تدريجى للميكروب من حيث قدرته على إحداث المرض فى الكلاب والإنسان ! . . . كان اكتشاف هذه العلاقة بمثابة المفتاح الذى أماط اللثام عما أغلق من أسرار المناعة الوقائية ضد هذا المرض العضال ، وعمل باستير على إيجاد السبل الكفيلة لزيادة توهين الميكروب — بعد إضعافه بالتمرير فى أمخاخ الأرانب — بتعريض نخاع الأرانب المصابة للتجفيف لفترات متفاوتة ، تتراوح بين أسبوعين ويوم واحد . . . ووجد أن تعريض الميكروب الموجود فى نخاع الأرانب للتجفيف لمدة أسبوعين تفقده نهائياً القدرة على إحداث المرض فى الأرانب !

قام باستير بعد ذلك بإجراء عدة تجارب لاختبار مدى تأثير التطعيم بمحلول مائى ملحى يحتوى على الميكروب — الموهن بالتمرير وبالتجفيف — على استحثاث مناعة وقائية صناعية للكلاب ضد مرض الكلب . . . ونجح فى إكساب الكلاب مثل هذه المناعة ، وذلك بحقنها بجرعات متزايدة من المحلول الملحى الحاوى لمادة التطعيم — أو الميكروب الموهن — مبتدئاً بمادة نخاعية جففت لمدة أسبوعين ومنتهياً بمادة لم تجفف إلا لمدة يوم واحد ، ووجد أن الكلاب المطعمة بمثل هذه الطريقة لا يصيبها المرض إذا عضها كلب مسعور !

وإذا كان هناك من الأيام ما يسطر تاريخها بمداد من الذهب الوهاج ، فإن يوم ٦ يولية عام ١٨٨٥ يعد بحق من بين هذه الأيام ، إذ ثبت فيه بطريقة قاطعة أن الإنسان يستطيع أن يكتسب مناعة وقائية

صناعية ضد مرض الكلب بحقنه بميكروب موهن ، بنفس الطريقة التى يكتسبها الحوان . . . فى هذا اليوم الخالدة فى تاريخ الإنسانية أحضر لمعمل باستير غلام صغير لا يتجاوز عمره التسع سنين ، هو جوزيف ميستر ، وكان فى حالة يرثى لها من الألم والإعياء بسبب أن عضه كلب مسعور ضال ، وهى حالة كانت تعد فى ذلك الوقت من الحالات الميئوس منها ومصيرها الوفاة ، وما إن حقن الغلام بلقاح باستير حتى استوى قائماً سليماً وقدر له النجاة ! . . . فكانت هذه الحالة بمثابة أقوى دليل على معجزات لقاح باستير ، وظهرت فى سجل الإنسانية صفحة جديدة زاهية لمعالجة أمراضها وتخفيف آلامها هى طريقة باستير فى علاج ومقاومة مرض الكلب ، وأخذ الناس يتوافدون على معمل باستير زرافات ووحداناً من كل حدب وصوب يلتمسون المناعة والشفاء من هذا المرض المميت ، وبلغ من تقدير الناس لهذا الاكتشاف الخطير أن ظهرت حركة مباركة لعمل اكتتاب شعبى عام لجمع تبرعات لإنشاء معهد لمعالجة مرض الكلب وما شابهه من أمراض ميكروبية استحدثت فيها لقاحات للتطعيم ، وتوالت التبرعات من شتى أرجاء العالم ، وافتتح معهد باستير بباريس عام ١٨٨٨ . . . ولم تقتصر رسالته على التطعيم باللقاحات ، بل امتدت فيه البحوث لتجعل منه مركزاً رئيسياً لدراسة الأمراض المعدية بوجه عام ، وفى عام ١٨٩٥ مات باستير ودفن فى قبو رخامى يتوسد معهده الشهير ، دفن الجسد وبقيت روحه ونتائج استكشافاته لتستحث نشاط وهمم كل من تبعه من الباحثين !

ولعل مما يثير التساؤل ، بعد هذا العرض الشامل لما قام به كل من كوخ وباستير ، . . . هل لم يبذل الإنسان الذى سبقهما فى الظهور على مسرح الحياة أى مجهود لمقاومة الأمراض ، أو أنه استكان فى ذلة ومسكنة لتحصده بالآلاف ؟ . . . تدل السجلات التاريخية منذ أقدم العصور على أن هناك أفراداً من بنى الإنسان كان لديهم مناعة طبيعية لمقاومة مرض الجدرى المخيف والتغلب عليه ، فقد اجتاح هذا المرض القارة الأوروبية عدة مرات ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر ، ومع أن طبيعة المرض وآليه المناعة الصناعية لم تكن معروفة حينذاك فقد كان مما هو شائع فى بعض الأرجاء تحصين الأفراد الأصحاء ضد المرض بحقن جلودهم بمادة بثرية مفصولة من أفراد سبق لهم أن أصيبوا بالمرض وقدر لهم الشفاء ، إلا أن هذا الإجراء — الذى كان يعرف بالتلقيح بالجدرى Variolation كان من الخطورة بمكان ليصبح متداول الاستعمال ، فقد يعاود الميكروب فى المادة البثرية الملقحة حدته المرضية ويصبح مصدراً خطيراً للعدوى بدلا من أن يكون وسيلة فعالة للإنقاذ ، ولم تبتكر طريقة أمينة للتحصين ضد الجدرى إلا عندما قدر للعالم الفيزيائى الإنجليزى « إدوارد جينر » أن يتناول الموضوع بالبحث المستفيض عام ١٧٩٦ .

بدأ جينر حياته العملية كطبيب فى الأرياف ، قبل أن تتلقفه مغريات البحوث ليصبح من أئمة العلماء ، وقد لاحظ أثناء وجوده فى الأرياف كطبيب أن المشتغلين بحلب الأبقار يصابون بحالات معتدلة

من الجدرى البقرى لا يلبثون أن يشفوا منها سريعاً ، وهؤلاء لا يصابون بمرض الجدرى الإنسانى الخطير عند انتشاره كوباء ، ومن ثم قام جينر بإجراء التجربة الآتية » . . . أخذ المادة المصلية أو الليمفاوية من بثرات ضروع بقرة مصابة بالجدرى البقرى ونثرها على ذراع إنسان ، فلم يلبث الأخير إلا قليلا حتى ظهرت عليه حالة من المرض تعد من الاعتدال بمكان ، حيث تكونت بثرة موضعية التأمت بسرعة وتركت وراءها ندبة مميزة ، ولوحظ أن هذا الإنسان اكتسب مناعة ضد الإصابة بمرض الجدرى الإنسانى ، حتى أثناء انتشار الوباء ، وتعرف هذه العملية بالفكسنة Vaccination ، وهى كلمة لاتينية مشتقة من فاكا Vacca بمعنى بقرة . . . تلك كانت أولى المحاولات التى قام بها الإنسان للتغلب على الأمراض وصراعها !

لم تلبث عملية الفكسنة التى ابتكرها جينر لمقاومة مرض الجدرى أن أصبحت متداولة الاستعمال ، وذاع صيتها واعتبرت إحدى ما تمخض عنه العلم حينذاك من أعظم الفتوحات . . . إلا أن الأساس الذى قام عليه نجاحها ظل غامضاً لبضعة أعوام ، حتى استطاع كل من كوخ وباستير إماطة اللثام عن الدور الفعال الذى تقوم به الكائنات الدقيقة فى إحداث الأمراض ، ولم يطبق استكشاف جينر لإكساب الأجساد مناعة صناعية ضد أمراض أخرى — غير مرض الجدرى — حتى عام ١٨٧٩ ، حين بدأ باستير ومعاونوه دراساتهم المستفيضة على مرض كوليرا الدجاج !

أنواع الميكروبات

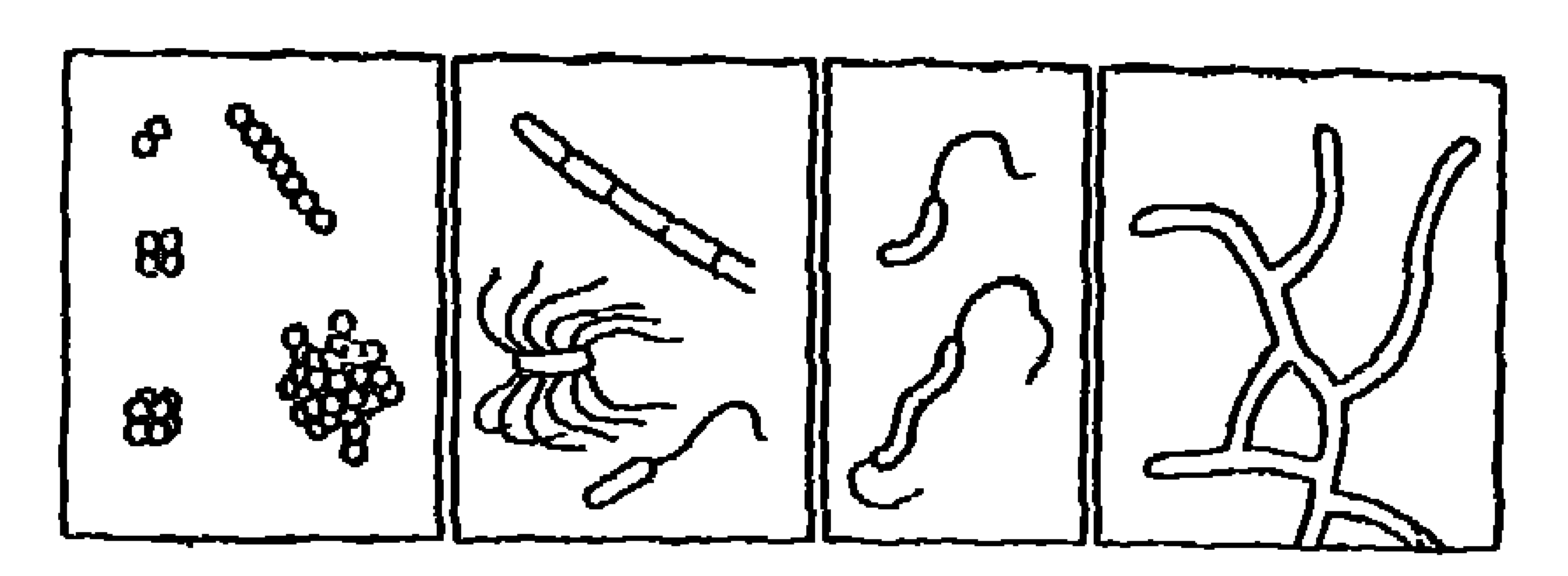
يطلق لفظ « الميكروبات » على الكائنات الدقيقة التى تتطاول إلى الأجساد الحية — من نبات وحيوان وإنسان — فتسبب لها الأمراض أو تودى بها إلى الهلاك ، وقد توطدت النظرية الجرثومية للأمراض منذ أمد سحيق وقبل أن يقوم ليفنهوك بإزاحة الستار عن وجود الكائنات الدقيقة ، التى ثبت فيما بعد أنها هى المسببة للأمراض . . . ومنذ زمن أبى قراط حتى قرب غروب شمس القرن التاسع عشر كانت النظرية السائدة هى أن أمراض الإنسان تعد بمثابة خاصية ذاتية للفرد أو للعضو المصاب ، وكان يعتقد أن العوامل البيئية لا تؤثر على الأمراض إلا فيما يختص بما يتصاعد من الأرض — لا سيما مما تحتويه من لحوم متعفنة — من أبخرة مؤذية ، كان يطلق عليها اسم « ميازمات » miasmas ، هى التى تعمل على زيادة خطورة الظروف وإحداث الأوبئة !

وإذا كانت الفطريات ، ومنها تلك الخيوط المتعددة الألوان التى نراها تكسو فى بعض الأحيان المتعفن من الخبز أو ثمار الطماطم أو البرتقال ، أصبحت معروفة تماماً بعد ما ثبت أن البعض منها يفرز من المضادات الحيوية — كالبنيسيلين — ما يشفى الأمراض المسببة عن ميكروبات ، فإن هذه الفطريات بالذات — لا سيما تلك المسببة

لأمراض النباتات - هى التى وجهت الأنظار لاكتشاف مسببات الأمراض فى الإنسان . . . وكانت أهم الخطوات التى تمت فى هذا الاتجاه هو استكشاف أن بعض الأمراض التى تصيب القمح والجويدار (نبات كالشعير) مسببة عن فطريات ، وكان من اليسير إماطة اللثام عن ماهية مسببات هذه الأمراض لأن الفطريات كائنات تستطيع العيون المجردة أن تتبين وجودها دون الاستعانة بالمجاهر أو العدسات ، وأثبت باسى Bassi فى إيطاليا عام ١٨٣٦ أن هناك فطرة تسبب مرضاً لديدان القز بالذات ، ثم أوضح شونلين Schonlein بعد ذلك أن هناك من بين الأمراض الجلدية التى تصيب الإنسان ما هى مسببة عن فطريات ، وفى عام ١٨٤٥ أصيب محصول البطاطس فى أيرلندا بمرض فطرى خطير - هو مرض « اللفحة » - قضى على هذا المحصول الرئيسى قضاء مبرماً ، مما سبب مجاعة تعد من أخطر المجاعات التى سجلها التاريخ . وما وافى عام ١٨٦٠ ، حين كان باستير يكتب رسالته عن « التولد الذاتى » ، حتى أصبح من المعروف تماماً أن الفطريات هى طفيليات تعد من الخطورة بمكان لكل من النبات والحيوان ، وبرغم جميع هذه المعلومات فإن قلة لا يعتد بها من العلماء هم الذين اعتقدوا فى ذلك الحين أن النظرية الجرثومية للمرض يمكن امتدادها لتشمل أمراض الإنسان ، بل إن هناك قلة أكثر منها ضآلة هى التى كانت تعتقد أن البكتيريا هى إحدى مسببات الأمراض !

وقد كان ما كتبه باستير بمثابة حافز ألهم الجراح الإنجليزى

(شكل ٣)



رسوم تخطيطية تمثل الطرز الرئيسية لأشكال الخلايا وطرق تنظيمها فى البكتيريا الحقيقية ، ويرى من اليسار إلى اليمين : البكتيريا الكروية ، البكتيريا العصوية ، البكتيريا المقوسة ، والبكتيريا الخيطية (مكبرة حوالى ألف مرة)

« ليستر » للاعتقاد بأن ما يحدث عادة من إصابات خطيرة بعد العمليات الجراحية إنما يرجع إلى تلوث الجروح بكائنات دقيقة هى البكتيريا ، وابتكر أول طريقة معروفة للتعقيم أثناء العمليات الجراحية . . . وقد قوبلت آراء ليستر فى بادئ الأمر بكل ازدراء وسخرية ، وبرغم نجاح باستير فى تقويض الدعائم التى قامت عليها نظرية التولد الذاتى فإن هذه النظرية ظلت متداولة فى الدوائر الطبية ، وحتى عام ١٨٧٥ — بعد التجارب الحاسمة التى قام بها باستير — فإن كثيرين من أعضاء أكاديمية باريس للطب ظلوا يعتقدون أن البكتيريا تتولد ذاتياً داخل الأنسجة المريضة !

كانت تلك هى المقدمات التى أماطت اللثام بالتدريج عن الأنواع المختلفة من الميكروبات ، فكانت الفطريات الظاهرة للعيان هى التى استرعت أولا الاهتمام ، ثم اكتشفت من بعدها غيرها من الكائنات

الدقيقة مما لا ينم عن وجودها وتفاصيلها إلا أدق المجاهر وأقوى العدسات . . . وتعد البكتيريا من أهم المسببات المحدثة للأمراض فى الإنسان (جدول ١) ، وهى واسعة الانتشار ، توجد فى الطبقات العليا من التربة وفى الماء والهواء ، كما توجد على الجلد وفى الفم والقنوات الهضمية للإنسان والحيوان ، ولكن يخلو منها عادة ما عمق من آبار وما شمخ من جبال ! . . . وتتباين البكتيريا فى أشكالها الخارجية ، فمنها ما هى وحيدة الخلية ، ومنها المكونة لمستعمرة أو الخيطية ، وتكون الطرز الوحيده الخلية منها عصوية أو كروية أو لولبية . . . وتعد أحجامها من الضآلة بمكان ، فالبوصة المكعبة تستطيع أن تطوى بداخلها حوالى تسعة تريليون خلية من البكتيرية العصوية المسببة لمرض التيفوئيد ، بينما تشغل أربعمائة مليون منها حجم حبة صغيرة من حبات السكر !

وهناك طراز آخر من الميكروبات تماثل البكتيريا شكلا ، إلا أنها تقل عنها حجماً ، وتتميز عنها بأنها إجبارية التطفل ، بمعنى أنها لا تستطيع مواصلة العيش بعيداً عن عوائل حية ، ويعرف هذا الطراز من الميكروبات باسم « الريكيتسيات » . . . ومن أبرز ما تظهره من مميزات علاقاتها التطفلية بالحيوانات المفصلية (القمل والبراغيث والحلم والقراد) ، التى تعد بمثابة عوائلها الطبيعية الأصلية ، فهى تعيش عادة عليها دون أن تسبب لها أعراضاً مرضية ، ومنها تستطيع أن تنتقل وتكيف نفسها للمعيشة داخل عوائل ثديية ، وهى تنتقل إليها نتيجة لعضها بالحيوانات المفصلية ، فهناك سلسلة متصلة الحلقات تنتقل بوساطتها

(جدول ١)

بعض الأمراض البكتيرية التي تصيب الإنسان

طراز المرض	اسم المرض	طريقة الانتقال أو العدوى
تنفسي (العطس)	الدفتيريا	ينمو الميكروب في الزور ويسبب احتقانه ، ويفرز مادة سامة خارجية تنتشر عن طريق الدم إلى الأجزاء الأخرى من الجسد .
	الالتهاب الرئوي	يتركز في الرئات ويسبب التهاباً حاداً
	الدرن	غالباً ما تكون الإصابة رئوية ، ولكن قد تصاب أنسجة أخرى
	السعال الديكي	مرض يصيب عادة صغار الأطفال
التلوث البرازي للماء أو الطعام	حمى التيفوئيد	حمى معوية
	الدوسنطاريا	مرض معوي يسبب التشنج والإسهال والحمى
	الكوليرا الآسيوية	يرجع المرض إلى إصابة المعى السفلية ، ويرجع معدل الوفاة العالي إلى فقدان سوائل الجسد .
الطعام الملوث بالبكتيرة أو بسمياتها	التسمم السجقي والتسمم الغذائي	التهام طعام نمت عليه البكتيرة الممرضة أو نفثت فيه سمومها أو تركت فيه جراثيمها ، لا سيما في الأغذية المعلبة .
الملامسة المباشرة (المعاشرة)	السيلان	مرض تناسلي ، يمكن أن يصاب به الأطفال أثناء الولادة .
	الزهري	مرض تناسلي ، يسبب طفحاً جلدياً ، يتدرج إلى قرحات مفتوحة

(بقية الجدول في الصفحة التالية)

بقية (جدول ١)
بعض الأمراض البكتيرية التى تصيب الإنسان

طراز المرض	اسم المرض	طريقة الانتقال أو العدوى
تلوث الجروح العميقة	التيتانوس	يصيب الميكروب الجروح ويفرز فيها سمومه البروتينية ، التى تنتشر عن طريق الدم والجذوع العصبية الحركية إلى الجهاز العصبى المركزى ، حتى تبدى تأثيرها الضار ، فتسبب التشنجات وصعوبة الابتلاع .
	الغرغرينا الغازية	يتميز المرض بالإتلاف الممتد للنسيج العضلى مصحوباً بتراكم غاز الإيدروجين ، وإفراز مادة سامة مميتة .
ملامسة الجلد للمياه الملوثة	مرض ويل	يخرج الميكروب مع بول الحيوان المريض ليصيب الإنسان .
الحيوان كمصدر للعدوى	الحمى المتقطعة (حمى مالطة)	تتسبب عدوى الإنسان عن ملامسة حيوانات مصابة أو استخدام لبنها ، ومن بين تلك الحيوانات الأبقار والمعز والخنازير .
عضة الحيوان	الطاعون الدملى	ينتقل بوساطة عضة البرغوث من الجرذان إلى الإنسان ، ويتركز الميكروب فى الغدد الليمفاوية مسبباً انتفاخات أو دمامل .
	الحمى الراجعة	ينقل القمل والقراد المرض من إنسان إلى آخر ، كما أنه من المحتمل أنها تنقله كذلك من الحيوان القارض إلى الإنسان .

الأمراض الريكيتسية من المفصليات إلى الإنسان ، ولا يعد الإنسان فى هذه الحالة إلا عائلا عرضياً للريكيتسيات ، فيما عدا مرض التيفوس الوبائى الذى يستطيع قمل الجسم أن ينقله من إنسان إلى إنسان . . . ومن الأمراض الريكتيسية الأخرى التى تصيب الإنسان الطرز الأخرى من مرض التيفوس وحمى الخنادق ، التى انتشرت بشكل وبائى فى الحرب العالمية الأولى بين جنود الخنادق ، وحمى الجبال الصخرية وحمى كوينزلاند !

أما الأمراض الفيروسية (جدول ٢) فسببة عن طراز آخر من الميكروبات ، يعرف بالفيروسات . . . وتختلف الفيروسات عما سبقها من بكتيريا وريكيتسيات بأنها تستطيع النفاذ خلال المرشحات الخزفية التى تحول دون مرور البكتيريا والريكيتسيات ، وأنها تشبه الكائنات الأخيرة فى كونها إجبارية التطفل . وتتميز الأنسجة المصابة بالفيروسات بوفرة وجود بلورات بروتينية ، تخلو منها الأنسجة السليمة ، مما جعل الآراء تتضارب فى تحديد ماهية الفيروسات ، أهى تلك البللورات البروتينية ذاتها أوأن هذه البللورات ما هى إلا نتاج نشاط كائنات غير مرئية لم نستطع تبيانها حتى بأقوى ما لدينا من مجاهر حالية ! . . . وبجانب ما تسببه الفيروسات من أخطر الأمراض ، كالجدرى والتراكوما والحصبة وشلل الأطفال والحمى الصفراء ، فقد ازدادت أهميتها أخيراً بما اكتشفه العلماء حديثاً فى معهد ويستار وجامعة بنسلفانيا ، حيث تمكن العلماء الأمريكيون من تغيير نسيج بشرى سليم إلى كتلة تشبه السرطان

(جدول ٢)

بعض الأمراض الفيروسية التى تصيب الإنسان

طراز المرض	اسم المرض	طريقة الانتقال	طريقة العدوى
عام (ينتقل عن طريق الدم إلى الجسد)	الجدرى	العطس ، الملامسة المباشرة ، الأدوات الملوثة	يدخل عن طريق الأغشية المخاطية للقناة التنفسية ، وينتشر بطريق الدورة الدموية ، ويتجمع فى بثرات على الجلد والأغشية المخاطية.
	الحصبة	العطس	يدخل الميكروب القناة التنفسية ويتكاثر هناك ثم ينفذ إلى مجرى الدم لينتشر إلى الأجزاء الأخرى من الجسد
أمراض الجهاز العصبى	شلل الأطفال	غير معروفة بالتمام	يدخل الميكروب الفم ، ثم يأخذ فى التكاثر مبدئياً فى الحلق والإمعاء ثم يصل عن طريق الدم إلى الجهاز العصبى المركزى متلفاً أنواعاً خاصة من الخلايا العصبية ومسبباً الشلل

(بقية الجدول فى الصفحة التالية)

بقية (جدول ٢)
بعض الأمراض الفيروسية التى تصيب الإنسان

طراز المرض	اسم المرض	طريقة الانتقال	طريقة العدوى
أمراض الغدد اللعابية	النكاف (التهاب الغدة النكفية)	العطس ، الملامسة المباشرة ، الأدوات الملوثة	يتكاثر الميكروب فى الغدة النكفية للرقبة ، ولكنه يتركز أيضاً فى الخصى والمبايض والبنكرياس والمخ
أمراض الجهاز التنفسى	الانفلونزا	العطس	يتركز المرض فى أنسجة القناة التنفسية العلوية ونادراً ما يمتد ليصيب الرئات
	حمى الببغاء	مصدره أنواع عدة من الطيور ، إما باستنشاق القطيرات التى تلفظها أو الغبار المحمل بفضلاتها .	يتكاثر الميكروب فى الرئات ، ولكنه ينتشر أيضاً بطريق الدم إلى غيرها من الأعضاء
أمراض الكبد	عدوى الكبد	التلوث البرازى للماء أو غيره من أشياء ؛ أو انتقال الميكروب من البراز بواسطة الذباب	يتكاثر الميكروب فى الكبد مسبباً إتلاف الخلايا الكبدية
أمراض تناسلية	التورم الليمفاوى التناسلى	المعاشرة الجنسية	يتكاثر الميكروب فى البثرات التناسلية ، ثم ينتشر منها إلى العقد الليمفاوية الطرفية .

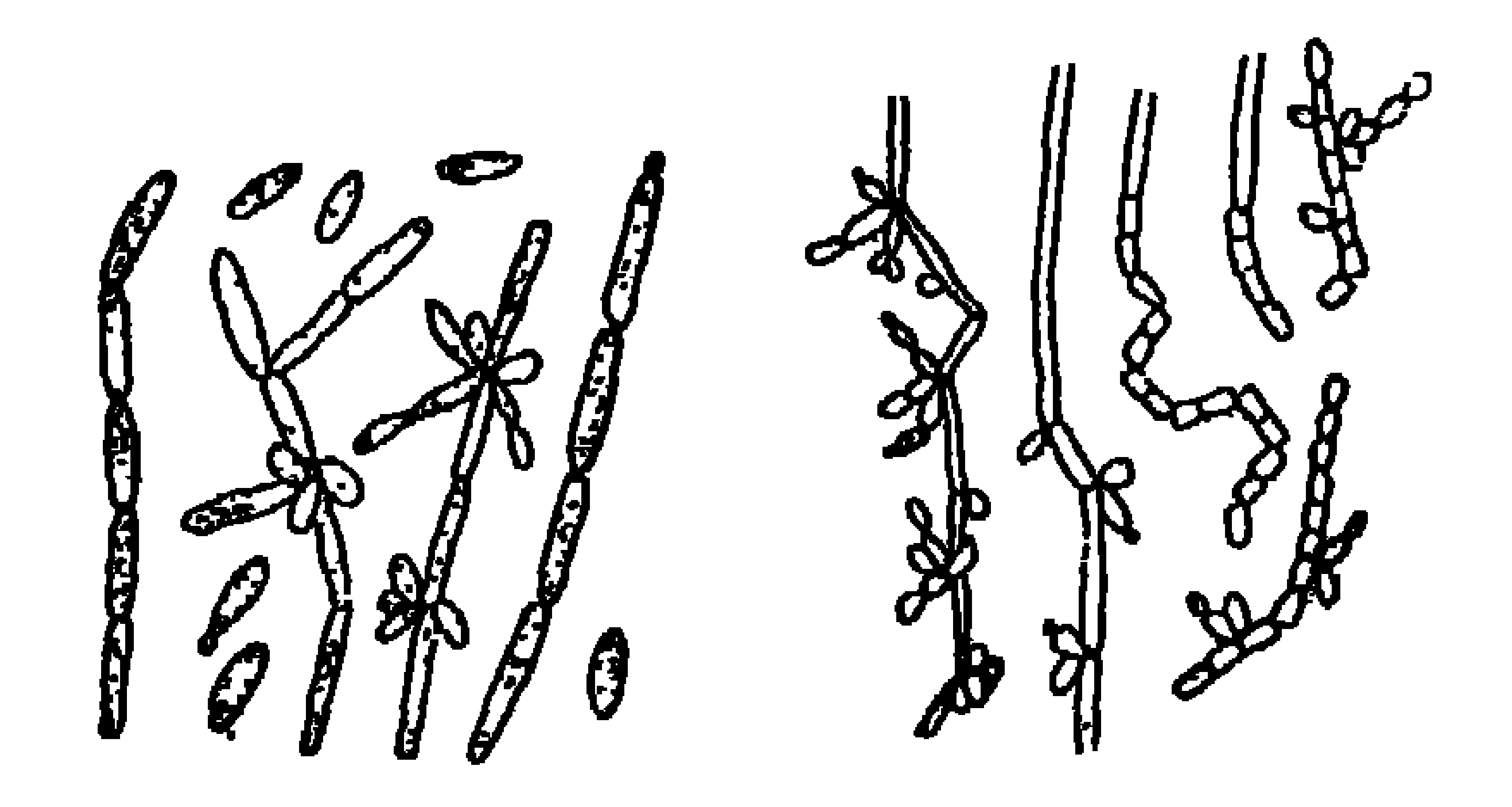
(شكل ٤)



البللورات النقية لفيروس شلل الأطفال ، ويرى إلى اليسار البللورات مكبرة لإظهار تفاصيل أشكالها ، وإلى اليمين صورة أخذت لها بالمجهر الإلكتروني لتبيان طريقة انتظامها (مكبرة حوالى ٣٣٧٥٠ مرة)

عن طريق تعريض هذا النسيج للعدوى بالفيروس . . . وأدخل العلماء فيروساً استخرجوه من كليتى قرد فى أجزاء من نسيج انتزعوها من بشرة أشخاص بالغين تطوعوا للقيام بهذا العمل ، وفى خلال مدة تتراوح بين ثمانية وأربعة عشر أسبوعاً تسبب الفيروس فى تغيير الخلايا تغييراً كاملا وبصورة غير عادية ، وظهرت فيها الخصائص المميزة للخلايا الخبيثة المصابة بالأعراض السرطانية . . . وتؤيد هذه التجارب النظرية الواسعة الانتشار التى تقول بأن الفيروسات تجعل الخلايا تتعرض لتغيرات خبيثة شبيهة بتلك التى يحدثها السرطان ــ نتيجة لما تحدثه من تغيير فى تركيب

(شكل ٥)

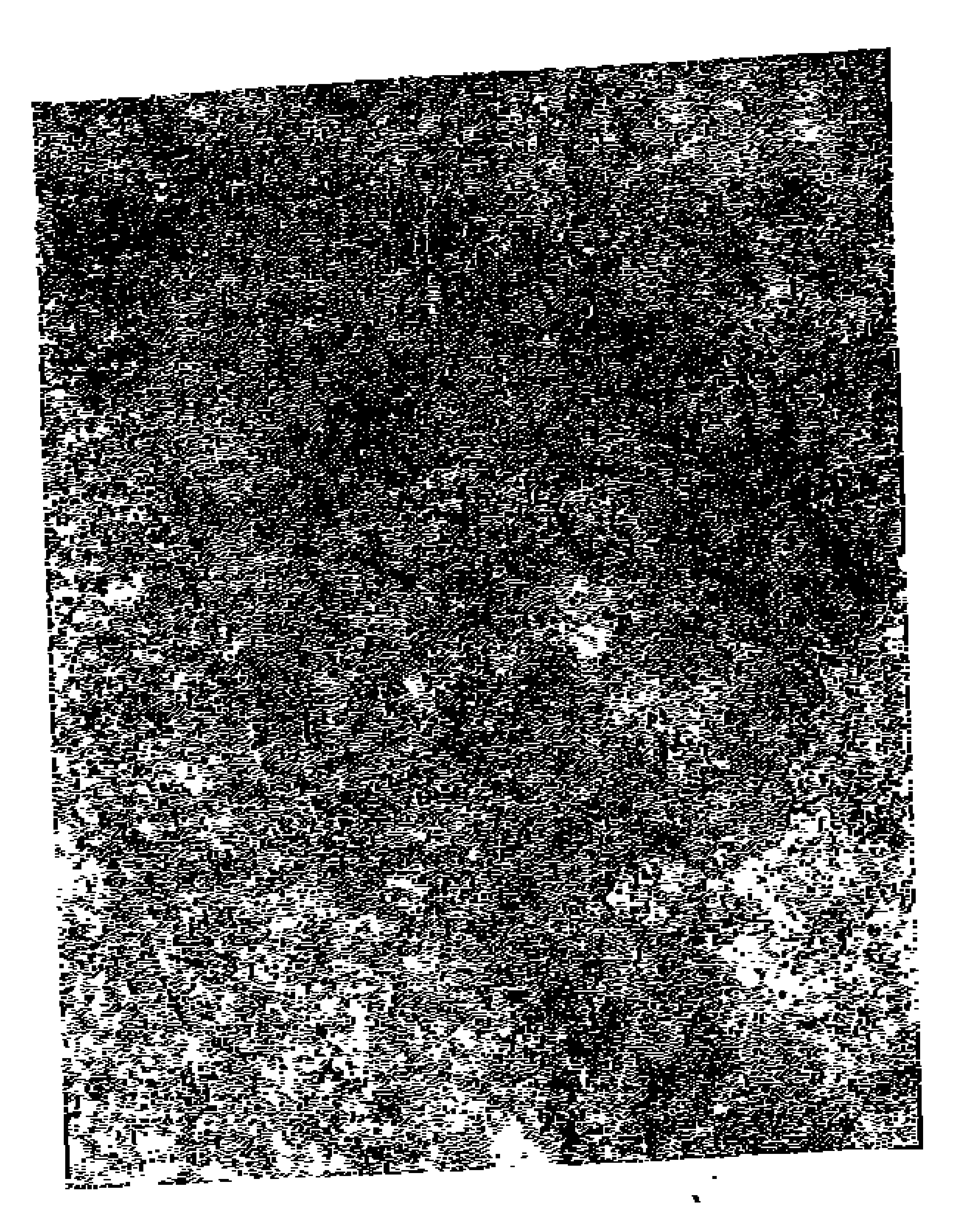


رسوم تخطيطية لبعض الفطريات المسببة لأمراض جلدية فى الإنسان

الكروموزومات (الصبغيات) ، وهى الخيوط الحاملة للصفات المورثة فى سائر الكائنات ، وقد أثبت العلماء أن الفيروسات تسبب بعض أنواع السرطان فى الحيوانات ، إلا أنهم لم يثبتوا بعد بصفة قاطعة أنها تسبب السرطان فى الإنسان !

وأجساد الإنسان هى مرتع خصيب للإصابة بالبكتيريا ، لأنها تحتوى على سائر احتياجاتها الغذائية ولأن درجة حرارتها (٣٧ مئوية) تعد درجة الحرارة المثلى لنموها . . . وكان من حسن حظ الإنسان أن درجة حرارة جسده غير مواتية لنمو الفطريات ، إذ أن درجات الحرارة المواتية لنموها تقع عادة بين درجتى عشرين وثلاثين مئوية ، وإلا كانت الأمراض الفطرية بمثل خطورة الأمراض البكتيرية ، إلا أن هناك قلة من الفطريات

(شكل ٦)



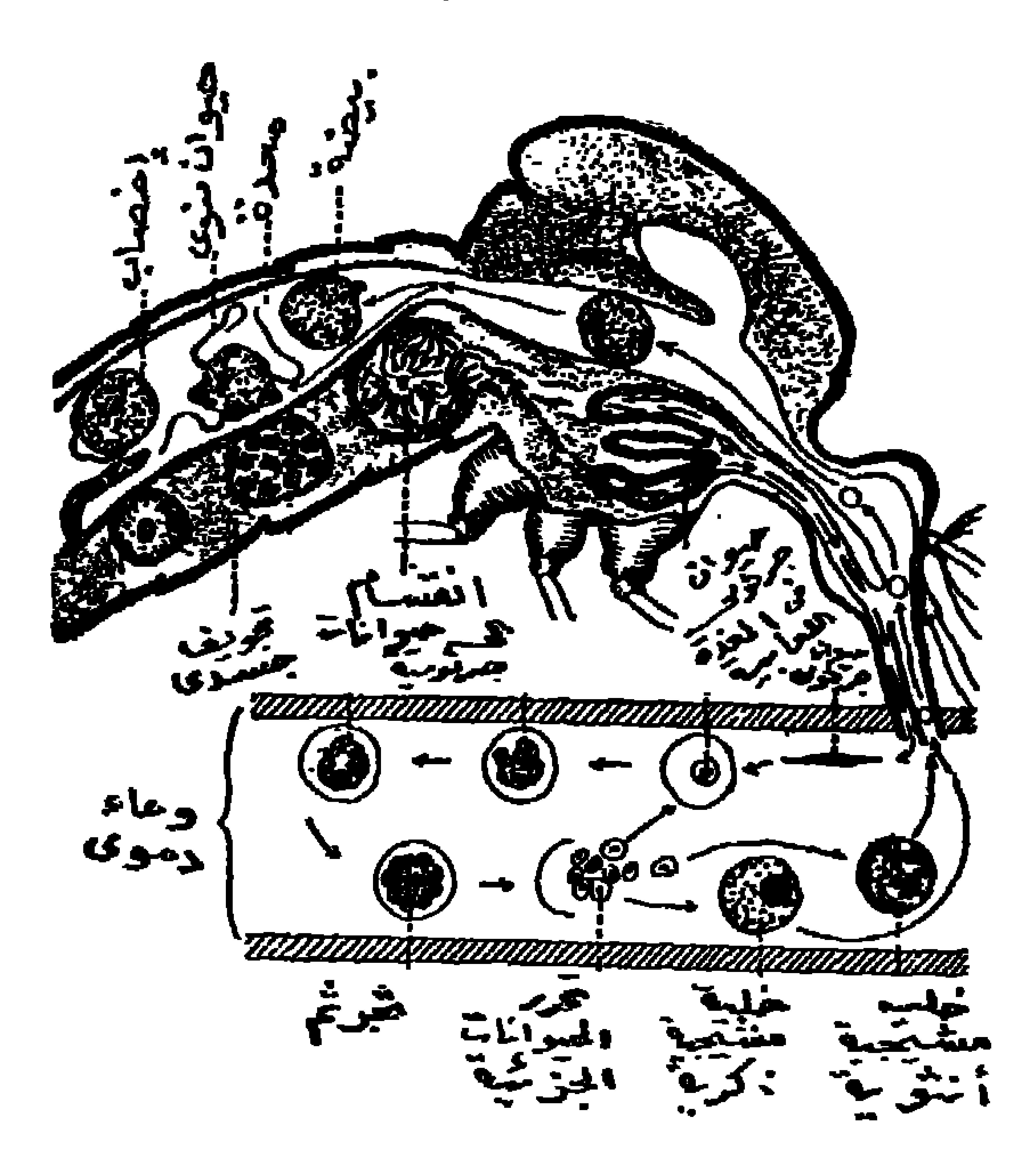
أحد الأمراض الجلدية المسببة عن فطريا

– لا سيما فطريات الخميرة الخيطية – تسبب أمراضاً أقل من الأمراض البكتيرية خطورة وسمية ، منها القراع وكثير من الأمراض الجلدية !

وتسبب الحيوانات الأولية (البروتوزوا أو الأوليات) أمراضاً ميكروبية على أكبر جانب من الأهمية ، وتعد « الملاريا » من بين تلك الأمراض البروتوزوية . . . ويتسبب المرض عن عضة جنس خاص من البعوض ، يعرف بجنس الأنوفيليس ، يتوالد عادة فى البرك العذبة ومزارع الأرز

والقنوات المزدحمة بالأعشاب والنباتات ، وتحمل البعوضة بلازموديوم الكائن البروتوزوى الممرض وتعمل على إدخاله بالعض إلى مجرى دم الإنسان كخلية طويلة رفيعة — تعرف باسم الحيوان الجرثوى Sporozoite — الذى لا يلبث أن يتخذ طريقه إلى داخل إحدى كريات الدم الحمراء ، حيث ينمو هناك ويدمر بالتدريج ما بداخلها من محتويات ، ثم ينفلق إلى عدة خلايا صغيرة تعرف باسم الحيوانات الجرثية merozoites ، التى تتحرر بعد تمزق الخلية الدموية ، وهى تتحرر بكثرة هائلة وفى فترات معينة مما يسبب ما يصاحب الملاريا من أعراض ، هى الحمى والارتعاش ، وتصيب الحيوانات الجزئية كريات دم جديدة لتعيد دورة الحياة داخل كريات الدم الحمراء ! . . . إلا أن بعض هذه الحيوانات الجزئية لا يصيب كريات دم جديدة ولكنها تأخذ فى النمو إلى خلايا كبيرة غير قابلة للانفلاق ، تعرف باسم الخلايا المشيجية gametocytes ، منها الذكرية ومنها الأنثوية ، وتستمر كذلك دون نمو أو انقسام داخل الأجساد الإنسانية ، حتى إذا عضتها بعوضة من جنس الأنوفيليس انتقلت إلى قناتها الهضمية ، وتحررت منها أمشاج أخذت فى الحركة والتزاوج ، مكونة لاقحات متحركة ، لا تلبث بدورها أن تتحوصل داخل جدار معدة البعوضة . . . ولا تلبث أن تتحرر من هذه اللاقحات المتحوصلة Oacysts حيوانات جرثومية تنتشر فى أعداد ضخمة إلى سائر أجزاء البعوضة ، وتستقر الكثرة منها فى الغدد اللعابية ، حيث تسرى منها مع اللعاب إلى مجرى دم أى عائل من العوائل الإنسانية !

(شكل ٧)



دورة حياة طفيل الملاريا على عائليه ، البعوضة والإنسان ، ويمكن تتبع دورة الحياة حسب اتجاهات الأسهم الموضحة ، ويرى فى أسفل دورة الطفيل داخل الوعاء الدموى للإنسان وفى أعلى دورتها داخل جسد البعوضة .

ومن الأمراض البروتوزوية التى تصيب أيضاً الإنسان ، وتسبب له أخطر الأمراض ، مرض الدوسنطاريا (الزحار) الأميبية ، تسببه أميبات

وحيدة الخلية ، وتتميز هذه الأوليات الحيوانية بعدم استقرار شكلها ، فهى تبرز على الدوام زوائد تستطيع بها التقام ما يقابلها من مواد . . . ويستقر الكائن المسبب للدوسنطاريا فى الأمعاء ، ويأخذ فى مهاجمة الخلايا المبطنة للقولون والتقام كريات الدم الحمراء ، وله القدرة على إذابة الأنسجة بما يفرزه من إنزيمات ، وقد يسبب هذا الطفيل حالة مزمنة من حالات المرض حيث تتقرح الأمعاء الغليظة ويصطبغ ما يلفظه المريض من براز بالدماء ، وإذا ترك الطفيل وشأنه فقد ينفذ خلال بطانة الأمعاء

(شكل ٨)



صورة فوتوغرافية أخذت بمنتهى السرعة لتبيان ما يلفظه فم الإنسان من رذاذ وما يخرجه أنفه من إفرازات فى الهواء أثناء السعال .

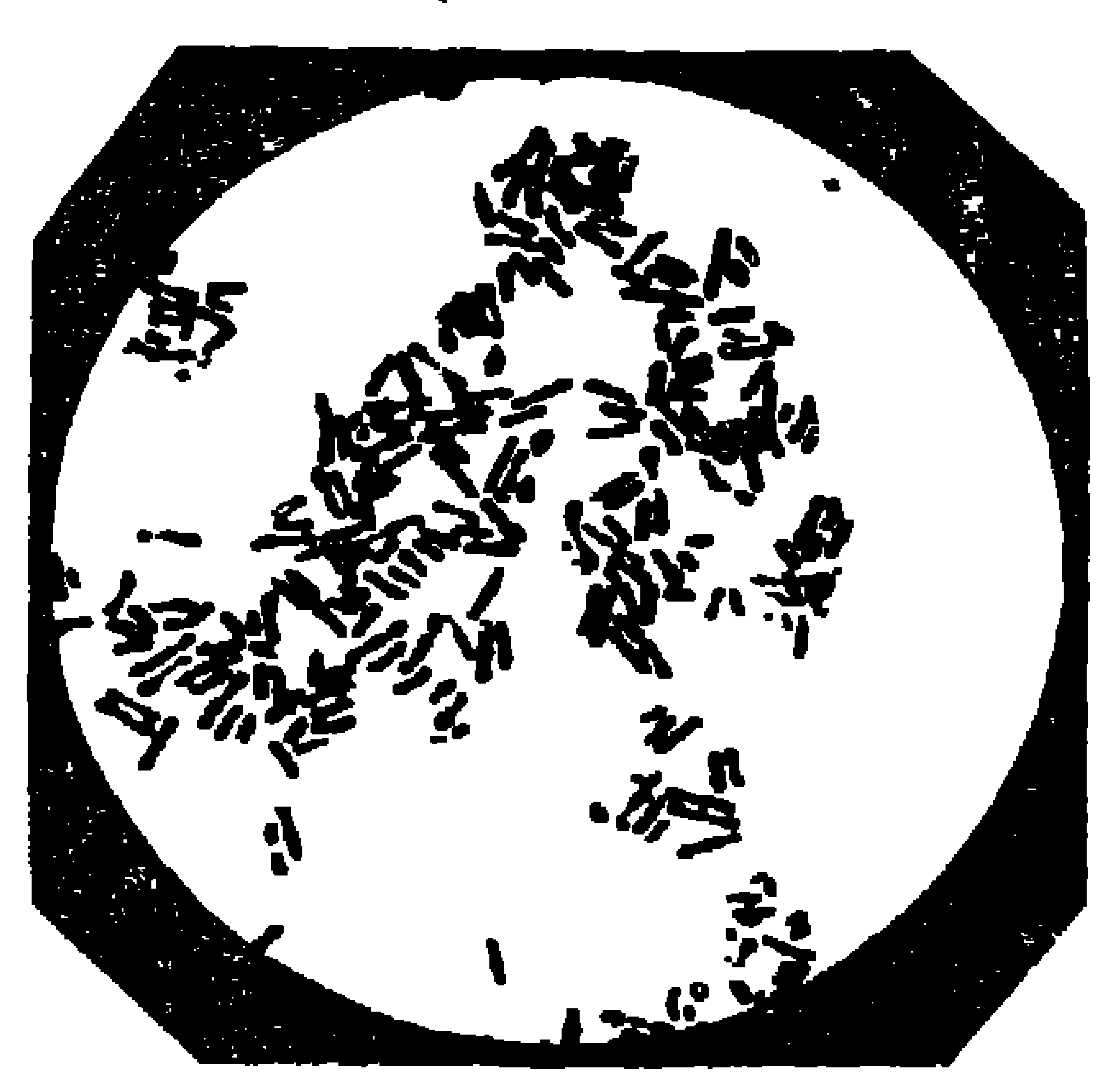
ويسبب ثقباً فى الجدار ، وحينئذ قد يحيق بالمريض الهلاك نتيجة لالتهاب البريتون المسبب عن البكتيريا الموجودة فى البراز ، وقد تسرى الأميبات إلى الأوعية الدموية لتحملها إلى الكبد والرئة والمخ وغيرها من أعضاء ، حيث تستطيع إحداث تجاويف كبيرة أينما شاء لها الاستقرار !

منافذ الدخول وطرق الانتقال

لابد للميكروب من تحقيق المراحل التالية لكي يستطيع أن يحدث المرض . . . أن يجد أولا الوسيلة أو المطية التي توصله إلى جسد عائله ، ومن ثم يشرع في غزوه إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، وليس الطريق إلى الغزو سهلا ميسوراً ، إذ لا بد للميكروب من أن يتلمس منفذا للدخول ، وحتى إذا قدر له أن ينجح في ذلك كان عليه أن يلتمس منفذاً داخلياً للوصول إلى النسيج أو العضو الجسدى القابل للأصابة به ، حيث يستطيع أن يستغله كمصدر للغذاء وينفث فيه سمومه ويظهر فيه ما يحدثه المرض من أعراض ، فإذا ما أتم رسالته وأحدث المرض تلمس منفذاً للخروج ، لا سيما إذا كان الميكروب إجبارى التطفل — كميكروب الفيروس — يرتبط موته بموت العائل الذى قدر له أن يغزوه ! . . . وهناك عدة طرق لانتقال الميكروب :

١ — الانتقال عن طريق التنفس فيما يلفظه المريض من رذاذ أثناء السعال أو الكلام ، ، ومن أمثلة هذا الطراز من الانتقال بين الأمراض البكتيرية الدفتيريا والالتهاب الرئوى والدرن والسعال الديكى ، ومن بين الأمراض الفيروسية الانفلونزا وحمى الببغاء .


(شكل ٩)



ميكروب الدفتيريا

٢ — مواد الغذاء والشرب الملوثة بالمخلفات البرازية ، كما فى حمى التيفوئيد والدوسنطاريا والكوليرا الأسيوية .

٣ — عن طريق الجروح ، كما فى الغرغرينا الغازية والتيتانوس .

٤ — الملامسة المباشرة ، عن طريق الجلد أو الأغشية المخاطية ، كما هو الحال فى الزهرى والسيلان وغيرهما من أمراض تناسلية .

٥ — بوساطة الحيوانات ، لا سيما المفصليات ، وسنتناول هذه الطريقة فيما يلى بإسهاب :

الحيوان كناقل للأمراض :

تعد عضة الحيوان للأنسان إحدى الطرق الرئيسية لنقل بعض الأمراض المعدية (جدول ٣) ، وباستثناء مرض الكلب - وهو مرض فيروسى يصاب به الإنسان إذا عضه حيوان راق (كالكلب أو ابن آوى أو الوطواط المصاص) - فإن جميع الأمراض التى تتضمنها هذه المجموعة تنتقل بوساطة حيوانات أقل منها رقياً ، تكون عادة إحدى المفصليات ، سواء الحشرية منها كالبعوض والبراغيث والقمل والذباب أو العنكبوتية منها كالقراد ، وجميعها حيوانات عضاضة ، ويسمى الحيوان المفصلى العضاض - والحامل للميكروب - بناقل المرض ، أما الحيوان الأصلى الحامل للميكروب على الدوام - والذى يستقى منه الحيوان المفصلى العدوى - فيعرف بخازن الميكروب . . . ولا يعمل الإنسان فى جميع هذه الحالات كخازن ، بل يكون الخازن الأصلى حيوان يعمل الناقل المفصلى على نقل الميكروب منه إلى حيوان آخر ، ولا يعد الإنسان فى هذه الحالة إلا عائلا عرضياً ، فلا يصاب بالمرض إلا إذا شاء سوء الحظ أن يتخيره الناقل المفصلى ليكون هدفاً للاعتداء باللسع أو العض ، ولا يقوم الإنسان فى مثل هذه الحالة بدور فعال للمحافظة على حياة وتسلسل الميكروب - كما يفعل الحيوان الخازن أو الناقل - بل هو مجرد إحدى المصادفات التى قد تتكرر أو لا تتكرر فى حياة الميكروب !...

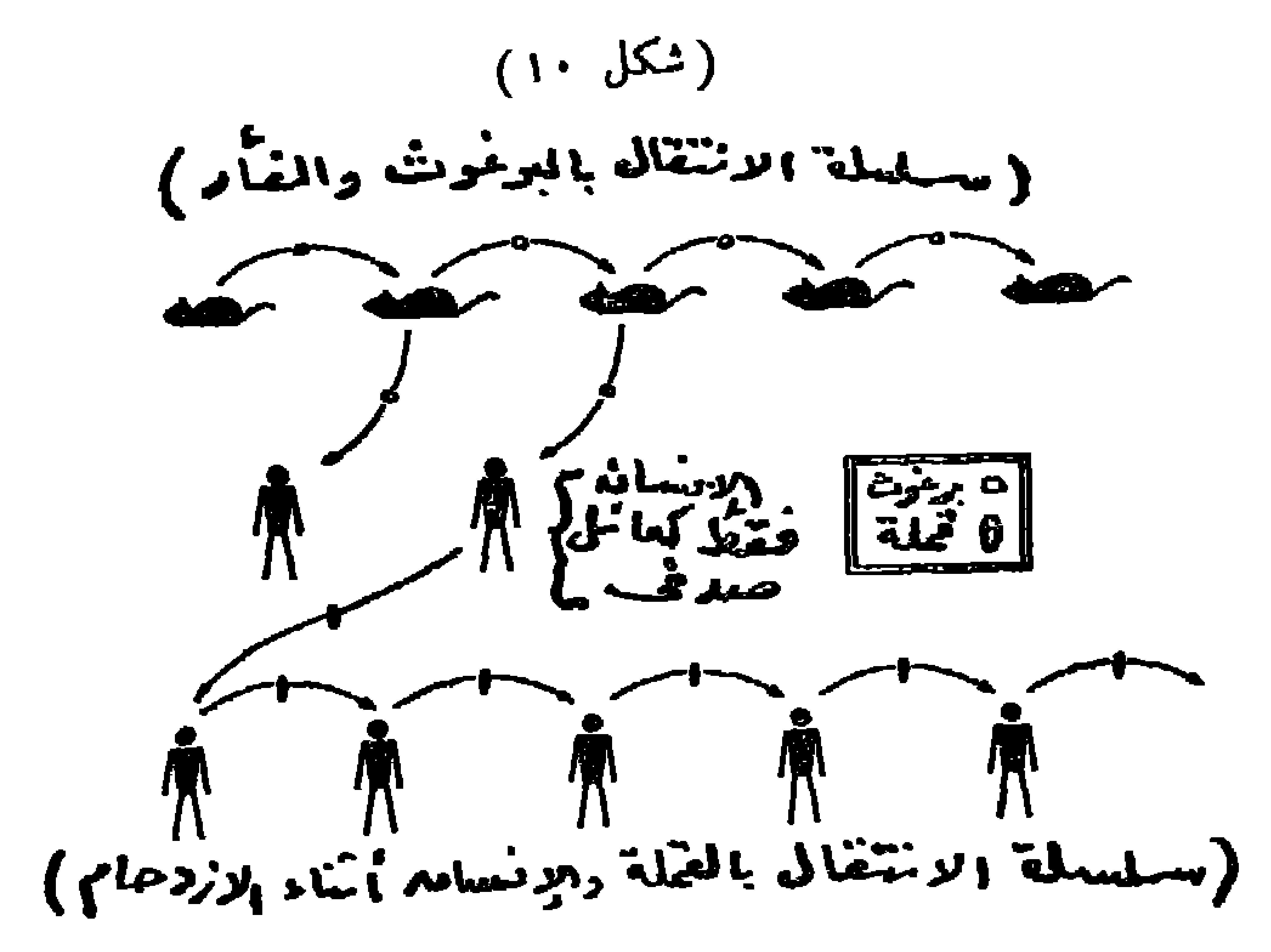
(جدول ٣)

بعض الأمراض التى تصيب الإنسان وتنتقل عن طريق عضة الحيوان

العلاقة البيئية بالإنسان	المرض	نوع الميكروب	الحيوان الناقل	خازن الميكروب
يستغل الإنسان كعائل عرضى للمرض وليس كخازن للميكروب	الطاعون	بكتيرة	البرغوث	الجرذ وغيره من قوارض
	الكلب	فيروس	الكلب وابن آوى (نوع من الثعالب)	نفس الحيوانات الناقلة للميكروب
	التيفوس	ريكيتسيا	البرغوث	الجرذ
	حمى الأرانب	بكتيرة	القراد	القوارض البرية والقراد
يكون الإنسان أحد خازنى الميكروب	مرض النوم الإفريقى	حيوان أولى (بروتوزوا)	ذبابة تسى تسى	الإنسان والثدييات البرية
	الحمى الصفراء	فيروس	البعوض	الإنسان والقرود
الإنسان هو الخازن الوحيد للميكروب	الملاريا	حيوان أولى (بروتوزوا)	البعوض	الإنسان
	التيفوس	ريكيتسيا	القمل	الإنسان
	حمى الدنج	فيروس	البعوض	الإنسان

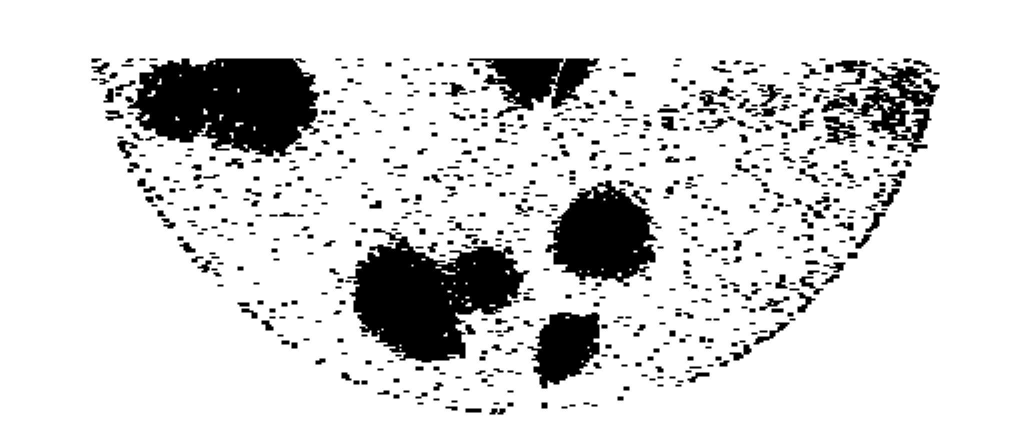
ومن أمثلة ذلك مرض حمى الجبال الصخرية المبقعة ، وهو أحد الأمراض الفيروسية التى تصيب القوارض البرية والقراد ولا تسبب لها أدنى أضرار ، إذ هى تعد بالنسبة للميكروب بمثابة الخوازن والناقلات التى تحقق له الخلود والبقاء . . . أما إذا أصاب الإنسان فلا يلبث الأخير أن يخر صريعاً إذا كان هدفاً عرضياً لعضة أو لسعة مفصلى ناقل كالقراد ، وتنتهى حياة الميكروب بانتهاء حياة الإنسان المصاب ، لأن الميكروبات الفيروسية لا تستطيع مواصلة البقاء إلا على إنسان ينبض بالحياة . . . فلا يقوم الإنسان إذن بدور فعال لخدمة الميكروب والمحافظة على حياته وتسلسل انتقاله وعدواه ، كما تفعل القوارض البرية والقراد !

ومن الأمراض الميكروبية المعدية البالغة الخطورة والتى تتميز بسلسلة انتقال حيوانية معقدة مرض التيفوس ، وهو أحد الأمراض الريكتيسية ، ومما يلاحظ فى الجدول السابق (جدول ٣) أنه قيد مرتين ، مرة كطفيل تنقله البراغيث وتختزنه الجرذان ويكون فيها الإنسان عائلا عرضياً ، ومرة أخرى كطفيل ينتقل بالقمل ويكون فيها الإنسان خازناً أصلياً . . . والطراز الأخير من التيفوس ، وهو الذى يكون فيه القمل ناقلا والإنسان خازناً ، هو الذى يتفشى عادة فى المجتمعات التى أنهكتها قسوة المجاعات وويلات الحروب ، ومما يساعد على انتشار الوباء فى مثل هذه الحالات القذارة وتكدس الناس التماساً للطعام أو طلباً للنجاة ، وذلك لأن القملة التى تعمل على انتقال الميكروب من خوازن إنسانية لا تلبث



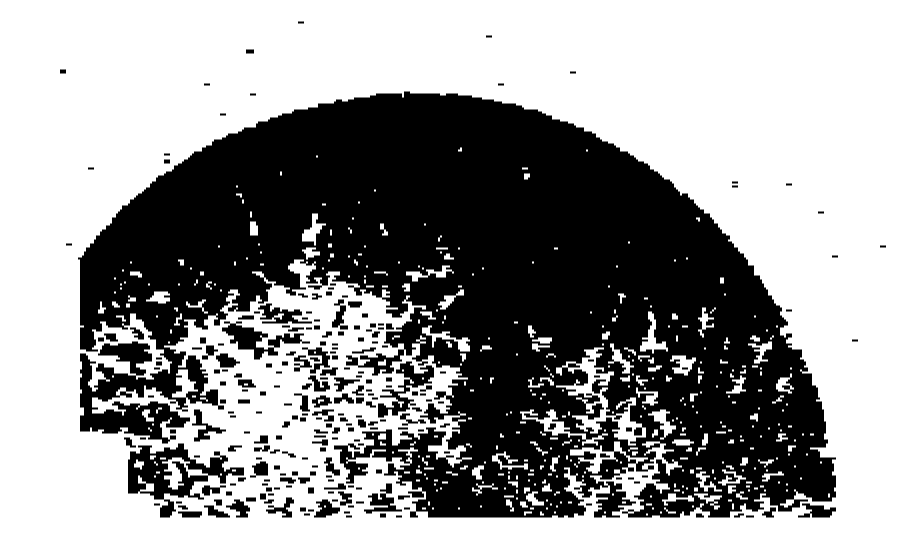
سلاسل انتقال التيفوس، ويرى فى أعلى سلسلة الانتقال بوساطة الجرذان والبراغيث حيث يكون الإنسان عائلا عرضياً ، حتى إذا ما أصيب الإنسان بالصدفة نتيجة لعضة برغوث كان ذلك بمثابة بدء سلسلة الانتقال بوساطة القمل والإنسان (المبينة أسفل الصورة) .

أن تموت فى فترة قصيرة لا تتجاوز الأسبوع ، ويموت بموتها الميكروب ، فإن لم تتوفر شروط الانتقال فى هذه الفترة القصيرة من حياة القملة الناقلة للمرض ، وذلك بتوافر عوامل القذارة وتكدس الناس ، مات الميكروب بموت القملة الناقلة له وتوقف الانتقال ، إذ أن ميكروب التيفوس هو كائن ريكيتسى إجبارى التطفل لا يستطيع العيش إلا على قملة تنبض فعلا بالحياة ! . . . أما الطراز الآخر من مرض التيفوس ، الذى تكون





طرز شتى من البكتيريا أو الميكروبات .



فيه البراغيث هى الناقلة وتكون الجرذان هى الخازنة للميكروب ، ولا يكون فيه الإنسان سوى عائلا عرضيا ، فقد اكتشف فى كل من أستراليا والمكسيك والولايات المتحدة الأمريكية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى مباشرة . . . حيث وجد أن الميكروب يكون متأصلا ومختزناً رئيسياً فى الجرذان ، وتعمل البراغيث على نقل الميكروب وانتشارها بين تلك الجرذان لتزيد من خوازنه على الدوام ، أما حدوث الوباء فى هذه الحالة فيرجع إلى انتقال الميكروب بوساطة براغيث الجرذان إلى الإنسان ثم يأخذ المرض بعد ذلك فى الانتشار بين الناس عن طريق قمل الأجساد ، فالخازن الأصلى للميكروب ومصدر العدوى هو الجرذان !

وتختلف الآلية التى ينتهجها الحيوان المفصلى فى نقل الميكروب ، فقد لا يدخل الأخير البتة جسد الحيوان الناقل ولكن يحمله كلية على أجزائه الخارجية ، ومن أمثلة هذا الطراز انتقال مرض حمى الأرانب بوساطة ذبابة الأيل وما تقوم به الذبابة العادية من نقل ما يذخر به البراز من تلوثات ميكروبية . . . أما أكثر الطرق شيوعاً فهى تلك التى يمتص فيها الحيوان المفصلى الناقل مسبب العدوى الميكروبى مع ما يمتصه من دماء ، ثم يأخذ هذا المسبب فى التكاثر بسرعة داخل الأجساد ، حتى إذا ما حط الرحال على فريسة أخرى ليواصل رسالته فى الحياة — وهى العض وامتصاص الدماء — انتقل الميكروب وتوطد المرض العضال ! . . . فقد يتكاثر الميكروب فى القناة المعوية للحيوان الناقل ، ثم ينتقل إلى العائل المتطفل عليه إما نتيجة التلوث البرازى للجروح المسببة عن العض

وإما نتيجة للقلس أو إرجاع الدم الملوث . وقد يغزو الميكروب فى بعض حالات أنسجة أخرى من أنسجة الحيوانات الناقلة المفصلية ، غير القناة المعوية ، ثم ينتقل إلى العائل إما عن طريق الغدد اللعابية أو بسبب التهشيم العارض للحيوان المفصلى الناقل للميكروب حين ينقض باللسع والعض على جسد فريسته القوية !

ولا تعد العلاقات البيئية بين الإنسان وبين ما يحيط به من شتى الحيوانات ، الناقلة والخازنة لمسببات الأمراض ، من السهولة بمكان . . . فالميكروب مثله كمثل غيره من الأحياء يلتمس السبل للاحتفاظ بالحياة ، ولا يختلف عما عداه من كائنات تعلوه فى سلم التطور فى الاستمساك بالبقاء ، يعمل مثابراً لمصارعة قسوة الحياة ومكافحة شتى وسائلها الإبادية ، ومن وسائل الكفاح التى تنهجها بعض الميكروبات الممرضة — مما تستغل الحيونات كمطايا للتخزين والانتقال — أنها لا تصيب عادة الحيوانات المفصلية الناقلة لها بآية أضرار ، وذلك لكى تستطيع الاستعانة بها فى الوصول إلى خوازن للاستقرار أو إلى عوائل مناسبة تنفث فيها سمومها أو تستدر منها غذاءها أو تودى بها إلى الهلاك ، وأنها قد تستغل الحيوانات المفصلية الناقلة كخوازن ثانوية تتمسك بها إذا ندرت الخوازن الأصلية أو عز الانتقال ، كما هو الحال فى حمى الأرانب التى قد تصيب الإنسان وينقل ميكروبها القراد ، فالميكروب لا يستغل القراد فقط كناقل بل يستغله كذلك كخازن ثانوى بجانب خوازنه الأصلية

من القوارض البرية ، حيث يعمل القراد الناقل للميكروب على الاحتفاظ به على مدى الزمان . فيتغلغل الميكروب فى جسد القراد الناقل دون أن يؤذيه ويغزو ما به من مبايض وبيض ، وبذلك ينتقل من جيل حاضر إلى ما بعده من أجيال ، ويتوارث على الدوام ، وبمثل هذه الطريقة يستطيع الميكروب أن يوطد أقدامه ويصون حياته على الحيوان المفصلى الناقل ليكون له خازناً ثانوياً مستقلا عن الخازن الفقرى الأصلى تمام الاستقلال !

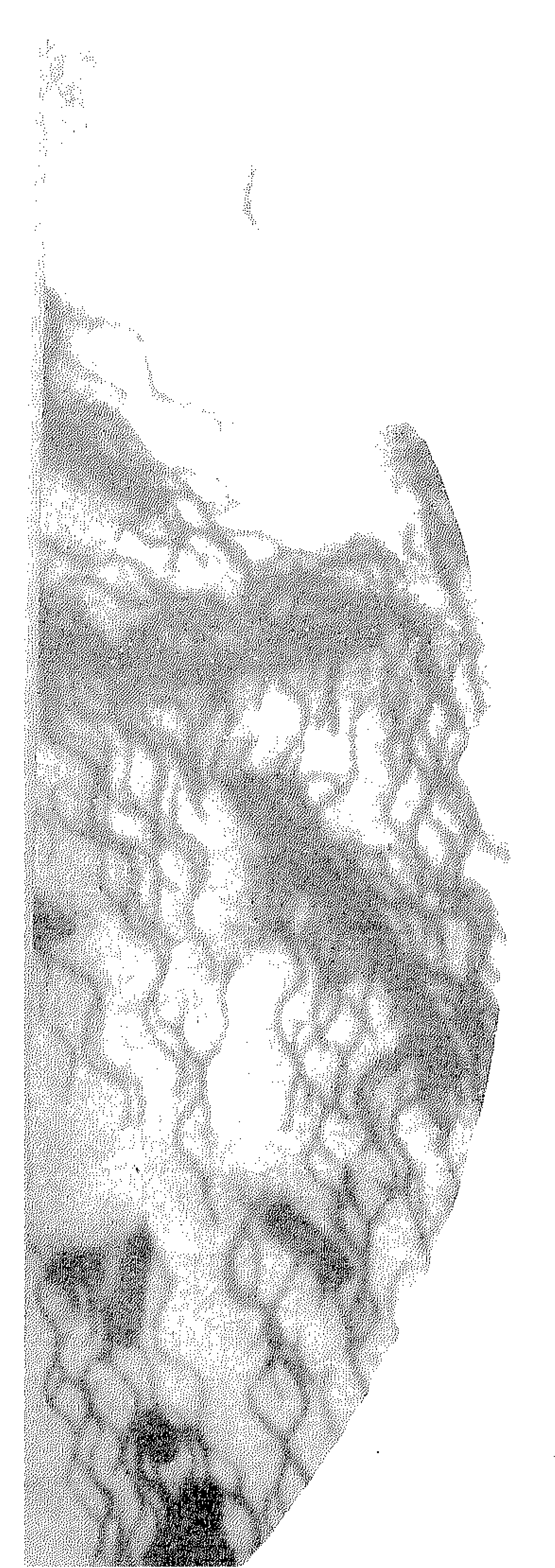
ومع أن المألوف أن الميكروب لا يبدى تأثيراً مرضياً أو مميتاً على الحيوان المفصلى الناقل له ، ويعد هذا وحده من الصعاب التى تواجه العاملين على مقاومة المرض وإبادة مسبباته ، فهناك حالات قليلة يتأثر فيها الحيوان المفصلى الناقل بالميكروب الذى يحمله ، مثل العلاقة بين القملة وحمى التيفوس . . . حيث يعمل الميكروب على قتل القملة فى مدة لا تزيد على الأسبوع !

ولو قدر للقمل أن يستأسد فى يوم من الأيام لسبب من الأسباب ، فاستطاع — وهو الناقل للتيفوس — أن يقاوم التأثير المميت للميكروب لأمد طويل ، وامتدت حياته وهو حامل للميكروب إلى عدة أسابيع ، بدلا من انتهائها بعد الإصابة فيما لا يزيد على أسبوع ، فستكون القملة الحاملة والناقلة للميكروب بمثابة سلاح دائم فتاك يحصد الأرواح ويجعل الإنسان كهشيم تذروه الرياح ، ولما كان من شواذ الأخبار أن نستمع إلى أن أمة من الأمم أرسلت بجيش جرار ، قوامه عدد ضخم من القمل

المستأسد الناقل للتيفوس ، فحصد من أرواح الأعداء ما لا تستطيع أن تحصده قذائف المدافع أو شرور النار والحريق ، ويغلب على الظن أن حرب الميكروبات سيكون قوامها استغلال الحيوانات الناقلة للميكروبات وإطلاقها بما تحمله من مسببات الأمراض بين صفوف الأعداء لتكون نذيراً بالهلاك والفناء . . . ولكن تلك هي الطبيعة ، تعطى باليمين ما تسلبه باليسار ، فقد أعطت للميكروب فترة محدودة ليستغل فيها القملة للانتقال إلى عائل أو خازن ، فإن قضى عليها بسمومه بانقضاء الفترة قضت هي الأخرى عليه ، وكان مصيره ومصيرها الفناء ، وفى فنائه وفنائها إبان هذا الأمد المعلوم إنقاذاً للإنسان ومحافظة لحياته مما حوله من ميكروب وحيوان ، لو تركت وشأنها تعبث وتتكاثر دون أى قيد أو رقيب لما بقى على وجه البسيطة إنسان !

السموم البكتيرية (التوكسينات)

جميع البكتيريا المسببة للأمراض لابد وأن تكون مولدة للسموم أو (التوكسينات) ، وإلا لما نتج عن نموها فى أنسجة جسد العائل أى مرض من الأمراض ، فهى فى الحقيقة السبب الرئيسى لظهور ما يبديه المرض من أعراض . . . وتتوقف حدة المرض على مدى فاعلية وكمية التوكسين التى تنتجها كل خلية بكتيرية ، فإذا كان التوكسين موفور الكمية شديد الفاعلية لا تلبث أعراض المرض أن تظهر بمجرد غزو



البكتيريا ــ أو الميكروبات
كما ترى تحت المجهر الألكترونى ،
كعصى طويلة تنبثق منها أسواط .



الفيروسات هى بلورات
نيوكلوبروتينية ، ويبين الشكل
طريقة انتظام الذرات فى إحدى
جزيئات هذه الفيروسات .

البكتيرة للجسد ، أما إذا كان قليل الكمية ضعيف الفاعلية فلا تظهر أعراض المرض إلا بعد غزو كبير للجسد ليتم نمو البكتيريا ويزداد تكاثرها !

وترتبط طبيعة التوكسينات التي يفرزها الميكروب بالمكونات الغذائية للنسيج أو العضو الجسدى الذى ينمو عليها ، ولا تكون تلك التوكسينات بادية التأثير إلا إذا قدر للميكروب أن يغزو أنسجة أو أعضاء جسدية خاصة ، فيها يقدر لنموه النجاح ولسمومه إبراز خصائص المرض من أعراض . . . فحمى التيفوئيد مثلا لا تحدث المرض ولا تبدى أعراضه المميزة إلا إذا قدر لميكروباتها النجاح فى الوصول إلى أنسجة الجهاز المعوى واقتحمتها ، وتستوطن البكتيريا المسببة لمرض الغرغرينا الغازية عادة الجهاز المعوى ، إلا أنها لا تبدى تأثيرها الضار ولا تسبب الأمراض إلا إذا قدر لها الوصول إلى جروح عميقة فتغزوها وتفرز سمومها ، مما يعزز الاعتقاد بأن التركيب الكيميائى للسموم البكتيرية ذى وصلة وثيقة بطبيعة المكونات الغذائية للأنسجة والأعضاء الخاصة القابلة للإصابة . ومن هنا كان لابد للميكروب أن ينجح أولا فى الوصول إلى هذه الأنسجة أو الأعضاء الخاصة القابلة للإصابة قبل إحداث المرض بما يتميز به من أعراض ، ويعرف المشتغل بعلم الميكروبات أن التجويف الفمى يذخر بعدد لا يحصى من أخطر الميكروبات ، ولولا ما يبديه الجسد من آليات مقاومة فعالة لتسربت تلك الميكروبات إلى الأجزاء القابلة للإصابة بها

من أنسجة وأعضاء ، ولكان مثل الإنسان فى الحياة كمثل ريشة فى مهب الرياح ، تقذف به الميكروبات باستمرار إلى هوة سحيقة من الهلاك والفناء ! . . . ولم يكتف الإنسان فى مقاومة غزو هذه الميكروبات بما وهبته الطبيعة من آلية جسدية دفاعية ، ورثها عن أسلافه من الآباء والأجداد ، بل استغل ما تمخضت عنه الاستكشافات العلمية من ثمرات يانعات ليسبغ على جسده حصانة وليزيد من مقاومته للأمراض . . . ويمكن تلخيص ما ابتكره الإنسان من أساليب فيما يلى :

١ — العمل على إبطال الحدة المرضية للميكروب بحث الجسم على تكوين أجسام مضادة فى مصل الدم ، مما تعمل على الاتحاد مع الميكروب وانتزاعه انتزاعاً كلياً من أنسجة وسوائل الجسد .

٢ — معادلة أو تثبيط نشاط التوكسينات الخارجية التى تفرزها الميكروبات ، للحيلولة دون إظهار ما يحدثه المرض من أعراض .

٣ — العمل على مؤازرة آلية الجسد الدفاعية ضد الميكروب ، وذلك بإمداد الجسد بمواد كيميائية أو مضادات حيوية — كالبنيسيلين والسنربتوميسين وأشباههما — مما تعمل على تثبيط أو إيقاف نمو الميكروبات المهاجمة ، وتتيح الفرصة لكريات الدم البيضاء اللاقمة لها للتغلب عليها وابتلاعها .

ومثل الجسد الإنسانى كمثل ساحة خلوية للقتال ضد مهاجمة الأعداء من الميكروبات ؛ لها ما لمساحات القتال من خطوط دفاع ابتدائية

وثانوية . . . وإذا كانت ساحة القتال قد تزيد من تحصينها هضاب أو تضاريس تعزز ستراتيجيتها وتزيد من مقاومتها فإن المساحة الجسدية تكون مزودة — نتيجة لما ورثته عن أجساد الآباء والأجداد — بآليات تعمل على تعزيزها وزيادة مقاومتها لغزو الميكروبات ، إلا أن تلك الآليات — التى تنتظم فيما يعرف بالمناعة الطبيعية — ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقوانين الوراثة المعروفة ، فتورث كما تورث غيرها من الصفات ، ولا تستجيب لما تبتكر الأعداء الميكروبية من وسائل متطورة للقتال ، كما أن تلك المناعة الطبيعية تتباين باختلاف الأفراد والسلالات ، بل باختلاف السن وتباين الشعوب وتعدد الألوان ! . . . فقد وجد مثلا أن بعض الشعوب كاليهود لديهم مناعة طبيعية أكثر من غيرهم لمقاومة مرض الدرن (السل الرئوى) ، وبالعكس السودانيين فإنهم أكثر الشعوب قابلية للأصابة بالمرض ، وليس مثار هذا الاختيار هو استثقال ميكروب الدرن لليهود واستظرافه للسودانيين ، بل يرتبط إلى حد كبير بالوسائل التى تنتهجها هذه الشعوب منذ القدم فى شتى عاداتها وطرق غذائها ، فتكتسب أجسادهم بمرور الزمان المناعة الطبيعية الكافية لمكافحة الميكروبات ، التى تصبح مكتسبة يتوارثها الأحفاد عن الآباء والأجداد . . . ومما يلاحظ عادة أن الأطفال الحديثى الولادة يكونون أكثر مقاومة للأمراض ، فيندر أن يصاب طفل رضيع فى الستة الشهور الأولى من حياته بأحد الأمراض المعدية المسببة عن ميكروبات ، وقد أمكن تفسير هذه الظاهرة بأن دم الطفل قد يحتوى على مواد مضادة للميكروبات وسمومها اكتسبها

الطفل من دم الأم أو لبنها، وهكذا تتهيأ لمثل هؤلاء الأطفال فى باكورة أحياتهم مناعة طبيعية مؤقتة تقيهم شر الأمراض حتى يستوى عودهم وتتقوى جسادهم بعد رقتها ووهنها !

ولو ترك الناس وشأنهم حسب ما هيأته لهم الظروف الوراثية من مناعة طبيعية ، لتفاوتوا إلى حد كبير فى مقاومة الأمراض الميكروبية ، فمن العائلات ما كانت تطوى فى سجل الفناء لافتقار أفرادها إلى مناعة طبيعية تقيهم شر الأمراض ، ومنها ما تخلد خلود الزمان لما واتته من مناعة طبيعية يتوارثها الأفراد . . . تلك كانت هى الحال فيما غبر من أزمان ، عندما كان العلم يحبو فى طفولته متعثراً فيما يتقدم به من خطوات ، فكان بقاء الإنسان الأصلح بنياناً والأقوى مناعة هو النبراس ، ثم تطور العلم وتوطدت أركانه ، واستطاع محاكاة المناعة الطبيعية ليسبغ على الإنسان — مهما هزل بنيانه وضعفت مقاومته للأمراض — مناعة صناعية أو مكتسبة ، فامتدت اشتراكية المناعة إلى سائر الأفراد ، وانخفض نتيجة لذلك معدل حالات الإصابة بالأمراض (جدول ٤) وارتفع متوسط عمر الإنسان . . . فما هى ماهية هذه المناعة الصناعية ، التى حققت للأنسانية ما تهدف إليه من آمال !

(جدول ٤)

معدل حالات الإصابة ببعض الأمراض الميكروبية فى الولايات المتحدة الأمريكية خلال الأعوام : ١٩٤٠ ، ١٩٤٣ ، ١٩٤٥ و ١٩٥٢ .

المرض	الحالات فى كل ١٠٠,٠٠٠ نسمة			
	١٩٤٠	١٩٤٣	١٩٤٥	١٩٥٢
الزهرى	٣٤٧,٦	٣٨٠,٤	٢٦٥,٣	١٠٥,٦
السعال الديكى	١٣٩,٤	١٤٥,٤	٩٩,٩	٢٨,٧
الملاريا	٦١,٣	٥٠,٢	٥٢,٣	٤,٥
حمى التيفوئيد	٧,٤	٤,٣	٣,٨	١,٥
الجدرى	٢,١	٠,٥	٠,٣	٠,٠١
الحمى المتقطعة	٠,٦	٠,٥	٠,٤	٠,٢

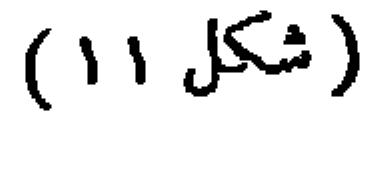
المناعة ومقاومة الأمراض

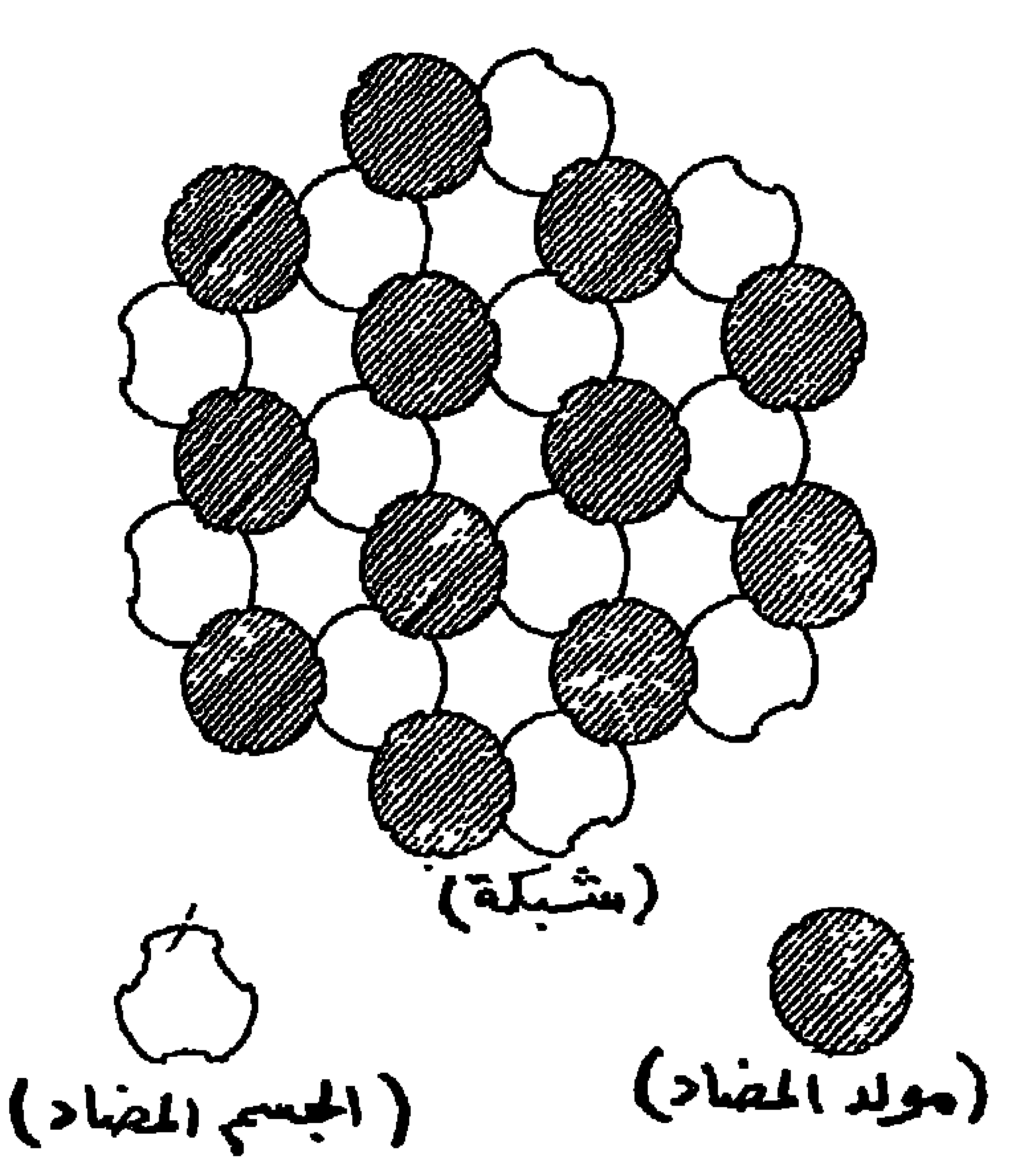
إذا كان الجسد – كما سبق القول – يعد بمثابة ساحة خلوية للقتال ضد مهاجمة الميكروبات ، فإن آليات دفاعه الخارجية تتمثل فى خطوط الدفاع الابتدائية التى يبديها الجلد أو مدخل القناة الهضمية ، فالجلد يبدى مقاومة آلية ، ولذلك كانت الجروح هى الوسيلة للإصابة الميكروبية ، كما يبدى مقاومة فسيولوجية بما يفرزه الجسد من عرق ودموع ، تحتوى على إنزيم خاص يعمل على إبادة ما علق بالجلد من ميكروب . . . أما إذا اتخذ الميكروب من الفم منفذاً سهلا للدخول ، فتجابهه عدة آليات تعمل بالتعاقب على توهين حدته وكسر شوكته ! ... وتعرف الآلية التى يقاوم بها الجسد الإصابة الميكروبية عن طريق الفم بالآلية المريئية ، وإذا تتبعنا الميكروب منذ دخوله الفم حتى يصل إلى الأمعاء فهناك عدة آليات . . . فاللعاب يحتوى على إنزيم يعمل على توهين الميكروب ، فإذا قدر له الانتقال إلى المعدة صبت عليه حامضاً أوهنت من نموه وحدت من تكاثره ، وحتى إذا نجح فى الوصول إلى الأمعاء تواجهه عدة كائنات تحد من ضراوته وتعمل على إبادته ، بل إن هناك الكثير فيما يتناوله الإنسان من مواد الطعام ، كالفواكه والخضراوات – تحتوى على مواد مضادة أو مبيدة للميكروبات !

أما إذا كانت الإصابة الميكروبية عن طريق آخر غير طريق القناة الهضمية ، فهناك آلية أخرى – تعرف بالآلية اللامريئية – تبديها السوائل والأنسجة الجسدية .. . ولكى نكون على بينة بما تتضمنه هذه الآلية اللامريئية من وسائل دفاع ضد مهاجمة الميكروبات يجدر بنا الإحاطة بطبيعة ووظيفة الدورة الدموية ، لأن ما تحتويه من الدم والليمف يقومان بدور على أكبر جانب من الأهمية كطرق رئيسية للإصابة الميكروبية وكمراكز جوهرية للالية الدفاعية ؟

يعد تركيب الدم فى حد ذاته على أكبر درجة من التعقيد ، فهو يتكون من سائل يعرف بالبلازما أو المصل ، توجد معلقة فيه عدة جسيمات ، هى كريات الدم وجسيمات أخرى غير خلوية تعرف بالصفيحات . أما البلازما فهى محلول مائى يحتوى على خليط من أملاح ودهنيات وبروتينات ومواد غذائية متحولة تنتقل من الأنسجة وإليها . . . ومن بين البروتينات التى تحتويها البلازما مجموعة الجلوبيولينات والفيبرينوجين ، التى تلعب دوراً هاماً فيما يظهره الجسد من آليات دفاعية لامريئية . فعند حدوث جرح يستحث الفيبرينوجين لتكوين ألياف تعمل على تجلط دم الجروح والتئامها ، ولولاها لكانت الجروح منفذاً سهلا لدخول الميكروبات وغزوها للأجساد ، أما مجموعة الجلوبيولينات فتتضمن إحدى مكوناتها – وهى جاما جلوبيولين – الأجسام المضادة للدم ، وهذه الأجسام هى جزيئات بروتينية تتكون

فى الجسد كاستجابة لوجود مواد دخيلة ، تعرف بمولدات المضاد antigens ، وتعد الميكروبات بمثابة إحدى تلك المولدات . وتتميز الأجسام المضادة antibodies بقدرتها الفذة على الاتحاد مع جزيئات


(شكل ١١)

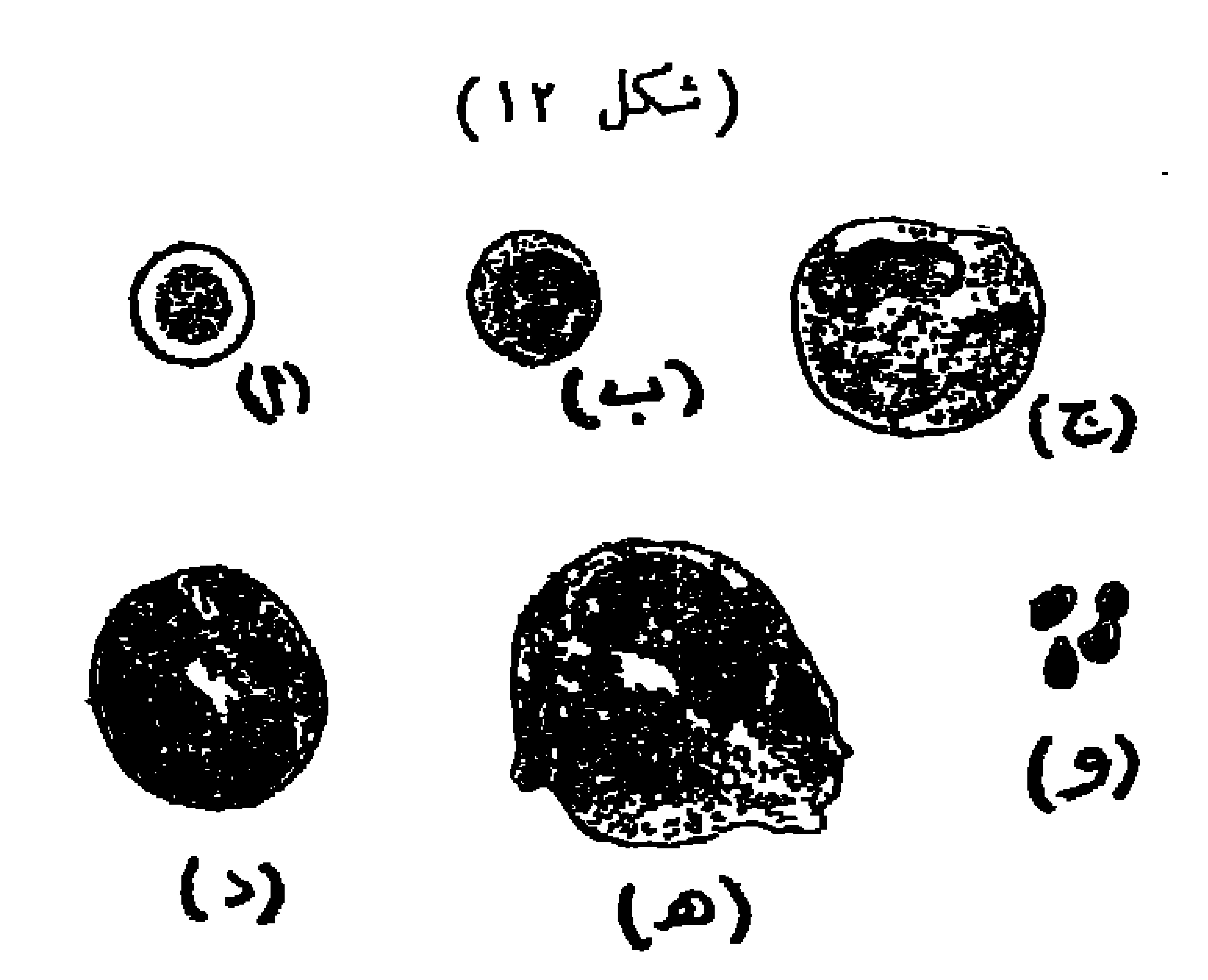


يمكن أن تتكون شبكة عند وجود جزيئات مولد المضاد والأجسام المضادة بنسب متساوية ، ونرى فى هذا الرسم التخطيطى مواضع اتحاد مولد المضاد كبروزات ومواضع اتحاد الجسم المضاد كتضاريس .

مولد المضاد المميز والمستحث لتكوينها ، فإذا كان مولد المضاد إحدى الميكروبات أو ما تنفثه من توكسينات (سميات) بروتينية أمكن نزعها أو معادلة تأثيرها !

أما كريات الدم فمنها الحمر ومنها البيض عديمة اللون ، ويحتوى الليمتر المكعب الواحد من دم الإنسان على حوالى خمسة ملايين من الكريات الحمر وسبعة آلاف من الكريات البيض . . . وليست الكريات البيض من طراز واحد متشابه ، بل من عدة طرز متباينة ، يعد أكثرها وفرة وشيوعاً كريات الدم البيض مشكلة النواة ، وسميت كذلك لأن لها أنوية تتميز أشكالها بعدم الانتظام ، وهى خلايا لاقمة تتكون فى نخاع العظام ومنه تتسرب إلى مجرى الدم ، وتستطيع التقام وتدمير كل ما يتطاول إلى مجرى الدم من جزيئات دخيلة بما تتضمنها من ميكروبات وغيرها من تراكيب خلوية ! . . . وغالباً ما تسمى الكريات البيض مشكلة النواة باللاقمات الصغيرة تمييزاً لها عن طرازين آخريين من اللاقمات توجد فى الأنسجة الجسدية وتعرف باللاقمات الكبيرة ، وتتميز الأخيرة بدورها إلى لاقمات كبيرة ثابتة تحد الممرات الوعائية لنخاع العظام والكبد والطحال ولاقمات كبيرة متنقلة تستطع الارتحال بحركة أميبية إلى أية بؤرة جسدية تحدث فيها إصابة ميكروبية . . . كما أن هناك طرازاً من الكريات البيض ، تعرف بالكريات اللمفية ، وهى ليست خلايا لاقمة ولكن يعتقد أنها بمثابة مركز هام لتكوين الأجسام المضادة للميكروبات !

(شكل ١٢)



بعض طرز خلايا الدم : (أ) كرية دم حمراء ، (ب) كرية لمفية صغيرة ، (ج) كرية دم بيضاء مشكلة النواة ، (د) كرية وحيدة ، (هـ) لاقمة كبيرة ، (و) صفيحات .

وتتمثل القدرة الدفاعية للجسد ضد مهاجمة الميكروبات فيما تظهره اللاقمات من إمكانيات فى ابتلاع البكتيريا وغيرها مما يتسرب إلى داخل الأجساد من مواد ، وغالباً ما تقتل وتهضم البكتيريا الملتقمة ويكون مصيرها الفناء . . . وترتبط الوسائل الدفاعية الجسدية بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بزيادة سرعة وفاعلية هذه القدرة الالتقامية ، إذ توجد اللاقمات فى كل من الدم والأنسجة الجسدية ، وتكون هذه اللاقمات غير متجانسة شكلياً ومنتشرة فى شتى الأعضاء البدنية ، ويمكن دراسة توزيعها بوضوح إذا حقنا مجرى الدم بصبغ خاص غير ضار ، يعرف

بصبغ أزرق التريبان ، حيث يأخذ هذا الصبغ فى التركيز فى اللاقمات بالذات ، وحينئذ يتبين لنا أن بعض لاقمات تكون طليقة الحركة بطريقة أميبية خلال الأنسجة والدم ، وهى اللاقمات الكبيرة المتحركة ؛ بينما نجد اللاقمات الكبيرة الثابتة مستقرة وثابتة فى مواضعها ، وهناك نوعان متميزان منها : . . . الخلايا المبطنة لشعيرات الكبد والطحال والجيوب وغيرها من أعضاء جسدية ، والخلايا الشبكية للطحال والغدد الليمفية والغدة التيموسية ، وتنطوى جميع هذه الخلايا تحت اسم « الجهاز البطانى الشبكى » ، وجميعها لاقمات ، مثلها فى ذلك كمثل كريات الدم البيض مشكلة النواة !

ويمكن إبراز وظيفة الجهاز البطانى الشبكى ، للدفاع ضد مهاجمة الميكروبات ، بتتبع ما يحدث لمعلق بكتيرى عند حقنه داخل الأجساد ... فإذا حقنت البكتيريا داخل الوريد حملها تيار الدم إلى الكبد والطحال ، حيث يجرى تصفيتها وهضمها بوساطة اللاقمات الكبيرة الثابتة ، أما إذا قدر لبعضها الهروب وقفت لها بالمرصاد اللاقمات الكبيرة المتنقلة التى تعمل على هضمها وإهلاكها ، واللاقمات الصغيرة التى تقتفى آثارها ، ثم تهضم اللاقمات الكبيرة اللاقمات الصغيرة بمحتوياتها من البكتيريا الملتقمة ! . . . أما إذا حقنت البكتيريا فى التجويف البطنى فإن اللاقمات الصغيرة تترك الدم خلال جدر الشعيرات لتصل إلى هذه الميكروبات وتبتلعها ، ثم تتبعها اللاقمات الكبيرة المتنقلة ، التى تأخذ

فى ابتلاع هذه اللاقمات الصغيرة وما تبقى من بكتيريا مهاجمة . . .
وإذا تسربت البكتيريا عن طريق التجويف الفمى أو القناة التنفسية
فإنها قد تنفذ خلال الأغشية المخاطية ، لتنزحها باستمرار المجارى الليمفية ،
حتى إذا ما استقرت فى الأوعية الليمفية جرفتها اللاقمات الكبيرة الثابتة
للغدد الليمفية ، وحتى تلك التى يقدر لها الهروب لا تلبث أن يتلقفها
مجرى الدم بما فيه من آلية التقامية !

وتتمثل المناعة الطبيعية أو الوراثية فى الإنسان — لمقاومة المهاجمات
البكتيرية — فى قدرة الأجساد على إبراز هذه الآليات وتعزيز فاعليتها . . .
فعندما تتسرب ميكروبات بكتيرية دخيلة إلى مجرى الدم تقوم اللاقمات
— من كريات الدم البيض — بمهاجمتها وابتلاعها والقضاء عليها ،
ومما يساعد على نجاح هذه العملية الالتقامية وجود مواد خاصة فى الدم
تعرف باسم «الملزنات» ، تعمل على تلازن البكتيريا ، أى تجميعها
وإذابة جدرانها وإنهاك ضراوتها ، بحيث إن كرية الدم البيضاء تستطيع
التقام خمسين بكتيرة متلازنة بقدرة تفوق خمسين مرة قدرتها على التقامها
وهى متفرقة ! . . . ولكن لا تقف جميع البكتيريا المعتدية مكتوفة
الأيدى أمام عدوان اللاقمات وجبروتها ، فمن البكتيريا ما يفرز توكسينا
خاصاً يعمل على إتلاف اللاقمات ويحد من قدرتها على الالتقام
والإتلاف ، وللبعض الآخر أغلفة تقيها شر هذه اللاقمات . . . ويتوقف
على نتيجة هذا الصراع نجاح أو فشل البكتيريا المعتدية فى

(شكل ١٣)



ابتلاع الميكروبات المسببة لمرض الالتهاب الرئوى بوساطة اللاقمات ، ويرى إلى أقصى اليسار ميكروبان ملتصقان بالقدم الكاذب للاقمة ، أما فى الوسط فيرى الميكروبان وقد ابتلعا داخل اللاقمة ، حيث يوجد ميكروب على كل جانب من النواة ، كما ترى مجموعة من أربعة ميكروبات فى طريقها إلى الابتلاع ، وإلى أقصى اليمين ثم ابتلاع ستة ميكروبات من الثمانية التى كانت موجودة عند الابتداء .

تثبيت أقدامها ونفث توكسينات الأمراض ، فإن قدر اللاقمات الانتصار فى هذا الصراع سلمت الأبدان ، وإن قدر الفوز للبكتيريا ظهرت الأعراض وكان المرض العضال !

وتعد القدرة الالتقامية لكريات الدم البيض بمثابة إحدى مورثات المناعة الطبيعية للأفراد ضد الأمراض ، وقد تبلغ النزعة الالتقامية لكريات

الدم البيض حداً كبيراً بحيث إنها لا تفرق بين الأعداء والأصدقاء ، فتأخذ فى التقام كريات الدم الحمراء ، وتسبب أخطر الأمراض أو تودى بصاحبها إلى الهلاك ... كما تتباين المناعة الطبيعية للأفراد فى مقاومة الأمراض من حيث مدى استعداد وفاعلية الدم لتكوين أجسام مضادة كاستجابة للإصابة بالميكروبات ، حيث تعمل هذه الأجسام على نزع الميكروبات وإبطال تأثيرها والحيلولة دون إحداثها للأمراض ، وتوجد مثل هذه المناعة الطبيعية ضد بعض الأمراض الفيروسية كالحصبة وشلل الأطفال ، وقد استغلت هذه الظاهرة طبياً لتحصين الأفراد عند انتشار إحدى هذه الأمراض كوباء ، فيستخرج مصل دم الأفراد الذين ثبتت قدرتهم على مقاومة الوباء بسبب ما يتمتعون به من مناعة طبيعية ضد هذا المرض بالذات ، لقدرة دمهم للاستجابة وتكوين أجسام مضادة ، وتعرف هذه المناعة بالمناعة المتنقلة ، لأنها تنتقل من أفراد يتمتعون بمناعة طبيعية ضد مرض الوباء إلى آخرين يفتقرون إلى مثل هذه المناعة الطبيعية !

كانت إماطة اللثام عن كنه المناعة الطبيعية للإنسان ضد الإصابات الميكروبية بمثابة أول شعاع أنار الطريق أمام العلماء لمقاومة الأمراض ... وتتمثل تلك المناعة الطبيعية فيما تبرزه كريات الدم البيض من قدرة التقامية للميكروبات وما تظهره بروتينات الدم من إمكانيات لتكوين أجسام مضادة تعمل على الاتحاد مع الميكروبات أو مع سمومها البروتينية

لتنزعها من الأجساد وتحول دون إحداثها للأمراض ! .. . وأصبح من البديهى أنه إذا نجح العلم فى ابتكار الوسيلة الفعالة لتعزيز آلية القدرة الالتقامية لكريات الدم البيض وغيرها من لاقمات ، أو استطاع بطريقة ما زيادة استحثاث الجسد على تكوين الأجسام المضادة للميكروبات وسمومها أمكنه إكساب الأجساد مناعة صناعية ضد الأمراض .... وكان من حظ الإنسانية أن قدر للعلم النجاح فى هذا المضمار !

وإذا كانت للأبقار أفضال فى توجيه الأنظار إلى العلاقة بين مرض الجدرى الذى يصيب الإنسان والحيوان ، فقد كانت الحيوانات بالذات هى التى استغلت فى بادئ الأمر لإماطة اللثام عن ماهية آلية المناعة ، وما يحدث فى الجسد المنيع ليكسبه مقاومة متينة ضد إصابة تالية بنفس الطفيل ، وكيف يعمل الجسد المنيع على محاشاة الإصابة بالميكروب . . . فأثبتت التجارب التى عملت على توارث المناعة الطبيعية فى الفئران على أن عدد اللاقمات فى الدم ومعدل تكوين الأجسام المضادة ووجود مواد مبيدة للبكتيريا فى الخلايا والسوائل الجسدية من بين العوامل الفعالة لإكساب المناعة ! . . . وكان أول دليل على احتواء دم الحيوان المنيع لعامل وقائى هو الذى قدمه كل من بهرنج وكيتاساتو عام ١٨٩٠ ، إذ أخذا مصل دم من حيوان سبق حقنه بجرعات صغيرة متكررة من توكسين الدفتيريا ، وحقنا هذا المصل فى مجرى دم حيوان آخر مع جرعة

مميتة من التوكسين ، فلاحظا أن الحيوان الأخير تمسك بأحبال الحياة وقدر له البقاء ، أما الحيوانات الأخرى التى شاء لها سوء حظها أن تحقن بتوكسين الدفتيريا وحده امتدت إليها غوائل الموت وعوامل الفناء ... وقد سمى العامل الوقائى الناشط فى مصل الدم المنيع باسم الجسم المضاد ، كما يعرف مصل الدم ذاته الذى يحتويه باسم « المصل المضاد » ، وعرف أيضاً أن الأجسام المضادة لا تقى فقط ضد الإصابات البكتيرية وما تفرزه من توكسينات ، فإذا حقن الحيوان بتوكسين بكتيرى قابل للذوبان — بدلا من الكائن الممرض — فإنه يكون أجساماً مضادة تتحد مع جزيئات التوكسين وتعمل على معادلتها وإبطال سميتها ، وتعرف مثل هذه الأجسام المضادة فى هذه الحالة باسم « مضادات التوكسين ».

أما من حيث استحثاث جسد الإنسان صناعياً لتكوين أجسام مضادة للميكروبات فقد كانت أولى المشاهدات — كما سبق القول — هى تلك التى قام بها إدوارد جينر على مرضى الجدرى للإنسان وللأبقار ، فقد لقح أحد الأشخاص بالمادة البثرية المفصولة من بقرة مصابة بالجدرى البقرى ، وبعد مضى بضعة شهور لقح نفس الشخص بمادة بثرية شديدة الحدة المرضية مفصولة من بثرة جدرى إنسان مصاب . . . ولشد ما كانت دهشته حين وجد أن الشخص الذى سبق حقنه ببثرة الجدرى البقرى اكتسب مناعة قوية ضد مرض جدرى الإنسان ، وثبت فيما بعد

أن ميكروب الجدرى البقرى ما هو فى الحقيقة إلا سلالة موهنة (مضعفة) من ميكروب جدرى الإنسان ، بمعنى أنها سلالة فقدت قدرتها على إحداث المرض فى الإنسان ولكنها احتفظت بإمكانيتها على استحثاث تكوين الأجسام المضادة فى الأجساد !

وتعد عملية التلقيح (الفكسنة Vaccination) بالميكروبات الموهنة من العمليات الشائعة الاستعمال لإكساب الأجساد الإنسانية مناعة صناعية ضد الكثير من الأمراض الفيروسية ، ويمكن توهين الفيروس — المسبب للمرض — إما بمعاملته بمحلول الفورمالين أو بتعريضه للأشعة فوق البنفسجية ، أو بتمريره خلال بيض دجاج فى مرحلة تكوين الجنين كما هو الحال فى تحضير لقاح مرض الحمى الصفراء . . . إلا أنها عملية ليست شائعة الاستعمال فى الأمراض البكتيريا كما هو الحال فى الأمراض الفيروسية ، والحالة الوحيدة المعروفة فى الأمراض البكتيرية هى لقاح مرض الدرن ، ويعرف علمياً باسم (ب . س . ج) ، وهو اختصار لجملة « باسيلس سالمت جويرين » ، إذ أن سالمت وجويرين هما أول من اكتشفاه ، وهذا اللقاح شائع الاستعمال فى أوروبا وغيرها من البلدان ، إلا أنه لم يصادف نجاحاً ملحوظاً فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ويتم توهين الميكروب بزرعه فى منبت غذائى يحتوى على مادة تسلبه قدرته المرضية وتحفظ له طاقته على توليد المضاد ، وهذه المادة هى مادة الصفراء التى يفرزها الكبد !

لما كانت أضرار الأمراض البكتيرية مسببة عادة عما تفرزه البكتيريا داخل الأجساد من مواد سامة أو توكسينات، فإن معادلة هذهالتوكسينات داخل الأجساد من مواد سامة أو توكسينات ، فإن معادلة هذه التوكسينات بطريقة ، أو تثبيط نشاطها هى فى الحقيقة الوسائل الفعالة للحد من مثل هذه الأضرار . . . ولما كانت هذه التوكسينات هى مواد بروتينية فهى تعمل فى الأجساد كمولدات للمضاد (الأجسام المضادة) ، ولذلك فيمكن إكساب الأجساد الإنسانية مناعة صناعية ضد هذه الأمراض البكتيرية باستحثاث الأجساد لتكوين مضادات لهذه التوكسينات ، مما تعمل على معادلتها وإبطال ما تحدثه من تأثيرات وما تبديه من أعراض ، وذلك إما بحقن الأجساد الإنسانية بالتوكسينات الخارجية للبكتيريا الممرضة أو بحقنها ببكتيريا المرض بعد قتلها لتحرير ما بداخلها من توكسينات ، وإما بتحضير مضادات التوكسينات فى أجساد بعض حيوانات واستخراجها وحقنها فى الإنسان !

وتستعمل اللقاحات بالتوكسينات الخارجية لإكساب مناعة صناعية ضد مرض الدفتيريا ، حيث تربى البكتيرة المسببة للمرض على منابت غذائية خاصة لإتاحة الفرصة لها لإفراز توكسيناتها الخارجية ، ثم ترشح المزرعة البكتيرية خلال مرشحات خزفية تسمح بمرور هذه التوكسينات وتحول دون نفاذية البكتيريا ، ثم يؤخذ المحلول المرشح – الحاوى للتوكسينات الخارجية – ويحقن به الإنسان فيكتسب مناعة صناعية بتكوين بجسده

لمضادات التوكسينات . . . أما الحقن بالتوكسينات الداخلية فيشتمل فى تحضير لقاحات للتحصين ضد بعض الأمراض كالتيفوئيد والباراتيفوئيد ، حيث يتم قتل البكتيريا المسببة للمرض بتعريضها لدرجات حرارة عالية أو معاملتها بالأشعة فوق البنفسجية لمدة كافية أو بالتأثير المميت لبعض المضادات الحيوية ، وعندما تحقن الأجساد بهذه البكتيريا الميتة تتحرر ما بداخلها من توكسينات لتستحث تكوين أجسام مضادة تعمل على التحصين ضد الإصابة بالمرض وتسبغ على الجسد مناعة صناعية !

وتعرف المناعة التى يكتسبها الجسد ، إما باستحثاثه على تكوين أجسام مضادة تتحد مع الميكروبات المعتدية وتحول دون إحداثها للمرض وإما بتكوينه لمضادات توكسينات تعمل على معادلة التوكسينات البكتيرية وإبطال مفعولها ، بالمناعة المكتسبة أو الصناعية . . . أما المناعة التى تنتقل من الحيوان إلى الإنسان ، بتهيئة أمصال دم حيوانية تحتوى على مضادات التوكسينات ، فتعرف بالمناعة المتنقلة ، ومن أمثلتها الأمصال المضادة لمرضى الدفتيريا والتيتانوس ، حيث تحقن بعض حيوانات — كالخيول مثلا — بجرعات متزايدة من البكتيريا الممرضة أو بتوكسيناتها ، فيستجيب دم الحيوان بتكوين مضادات لها ، ثم يستنزف دم الحيوان المحقون ويجلط لفصل ما به من كريات دم بيضاء وحمراء ، ويفصل السائل — أو المصل — الذى يحتوى على مضادات التوكسينات ، ليحقن بها الإنسان !

أما السبيل الآخر الذى توخاه العلم لمحاربة الميكروبات فهو تقوية القدرة الدفاعية للأجساد، وذلك بإضعاف الميكروبات ، ليكون الصراع فى مصلحة اللاقمات . . . وترتبط هذه الآلية بما استحدث من استكشافات من أن هناك عقاقير كيميائية تستطيع تثبيط نمو أو قتل الميكروبات دون إلحاق أذى بعوائلها من بنى الإنسان ! . . . وكان أول من قام بمحاولات مجدية لعلاج الأمراض الميكروبية باستغلال الكيماويات كعقاقير هو إيرليش عام ١٩٠٩، فاختبر تأثير الكثير من مركبات الزرنيخ العضوية التخليقية فى علاج مرض الزهرى ، وهو أحد الأمراض التناسلية . . . وبعد أن قام بمئات المحاولات قدر له النجاح فى محاولته الستمائة والستة فى استكشاف واحد منها له القدرة على قتل ميكروب الزهرى دون الإضرار بالإنسان !

كان النجاح الباهر الذى صادف إيرليش فى هذا المضمار مدعاة لغيره من العاملين فى ميدان الطب العلاجى ليواصلوا العمل ليل نهار لإيجاد العقاقير المناسبة لعلاج الأمراض ، وقد ركزت مجهوداتهم جميعاً حول إمكانية استغلال بعض الأصباغ ، لما لوحظ من سهولة امتصاصها بوساطة البكتيريا فى التحضيرات الخاصة بأنسجة عائل مصاب ، إذ كانت هذه الأصباغ هى أول من أوحى لإيرليش بفكرة السمية الانتخابية ، بمعنى أن سمية العقار تقتصر على الميكروب دون الأجساد الحية . . . وقد ظلت نتائج استعمال الأصباغ ,كعقاقير علاجية — أى

للتأثير على الميكروبات داخل الأجساد الحية – سلبية لمدة خمسة وعشرين عاماً بعد استكشاف إيرليش ، إذ وجد أن كل صبغ فعال ضد البكتيريا يكون فى نفس الوقت شديد السمية لجسد العائل الحى عند استعماله داخلياً ، وفى عام ١٩٣٥ نجح العالم الألمانى « دوماج » فى استكشاف أحد الأصباغ الفعالة ضد البكتيريا وغير السامة للأجساد الحية ، وهو صبغ « البرونتوسيل » ، أحد مشتقات البنزين ، إذ يستطيع معالجة الفئران من الإصابات البكتيرية نتيجة لسميته الانتخابية الحقيقية . والبرونتوسيل هو أحد مجموعة أصباغ تتميز بأن التركيب الكيميائى الحامل للون متصل بجزيئى من السلفانيلاميد ، وكان من المعروف فى ذلك الحين أن المكون السلفانيلاميدى يعمل على زيادة ثبوت الصبغ فى الأصواف ، مما أوحى بطريقة ما بأنه قد يعمل كذلك على زيادة سمية الصبغ للبكتيريا ، وكان من حسن الطالع أن حاول دوماج إثبات هذا الافتراض الخاطئ ، وظهر فيما بعد أن التأثير العلاجى للبرونتوسيل إنما يرجع إلى تكسيره داخل أنسجة العائل الحى ويتحرر ما به من سلفانيلاميد ، وأن الأخير هو فى الحقيقة الجوهر الفعال فى التأثير على الميكروب !

ومنذ أن ظهر البرونتوسيل والسلفانيلاميد (السلفا) على مسرح الطب العلاجى توالت البحوث لتحضير مشتقات أخرى سلفانيلاميدية بغية الحصول على مركبات تخليقية منها تتميز بشدة فاعليتها وسميتها للبكتيريا

تحت مختلف الظروف وللأنواع المتباينة منها ، فكانت تلك المشتقات المعروفة فى الصيدليات كالسلفاثيازول والسلفابيريدين والسلفاديازين والسلفاجوانيدين وغيرها من مركبات . . . وجميع هذه المشتقات السلفانيلاميدية تستطيع الحد من نمو البكتيريا وتكاثرها داخل الأجساد لتستطيع اللاقمات التغلب عليها ، إلا أن هذه المركبات تبدى تأثيراً ساماً إلى حدما على بعض الأجساد ، كما يستلزم استعمالها بعض القيود الغذائية ، ومن ثم امتدت البحوث لإيجاد مركبات أخرى تقوم الكائنات الدقيقة ذاتها بتصنيعها لمقاومة غيرها من الكائنات المسببة للأمراض ، فكانت المضادات الحيوية ، إذ نجح فلمنج عام ١٩٢٩ فى اكتشاف البنيسيلين ، ثم تبعه الكثيرون من أفذاذ العلماء فكان السربتوميسين والكلوروميسيين والأوريوميسين وغيرها من مضادات حيوية ، وتقدم الطب العلاجى باستعمال مخاليط من مركبات السلفا والمضادات الحيوية مما تعمل على توهين البكتيريا لتتيح الفرصة لتغلب اللاقمات عليها !

خاتمة

لو استمر العلم فى موالاة ما يقوم به من فتوحات تتسم بالإعجاز فى ميدان الميكروبات ومقاومة الأمراض، بمثل ما سبق أن أولاها من رعاية واهتمام ، فسيزداد على الدوام متوسط عمر الإنسان ، وسيأتى العصر الذى يعد فيه الفرد البالغ من العمر مائة عام ما زال يحبو فى مستهل العمر ومقتبل الشباب . . . ولعل مما يدعو إلى العجب أن ما يقوم به العلم من مقاومة الأمراض وإطالة الأعمار يعد مضاداً لقوانين الطبيعة وما توخته منذ قديم الأزل من نبراس، فالطبيعة تعمل على إحداث توازن على أرض البسيطة بين الأحياء، فتستقبل على الدوام محصولا بشرياً جديداً من الأطفال وتحصد أرواح من سبقهم على مسرح الحياة بما تهيئه من ميكروبات وما تخبئه من ويلات ، وذلك حتى لا تكون الزيادة فى المحصول البشرى من الجسامة بمكان بحيث لا تستطيع احتماله الإمكانيات الموجودة من كساء وغذاء ، وستتمخض عما حققه العلم من معجزات — فى مقاومة الأمراض وإطالة الأعمار — عدة مشكلات، فتنوء الأرض بما اتسعت بساكنيها من بنى الإنسان ، وتعجز التربة الخصيبة عن سد ما يتطلبه الناس من مواد الطعام وألياف الكساء ولا تفى الماشية ومنتجاتها بما يحتاجه الإنسان من لحوم وبروتينات !

وإذا كان العلم قد عمل بما استحدث من استكشافات على اختلال نبراس الطبيعة فى التوازن بين الأحياء ، فأمد فى أعمار المحصول البشرى القديم من المسنين بجانب فيض الأطفال المستمر من المحصول الجديد ، فقد عمل على تصحيح ما أوجده من أوضاع بابتكاره حبوباً لمنع الحمل للحد من الفيض المستمر من المحصول البشرى الجديد وحتى يحتفظ للمحصول القديم باحتياجاته الضرورية من مسكن وطعام وكساء ... إلا أن الحد من المحصول البشرى الجديد المتدفق من الأطفال لتهيئة الإمكانيات الضرورية لحياة من سبقهم من آباء وأجداد — وأجداد الأجداد — سوف لا يملك العلم من أمره شيئاً ، فهو رهين بمشيئة الأفراد ، إن أرادوا غمروا الأرض بنتاجهم المستمر من الأطفال ، وإن شاءوا استغلوا معجزات العلم للحد من هذا الإنتاج ، ولذلك تتجه البحوث الجديدة لإيجاد مخرج آخر لهذا المأزق الذى تواجهه الإنسانية وأوجده العلم بإطالة أعمار الأفراد ، بابتكار شتى الوسائل لتصنيع مواد جديدة للغذاء وألياف للكساء لا يعتمد على التربة التى كاد أن يستغل كل شبر فيها للزراعة أو للبناء !

محتويات الكتاب

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر



بأسلوب اليوم و تفكير الغد

٥ قروش ج . ع . م .	١٠٠ مليم فى ليبيا	١,٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق . ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق . س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	

اقرأ

مذكرات طبيبة

الدكتورة نوال السعداوي

دار المعارف بمصر

مذكرات طبيبة

الدكتورة نوال السعداوى

مذكرات طبيبة

اقرأ ٢٧٣

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٧٣ – سبتمبر سنة ١٩٦٥

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

١

بدأ الصراع بيني وبين أنوثتي مبكراً جداً . . . قبل أن تنبت أنوثتي وقبل أن أعرف شيئاً عن نفسي وجنسي وأصلي . . . بل قبل أن أعرف أي تجويف كان يحتويني قبل أن ألفظ إلى هذا العالم الواسع .

كل ما كنت أعرفه في ذلك الوقت أنني بنت كما أسمع من أمي . بنت !

ولم يكن لكلمة بنت في نظري سوى معنى واحد . . . هو أنني لست ولداً . . . لست مثل أخي . . .

أخي يقص شعره ويتركه حراً لا يمشطه وأنا شعري يطول ويطول وتمشطه أمي في اليوم مرتين وتقيده في ضفائر وتحبس أطرافه بأشرطة . . .

أخي يصحو من نومه ويترك سريره كما هو وأنا عليّ أن أرتب سريري وسريره أيضاً .

أخي يخرج إلى الشارع ليلعب بلا إذن من أمي أو أبي ويعود في أي وقت . . . وأنا لا أخرج إلا بإذن .

أخي يأخذ قطعة من اللحم أكبر من قطعتي ويأكل بسرعة ويشرب الحساء بصوت مسموع وأمي لا تقول له شيئاً . . .

أما أنا . . . لا أنا بنت! عليّ أن أراقب حركاتي وسكناتي . . . عليّ أن أخفي شهيتي للأكل فآكل ببطء وأشرب الحساء بلا صوت . . .

أخي يلعب . . . يقفز . . . يتشقلب . . . وأنا إذا ما جلست وانحسر

الرداء عن سنتيمتر من فخذى فإن أمى ترشقنى بنظرة مخلبية حادة فأخفى عورتى . . .

عورة !

كل شىء فىّ عورة وأنا طفلة فى التاسعة من عمرى !

حزنت على نفسى .

أغلقت باب غرفتى علىّ وجلست أبكى وحدى . . .

لم تكن دموعى الأولى فى حياتى لأنى فشلت فى مدرستى أو لأنى كسرت شيئاً غالياً . . . ولكن لأنى بنت !

بكيت على أنوثتى قبل أن أعرفها . . .

فتحت عينى على الحياة وبينى وبين طبيعتى عداء .

* * *

قفزت درجات السلم ثلاثاً ثلاثاً لأهبط إلى الشارع قبل أن أفرغ من عد عشرة . . .

إن أخى ورفاقه من أولاد وبنات الجيران ينتظروننى لنلعب عساكر وحرامية . . . ولقد أخذت إذناً من أمى بالخروج . . . أحب اللعب ! أحب الجرى بأقصى سرعة . . . أشعر بسعادة طاغية وأنا أحرك رأسى وذراعى وساقى فى الهواء . . . وأنطلق فى قفزات عالية لا يحد منها إلا ثقل جسمى تشده إليها الأرض . . .

لماذا لم يخلقنى الله طائراً أطير فى الهواء مثل هذه الحمامة وخلقنى بنتاً ؟ خيل إلىّ أن الله يفضل الطيور على البنات . . .

ولكن أخى لا يطير . . .

واستنى هذه الحقيقة بعض الشىء . . . أحسست أن الولد بالرغم من حريته الواسعة فهو عاجز مثلى عن الطير . . . وأصبحت أفتش دائماً عن مواطن العجز فى الرجل لتعزينى عن ذلك العجز الذى تفرضه علىّ أنوثتى .

لا أدرى ماذا حدث لى وأنا أقفز . . . أحسست برجفة عنيفة تسرى فى جسدى ودوار فى رأسى . . . ورأيت شيئاً أحمر اللون !

ما هذا ؟

انخلع قلبى من الهلع وانسحبت من اللعب وصعدت إلى البيت وأغلقت على نفسى باب الحمام لأبحث فى الخفاء سر هذا الحادث الخطير . . .

ولم أفهم شيئاً . . . وظننت أن فى الأمر مرضاً مفاجئاً ألمّ بى . . . وذهبت إلى أمى أسألها فى ذعر . . .

ورأيت أمى تضحك فى سعادة . . . وتعجبت كيف تقابل أمى هذا المرض الفظيع بتلك الابتسامة العريضة . . .

ورأت أمى دهشتى وحيرتى فأخذتنى من يدى إلى غرفتى حيث قصت علىّ قصة النساء الدامية . . .

* * *

لزمت غرفتى أربعة أيام متتالية لا أملك الشجاعة على أن أواجه أخى أو أبى أو حتى الخادم الصغير .

٨

لا بد أنهم اطلعوا جميعاً على عورتى . . . ولا شك أن أمى فضحت سرى الجديد . . . وأغلقت الباب علىّ أفسر بينى وبين نفسى هذه الظاهرة الغريبة . . . ألم تكن هناك طريقة أخرى تنضج بها البنات غير هذه الطريقة الملوثة؟ أيمكن لإنسان أن يعيش أياماً تحت سيطرة عضلاته اللاإرادية الغاشمة ؟ لا بد أن الله يكره البنات فوصمهن جميعاً بهذا العار . . .

وشعرت أن الله قد تحيز للصبيان فى كل شىء . . .

ونهضت من فراشى أجر كيانى الثقيل ونظرت فى المرآة ... ما هذا ؟

نتوءان صغيران نبتا على صدرى !

آه ليتنى أموت !

ما هذا الجسم الغريب الذى يفاجئنى كل يوم بعار جديد يزيد ضعفى وانكماشى ؟ !

ترى أى شىء آخر سينبت فى الغد على جسدى؟ أو ترى أى ظاهرة أخرى جديدة تتفجر عنها أنوثتى الغاشمة !

* * *

كرهت أنوثتى . . .

أحسست أنها قيود ... قيود من دمى أنا تربطنى بالسرير فلا أستطيع أن أجرى وأقفز . . . قيود من خلايا جسمى أنا . . . تسلسلنى بسلاسل من الخزى والعار فأنطوى على نفسى أخفى كيانى الكئيب ...

لم أعد أجرى . . . ولم أعد ألعب . . .

هذان النتوءان على صدرى يكبران ويهتزان كلما مشيت . . .

وقفت حزينة بقامتى الطويلة الفارعة أخفى صدرى بذراعى وأنظر فى حسرة إلى أخى وزملائه وهم يلعبون . . .

كبرت . . . كبرت عن أخى مع أنه أكبر منى سناً . . . كبرت عن أمثالى من الأطفال فانسحبت من وسطهم وجلست وحدى أفكر . . .

انتهت طفولتى . . . طفولة قصيرة سريعة لاهثة . . . لم أكد أحس بها حتى أدبرت وخلفت لى جسد امرأة ناضجة يحمل فى حناياه طفلة فى العاشرة من عمرها . . .

* * *

رأيت عينى البواب وأسنانه تلمع وسط وجهه الأسود سواد الفحم . . . واقترب منى وأنا أجلس وحدى على دكته الخشبية أتابع بعينى أخى ورفاقه وهم يجرون ويقفزون . . .

وأحسست بطرف جلبابه الخشن يلمس ساقى وشممت رائحة ملابسه الغريبة فابتعدت فى اشمئزاز لكنه اقترب منى مرة أخرى وحاولت أن أخفى عنه خوفى بمراقبة أخى وزملائه وهم يلعبون لكنى أحسست أصابعه الغليظة الخشنة تتحسس ساقى وتتسلقهما من تحت ملابسى ! . . .

ووقفت مذعورة واندفعت أجرى بعيداً عنه . . .

هذا الرجل الأسود الكريه أيضاً يتطلع إلى أنوثتى ؟ !

وأخذت أجرى حتى دخلت البيت . . . وسألتنى أمى عن سبب

انزعاجى . . . ولم أستطع أن أقول لها شيئاً . . . لعلى شعرت بالخوف أو الخزى أو كليهما ... أو لعلى ظننت أنها ستعنفنى وأنه لن يكون بيننا ذلك الود الذى يجعلنى أحكى لها أسرارى . . .

* * *

لم أعد أخرج إلى الشارع . . . ولم أعد أجلس على الدكة الخشبية ...

هربت من تلك المخلوقات الغريبة ذات الأصوات الغليظة والشوارب التى يسمونها رجالا . . . وخلقت لنفسى عالماً خاصاً من صنع خيالى ... جعلت من نفسى فيه إلهه ، وجعلت من الرجال مخلوقات عاجزة غبية تقوم على خدمتى . . .

وجلست فى عالمى على عرشى الرفيع أرتب العرائس فوق الكراسى وأضع الصبيان على الأرض وأحكى لنفسى القصص والحكايات . . .

ولم يكن ينغص على حياتى فى وحدتى مع خيالى وعرائسى سوى أمى . . . بأوامرها الكثيرة التى لا تنتهى . . . أعمال البيت والمطبخ. . . دنيا النساء المحدودة القبيحة التى تفوح منها رائحة الثوم والبصل .

لم أكن أهرب إلى عالمى الصغير حتى تجرجرنى أمى إلى المطبخ وهى تقول :

– مصيرك إلى الزواج . . . يجب أن تتعلمى الطبخ . . . مصيرك إلى الزواج . . . الزواج ! الزواج !

تلك الكلمة البغيضة التى كانت ترددها أمى كل يوم حتى كرهتها . . . ولم أكن أسمعها حتى أتمثل أمامى رجلا له بطن كبير فى داخله مائدة طعام . . .

ارتبطت فى ذهنى رائحة المطبخ برائحة الزوج . . .
وكرهت اسم الزوج وكرهت رائحة الأكل .

* * *

سكتت جدتى العجوز عن الثرثرة ونظرت إلى صدرى . . . ورأيت عينيها المتآكلتين تتأملان البرعمين الجديدين البارزين وتزنهما . . . ثم رأيتها تهمس لأمى بشىء . . .

وسمعت أمى تقول لى : ارتدى الفستان اللبنى لتدخلى وتسلمى على الضيف الذى مع أبيك فى الصالون . . .

وشممت رائحة مؤامرة فى الجو . . .

وكنت أقابل معظم أصدقاء أبى وأقدم لهم القهوة . .. وأحياناً أجلس معهم وأسمع أبى وهو يحدثهم عن تفوقى فى المدرسة فأشعر بالفرحة وأحس أن أبى باعترافه بذكائى ينتشلنى من دنيا النساء الكئيبة التى تفوح منها رائحة البصل والزواج . . .

ولكن لماذا الفستان اللبنى ؟ ذلك الفستان الجديد الذى أكرهه . . . فى صدره كشكشة غريبة تستقر على نهدى وتزيد من بروزهما . . .

ونظرت إلى أمى تتفحصنى . . . وقالت : أين الفستان اللبنى ؟

ورددت فى غضب : لن ألبسه ! . . . ولمحت بوادر التمرد فى عينى فنظرت إلى فى أسى وقالت : ساوى حاجبيك إذن . . .

ولم أنظر إليها . . . وقبل أن أفتح باب الصالون لأدخل عبثت بأصابعى فى شعر حاجبى فنكشتهما . . .

١٢

وسلمت على صديق أبي وجلست . . . ورأيت وجهاً غريباً مخيفاً له نظرة مدققة فاحصة تشبه نظرة جدتى . . .

وقال أبى : إنها أولى فرقتها هذا العام فى الابتدائية . . .

ولم أر فى عينى الرجل أى تعبير عن إعجاب بهذا الكلام . . . ورأيت نظراته الفاحصة تحوم حول جسدى وتستقر فى النهاية على صدرى فوقفت مذعورة وخرجت من الحجرة أجرى كأنما عفريت يطاردنى . . .

وتلقتنى أمى وجدتى على الباب بلهفة وشوق وقالتا فى نفس واحد . . هيه . . . ماذا فعلت؟

وصرخت فى وجهيهما صرخة واحدة وجريت إلى غرفتى وأغلقت الباب على . . . وذهبت إلى مرآتى أنظر إلى صدرى . . .

كرهتهما! هذان البروزان! تلكما القطعتان الصغيرتان من اللحم اللتان تحددان مستقبلى! وددت لو أجتثهما من فوق صدرى بسكين حاد !

ولكنى لم أستطع . . . استطعت فقط أن أخفيهما . . . أن أضغط عليهما بمشد سميك ليبطهما . . . .

* * *

هذا الشعر الطويل الثقيل . . . الذى أحمله فوق رأسى فى كل مكان . . . يعطلنى كل صباح، ويرهقنى فى الحمام، ويلهب رقبتى فى الصيف . . .

لماذا لا يكون قصيراً حراً كشعر أخى؟لا يحمله فوق رأسه ولا يعطله ولا يرهقه ؟



ولكن أمى تتحكم فى حياتى ومستقبلى وجسدى حتى خصلات شعرى . . .

لماذا . . . ؟

لأنها ولدتنى ؟ ولكن أى فضل لها فى أنها ولدتنى ؟ كانت تمارس حياتها الطبيعية كأى امرأة ثم جئت أنا بغير إرادتها فى لحظة من لحظاتها السعيدة . . . جئت دون أن تعرفنى . . . ودون أن تختارنى . . . ودون أن أختارها . . .

لقد فرضت عليها ابنة وهى فرضت على أماً . . .

أيمكن لإنسان أن يحب مخلوقاً فرض عليه ؟ وإذا كانت أمى تحبنى رغماً عنها بغريزتها فأى فضل لها فى هذا الحب ؟ وهل هى ترتفع كثيراً عن القطة التى تحب أولادها حيناً وتأكلهم حيناً آخر ؟

أليست هذه القسوة التى تعاملنى بها أمى أكثر إيلاماً لى مما لو أنها أكلتنى ؟ !

وإذا كانت أمى تحبنى حباً حقيقياً هدفه سعادتى وليست سعادتها، فلماذا تكون كل أوامرها ورغباتها تتعارض مع راحتى وسعادتى ؟ !

أيمكن أن تحبنى وهى تضع السلاسل كل يوم فى قدمى وفى يدى وحول رقبتى ؟ !

* * *

خرجت لأول مرة فى حياتى من البيت دون أن آخذ إذناً من أمى . . .

مشيت فى الشارع وقد منحنى التحدى نوعاً من القوة ولكن قلبى

كان يختنق من الخوف . . .

وتحت لافتة كتب عليها : حلاق للسيدات . . .

ترددت لحظة ثم دخلت . . .

نظرت إلى خصلات شعرى وهى تتلوى بين فكى المقص الحاد ثم تهوى إلى الأرض . . .

أهذه الخصلات هى التى تقول عنها أمى إنها تاج المرأة وعرشها ؟ أيخر تاج المرأة هكذا صريعاً فى لحظة إصرار واحدة ؟ وشعرت باستخفاف شديد نحو النساء . . . رأيت بعينى رأسى أنهن يؤمن بأشياء تافهة لا تساوى شيئاً . . . ومنحنى هذا الاستخفاف بهن قوة جديدة جعلتنى أعود إلى البيت وأنا أسير على قدمين ثابتتين ، واستطعت أن أشد قامتى وأنا أقف أمام أمى بشعرى القصير . . .

صرخت أمى صرخة عالية وناولتنى صفعة حادة على وجهى . . . ثم تلتها صفعات وصفعات . . . وأنا أقف كما أنا . . .

كأنما تجمدت . . . كأنما جعل منى التحدى قوة لا يهزها شىء . . . كأنما جعل منى انتصارى على أمى جسماً صلباً لا يحس بالصفعات . . .

كانت يد أمى ترتطم بوجهى ثم ترتد عنه كأنما هى ترتطم بصخرة من الجرانيت . . .

كيف لم أبك ؟ أنا التى كانت تبكينى « الشخطة » الواحدة أو الصفعة الخفيفة ؟

لكن دموعى لم تسقط . . . عيناى مفتوحتان تنظران فى عينى أمى

فى جرأة وقوة . . .

ظلت أمى تصفعنى . . . ثم تهاوت على الأريكة جالسة وهى تردد فى ذهول : لقد جننت !

أشفقت عليها حين رأيت ملامحها ترتخى فى انهزام وضعف وشعرت برغبة قوية فى أن أعانقها وأقبلها وأبكى بين ذراعيها . . . وأقول لها : ليس العقل هو أن أطيعك دائماً . . .

ولكنى أبعدت عينى عن عينيها حتى لا تعرف أننى شهدت هزيمتها ، وجريت إلى حجرتى . . . .

ونظرت فى المرآة وابتسمت لشعرى القصير ولبريق الانتصار فى عينى . . .

عرفت لأول مرة فى حياتى كيف يكون الانتصار . . . الخوف لا يفعل شيئاً إلا الهزيمة . . . والانتصار لا يكون إلا بالشجاعة .

زال منى الخوف الذى كنت أشعر به نحو أمى . . . سقطت عنها تلك الهالة الكبيرة التى كانت تجعلنى أرهبها . . . أحسست أنها امرأة عادية . . . وصفعاتها التى هى أقوى ما فيها لم أعد أخشاها . . . لأنها لم تعد تؤلمنى . . .

* * * *

كرهت البيت ما عدا حجرة مكتبى . . . وأحببت المدرسة ما عدا حصة التدبير المنزلى . . . وأحببت أيام الأسبوع ما عدا يوم الجمعة . . .

واشتركت فى كل نشاط المدرسة . . . دخلت جمعية التمثيل وجمعية

الخطابة وجمعية الرياضة وجمعية الموسيقى وجمعية الرسم . . . ولم يكفنى ذلك بل اجتمعت ببعض زميلاتى وكونت جمعية أطلق عليها اسم جمعية الأنس . . . لماذا اخترت كلمة الأنس ؟ لم أدر . . . ولكننى شعرت أن فى أعماق رغبة شديدة إلى الأنس . . . إلى أنس ضخم كبير لا يؤنسه شيء . . . إلى مجاميع هائلة من الناس تؤنسنى وتحدثنى وتستمع إلى وتنطلق معى إلى السماء . . .

خلت أن أى ارتفاع لن يكفينى . . . لن يطفئ تلك الشعلة المتأججة فى نفسى . . . وكرهت الدروس المتكررة المتشابهة . . . كنت أقرأ الموضوع مرة واحدة . . . واحدة فقط . . . أحسست أن التكرار يخنقنى . . . يقتلنى . . . كنت أريد شيئاً جديداً . . . جديداً . . . دائماً . . .

* * *

لم أشعر به حين دخل إلى حجرتى ووقف إلى جوارى وأنا أجلس إلى كتابى إلا حين قال :

ــ ألا ترغبين فى الترويح عن نفسك قليلا .

وكنت قد قرأت طويلا وشعرت بالتعب فابتسمت قائلة :

ــ أريد أن أتمشى فى الخلاء .

ــ إلبسى معطفك وهيا بنا .

أدخلت نفسى فى المعطف بسرعة وجريت إليه . . . كنت على وشك أن أضع يدى فى يده ونحن ننطلق نجرى معاً كما كنا نفعل ونحن أطفال ،

لكن عينىّ تعلقتا بعينيه فتذكرت فجأة السنين الطويلة التى لم ألعب فيها ، ونسيت خلالها قدماى الجرى ، وتعودتا السير البطىء كالكبار . . . فوضعت يدى فى معطفى وسرت إلى جواره فى بطء . . .

وسمعته يقول :

ـ لقد كبرت .

ـ وأنت أيضاً .

ـ هل تذكرين أيام كنا نلعب معاً ؟

ـ كنت تسبقنى فى الجرى دائماً .

ـ وكنت تكسبين دائماً فى « البلى » .

وضحكنا طويلا . . . ودخل هواء كثير إلى صدرى فأنعشنى وجعلنى أحس أننى أسترجع بعض طفولتى المدبرة . . .

وقال : أريد أن أسابقك فى الجرى .

قلت فى ثقة : سأسبقك .

قال : لنرى . . . !

ورسمنا خطاً على الأرض . . . ووقفنا متجاورين... وصاح قائلا : واحد . . . اثنين . . . ثلاثة . . . فانطلقنا نجرى الشوط . . . .

كنت على وشك أن أصل إلى النهاية قبله لكنه أمسكنى من ملابسى من الخلف فتعثرت قدمى ووقعت على الأرض ووقع إلى جوارى . . . ورفعت عينى إليه وأنا ألهث فرأيته ينظر إلى نظرة غريبة جعلت الدماء تصعد إلى وجهى . . . ورأيت ذراعه تمتد ناحية خصرى . .. وهمس فى

أذنى بصوت غليظ : سأقبلك .

انتفض كيانى انتفاضة عنيفة غريبة وتمنيت فى لحظة ومضت فى أحاسيسى كالبرق أن تمتد ذراعه أكثر وتضمنى بقوة . . . بقوة ... ولكن رعبتى العجيبة الخفية تحولت حين خرجت من أعماقى إلى غضب شديد . . .

وزاده غضبى إصراراً فأمسكنى بيد من حديد . . . ولم أدر من أين واتتنى هذه القوة التى جعلتنى أقذف بذراعه فى الهواء بعيداً عنى وأرفع يدى إلى فوق ثم أهوى بها على وجهه فى صفعة عنيفة . . .

* * *

تقلبت فى فراشى حائرة . . . مشاعر غريبة تجتاح كيانى . . . وخيالات كثيرة تمر أمامى . . . لكن خيالا واحداً يستقر أمام عينى . . .

ابن عمى وهو راقد على الأرض إلى جوارى وذراعه تكاد تلتف حول خصرى ونظراته الغريبة تخترق رأسى . . .

وأغمضت عينى لأسبح مع خيالى الذى راح يحرك ذراعه حتى التفت حول خصرى بقوة . . . وحرك شفتيه حتى لامستا شفتى وضغطتا عليهما بعنف . . .

ودسست رأسى تحت الغطاء . . .

أيمكن أن أصدق ؟ ! يدى هذه التى ارتفعت وصفعته هى نفسها يدى التى ترتجف فى يده الموهومة ؟ !

وأحكمت الغطاء حول رأسى لأحول بينه و بين هذا الوهم الغريب

لكنه تسرب من تحت الغطاء إلى . . . فوضعت الوسادة على رأسى وضغطت عليه بكل قوتى لأخنق فيه ذلك الشبح العنيد . . . وظللت أضغط على رأسى حتى خنقنى النوم . . .

* * *

فتحت عينى فى الصباح حين بدد نور الشمس الظلام بكل ما يجوس فيه من أشباح . . .

وفتحت النافذة . . . ودخل الهواء المنعش إلى صدرى فقضى على الآثار العالقة بخيالى من أوهام الليل . . .

وابتسمت فى سخرية من نفسى ، هذه النفس الجبانة التى ترتعد خوفاً منى وأنا يقظة ثم تتسلل إلى فراشى فى الظلام فتملأ السرير من حولى خيالات وأوهاماً !

* * *

انتهيت من دراستى الثانوية وكنت أولى فرقتى . . . وجلست أفكر ماذا أفعل ؟

ماذا يمكن لى أن أفعل وأنا أكره أنوثتى وأنقم على طبيعتى وأتبرأ من جسدى ؟ !

لا شىء سوى الإنكار . . . التحدى . . . المقاومة !

سأنكر أنوثتى . . . سأتحدى طبيعتى . . . سأقاوم كل رغبات جسدى . . .

سأثبت لأمى وجدتى أننى لست امرأة مثلهما . . . إننى لن أعيش

حياتى فى المطبخ أقشر البصل وأفصص الثوم . . . إننى لن أقضى عمرى من أجل زوج يأكل ويأكل . . .

سأثبت لأمى أننى أكثر ذكاء من أخى ومن الرجل ومن كل الرجال . . . وأننى أستطيع أن أفعل كل ما يفعله أبى وأكثر . . .

٢

كلية الطب ؟ ! نعم الطب . . .

للكلمة وقع رهيب فى نفسى . . . يذكرنى بنظارة بيضاء لامعة من تحتها عينان نافذتان تتحركان بسرعة مذهلة . . . وأصابع قوية مدببة تمسك بإبرة طويلة حادة مخيفة . . .

أول طبيب رأيته فى حياتى . . .

كانت أمى ترتجف من الخوف وتتطلع إليه فى ضراعة وخشوع . . وكان أخى ينتفض من الهلع . . . وكان أبى راقداً فى الفراش ينظر إليه فى استجداء واسترحام . . .

الطب شىء رهيب . . . رهيب جداً . . . تنظر إليه أمى وأخى وأبى نظرة احترام وتقديس .

سأكون طبيبة إذن . . . سأتعلم الطب . . . وسأضع على وجهى نظارة بيضاء لامعة . . . وسأجعل عينى من تحتها نافذتين تتحركان بسرعة مذهلة . وسأجعل أصابعى قوية مدببة أمسك بها إبرة طويلة حادة مخيفة . . .

سأجعل أمى ترتجف من الخوف وتتطلع إلى فى ضراعة وخشوع . . . وسأجعل أخى ينتفض أمامى من الهلع . . . وسأجعل أبى ينظر إلى فى استجداء واسترحام . . .

سأثبت للطبيعة أنها بالرغم من ذلك الجسد الضعيف الذى ألبستنى

إياه . . . وبالرغم مما فى داخله وخارجه من عورات فسوف أتغلب عليه . . . وسوف أضعه فى زنزانة من حديد عقلى وذكائى . . . ولن أمنحه فرصة واحدة ليشدنى إلى صفوف النساء العجماوات .

* * *

وقفت فى فناء كلية الطب أتلفت حولى . . . مئات العيون تصوب إلىّ نظرات فاحصة لاذعة . . .

رفعت رأسى ورددت عليهم بمثل سهامهم . . .

لماذا ينظر إلىّ الطلبة فأغض طرفى ؟ لماذا يرفعون رءوسهم وأطرق رأسى ؟ لماذا يدبون على الأرض فى كبرياء وثقة وأنا أتعثر فى خطاى ؟ أنا مثلهم . . . وسأكون مثلهم بل سأتفوق عليهم . . .

فردت قامتى الطويلة عن آخرها . . . نسيت النهدين وتلاشى ثقلهما من فوق صدرى . . . شعرت أننى خفيفة وأننى أستطيع أن أتحرك بسهولة كما أشاء . . .

لقد رسمت لنفسى طريق حياتى . . . طريق العقل . . . ونفذت قرار الإعدام على جسدى فلم أعد أشعر له بوجود . . .

* * *

وقفت على باب المشرحة . . .

رائحة نفاذة عجيبة . . . جثث آدمية عارية . . . فوق مناضد رخامية بيضاء . . . حملتنى قدماى إلى الداخل فى وجل . . . واقتربت من إحدى الجثث العارية ووقفت إلى جوارها . . . جثة رجل عارية تماماً . . .

٢٤

الطلبة من حولى ينظرون إلىّ ويبتسمون فى مكر وينظرون ماذا أفعل . . .

كدت أشيح بوجهى عن الجسد العارى وأجرى خارجة من المشرحة . . . ولكن لا . . . لن أفعل ذلك . . .

ونظرت إلى جانبي ورأيت جثة امرأة عارية وإلى جوارها بعض الطلبة ينظرون إليها فى جرأة وقوة . . .

سلطت نظراتى على جثة الرجل فى جرأة وقوة . . . وأمسكت المشرط فى يدى . . .

* * *

كان هذا هو أول لقاء سافر لى بالرجل والرجولة . . . فيه فقد الرجل هيبته وجلاله وعظمته الموهومة . . . نزل الرجل من فوق عرشه وارتمى على منضدة التشريح بجوار المرأة. . .

لماذا كانت أمى تضع هذه الفروق الهائلة بينى وبين أخى وتصنع من الرجل إلهاً علىّ أن أقضى عمرى كله أطبخ له طعامه ؟

لماذا يحاول المجتمع دائماً أن يقنعنى بأن الرجولة امتياز وشرف وأن الأنوثة مهانة وضعف ؟

هل يمكن لأمى أن تصدق أننى أقف وأمامى رجل عار وفى يدى مشرط أفتح به بطنه ورأسه ؟

هل يمكن للمجتمع أن يصدق أننى أتأمل جسد الرجل وأشرحه وأمزقه دون أن أشعر أنه رجل ؟

ومن هو المجتمع ؟ أليس هو رجال مثل أخى ربته أمه منذ طفولته على أنه إله ؟ أليس هو نساء مثل أمى ضعيفات عاطلات ؟

كيف يمكن لهؤلاء أن يصدقوا أن هناك امرأة لا تعرف عن الرجل شيئاً سوى أنه عضلات وشرايين وأعصاب وعظام ؟ .

جسد الرجل ! ذلك الشيء الرهيب الذى تخيف به الأمهات البنات الصغار فيحترقن بنار المطبخ لأجل إشباعه ويحلمن بشبحه الليل والنهار ! ها هو الرجل ملقى أمامى عارياً قبيحاً ممزقاً . . .

لم أتصور أن الحياة سوف تكذّب لى أمى بهذه السرعة . . . أو تنتقم لى من الرجل على هذا النحو ... ذلك الرجل الكئيب الذى نظر إلى نهدى يوماً ولم ير من كيانى شيئاً سواهما . . .

هأنذى أرد سهامه إلى صدره . . .

هأ نذى أنظر إلى جسده العارى وأشعر بالغثيان . . .

هأنذى أهوى عليه بمشرطى فأمزقه إرباً . . .

أهذا هو جسد الرجل ؟ !

يغطيه الشعر من الخارج ويمتلئ من الداخل بالعفونات ؟ يعوم مخه فى سائل أبيض لزج ويغرق قلبه فى دم أحمر غليظ ؟

ما أقبح الرجل ! من خارجه ومن داخله أشد قبحاً !

* * *

تأملت المرأة الشابة التى ترقد تحت مشرطى على المنضدة الرخامية البيضاء . . . شعرها طويل ناعم مصبوغ باللون الأحمر لكنه مغسول

بالفورمالين ... أسنانها بيضاء لامعة وفى وسطها سنة ذهبية حمراء لكن جذورها صفراء . . . أظافرها طويلة مدببة مطلية باللون الأحمر ، لكن منابتها بيضاء . . . ونهداها فوق صدرها ولكنهما ضامران متهدلان . . .

قطعتا اللحم اللتان عذبتانى فى طفولتى . . . اللتان تحددان مستقبل البنات وتشغلان عقول الرجال وعيونهم . . .

ها هما تستقران تحت مشرطى يابستين مجعدتين كقطعتين من جلد الأحذية !

ما أضحل مستقبل البنات ! وما أتفه ما يملأ عقول الرجال وعيونهم ! والشعر الطويل الناعم الذى عذبتنى أمى من أجله سنين طفولتى . . . تاج المرأة وعرش جمالها الذى تحمله فوق رأسها وتضيع نصف عمرها فى تصفيفه وتنعيمه وصباغته . . . ها هو يستقر أمام عينى فى جردل المشرحة إلى جوار عفونات الجسد وفتافيت الشحم المهملة !

* * *

أحسست بمرارة فى حلقى فقذفت بقطعة اللحم من فمى . . . ووضعت قطعة الخبز تحت أسنانى . . . وحاولت أن أمضغ . . . لكن أسنانى كانت تتحرك بصعوبة . . . حاولت أن أبلع . . . أحسست بقطعة الخبز ، وهى تحتك بجدار بلعومى وتسير فى خشونة إلى معدتى . . . أحسست بمعدتى وهى تفرز أحماضها لتهضم الخبز . . . وأحسست بأمعائى وهى تنتفخ لتستقبل الأكل . . . وشعرت بشىء يجثم على صدرى ... وتبينته فعرفت أنه قلبى ينقبض وينبسط طارداً الدم إلى شرايينى ...

وأحسست بالدم وهو يزحف فى عروقى ... وأحسست بالنبضات الخافتة التى تصنعها الشعريات الدموية الدقيقة فى أطرافى ... وأحسست بالهواء وهو يدخل إلى أنفى ويجتاز حنجرتى ليملأ رئتىّ وينفخهما ... ينفخهما كالبالونة ... حتى توقف الهواء فى صدرى ... وأحسست أننى أختنق ... شفتاى لا تتحركان وذراعاى لا تمتدان وعضلات قلبى لا تنقبض...وعروقى لا تنبض بالدم . . .

آه . . . لقد مت !

وقفزت مفزوعة . . .

لا! لن أموت وأصبح جثة كهذه الجثث الممدودة أمامى فوق المناضد!

وألقيت المشرط من يدى وخرجت من المشرحة أعدو . . . ونظرت إلى الناس فى دهشة وهم يسيرون فى الشارع ويحركون أذرعهم وأرجلهم بلا تفكير . . . ويجرون وراء الأتوبيس بسهولة ... ويفتحون أفواههم ويحركون شفاههم ويتكلمون ويتنفسون ويفعلون كل شىء بسهولة شديدة .

وعادت إلىّ السكينة . . .

إن الحياة لا تزال قائمة . . . وأنا لا زلت أعيش ... وفتحت فمى عن آخره وملأت صدرى بهواء الشارع وتنفست . . . وحركت ذراعى ورجلى وسرت وسط أمواج البشر .

آه . . . ما أيسر الحياة حين يمارسها الإنسان على سجيتها .

* * *

شىء كرى صغير .قطعة بيضاوية من اللحم ترتج تحت مشرطى...

أمسكتها بيد واحدة و وضعتها فى كفة الميزان . . .

تحسست سطحها بأصابعى . . . سطح أملس متعرج . . . كملمس مخ الأرنب الذى كنت أخرجه على المائدة من جمجمته الصغيرة . . .

هل يمكن أن يكون هذا مخ الإنسان ؟ هل يمكن أن تكون هذه القطعة الطرية من اللحم هى عقل الإنسان الجبار الذى قهر الطبيعة فدخل إلى باطن الأرض وصعد إلى مدارات الشمس والقمر . . .

عقل الإنسان الذى استطاع أن يفتت الصخر وينقل الجبال ويخرج من ذرات الهواء ناراً تكفى لتدمير الأرض ؟ !

وأمسكت المشرط وقطعت المخ إلى أجزاء . . . ثم قطعت الأجزاء إلى أجزاء . . . ونظرت وتحسست وبحثت ولم أجد شيئاً . . . مجرد قطعة من اللحم الناعم التى تذوب تحت أصبعى . . .

و وضعت شريحة منها تحت الميكروسكوب ونظرت . . . ولم أر شيئاً سوى خلايا مستديرة فى داخلها نويات مستديرة أيضاً كحبات العنب ...

كيف تشتغل هذه الخلايا فتجعل الإنسان يعى ويفهم ويحس ؟

وفتحت الكتاب ونظرت إلى الرسومات التى تشرح عمل المخ . . .

ما هذا ؟ كأنما هى رسومات جهاز معقد كالتليفزيون أو الطائرة أو الغواصة أو كأنما هى خريطة العالم . .. مئات من المراكز الرئيسية والفرعية . . . مئات من المحطات . .. ملايين من الخطوط والأعصاب ...

وعرفت أن قطعة اللحم التى فى يدى هى التى تدير كل هذا . . . إنها تتلقى الرسالات من جميع أعضاء الجسم ثم ترسل إليها الأوامر تحملها

حبال من الأعصاب . . . كيف هذا ؟ هذه القطعة من اللحم تعطى أوامر إلى القلب والذراعين والساقين ؟

تقول للقلب تحرك وتقول للذراع انخفضى أو ارتفعى وتقول للساق امشى أو قفى ؟ كيف تدير كل هذه الشبكة المتشابكة من الأعصاب دون أن تصطدم واحدة بالأخرى . . . ؟

ما الذى يجعلها تفهم سر الرسالة التى ترسلها إليها العين أو الأنف أو الأذن أو اللسان أو أطراف الأصابع دون أن تخلط بين واحدة وأخرى ؟

ونظرت من خلال العدسات المكبرة إلى الخلية الصغيرة المستديرة ... لاشىء فيها سوى كمية ضئيلة من البروتوبلام . . .

كيف تدب الحياة فى هذه الكمية الميتة من البروتوبلام فتتحرك وتدرك وتفهم ؟

وفتحت كتب الكيمياء والطبيعة والفسيولوجيا لأبحث عن هذا السر ... الكيمياء تقول إنها قد تكون بعض التفاعلات الكيمائية التى تغير من جزئيات المادة فتنشط وتتحرك . . . والطبيعة تقول إنها قد تكون نوعاً من الكهربا التى قد تغير من ذرات المادة فتنطلق منها الحياة . . . والفسيولوجيا تقول إنها انعكاسات و إفرازات .

أخذت أقرأ وأبحث وأنقب حتى حفظت تركيب الجهاز الذى اسمه الإنسان عن ظهر قلب . . .

حفظت أسماء الأعصاب كلها وحفظت خط سيرها من مركز إرسالها فى المخ إلى محطة استقبالها فى العضو وبالعكس . . . حفظت أسماء

الشرايين والأوردة وعرفت طولها وعرضها وملمس جدرانها . . . عرفت تركيب العظام والنخاع والدم . . . عرفت كيف آكل وكيف أرى وكيف أسمع وكيف أشم وكيف أنام وكيف أحلم . . .

عرفت كيف يدق القلب ولماذا تحمر الوجنه . . . وعرفت كيف أشعر بلسع النار وكيف أبعد ذراعى عنها . . .

عرفت لماذا أعرق خجلا ولماذا تبرد أطرافى خوفاً .

القلب كالبيت . . . له حجرات ... الحجرات لها جدران اسمها عضلات . . . ولها أبواب اسمها صمامات . . .

جدران الحجرة تنقبض فينفتح بابها ويطرد الدم خارجها ثم تنبسط العضلات فتسحب الدم داخلها وينغلق الصمام . . . إن دقات القلب هى ذلك الحفيف الذى يحدثه الدم فى دخوله وخروجه من حجرة إلى حجرة . . . وهى تلك الأصوات التى تحدثها الأبواب وهى تفتح وتغلق ...

ولكن ما الذى يجعل عضلات القلب تفهم متى يجب أن تنقبض ، ومتى يجب أن تنبسط ؟ رسالة ! برقية يحملها إليها عصب من الأعصاب يتصل بمركز فى الصدر يقود إلى مركز من مراكز المخ .

وكيف يصل الدم من الرئتين إلى القلب وكيف يعود إلى الرئتين مرة أخرى لينقى ويصفى ويقطر مما علق به من غازات الإنسان الملوثة ؟]

كل هذا له نظام دقيق محكم . . . وكل تجويف فى الجسم له غلاف خاص وله ضغط ثابت معين حيث ينتقل الدم من وعاء إلى وعاء دون أن يتوقف لحظة واحدة .

لماذا أشعر بلسع النار فى أصبعى ؟ لأن أعصاب الجلد الذى يغطى أصبعى أرسلت برقية حملها عصب إلى مركز فى المخ ترجم الرسالة أنها ألم الحرق فأرسل برقية سريعة إلى عضلات ذراعى يأمرها أن تنقبض وتبعد أصبعى عن النار . . .

من منا كان يظن أن الرسائل والبرقيات تروح وتجىء بين الأصبع فى نهاية الذراع أو القدم وبين مركز المخ فى قمة الرأس فى تلك اللحظة الخاطفة التى تنقضى بين إحساسنا بلسع النار وبين إبعادنا لذراعنا عنها؟ .

أنا لا أعرق خجلا إلا بعد أن تتم المفاوضات بين مركز المخ وبين غدة العرق وتنتهى إلى أن يأمر المخ الغدة بأن تسكب دموعها .

إن أطرافى لا تبرد إلا بعد أن تصل برقية الخوف إلى المخ فيصدر أمره إلى شعيرات الجلد أن تنكمش على نفسها لتهرب ما فيها من دماء استعداداً لما قد يصيبها من جراح . . .

عرفت كيف تنتقل الصورة من العين إلى المخ ليراها ويفهمها ثم يبرق إلى العين يأمرها بالرؤية . . . عرفت كيف ينتقل الصوت من الأذن إلى المخ ليترجمه ويفهمه ثم يأمر الأذن بالسماع . . . عرفت أن النبات الحى يصبح داخل نار الفرن خبزاً ميتاً وأن الخبز الميت يتحول فى جوف الإنسان الساخن إلى نسيج حى ...

عرفت أننى حين أنام فإن جزءاً من مخى يظل ساهراً يرعانى . . . ويرعى دقات قلبى . . . ويشرف على همسات أنفاسى . . . وينظم مناظر أحلامى ... يرعانى ويحرص علىّ ألا أقع من فوق السرير وأنا

أمتطى صهوة الجواد صاعدة إلى السماء ... أو حين أسقط من طبقات الجو وأغرق فى شلالات المحيط ... و يوقظنى من قبل أن أبلل فراشى فزعاً حين يغرز وحش الغابة أسنانه فى جسدى . . .

وانفتح أمامى عالم واسع جديد . . . وشعرت بالرهبة أول الأمر ولكنى سرعان ما أوغلت فيه بنهم وقد استولى على جنون المعرفة . . . كشف لى العلم سر الإنسان وألغى تلك الفروق الهائلة التى حاولت أمى أن تضعها بينى و بين أخى .

أثبت لى العلم أن المرأة كالرجل والرجل كالحيوان . . . المرأة لها قلب ومخ وأعصاب كالرجل تماماً . . . والحيوان له قلب ومخ وأعصاب كالإنسان تماماً . . . ليست هناك فروق جوهرية بين أحد منهم وإنما هى فروق شكلية تتفق جميعاً فى الأصل والجوهر .

المرأة تحتوى فى أعماقها على رجل والرجل يخبئ فى أعماقه امرأة ... المرأة لها أعضاء الرجل بعضها ظاهر و بعضها ضامر والرجل تجرى فى دمائه هرمونات مؤنثة . . .

الإنسان يغلق قفص صدره على وحش غابة كاسر والحيوان فى داخله إنسان . . .

الإنسان له ذيل ... ذيل قصير مبتور فى فقرة صغيرة فى مؤخرة عموده الفقرى ، والحيوان له قلب يدق وله دموع تسيل . . .

وفرحت بهذا العالم الجديد الذى يضع المرأة إلى جوار الرجل إلى جوار الحيوان .

فرحت بالعلم وأحسست أنه إله قوى جبار عادل يعرف أسرار كل شيء فآمنت به واعتنقته . . .

* * *

لم أكن أرى منه إلا وجهه الصغير . . . وعينيه الكليلتين تبحثان فى يأس عن ملامح تعبر عن الرحمة . . . وذراعيه الرفيعتين العاريتين ترتجفان من البرد وقد اختفى جسده الصغير وتحت أقراص معدنية صلبة تخرج منها خراطيم طويلة من المطاط تنتهى فى آذان آدمية تشبه آذان الأرانب . . . وترتفع السماعات لتكشف لحظة عن أجزاء من صدره العارى ثم تهبط مكانها سماعات أخرى تضغط على ضلوع الطفل الصغير فتهبط هى الأخرى تحت ثقل الأقراص المعدنية الصلبة تلتف حولها أصابع آدمية بعضها غليظ مفرطح وبعضها ناعم طليت أظافره باللون الأحمر . . .

وسمعت صوت الأستاذ الطبيب يقول :

– تقدمى واسمعى دقات هذا القلب .

ودفعتنى الأيادى المتزاحمة على الطفل المريض . . . ووقفت أنتظر والسماعة فى أذنى حتى تخلو مساحة صغيرة من الجسد النحيل . . . وارتفعت إحدى السماعات عن صدر الطفل فرأيت مكانها دائرة حمراء محفورة فى الجلد المحتقن . . .

وترنحت السماعة فى يدى لا أستطيع أن أضعها على الجسد الملتهب وشعرت بيدى تهتز بلا وعى . . . ودفعتنى فى تلك اللحظة يد قوية

وجرفنى الزحام بعيداً عن السرير واستولى على مكانى طالب على عينيه نظارة سميكة دس سماعته بسرعة كأنه لا يبصر الدائرة المحفورة على صدر الطفل . . .

آه . . .

انطلقت الأنة الضعيفة الواهية من بين شفتى الطفل اليابستين ضاعت فى الزحام الصاخب المتلاطم ولم يسمعها أحد . . .

وشعرت برغبة فى الصراخ بأعلى صوتى . . . وأحسست بيدى تقاومان عقلى وترغبان فى الانطلاق من عقالهما وتنهالان ضرباً ولطماً على هذه الأصابع القاسية الملتفة حول السماعات تبعدانها عن صدر الطفل .

لكنى لم أستطع . . . لم أفتح فمى ولم أحرك يدى . . . لا زال فى رأسى عقل يقظ قوى يؤمن بالعلم . . . وإله العلم جبار لا يعرف الرحمة . . .

* * *

وقف أمامى بساقيه العاريتين المعوجتين يغطيهما الشعر الكثيف ونظر إلىّ نظرة اعتراض وقال : هل أخلع السروال أيضاً ؟

ونظر إليه الأستاذ نظرة جامدة قاسية وقال آمراً : اخلع كل ملابسك !

وتطلع المريض إلىّ فى ذعر وأمسك حزام سرواله فى تردد وخوف . . . ولم يمهله الأستاذ فاندفع نحوه وشد سرواله إلى أسفل فأصبح الرجل أمامنا عارياً تماماً . . .

ارتديت القفاز واقتربت منه . . . وتململ الرجل فى خجل

واستياء . . . كيف تعريه امرأة وتفحصه ؟ ! وحاول أن يبتعد عنى لكن الأستاذ ناوله صفعة عنيفة على وجهه جعلته يستسلم لأصابعى الفاحصة كجثة ميتة .

إله العلم لا يعرف الرحمة ولا يعرف الحياء . . .

ما أقساه ! وما أشد عذابى فى محرابه !

وفقد الجسم الحى احترامه وهيبته . . . أصبح فى نظرى وتحت أصابعى كالميت سواء بسواء . . . وتفكك فى عقلى إلى مجموعة من الأجهزة والأعضاء .

* * *

الليل بارد موحش . . . والظلمة ساكنة ميتة . . . والمستشفى الكبير بأنوار نوافذه قابع فى السواد كضبع متوحش . . . وأنات المرضى وسعالهم الممزق يهتك ستائر الليل الداكنة . . . وأنا . . . أنا أقف فى نافذة حجرتى . . . وحيدة . . . أتأمل الزهرة البيضاء الصغيرة التى تتفتح إلى جوارى فى زهرية الورد . . . وألمسها بأصابعى فينتفض كيانى كأننى ميت يحس لأول مرة بملمس شىء حى . . . وأقرب أنفى منها أشم عبيرها وأشعر كأنى سجين مؤبد يضع أنفه بين أسلاك نافذته الحديدية ويشم عبير الحياة . . . وتحسست رقبتى . . . ولمست أصابعى ذراعى السماعة المعدنيتين وهما تلتفان حول رقبتى كحبل المشنقة . . . والبالطو الأبيض يجثم على جسدى وتفوح منه رائحة الكؤول والأثير وصبغة اليود . . .

آه . . .

ماذا فعلت بنفسى ؟ !

ربطت حياتى بالمرض والألم والموت . . . أصبح عملى كل يوم هو أن أكشف أجساد الناس وأرى عوراتها وأتحسس أورامها وأحلل إفرازاتها . . .

لم أعد أرى فى الحياة إلا مرضى راقدين فى الفراش . . . ذاهلين أو باكين أو غائبين عن الوعى . . . عيونهم كليلة صفراء أو حمراء . . . أطرافهم مشلولة أو مبتورة . . . أنفاسهم متقطعة . . . أصواتهم حشرجة أو أنين . . .

أيمكن أن أحتمل هذه الحياة إلى أمد طويل . . . طول عمرى ؟ !

وشعرت بانقباض شديد يشبه الانقباض الذى يشعر به السجين المؤبد حين تختفى بارقة الأمل فى الإفراج . . .

وخرجت من حجرتى . . . وجلست فى الصالة الكبيرة وفتحت مجلة طبية وحاولت أن أقرأ . . . لكن أفكارى تسربت بالرغم عنى إلى جناح الأطباء . . . حيث ينام زميلى الطبيب . . . وقد قسمنا نوبتجية الليل بيننا . . .هو ينام الست ساعات الأولى وأناالست ساعات الأخيرة . . .

فكرت من حيث لا أدرى أننى أجلس وحدى فى منتصف الليل مع رجل لا يفصلنى عنه إلا باب حجرته المغلق .

جاءتنى هذه الفكرة وأنا يقظة مفتوحة العينين كوهم من أوهام الليل . . . فشعرت بالخوف . . . لا . . . ليس الخوف . . . ولكن القلق . . . لا . . . ليس القلق . . . ولكن الرغبة . . . لا . . . ليست

الرغبة . . . ولكنه شعور مزعج غريب أرغم عينى على اختلاس النظر إلى الباب المغلق من حين إلى حين .

. .

دق جرس التليفون إلى جوارى وجاءنى صوت الممرضة النوبتجية يدعونى إلى إغاثة مريضة . . .

انقضت لحظة خاطفة ووجدتنى أقف فى عنبر من عنابر المستشفى بجوار سرير أبيض ترقد عليه المريضة . . . وكانت عروساً شابة . . .

وضعت السماعة على صدرها وسمعت صوت دقات قلبها . . . كانت صمامات قلبها مثقلة بتلك الألياف والأنسجة التى تراكمت عليه بفعل الروماتزم . وأصبحت تحدث أصواتاً نشازاً لاتتفق مع ذلك النغم السابق الذى كنت أسمعه لدقات القلب السليم . . .

غلظت الصمامات وضاعت مرونتها فعجزت عن أن تغلق حجرات القلب بإحكام فأصبح الدم يتسرب منها فى خرير يشبه خرير الساقية الخربة . . .

ونظرت إلى المرأة الشابة . . . ورأيت بريق الأمل فى عينيها وقالت لى فى فرحة . ماذا أسميه ؟ إنه أول ابن لى .

قلت لها وأنا أخفى عينيها بقناع التخدير : لاأدرى . . . إننا لانعرف بعد هل سيكون ولداً أم بنتاً ؟

ومرت لحظات . . . لحظات رهيبة . . . ورأيت شعر الطفل الأسود الناعم يطل من الظلام إلى النور يحوطه فكا العلم المعدنيان الصلبان . . .

ووضعت السماعة على قلب المرأة إن قلبها يناضل ويئن . . . والدم يخر خريراً ضعيفاً والصمامات تصفق تصفيقاً شديداً . . . ثم رأيت الطفل يندفع إلى الخارج بقوة ويصرخ صرخة عالية وتهلل وجهى فى فرحة ودهشة وأنا أرى الإنسان وهو يفتح عينيه الصغيرتين لأول مرة فى حياته ويرى العالم الواسع .

لكنى أفقت بعد لحظة على سكون رهيب كسكون القبور . . . ضاع خرير الدم وتوقفت الصمامات عن التصفيق . . . ونظرت إلى المرأة . . .

كان وجهها صامتاً بارداً كتمثال من الجرانيت . . . وكان صدرها هامداً لا يعلو ولا يهبط كصندوق من الخشب . . .

ماذا حدث ؟

لقد كانت منذ لحظات تتكلم وتتحرك وتتنفس !

وأسرعت أستنجد بكل ما يعرفه الطب لانتشال حياة الإنسان من براثن الفناء . . .

حقنت فى وريدها المحاليل والمنبهات . . . دفعت إلى أنفها الهواء والأكسوجين . . . استعنت بالتنفس الصناعى لأحرك رئتيها . . . غرست فى قلبها إبرة طويلة ليتحرك . . . فتحت صدرها وأخذت أدلك القلب لتعود إليه الحياة . . . نفخت فى فمها ولطمتها على وجهها لتحس . . . ولكن لا . . . لا شىء يجدى . . . لا طب ينفع ولا علم يستطيع . . . كل شىء عاجز . . . عاجز عن أن يجعل هذا الجفن الصغير المغمض يرتفع عن العين مرة واحدة . . . واحدة فقط .

وتأملت المولود الصغير وهو يرفس بقدميه بين يدى الممرضة ويبكى ويصرخ . . .

أليس هذا عجيباً ؟ عجيباً جداً ؟ . . . أن تخرج هذه القطعة الإنسانية الحية من هذا الجسد الميت الجامد الراقد على هذه المنضدة المعدنية الباردة ؟

وأمسكت رأسى بيدى . . . وتهاويت على مقعد بجوارى . . .

لماذا يعجز العلم ؟ ذلك الإله الجبار الذى حنيت له رأسى ؟ لماذا يعجز عن أن يفسر لى كيف تفسد صمامات القلب بفعل الروماتزم ؟

كيف توقف قلب المرأة الشابة إلى الأبد ؟ كيف ولد طفل حى من جسد امرأة تموت ؟ كيف تدب تلك الشرارة الصغيرة من الحياة فى المادة الميتة ؟ كيف تندلع الحياة وكيف تنطفىء ؟ من أى عالم يخرج الإنسان وإلى أى عالم يذهب ؟ ! . . .

خرج الصراع الذى فى أعماقى من نطاق الرجولة والأنوثة إلى الإنسانية جمعاء . . .

رأيت الإنسان تافهاً بالرغم من عضلاته وخلايا مخه وتعقيدات شرايينه وأعصابه .

ميكروب صغير لا يرى بالعين يدخل مع الهواء إلى أنفه فيأكل خلايا رئتيه أكلا . . .

فيروس مجهول يصيبه من حيث لا يدرى فيجعل خلايا كبده أو طحاله أو أى شىء آخر تتكاثر بجنون وتلتهم كل ما حولها التهاماً . . .

قطرة صغيرة لزجة تنتقل من إحدى لوزه فى الحلق لتصل إلى قلبه فتشل حركته . . .

نقطة دم واحدة يصيبها التجلط فى إحدى خلايا مخه فيرقد فى الفراش بلا حراك .

شكة إبرة رفيعة فى أصغر أصبع من أصابعه تفقده السمع والبصر والكلام . . .

فقاعة صغيرة من الهواء تتسرب إلى دمه صدفة فيصبح جثة هامدة كجثث الخيول والكلاب تتعفن وتتحلل .

هذا الإنسان المغرور الجبار . . . الذى لا يكف عن الحركة والضجيج والتفكير والابتكار ... هذا الإنسان يحمله على الأرض جسد بينه و بين الفناء شعرة رفيعة جداً ... إذا قطعت . . . ولا بد لها أن تقطع ... فما من قوة فى العالم تستطيع أن توصلها . . .

نزل العلم من فوق عرشه ووقع أمامى صريعاً عارياً عاجزاً كما وقع الرجل من قبل . . .

وتلفت حولى حائرة قلقة . . .

لقد حطم العلم إيمانى القديم ولم يهدنى إلى إيمان جديد .

وأدركت أن طريق العقل الذى عاهدت نفسى أن أسلكه طريق ضحل قصير فى نهايته سد كبير . . .

وفتحت عينى . . . ترى ماذا أفعل ؟

هل أعود أدراجى أم أتكور إلى جوار هذا السد وألتصق به وأحتمى

فيه ؟ ولم يكن لى مجال للاختيار . . . فقد أسلمنى التحدى والمقاومة إلى نوع من القوة والإرادة لم أستطع معهما أن أتكور إلى جوار شىء أو ألتصق بشىء أو أحتمى فى شىء . . . فما بالك إذا كان هذا الشىء سداً كبيراً ليست له منافذ .

ووجدت قدمى تتجهان بى إلى طريق جديد .

* * *

٣

حزمت متاعى القليل وركبت القطار ليحملنى بعيداً عن المدينة . . . بعيداً عن أساتذة العلم ومعامله . . . بعيداً عن أمى وأهلى . . . بعيداً عن الرجال والنساء على السواء .

وفى إحدى القرى النائية الهادئة اتخذت لنفسى مسكناً صغيراً . . .

جلست فى شرفة بيتى الريفى أنقل بصرى من الحقول الخضراء الفسيحة الآمنة إلى السماء الزرقاء الصافية . . . وأشعة الشمس الدافئة تسقط على جسدى الممدود على الأريكة المريحة . . . وتمطيت وتثاءبت فى تكاسل لذيذ . . .

لأول مرة أجلس وحيدة مع نفسى . . . وأحسست أنى أخلع عن نفسى كل أثوابها التى تراكمت عليها طوال السنين الماضية من حياتى . . . ووقفت نفسى أمامى عارية . . . عارية تماماً . . . وبدأت أتفقدها وأتحسسها . . . وأكشف عليها كشفاً دقيقاً . . .

لم أمسك المشرط فى يدى . . . ولم أضع السماعة فى أذنى . . . ولكنى تجردت من كل شىء . . . تجردت من علمى وطبى . . . وتجردت من السنين التى عشتها . . . من الناس الذين رأيتهم وعرفتهم . . . من الصراعات التى عاصرتنى وأسلمتنى إلى ذلك السد الحائل الذى وقف فى طريق تفكيرى . . .

وتجردت من تفكيرى أيضاً . . . وبدأت أحس . . .

لأول مرة فى حياتى أحس دون أن أفكر . . . أحس بوقع الشمس الدافئة على جسدى . . .أحس بتلك الخضرة الآمنة الجميلة التى تكسو الأرض . . . أحس بتلك الزرقة العميقة الفاتنة التى تغلف السماء .

لأول مرة فى حياتى ألتقى بالطبيعة وجهاً بوجه . . . ولأول مرة أرى لها وجهاً جميلا ساحراً لا يفسده شىء . . . لا يفسده ضجيج المدينة الأجوف . . . ولا تفسده أنوثة المرأة الذليلة الأسيرة . . . ولا رجولة الرجل المغرورة المتغطرسة . . . ولا ثرثرة العلم القاصر العاجز . . .

أيقنت أن الطبيعة إله جبار جميل يحاول الإنسان الضئيل المغرور أن يلبسه أثواباً رخيصة قبيحة لمجرد أن يرضى غروره ويشعر أنه يفعل بعمره القصير شيئاً . . . أى شىء .

وأحسست أن قلبى يخفق . . . وأن خفقاته تملأ نفسى بشحنات غريبة من العواطف والمشاعر . . .

لأول مرة يخفق قلبى فأحس دون أن أفكر . . . دون أن يشتغل عقلى ويرسم عضلات القلب وشرايينه ويزن كميات الدم التى تندفع منه . . .

أصبحت لخفقات قلبى لغة جديدة لا يستطيع أن يفسرها العلم أو الطب . . . لغة أفهمها بأحاسيسى الغضة البكر ولا أستطيع أن أفهمها بعقلى المجرب العجوز .

أحسست أن العاطفة أكثر ذكاء من العقل وأكثر رسوخاً فى قلب الإنسان وأكثر اتصالا بتاريخه البعيد وأكثر صدقا وتجاوبا مع طبيعته وبشريته .

وتمددت على الأريكة أكثر . . . فردت ساقى عن آخرها فاستسلمت

لعاطفتى الدافئة الجديدة تدغدغ جسدى .

وتنبهت . . . ها هو جسدى الذى حكمت عليه يوماً بالإعدام. . . جسد المرأة الأنثى الذى ذبحته ذبحاً عند قدمى إله العلم والعقل . . . ها هو جسدى تدب فيه الحياة من جديد .

واكتشفت أننى ضيعت عمرى الذى فات فى صراع ليس له أرض . . . ضيعت طفولتى وصباى وفجر شبابى فى عراك عنيف . . . ضد من ؟ ضد نفسى . . . ضد إنسانيتى . . . ضد غريزتى . . .

من أجل ماذا ؟ لا شىء . . . هأنذى الآن أترك كل شىء وابدأ من جديد . . . أبدأ من أول الحياة . . . أبدأ من الأرض البسيطة البدائية التى تنبت من تلقاء نفسها الحب والقمح . . . أبدأ من الطبيعة البكر التى تغلف الأرض منذ ملايين السنين . . . أبدأ من الإنسان الريفى الساذج الذى يأكل النباتات من الأرض ويمارس غريزته تحت الشجر ويأكل ويشرب ويلد ويمرض ويموت دون أن يسأل لماذا أو كيف ؟

ابتسمت . . . ثم ضحكت . . . ضحكت بصوت عال سمعته بأذنى . . .

كانت الضحكة تتقلص على شفتى وتموت دون أن أسمع لها صوتاً... فقد كانت أمى تقول لى دائماً إن البنت يجب ألا تضحك بصوت عال يسمعه الناس .

وفتحت فمى عن آخره ورحت أضحك وأقهقه . . . ودخل الهواء إلى صدرى . هواء نقى نظيف ليس فيه دخان وليس فيه كربون وليس فيه



علوم الطب وليس فيه آداب المجتمع .

هواء لا يهمنى تركيبه ولا مضمونه ولكنى أحس أنه هواء منعش يرطب جوفى الساخن . . .

واستسلمت لأشعة الشمس وتركتها تسقط على جسدى . . . أشعة نقية صافية لا تشوهها تحاليل العلم إلى أشعة بنفسجية أو حمراء حارقة أو غير حارقة .

وجاء الرجل الريفى الطيب الساذج يحمل صينية الأكل . . . فطير مشلتت وقشدة وزبدة وبيض . . . وأكلت بشهية تشبه شهيتى وأنا طفلة قبل أن أبلغ التاسعة من عمرى . . . نسيت تعاليم أمى عن كيف تأكل البنت . . . ونسيت تحذيرات الطب من القشدة والزبدة . . . وملأت فمى بالطعام على آخره . . . شربت الماء البارد من الكوز الفخارى بصوت عال . . . وسقط الماء من بين شفتى وبلل ملابسى . . .

أكلت حتى شبعت وشربت حتى ارتويت ثم تركت الأريكة الساخنة وتمددت على الأرض الرطبة . . . ووضعت وجهى على التراب ورحت أشم باطن الأرض وأنتشى بذلك الإحساس الدفين أنى من الأرض وإلى الأرض .

وهبت نسمة رقيقة رفعت الرداء عن ساقى . . . ولم يصبنى ذلك الذعر القديم الذى كنت أحس به حينما تتعرى ساقى .

كيف استطاعت أمى أن ترسب فى نفسى ذلك الإحساس البغيض بأن جسدى عورة ؟ إن الإنسان يولد عارياً ويموت عارياً ، وما تلك

الأثواب التى يلبسها إلا زيف يحاول أن يغطى به حقيقته .

وتركت الهواء يرفع عنى أرديتى . . . وأحسست فى تلك اللحظة أننى ولدت من جديد وولدت معى عاطفتى . . . ولدت لتوها حقاً ، ولكنها ولدت عملاقاً جباراً يريد أن يعيش ويطالب بحقه فى أن يعيش . . .

• • •

سمعت صوت طرق شديد على باب بيتى فى منتصف الليل . . . ورأيت بعض الفلاحين يحملون رجلا عجوزاً مريضاً . . .

فتحت لهم بابى وارتديت معطفى الأبيض ووضعت السماعة على صدر المريض . . .

اختلط فى أذنى دقات القلب بصوت أنين فرفعت عينى إليه . . . ورأيت عينى الرجل تتعلقان بعينى وتتشبثان بهما كغريق على وشك الموت يتطلع إلى طوق النجاة .

وكأنما نسيت الطب . . . كأنما لم أكشف على مريض قبل اليوم . . . كأنما أرى لأول مرة فى حياتى عينى إنسان يتعذب . . . كأنما أسمع لأول مرة صوت الأنين .

كيف كنت أكشف على المرضى كل تلك السنوات التى مضت ؟ كيف استطاع أساتذة الطب أن يوهمونى أن المريض ليس إلا كبداً أو طحالا أو مجموعة من الأمعاء أو المصارين ؟ كيف جعلونى أنظر فى العيون فلا أرى نضارتها وأصوب إليها كشافى الكهربى وأقلب جفونها

بأصابعى ؟ كيف جعلونى أفتح حلوق الناس وأنظر فيها ولا أسمع الأنين ؟

وأحسست برجفة عنيفة تهز كيانى .

لأول مرة فى حياتى أحس أن المريض إنسان كامل . . . كل لا يتجزأ . . .

لأول مرة تخترق نظرات التعب والمرض سطح عينى وتدخل إلى نفسى . . .

لأول مرة يجتاز صوت الأنين المسافة بين أذنى وقلبى . . .

ووقفت أمام المريض كالمشدوهة . . . عيناى مشدودتان إلى عينيه . . . وأذناى مرهفتان تلتقطان همسات أنينه الخافت وروحى خرساء ترقب مشهد عذاب الإنسانية العجيب . . . وعقلى صامت متوقف يستوعب معنى الحياة الجديد .

ووضعت يدى على قلبى وأسندت رأسى إلى الحائط . . .

شىء فى العينين الفاترتين اليائستين يجعل قلبى يتمزق . . . شىء فى الأنين الخافت يجعل نفسى تخور . . . شىء غريب لم أعرفه من قبل . . . لم أحسه . . . لم أعانيه . . .

الألم ؟ ! نعم الألم . . .

لأول مرة فى حياتى أتألم . . . شعور أليم . . . . . . ولكنه عميق . . . عميق . . . نفذ إلى طبقات نفسى البعيدة حتى بلغ مجال اللذة . . .

تألمت ولكنى شعرت بلذة الألم . . . شعرت بلذة إنسانيتى وهى تمارس إمكانياتها المعطلة وتستكشف أبعادها المجهولة . . .

وكأنما شرب كيانى إحساسى باللذة عن آخره . . . وكأنما امتصت روحى إحساسى بالألم كله . فأحسست بدوار شديد وتهاويت على مقعد إلى جوارى وأغمضت عينى . . . و . . . وبكيت . . . بكيت كما لم أبك أبداً . . . كأنما لم تعرف عيناى الدموع . . .

انهمرت دموعى الساخنة المكبوتة كسيل عاصف كاسح . . . وتركت العنان لدموعى . . . لم أحاول أن أقف فى طريقها . . .

فلأبك كما تشاء عيونى . . . ولأغسل عقلى من ذلك الغبار الكثيف الذى تراكم عليه ولأزح عن قلبى تلك الغشاوة المعتمة العازلة . . . ولأطلق سراح روحى من قلب تلك الزنزانة الحديدية القاتلة . . .

واستسلمت للألم . . .

وأفقت على صوت . . . صوت ضعيف خائر ولكنه صوت دافىء . . سمعته يقول : لا تبكى يا دكتورة . . . أنا بخير . . .

وفتحت عينى ونظرت إليه . . . فرأيت على وجهه ابتسامة . . . ابتسامة هادئة واهنة ولكنها تحمل فى ثناياها العطف والحنان . . .

كأنما هو الذى يحنو علىّ . . . كأنما هو الذى يريد أن يأخذ بيدى ويعطينى من عنده . . . كأنما هو الذى يملك العلم والصحة والقوة وأنا لا أملك شيئاً . كأنما تضاءلت علة الجسد إلى جوار علة الروح فأحس أنه الطبيب وأنا المريضة .

لم أكن أتخيل فى تلك اللحظة التى فقدت فيها إيمانى بالإنسان وأيقنت أن فقاعة هواء أقوى منه ومن حياته أننى سأعود أومن به من جديد .

لم أتخيل أننى أفقد إيمانى بالإنسان وأنا وسط المدينة الباهرة بحضارتها ومبانيها وطائراتها وصواريخها ، ثم أعود أومن به فى كهف مهجور مظلم .

لم أتخيل أننى أفقد إيمانى بالإنسان وأنا بين أساتذة الطب وأئمة العلم ثم أعود فأومن به على يد رجل ريفى عجوز مريض لا يملك إلا جلبابه وابتسامته . . .

ابتسامة صغيرة انفرجت عنها شفتان يابستان ولكنها كانت تحمل فى طياتها معنى الحياة بأسرها . . . ذلك المعنى الذى يضيع من الناس فى الزحام . . . ذلك المعنى الذى يضل عنه العلم وسط ضجيج الآلات ويقصر عن تفسيره العقل . . . الحب . . .

حب الحياة بكل ما فيها من لذة وألم . . . من صحة ومرض . . . من مجهول ومعلوم . . . من بداية ونهاية . . .

الحب ؟ !

خفق قلبى للكلمة الجديدة . . . وسرت الرجفة فى أوصالى . . . ودب الحنين فى جسدى واندلع اللهيب فى قلبى . . . .

° ° °

كيف يمكن لى أن أعيش الآن ؟

أنا الطفلة النهمة بعواطفى البكر وأنا الطبيبة المجربة بعقلى العجوز ؟

خمس وعشرون سنة مضت من عمرى دون أن أشعر لحظة واحدة

أنثى امرأة ! دون أن يخفق قلبي مرة واحدة لرجل ! دون أن تمس شفتى تلك الأعجوبة التى اسمها القبلة ! دون أن أعرف تلك الفترة الملتهبة من عمر الإنسان . . . المراهقة .

ضاعت طفولتى فى صراع ضد أمى وأخى ونفسى . . . والتهمت كتب العلم والطب مراهقتى وفجر شبابى . . . وهأنذى الآن طفلة فى الخامسة والعشرين من عمرها . . . طفلة تريد أن تجرى وتلعب وتنطلق وتحب . . .

• • •

حزمت متاعى القليل وركبت القطار ليحملنى بعيداً عن نفسى . . . لقد تعرفت عليها وعرفتها ولم أعد بحاجة إلى أن ألتصق بها ذلك الالتصاق الشديد الذى يفصلنى وإياها عن الحياة . . . الحياة التى التقطت جوهر معناها من تراب الأرض كما تلتقط الحمامة بمنقارها حبة القمح . . . الحياة التى أصبحت أحبها بكل خلية من كيان روحى وجسدى وأحس برغبة عارمة فى أن ألتصق بها التصاقاً شديداً . . .

كيف لى بعد كل هذا أن أغلق نفسى داخل تلك العزلة الموحشة ؟

كان لابد أن أعود . . . وعدت . . . عدت إلى بيتى وأهلى وعملى وعيادتى . . . فتحت ذراعى للحياة وعانقت أمى، ولأول مرة أحس أنها أمى . . . وعانقت أبى وفهمت معنى بنوتى . . . وعانقت أخى وعرفت شعور الأخوة . . . و . . . وتلفت حولى أبحث عن شىء . . . شىء لازال ينقصنى . . . عن أحد لا زال غائباً عنى . . . من هو ؟

أعماقى تناديه . . . وروحى تهتف به . . . من هو ؟ من ؟ !

* * *

حنين جارف عنيف يهز روحى وجسدى . . . حنين روح ظامئة للحب أطلق العقل سراحها . . . حنين جسد بكر انطلق لتوه من زنزانته الحديدية . . .

ترى ماذا يكون اللقاء بين المرأة والرجل ؟ !

الليل أصبح طويلا . . . والأوهام والخيالات تعشش كل ليلة حول سريرى . . .

ذراع طويلة قوية تلتف حول خصرى . . . ووجه رجل يقترب منى . . . له عينان تشبهان عينى أبى . . . وله شفتان تشبهان شفتى ابن عمى . . . ولكنه ليس أبى وليس ابن عمى .

ترى من يكون ؟

أحاديث البنات فى المدرسة تطفو على سطح ذاكرتى . . . التنهدات . . . الشهقات . . . أحلام المراهقات . . .

كأنى لم أشرح جسد الرجل . . . كأنى لم أعريه . . . كأنى لم أر قبحه وبشاعته . . . .

هل نسيت ؟ . . . لا أدرى . . . ولكنى نسيت . . . وعاد إلى الجسد الحى سحره وغموضه . . . كيف نسيت ؟ ! . . . لعل أنوثتى خرجت من زنزانتها عنيفة جامحة طوحت فى طريقها بكل ذكريات العقل . . . أو لعل حنين روحى الجارف نزع من مخيلتى صور الجسد

القبيحة . . . أو لعل انتفاضة القلب القوية نفضت علوم الطب عن رأسي . . .

والصباح لم يعد يطلع . . . ودفء السرير أصبح لهيباً . . . وأوهام الليل لم يعد يبددها نور .

* * *

٤

دق جرس التليفون بجوار رأسى ففتحت نصف عينى ونظرت فى الساعة . . . كانت الثانية صباحاً . . . ورفعت السماعة فى كسل وجاءنى صوت ملهوف يقول :

ــ انقذى أمى من الموت يا دكتورة .

قفزت بسرعة من السرير الدافئ وارتديت معطفى وخطفت حقيبتى الصغيرة المعدة لحالات الإسعاف السريع وركبت عربتى وانطلقت إلى بيت المريضة .

وضعت السماعة على قلبها . . . فسمعت دقات ضعيفة خائرة . . . دقات قلب عجوز أصابه الوهن والشيخوخة وقد أوشكت الحياة أن تفلت منه .

خلعت السماعة وتلفت حولى . . . وتنبهت إلى وجود رجل طويل واقف إلى جوارى فى عينيه نظرة قلق شديد .

وسألنى : حالتها خطيرة يا دكتورة ؟

وخرجت من الحجرة دون أن أرد عليه فخرج ورائى . . . ووقفت فى صالة البيت فوقف أمامى وسألنى مرة أخرى فى لهفة شديدة : حالتها خطيرة يا دكتورة ؟

وقلت له فى هدوء : لا . . . ليست خطيرة . . . إنها تموت فقط .

وحملق فى فزع ودهشة وقال : تموت ؟ لا ! لا يمكن !



وأمسك رأسه بيديه وتهاوى على مقعد إلى جواره وأخذ يبكى بصوت مكتوم .

انتظرته حتى فرغ من نشيجه ورفع عينيه إلىّ وقلت له :

ـ كل الناس يموتون .

ـ ولكنها أمى يا دكتورة ؟

ـ لقد أدركتها الشيخوخة ومن غير الطبيعى ألا تموت .

وجفف عينيه فمددت يدى لأصافحه وأنا أقول :

ـ دعها فى حجرتها تودع حياتها فى هدوء .

وغلبته دموعه مرة أخرى ففتحت الباب وخرجت .

* * *

كنت أجلس فى مكتبى وبين يدى كوب الينسون الدافىء الذى يصنعه التمورجى لى بمجرد أن يخرج من العيادة آخر مريض. وأصابعى المتعبة تلتف حول الكوب تلتمس من دفئه بعض الراحة والاسترخاء. ووجهى المرهق يقترب من البخار المتصاعد من الكوب لأشم الينسون الذى أحب رائحته أكثر من مذاقه . . . حين دخل التمورجى وأعلن عن وجود رجل يريد مقابلتى . . .

ودخل الرجل. . . وعرفته . . . فوقفت وصافحته وجلس أمامى . . . ولمحت الربطة السوداء حول عنقه فقلت له : البقية فى حياتك .

قال وهو مطرق : أشكرك يا دكتورة .

وظل مطرقاً لحظة طويلة فأمسكت كوب الينسون وأخذت منه رشفة

ورفع عينيه ونظر إلى الكوب فى استطلاع فسألته : أتشرب كوباً من اليتسون ؟

ونظر إلىّ مندهشاً وقال : ينسون ؟

وضحكت لدهشته فابتسم وقال : جئت لأشكرك .

— لم أفعل شيئاً .

— نزلت من بيتك فى هذا الوقت المتأخر .

— إنه واجب الطبيب .

— قلت لى الحقيقة .

— الحقيقة التى لا يمكن إخفاؤها .

— إنه شىء مؤلم جداً .

ولم أرد . . . ونظر إلىّ لحظة ثم قال :

— ألا تتألمين لمنظر الإنسان وهو يموت ؟

— هذا هو أخف ألم فى حياتى .

— وما هو أقسى من الموت ؟

— المرض الذى ليس له دواء . . . العجز الذى ليس له شفاء . . . التشويه الذى يصيب الإنسان فى جسده أو عقله .

— هل رأيت كل هذا ؟

— هذه حياتى وحياة كل طبيب .

— اعذرينى يا دكتورة . . . أنا لا أتعامل مع الإنسان الذى هو معرض للمرض والموت . . . إنى أتعامل مع الصخر.

ـ مهندس ؟

ـ نعم .

وسكتنا لحظة ثم قلت له :

ـ أنت لم تعرف الألم .

ـ أول مرة فى حياتى أرى إنساناً يموت . . . وأول مرة فى حياتى أبكى . . .

هذا شيء فظيع ! إن الحياة قاسية . . . أشد قسوة من الصخر !

ـ أنت لم تعرف الحياة بعد .

نظر فى عينى وهم بأن يقول شيئاً ولكنه لم يقل . . . وخيل إلىّ أنى رأيت فى عينيه نظرة غريبة . . .

لعلها نظرة احتياج وضعف فيها طفولة وسذاجة جعلتنى أتحمس لعمل شيء من أجله . . .

ووقف ومد لى يده قائلا :

ـ أشكرك مرة أخرى يا دكتورة .

واستدار وسار إلى الباب ولكنه لم يخرج والتفت ناحيتى ولاحظت أنه يبذل مجهوداً كبيراً كى يقول شيئاً . . . وسمعته يقول :

ـ أريد أن أتحدث معك مرة أخرى ولكن . . .

وسكت لحظة ثم قال وهو ينظر بعيداً عنى :

ـ أعرف أن وقتك ضيق ولكن . . . ؟!

ولم أرد . . . فقال متلعثماً وهو يتفادى النظر إلىّ . . .

ــ هل يمكننى أن أراك مرة أخرى ؟

وتأملت عينيه . . .

فى عينيه نظرة تشغلنى . . . ولكن ملامحه لا تقنعنى . . . وهو لم ير الموت إلا موت أمه . . . ولم يعرف الألم والمرض . . .

أيمكن له أن يرضى هذا العقل العجوز المجرب ؟ . . . أيمكن له أن يثير هذه الطفلة النهمة المنطلقة بلا حدود ؟

ولكنه أول رجل تقع عليه عيناى . . .

وقلت : يمكنك أن ترانى مرة أخرى . . .

* * *

جلست إلى جواره على صخرة كبيرة من صخور الهرم وامتدت نظراتى إلى الأفق البعيد وأخذت أراقب قرص الشمس الأحمر وهو يتسلل من وراء السحب الرمادية الكثيفة وسمعته يقول :

ــ فيم تفكرين يا دكتورة ؟

ــ لماذا تنادينى يا دكتورة دائماً ؟

ــ ألا تحبين هذا اللقب ؟

ــ إنه يذكرنى بالأنين والمرض .

ــ إنه لقب ساحر . . . أحس وأنا أناديك به بالفخر . . . أنت أول طبيبة أعرفها .

ــ حقاً ؟ !

ــ حين طلبتك فى التليفون لتنقذى أمى لم أتصور أن صوتك هو

صوت الطبيبة وحين رأيتك تدخلين حجرة أمى لم أصدق أنك الدكتورة .

ــ لماذا ؟

ــ كنت أتصور أن الطبيبة لابد أن تكون قبيحة أو عجوزاً . . . ترتدى على عينيها نظاة بيضاء سميكة . . . وظهرها محنى من كثرة القراءة والإجهاد . . . لم أتصور أن الطبيبة يمكن أن تكون امرأة جميلة .

ــ لماذا ؟

ــ من الصعب أن تجمع المرأة بين العقل والجمال .

ــ لماذا ؟

ــ لا أدرى .

ــ لأنهم يربون البنت الصغيرة منذ طفولتها على أنها جسم فقط فتنشغل به طول حياتها ، ولا تعرف أن لها عقلا أيضاً يجب أن تنميه .

ــ لماذا يفعلون ذلك ؟

ــ لأن الرجل الذى يمسك بمقاليد الحياة لا يريد من المرأة إلا أن تكون حيواناً غبيا جميلا يرقد بين قدميه .

ــ لماذا ؟

ــ الرجل لا يريد أن تكون المرأة نداً أو شريكاً له ، ولكنه يريدها تابعاً له أو خادماً ، وضحك وضحكت .

ورأيته يقترب منى ويقول :

ــ أنا لست هذا الرجل . . . أنا أريد من المرأة أن تكون شريكتى وليست خادمتى . . . إنى فخور بعقلك . . . لا يمكن لك أن تتصورى

مبلغ سعادتى حين أدخل عيادتك وأشهد بعينى ذلك العدد الكبير من النساء والرجال الذين ينتظرون أن تمنحيهم الصحة والشفاء. ويتلهفون على رأيك وخبرتك . . . هل يمكن لامرأة لها مثل عقلك أن تحبس فى البيت لتطبخ ؟

هل يمكن لامرأة لها مثل علمك وذكائك أن تنفق حياتها فى إرضاع الأطفال مثل النساء الجاهلات بل مثل القطط والكلاب ؟ . . . لا . . . مستحيل ؟ إن هذا ظلم لك وللإنسانية جمعاء .

نفذت كلماته إلى أعماقى الثائرة فهدأتها ودخلت إلى قلبى الحائر فطمأنته . . . وأحسست أن الصراع الذى كان بينى وبين الرجل يذوب حتى آخر قطرة فيه . . .

وأسندت رأسى المرهق إلى صخور الهرم فى راحة واسترخاء . . . لماذا لم تقل أمى هذا الكلام ؟ لماذا لم يعترف المجتمع بهذا المعنى ؟

ها هو رجل يعترف به . . . هاهو رجل يعترف بعقل المرأة . . . ها هو رجل يقول إن المرأة كالرجل لها جسم ولها عقل . . . ها هو رجل يقول الكلام الذى تقوله أعماقى منذ فتحت عينى على الحياة. . .

ونظرت إليه . . . أحاول أن أرى من أين تخرج هذه الكلمات الناضجة العادلة . . . من أعماقه أم من حنجرته ؟ ولم أستطع أن أرى شيئاً . . . المسافة بين أعماقه وحنجرته لم تكن موجودة . . . لعلى لم أر له أعماقاً . . . أو لعل قرص الشمس قد سقط فى تلك الهاوية السحيقة التى يسقط فيها كل ليلة فأخفت الظلال معالم الأشياء . . .

وأحسست بيديه الباردتين فنظرت فى وجهه. . . ابتسامته الهادئة المستسلمة تثير أمومتى. . . لكن نظراته الضعيفة المستجدية تخمد أنوثتى. . . لماذا ؟ هل لأنه ضعيف . . . أضعف منى ؟ . . . أم لأنه لم يعرف الألم مثلما عرفت ؟ أم لأن عينيه تفتقدان تلك القوة العميقة الخفية التى أريدها فى الرجل؟. . . أم أنه لا تزال تجرى فى دمائى أنوثة امرأة الغاب الفجة التى تعشق الرجل الذى ينتصر عليها ؟ ! . . . ولكنه يرضى شيئاً فىّ . . . لعل ضعفه يؤكد لى قوتى. . . لعل نظرة الاحتياج فى عينيه ترضى عقلى الذى يصر على التفوق . . .

* * *

قال لى وهو يبتسم :

ـ ماما كانت لها نفس هذه النظرة القوية. . . ولكن عيناها كانتا خضراوين .

خرجت كلمة ماما من تحت شاربه الكث شاذة منفرة جعلت ملامحه تبدو كملامح طفل صغير على شفته العليا حشرة سوداء ميتة .

ـ وسمعته يقول : لماذا تنظرين إلى هكذا ؟

وقلت له : كنت تحب أمك ؟

اغرورقت عيناه بالدموع لحظة ثم قال : جدا .

ولم تهزنى دموعه . . . وقال : بعد موتها أحسست أن الدنيا فرغت .

ثم سكت لحظة وقال : ولكنى وجدتك . . . فشعرت أن الدنيا امتلأت من جديد .

– شيء غريب !

– ما هو الغريب ؟

– أن تفرغ الدنيا فى نظرك بعد موت شخص .

– كانت أمى . . . وكنت أحبها حبا شديداً . . . كانت تفعل كل شيء من أجلى . . . وأنت ؟ أما كنت تحبين أمك ؟

– كنت أحبها . . . ولكنها لم تملأ حياتى قط .

– ربما كنت تحبين أباك أكثر ؟

– كنت أحبه كما أحب أمى .

– من هو إذن الذى ملأ حياتك ؟

– لم يكن شخصاً .

– ماذا كان ؟

– لا أدرى. . . لعلها لم تمتلىء أبداً . . . أو لعلى كنت أسعى إلى تحقيق شيء .

– ما هو هذا الشيء ؟

– لا أدرى . . . لعلى أريد أن أعمل عملا عظيماً .

– علاج المرضى ؟

– لعله أكبر من ذلك . . .

* * *

– هل ترغبين فى العيش معى إلى الأبد ؟

سألنى وهو ينظر إلىّ نظرة طفل يتيم . . . فأثار أمومتى وإنسانيتى

ورغبتى العنيفة فى البذل والعطاء وأحسست أن حاجته إلىّ تشدنى إليه وتربطنى به . . . ونظرت إليه فى حنان . . .

فسألنى مرة أخرى : هل ترغبين فى الزواج منى ؟

وارتطمت كلمة الزواج برأسى فقهقرت أفكارى إلى الوراء . . . حينما كنت طفلة ماذا كانت كلمة الزواج تعنى لى ؟ رجل له بطن كبير فى داخله مائدة طعام . . . وقد ارتبطت فى ذهنى رائحة المطبخ برائحة الزوج . . . وكرهت اسم الزوج . . . وكرهت رائحة الأكل . . .

وسألته دون أن أدرى : هل تحب الأكل ؟

ونظر إلىّ مندهشاً وقال : الأكل ؟

– نعم .

– ما هذا السؤال الغريب الآن ؟

– الرجل يتزوج ليأكل .

– من قال لك هذا ؟

– كل الناس .

– هذا خطأ .

– لماذا لم تفكر فى الزواج وأمك تعيش معك ؟

– لم تكن أمى تصنع لى الأكل فقط . . . ولكنها كانت تمنحنى كل ما أريد .

– أنت تتزوج ليمنحك أحد كل ما تريد ؟

وقال : لا . . . وكأنه يقول : نعم . . .

الرجل العجوز على رأسه عمامة بيضاء كبيرة ينظر إليه نظرة احترام بالغة ويستمع إليه . . . ولا يرانى ولا يسمعنى كأن وجودى تلاشى من أمام عينيه . . .فى يده قلم وأمامه دفتر مسطر كبير .

— كم المقدم ياسيدى البك وكم المؤخر ؟

ما هذه الألفاظ الكئيبة التى تخرج من بين شفتيه اليابستين ؟ مقدم ؟ مؤخر ؟ ! هل هو الذى سيدفع لى ليتزوجنى ؟ هو الذى لا يملك ما يمنحنى إياه ؟

ولكن الرجل المعمم لا يعرف من منا الذى يملك . . . إنه يراه رجلا . . .ويرانى امرأة . . .والرجل فى نظره هو الذى يملك . . .

ونظرت إلى الشيخ فى استعلاء وقلت له : اكتب لا شىء .

ونظر إلىّ الرجل، فى استنكار شديد . . . كيف تتكلم امرأة فى حضرة الرجال !

وقال بلهجة العلماء : العقد يصبح باطلا .

وسألته : لماذا ؟

قال : الشرع أمرنا بهذا .

قلت : أنت لا تعرف الشرع .

وقفز الرجل من مقعده . . . وقفزت عمامته من فوق رأسه فأمسكها بكلتا يديه صائحاً : استغفر الله ! استغفر الله !

* * *

بلل الشيخ المعمم أصابعه بطرف لسانه وغمس القلم فى الحبر وبسمل وحوقل واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم وشمر كمه الواسع ثم كتب قسيمتى الزواج ومد لى يده بإحداهما وقال :

— وقعى بإمضائك هنا .

وقلت له فى عناد : دعنى أقرأها كلها أولا .

ونظر إلىّ فى غيظ وترك لى الورقة أقرأها . . .

ووقعت عيناى على كلمات غريبة تشبه الكلمات التى تكتب فى عقود إيجار الشقق والدكاكين وقطع الأرض الزراعية . . .

إنه فى يوم كذا . . . بحضورى وعن يدى أنا فلان . . . مأذون الجهة كذا . . . التابعة لمحكمة كذا . . . للأحوال الشخصية . . . تزوج فلان ... فلانة ... على صداق قدره كذا ... الحال منه مبلغ ... والمؤجل منه مبلغ ... زواجاً شرعياً على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم بإيجاب وقبول شرعيين صادرين من الزوج المذكور وذلك بعد تعريفهما المعرفة الشرعية والتحقق من خلو الطرفين من كل مانع شرعى ونظامى والتحقق أيضاً أن الزوجة ليس لها معاش أو مرتب بالحكومة وليس لها مال يزيد على ما ثنى جنيه بشهادة كل من فلان . . . وفلان . . .

أمسكت الورقة بكلتا يدى لأمزقها لكنه أخذها منى ورأيت فى عينيه نظرة الضعف والاحتياج التى تجعلنى أخجل من التمرد عليه وأترفع عن عصيانه وقال فى هدوء :

— إنه إجراء شكلى ليس إلا . . .

وو قعت باسمى على العقد . . .

* * *

وكأنما وقعت على شهادة وفاتى . . .

اسمى الذى تفتحت أذنى على سماعه وارتبط فى عقلى الواعى والباطن بوجودى وكيانى أصبح ملغيا . . .ووضع اسمه على غلافى . . .

وجلست إلى جواره . . . أسمع الناس وهم ينادوننى باسمى الجديد، فأنظر إليهم وإلى نفسى فى دهشة شديدة كأنهم لا ينادون علىّ أنا . . . كأنى مت . . . وتقمصت روحى امرأة أخرى تشبهنى وتحمل اسماً غريباً . . .

عالمى الخاص . . . حجرة نومى . . . لم تعد حجرتى وحدى . . . وسريرى . . . الذى لم يكن يشاركنى فيه أحد . . . أصبح هو يشاركنى فيه . . . كلما تقلبت أو تحركت ارتطمت يدى برأسه الخشن أو بذراعه أو ساقه اللزجة . . . وصوت أنفاسه إلى جوارى يملأ الجو من حولى بالعويل . . . لا شىء يربطنى بهذا الرجل وهو مغمض العينين . . . لا شىء أراه فيه إلا جثة هامدة كتلك الجثث التى رأيتها فى المشرحة . . .

ولكن إذا ما فتح عينيه ونظر إلىّ بنظرته الضعيفة المستجدية التى تثير أمومتى وتخمد أنوثتى أشعر أنه طفل صغير ولدته من صلب كيانى فى مكان وفى زمان لا أدرى عنهما شيئاً . . .

* * *

ــ أنا الرجل .

— ما معنى أنك الرجل ؟

— إنني صاحب السلطة .

— أي سلطة ؟

— سلطة هذا البيت بكل ما فيه حتى أنت .

بوادر التمرد تظهر عليه . . . شعوره بالضعف أمامي انقلب في أعماقه إلى رغبة في السيطرة عليّ . . .

— لا أريد أن تخرجي كل يوم .

— أنا لا أخرج للعبث . . . أنا أعمل .

— لا أريد أن تكشفي على أجساد الرجال وتعريهم .

نقطة الضعف التي يرتكز عليها الرجل في محاولته السيطرة على المرأة . . حمايتها من الرجال . . . غيرة الذكر على أنثاه . . . يدعي أنه يخاف عليها وهو يخاف على نفسه . . .

يدعي أنه يحميها ليستحوذ عليها ويغلق عليها أربعة جدرانه .

— لسنا بحاجة إلى إيراد العيادة .

— أنا لا أعمل من أجل المال . . . أنا أحب عملي .

— يجب أن تتفرغي لزوجك وبيتك .

— ماذا تعني ؟

— اغلقي العيادة .

ظن أن عملي هو الذي يمنحني القوة التي تحول بينه وبين السيطرة عليّ . . . ظن أن تلك الجنيهات القليلة أو الكثيرة التي أكسبها كل شهر

هى التى تجعلنى شامخة . . . لم يعرف أن قوتى ليست لأنى أعمل . . . وأن شموخى ليس لأن لى إيراداً خاصا . . . ولكن لأنى لا أشعر نحوه باحتياج نفسى كذلك الذى يشعر به نحوى . . . لأننى لم أشعر باحتياج لأمى أو أبى أو أى أحد . . . لأننى لا أنتمى إلى أحد . . . وهو كان ينتمى إلى أمه ثم أصبح ينتمى إلىّ . . .

ولكنه يرى نفسه رجلا . . . فيه ملامح الرجل . . . صوته غليظ . . . وشاربه كثيف . . . الرجال يعملون حسابه . . . والنساء يختلسن النظر إلى شاربه . . . والعيال فى الشوارع والحوارى لا يستطيعون التعليق عليه بالألفاظ النابية أو قذفه بالحجارة . . .

* * *

- اغلقى العيادة .
- والمرضى ؟ والإنسانية التى ستظلم ؟
- هناك أطباء غيرك .
- ومستقبلى فى الطب ؟ وعلمى الذى دفعت فيه نصف حياتى ؟
- حياتك هى أنا .
- والكلام الذى قلته لى ؟
- لم أكن أعرف .

فتحت عينى ونظرت إليه . . . عيناه باهتتان ضحلتان . . . وكفه قاسية غليظة ، أغلظ مما كنت أتصور . . . وأصابعه غبية قصيرة ، أقصر مما كانت أتخيل . . . من هذا الرجل الغريب الذى إلى جوارى ؟

ما هذه الكتلة البشرية التى اسمها زوجى ؟

واقترب منى وأمسك يدى . . . وهمس فى أذنى . . . وقرب وجهه من وجهى . . . حاولت أن أنسى نظرة عينيه المتغطرسة . . . حاولت أن أنسى كلماته المتناقضة . . . حاولت أن أكذب أذنى . . . حاولت أن أكذب عينى . . . حاولت . . . حاولت . . . ولكن هيهات . . . ذاكرتى صاحية واعية تذكر كل كلمة وكل حرف . . . وعقلى يقظ . . . يقظ . . . يشدنى إلى صور من واقعه الكئيب . . . وعيناى مفتوحتان تريان أسنانه وأذنيه . . . وكانت أذناه كبيرتين مفلطحتين كأذنى الأرنب .

وابتعدت عنه . . . لكنه حوطنى بذراعيه اللزجتين هامساً فى أذنى بصوت مبحوح كئيب . . . وأبعدته عنى فى ضيق وقلت له فى غضب :

— لماذا كذبت علىّ ؟

— كنت أريد أن أمتلكك .

— مستحيل ! أنا لست قطعة أرض !

— بيدى أنا الأمر ! أنا الزوج !

ضاعت من عينيه نظرة الضعف والاحتياج فانقطع الخيط الذى كان يربطنى به . . . وبرزت من قاع عينيه الضحلتين نظرة قاسية متغطرسة . . . ليست هى نظرة الرجل القوى . . . ولكنها نظرة الرجل الضعيف حين يشعر بعقدة النقص . . . عقدة الرجل الذى يرى نفسه الطرف الأقوى بين الناس فى الشارع ثم يشعر أنه الطرف الأضعف بين جدران بيته.

* * *

جلست فى عيادتى ووضعت رأسى بين يدى واعترفت بينى وبين نفسى بالخطأ . . . نعم لقد أخطأت . . . صدقت كلام الرجل فى الظلام دون أن أرى أعماقه . . . غرتنى نظرة الضعف والاحتياج ولم أعرف أن الإنسان الضعيف يخفى تحت جلده عدداً من العقد والصفات الدنيئة التى يترفع عنها الإنسان القوى . . . نعم لقد أخطأت . . . عصيت قلبى وعقلى وطاوعت الرجل ووقعت على عقد الزواج الذى يشبه عقود الشقق والدكاكين . . .

ألم أجعله بهذا العقد الغريب صاحب السلطة علىّ ؟

ألم يجعله هذا العقد زوجى ؟

هذه الكلمة التى لم أنطقها أبداً ! زوجى ! ماذا تعنى لى كلمة زوجى ؟

هذا الجسد السميك الذى يحتل نصف السرير . . . هذا الفم الواسع الذى يأكل ويأكل . . . هاتان القدمان المفلطحتان اللتان تلوثان الجوارب والملاءات . . . هذا الأنف الغليظ الذى يؤرقنى طول الليل بالشخير والصفير . . .

ولكن ماذا أفعل الآن ؟ هل أحمل على كاهلى وزر خطئى وأعيش معه إلى الأبد . . .

ولكن كيف أعيش معه ؟ كيف أتحدث إليه ؟ كيف أنظر فى عينيه ؟ كيف أترك له شفتى ؟ كيف أمتهن روحى وجسدى معه ؟

لا . . . لا . . . إن الخطأ الذى وقعت فيه لا يساوى كل هذا العقاب . . . لا يساويه !

كل الناس تخطىء . . . الحياة تشتمل على الخطأ والصواب . . .

بل إننا لا نعرف الصواب إلا من خلال الخطأ . . . ليس فى الخطأ ضعف أو غباء ولكن الاستمرار فى الخطأ هو الضعف وهو الغباء . . .

* * *

الناس يفتحون أفواههم فى دهشة واحتجاج . . .

– كيف تركت زوجها ؟ ولماذا؟

ما أجرأهم !

هؤلاء الناس الذين يسلمون لى أجسادهم وأرواحهم فأنقذها من الهلاك والموت . . . كيف لهم أن يحتجوا على شىء خاص بى ؟ بل كيف لهم أن يبدوا لى الرأى ؟ أنا التى أشير عليهم بما يأكلون وبما يشربون . . . وأشرح لهم كيف يتنفسون وكيف ينامون وكيف يعيشون وكيف يتكاثرون . . .

هل نسوا ؟ أم أنهم يظنون أننى حين أخلع سماعتى ومعطفى الأبيض أخلع معهما عقلى وذكائى وشخصيتى ؟

ما أجهلهم !

لقد ضيعت أمى طفولتى . . . والتهم العلم صباى وفجر شبابى . . . ولم يبق لى من شبابى إلا سنوات تعد على الأصابع . . . لن أضيعها ! ولن أدع أحداً يضيعها .

٥

عالمي الصغير الذى كنت أبنيه من الكراسي والعرائس وأنا طفلة صغيرة أصبح حقيقة واقعة . . . فى جيبي مفتاحه السحرى العجيب . . . أدخل متى شئت وأخرج متى شئت بلا إذن من أحد . . . أنام فى سرير وحدى بلا زوج . . . أتقلب كما أشاء من اليمين إلى الشمال ومن الشمال إلى اليمين . . .وأتمرغ كما يحلو لى . . .

أجلس على مكتبي لأكتب أو أقرأ . . . أو لأتأمل وأفكر . . . أو لا أتأمل ولا أفكر ولا أفعل شيئاً على الإطلاق . . .

أنا حرة . . . حرة تماماً فى عالمي هذا الصغير . . . أغلق على بابى وأخلع عنى حياتى المزيفة مع الناس وأخلع معها حذائى وأتجرد من ملابسى وأتجول فى بيتى كما أشاء . . .

أنا وحدى . . . وحدى تماماً . . . فى بيتى . . .لا أسمع أصواتاً ولاأنفاساً . . . ولا أرى وجوهاً ولا أجساداً . . .

لأول مرة فى حياتى ينزاح عن قلبي عبء ثقيل . . . عبء العيش فى بيت يشاركنى فيه أحد . . .

* * *

فتحت عينى فى منتصف الليل على دقات قلبي تدب فى صدرى دبيب جيش مفلول . . . وأنفاسى تصر تحت ضلوعى صرير ساقية خربة . . . وعيناى مفتوحتان ولا تريان إلا سواداً . . . وأذناى تطنان

فى سكون رهيب ميت. . . وشعرت بالخوف . . . كأنما خفت أن يتوقف قلبي عن الدبيب . . . وتختنق أنفاسى مع الصرير . . . ويطفئ الظلام نورعيني. . .ويضيع سمعى فى الطنين . . .

وحملقت فى الظلام أمتحن بصرى . . . وأرهفت أذنى فى السكون أختبر سمعى . . . ورأيت كتلة السواد الكبيرة تتمزق إلى كتل صغيرة . . . لها رؤوس ولها قرون ولها أذناب . . .ودبت الأصوات فى السكون الميت . . بعضها همس. . . وبعضها حفيف . . .وبعضها عويل . . .

وأخفيت رأسى تحت الغطاء لأسد عينى وأذنى. . . وتلاشت الأشباح والأصوات . . . وهدأ الدبيب فى صدرى وضاع الصرير . . . وسرى دفء الفراش فى أطرافى وأوصالى فتثاءبت فى استرخاء ومددت ذراعى أتحسس النوم . . . لكن النوم لم يكن هناك . . . وعانقت ذراعى شيئاً آخر . . . له عينان تشبهان عينى أبى ولكنه ليس أبى . . . وله شفتان تشبهان شفتى ابن عمى ، ولكنه ليس ابن عمى . . . ترى من هو ؟ من ؟ .

وبدأ الطيف الذى أرق ليالى صباى يزورنى ... والليل عاد طويلا... والسرير أصبح واسعاً . . . والوحدة لم تعد ساحرة . . .

* * *

أين أجده ؟

كيف أعثر عليه فى هذا العالم الواسع المزدحم ؟

هذا الطيف الذى تعرفه أعماقى وتعرفه ... . هذا الرجل الذى يعيش

فى خيالى ويتربع . . .

أعرف نظرة عينيه . . . وأعرف نبرة صوته . . . وأعرف شكل أصابعه . . . وأعرف دفء أنفاسه . . . وأعرف أعماق عقله وقلبه . . . أعرف. . . أعرف. . . أعرف . . . كيف أعرف ؟ لا أدرى ! ولكنى أعرف .

ترى هل له وجود فى الحياة أم ليس له وجود على الإطلاق ؟

ترى هل سألقاه يوماً أم سأظل أنتظره إلى الأبد ؟

وهذا العملاق الراقد فى أعماقى ؟ ماذا أفعل به ؟ هل أتركه يعيش فى حرمان إلى الأبد ؟ أم أحاول أن أرضيه ؟ ولكن كيف أرضيه وهو يفضل أن يعيش فى حرمان كامل دائم على أن يرضى إرضاء مزيفاً أو ناقصاً . . . نعم . . . أريد رجلا كاملا كما فى خيالى . . . وأريد حبا كاملا كما فى أعماقى ولن أتنازل عن شىء مما أريد مهما طال بى الحرمان . . . الكل أو لا شىء . . . هذا هو مبدئى . . . لن أقبل أنصاف الأشياء أبداً . . .

قررت أن أبحث عنه فى كل مكان . . . فى القصور وفى الكهوف . . . فى الملاهى وفى الأديرة . . . فى معامل العلم وفى معابد الفن . . . فى الأضواء الساطعة وفى الظلام الدامس . . . فى القمم الشاهقة وفى الحفر المنخفضة المغمورة . . . فى المدن العامرة وفى الغابات المهجورة الموحشة . . .

لماذا ينظر الناس إلىّ فى دهشة ؟ ما الذى يدهشهم هؤلاء الناس ؟

ألم يكفهم ما ضاع من عمرى ؟ وماذا هم يريدون ؟ أيريدون منى أن أضع يدى على خدى وأنتظر فى عقر دارى حتى يأتى أى رجل من أى شارع ويشترينى كما تشترى البقرة ؟

أليس من حقى الطبيعى فى الحياة أن أختار رجلى ؟

وكيف أختاره ؟

من بين النساء ؟ أم من بين صور الكتب ؟ أم أختار الرجل الواحد الذى يختارنى ؟

أليس من الضرورى أن أبحث عنه بين الرجال ؟ وكيف أبحث عنه إذا لم أنتقل هنا وهناك أنظر فى وجوه الرجال وعيونهم . . . وأسمع أصواتهم وأنفاسهم . . . وألمس أصابعهم وشواربهم . . . وأكشف عن أعماق قلوبهم وعقولهم ؟ هل يمكن لى أن أعرف رجلى فى الظلام أو من وراء الشيش أو من على بعد كيلومتر ؟

أليس من الضرورى أن أراه فى النور ؟ وأختبره وأعرفه ؟

أليس من الضرورى أن تسبق التجربة المعرفة ؟ أم أنهم يريدون منى أن أقع فى الخطأ مرة أخرى ؟

كان لا مفر لى من أن أخوض التجربة . . . أخطر تجربة فى حياة المرأة . . . تجربة اختيار الرجل . . . تجربة البحث عن الحب . . .

* * *

لم أكن أرى منه إلا عينيه . . . كانت ملامح وجهه تختفى دائماً تحت قناع الوقاية الأبيض . . . وأصابع يديه تختفى تحت القفاز الجلدى

المعقم . . . وملامح جسمه تختفى تحت رداء العمليات الواسع . . . وقدماه تختفيان فى حذاء كبير له رقبة طويلة . . . وأنفاسه تختنى فى أنفاس جهاز التخدير الذى يملأ الحجرة برائحة الأثير . . .

رأيته ينظر إلىّ خلسة . . . ولم يكن معنا فى الحجرة إلا رجل واحد فاقد الوعى من أثر المخدر يرقد على منضدة العمليات مغمض العينين وقد ظهرت أمعاؤه من فتحة كبيرة فى بطنه . . .

لماذا يختلس النظرات ؟ ممن يخاف ؟ من هذا الرجل الغائب عن الوعى أم منى أم من نفسه ؟ أم أنه تعود على أن يخاف . . . وعلى أن يختلس النظر ؟

وسمعته يقول : لماذا أنت سارحة ؟ فيم تفكرين ؟

– فى الرجل .

– أى رجل .

– هذا الرجل الذى فتحنا بطنه .

وضحك . . . ولم أر شفتيه أو أسنانه من تحت القناع الأبيض ، ولكنى سمعت ضحكته . . . ضحكة قصيرة تنم عن السخرية . . .

وسكت . . . وأخذ يعبث بأصابعه فى بطن الرجل باحثاً عن المصران الغليظ . . . وقال بعد لحظة وهو يمسك المصران بالملقط :

– لا فائدة من بتره . . . لقد أكله السرطان وانتشر فى الغشاء البريتونى . . . ونظرت إلى وجه الرجل النائم وأحسست بسكين حاد يمزق صدرى فأطرقت إلى الأرض لا بتلع دموعى فى صمت . . .

وسمعته يضحك ويقول : ألم تتعودى بعد على هذه الآلام .

— أنا لا أتعود أبداً على هذه الآلام .

ونظر إلىّ وسكت . . . وبدأنا نغلق بطن المريض فى صمت . . .
وفجأة سمعته يقول :

— هل تعرفين فيم أفكر ؟

— لا .

— أفكر فيك .

ضغط على حروف الكلمات وثبت عينيه فلم أطرق إلى الأرض ودققت النظر فى عينيه . . .

* * *

نظر إلىّ نظرة طويلة حاول أن يودع فيها كل معانى الرغبة للمرأة . . .
وقال : المرأة بعد أن تتزوج تصبح أكثر حرية من الفتاة العذراء .

ونظرت إليه فى غضب قائلة :

— إن حريتى لا أستمدها من خلايا ضعيفة من خلايا جسدى . . .
وإن قيودى لا تنبع من خوف على عذرية واهية تمزقها خبطة عشواء وتوصلها غرز العلم . . . قيودى أضعها بنفسى حين أريد القيود . . .
وحريتى أمارسها بإرادتى كما أفهم الحرية .

ونظر إلىّ نظرة خبيثة وقال :

— ولماذا إذن تخافين ؟

— من أى شىء ؟

ـ منى ؟

ـ أنت ؟ !

ما الذى يريده منى ؟ أو ما الذى أريده منه ؟ لا أدرى . . . ولكنى أريد أن أعرف شيئاً . . . عن الرجل . . . أو عن نفسى . . . شيئاً لا زال غامضاً . . .

* * *

حملتنى قدمان ثابتان إلى باب بيته . . . وضغطت يدى الواثقة على الجرس . وابتسم ابتسامة عريضة تنم عن الرضى والانتصار وقال :

ـ كنت أظن أنك لن تأتى .

ـ لماذا ؟

ـ كنت أظن أنك لا تثقين فىّ بعد .

ـ أنا لا أثق فيك بعد

وجلست . . . فجاء وجلس إلى جوارى حتى كاد ساقه تلمس ساقى فقمت وجلست أمامه . . .

قال وعلى وجهه ابتسامة ماكرة : لماذا لا تجلسين إلى جوارى ؟

قلت وأنا أنظر مباشرة إلى عينيه : أفضل أن أجلس أمامك .

ـ لماذا ؟

ـ لأرى عينيك .

وسكت وضبطت نظراته وهى تهرب بعيداً عن عينى . . . وفكر لحظة ثم نهض ودخل إلى إحدى الغرف وعاد ومعه زجاجة طويلة وأفرغ كأساً . . .

قلت له : ما هذا ؟

قال : إن عقلك حاد كالسيف !

ونظر إلى ساقى فى شراهة وقال : أريد أن أتخلص من عقلك هذا !

عقلى حاد كالسيف ؟ ! يريد أن يتخلص من عقلى ؟ ! لماذا ؟ !
هل هى معركة ؟ ما الذى يريده هذا الرجل ؟

ورأيته يبتسم ابتسامة غريبة . . . ودققت النظر إلى ابتسامته فشعرت أنه يستعد لمعركة يريد أن يكون هو الفائز فيها . . .

معركة الرجل والمرأة . . . تلك المعركة المزيفة العجيبة . . .

تقف المرأة فيها أمام الرجل وحدها . . . ويقف الرجل فيها أمام المرأة ومن ورائه متاريس من التقاليد والقوانين والأديان . . . وسدود من التاريخ والأحقاب والأجيال . . . وصفوف من الرجال والنساء والأطفال . . . يحملون ألسنة ممدودة حادة كسنان السيوف . . . ويصوبون عيوناً مفتوحة كفوهات البنادق . . . ويفتحون أفواهاً واسعة كالمدافع الرشاشة . . .

يقف الرجل أمام المرأة مستنداً بظهره إلى العالم . . . يقبض بيده على صولجان الحياة . . . يملك الماضى والحاضر والمستقبل . . . يملك الشرف والكرامة والأخلاق وأوسمة معاركه مع النساء . . يملك الدين والدنيا . . . بل يملك تلك النطفة الصغيرة التى قد تنبت فى أحشاء المرأة عقب العراك . . . يعترف بها أو لا يعترف . . . يمنحها اسمه وشرفه أو لا يمنح . . . يحكم عليها بالحياة أو يحكم عليها بالإعدام .

وتقف المرأة أمام الرجل وقد سلبها العالم حريتها وشرفها واسمها وكرامتها

وطبيعتها وإرادتها . . . سلبها الدين والدنيا . . . بل سلبها تلك الثمرة الصغيرة التي تصنعها في أعماقها بدمائها وخلاياها وذرات عقلها وقلبها . . .

ورأيته يبتسم مرة أخرى . . .

لماذا تبتسم هكذا يا رجل ؟هل يمكن أن تسمى هذه معركة ؟

واقترب مني ولفحت أنفاسه الساخنة وجهي وابتعدت — فجاء ورائي زاحفاً على قدميه ويديه ، فوقفت وابتعدت . . .

ما هذا ؟ لماذا ينهار الرجل هكذا أمام رغبته؟ لماذا تتلاشى إرادته بمجرد أن يغلق عليه باب مع امرأة فيرتد حيواناً أعجم يمشي على أربع ؟ أين قوته ؟ أين عضلاته ؟ أين سيطرته وزعامته ؟

ألا ما أضعف الرجل ! لماذا كانت أمي تصنع منه إلهاً ؟

ونظرت إليه . . . إلى عينيه وإلى أصابع يديه وقدميه . . . سلطت عليه كشافي الكهربي ودققت النظر إلى أعماق عقله وقلبه فرأيت أعماقاً خاوية جائعة ورأيت عقلا هزيلا . . . وقلباً مزيفاً . . .

وعرفت لماذا أراد أن يتخلص من عقلي . . . أحسست أنه لص يريد أن يختلس شيئاً من وراء عقلي . . .

ونظرت إليه في ترفع وإشفاق . . . أشفقت عليه فانسحبت من المعركة ترفعاً مني من منازلة شخص أضعف مني .

أحسست أنني أقوى منه . . . بالرغم مما يجر وراءه من متاريس . . .

وبالرغم مما يحوط نفسه به من سدود، وبالرغم مما يدعم نفسه من أسلحة . . .

شعرت أنني لست بحاجة إلى متاريس أو سدود أو أسلحة ، فإن قوتي في

أعماقى . . . فى ذاتى . . .

لو أغلقت علىّ أربعة جدران عالية مع رجل لا أريد أن أعطيه لمسة واحدة من يدى فلن أعطيه . . . وإذا أردت أن أعطى الرجل نفسى فسوف أعطيها له أمام العالم دون تلصص أو اختلاس . . .

إن إرادتى هى التى تحكمنى وليس المكان أو الزمان أو الناس . . .

ورأيته يقترب منى مرة أخرى ووضع يده على يدى فشعرت ببرودة الجليد تزحف على روحى .

لا شىء يجدى أيها الرجل فأبعد يدك الغريبة عنى . . . إن قلبى يقنع عقلى ، وعقلى يقنع جسدى ، ولا سبيل لإقناع أحدهم إلا عن طريق إقناع الآخر .

وأمسكت حقيبتى ووقفت . . .

وسألنى فى دهشة : هل تذهبين ؟

قلت : نعم .

قال فى دهشة شديدة : لماذا ؟

ماذا أقول له ؟ لماذا لا يفهم ؟ هل يمكن له أن يصدق ؟

هل يمكن لرجل أن يصدق أن هناك امرأة تستطيع أن تنفذ إلى داخله وتكتشف أعماقه ؟ هل يمكن له أن يصدق أن هناك امرأة تستطيع أن تخضع جسدها لقلبها وعقلها ؟

أن ينظر فى عينها ولا ترمش ؟ أن يمسك يدها ولا تهتز ؟ أن يغلق عليها معه أربعة جدران فلا تعطيه شيئاً وتتركه وتمضى قائلة : لا . . . لست

الرجل الذى أريد ؟

هل يمكن لرجل أن يدرك أن هناك امرأة يمكن لها أن تفحصه وتختبره . ثم يسقط فى الاختبار ؟

لا . . . لقد تعود الرجل على أنه هو وحده الذى يفحص المرأة ويختبرها . . . هو وحده الذى له حق الاختبار والاختيار . . .

أما المرأة فليس لها إلا أن تقبل الرجل الذى يختارها . . . رجل واحد أوحد . . . ويعيش حياته كلها يقنع نفسه أنه هو هذا الواحد الأوحد . . .

أليست المرأة مثل الرجل أيها الطبيب العبقرى الفذ ؟ هل نسيت العلم؟ أم أن عقلك منفصل عن جسدك ؟

ولكن الغرور يصنع من الرجل مخلوقاً غبيا . . .

* * *

المجتمع يرشقنى بنظرات حادة كالخناجر . . . ويمد فى وجهى ألسنة سليطة حامية مثل كرابيج الخيول . . .

كيف تعيش امرأة وحدها بلا رجل ؟ لماذا تخرج ؟ لماذا تدخل ؟! لماذا تبتسم ؟ لماذا تتنفس ؟ لماذا تستنشق الهواء؟ لماذا تتأمل القمر ؟ لماذا ترفع رأسها ؟ لماذا تفتح عينيها ؟ لماذا تدب على الأرض فى تشامخ وثقة ؟ ألا تخجل ؟ ألا تحتمى فى رجل ؟

هاجمنى الأهل والأقارب . . . وتبارى فى قذفى الأصدقاء والأحباء . . . ووقفت فى مهب الرياح أفكر . . .

منذ طفولتى وأنا أخوض سلسلة من المعارك لا تنتهى . . . وهأنذى

الآن إزاء معركة جديدة . . . معركة مع المجتمع . . . المجتمع الكبير . . . ملايين الناس ومن أمامهم ومن خلفهم ملايين الملايين . . .

لماذا لا تسير الأمور فى الحياة كما ينبغى لها أن تسير ؟ لماذا لا يكون هناك إدراك وفهم للحقيقة وعدالة ؟ لماذا لا تعترف الأمهات بأن البنت كالولد ؟ لماذا لا يعترف الرجل بأن المرأة ند وشريك ؟ لماذا لا يعترف المجتمع بحق المرأة فى ممارسة الحياة الطبيعية كعقل وجسم ؟

لماذا يضيعون عمرى فى هذه المعارك ؟

وضعت رأسى بين يدى وجلست أفكر . . . هل أخوض المعركة مع المجتمع الكبير أم أخضع له وأنساق وراءه ؟ وأحنى له رأسى وأغلق على نفسى جدران بيتى وأحتمى فى رجل ككل النساء ؟

لا . . . مستحيل ! لن أخضع للمجتمع . . . ولن أنساق وراءه . . . ولن أحنى له رأسى . . . ولن أحتمى فى رجل !

سأخوض المعركة وسأحتمى فى نفسى . . . فى ذاتى . . . فى قوتى . . . فى علمى . . . فى نجاحى . . .

* * *

تركت كل شىء . . . تركت الأهل والأصدقاء . . . تركت الرجال والنساء . . . تركت الطعام والشراب . . . تركت النوم والأحلام . . . تركت القمر والنجوم . . . تركت الهواء والماء . . . وارتديت معطفى الأبيض وعلقت السماعة فى رقبتى و وقفت فى عيادتى . . .

قررت أن أناضل . . . أن أكافح . . . أن أعرق وأغرق فى عرق . . .
قررت أن أقف أمام المجتمع على قدمين من حديد . . .

* * *

دخلت علىّ عيادتى وجسمها الصغير يرتعد من الهلع وملامحها البريئة الطفلة تلهث وتتلفت خلفها فى فزع . . . ونظراتها الحائرة المستغيثة تتطلع إلى عينى فى استجداء واسترحام .

سألتها : ماذا بك يا طفلتى الصغيرة ؟

فارتجفت كالمحمومة وأجهشت بالبكاء . . . واستطعت أن ألتقط من بين شفتيها المرتجفتين بضع كلمات ممزقة مبتورة .

خدعنى . . . ذئب . . . الصعيد . . . سيقتلوننى . . . ليس لى أحد . . . أنقذينى . . . يا دكتورة !

لم يكن معها منديل فأعطيتها منديلى . . . وانتظرتها حتى أفرغت كل ما فى قلبها الصغير من دموع وجففت عينيها وتشبثت نظراتها الفزعة بشفتى تتلهف على تلك الكلمة الصغيرة التى سأنطق بها فأمنحها الحياة أو أحكم عليها بالموت . . .

ونظرت إليها . . . كانت طفلة تبلغ الرابعة أو الخامسة عشر لا تزيد . . . وكانت بريئة طاهرة ضعيفة بلا معين ولا نصير . . . ولم يكن لى مجال للاختيار .

كيف يمكن لى أن أتخلى عنها وليس لها أحد سواى ؟ كيف يمكن لى أن أحكم عليها بالإعدام وأنا أومن ببراءتها واستحقاقها الحياة . . . كيف

أترك رقبتها تحت سكين أبيها وأنا أعلم أن أباها وأمها وأخاها وعمها هم أصحاب الخطيئة . . . كيف أعاقبها وحدها وأنا أعلم أن المجتمع كله مشترك فى الجريمة . . . كيف أعجب لوقوعها فى الخطأ وأنا أعلم أن كل الناس يخطئون . . . كيف لا أحميها وهى الضحية ، والمجتمع يحمى المجرم الحقيقى . . . كيف أستنكر سقوطها فى الخطأ وأنا نفسى سقطت فى الخطأ . . . أنا التى عشت ضعف ما عاشت ورأيت أضعاف ما رأت وتعلمت أضعاف ما تعلمت . . . كيف لا أبرئها وقد برأت نفسى من قبل ؟

لا بد لى أن أنقذ الطفلة المسكينة ! أنقذها من براثن التقاليد والقوانين وأنتشلها من بين أنياب الوحوش والأفاعى والجرذان والصراصير . . .

سأنقذها . . . وليصلبونى إذا عن لهم أن يصلبوا . . . وليرجمونى بالحجارة إذا شاء لهم أن يرجموا . . . وليسوقونى إلى المشنقة إذا لاح لهم أن يسوقوا . . . ولكنى سأقبل مصيرى وألقى حتفى وأنا راضية النفس مستريحة الضمير .

* * *

كل مآسى المجتمع دخلت عيادتى . . . كل نتائج التخفى والخداع استلقت أمامى على منضدة الكشف . . . الحقائق المرة التى ينكرها الناس جاءت وتمددت تحت يدى على منضدة العمليات . . .

وأشفقت على الناس . . .

أليس هذا الرجل الذى يذبح أخته المخطئة هو نفسه الذى يخطىء مع أخوات الرجال ؟

أليس هذا الذئب الذى يخدع الطفلة البريئة هو نفسه الأب الذى يحبس ابنته ويقيدها ؟

أليس هذا الرجل الذى يخون زوجته هو نفسه الزوج الذى يقتل زوجته دفاعاً عن شرفه ؟

أليست هذه الزوجة التى تخون زوجها هى نفسها المرأة التى تطلق الشائعات على النساء ؟

أليس هذا المجتمع الذى يذيع أغانى الحب والغرام هو نفسه المجتمع الذى ينصب المشنقة لكل من وقع فى الحب والغرام ؟

أشفقت على الناس . . . كل الناس . . . فهم الضحايا وهم أيضاً الجناة .

* * *

امتلأت عيادتى بالرجال والنساء والأطفال . . . وامتلأت خزينتى بالذهب والمال . . . وأصبح اسمى لامعاً كأسماء النجوم . . . وأصبح رأيى ينشر على الناس كأنه دستور . . .

ظهر لى من الأغراب أقارب . . . وتحول الأعداء إلى أصدقاء وأحباء . . . وتكاثر حولى الرجال كالذباب . . . وانقلب الهجوم إلى تأييد ودفاع . . . وامتلأ درج مكتبى بالتوصيات والرجوات والاستعطافات .

وجلست على قمتى العالية أنظر تحت قدمى إلى المجتمع . . .

وابتسمت له فى إشفاق . . . المجتمع! ذلك المارد الجبار الذى يقبض على أعناق النساء ويلقى بهن فى المطابخ أو المجازر أو القبور أو الوحل! ها هو المجتمع ملقى فى درج مكتبى ضعيفاً منافقاً مسترحماً ! ألا ما أصغر المجتمع الكبير !

جلست إلى مكتبى بعد أن خرج آخر مريض وذهب التمورجى إلى بيته . . .

جلست وحدى ونظرت إلى الساعة . . . كانت لا تزال التاسعة مساء . . . أول الليل . . . والحياة على أشدها فى الطريق . . .

ووقفت وأخذت أتمشى فى الحجرة حائرة . . . ووصلت إلى النافذة فلفحت وجهى نسمة الليل الدافئة الحالمة . . .

ونظرت إلى الشارع فرأيت الناس يسيرون متلاصقين يتكلمون ويعبسون ويضحكون . . . ونظرت إلى نفسى فوجدت أننى أطل عليهم من فوق . . . من مكان عال حقاً . . . ولكن بعيد . . .

وأحسست ببرودة شديدة . . . كأننى أجلس على قمة عالية يكسوها الجليد . . . أنظر فوق رأسى . فلا أرى إلا السحب والسماء . . . وأنظر تحت قدمى فأرى مسافة طويلة تبعدنى عن الوديان السهلة المنبسطة . . . عن السهول المنخفضة الدافئة بأنفاس البشر وأجسادهم . . . وأرى الناس وهم يلوحون لى بأيديهم من بعيد ولكن أحداً لا يصل إلىّ . . . ويعزفون لى الألحان ، ولكن الصوت لا يصل إلى أذنى . . . ويلقون لى بالورود ولكن العبير يضيع فى الهواء . . .

ووضعت رأسي على سور النافذة . . .

ما أبرد الوحدة ! ما أقسى السكون ! ماذا أفعل ؟ هل أقفز من فوق قمتي ؟ ولكن عنقي سيدك في الأرض دكًّا . . .

هل أعود أدراجي ؟ ولكن عمري سينقضي ولن أبلغ ما أريد . . .

انتهت المعارك وآن لى أن أجلس بلاحراك . . .

آه . . . ما أفظع الفراغ . !

لماذا قفزت فوق سلم حياتي ؟ لماذا لم أرشف كأس حياتي رشفة رشفة ؟ لماذا لم أقضم عمرى قضمة قضمة ؟ لماذا جريت شوطى قفزاً ولهثاً؟ لماذا تركت مكانى فى الصف وقفزت فوق الصفوف ؟

إن صفوف الناس تزحف فى الطريق . . . تزحف كالسلحفاة ، ولكنها ستصل يوماً . . . وإن الحياة تسير إلى الإمام . . . تسير ببطء ولكنها ستبلغ حتماً ما تريد . . . لقد انقضت ملايين السنين حتى أصبحت الهيولة هواء . . . وحتى أصبح الهواء ماء وحتى أصبح الماء جماداً . . . وانقضت ملايين أخرى حتى أصبح الجماد أميباً تتحرك وحتى أصبح للأميبا زوائد حية . . . وانقضت ملايين أخرى لتصبح الزوائد زعانف ثم لتصبح الزعانف أجنحة ثم لتصبح الأجنحة أذرعاً وذيلا . . . وانقضت ملايين أخرى ليصبح للأذرع أصابع ولينقرض الذيل ويقف القرد على قدمين اثنتين . . .

لماذا حزنت فى طفولتى لأنى لا أطير فى الجو كالحمامة ؟ لماذا ضقت بتلك الأيام الدامية التى تلوث النساء كل ثلاثين يوماً ؟ لماذا تمردت على

التاريخ والقوانين والتقاليد ؟

لماذا ثرت لأن العلم لم يكتشف سر البروتريلازم الحى ؟

سوف تنقضى السنون ويغير الزمن التاريخ والقوانين والتقاليد . . .

سوف تنقضى السنون وتكتشف الحياة طريقة نظيفة جميلة تنضج بها البنات الصغار . . سوف تنقضى السنون ويخف جسم الإنسان فيطير . . . سوف تنقضى السنون ويهتدى العلم إلى سر البروتربلازم الحى . . . إن ركب الزمن يسير . . . وإن الحياة تعثر كل يوم على شيء جديد . لماذا استبطأت الزمن فنهشت تروسه أوصال عمرى ؟

لماذا تعجلت الحياة فلفظتنى عجلاتها وقذفت بى إلى فوق . . . فوق . . . إلى قمة عالية حقاً ولكن الوحدة تغلفها ويكسوها الجليد . . .

آه . . .

ما أقسى الصمت ؟ وما أرق أصوات البشر ولو كانت ضجيجاً . . .

ما أبرد الوحدة ؟ وما أدفأ أنفاس الناس ولو كانت مريضة . .

ما أقبح السكون ؟ وما أجمل الحركة ولو كانت معارك . . .

ما أفظع الفراغ ؟ وما أحلى التفكير والانشغال حتى بالفشل . . .

* * *

حل الفراغ بأعماقى فوجد العملاق مكاناً ليتحرك . . . تلاشى الزحام داخل نفسى ففرد العملاق ذراعيه وساقيه وبدأ يتثاءب ويتمطى . . .

ماذا تريد ؟ تمردت على كل شيء ورفضت حياة النساء . . . سعيت وراء الحقيقة فقادتك الحقيقة إلى أن تغلق على نفسك جدران نفسك . . .

والرجال . . . قلبت فيهم وفتشت وبعثرت ثم مصمصت شفتيك في ازدراء . . .

ماذا تريد ؟ رجلا يعيش في خيالك ولا يمشي على الأرض ؟ . . .

رجلا يتكلم ويتنفس ويفكر وليس له جسد الرجال ؟ أيمكن لك أن تنسى ؟ هذه الأجساد الملقاة على مناضد التشريح ؟ هذا الشخير الكئيب القريب من وسادتك ؟ هذه النظرات اليائسة العاجزة المسكينة ؟ . . . هذا الموت الذي يحصد الأطفال ؟

ألا تغلق عليك باب زنزانتك وتنام مرة أخرى ؟

لكن الليل أصبح طويلا . . . وأوهام الليل عادت تعشعش حول السرير . . . والسرير أصبح واسعاً بارداً مخيفاً . . . والعملاق لا يريد أن ينام . . . والنجاح ليس له طعم . . . والشهرة ليس لها معنى . . . والمال مجرد أوراق ميتة لا تدب فيها الحياة . . .

* * *

٦

تحت بين الخطابات والأوراق بطاقة صغيرة . . . مددت لها يدى والتقطتها . . . ووجدت أنها دعوة لى من إحدى الهيئات لحضور حفل عشاء . . . نهضت بسرعة وركبت عربتى وانطلقت إلى مكان الحفل . . .

دخلت إلى القاعة الفسيحة . . . ورأيت الأنوار تتلألأ براقة والمدعوين يرتدون ملابس مكوية منشاة . . . ووجوهاً رسمية مشدودة .

وجابت نظراتى فى المكان الواسع وبين الناس الكثيرين كأنما تبحث عن شىء . . . ورأيت الرجال يختلسون النظر إلى النساء . . . والنساء يختلسن النظر إلى الرجال . . . ومشيت بين المدعويين أهز رأسى لاهتزازات رؤوسهم كما تهز الدمية رأسها من فوق الزنبرك .

وفجأة ساد الهرج بين المدعوين ورأيتهم يندفعون ويتدافعون ويلتفون حول رجل قصير بدين . . . الكل يريد أن يمشى إلى جواره . . . الكل يريد أن يظهر فى الصورة معه . . . الكل يريد أن يظهر على شاشة التليفزيون بالقرب منه . . . الكل يريد أن يذكره بوجهه وصوته ووجوده . . .

تركت الزحام ووقفت فى ركن هادىء . . . والتفت إلى جانبى فرأيت رجلا واقفاً . . . رجلا عاديا . . . يلبس ملابس عادية . . . ويقف وقفة عادية . . . ليس قصيراً وليس طويلا . . . ليس نحيلا وليس

بديناً . . . ولكنى أحسست أن شيئاً غير عادى يحيط به . . . لعل ملامحه كانت طبيعية مريحة بخلاف تلك الملامح المشدودة المنشاة . . . لعله كان أنيقاً بالرغم من بساطته . . . لعله كان مترفعاً عن الالتفاف حول ذلك الرجل . . . لعله . . . لعله . . .

والتفت ناحيتى . . . والتقطت عيناه عينى . . . وشعرت بهزة غامضة فى أعماقى . . . وابتسمت عيناه ابتسامة خفيفة غامضة . . .

وقال بصوت فيه الكثير من حركة عينيه :

– إنهم يجرون خلفه . . .

وسألته فى بساطة : لماذا ؟

قال : إنه رئيس الهيئة.

وظل يتأمل الناس لحظات وفى عينيه نفس الابتسامة الخفيفة الغامضة . . . أهى نظرة إشفاق أم سخرية ؟ أهى نظرة احترام أم استخفاف ؟ لم أعرف . . .

والتفت ناحيتى مرة أخرى . . . ونظر فى عينى مدققاً ثم قدم لى نفسه فى بساطة وطبيعية فقدمت له نفسى على نحو ما فعل .

وقال وهو يشير إلى مائدة صغيرة منفردة : لنجلس إلى هذه . . . إنها أبعد مائدة عن رئيس الهيئة . . .

وضحك وضحكت . . . وسرنا معاً إلى المائدة وجلسنا متقابلين . . . ونظر إلى أطباق الطعام ثم نظر إلىّ وقال باسماً : أنا لا أجيد تقاليد الحفلات . هل أساعدك ؟

ماذا فى عينى هذا الرجل ؟

وقلت له : لا . . . أشكرك . . . أنا لا أحب تقاليد الحفلات . . .

وبدأنا نأكل فى صمت . . . وقال بعد لحظات : هل تجدين وقتاً لسماع الموسيقى ؟

فقلت : قليلا . . . لم أسمع لحنك الأخير ولكنى قرأت عن نجاحه وإعجاب الناس به .

وتاهت نظراته بعيداً عنى ثم نظر إلىّ وقال : لست راضياً عنه .

قلت : ولكن الجمهور راض .

قال : الفنان لا يستريح إلا اذا رضى هو .

قلت : لماذا تذيع لحناً لست راضياً عنه كل الرضا .

قال : هذا ما يعذبنى . . . إن ما يرضينى أنا لا يفهمه الجمهور .

قلت : ولماذا لا تؤلف الألحان التى ترضيك بصرف النظر عن الجمهور .

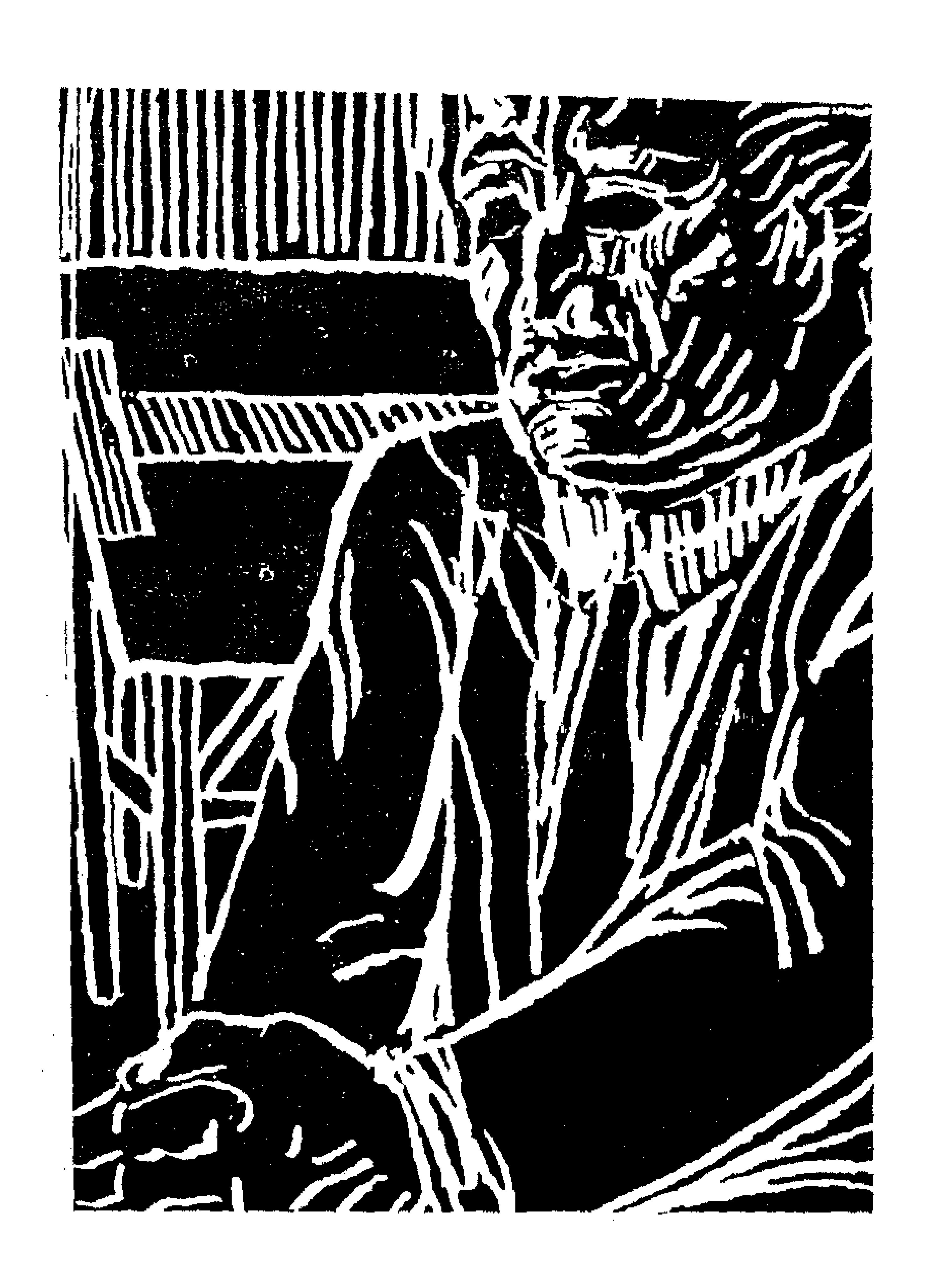
قال : ومن يسمعها .

قلت : القليلون . . . واحد فقط . . . ولكن هذا أفضل من إرضاء الجمهور بأى شكل .

قال : هذا ما أفعله أحياناً .

وأطرق إلى الأرض لحظة كأنما يفكر ثم رفع إلىّ عينيه العميقتين وقال :

- تكلمنا عن الموسيقى كثيراً وأنت لم لا تتكلمين عن الطب ؟



قلت: إن الحديث عن الطب لا يناسب جو الحفلات . . .

قال فى دهشة لماذا ؟

قلت: إنه حديث عن الألم والمرض . . . عن وجه الحياة الحزين .

قال : لا . . . إن آلامه عظيمة حقاً ، ولكن سعادته أعظم . . . إنى أتصور سعادتك حين تنقذين إنساناً من الموت . . . إنها أسعد لحظة فى حياة الطبيب . . .

قلت : وما هى أسعد لحظة فى حياة الفنان . . . حياتك ؟

قال : حين أخلق لحناً يرضينى . . . أو حين أسمع لحناً رائعاً . . .

ونظر إلىّ نظرة عميقة وقال باسماً : أو حين أعثر على صديق جديد . . .

حاولت أن أتفادى عينيه . . .

لكنه لم يدعنى أهرب منهما ... ورأيت نظراته تحوطنى وتحاصرنى فى قوة وثقة . .. فأحسست بقلبى يخفق خفقة واحدة هائلة .

* * *

تقلبت فى فراشى مؤرقة . . . أصبح السرير خشناً مليئاً بالحصى والمسامير . . .

تركت الفراش وأخذت أمشى فى الحجرة . . . أحسست أن الحجرة ضيقة كالزنزانة والجو خانق كحبل المشنقة . .

خرجت إلى الشرفة ووقفت لكنى لم أطق الوقوف . . . جلست . . لكن لم أطق الجلوس . . . فوقفت ومشيت إلى حجرة الطعام . . . حاولت

أن آكل شيئاً. لكن مذاق الطعام كان متغيراً غريباً . كأنه مصنوع من المطاط . . .

أصبحت لا أحتمل أى شىء . . . لا الجلوس ولا الوقوف ولا المشى ولا النوم . . . أصبحت لا أجد طعماً لأى شىء . . . لا الطعام ولا الماء ولا الهواء . . .

والأشياء التى كانت تملأ وقتى أصبحت تافهة فارغة . . . واهتماماتى التى كانت تبتلع نهارى ابتلعها شعورى الجديد . . .

سؤال واحد يجوب آفاق عقلى وروحى . . .

هل أطلبه ؟ هل أكلمه ؟ هل أبدأ أنا الحديث ؟

ونظرت إلى الآلة الصغيرة . . . تلك الكتلة المربعة السوداء التى كنت أنقلها بيد واحدة من مكان إلى مكان . . . وأخرسها بأصبع واحد حين أريد . . . تلك الكتلة أصبحت الآن شيئاً رهيباً . . . جهازاً سحرياً خطيراً . . . أنظر إليها من بعيد فى حذر . . . وأقترب منها فى وجل . . . وألمسها بأصبعى فتمس عقلى وقلبى كهربة عنيفة كأنما مست يدى سلكاً كهربياً عارياً . . .

أتتغير الأشياء إلى هذا الحد حين تتغير نظرتنا إليها ؟

وجلست إلى جوار التليفون أفكر . . . وتذكرت كلماته حين كتب لى رقمه ، قال : اطلبينى حين تريدين. . .

إنه يحترم إرادتى . . . لماذا لا أحترم إرادتى إذن ؟

لقد كنت أحترم إرادتى دائماً . . . أليست إرادتى هى التى تحكمنى

وليست إرادة الغير ؟ . . . ألم يحاول رجل أن يمتلك حياتى فلم أملكه شيئاً لأنى لم أكن أريد ؟ . . . ألم يحاول رجل أن يعطينى حياته فلم آخذ شيئاً لأنى لم أكن أريد ؟ أليست إرادتى هى التى تحدد عطائى وأخذى ؟

وأنا أريد أن أراه الآن . . . نعم أريد . . .

ودارت أصابعى الثابتة فى ثقوب القرص ست دورات . . . وجاءنى رنين عال متواصل وفجأة انقطع الرنين فانقطع الدم من قلبى وسمعت صوته العميق يقول : ألو

لم أفكر فى أساليب الدلال . . . لم ألجأ إلى ما تلجأ إليه النساء من لف ودوران . . . لم أتظاهر بأننى أسأل عليه لمجرد السؤال . . . لم أضع البرقع على وجهى وأغمز له من وراء الباب . . . لم أصطنع السذاجة والغباء . . .

قلت له فى صراحة وصدق : أريد أن أراك .

– متى ؟

– الآن .

– أين ؟

– أى مكان . . . لا أهمية للمكان .

– أين أنت الآن ؟

– فى بيتى .

– سأكون عندك بعد قليل .

تهاويت على المقعد كأنما انسحبت منى الحياة . . . وتلفت حولى أنظر إلى أثاث بيتى وجدرانه كأنما أنظر إليها لأول مرة .

ودب النشاط والحماس فى كيانى فجأة . . .

هذه الصورة يجب أن أنقلها هنا . . . هذا الكرسى يجب أن أضعه هناك . . . هذه الزهرية يجب أن تمتلىء بالورد . . . وأرسلت الخادم ليشترى باقة من الورد . . . ولبست الفوطة ووقفت فى المطبخ . . . وصنعت كعكة بالبيض واللبن وضعتها فى الفرن . . . وصنعت قالباً من الجيلى وضعته فى الثلاجة . . .

أخذت أجرى كالطفلة الصغيرة من الفرن إلى الثلاجة . . . ومن الثلاجة إلى زهرية الورد ومن زهرية الورد إلى صورة الحائط . . . ومن صورة الحائط إلى الفرن . . .

تصبب العرق من وجهى وسال إلى فمى ، لكنى وجدت له طعماً جديداً لذيذاً . . . ارتفع صدرى وانخفض فى أنفاس لاهثة متقطعة كجواد سباق لكنى نسيت أن لى رئتين . . . وضعت يدى داخل الفرن ولم أشعر بلسع النار كأنما نسيت خلايا مخى ألم الحرق . . .

التوى ظهرى من الانحناء تحت الموائد والانثناء فوق الرفوف كأنما تلاشت عظام عمودى الفقرى . . . ثم دق جرس الباب دقة واحدة رنت فى قلبى رنيناً غريباً رهيباً كأنى أسمع صوت الجرس لأول مرة فى حياتى . . .

* * *

جلس فى حجرة الاستقبال وعيناه العميقتان الباسمتان أبداً تتجولان بين صور الحائط . وملامحه الجادة الرصينة تتلفت حوله فى استطلاع واهتمام.. . وأنا أجلس على غير بعد منه أحاول أن أخفى ذلك الشعور العجيب الذى يهز أعماقى . . .وأحاول أن أكتم الفرحة الغريبة التى تملأ قلبى ... وأحاول أن أتجاهل تلك الرجفة العنيفة التى أصابت روحى . . .

ولكن هيهات ... عيناى تفضحانى بنظراتهما المتعثرة .. . وشفتاى تخونانى برعشتهما المضطربة وصوتى يكشفنى بنبرته الوجلة. . . ورأيته يبتسم فى رقة ويقول :

ــ بيتك جميل .. . بيت فنانة . . .

قلت : أنا أحب الفن ولكن الطب يستولى على كل وقتى . . .

قال : إن للطب فن فى حد ذاته . . .

ونظر إلىّ . . .

ماذا فى عينى هذا الرجل ؟ بحر عميق ليس له قرار .. . ؟

وقلت له : أتشرب فنجاناً من الشاى ؟ فهز رأسه فى إيماءة خفيفة وهو يبتسم فتركته وذهبت أعد الشاى . . . ونظر إلى الخادم فى دهشة وريبة وهو يرانى لأول مرة منذ دخل بيتى وأنا أقف فى المطبخ أعمل شيئاً . . .

وفتحت الفرن وأخرجت الكعكة وقطعت منها قطعة وضعتها فى طبق إلى جوار الشاى ــ وعدت إليه ــ ونظر إلى الكعكة الطرية وقد ظهر أنها

لم تنضج بعد . وابتسم .. . لكنى لم أستطع أن أقاوم الضحك فضحكت وضحك معى .. . وأخذنا نضحك طويلا كأننا نريد أن نضحك إلى الأبد .. . ومزقت الضحكات الطبيعية الطلقة ذلك الستار الرقيق من الحرج الذى كان يفصل بيننا و رأيته ينظر فى عينى نظرة عميقة رصينة وقال : لم أر امرأة مثلك أبداً . ..

قلت : لماذا ؟ قال : النساء دائماً يخفين مشاعرهن أو ملامحهن بستائر كثيفة مصنوعة . .. أما أنت فلا تخفين شيئاً . حتى وجهك لم تضعى عليه المساحيق . . .

قلت : أنا أحب حقيقتى أثق فيها ولا أستطيع إخفاءها .

قال : أنا أحب المرأة الصريحة الصادقة .

قلت : كثير من الرجال يعتقدون أن الصراحة تفسد أنوثة المرأة . . . إنهم يحبون المرأة المتخفية المراوغة فيمارسون معها غريزة المطاردة والصيد . . .

قال : إنهم لا يفهمون من المرأة شيئاً سوى أنها متعة حسية .

قلت : قليل من الرجال من يفهم أنوثة المرأة الذكية ذات الشخصية القوية.

قال : أعتقد أن المرأة مهما بلغ جمال جسمها فإنها تفتقد الأنوثة إذا كانت غبية أو ضعيفة الشخصية أو متصنعة أو كاذبة .

قلت : وماذا عن الرجولة ؟

قال : معظم النساء لايعرفن عن الرجولة شيئاً سوى أنها كفاءة الرجل الجنسية.

قلت : الرجل فى رأيى يفتقد الرجولة مهما بلغت كفاءته الجنسية إذا كان غبياً أو ضعيف الشخصية أو متصنعاً أو كاذباً .

ونظر إلىّ طويلا وقال : أين كنت كل هذه السنين ؟

ــ كنت مشغولة بالبحث .

ــ عن أى شىء ؟

ــ عن كل شىء .

ــ ألم تنالى ما تريدين ؟

ــ الذى أريده لم أنله أبداً .

ــ نحن لا نحصل على كل شىء فى الحياة .

ــ عشت فى حرمان دائم .

ــ الحرمان يجعل أوتار أعصابنا مشدودة نستطيع عليها العزف . أما الإشباع فيجعلها ترتخى فلا تخرج لحناً .

كان يكلمنى . . . وكان ينظر فى عينى دائماً . . . لم أره مرة ينظر إلى ساقى . . . لم أره مرة يختلس النظر إلى صدرى . . . وكنا وحدنا . . . والأربعة جدران مغلقة علينا . . . لكنى لم أشعر أنه يرى الجدران أو يحس بها . . . كان يحلق فى سماء عالية . . . وكنت أجلس إلى جواره بلحمى ودمى . . . لكنى لم أحس أنه يخاطب جسدى . . . كان يخاطب عقلى وقلبى . . .

وأغمضت عينى فى راحة واطمئنان . . .

* * *

جلست إلى جواره أنظر إلى أصابعه الطويلة الذكية وهى تمسك بريشة الكمان فى ثقة وبراعة. والأنغام تترامى إلى أذنى عالية هابطة. . . فرحة حزينة . . . صاخبة هامسة . . . ضاحكة باكية . . . وقلبى معها دقة بدقة . . . يعلو ويهبط . . . ويرقص ويبكى . . . ويئن ويضحك . . . وتوقفت أصابعه عن العزف . . . وسألنى . . .

— ما رأيك ؟

— رائع .

— وضعته الآن فقط .

— فيه بكاء وفيه فرح .

— هذه حياتنا .

— ما أجمل الفن . . . ليتنى تعلمت الموسيقى لأخلق هذه الألحان .

— ليتنى تعلمت الطب لأشفى كل الناس .

— الطب يشفى فقط ولكن الفن يشفى ويخلق .

— يمكنك أن تخلق فى الطب جديداً . . . هناك أمراض ليس لها علاج حتى الآن .

ونظرت إليه . . .

— أين كنت كل هذه السنين ؟

— كنت أبحث عنك .

— كانت لك تجارب ؟

— بالطبع .

ــ وأنت ؟

ــ بالطبع .

ــ بالتجربة وحدها نتعلم .

وسمعت صوته العميق يناديني . . .وسألني : ماذا في عينيك ؟

ووقف . . . فوقفت. . . وقفنا متواجهين تفصلنا خطوة واحدة . . .

وسمعته يقول بصوته الدافئ : أحبك . فشعرت بكل شيء في كياني يغوص إلى أعمق بعد من نفسي ثم يرتفع فجأة إلى أعلى قمة منها . . . وابتسم . . . وقطع الخطوة التي بيننا في لحظة وأخذني بين ذراعيه . . . ووضعت رأسي على صدره . . .

ــ لم هذه الدموع ؟

ــ أحبك .

وضمني إليه . . . ضمني حتى ضاع كياني في كيانه ، وتلاشى وجوده في وجودي . . .

* * *

دق جرس التليفون . . . هبط بي رنينه العالي من السماء إلى الأرض . . .

فوقفت على قدمي وسرت إليه ورفعت المسماع : ألو .

وجاءني صوت ملهوف يقول : أنقذيه من الموت يا دكتورة . إنه يموت . . .

أمسكت المسماع في يدي ونظرت إليه . . . وقال على الفور :

ــ مريض ؟

— نعم .

— ستذهبين ؟

— فوراً .

— هل آتى معك ؟

— إذا شئت .

ركبت إلى جواره فى عربته وانطلق بسرعة مذهلة . . . ووصلنا بيت المريض . . . ولم يكن بيتاً . وإنما كان حجرة ضيقة رطبة فى بدروم مظلم أسفل إحدى العمارات الكبيرة . . . ورأيت شاباً نحيلا يرقد على مرتبة قذرة على البلاط وإلى جواره بركة صغيرة من الدماء . . . وضعت السماعة على صدره وعرفت أنه مريض بالدرن الرئوى ، وأن حياته تتوقف على زجاجة دم . . . وتلفت حولى . . . ورأيته إلى جوارى وقال على الفور :

— هل تريدين شيئاً ؟

— زجاجة دم الآن من مركز الإسعاف .

وجرى إلى الباب وهو يقول :

— سأذهب بالعربة وأحضرها حالا .

وجلست على صندوق خشبى إلى جوار المريض وحقنته ببعض الدواء . . . وأعددت أدوات نقل الدم . . . وكشفت عن فصيلة دمه . . .

ثم رأيته يدخل مندفعاً وفى يده زجاجة دم . . . ونهضت مسرعة . . . وأمسك ذراع المريض . . . وظل إلى جوارى يساعدنى حتى أدخلت الإبرة

في الوريد وثبتها . . .

ونظرت إليه . . . ورأيت العرق يتصبب من وجهه . . . ورأيت رأسه قريباً من رأس المريض .

وهمست في أذنه :

ــ ابتعد أرجوك . . .

ــ لماذا ؟

ــ قد تنتقل العدوى إليك .

ــ وأنت ؟

ــ هذا واجبي . . . على أن أقوم به تحت أسوأ الظروف . . .

ونظر إلىّ في صمت . . . ولم يتحرك من مكانه حتى انتهيت من تركيب جهاز نقل الدم . . .

جلسنا متجاورين على الصندوق الخشبي نرقب قطرات الدم وهي تتساقط في لهفة وسرعة من الزجاجة إلى الخرطوم الطويل إلى وريد المريض . . . وكأنما دبت الحياة في تلك القطرات الحمراء القانية فشاركتنا لهفتنا على إنقاذ المريض . . .

ونظرت إليه وابتسمت . . . فابتسم في رقة وهو صامت . . .

وقلت : لو لم تكن معي لما استطعت أن أفعل كل هذا وحدي .

قال : بل كنت تستطيعين .

وأشار إلى زجاجة الدم وقال :

ــ لم يبق بها إلا القليل .

ونظرت إلى عيني المريض فرأيت نظراته أقل ذهولا وأكثر تركيزاً . . . وأنفاسه أقل سرعة وأكثر انتظاماً . . .

ونزعت الإبرة من الوريد . . . وفتح المريض شفتيه اليابستين وقال بصوت ضعيف وهو ينظر إلينا : أشكركم .

ودس يده في إعياء تحت الوسادة القذرة ومد لى ذراعه النحيل وقد قبضت على جنيه . . .

لا أدرى ماذا حدث لى في تلك اللحظة . . . فقد دارت الدنيا بى حتى كدت أفقد الوعى . . . ولم أشعر إلا بيد حانية تسندنى . . . وقال لى فى حنان : هل تشعرين بتعب ؟

ونظرت إليه . . . ولم أدر ماذا أقول له . . . فلم أكن أشعر بتعب ولكنى كنت أشعر بخجل شديد وعار . . .

هل استنكرت ذلك الموقف المزرى العجيب ؟ لا أدرى . . . ولكنى شعرت فى تلك اللحظة أنه ليس من الشرف ولا العدل ولا المنطق أن يتلقى الطبيب أجراً من المريض . . .

كيف كنت أمد يدى كل تلك السنين الماضية وآخذ من المرضى مالا . . . أى مال ؟ . . . كيف كنت أبيع فى عيادتى الصحة للناس ؟ كيف ملأت خزينتى من عرق المرضى ودمائهم ؟

آه . . .

وأحسست بيده الحانية تسندنى وتجلسنى فى العربة . . . وانطلق بى إلى البيت . . .

وقال باسماً بعد أن وضعنى فى السرير . . .

ــ هل أستدعى طبيباً ؟

وأحسست بدموع ساخنة على وجهى . . . وأمسك يدى فى رقة وقال :

ــ لم هذه الدموع ؟

ــ لم أكن أفهم شيئاً . .

ــ لماذا ؟

ــ كنت عمياء . . .

ــ لماذا ؟

ــ لم أكن أرى إلا نفسى .

ــ لماذا ؟

ــ كانت المعارك تحجب عنى الحقيقة .

ــ أية معارك ؟

ــ معارك الناس جميعاً ابتداء من أمى .

ــ ألم تحققى شيئاً ؟

ــ لا . . .

لا . . . لم أحقق شيئاً . . . فليس الطب هو أن أشخص الداء وأصف الدواء وأقبض الثمن . . . وليس النجاح هو أن تمتلىء عيادتى بالناس وخزينتى بالذهب ويلمع اسمى كالنجوم . . .

ليس الطب سلعة . . . وليس النجاح مالاً وشهرة . . .

الطب هو أن أمنح الصحة لكل من يحتاج الصحة بلا قيود

ولا شروط . . . والنجاح هو أن أمنح من عندى للآخرين . . .

ثلاثون عاماً مضت من عمرى دون أن أعرف الحقيقة . . . دون أن أفهم الحياة . . . دون أن أحقق ذاتى . . . وكيف كنت أحققها وأنا لا أفكر إلا فى أن آخذ وآخذ وتحقيق الذات لا يكون إلا بأن أعطى وأعطى . . .

ولكن كيف كان يمكننى أن أعطى شيئاً ليس له عندى وجود ؟

ونظر إلىّ فى حنان وقال :

ــ حاولى أن تنامى .

ــ لا أستطيع .

ــ إنه سيشفى بعد زجاجة الدم .

ــ لن يشفى أبداً .

ــ إنك لم تأخذى منه الجنيه .

ــ آه . . . لا تذكرنى . . .

ولكن هل يمكن أن أنسى ؟ . . .

تلك الحجرة الضيقة فى البدروم ، تلك المرتبة القذرة على البلاط ؟ تلك البركة الصغيرة من الدماء ؟ ذلك الوجه الشاب النحيل ؟ تلكما العينان الغائرتان اليابستان ؟ وتلك الذراع النحيلة الطويلة ممدودة فى وجهى قابضة على مدية حادة تشطر عقلى وقلبى شطرين . . .

آه . . .

وأخفيت رأسى فى صدره . . . أحتمى فيه . . . وألتصق به . . . أحسست أنى تجردت من عمرى الذى فات وعدت طفلة تحبو وتتعلم المشى . . .

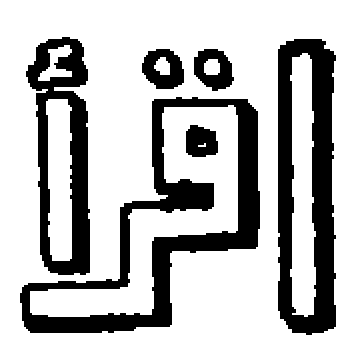
أصبحت فى حاجة إلى يد حانية تسندنى . . . لأول مرة فى حياتى أشعر بالحاجة لأحد ، حتى أمى لم أكن أشعر بالحاجة إليها . . .

ودفنت رأسى فى صدره وبكيت . . . بكيت فى راحة وهدوء .

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

دار المعارف بمصر

استجابة لطلب الجمهور المتزايد ليحصل كل قارئ على نسخته من الكتب التي نفدت من سلسلة



قد انتهجت الدار خطة جديدة لمواجهة نتائج هذا النجاح الساحق

فتقدم في منتصف كل شهر
طبعة جديدة من كتاب نفد

صدر من هذه الطبعات الجديدة :

- أحلام شهرزاد (الكتاب رقم ١) للدكتور طه حسين
- المساواة في الإسلام (الكتاب رقم ٢٣٥) للدكتور على عبد الواحد وافي
- المعذبون في الأرض (الكتاب رقم ١١٨) للدكتور طه حسين
- لماذا الاشتراكية العربية (الكتاب رقم ٢٤٣) للأستاذ لمعي المطيعي
- ثم غربت الشمس (الكتاب رقم ٧٦) للدكتورة سهير القلماوي
- شاعر الغزل (الكتاب رقم ٢) للأستاذ عباس محمود العقاد

بأسلوب اليوم وتفكير الغد

٥ قروش ج . ع . م .	١٠٠ مليم فى ليبيا	١,٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق . ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق . س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	

اقرأ

المزاعم الصهيونية في فلسطين

فتحي فوزي عبد المعطي

دار المعارف

المزاعم الصهيونية في فلسطين

فتحى فوزى عبد المعطى

المزاعم الصهيونية فى فلسطين

اقرأ ٢٧٤

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٧٥ - أكتوبر سنة ١٩٦٥

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

مما لا شك فيه أن قضية فلسطين ليست من القضايا التى تشغل الرأى العام العربى فحسب . . ولكنها من أهم المشاكل التى تهم الرأى العام العالمى كله .

وإن قيام إسرائيل فى فلسطين منذ سنة ١٩٤٨ وبقاءها حتى الآن ، لمن أكبر العوامل على إثارة الفتن والقلاقل فى منطقة الشرق الأوسط ، وما يتبع ذلك من آثار على مجريات الأحداث العالمية ، مما يهدد فى كثير من الأحيان باندلاع حرب عالمية ثالثة .

ومنذ بدأ تيار القومية العربية يجرف أمامه كل ما يعترض طريقه من عناصر الرجعية وعملاء الاستعمار ؛ ليصل بالركب العربى إلى بر السلام . . ومنذ تعالت صيحات العرب مدوية قوية تعلن فى عزم وإصرار استرداد الأرض السليبة .. منذ ذلك الوقت وإسرائيل تحاول بكل طاقاتها أن تصمد أمام قوة العرب ، ووقف المستعمرون بجانبها — كما وقفوا معها من قبل يمدونها بالمال والسلاح آملين.. الإبقاء عليها كقلعة لهم.. يحتمون فيها إذا ما اضطرتهم الظروف إلى ذلك .

ولم يقف المستعمرون والصهاينة عند هذا الحد . . بل راحوا يوهمون الرأى العام العالمى بمزاعم وافتراءات ، يحاولون بها أن يبرروا حقهم فى فلسطين ، واندفعت إذاعاتهم وأبواقهم تنشر الأباطيل ، وتنفث السموم هنا وهناك ، علهم يكسبون مزيداً من الأصدقاء ، وعديداً من المؤيدين .

ولما كان من الضرورى أن يعرف العالم حقيقة مزاعم الصهيونية . . رأينا أن نكشف القناع عن بعض هذه الادعاءات ، لتبدو الحقائق واضحة جلية . ليتأكد من يعرفها ، وليعرفها من كان يجهلها .

وفى هذا الكتاب سندرس مزاعم الصهيونية ، ونناقشها من جميع الاحتمالات لنؤكد هنا أن فلسطين دولة عربية ، وأن اليهود ليس لهم حق فيها .

والله نسأل أن نكون قد وفقنا فيما نهدف إليه . وأن نكون بهذا الجهد المتواضع قد ساهمنا فى توضيح معالم الحق . من أجل الحق .

والله ولى التوفيق .

المؤلف

الباب الأول

بين اليهودية . . والصهيونية

لا بد لنا فى أول الأمر أن نستعرض الأحداث التاريخية الهامة التى توالت على فلسطين منذ قامت بها دولة يهودية فى عصور ما قبل الميلاد . . إلى أن ولدت بها دولة إسرائيل المزعومة خلال النصف الأول من القرن العشرين .

صحيح أن كثيراً من الكتاب قد سبقونا إلى سرد كثير من التفاصيل عن هذا التاريخ الطويل إلا أننا نرى لزاماً علينا أن نلقى الأضواء على بعض الزوايا الهامة لتلك الحوادث التاريخية ، حتى نستطيع أن نتبين أكاذيب الصهيونية ، ولنرى إلى أى حد تنفث الصهيونية سمومها ، وتنشر مزاعمها ، لتضلل الرأى العام العالمى . ولتوهم الناس بأن اليهود أصحاب حق فى فلسطين . .

وقبل أن نسترسل فى الحديث . . يجدر بنا أن نفرق بين دعوتين مختلفتين عاشتا فى عصرين متباعدين ، وكان لكل منهما أهداف خاصة ، ونقصد بهما : الدعوة اليهودية ، والدعوة الصهيونية .

فاليهودية : دين سماوى . . بل هو أول الأديان السماوية . . أنزله الله على نبيه موسى عليه السلام ، وأمره أن يبلغ تعاليمه إلى بنى إسرائيل ، ويدعوهم إلى عبادة الرب ، ونبذ ما عداه من الأشخاص والأصنام والظواهر الطبيعية التى انتشرت عبادتها فى ذلك الوقت البعيد ، ولما كانت هذه الدعوة تقوم على أسس من السمو الإنسانى ؛ فقد لقيت مسرحاً

واسعاً لانتشارها لا بين بنى إسرائيل فحسب، وإنما فى كثير من دول العالم وشعوبه وأجناسه المختلفة ، واستطاعت هذه الدعوة أن تغزو كثيراً من القلوب التى كانت تخضع — كارهة — لجبروت الإنسان وترغم على عبادة الملوك ، فكانت هذه الدعوة إنقاذاً للبشرية وإعلاء للإنسانية ، وسموًّا بالعقل إلى عبادة الله دون غيره ، وقد بدت آثار الله وحكمه فى كثير من المواقف على بنى إسرائيل .

أمّا الصهيونية : فهى دعوة حديثة ، من نوع آخر ومن طراز جديد .. بعيدة كل البعد عن الدين ، ولئن حاول أصحابها والقائمون بها أن يتخذوا من الدين ستاراً يخفون خلفه حقيقة دعوتهم ، ويحجبون بهذه الأستار سوء نواياهم وأغراضهم الشخصية ونزعاتهم القائمة على التعصب ، واتجاهاتهم المبنية على العنصرية والانتهازية .. نقول لئن حاول هؤلاء أن يتخذوا من الدين ستاراً .. إلا أن الحق سريعاً ما يظهر ، والأباطيل سريعاً ما تنهزم ، فتبدو الحقيقة واضحة ظاهرة لكل ذى عقل .

فشتّان بين دعوتين : إحداها من عند الله ، والثانية اختلقها شياطين الإنس ، وابتدعها طريدو البشرية .

وفى الفصلين التاليين : سنتتبع معاً مراحل كل من الدعوتين .

الفصل الأول

اليهودية . . قديماً

تُنْسب الدعوة اليهودية إلى الإله (يَهْوُه) إله العبرانيين الذين عرفوا ببني إسرائيل ، وكان منهم موسى عليه السلام رسول الدعوة اليهودية .

والتاريخ يحدثنا عن الأحداث التي وقعت قبل مولد موسى ، والتوراة كتاب اليهود المقدس . . تروى لنا كيف خرج سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو الجد الأكبر للأنبياء ومنهم موسى . . خرج إبراهيم من « أور » في أرض الكلدانيين حوالى سنة ١٨٠٠ ق.م. ، واتجه غرباً ومر في طريقه على كثير من المناطق الممتدة ما بين العراق والبحر الأحمر ، وأنجب ولديه : إسحق وإسماعيل ، أما إسحق فقد أنجب ابنه يعقوب (إسرائيل) الذى ينتسب إليه بنو إسرائيل .

وقد ذكرت التوراة — كما ورد في القرآن الكريم — قصة يوسف عليه السلام أحد أبناء يعقوب ، وكيف أصبح يوسف فيما بعد أميناً على خزائن مصر حتى تعرف على إخوته حينما جاءوا إليه يطلبون قمحاً . . وينتهى الأمر بمجيء الإسرائيليين إلى مصر حوالى سنة ١٦٥٠ ق.م. حيث عاشوا فيها ينعمون بخيرها مدة طويلة ، ولكن هؤلاء الإسرائيليين سعوا إلى خدمة الهكسوس أعداء مصر ، وأصبحوا لهم عوناً ضد الشعب ؛ مما جعل المصريين يكرهونهم ، ويحقدون عليهم ، ثم بدأ نجم الإسرائيليين في الأفول ، وزادت كراهية الشعب المصرى لهم ، وأصبحوا كجماعة غير مرغوب في بقائهم ؛ فأذاقهم المصريون العذاب ، واتخذوا منهم

عبيداً فى بيوتهم وأجراء فى أرضهم ، وأجبرهم الحكام على تعبيد الطرق وشق الترع ، وسخرهم الملوك فى بناء المعابد والمقابر ، وحاول الإسرائيليون الهرب من مصر فلم يتمكنوا ، ومضت الأيام وهم أشبه ما يكونون بالمسجونين أو المنبوذين ، ومع كل يوم يشتد إيذاء المصريين لهم ، وتتضاعف كراهيتهم ، وتتسع الهوة بين الطرفين . وقد تفاقمت الأمور سوءاً بعد أن تنبأ أحد العرافين لفرعون مصر فى ذلك الوقت بأنه سيولد من بنى إسرائيل من يكون سبباً فى هلاكه ؛ لذلك أمر فرعون بذبح كل إسرائيلى يولد .

فى تلك الأثناء ولد موسى . . فوضعته أمه فى صندوق ، وألقت به فى اليم ، وشاء القدر أن يشب موسى فى قصر فرعون حتى امتلأ عوده ، ثم حدث ذات يوم أن قام نزاع بين مصرى وإسرائيلى ، فتدخل موسى لنصرة الإسرائيلى ، وانتهى الأمر بقتل المصرى ، فخاف موسى وفر هارباً حيث وصل إلى أقاربه عند مدين ، وعمل هنالك عشر سنوات تزوج بعدها ابنته .

وفى إحدى الليالى نزل الوحى على موسى ، وأمره الله أن يذهب إلى فرعون ويدعوه إلى عبادة الله ، وأن ينقذ بنى إسرائيل من عذاب المصريين ؛ فعاد موسى إلى مصر وأظهر لفرعون معجزته السحرية ، ولكن فرعون رفض أن يؤمن بإله موسى بينما آمن به كثير من الإسرائيليين وفروا مع موسى حيث عبروا فى طريقهم بحر (سوف) ، وتبعهم فرعون وقومه ولكن الله أغرقه ومن معه ، ووصل الإسرائيليون إلى سينا ، وعاشوا فيها بعض الوقت ، ولكنهم عصَوْا ربهم وأهملوا تعاليم دينه ، وضلوا طريق الهدى ، فتاهوا فى البرية أربعين عاماً . . حتى إذا كثر عددهم هاجموا أرض كنعان (فلسطين) سنة ١٠٠٠ ق.م. ، واستطاعوا أن يستولوا على أجزاء من التلال الداخلية ، ولكنهم لم يتمكنوا من السيطرة على

بالساحل الذى كان فى يد الفينيقيين ؛ وفشل العبرانيون أيضاً فى دخول المدن المحصنة مثل : يافا وغزة وعسقلان .

وعاش الإسرائيليون فى المنطقة التى استولوا عليها دون أن يهدأ لهم بال أو يطيب لهم عيش . ودب النزاع والشجار بينهم وبين جيرانهم من الفلسطينيين والمؤابين والميديين وغيرهم ؛ .وكثيراً ما قامت بين الفريقين حروب كثيرة كانت تنتهى فى أغلب الأحيان بهزيمة اليهود .

وارتفع نجم العبرانيين فى بعض الفترات كما حدث فى عهد داود وسليمان . وانتشرت الديانة اليهودية خارج فلسطين ، ولم تعد مقصورة على بنى إسرائيل وحدهم ،، وإنما تسربت إلى غيرهم من سكان فلسطين وجيرانها. فوصلت إلى العراق شرقاً وإلى شبه الجزيرة العربية كما وصلت إلى اليمن فى عهد الملكة بلقيس (١) جنوباً . . إلا أن فترة قوة اليهود لم تدم طويلا . فقد توالت عليهم المحن، وتعاقبت عليهم الأحداث المؤلمة ، وتعرضوا أكثر من مرة لهجمات الدول الكبرى(٢) فى ذلك الوقت حتى استطاع (شيشنق) أول ملوك الأسرة الثانية والعشرين فى مصر أن يستولى على أورشليم ويخضع اليهود ويذلهم ، وانقسمت دولة اليهود إلى مملكتين :

١ — إسرائيل : فى الشمال وكانت عاصمتها السامرة .

٢ — يهوذا : فى الجنوب وكانت عاصمتها أورشليم .

ثم قام النزاع بين الدولتين ، ونسى اليهود تعاليم الرب وأسس الدين ، فسلط عليهم الرب أعداءهم ، وألقى بهم فى أيدى جيرانهم الذين أذاقوهم العذاب وأنزلوا بهم الكثير من الهزائم المتلاحقة ، فضلا عما أصاب

---

(١) راجع ما جاء فى سورة النمل عن قصة بلقيس وسليمان .

(٢) الفراعنة ، البابليون ، الآشوريون ، الفرس .

اليهود من تفكك وانقسام لا بين دولة الشمال ودولة الجنوب فحسب ، وإنما داخل كل من الدولتين ؛ حتى استطاع سرجون الثانى ملك الآشوريين أن يستولى على مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ ق.م. وأعمل فيهم تنكيلا ، وأذاقهم صنوف الهوان والمذلة ، فتشت اليهود خارج مملكتهم بعد أن حطم سرجون عاصمتهم السامرة . وبذلك قضى على إحدى دولتى اليهود وهى المملكة الشمالية .

أما المملكة الجنوبية أو مملكة يهوذا فقد بقيت هى الأخرى تصارع هجمات جيرانهم من الفلسطينيين والفينيقيين والآراميين . بالإضافة إلى الغزوات الأخرى التى كانت تتعرض لها من الدول الكبرى المحيطة بالشام .. حتى استطاع (نخاو) أحد ملوك مصر أن يقتل (يوشع) فى مجدو سنة ٦٠٨ ق.م. ويضم مملكة يهوذا إلى الإمبراطورية المصرية الواسعة ، ثم جاء الملك الكلدانى (نبو خذ نصر) ليقضى على البقية المتبقية منها حين استولى على مملكة يهوذا سنة ٦٠٤ ق.م. ، وأذاق اليهود الهوان ، وأحرق أورشليم والكثير من معالمها ، وإمعاناً فى التنكيل باليهود ساق من بقى منهم أسرى إلى بابل عاصمة الدولة الكلدانية وهم يجرون القيود والسلاسل ويطأطئون الرءوس خجلا وحسرة ، وهناك اتخذ منهم عبيداً وخدماً فى قصره .

وبقى هكذا حال اليهود فى بابل حتى قُدِّر لهم أن يعودوا إلى أورشليم حين ساعدهم (كورش) ملك الفرس بعد أن قضى على الدولة الكلدانية سنة ٥٣٨ ق.م. فعاد اليهود إلى أورشليم ، ولكن فرحتهم لم تدم طويلا فجاء الإسكندر الأكبر واستولى على الشام — ومنها فلسطين — كما استولى على مناطق أخرى مثل مصر والعراق ، وحينما مات الإسكندر خلفه قواده من اليونانيين ، فكانت بلاد الشام تحت حكم (سايوقس) الذى أسس الدولة السلوقية .

وسقطت دولة السلوقيين على يد الرومان ، فأصبحت فلسطين مستعمرة يونانية فى عهد الإمبراطور (هادريان) وأطلق عليها الرومان اسم (إيليا كابيتولينا) . ومنذ وطئ الرومان أرض فلسطين وهم يذيقون اليهود صنوف العذاب والهوان والشقاء خصوصاً بعد أن ظهرت خيانة اليهود للرومان أثناء حربهم مع الفرس . وكثيراً ما ثار اليهود ضد الرومان ولكن ثوراتهم كانت تقابل بمنتهى القسوة والشدة كما حدث فى الفترة بين سنتى ١٣٥ — ١٣٢ ق.م. حين قام أحد زعماء اليهود ويدعى (بروكشيا) بثورة ضد الرومان محاولا الحد من ظلمهم وقسوتهم . ولكن الإمبراطور الرومانى أمر جنوده فدمروا القدس ، وحرثوا مكان هيكل سليمان . ولم يكتف الإمبراطور بذلك بل أصدر أوامره بمنع اليهود من زيارة الأماكن المقدسة إلا مرة واحدة كل عام ، وحرم عليهم السكن فى القدس . وصادر ممتلكاتهم . وأمعن الإمبراطور فى التنكيل ببروكشيا ومن معه وأعمل فيهم قتلا وسجناً حتى بلغ عدد قتلى اليهود خلال تلك الثورة أكثر من ٦٠٠.٠٠٠ يهودى . ونتيجة لذلك تشتت اليهود فى أنحاء العالم ولم يبق منهم إلا القليل ممن استطاعوا أن يسيروا فى ركب الحكم الرومانى أو ممن آثروا العذاب والقسوة من الحكام الرومان على التشرد .

وخلال حكم الرومان لفلسطين .. ولد عيسى عليه السلام ونزلت عليه تعاليم الدعوة المسيحية القائمة على العدل والمحبة والتسامح والمساواة ، ووجد اليهود فى هذه الدعوة وسيلة لإحياء دينهم والعودة إلى تعاليم الرب خصوصاً وقد أحسوا أن ما أصابهم من عذاب وامتهان كان بسبب التوائهم عن طريق دينهم . وإهمالهم لتعاليم موسى وإلهه ، وراح كثير من اليهود ينضمون إلى الدعوة المسيحية ، ولكن كهنتهم — بعد مضى وقت قليل — أحسوا فى هذه الدعوة خطورة على مراكزهم ، ووجدوا فيها تضييعاً لقداستهم الدينية وهيبتهم . فعاودهم الحنين إلى الكفر بها ، فارتدوا عن الدعوة المسيحية

وراحوا يهاجمون المسيح[١] ويعارضون مبادئ دينه . ولم يكن ذلك عن عقيدة حقيقية فى نفوسهم .. بل كان لأغراض شخصية ومصالح ذاتية ، ولخوفهم على مراكزهم ولحقدهم على عيسى عليه السلام. وإذا كان كهنة اليهود قد اتخذوا هذا الموقف من الدعوة المسيحية فإن عدداً آخر غير قليل اعتنق الديانة المسيحية وثبتوا عليها ، فقد وجدوا فيها إحياء للدعوة اليهودية فى صورة جديدة .

ومضت الأيام.. واستولى العرب على الشام فى عهد عمر بن الخطاب. فأصبحت فلسطين جزءاً من الإمبراطورية العربية الإسلامية ، وانضم كثير من سكان فلسطين تحت لواء الدعوة الإسلامية . . وخلال حكم العرب لفلسطين تحسنت أحوال اليهود لما وجدوه من التسامح ، ومنحهم العرب حرية الإقامة فى القدس كما سمحوا لهم ببناء معبد بجوار حائط المبكى ، ومزاولة طقوسهم الدينية ، فانتعشت أحوالهم ، وأحسوا بمدى الفارق بين الحكم العربى والحكم الرومانى .

ولما ضعفت الدولة العباسية.. قامت عدة حركات انفصالية عن حكومة بغداد ، وأدى ذلك إلى حدوث تصدع فى الدولة الإسلامية ، فتعرضت فلسطين لهجمات الصليبيين الذين استطاعوا فى أولى حملاتهم الاستيلاء على بعض المناطق فى فلسطين وتأسيس عدة مستعمرات لهم فى الرها وأنطاكية وبيت المقدس وطرابلس ، فخضعت فلسطين بما فيها من اليهود والمسلمين والمسيحين لحكام أجانب جاءوا إليها من أوربا . . ولكن ذلك لم يدم طويلا إذ سرعان ما استعاد العرب وحدتهم ، واستطاع صلاح الدين الأيوبى هزيمة الصليبيين فى عدة معارك أشهرها فى حطين سنة ١١٨٧ م

---

(١) راجع الإصحاح الثانى من إنجيل متى ، وهو يحكى كيف حاول اليهود الفتك بعيسى عليه السلام .

وبذلك عادت فلسطين مرة أخرى إلى الحكم الإسلامى .

وحكم الأيوبيون الشام بما فيها فلسطين ، ومن بعدهم المماليك . . حتى إذا كانت سنة ١١٥٧ انتزع العثمانيون فلسطين كما انتزعوا غيرها من الدول العربية . فأصبحت فلسطين جزءاً من الإمبراطورية العثمانية شأنها فى ذلك شأن كثير من الدول العربية الأخرى مثل : العراق ومصر والحجاز وغيرها .

واستمر الحال كذلك حتى وضحت معالم الدعوة الصهيونية التى سنتحدث عنها فى الفصل القادم .

الفصل الثانى

الصهيونية [1] . . حديثاً

تنتسب الحركة الصهيونية أو الدعوة الصهيونية إلى جبل زيون (صهيون)[2] أحد الجبال التى تحيط بالقدس والذى ورد ذكره فى كثير من المواضع فى التوراة . . الكتاب المقدس عند اليهود .

وقد قامت الدعوة الصهيونية على أساس أن يساهم الأفراد من الرجال أو النساء ممن تزيد أعمارهم عن ١٨ سنة باشتراكات رمزية تتراوح بين شلن إلى أربعة شلنات أو ما يسمى بالعملة الإسرائيلية القديمة شيكل (Sheker)[3] وبهذا الاشتراك يصبح للعضو المشترك حق التصويت فى انتخاب مندوبين يمثلونه فى المؤتمرات الصهيونية التى تعقد من فترة لأخرى لبحث النشاط الصهيونى ، والعمل على تحقيق آمال اليهود .

ومن الأغراض التى قامت الحركة الصهيونية لتحقيقها . . بل لعل أهم هذه الأغراض . . إحياء معالم الدولة اليهودية القديمة : وإقامة وطن ثابت لليهود فى فلسطين يجتمع فيه كل من يدين بالديانة اليهودية . . كما أن من أغراضها الأخرى إحياء اللغة العبرية وآدابها لتصبح اللغة الرسمية ولغة التخاطب فى فلسطين .

---

(١) أول من أطلق تعبير الصهيونية هو الكاتب الألمانى اليهودى ناتال بيرنباون Nathel Birnbawen

(٢) صهيون معناها : الأرض الموعودة أو أرض الميعاد .

(٣) الشيكل = حوالى ريال مصرى أو نصف دولار أمريكى

ولقد لقيت الدعوة الصهيونية الكثير من المعارضة حتى من اليهود أنفسهم خصوصاً اليهود الأرثوذكس الذين يرون أن تحقيق آمال اليهود وإصلاح شأنهم لا يمكن أن يأتى عن طريق تنظيم سياسى أو حزب تعصبى، وإنما يأتى ذلك عن طريق العودة إلى تعاليم رب موسى وإحياء الدعوة اليهودية ، ونتج ذلك صراع وجدل بين اليهود حول مضمون الدعوة الصهيونية ووسائلها . واختلف اليهود فى جوهر هذه الدعوة . . هل هى دعوة دينية .. أم حركة سياسية ؟ كما اختلفوا فى وسائل تحقيق أغراضها ، ولذلك نرى أن هذه الحركة خلال مراحلها وتاريخها قد تعرضت للتخبط والمعارضة مما نتج عنه كثير من الذبذبات التى أصحبت الحركة منذ قيامها حتى قيام دولة إسرائيل ؛ وما ترتب على ذلك من اختلاف فى وجهات النظر بين اليهود ومسانديهم ، وبين غيرهم من الذين درسوا هذه الدعوة وفهموا الأغراض الحقيقية التى يرمى إليها اليهود .

ولنتتبع معاً مراحل الدعوة الصهيونية، ويمكن تقسيمها إلى :

المرحلة الأولى :

من القرن السادس عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر: وليس من السهل أن نحدد بالضبط بداية هذه المرحلة ، ولكننا نستطيع أن نقول : إن هذه الدعوة كانت لها مقدمات فى القرن السادس عشر، حينما قام أحد اليهود ويدعى (دافيد روبينى) بدعوة يهود العالم لغزو فلسطين والاستيلاء عليها . ولكن هذه الدعوة لم تجد لها صدى فى نفوس اليهود ، وكانت صرخة فى صحراء واسعة ، فذهبت مع الرياح . . حتى إذا كان أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر .. اتخذت الحركة صورة جدية، وبدأت تنشر أفكارها على العالم وتحاول

أن تصل إلى إقناع الناس بمبادئها ، وقد وافق ذلك الفترة التى امتازت بظهور الحركات القومية والثورات التحررية بجميع صورها وأشكالها : السياسية والاجتماعية والفكرية فى أوربا وأمريكا .

ويبدو أن الصهاينة قد وجدوا فى تلك الظروف فرصة تهيء لهم نشر دعوتهم لإحياء قوميتهم المزعومة . . ولعلهم فكروا فى الخلاص من حركات الضغط والإرهاب والاضطهاد الدينى والسياسى التى كانوا يرزحون تحتها ويصطلون بنيرانها من تلك الحكومات التى كانوا يعيشون تحت سيطرتها ؛ فقد كان اليهود — كما هو معروف عنهم دائماً — على علاقة سيئة مع أفراد شعوبهم فى كثير من الدول خصوصاً فى روسيا وألمانيا . . . وذلك لما اتصفوا به من صفات اقتصادية واجتماعية جعلتهم يعيشون دائماً فى عزلة عن بقية أفراد الشعب . . حتى إن بعض الدول حرمت عليهم مزاولة الكثير من حقوقهم كمواطنين ، وحالت بينهم وبين المساهمة فى النشاط السياسى .

وخلال الدعوة الصهيونية . . انبرى كثير من الكتاب اليهود وراحوا يصفون بؤس بنى دينهم والمظالم التى يعيشون فيها ، وأخذ هؤلاء يدعون فى كتاباتهم إلى العطف على اليهود ، ويناشدون يهود العالم العمل على تحقيق ما أسموه أرض الميعاد ، وكان من أشهر الكتاب الذين ناصروا الدعوة الصهيونية : بينسكر ، ولورد بيرون ، وديزرائيلى ، وجورج إليوت وغيرهم ممن زعموا فى كتاباتهم مزاعم كثيرة صقلوها بكذبهم وزيفوها بخداعهم ، فزعموا مثلا أن اليهود من أصل وجنس واحد ، وتربطهم عقيدة واحدة وأمان واحدة ، وأن الله قد وعدهم بتجميعهم فى فلسطين . . أرض الميعاد ! !

وتفتقت أذهان اليهود عن تلك الدعوة التى عرفت باسم الدعوة الصهيونية ، فتألفت جمعيات عشاق صهيون التى كان من أهم أهدافها ومن

أسس رسالتها: الدعوة إلى استيطان اليهود فى فلسطين عن طريق تشجيع الهجرة إليها .

وقد وجدت هذه الدعوة صدى كبيراً فى نفوس بعض اليهود خصوصاً من كانوا يقاسون ألوان التعذيب كما فى روسيا ورومانيا والنمسا ، وإنجلترا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية ، وساندت بعض الدول هذه الحركة لأنها وجدت فيها وسيلة للتخلص من اليهود وحلاً للكثير من المشاكل التى وجدت بسببهم . . واستطاع اليهود أن يستدروا عطف بعض السذج من الناس . وتجمع لديهم الكثير من الأموال ؛ فاستخدموها فى نشر دعوتهم ورشوة الكتاب الذين شاركوهم مزاعمهم ، وراح أثرياء اليهود من أمثال روتشيلد ومونتيفيورى يكونون الشركات الصهيونية مثل الشركة البريطانية الفلسطينية . والوكالة اليهودية الأهلية ، واشترى كثير من أغنياء اليهود بعض المستعمرات الزراعية فى فلسطين وذلك كإحدى الخطوات نحو تحقيق أطماعهم ، وتم تهجير بعض اليهود إلى هذه المستعمرات على أمل أن تأتى الفرصة التى تمكنهم من تحقيق أغراضهم .

ويمكن أن نلخص نشاط الحركة الصهيونية خلال هذه الفترة فى النقط الآتية :

(ا) فى ٢٠ أبريل سنة ١٧٩٩ نشرت صحيفة جازيت ناشيونال Gazett National الفرنسية مقالا لنابليون بونابرت أثناء حملته على مصر والشام يعرض فيه على يهود الشرق مساعدته لتحقيق أطماعه ومعاونته فى الاستيلاء على الشرق مقابل أن يحقق لهم الأمل الذى يراودهم وهو إعادتهم إلى فلسطين حين تصبح فى حوزة الإمبراطورية الفرنسية ، ولكن الظروف لم تساعد نابليون ، فأبى القدر أن يحقق أحلامه واصطدم بالحقيقة المرة ، حين فشلت حملته فعاد إلى بلاده يجر معه أذيال الخيبة والهزيمة . . وهكذا تلاشى أول وميض لآمال اليهود .

(ب) أثناء تولية محمد على حكم مصر (١٨٠٥ – ١٨٤٠) عرض عليه السير مونتيفيور أحد كبار الصهيانة مشروع إقامة وطن لليهود فى فلسطين ، ولكن محمد على رفض هذه الفكرة ، ولم يسمح لليهود بتحقيق أحلامهم خصوصاً وقد كانت فلسطين فى ذلك الوقت تحت سيطرته بعد أن انتزعها من الأتراك أثناء حربه فى الشام مع السلطان، وتدخلت الدول لمصلحة السلطان ، وعقدوا مؤتمراً لهم فى لندن سنة ١٨٤٠ لبحث موضوع النزاع بين محمد على والسلطان ، وحاول اليهود مرة ثانية أن يحققوا خطتهم فقدم اللورد سافتشيرى مذكرة إلى وزير خارجية إنجلترا يطلب مساعدة حكومته للعمل على إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين . ولكن محاولة سافتشيرى لم تجد لها صدى فى نفس إنجلترا فى ذلك الوقت .

(ج) لم يكف اليهود عن محاولاتهم ، وراحوا يلتمسون طريقاً آخر يوصلهم إلى تحقيق آمالهم، فأخذوا يعقدون المؤتمرات لدراسة دعوتهم، وكان من أشهر هذه المؤتمرات مؤتمر سنة ١٨٨٤ وفيه تقرر اختيار أودسا [١] مركزاً للاتحاد الصهيونى وانتخب ليوبنسكر رئيساً للجنة أودسا . ثم كان مؤتمر سنة ١٨٨٧ وفيه تقرر تنظيم الهجرة إلى فلسطين ، وجمع اليهود كثيراً من الأموال لشراء بعض المستعمرات فى فلسطين ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يحققوا كثيراً من آمالهم ، وكاد نشاطهم أن يتوقف ، بسبب سياسة الباب العالى نحوهم؛ فقد حرم هجرة اليهود الجماعية إلى أجزاء الإمبراطورية العثمانية ، ولم يسمح لأى يهودى بالبقاء فى فلسطين أكثر من ثلاثة أشهر حتى يضمن عدم زيادة اليهود فيها .

(د) أخذ الصهيانة يبحثون كيف يحققون آمالهم فعقدوا مؤتمراً لهم فى بازل (٢) فى ٢٩ أغسطس سنة ١٨٩٧ حضره أكثر من ٢٠٠ عضو

(١) أودسا : إحدى الموانى الهامة فى الاتحاد السوفيتى وتقع على البحر الأسود.

(٢) بازل : إحدى مدن سويسرا .

وفى هذا المؤتمر انتخبوا(هرتزل) رئيساً لهم، ثم راحوا يبحثون خططهم وكان من أبرزها تشكيل لجنة العمل التى عرفت باسم الوكالة اليهودية ، والتى كان لها أثر كبير فى تطور الحركة الصهيونية فيما بعد ، كما تم عقد مؤتمر آخر فى بازل سنة ١٨٩٩ ، ثم فى لندن ، وكان من نتائج هذه المؤتمرات : إنشاء بنك يهودى برأس مال قدره مليونين من الجنيهات تستخدم فى شراء الأراضى من عرب فلسطين . .

ورغم نشاط الصهاينة وكثرة عددهم إلا أنهم لم يصلوا إلى نتيجة تطمئنهم على تحقيق أحلامهم ، وكادوا يقنعون من الغنيمة بالإياب ، ولكنهم آثروا الصمود ورأوا أن يجربوا أكثر من طريق . .

المرحلة الثانية : من سنة ١٩٠١ — سنة ١٩١٧

تبدأ هذه المرحلة مع أول القرن العشرين . . حين راح اليهود يكررون محاولاتهم. فلجئوا فى هذه المرة إلى السلطان عبد الحميد سلطان تركيا فى ذلك الوقت باعتباره المسيطر الفعلى على فلسطين والعالم العربى باستثناء بعض المناطق مثل مصر التى كانت إنجلترا تحتلها رغم خضوعها رسمياً لتركيا ، وكانت الجزائر وتونس خاضعتين لفرنسا التى احتلت الأولى سنة ١٨٣٠ والثانية سنة ١٨٨١ ؛ وبزعامة هرتزل وعن طريق وساطة المسيو فاميرى . . لجأ اليهود سنة ١٩٠١ إلى السلطان عبد الحميد يرجونه السماح لهم بإنشاء جالية يهودية فى فلسطين تتمتع بالحكم الذاتى ، وعرض اليهود على السلطان مليونين من الجنيهات ثمناً لإجابة مطلبهم ، ولكن السلطان — رغم حاجته إلى المال فى ذلك الوقت — رفض مطالب اليهود ؛ فقد أحس بسوء نواياهم ، ورد على المسيو فاميرى رداً لن ينساه العرب وسيذكره اليهود أيضاً، فقد جاء فى رسالة السلطان إلى هرتزل : «أنا لا أستطيع

إعطاء كم قدماً واحدة فى فلسطين ؛ لأنها ليست ملكى . . وعلى اليهود أن يحفظوا أموالهم لأنفسهم فقد يأخذون فلسطين هدية من أعدائنا ، ولكنهم لن يصلوا إلى هدفهم إلا على جثتنا ، ولم يكتف السلطان بذلك بل حرم على اليهود المقيمين فى فلسطين امتلاك أراض جديدة ، ووضع رقابة شديدة على الحدود الفلسطينية ؛ حتى يمنع تسرب أى يهودى إليها .

وفكر اليهود ماذا يفعلون ؟ فرأوا أن يتجهوا إلى إنجلترا صديقهم الحميم ولكن انجلترا لم يكن لها فى ذلك الوقت من الحول والطول ما تستطيع به أن تحقق رغبة اليهود لأنها لم تكن تملك فلسطين .

وراح الصهاينة يطلبون مكاناً آخر غير فلسطين . . أى منطقة يحققون فيها فكرتهم ويقيمون دولتهم ولو على الخريطة الجغرافية ! ! وعرض هرتزل على تشمبرلن استيطان اليهود فى قبرص أو مدغشقر أو أستراليا وهى من المناطق التى كانت خاضعة للنفوذ الإنجليزى . وهنا ثار جدل كبير بين فريقى اليهود : السياسيين ، والعمليين ، فكان السياسيون يرون الرضى بأى منطقة أخرى بينما أصر العمليون على فلسطين ، وراح الجميع فى دوامة من التفكير والتردد ، وأحجم كثير من اليهود عن مساندة الحركة الصهيونية ، وأعلنوا أنها فكرة خاطئة لا يمكن تحقيق ما تدعوا إليه ، وبقى الصهاينة فى صراع دائم مع أنفسهم ، وكادت جهودهم تتلاشى ، وآمالهم تنصهر كما ينصهر الجليد تحت حرارة الشمس الملتهبة ، وفضل بعضهم النكوص على عهده للدعوة الصهيونية ، وآثر البعض الآخر الرضى بالأمر الواقع رغم مرارته . . ولكن القدر كان يخبئ لهم مفاجأة جديدة لم يتوقعوها ، وهى إعلان الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

كان إعلان الحرب أملا جديداً وحافزاً للصهيونيين على متابعة نشاطهم ، ولذلك استعادوا نشاطهم وجهودهم بزعامة حاييم ويزمان وهربرت صموئيل

وهرتزل واللورد روتشيلد وغيرهم ، ورأى الصهاينة فى قيام الحرب فرصة يجب ألا تفوت، وفكروا أى المعسكرين يختارون؟ الحلفاء . . وهم الذين أظهروا عطفاً على دعوتهم وتأييداً لقضيتهم . أم المعسكر الآخر . . تركيا وألمانيا ؟ وكانت الأولى هى المسيطرة على فلسطين . ورأى اليهود أن يتجهوا إلى المعسكر الأخير على أمل أن تركيا ستغير سياستها وتعدل عن رأيها ، ولكن السلطان عبد الحميد رفض مرة أخرى مطالب اليهود ، وحدد هجرتهم إلى فلسطين بشروط قاسية .. حتى إنه طارد اليهود الموالين للحلفاء إمعاناً فى النكاية بهم وخوفاً من أن يكونوا جواسيس لهم . هذا بالإضافة إلى الموقف الذى اتخذه جمال السفاح تجاه اليهود، فقد أغلق البنك اليهودى الإنجليزى الذى كان يمول عملية شراء الأراضى الفلسطينية ، وحرم الكتابة باللغة العبرية، فكتم اليهود غيظهم فى صدورهم.. حتى إذا ظهرت بوادر انتصار الحلفاء . . أسرع الصهاينة يعلنون ولاءهم لهم ورغبتهم واستعدادهم لمساعدتهم .

وكان الحلفاء أكثر ولاء لليهود واهتماماً بمصلحتهم . . إذ سرعان ما رحبوا باليهود ، ولم ينتظروا نهاية الحرب حتى كانت إنجلترا تعلن على لسان وزير خارجيتها بلفور التصريح [1] المعروف باسمه فى اليوم الثانى من نوفمبر سنة ١٩١٧ والذى نص على أن حكومة إنجلترا تعتزم إقامة وطن قومى لليهود . وهكذا ظهر غدر الإنجليز وممالأتهم للصهيونية وخيانتهم للعرب .

المرحلة الثالثة : من سنة ١٩١٨ — سنة ١٩٤٨

كان وعد بلفور حافزاً للصهيونيين لاستعادة نشاطهم ، فما كادت

(١) راجع نص تصريح بلفور فى الفصل الثالث من الباب الثانى ص ٧٤ بهذا الكتاب .

الحرب العالمية الأولى تنتهى حتى أخذوا يعدون أنفسهم للخطوات التالية خصوصاً وقد انتصر الحلفاء . .

فى فبراير سنة ١٩١٩ عقد الصهاينة مؤتمراً لهم قرروا فيه تعيين الدكتور وايزمان رئيساً للهيئة التنفيذية الصهيونية ، وشاءت الظروف كما شاء الاستعمار أن تحتل إنجلترا (التى تناست عهودها للعرب) وفرنسا المناطق العربية فى الشام والعراق ، وكان ذلك خطة للسيطرة على هذه المنطقة بأية صورة من الصور الاستعمارية .

لم يترك الصهاينة فرصة للدعوة لقضيتهم . . فما كادوا يعرفون أن الدول ستجتمع فى سان ريمو فى ٢٤ أبريل سنة ١٩٢٠ لتحديد مصير الدول التى كانت تدخل ضمن أملاك الدولة العثمانية . . حتى سارعوا إلى المؤتمر ، وراحوا يحاولون إقناع المجتمعين بتنفيذ وعد بلفور ، وإقامة وطن لليهود فى فلسطين . وتتابعت الأمور بعد ذلك ، ودخلت الأراضى العربية تحت سيطرة إنجلترا وفرنسا ، فكانت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى ، وكانت فلسطين والعراق وشرق الأردن تحت الانتداب الإنجليزى .

وعملت إنجلترا على تنفيذ المخطط الصهيونى بإحكام ؛ لذلك عينت هربرت صموئيل – أحد مناصرى الصهاينة – أول مندوب سام لها فى فلسطين ، فتحقق بذلك نصراً كبيراً طالما راود اليهود فى أحلامهم . فلم يكن الانتداب الإنجليزى على فلسطين فى حد ذاته إلا إحدى الخطط التى اختطتها إنجلترا لخدمة الأغراض الصهيونية ، وكان هذا الانتداب بمثابة تذكرة لدخول اليهود واستقرارهم فى فلسطين لوضع أسس الدولة اليهودية ، فما كادت إنجلترا تضع يدها على فلسطين باسم الإنتداب حتى عملت كل ما فى وسعها لتهويد الأرض المقدسة . . كيف لا وقد أصبحت إنجلترا هى الحاكم المطلق اليد فى كل تصرفاته . والذى

لا يمكن لأحد أن يقف فى طريقه مهما كان حتى العرب أصحاب الحق . . الذين لم يكن لديهم من المال والسلاح فى ذلك الوقت ما يجعلهم قادرين على استرداد حقهم والضرب على أيدى العابثين بوطنهم . وسرعان ما اتخذت حكومة الإنتداب القرارات التى تخدم الصهيونية . وكان من أهم هذه القرارات .

١ ـ اعتبار اللغة العبرية لغة رسمية فى فلسطين مثل العربية أو الإنجليزية .

٢ ـ يباح للوكالة اليهودية إدخال ١٥٠,٠٠٠ يهودى إلى فلسطين كل عام .

وهكذا بدأت إنجلترا سياستها لتجعل من فلسطين دولة يهودية تساندها فى ذلك كثير من الدول الاستعمارية مثل : فرنسا وروسيا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية ، وكلها من الدول التى كانت تبغى الخلاص من اليهود ومشاكلهم .

وعمل هربرت صموئيل كل ما فى وسعه لتسهيل هجرة الآلاف من اليهود متبعاً فى ذلك كل السبل والحيل مثل تزوير شهادات الهجرة وجوازات السفر وتأشيرات القنصليات وعقود الزواج الصورى المزيفة . وعلى العكس من ذلك كان يمنع بكل الطرق الممكنة عودة العرب الذين خرجوا من فلسطين لأمر ما كالتجارة أو التعليم من العودة إلى أرضهم . ونتج عن ذلك أن زاد عدد اليهود من ٥٠,٠٠٠ سنة ١٩١٨ إلى حوالى ٤٠٠,٠٠٠ سنة ١٩٣٥ ثم إلى ٧٠٠,٠٠٠ سنة ١٩٤٨ .

وإزاء السياسة الإنجليزية . . قام العرب بأكثر من ثورة : مثل ثورات سنة١٩٢٠ ، سنة ١٩٢٩ ، سنة١٩٣٣ ، سنة ١٩٣٥ ، سنة ١٩٣٩ واستشهد كثير منهم أثناء هذه الثورات . . إلا أن إنجلترا أصرت على سياستها ، وكل ما فعلته بالنسبة للعرب لا يتعدى تهدئة الخواطر ، والكلام

المعسول والوعود الزائفة ، وقصارى ما فعلته بعد ثورة سنة ١٩٣٦ أنها أرسلت لجنة تحقيق ملكية عرفت باسم لجنة (بيل) ، وظن العرب أو حسن ظنهم فى الإنجليز ! ! ولكن هذه اللجنة كانت خاضعة لتأثير الصهيونية ، فبدلا من أن تبحث اللجنة أسباب ثورة العرب .. إذا بها تقترح تقسيم فلسطين بين العرب واليهود والإنجليز (١) .

وهكذا كانت لجنة بيل فى الحقيقة تمثل مرحلة من مراحل الصهيونية ، فإنها بذلك أقرت إقامة دولة يهودية فى فلسطين مهما كانت مساحة هذه الدولة ، فقد وضعت بذلك آمال اليهود موضع التنفيذ .

ورفض العرب مشروع تقسيم لجنة بيل، وعادت ثوراتهم من جديد، وهى أكثر ما تكون صموداً وثباتاً، وضج العالم العربى كله بالشكوى، واحتجت حكومات العراق ومصر والسعودية على مسلك الإنجليز والصهيونية ، وعقد العرب مؤتمراً لهم فى بلودان ، وفيه أعلنوا عدة قرارات كان من أهمها :

١ — رفض مشروع بيل رفضاً باتاً .

٢ — اعتبار فلسطين دولة عربية وهى جزء من الوطن العربى .

٣ ضرورة العمل على إلغاء الانتداب الإنجليزى .

٤ — وقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين .

٥ — العمل على منع اليهود من الاستيلاء على الأراضى العربية الفلسطينية.

وأحست إنجلترا بالخطر يحدق بها ، ويبدو أنها كانت تتوقع قيام الحرب العالمية الثانية ، فرأت أن تسترضى العرب ليقفوا مع الحلفاء فى حربهم مع الألمان ، وحتى لا يقوموا بثورة ضد الإنجليز كما فعلوا فى الحرب الأولى مع الأتراك .. لذلك أسرعت إنجلترا بإصدار ما أسمته

---

(١) راجع تقسيم لجنة بيل فى الفصل السادس من الباب الثانى ص ١١٥ من هذا الكتاب .

بالكتاب الأبيض ، وفيه أعلنت عدولها عن فكرة التقسيم ، وأنها تنوى إقامة دولة فى فلسطين يحكمها ثمانية منهم ستة من العرب واثنان من اليهود ، ويرأس هذه الدولة حاكم بريطانى ، وذلك لمدة عشر سنوات تصبح فلسطين بعدها قادرة على حكم نفسها بنفسها ، ولكن الكتاب الأبيض نص كذلك على هجرة حوالى ٧٥,٠٠٠ يهودى كل خمس سنوات حتى يصبح عدد اليهود نصف عدد السكان فى فلسطين أى مساوياً لعدد العرب ، ولعل إنجلترا أرادت بذلك أن تبقى على علاقتها الودية مع اليهود حتى تأمن شرهم .

كان الكتاب الأبيض بهذه الصورة يبدو فى ظاهره لمصلحة العرب ، ولكنه فى الحقيقة لم يكن إلا مرحلة من مراحل التآمر الصهيونى على فلسطين.

ولم يمض غير قليل حتى قامت الحرب العالمية الثانية ، فرأى فيها اليهود فرصة لمتابعة نشاطهم الصهيونى ، وعملت إنجلترا والولايات المتحدة على كسب ثقة اليهود وتأييدهم ، وشاءت الصدف أن يتولى ترومان رئاسة الجمهورية الأمريكية، وسرعان ما أعلن فتح أبواب فلسطين لدخول ١٠٠,٠٠٠ يهودى كل عام على أن تستمر تتابع الهجرات اليهودية حتى يصبح عدد اليهود فى فلسطين أكثر من عدد العرب .

هكذا وقفت أمريكا بصورة سافرة ، وبلا حياء تناصر الحركة الصهيونية ، ومعها وقفت إنجلترا تحقق خططها الصهيونية ؛ فسجلتا بذلك صورة من ابشع صور الظلم والتحيز .

وتحرج الموقف بين العرب واليهود ، فادعت إنجلترا وأمريكا أنهما ستعملان على إيجاد حل للمشكلة الفلسطينية ، ولكن إنجلترا فى أوائل سنة ١٩٤٧ عادت وأعلنت فشلها فى حل هذه المشكلة خصوصاً بعد أن رفض كل من العرب واليهود مشروع تقسيم موريسون . لذلك أحالت إنجلترا القضية إلى هيئة الأمم المتحدة .

كانت إحالة القضية الفلسطينية إلى هيئة الأمم المتحدة مرحلة جديدة من مراحل النشاط الصهيونى ، فقد عمل الصهيونيون كل ما فى وسعهم لإنجاح خططهم وتحقيق أحلامهم فى فلسطين ؛ ففى ٢٨ أبريل سنة ١٩٤٧ قررت هيئة الأمم المتحدة إيفاد لجنة من مندوبى أحد عشر دولة[١] إلى فلسطين لبحث مطالب كل من العرب واليهود وتقديم تقرير عن حقيقة الوضع فى فلسطين . وكان أغلب أعضاء هذه اللجنة من اليهود أو أنصارهم ممن كان كل همهم خدمة الأغراض الصهيونية ؛ لذلك جاء قرار اللجنة تعبيراً عما تجيش به نفوس اليهود ، وما تمليه عليهم ضمائرهم الصهيونية . . فاقترحت اللجنة تقسيم فلسطين إلى دولتين : إحداهما عربية والأخرى يهودية[٢] .

وحينما عرض مشروع التقسيم الذى اقترحته هذه اللجنة على هيئة الأمم المتحدة فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٧ . . لم يحصل على أغلبية $\frac{٢}{٣}$ الأعضاء الحاضرين ، وهنا أحس الصهيونيون أن آمالهم تتبخر ، وأن ماخططوه فى سنوات طويلة قد يتهدم ويتحطم إذا لم يواصلوا نشاطهم ، فراحوا يبثون سمومهم وينشرون دعاياتهم الكاذبة ، وسلكوا فى سبيل ذلك كل وسيلة من وسائل الخداع والغش والرشوة ، وساعدهم فى ذلك مناصروهم من المستعمرين . . حتى قدر لهم فى النهاية أن يقنعوا بعض الدول بالانضمام إلى صفوفهم ومؤازرتهم ، وكانت النتيجة أن وافقت الجمعية العمومية للأمم المتحدة على مشروع قرار التقسيم فى جلستها المنعقدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ .

---

(١) كانت هذه الدول هى : السويد – كندا – تشيكوسلوفاكيا – جواتيمالا – بيرو – أوروجواى – هولندة – الهند – إيران – يوغسلافيا – أستراليا .

(٢) راجع قرار تقسيم هذه اللجنة فى الفصل السادس من الباب الثانى من هذا الكتاب .

المرحلة الرابعة : من سنة ١٩٤٧ حتى الآن

لم يكن قرار التقسيم وفقاً لرغبات العرب، بل لم يكن وفقاً للعدل والمنطق . فقد صدر عن نزعات فاسدة وأهواء استعمارية وأغراض دنيئة ، ولم يستند إلى قواعد أو حجج لها قوتها القانونية أو المنطقية . كل ما فيه مجاملة ومحسوبية وتحقيق لآمال اليهود الدخلاء على حساب مصلحة العرب.. أصحاب الأرض الشرعيين .

لم يجد العرب بدًّا من أن يعتمدوا على أنفسهم فى استرداد وطنهم، فقد أصبح قريب المنال من أيدى الأعداء، وأمام خطر الصهيونية ومؤامرات الاستعمار.. لم يجد العرب بدًّا من الالتجاء إلى سياسة القوة ولغة الحرب، وهى اللغة التى يفهمها اليهود وأعوانهم .

لم تكن الدول العربية فى ذلك الوقت فى وضع سياسى تحسد عليه ، فقد كان بعضها ما يزال يرزح تحت نير الاستعمار والاحتلال ، وكان بعضها قد تخلص من الاستعمار منذ فترة قصيرة وما يزال يعانى من آثاره التى خلفها وراءه . ورغم ذلك كله فقد كان على العرب أن يواجهوا الموقف بشجاعة ودون تردد ، فقامت الحرب بين اليهود والعرب ، وأبدى العرب شجاعة فائقة، واستطاعوا أن يلقنوا الأعداء دروساً كثيرة، وكانت بطولات الفدائيين العرب خير مثال للشجاعة والشهامة .

وأحس الصهاينة بالخطر يحدق بهم من كل جانب . . وهنا برزت إنجلترا تقوم بدور من أدوارها الدنيئة ، فأعلنت انهاء الانتداب على فلسطين ، وأسرعت جيوشها بالجلاء عن كثير من المواقع الهامة بعد أن سلموها لليهود ، وبهذه الخطة استطاع الصهاينة أن يستولوا على كثير من المطارات والمنشئات الصناعية والمناطق العسكرية الهامة ، وسجل التاريخ بذلك أبشع صور الوحشية الصهيونية وما قام به اليهود من اعتداء على الشعب العربى فى عدة مناطق خصوصاً فى دير ياسين .

ولما كانت ليلة ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ غادر المندوب السامى ميناء حيفا معلناً انتهاء الانتداب البريطانى على فلسطين فى الوقت الذى أسرع بن جوريون يعلن مولد دولة إسرائيل ، وكانت هذه أهم مرحلة من مراحل الخطر الصهيونى .

واستمرت الحرب بين العرب واليهود، وكاد العرب ينتصرون . . لولا تدخل القوى الاستعمارية، وسوء تصرفات الرجعية العربية، ومحاولة تفويت فرصة النصر الذى بات محققاً رغم الأسلحة الفاسدة والخطط الحربية الخاطئة، ومظاهر الخيانة التى قام بها القادة عملاء الاستعمار ، وفى ذلك يقول الميثاق الوطنى [١] :

« إن سخرية القدر من الأمة العربية وصلت إلى حد أن جيوشها التى دخلت فلسطين لتحافظ على الحق العربى فيها كانت تحت القيادة العليا لأحد العملاء الذين اشتراهم الاستعمار بثمن بخس . . بل إن العمليات العسكرية كانت فى يد ضابط [١] إنجليزى يتلقى أوامره من الساسة اليهود » .

ومرة أخرى أحكمت الصهيونية خططها حين وجدت الخطر يترصد لها، والجيوش العربية تسد عليها المنافذ، فراح اليهود يستصرخون أسيادهم ومسانديهم، ومن أجل ذلك ولمصلحة اليهود قرر مجلس الأمن فى ٢٢ مايو سنة ١٩٤٨ وقف إطلاق النار بين الفريقين وإعلان الهدنة .

وفى الحقيقة . . لم تكن هذه الهدنة إلا تتمة للمخطط الصهيونى ، وصورة من صور الخدع الاستعمارية ، فقد وجد اليهود فى هذه الهدنة فرصة لاستعادة قوتهم، وجمع شتاتهم، وتجهيز أنفسهم بالرجال والعتاد والأسلحة ، ثم عاود اليهود هجومهم، وكانت الظروف قد ساعدتهم بانسحاب كثير من الجيوش العربية بناء على أوامر الخونة والموالين

---

(١) راجع الباب الرابع من الميثاق الوطنى .

(٢) المقصود : الجنرال جلوب .

للاستعمار ، ووقفت كتائب التحرير المصرية يساندها المتطوعون العرب . . وقف هؤلاء وحدهم يواجهون أسلحة الأعداء ، ويكافحون هجماتهم . . يريدون أن يحرزوا النصر لأمتهم ، ويعوضوا ما أفسده حكامهم حتى كانوا على وشك النصر ، ولكن مجلس الأمن تدخل مرة أخرى وأعلن قراره بوقف إطلاق النار فى ١٥ يوليو سنة ١٩٤٨ ، وتم ذلك بعد أربعة أيام أى يوم ١٩ يولية ، وانسحب المحاربون العرب عائدين إلى بلادهم دون أن يحدد لمن النصر . وبدأت الهدنة التى لا نعرف متى تنتهى .

ومنذ ذلك الوقت والصهيونية تنفث سمومها ودعايتها الكاذبة ، وتعلن فى تبجح : أن اليهود أصحاب حق فى فلسطين ، وتعمل الصهيونية بكل وسيلة لتحقيق غاياتها ، ولتثبت أقدامها فى فلسطين . . تارة بالأكاذيب ، وتارة بالاعتداء .

وفى سنة ١٩٥٦ حاول اليهود أن يحرزوا مزيداً من الانتصارات ، ويحصلوا على مساحات أخرى من أرض فلسطين ؛ فسمحوا لأنفسهم أن يكونوا مطية لأسيادهم من الإنجليز والفرنسيين . . حين هاجموا مصر يبغون احتلالها والاستيلاء على قناتها على أمل أن يخرج اليهود بأجزاء من شبه جزيرة سيناء ، ولكن القدر خيب آمالهم جميعاً ، فعادوا يجرون أذيال الخيبة والهزيمة بعد أن سبقهم أسيادهم إلى هذا المصير .

واليوم . . وقد تغيرت الحال غير الحال ، وتحرر العالم كله تقريباً ، وتقلص الاستعمار فى العالم كله ، واختفت عناصر الرجعية والخيانة إلى غير رجعة . . اليوم يتطلع العرب إلى معركة حاسمة يستعيدون بعدها أرضهم السليبة ويستردون حقوقهم الضائعة ، وليلقوا بالأعداء إلى عرض البحر أو ليعودوا من حيث أتوا . . ويرجع عرب فلسطين إلى أرضهم وديارهم .

الباب الثانى

حقيقة المزاعم الصهيونية فى فلسطين

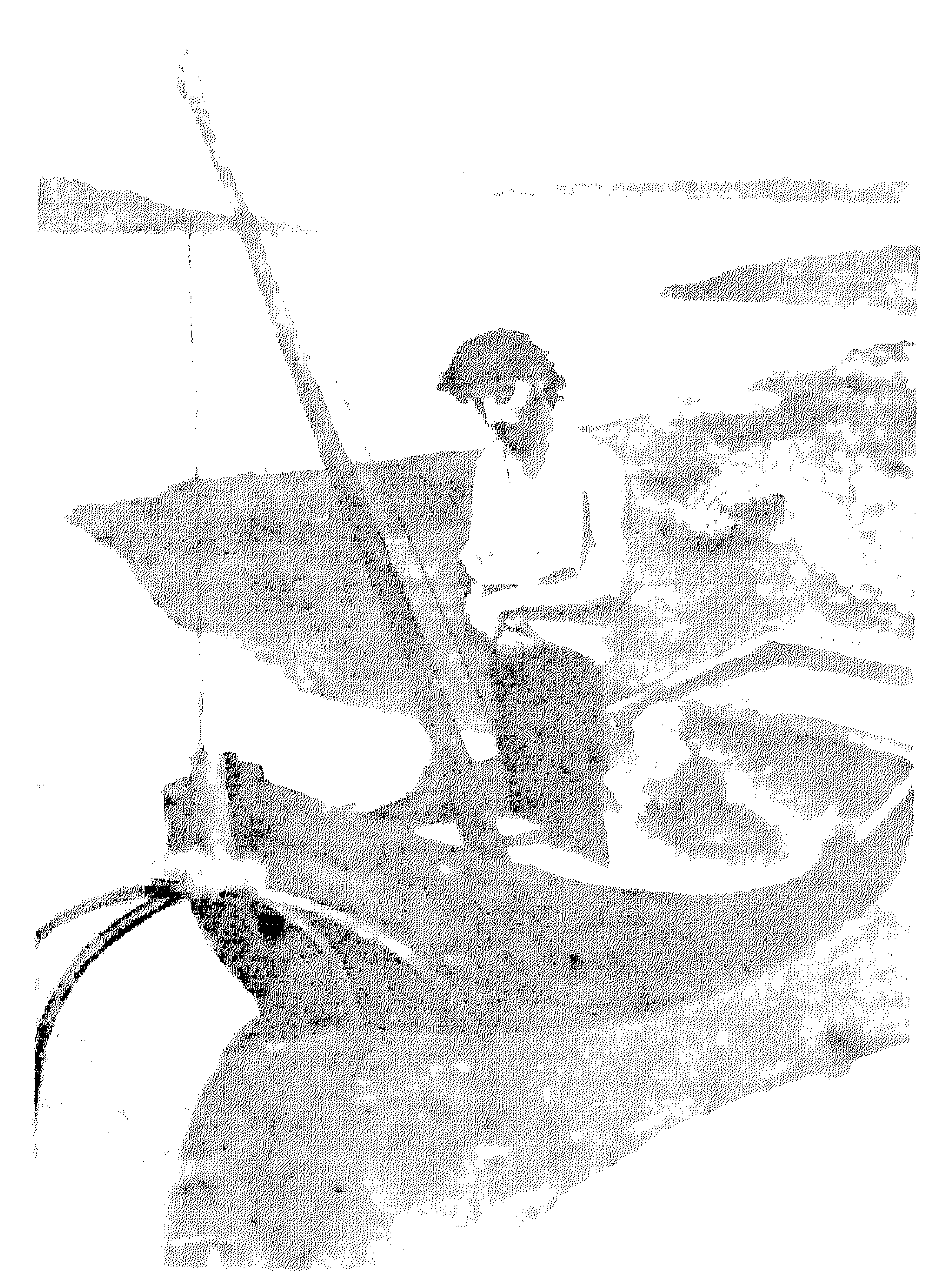
من النصائح التى يعمل بها الصهاينة اليوم . . تلك النصيحة التى وردت على لسان أحد حكماء اليهود القدماء والتى يقول فيها « اكذب . . واكذب . . واكذب . . حتى تعتقد أن ما تقوله صدقاً ؛ فيصدقك الناس » .

من أجل هذا . . اختلق الصهاينة كثيراً من المزاعم ، وابتدعوا كثيراً من الأكاذيب . . راحوا يلبسونها أثواباً من التضليل والخداع ؛ يحاولون بها أن يقنعوا أنفسهم بتصديقها ، آملين أن يجدوا من الناس من يصدقهم .

وإذا كان البعض قد صدقوا مزاعم اليهود وأكاذيبهم ، وإذا كان المستعمرون قد وقفوا بجانبهم يرددون هذه الأباطيل . . فإن الكثيرين أيضاً من الناس قد عرفوا الحقيقة ، واكتشفوا أن ما يدعيه اليهود مجرد افتراءات ، وأن ما يزعمونه لا يعدو إلا أن يكون كذباً وبهتاناً .

ومع إشراقة كل شمس ومغيبها . . تبدو الحقائق واضحة أمام مجموعة أخرى من الناس ؛ فيقل أنصار اليهود ، ويكثر أعداؤهم .

وفى هذا الباب . . سيجد القارئ بعضاً من أشهر المزاعم الصهيونية التى حاولوا بها أن يثبتوا لهم حقاً فى فلسطين . وسنحاول الرد على هذه المزاعم مستدلين على صدق ما نقول بأمثلة من التوراة والإنجيل والقرآن وهى الكتب المقدسة ، كما نؤيد ذلك بآراء علماء التاريخ الذين درسوا قضية فلسطين بفهم وعمق . . سواء منهم اليهود أم غير اليهود .



دراسة للصياد الفقير – للفنان بوفى دى شافان – مجموعة ماتسوجاتا – اليابان .



صدى صرخة — للفنان داڤيد الفارو سيكويروس—متحف الفن الحديث—
نيويورك .

ولعل من أشهر تلك المزاعم :

١ — ما يدعيه اليهود من حق لهم فى فلسطين بناء على ما أسموه « أرض الميعاد » .

٢ — ما يدعيه اليهود من حق لهم فى فلسطين ، باعتبارها الموطن الأول للدولة اليهودية القديمة .

٣ — زعم اليهود بأنهم اكتسبوا حقا فى فلسطين بناء على « وعد بلفور »

٤ — ادعاء اليهود بأن صك الانتداب قد اعترف بحقهم فى فلسطين.

٥ — مزاعم اليهود أنهم اشتروا أرض فلسطين .

٦ — الزعم الصهيونى الذى يقول بأن لليهود حقا فى فلسطين بناء على قرار هيئة الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين سنة ١٩٤٧ .

٧ — ما يزعمه اليهود من أنهم استولوا على فلسطين ؛ ليرفعوا من شأنها وتقدمها .

وسنرد على كل هذه المزاعم فى الفصول التالية .

الفصل الأول

خرافة . . أرض الميعاد

يزعم الصهاينة أنهم أصحاب حق فى فلسطين باعتبارها الأرض التى وعدهم الله بها ، وهم يستشهدون على زعمهم هذا بأدلة من التوراة كتابهم المقدس ، ومن التلمود[١] الذى يدعون أن تعاليمه نزلت شفويا على نبيهم موسى عليه السلام ، وقد عمل اليهود كل ما فى وسعهم ليقحموا فى تلمودهم ما يراود نفوسهم من آمال ، وراحوا يدعون أن ذلك من عند الله ، وهكذا ينطبق عليهم قول الله تعالى :

« فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ »[٢]

وإزاء ما يزعمه اليهود سواء فى التوراة أم التلمود . . نرى بعض الناس يصدقونهم ، وهؤلاء هم السذج الذين تنطلى عليهم أكاذيب اليهود. بينما نجد فريقاً آخر يقف حائراً أمام ما يدعون . . أما من يعرف حقيقة اليهود ونزعاتهم وصفاتهم . . فسرعان ما يضيف إلى أكاذيبهم أكذوبة جديدة أو يصم آذانه عنها .

---

(١) التلمود : أحد كتب اليهود ، ولكنهم لا يعتزون به ككتاب مقدس وهم يقولون إن ماجاء فى التلمود هو تعاليم وآداب دينية ودنيوية أنزلها الله على موسى شفوياً ليسير عليها بنو إسرائيل . ولتكون لهم دستوراً يحدد علاقتهم مع غيرهم من الأمم الأخرى .

(٢) سورة البقرة ... الآية ٧٩ .

ونحن فى الرد على هذا الزعم — ونقصد زعم اليهود بأن فلسطين أرض ميعادهم — لن نحاول أن ننكر ما جاء فى التوراة كتابهم المقدس ؛ لأنه كتاب من عند الله شأنه فى ذلك شأن الإنجيل بالنسبة للمسيحيين ، والقرآن الكريم بالنسبة للمسلمين . أما التلمود . . فنعتقد أننا لسنا فى حاجة للرجوع إليه ؛ لأن كثيراً من اليهود أنفسهم لايعترفون به . ولا يثقون فيما جاء فيه . . ورغم أن اليهود قد أدخلوا على التوراة كثيراً من التحريف والتغيير مما يجعلنا نشك كثيراً فى كل ما جاء بها . . إلا أننا سنتخذ منها مرجعاً ودليلا نثبت به كذبهم وافتراءاتهم .

وإن حاول الصهاينة أن يفسروا ما جاء فى كتبهم وفق رغباتهم ، ويزيفوه حسب أهوائهم ونزعاتهم . . إلا أننا سنلقى الأضواء على هذا الموضوع لتتضح لنا معالمه الحقيقية .

والآن نريد أن نتساءل : ما معنى أرض الميعاد ؟ وما حدودها ؟ وما موعد تحقيق هذا الوعد ؟ وعلى يد من ؟

أما بالنسبة للجزء الأول من السؤال فنقول :

إن أرض الميعاد سميت بهذا الاسم لأن الله سبحانه وتعالى وعد سيدنا إبراهيم وذريته من بعده أن يعطيها لهم ليقيموا فيها دولة ، وأن يجمعهم بعد شتات ، ويقويهم بعد ضعف ، ويجعل منهم أمة واحدة بعد تفكك وانحلال . وقد ورد فى التوراة كثير من العبارات عن أراض الميعاد :—

ففى الإصحاح الثانى تكوين . . يخاطب الرب سيدنا إبراهيم فيقول : « ونادى ملاك الرب ثانية من السماء ، وقال : بذاتى أقسمت يقول الرب : أباركك مباركة ، وأكثر نسلك كثيراً ، ويرث نسلك باب أعدائك ؛ ويتبارك فى نسلك جميع أمم الأرض . . »

ويتلقف اليهود هذه العبارة وغيرها ؛ ليجعلوا منها سنداً لهم يؤكدون به للعالم حقهم فى فلسطين ؛ باعتبارها الأرض التى وعد الله بها جدهم

إبراهيم ، وهكذا استطاعوا أن يختلقوا من ذلك تعبيرهم الذى أسموه (أرض الميعاد) .

أما عن الجزء الثانى من السؤال ، وهو حدود أرض الميعاد . . فقد اختلف اليهود أنفسهم فى تحديدها ، وتضاربت أقوالهم ، وتعددت تفسيراتهم ، وقام بينهم جدل كبير حول هذه النقطة :

فبعض اليهود يقولون : إن المقصود بأرض الميعاد . . فلسطين ، لأنها الأرض التى استقر فيها اليهود القدماء منذ سنة ١٠٠٠ ق.م. تقريباً، ولأنها الأرض التى فيها قامت دولتهم بعد أن تاهوا فى الصحراء ، ومن فلسطين هذه خرجت أسس الدعوة اليهودية ، وفيها تولى كثير من حكام اليهود وملوكهم الذين رفعوا راية الدعوة اليهودية من أمثال داود وسليمان وغيرهما .

ومن اليهود من جعل أرض الميعاد تشمل مناطق أكثر اتساعاً ، ولم يكتفوا بفلسطين وحدها . . وإنما أضافوا إليها شبه جزيرة سينا القائمة فى شمال شرق مصر والتى تصل بين آسيا وأفريقيا ، وكانت حجتهم فى ذلك أن هذه المنطقة نزلت فيها تعاليم ومبادئ الدعوة اليهودية على موسى عليه السلام . . حين خرج مع زوجته من أرض مدين؛ وعلى ذلك فهم يضيفون سينا إلى فلسطين لتصبحا معاً أرض الميعاد .

وذهب فريق ثالث إلى أبعد من ذلك ، فأضافوا إلى المنطقتين السابقتين « فلسطين وسينا » أجزاء من سوريا الحالية وغرب العراق ، وكانت حجتهم فى ذلك أن هذه الأجزاء قد خضعت فى يوم ما لليهود ، وأنها كانت فى وقت ما جزءاً من الدولة اليهودية حين اتسعت رقعتها ، وأن إبراهيم عليه السلام الجد الأكبر لبنى إسرائيل كان يقيم — قبل هجرته — فى أور بأرض العراق حين كانت تابعة للدولة الكلدانية . ثم إنه سار فى طريقه متجهاً إلى حوران ، ووصل إلى مناطق أخرى فى

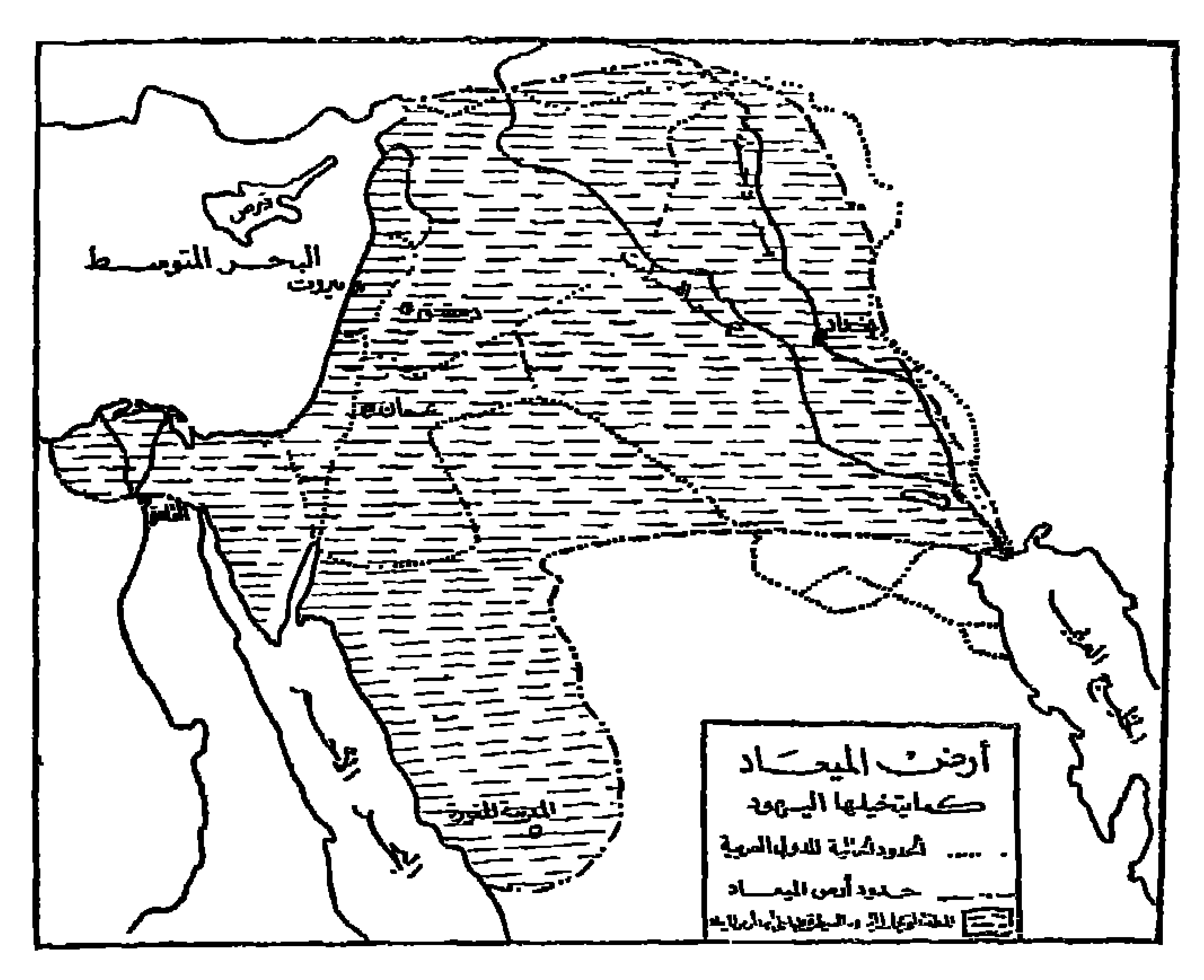
شمال الحجاز ، ومن أجل ذلك فهم (أى اليهود) يرون أنهم الوريث الشرعى لجدهم إبراهيم فى هذه المنطقة .

وأسرف بعض اليهود فى زعمهم ، ودفعتهم أنانيتهم وحبهم للسيطرة والتحكم إلى المزيد من الأطماع ، ولم يكتفوا بالأجزاء السابقة من فلسطين وسينا والعراق وسوريا وإنما أضافوا إليها أجزاء من مصر « الوجه البحرى » زاعمين أن بنى إسرائيل قد عاشوا فى دلتا النيل بمصر فترة طويلة ، وأن موسى نبيهم نشأ وشب فى مصر ، وأن الأجداد الأول لليهود — وهم يقصدون بذلك أبناء يعقوب الذى هو إسرائيل — سكنوا مصر فترة طويلة ، وأنهم (أى الإسرائيليين) قد خرجوا من مصر لظروف طارئة حين أمرهم موسى بالخروج معه لينشروا دينه ولينقذوا أنفسهم من اضطهاد المصريين . وعلى ذلك فاليهود يدخلون شمال مصر فى حدود ما أسموه أرض الميعاد . وبذلك تكون حدود أرض ميعادهم : من الفرات شرقاً إلى النيل غرباً راجع الخريطة شكل (١) .

وحتى يؤكد اليهود قولهم يذكرون ما جاء فى سفر يشوع عن الأرض التى وعد بها أبناء يعقوب . . والتى حددها السفر بقوله : « من البرية ولبنان إلى هذا النهر الكبير نهر الفرات ، وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس » .

إذن فالصهاينة أنفسهم مختلفون فى تحديد الأرض التى يزعمون أنها أرض ميعادهم . وسواء أكان التحديد الأول أم الأخير ، فإن هذا لا يعنينا فى قليل أو كثير بقدر ما يعنينا أن نوضح مدى التخبط الذى يعيش فيه الصهاينة .. حتى إنهم لا يعرفون بالضبط حدود الأرض التى يطالبون بها ، فكيف يجهل صاحب الحق معالم حقه وحدود أرضه ؟ !!

ومن العجيب أن نرى بعض اليهود — رغم زعمهم هذا — لا يتشبثون بفلسطين لتكون أرض ميعادهم ، وإنما يطالبون بأية منطقة أخرى يحققون



شكل (١) يبين حدود أرض الميعاد

فيها أحلامهم بإقامة وطن يهودى ، فقد نادى مندلسون ذات يوم بضرورة إقامة وطن لليهود ، ولو فى غير فلسطين .. وحدث أن فكر كثير من الصهاينة — قبل صدور وعد بلفور — بإقامة دولة لهم فى قبرص أو مدغشقر ، فكيف لا يتمسك اليهود بحقهم إن كانوا مقتنعين بهذا الحق ؟ !!

أما بالنسبة للجزء الثالث من السؤال وهو موعد تحقيق هذا الوعد ، وعلى يد من يمكن تحقيقه ؛ فاليهود أنفسهم قد اختلفوا فى ذلك أيضاً :

فبعض اليهود يقولون إن تحقيق هذا الوعد سيتم على يد ما أسموه المسيح المنتظر ، وأن هذا المسيح سيخرج من بيت داود ويجمع شمل اليهود ، ويعود بهم

إلى أورشليم عاصمتهم القديمة . ولكن .. متى يظهر المسيح الذى ينتظر اليهود مقدمه بفارغ الصبر ؟ . لقد ورد فى التلمود أنه سيظهر عندما تطرح الأرض فطيراً وملابس من الصوف وقمحاً كبيرا حجم الحبة منه فى مثل حجم كلاوى الثيران الكبيرة . ! !

هذه هى علامة ظهور المسيح عند اليهود ، ولكن يبدو أنهم أحسوا بتأخير من ينتظرونه . أو لعلهم أيقنوا أن الأرض لن تنتج لهم الفطير ، ولن تطرح لهم الملابس الصوفية ، وحتى لو حدث ذلك فليس من المعقول أن تنتج لهم الأرض قمحاً كبيراً حجم الحبة الواحدة منه فى حجم كلية الثور ! ومن أجل ذلك تناسى اليهود كثيراً مما جاء فى تلمودهم ، وهم دائماً على استعداد لأن يتناسوا كل مالا يتفق وآمالهم أو يتعارض مع أطماعهم .

لذلك رأينا بعض اليهود من أمثال جيجر وصموئيل هو لديم ينكرون فكرة المسيح المنتظر — ألم نقل إنهم لا يثقون بما جاء فى التلمود — ويدعون الصهاينة إلى الإسراع بالاستيلاء على فلسطين . بل أمعنوا فى جرأتهم وتزويرهم فحذفوا من كتبهم كل ما جاء فيه عن المسيح ، ولعل الصهاينة وجدوا فى بن جوريون المسيح المنتظر !! ولعلهم ظنوا أن الأرض على يديه ستطرح الفطير والملابس والقمح الكبير . . ! !

ولكى نرد على مزاعم الصهيونية ونكشف أكاذيبهم فيما أسموه أرض الميعاد . . نرجع إلى ما جاء فى الكتب المقدسة :

فى الإصحاح السابع عشر تكوين . . يوجه الله خطابه إلى نبيه إبراهيم عليه السلام فيقول : « أنا الله القدير . . أجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك تكثيراً جدا ، وتكون أباً لجمهور الأمم ، وأجعلك أمماً ، وملوك منك يخرجون ، وأقيم عهداً بينك وبين نسلك فى أجيالك عهداً أبديا لأكون إلهاً لك ولنسلك من بعدك ، وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك . كل أرض كنعان ملكاً أبديا . . »

وفى الإصحاح الأول تثنية : يذكر موسى قومه بكلام الربّ فيقول : « ادخلوا وتملكوا الأرض الأرض التى أقسم الربّ لآبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم . . الربّ قد كثركم وها أنتم كنجوم السماء فى الكثرة . . »

وفى الإصحاح السابع من أعمال الرسل أحد أسفار العهد الجديد . . « ظهر إله المجد لأبينا إبراهيم ، وقال له : اخرج من أرضك وعشيرتك وهلم إلى الأرض التى أريك ، فخرج إبراهيم من أرض الكلدانيين وسكن حوران ، ومن هناك نقله إلى الأرض التى أنتم ساكنون فيها ، ولم يعطه فيها ميراثاً ولا وطأة قدم، ولكن وعده الله أن يعطيها له ولنسله من بعده » .

وهذا يتفق مع ما جاء فى القرآن الكريم فى كثير من الآيات :

ففى سورة الأَعراف[١] : يقول الله تبارك وتعالى : « قَالَ موسى لِقَومِه اسْتَعِينوا بالله واصْبِرُوا إنَّ الأَرْضَ لله يُورِثُها مَنْ يَشَاءُ مِنْ عبادِهِ والْعَاقِبةُ للْمُتَّقِين » .

وفى سورة الأَعراف[٢] مرة أُخرى يقول الله : « وأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِين كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمغَارِبَها الَّتى بَارَكْنَا فيهَا وتَمَّت كَلمَةُ ربّك الْحُسْنَى عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ودمَّرْنَا مَا كانَ يَصْنَعُ فِرْعَونُ وقَوْمُه ... »

وفى سورةالنور[٣] يقول الله: « وعَدَ الله الَّذين آمَنُوا مِنْكُم

---

(١) الآية ١٢٨ . (٢) الآية ١٣٧ . (٣) الآية ٥٥ .

وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهم فى الأَرْضِ كَما اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ولَيُمكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهم الَّذِى ارْتَضَى لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهم من بَعْدِ خَوْفِهِم أَمْناً يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً ومَنْ كَفَر بعد ذَلِكَ فأُولئِكَ هُمُ الفَاسِقُون » .

وفى سورة الأَنبياء [1] يقول الله : « ولَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ منْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ الصَّالِحُونَ ».

هذه هى بعض أمثلة لما جاء فى الكتب المقدسة ، ومنها تتضح الحقائق الآتية :

١ ــ أن وعد الله سبحانه وتعالى ليس موجهاً إلى الصهاينة أو إلى اليهود، وإنما هو موجه إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام وذريته من بعده.. يتساوى فى ذلك إسرائيل « يعقوب » وذريته ، وإسماعيل وذريته أيضاً ــ بمعنى أن هذا الوعد ليس مقصوراً على بنى إسرائيل وحدهم، ولا من يدين بالديانة اليهودية دون الديانات الأخرى ، أو يعتنق المذهب الصهيونى دون غيره ، وإنما هذا الوعد لسلالة إبراهيم على الإطلاق ، وقد ثبت أن أنبياء الديانات الثلاث ، وهم موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام كلهم يرجعون إلى جدهم الأكبر إبراهيم ، وبالتالى فكلهم أصحاب حق فى أرض الميعاد ، وليس لليهود وحدهم هذا الحق ، ويؤكد ذلك ما جاء فى القرآن الكريم فى سورة البقرة [2] :

---

(١) الآية ١٠٥ .　　(٢) الآية ١٢٤ .

«وإذِ ابْتَلَى إبرَاهِيم رَبُّهُ بِكَلمِاتٍ فأَتَمَّهُنَّ قَالَ إنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَاماً ، قَال ومِنْ ذُرِّيتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِين».

٢ ـ أن الله سبحانه وتعالى لم يحدد موعداً لتحقيق وعده ، فيصح أن نقول : إن هذا الوعد قد تحقق فعلا فى عهد موسى عليه السلام حين أنقذ بنى إسرائيل من ظلم فرعون وخرجوا معه من مصر إلى سينا ثم إلى فلسطين حيث كونوا لهم ما أسموه بدولة قائمة على أسس دينية ، أهمها طاعة الرب وعبادته والتقرب إليه ، ومما يؤكد ذلك قوله تعالى فى سورة الأعراف[1] : «قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُم أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُم فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُون» .

وفى تعبير «عسى» ما يفيد الاحتمال ولا يفيد الإلزام ؛ بمعنى أن الله قد علم بما يلاقيه الإسرائيليون من عذاب على يد فرعون ؛ فوعدهم بالخير وأهلك عدوهم (فرعون) ، وذكر لهم أنهم ربما يكونون خلفاء فى الأرض . بمعنى أنهم سيخلفون قوماً فى أرضهم . . هذا إن كانت أعمالهم صالحة . وعلى كل فقد حدث ذلك من قبل مما لا يدع مجالا لحدوثه مرة أخرى ، ولقد ذكرت التوراة ما يوضح ذلك فى الإصحاح الأول تثنية والذى سبق ذكره وفيه يقول موسى لقومه «ادخلوا وتملكوا الأرض التى أقسم الرب لآبائكم أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم..» وفى قوله تعالى: «وأَوْرثْنا

---

(١) الآية ١٢٩ .

الْقَوْمَ الَّذِين كَانوا يُسْتَضْعَفُون ... »

فى هذه الآية ما يدل على أن وعد الله قد وقع فعلا فى عهد موسى ومن جاء بعده من ملوك بنى إسرائيل وأنبيائهم . ونلاحظ أن الفعلين « أورثنا – كانوا » جاءا بصيغة الماضى ، بمعنى أن ذلك وقع فعلا أى قبل رسالة محمد . ومما يزيد فى التوكيد أن الفعل « تمّ » فى « وتمّت كلمة ربك » هو الآخر فى الزمن الماضى . أما فى قوله تعالى : « اسْتَعِينُوا بِاللهِ واصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبَادِه .. » فإن الفعل « يورث » جاء بصيغة المضارع الذى يمكن حدوثه فى الوقت الحاضر ، ولكنه قرن ذلك بشرط آخر وهو أن هذا التوريث ليس مقصوراً على بنى إسرائيل ولكنه « لمن يشاء من عباده » أيًّا كان هؤلاء العباد ، ثم إن قوله تعالى « والعاقبة للمتقين » إشارة إلى أن هذا التوريث يكون للذين يتصفون بالتقوى والصلاح ، ويتقربون إلى الله ، ويتبعون تعاليمه ، والآية :

«وعَدَ اللهُ الَّذِين آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهم فى الأَرْض كمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِين مِنْ قَبلِهم» إشارة إلى ما حدث قَبل ذلك من أن بعضاً من الناس قد استخلفوا فى الأرض ؛ أى فى مكان من هذه الأرض ، ولعل المقصود بهم هم أصحاب الدعوة اليهودية حين مكنهم الله من جزء من فلسطين . ثم إن الله اشترط لمن يكونوا خلفاء فى الأرض أن يكونوا مؤمنين ، ويعملوا الصالحات ، فهل يرى الصهاينة فيما يعملونه الآن : وفى سلوكهم وظروف حياتهم .. هل يرون فى كل ذلك شيئاً من الأعمال الصالحة ؟!! وهل يعتقدون أن مذابح دير ياسين واعتداءاتهم المتكررة والظروف السيئة القاسية التى يعيش فيها عرب فلسطين بعيداً عن

ديارهم ، وتلك السياسة الاستعمارية التى تنتهجها إسرائيل . . هل يرون فى ذلك شيئاً من الأعمال الصالحة يستحقون عليه الخلافة فى الأرض ؟!!

قد ينكر اليهود ما جاء فى القرآن الكريم ؛ لأنهم لا يؤمنون به ولا يعترفون به ككتاب سماوى ؛ ولذلك نرى لزاماً علينا أن نسوق إليهم دليلا آخر من التوراة : فالإصحاح الأول تثنية السابق ذكره جاءت فيه الأفعال « ادخلوا ، تملكوا ، كثركم » الفعلان الأول والثانى جاءا بصيغة الأمر الذى يدل حدوثه على وقت الكلام أو بعده بقليل ، أما الفعل الثالث فقد جاء فى صيغة الماضى . بمعنى أن موسى قال لقومه : إن الله وعد جدكم إبراهيم بكذا وكذا ، وها قد كثر عددكم وجاء موعد تحقيق وعده ، فادخلوا الأرض التى وعدكم الرب بها .

فوعد الله إذن قد تحقق على يد موسى ، وكان ذلك فى صورة دولة دينية ، فلما انحاز اليهود عن تعاليم الرب ، وعصوا ما أمرهم به موسى ، وفسدوا وضلوا . . تخلى الله عنهم وتركهم لبطش جيرانهم ، وأزال عنهم ما وهبه لهم من قبل ، وفى ذلك يقول الله تبارك وتعالى فى سورة مريم [1] :

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وِمِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وإِسْرَائِيلَ ومِمَّنْ هَدَيْنَا واجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سجَّدًا وبُكِيًّا * فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ واتَّبَعُوا

---

(١) الآيتان ٥٨ ، ٥٩ .

الشَّهوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا . . »

وفى قوله تعالى[1] : « وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِم إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ » .

٣ – من الممكن أن نقول : إن وعد الله قد تحقق فى عصر آخر غير عصر موسى ، ونقصد به عصر الملكين داود وسليمان وهما من ملوك وأنبياء بنى إسرائيل ، وخلال حكمهما ارتفع شأن الدعوة اليهودية ، ووصلت إلى أجزاء كثيرة خارج فلسطين مثل شبه الجزيرة العربية واليمن . حدث ذلك بعد أن مر اليهود بفترة عصيبة من تاريخهم ، يؤكد ذلك ما جاء فى الإصحاح الحادى عشر من أشعيا أحد أسفار العهد القديم : « ويخرج قَضِيبٌ من جِذْعِ يسَّى ويَنْبتُ غُصْنٌ من أُصُوله ، ويحلّ عليه رُوحُ الرّب ، رُوح الحكمةِ والفهم ، رُوح المَشُورة والقوَّة ، روحُ المعرفةِ ومَخَافَةِ الرب ، ولَذَّتُه تكون فى مخافةِ الرَّب ، فَلَا يَقْضِى بَحسَبِ نَظَرِ عَيْنَيْه ، وَلَا يحْكُم بحسب سمْع أُذنَيْه بَلْ يقْضِى بالعدل للْمَساكِين ويحكمُ بالإنْصَافِ لِبَائِسى الأَرض ، ويكُون ذَلك فى اليوم أنّ أَصل يسَّى القَائِم رَايةً للشُّعوب ، إيَّاه تَطْلُب الأُممُ ،

---

(١) الآية ١٦٧ من سورة الأعراف .

ويكون مَحلَّه مَجْدًا ، ويكُون فى ذلكِ اليوم أنَّ السَّيد يَعْطِى السَّيد يَدَه مرَّة ثانية لِيَبْقِى بَقِيَّةَ شَعبه الَّتِى بَقِيت من آشُور من مِصْر ومن فَتْرُوس ومن كُوش ومن عِيلَام ومن شَنْعَار ومن حمَاة ومن جَزَائر الْبَحر ، ويَرْفَعُ رَايةً لِلْأُمَم ، وَيَجْمع منْفِيِّى إِسْرَائيل ، ويضُمُّ مُشَتَّتِى يَهُوذَا مِن أَربَعةِ أَطْرَافِ الأَرْضِ » وهذه الصفات تنطبق كلها على سليمان بن داود .

ويذكر لنا الإصحاح الأول من إنجيل متى والذى سيرد نصه بعد قليل : أن يسى هذا الذى تحدث عنه إصحاح أشعيا هو جد سليمان .

وعلى ذلك يمكن أن نقول : إن وعد الله إن لم يكن قد تحقق فى عهد موسى ، فهو قد تحقق فى عهد سليمان فقد عرف عنه الحكمة والعقل ورجاحة التفكير والسداد فى الرأى كما ثبت أن الديانة اليهودية قد عظم شأنها فى عهده وهو ما تحدث عنه إصحاح أشعيا .

٤ — نستطيع أن نقول : إن وعد الله قد تحقق فى عهد عيسى عليه السلام ، حين جاء بالدعوة المسيحية . ولقد ظهر عيسى فى فترة حرجة من تاريخ اليهود ، فإن فلسطين فى ذلك الوقت كانت خاضعة لحكم الرومان الذين أنزلوا بسكان فلسطين — ومنهم اليهود طبعاً — أقسى أنواع التعذيب والقسوة ، وكانت تعاليم عيسى عليه السلام تدعو إلى عبادة الله والعدل ، والمحبة ، والسلام ، وكان فى هذه التعاليم إحياء للكثير من مبادئ

الدعوة اليهودية . . لذلك من الممكن أن نقول : إن وعد الله لإبراهيم قد تحقق على يد عيسى فى صورة ظهور الدعوة المسيحية .

قد ينكر اليهود أن عيسى من بنى إسرائيل، ولكننا نورد هنا بعض ما جاء فى الكتب المقدسة التى تؤيد إسرائيلية عيسى :

فى الإصحاح الثالث عشر من أعمال الرسل : « أيها الرجال الإسرائيليون . . إله شعب إسرائيل هذا اختار آباءنا ، ورفع الشعب فى البرية أرض مصر : ثم أهلك سبع أمم فى أرض كنعان . . ثم أعطاهم قضاة حتى صموئيل النبى . . فأعطاهم شاءول ، وأقام لهم داود ملكاً . . من نسل هذا حسب وعد الله أقام الله لإسرائيل مخلصاً يسوع . . ونحن نبشركم بالموعد الذى صار لآبائنا أن الله قد أكمل هذا لنا نحن أولادكم إذا أقام يسوع كما هو مكتوب أيضاً فى مزمور آخر » .

وفى الإصحاح الأول من إنجيل متى « كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم . . إبراهيم ولد إسحق ، وإسحق ولد يعقوب ، ويعقوب ولد يهوذا وإخوته ، ويهوذا ولد فارض وزارح من ثامار ، فارض ولد حصرون ، وحصرون ولد آرام ، وآرام ولد عميناداب ، وعميناداب ولد نحسون ، ونحسون ولد سلمون ، وسلمون ولد بوعز من راحاب . وبوعز ولد غوبيد من راعوث ، وعوبيد ولد يسى[1] ، ويسى ولد داود الملك ، وداود الملك ولد سليمان من التى لأوريا ، وسليمان ولد رحيعام ، ورحيعام ولد أبيا ، وأبيا ولد آسا ، وآسا ولد يهوشافاط ، ويهو شافاط ولد يورام ، ويورام ولد عريا ، وعريا ولد يوثام ، ويوثام ولد أحاز . وأحاز ولد حزقيا ، وحزقيا ولد منسى ، ومنسى ولد آمون ، وآمون ولد يوشيا ، ويوشيا ولد يكنيا وإخوته عند سبى بابل ، وبعد سبى

---

(١) يسى هو الذى ورد ذكره فى الإصحاح الحادى عشر من أشعيا .

بابل يكنيا ولد شألتيل ، وشألتيل ولد زربابل ، وزر بابل ولد أبيهور ، وأبيهور ولد الياقيم ، والياقيم ولد عازور ، وعازور ولد صادوق ، وصادوق ولد أجيم ، وأجيم ولد أليود ، وأليود ولد أليعازر ، وأليعازر ولد منان ، ومنان ولد يعقوب . ويعقوب ولد يوسف رجل مريم التى ولد منها يسوع .. »

وفى رسالة إلى رومية .. ولما بعث المسيح عليه السلام أنكر كهان الهيكل بعثته ، وآمن به بعض اليهود وبعض أبناء الأمم المقيمين فى فلسطين ، واحتج القوم عليه بوعد إبراهيم لهم ، فقال لهم : « إن أبناء إبراهيم بالروح هم الموعودون بالخلاص فكل من يدين بدينه فهو من أبنائه » .

يتضح مما سبق أن عيسى عليه السلام من سلالة بنى إسرائيل وأن دعوته ، كانت عودة ببنى إسرائيل إلى الحق ، وإنقاذهم مما سادهم من ضلال وفساد ، وأن دعوته هذه كانت إحياء لدعوة موسى ، ولذلك فلابأس من أن نعتبر ذلك تحقيقاً لوعد الله لإبراهيم .

٥ ــ ذكرنا من قبل أن وعد الله لم يكن مقصوراً على بنى إسرائيل وحدهم وإنما كان لسلالة إبراهيم ، ولكن هل اقتصرت سلالة إبراهيم على بنى إسرائيل وحدهم . . ؟ الحقيقة . . لا . . فقد كان لإبراهيم ابن آخر هو إسماعيل صاحب قصة الفداء المشهورة ، وهو الجد الأكبر لسيدنا محمد عليه الصلاة السلام ، ويؤكد هذا قول الرسول الكريم : « إن الله اصطفى من كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم ، فأنا خيار من خيار من خيار » والمعروف أن كنانة يتصل بمعد بن عدنان الذى يتصل نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام .

فمن الجائز إذن أن نقول إن هذا الوعد ممكن تحقيقه فى بيت إسماعيل ، بل يمكن أن نقول إن وعد الله لإبراهيم قد تحقق على يد محمد عليه الصلاة والسلام حينما جاء بالدعوة الإسلامية التى هى فى

الحقيقة استعادة لمبادئ الدعوتين اليهودية والمسيحية مع بعض اختلافات اقتضتها الظروف التى كانت سائدة وقت ظهورها .

قد ينكر اليهود نسبة محمد إلى إبراهيم حتى لا يعترفون للمسلمين بحقهم فى فلسطين، وقد يدعون أن وعد الله لإبراهيم كان مقصوراً على ذرية إسحق دون إسماعيل ، وهم يستشهدون بما جاء فى الإصحاح السابع عشر تكوين والذى ورد فيه أن الله قال لإبراهيم : « ساراى امرأتك لا تسمها ساراى بل سمها سارة ، وأنا أباركها وأعطيك منها ابنا ويكون منها أمم وملوك ، فسقط إبراهيم على الأرض وضحك . . ثم قال للرب : لو أن إسماعيل يحيا بين يديك ، فقال الله بل سارة ستلد لك ابنا وتسميه إسحق وأقيم عهداً معه عهداً مؤبداً لنسله من بعده ، وأما إسماعيل فقد سمعت قولك فيه ، وها أنا أباركه وأنميه وأكثره جداً ويلد اثنى عشر رئيساً ، واجعله أمة عظيمة . . غير أن عهدى أقيمه مع إسحق الذى ستلده سارة . . »

وبهذه العبارات التى أقحموا بها فى التوراة يدعون أن وعد الله مقصور على ذرية إسحق دون إسماعيل . وإذا نحن أمعنا النظر فيما جاء بهذا النص لوجدنا فيه مغالطات صريحة واضحة يمكن أن نذكرها فى النقط الآتية :

(ا) إن عدالة الرب تأبى أن يخص الخير بواحد من ولدى إبراهيم دون الآخر طالما أن هذا الآخر لم يأت بما يستوجب حرمانه من هذا الحق ، وفى تعبيره عن إسماعيل « أباركه وأنميه وأكثره » ما يؤكد رضاء الرب عنه ، وبالتالى فليس هناك ما يدعو لحرمانه من حقوق له فيها ما لأخيه الآخر وهو إسحق ، وإلا كان هذا دافعاً لإثارة الحقد والكراهية بين الأخوين وهذا ما ننزه عنه الرب ولا نعتقد فيه .

(ب) إذا رجعنا إلى الإصحاحات التى ورد ذكرها فى التوراة والتى أوردنا هنا بعضاً منها . . وجدنا أن الله لم يحدد ابناً واحداً من أبناء إبراهيم ليكون صاحب هذا الوعد وإنما جعله مطلقاً ، يدل على ذلك ما جاء فى

الإصحاح الأول من أعمال الرسل (وهو من أسفار العهد الحديث) وقد جاء بعد الإصحاح السابع عشر تكوين (أحد أسفار العهد القديم) ومعنى ذلك أن أحد الإصحاحين خطأ والآخر صحيح ، وأنهما متعارضان وبالتالى نسقطهما من حسابنا ونكتفى بإطلاق الوعد على ذرية إبراهيم .

(ج) فى الإصحاح الخامس والعشرين تكوين قصة توحى بأن تفضيل سلالة إسحق على إسماعيل أمر مختلق . اختلقه من لهم مصلحة فى ذلك ، وقد دفعهم إلى ذلك سوء القصد والنية والتحيز إلى الباطل ، ومحاولة تركيز الحقوق كلها لسلالة إسحق دون إسماعيل ، ولسلالة إسرائيل دون عيسو الذى يعتبر شقيقاً لإسرائيل وهما توأمان . والقصة تحكى أن يعقوب « إسرائيل » طبخ طبيخاً ، وأن عيسو أخاه قدم من الصحراء متعباً من الصيد ، وطلب عيسو من أخيه أن يعطيه بعض الطعام الذى طبخه ولكن يعقوب « إسرائيل » رفض هذا الطلب . رفض أن يعطى أخاه بعض الطعام رغم ما يشعر به من جوع وتعب ، ولم يكتف بذلك بل انتهز هذه الفرصة ، وراح يساوم أخاه على الثمن ، ثمن الطعام وكان ثمناً عجيباً . إذا طلب إسرائيل من أخيه أن يتنازل له عن بكوريته ، أو بمعنى آخر أن يعترف عيسو بأنه ولد بعد ولادة يعقوب ، مع أن الحقيقة عكس ذلك : عيسو ولد أولا ويعقوب ولد بعده ، وهذه القصة تظهر مدى الأنانية التى حاول اليهود أن يقحموها فى كتبهم أو على الأقل يجدوا فيها سنداً يبررون به أنهم أفضل من غيرهم حتى إنهم سموا أنفسهم بشعب الله المختار . فليس بغريب عليهم أن يدعو – باطلا – أن وعد الله لإبراهيم كان مقصوراً على ذرية إسحق دون إسماعيل .

سواء أكان هذا الوعد قد تحقق على يد موسى أم على يد سليمان أم على يد عيسى أو محمد . . فمما لا شك فيه أن ذلك قد حدث فعلا فى

الزمن الماضى ، وبالتالى فليس هناك ما يدعو لحدوثه مرة أخرى فى الوقت الحاضر كما يدعى الصهاينة ، ومما لاشك فيه أيضاً أن تحقيق هذا الوعد ليس معناه إقامة دولة سياسية عنصرية ولكن معناه الحقيقى . . العودة إلى تعاليم الرب وعبادته وإعلاء شأنه .

٦ – لو سلمنا جدلا أن وعد الله لم يتحقق فى العصور الماضية ، ولو سلمنا جدلا أن هذا الوعد وَقْف على بنى إسرائيل دون سواهم من سلالة إبراهيم . . نقول لو فرضنا ذلك جدلا ؛ لأننا قد أثبتنا من قبل غير ذلك ، لكننا نريد أن نساير اليهود فى مزاعمهم ونتمشى معهم فى أكاذيبهم لكى نبطل كل حجة ، وندحض كل زعم . . لعلهم يقتنعون . . ! .

نقول لو فرضنا ذلك . . فأين هم بنو إسرائيل ؛ ليحققوا وعد الله فى أرض فلسطين ؟ هل هم كل من يدين بالديانة اليهودية ؟ أم هم كل من يعتنق الدعوة الصهيونية ؟ وهل من السهل العثور على كل من ينتسب إلى بنى إسرائيل مهما كانت جنسيته أو ديانته ؟ حتى نجمعهم فى فلسطين ؟ ! إن هذا كما يبدو أمراً مستحيلا ؛ ذلك لأنه ليس كل إسرائيلى يهوديًّا أو صهيونيًّا ، وليس كل يهودى أو صهيونى يرجع إلى سلالة بنى إسرائيل .

لقد انتشر الدين اليهودى أول ما انتشر بين بنى إسرائيل . . هذا صحيح . ولكن . . هل اقتصر عليهم فقط . ؟ الحقيقة أن الدعوة اليهودية انتشرت بين سكان فلسطين سواء كانوا من الكنعانيين أم الفلسطينيين أم الفينيقيين أم الآراميين ، ثم انتشرت هذه الدعوة فى المناطق المجاورة لفلسطين . . فى العراق وسوريا ومصر وشبه الجزيرة العربية واليمن ، ثم اتسع نطاق هذه الدعوة ، فوصلت إلى أوربا فى العصور القديمة والوسطى ، ثم وصلت إلى الأمريكتين فى العصر الحديث . . معنى ذلك أن الإسرائيليين قد اختلطوا بغيرهم من الأجناس الأخرى ، وأن غير

الإسرائيليين اعتنقوا الدعوة اليهودية ، ولهذا فليس من السهل العثور على إسرائيلي حقيقي لحما ودماً .

وحينما ظهرت الدعوة المسيحية فى القرن الأول الميلادى . . انتشرت مبادئها وتعاليمها فى فلسطين ، ومما لا شك فيه أن كثيراً من اليهود الإسرائيليين قد اعتنقوا هذه الدعوة كما اعتنقها غيرهم من غير الإسرائيليين . . إن لم يكن فى أول الأمر فعلى مر الأيام والسنين ، ومعنى ذلك أن بعض المسيحيين يرجعون فى نسبهم إلى بنى إسرائيل .

وفى القرن السابع الميلادى . . انتشر الدين الإسلامى فى فلسطين حين فتح العرب بلاد الشام وانتزعوها من أيدى الرومان ، وأرسل خالد بن الوليد رسالته المشهورة إلى ملك الروم يقول له : « إن الله أنعم بهذه الأرض على إبراهيم وبنيه ، ونحن من ولد إبراهيم . » وبذلك أصبحت فلسطين جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية ، ومن الطبيعى . . فإن كثيراً من اليهود الباقين ، وكثيراً من المسيحيين الإسرائيليين وغير الإسرائيليين قد اعتنقوا الدين الإسلامى . وهذا مما يؤكد أن بعض المسلمين أو المسيحيين من اصل إسرائيلى ، وبذلك لا نستطيع التعرف على بنى إسرائيل الحقيقيين حتى نعطيهم فلسطين !!

٧ ـ إذا أصر الصهاينة على أن فلسطين من حقهم لأنها أرض ميعادهم ولأنهم من سلالة بنى إسرائيل ، أو من سلالة إبراهيم . . فإن هذا يعتبر حقاً للمسلمين ، وحقاً للمسيحيين على حد سواء ولئن أصر الصهاينة على أن يقيموا لهم دولة يهودية فى فلسطين . . فإن من حق المسيحيين كذلك أن يقيموا لهم دولة مسيحية فى فلسطين . بل إن حجتهم فى هذه الحالة تكون أقوى من حجة اليهود على الأقل لأن عيسى نبيهم وُلدَ ونشأ فى فلسطين بعكس موسى نبى اليهود الذى ولد ونشأ خارج فلسطين . . ثم إنه يكون من حق المسلمين كذلك أن يقيموا لهم دولة

إسلامية فى فلسطين لأن محمداً نبيهم من سلالة إبراهيم ، ولأن كثيراً من المسلمين يرجعون إلى سلالة بنى إسرائيل كما سبق أن وضحنا . . ومعنى ذلك أن تصبح فى فلسطين ثلاث دول تقوم على ثلاث ديانات ، وهذا أمر غير طبيعى ، ولا يمكن حدوثه فى العصر الحاضر . . العصر الذى اتصف بالتسامح الدينى والبعد عن التعصب المذهبى والطائفى ، ولم يعد للدول القائمة على الصبغة الدينية أو المذهب العنصرى مجال فى هذا العصر .

وهنا يثب إلى الأذهان سؤال آخر . . وهو لماذا يصر الصهاينة على تحقيق ما أسموه أرض الميعاد فى هذا العصر بالذات ؟ لعلهم أرادوا بذلك أن يحشروا كل صهيونى فى زمرة الإسرائيليين ، ولعلهم أرادوا أن يقحموا كل يهودى فى سلالة إبراهيم . . ! !

وإذا كان بن جوريون ، وموشى ديان ، وجولدا مائير ، وغيرهم . . من هؤلاء المشردين المنبوذين الذين جىء بهم من أكثر من اثنتين وخمسين دولة . . إذا كان هؤلاء وغيرهم يستطيعون أن يثبتوا أنهم من سلالة إسرائيل أو إبراهيم . . فإننا قد نسمح لهم بالإقامة فى فلسطين كأفراد عاديين ، ولكننا لن نسمح لهم — بأى حال من الأحوال — أن يقيموا لهم دولة يهودية أو صهيونية تأتمر بأمرهم ويخضع شعبها لحكمهم . . أستغفر الله . . إننا لن نسمح لهم بالبقاء فى فلسطين إطلاقاً حتى لا يدنسوا أرضها الطاهرة بنواياهم السيئة ، وحتى لا يسيئوا إلى شعب فلسطين أو يشعلوا نيران الفتنة فيه .

لقد استطاع الصهاينة ذات يوم — حين اشتد بطش الألمان بهم — أن يثبتوا أنهم من أصل جرمانى ، وأن الدماء الألمانية تجرى فى عروقهم ، كما أنكروا على عروقهم الدماء الآسيوية ؛ وذلك حتى يكف الألمان عن اضطهادهم ، وحتى يخلصوا أنفسهم من ظلم النازيين الذين أذاقوهم

العذاب والهوان والاحتقار

فلماذا نراهم الآن يؤكدون أن دماءهم آسيوية ؟ ! ! هل تغيرت هذه الدماء ؟!! أو هل أصبحت فلسطين قطعة من ألمانيا أو من أوربا وليست من آسيا ؟!!

ومن الحقائق الواضحة أن اليهود اختاروا تحقيق هذا الوعد فى العصر الحاضر بالذات ؛ نتيجة لما كانوا يلاقونه من المعاملة السيئة فى الدول التى يعيشون فيها . . لا لأنهم من بنى إسرائيل ، ولا لأنهم يهود . . وإنما بسبب ما اختصوا به من طابع اجتماعى خاص ، ومن صفات مادية وخلقية ونزعات تعصبية . . جعلتهم مكروهين من أفراد الشعوب التى ينتمون إليها ، وأصبحوا فى شبه عزلة عن بقية أفراد وطنهم .

ولعل اليهود قد اختاروا هذا العصر بالذات لتحقيق وعدهم منتهزين الظروف السيئة التى كان العرب يعيشون فيها ، وما صاحب ذلك من ظروف استعمارية حين راح المستعمرون من الإنجليز والفرنسيين والأمريكان يساندون اليهود ، وساعدهم فى ذلك الخونة والرجعيون العرب . . إذا كان ذلك قد حدث فى الماضى . فإن الظروف قد تغيرت ؛ وما كان بالأمس لن يكون اليوم ، ولن يكون غداً .

مرة أخرى . . نؤكد للعالم أن ما يدعيه اليهود من أرض الميعاد خرافة لا يمكن تصديقها ، ولا يمكن أن يكون هذا الوعد لليهود ولا للصهاينة . . وهى حجة ساقطة موءودة ، وخرافة ممقوتة لا يمكن الاعتماد عليها لإثبات حق ، بل هى فى حد ذاتها تنكر ذلك الحق على من يدعونه ، وتؤكده لأصحابه الحقيقيين . . العرب .

الفصل الثانى

أكذوبة الحق التاريخى

وهذا زعم آخر من مزاعم الصهيونية التى يبرر بها اليهود استيلاءهم على فلسطين . وهو ما أسموه « بالحق التاريخى » ، وتعبير الحق التاريخى الذى يقصده اليهود هو ذلك الحق المبنى على أساس قيام دولة يهودية قديمة فى فلسطين . فهم يزعمون أن الأجداد الأوائل لليهود قد استطاعوا منذ عصور ما قبل الميلاد إقامة دولة لهم وأنشأوا لهم فيها حضارة .. منذ حوالى ثلاثة آلاف سنة ، وهم لذلك يرون أنهم أحق بأن يعودوا إلى وطن آبائهم وأجدادهم !!

ولكى نرد على هذا الزعم ، لنتعرف مدى صحته أو كذبه — يجدر بنا أن نجيب على الأسئلة الآتية :

١ — هل كانت فلسطين خالية من السكان قبل مجىء اليهود إليها أم كانت مسكونة بقبائل غير القبائل اليهودية ؟

٢ — وإذا ثبت أنها كانت مسكونة . . فهل سكت هؤلاء السكان عن اليهود حينما انتزعوا جزءاً من أرضهم . . أم قاوموهم واستعادوا ديارهم ؟

٣ — وحتى لو كان لليهود تاريخ قديم فى فلسطين ، فهل هذا يعطى لهم حق الاستيلاء عليها و إقامة دولة لهم فيها ؟

فبالنسبة للسؤال الأول : نجد أن المصادر التاريخية القديمة والأبحاث الحديثة بل كتب اليهود المقدسة . . تؤكد أن فلسطين كانت مسكونة

بقبائل عربية يرجع أصلها إلى الجنس السامى[1] الذى ينتسب إلى سام ابن نوح عليه السلام، وأن هذه القبائل قد خرجت تباعاً من جنوب الجزيرة العربية متجهة شمالا فى شكل موجات بشرية ، وكان ذلك خلال فترات تاريخية قديمة فيما بين سنة ٤٠٠٠ ق.م. سنة ١٥٠٠ ق.م. وهى تسبق دخول العبرانيين[2] (الإسرائيليين) إلى فلسطين بآلاف السنين .

وقد تعددت هذه الهجرات واتجه بعضها إلى سوريا ، واتجه البعض الآخر إلى بلاد الرافدين « العراق » .

أما الهجرات التى قدمت إلى سوريا فهم : العموريون (الآموريون) — والكنعانيون[3] — والفينيقيون ، والآراميون . . وقد استطاعت هذه الهجرات أن تسيطر على سوريا القديمة وتنشئ فيها عدة ممالك وإمارات ، وتقيم حضارات ما تزال آثارها باقية حتى الآن ، وعلى سبيل المثال نستطيع أن نذكر بعض هذه الممالك :

١ — مملكة مارى العمورية : تكونت فى شمال سورية . . فى المنطقة التى تشغلها الآن أواسط نهر الفرات . . واتخذ العموريون عاصمة لهم (تل حرير) شمال بلدة أبى كمال الحالية ، وقد اشتهرت هذه المملكة بالتقدم فى كثير من مظاهر الحضارة خصوصاً الزراعة . وهناك مملكة

---

(١) يؤيد هذا الرأى كثير من العرب والمستشرقين .

(٢) سمى اليهود أو بنى إسرائيل بالعبرانيين لأنهم عبروا نهر الأردن . وبعض المؤرخين يرى أنهم سموا بهذا الاسم بعد أن عبر جدهم إبراهيم نهر الفرات متجهاً إلى الغرب . . تدل على ذلك بعض الآثار القديمة .

(٣) كان يطلق على فلسطين فيما مضى أرض كنعان أى الأرض الواطئة ، ثم أطلق عليها اسم فلسطين نسبة إلى قبيلة(فلسيتا) التى قدمت من كريت ونزلت على الساحل وسكنت المنطقة الممتدة من يافا إلى عكا .

عمورية أخرى قامت بجوار هذه المملكة وهى مملكة حلب .

٢ ـ الممالك الكنعانية : فى المنطقة التى تشغلها الآن معظم فلسطين ، وقد اشتهرت هذه الممالك ببناء المدن المحصنة مثل : أريحا ، بيسان (بيت شان) ، مجدو . . كما استطاعت أن تقيم لها حضارات عظيمة ، كان من أبرز نواحيها التقدم فى الزراعة والصناعة وتجارة القوافل التى كانت تتم عن طريق الجمال لنقل السلع من بلاد ما بين النهرين إلى ساحل البحر المتوسط أو العكس .

٣ ـ المدن والموانى الفينيقية : وقد ذكر كثير من المؤرخين أن الفينيقيين[١] فرع من الكنعانيين اتجهوا غرباً حيث ساحل البحر المتوسط ، وأقاموا لهم عدة موان على الساحل مثل صور وصيدا وطرابلس وبيروت واللاذقية . . وقد اشتهر الفينيقيون بركوب البحر للصيد أو التجارة ، واستطاعوا تأسيس عدة مستعمرات لهم فى البحر المتوسط مثل قبرص وكريت وقرطاجنة . . ووصلوا فى جولاتهم حتى ساحل إنجلترا كما طافوا حول إفريقيا ، وفى خلال رحلاتهم نقلوا مظاهر حضارتهم إلى بلاد اليونان والرومان، ويؤكد علماء التاريخ أن الكتابة اللاتينية التى هى أصل الكتابة الأوربية الحديثة كالإنجليزية والفرنسية . . ترجع إلى الأبجدية الفينيقية التى وجدت فى رأس شمرة شمال مدينة أوغاريت ، وأن هذه الأبجدية نقلت إلى اليونان والرومان .

٤ ـ الممالك الآرامية : اسستها القبائل الآرامية ، وكان من أشهر هذه

---

(١) الفينيقيون : أطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى « فينقس » أو الأرجوان الأحمر الذى اشتهروا بصيده . وكانوا يستخدمونه فى صباغة الملابس .

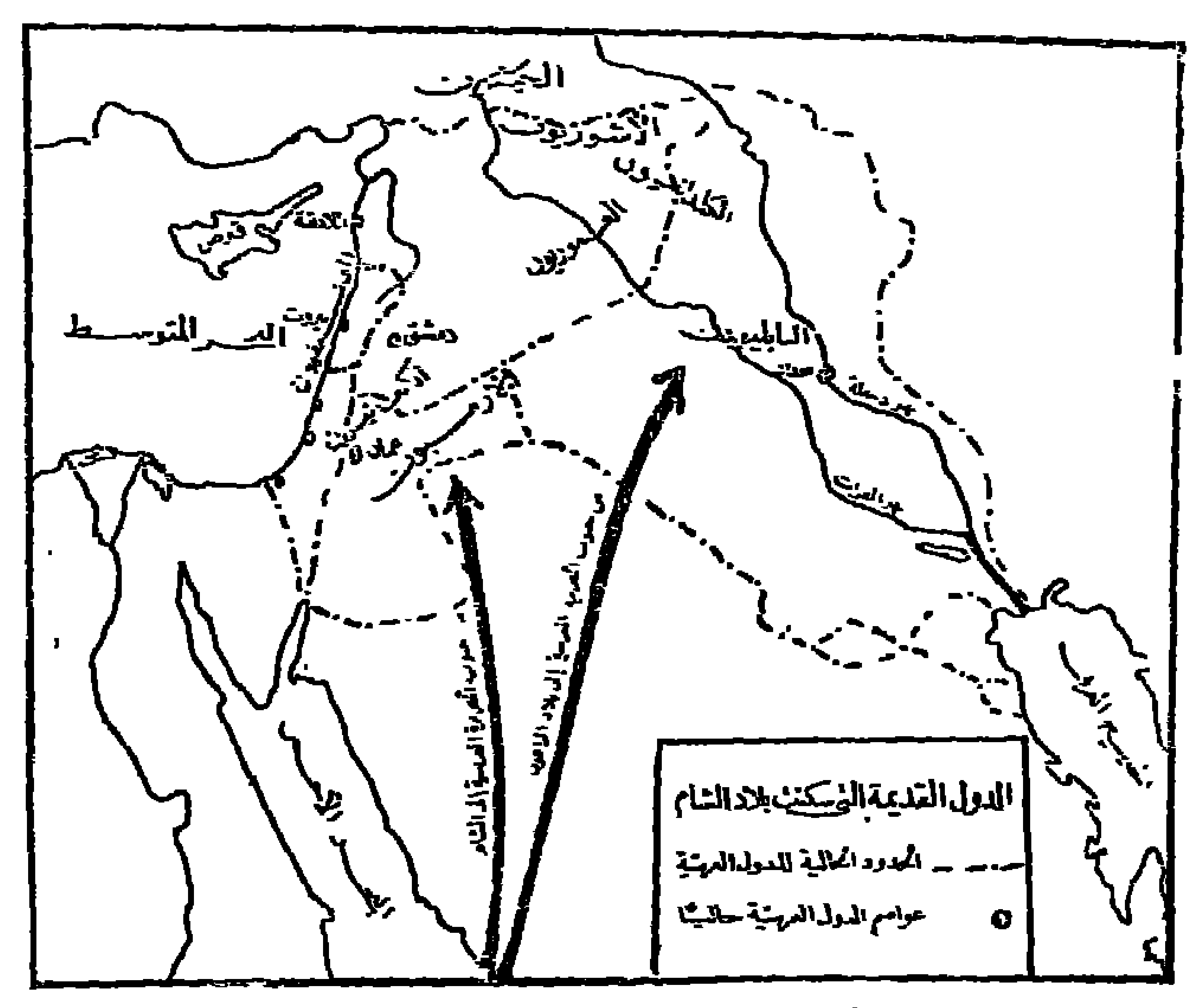
الممالك : دمشق وسامان فى وسط سوريا وجنوبها ، واستطاعت هذه المدن أن تقوم بدور الموانى البرية حيث كانت تمر بها تجارة القوافل ، كما كان لها دور كبير فى نقل كثير من مظاهر الحضارة من الشرق حيث العراق وفارس إلى الغرب حيث مصر .

إذا تركنا سوريا واتجهنا شرقاً حيث بلاد الرافدين . . وجدنا أن هذه المنطقة هى الأخرى قد وصلتها هجرات من الجنس السامى . . وكان من أشهر هذه الهجرات : السومريون ، الأكاديون ، البابليون ، الآشوريون ، الكلدانيون ، واستطاعت هذه الهجرات أن تؤسس لها دولا فى هذه المنطقة وتوسع أملاكها حتى وصلت حدودها ذات يوم إلى سوريا وإلى مصر ، ولا ينكر أحد الدور الحضارى الخالد الذى لعبته هذه المنطقة ، وما خلفه أهلها القدماء من مظاهر الحضارة؛ مثل العمران والآداب والعلوم والقوانين (١) ، وما تركوه من آثار ما تزال بعض آثارها باقية حتى الآن فى صورة أطلال تحكى للناس أمجاد أهل هذه المنطقة مثل حدائق بابل المعلقة وأطلال آشور ونينوى . وفى الخريطة شكل (٢) توضيح للهجرات العربية إلى العراق وسوريا والدول التى قامت فى هذه المنطقة قديماً .

مما سبق يتضح لنا أن اليهود لم يكونوا أول من سكن فلسطين أو المناطق المجاورة لها وإنما سبقتهم إليها بآلاف السنين كثير من القبائل التى ترجع إلى الجنس السامى . وإذا نحن استعرضنا تاريخ اليهود والذى أوردنا له عرضاً سريعاً فى الفصل الأول من الباب الأول ، وجدنا أن الدولة اليهودية لم تقم فى فلسطين إلا حوالى سنة ١٠٠٠ ق.م. ، ومعنى ذلك أن الممالك السابقة قامت قبل اليهود بآلاف السنين : فالبابليون والآشوريون هاجروا

---

(١) من أشهر هذه القوانين : قوانين حمورابى التى وجدت على ألواح من الطين وترجع إلى عصر الدولة البابلية الأولى .



شكل (٢) أهم الدول القديمة التى سكنت الشام و بلاد الرافدين

إليها سنة ٣٥٠٠ ق.م. ، والآموريون أو العموريون ، والكنعانيون ، والفينيقيون كانت هجرتهم سنة ٢٥٠٠ ق.م ، والآراميون هاجروا سنة ١٥٠٠ ق.م ، فكأن هذه القبائل كلها فى هجراتها كانت سابقة لهجرة العبرانيين .

قد ينكر اليهود ما جاء فى الكتب والمراجع التاريخية ، وليس هذا بغريب عليهم . . فإن إنكار الحق سنتهم ، وادعاء الباطل شريعتهم ، وهم الذين قال الله على لسانهم : « قلوبنا غلف » ومن أجل ذلك نرى لزاماً علينا أن نسوق هنا بعض ما جاء فى كتب اليهود المقدسة مما يؤكد قولنا ، ويدحض المزاعم الصهيونية ويكشف أكاذيبهم :

فالإصحاح السادس والثلاثون يحدثنا عن الملوك الذين ملكوا أرض آدوم قبل ملوك بنى إسرائيل فيقول : « وهؤلاء هم الملوك الذين ملكوا أرض آدوم .. قبلما ملك ملك لبنى إسرائيل : بالع بن يعور ، يوباب ابن زارح ، هداد بن بداد ، سملة بن سريقة ، وشاءول .. »

وفى الإصحاح الثالث عشر يشوع : « وهؤلاء هم ملوك الأرض الذين ضربهم يشوع وبنو إسرائيل فى عبر الأردن ، الحيثيون ، والآموريون ، والكنعانيون ، والفرزيون ، والحويون ، واليبوسيون .. »

وفى الإصحاح الرابع والثلاثين خروج حينما كان الرب يحدث موسى ويذكره بفضله عليه فيقول : « هأنذا طارد من قدامك الآموريين والكنعانيين والحيثيين ... »

وفى الإصحاح الثالث عشر ص ٢٣٢ يحدث الرب موسى عليه السلام ويأمره أن يرسل رسلا ليتجسسوا على أرض كنعان « فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان وقال لهم : اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا إلى الجبل وانظروا الأرض ما هى والشعب الساكن فيها .. أقوى هو أم ضعيف ، وما هى المدن التى هو ساكن فيها » .

ومما يؤكد هذه الحادثة ما جاء فى القرآن الكريم فى سورة المائدة(١) قوله تعالى :

« قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا ، فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَا هُنَا قَاعِدُونَ » .

---

(١) الآية (٢٤) .

وقوله فى سورة المائدة (١) :

« قَالُوا يَا مُوسى إِنَّ فيهَا قَوْماً جَبَّارِين وإِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها ، فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا دَاخِلُون . . . »

مما سبق تتضح الحقائق الآتية :

١ ــ أن العبرانيين الذين يدعى اليهود أنهم أحفادهم . . ليسوا أول من سكن فلسطين وإنما سبقهم إليها قبائل عربية بآلاف السنين .

٢ ــ أن دولا كثيرة وحضارات عظيمة قامت فى فلسطين وفى المناطق المجاورة لها قبل مجىء العبرانيين .

٣ ــ أن اليهود لم يقدر لهم دخول بعض أجزاء من فلسطين فى العصور القديمة بجهادهم وكفاحهم ، وإنما كان ذلك بفضل الله الذى أراد لدينه أن ينتشر ولنبيه أن ينتصر ، ولو أن العبرانيين حاولوا دخول فلسطين قبل مجىء موسى لما نجحوا فى الوصول إليها ، لقد كانوا أذلاء مستضعفين فى مصر فكيف تكون لهم القدرة على الهجوم ؟! ! ولم يكن فى قدرتهم أن يتخلصوا من استعباد المصريين لهم . . إنها مشيئة الله لدينه ، وإلا لما قالوا لموسى :

« إِذْهَبْ أَنْتَ وربكَ فَقَاتِلا ... »

وقبل أن نترك هذا الموضوع يجدر بنا أن نورد هنا رأى أحد علماء التاريخ وهو ليس عربى الأصل ، ولا إسلامى الدين حتى يقول اليهود إنه متحيز للعرب أو للمسلمين . . إنه المؤرخ الفرنسى (رابوبور) الذى يقول : « إن سكان فلسطين يرجعون إلى عهد قديم يقدر بعشرة آلاف سنة قبل الميلاد ، وقبل أن يضع اليهود أقدامهم فى فلسطين . . كان يقطنها أقوام ، وكانت لهم حضارة وأمجاد مثل الكنعانيين والحيثيين

---

(١) الآية (٢٢) .

والفينيقيين والفلسطينيين وغيرهم . .» وليس رابوبور وحده صاحب هذا الرأى ولكن كثيرين من المؤرخين يؤكدون ذلك ومنهم برستيد وربنسون .

أما بالنسبة للسؤال الثانى : وهو : هل سكت سكان فلسطين الأصليين عن الغرباء الذين دخلوا أرضهم ؟ أم دافعوا عنها بكل ما أوتوا من قوة وشجاعة ؟ . . إن اليهود تقهقروا وملأهم الرعب وأصابهم الجبن وقالوا لموسى :

« إِنَّ فِيهَا قَوْماً جَبَّارِينَ وإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا » .

وقد ذكرت كتب التاريخ تفاصيل الحروب التى دارت بين العبرانيين وبين السكان الأصليين . لفلسطين وجيرانهم : وكانت هذه الحروب تنتهى فى أغلب الأحيان بهزيمة اليهود .

ونورد هنا بعض ما جاء فى كتب اليهود المقدسة ؛ ليكون خير شاهد على ما نقول :

فى الإصحاح الواحد والثلاثين صموئيل الأول :

« وحَارَب الْفِلَسْطِينيُّون [1] إِسْرَائيل ، فهَرَب رِجَالُ إِسْرَائيل أَمَام الْفِلِسْطِينين وسَقَطُوا قَتْلَى ... ولما رأى بنو إسرائيل أَنَّ إسرائيل قَدْ هَربوا وأَنَّ شَاءُول وبَنِيه قد مَاتُوا تركُوا الْمُدن وهربُوا ، فَأَتَى الفِلِسْطِينيّون وسكَنُوا فِيها » .

---

(١) فى تعبير الفلسطينيين ما يؤكد وجود سكان فى فلسطين بهذا الاسم قبل مجىء بنى إسرائيل وهو ما أجبنا عنه فى السؤال الأول من هذا الفصل .

وفى الإصحاح الرابع صموئيل : « وخرج بنو إسرائيل واصطف الفلسطينيون للقاء إسرائيل ، واشتبكت الحرب ، فانكسر بنو إسرائيل أمام الفلسطينيين » .

وفى معركة أخرى يمضى نفس الإصحاح فيخبرنا أن بنى إسرائيل هربوا من أمام الفلسطينيين وكانت أيضاً هزيمة للشعب الإسرائيلى .

والإصحاح العشرون عدد يحدثنا أن ملك أدوم رفض السماح لبنى أسرائيل بالمرور فى أرضه مما أضطرهم إلى أن يسلكوا طريقاً أخرى فيقول :

« فأرسل موسى رسُلًا من قَادِس إلى مَلِك آدُوم . . . دَعْنَا نمر فى أَرْضِك ، لَا نَمُرّ فى حقْلٍ ولا كَرم ، ولا نَشْرَب ماءَ بِئْر ، فقَالَ لهم آدُوم : لا تَمر لئلاً أَخرُجْ لِلقَائِك بالسّيف . فقَال بنُو إسْرائيل : أَمرُّ برجْلى فقط ، فقَال آدُوم : لا تَمُر ، وأَبَى آدُوم أَن يسْمَح لإِسَرائِيل بالمُرور فى تخُومه فتحوّل عنه إِسْرائيلُ »

ولا ينسى التاريخ أبداً ما فعله نبوخذ نصر الكلدانى ، فقد حارب اليهود وهزمهم وهاجم أورشليم ، ودمر هيكل سليمان ، وساق اليهود أسرى إلى بابل حيث جعل منهم عبيداً وخدماً فى قصره ، وأهانهم وعذبهم أكثر من سبعين سنة ، ولم ينقذهم من الذل والهوان إلا كورش ملك الفرس .

يؤكد ذلك ما جاء فى المزمور ١٣٧ « هُنَاك عَلى أَنْهار بابل جلَسنا وبَكَيْنَا عِنْدما تَذكَّرناكَ يَا صَهيُون ، وعلى

أَشْجَار الصَّفصَاف علَّقْنا أَعْوَادَنا بعْد أَنْ طَلَب منَّا الَّذين سَبُونا أَن نُغَنِّى لَهم أُغْنِيَةً من أَغَانِى صَهْيُون . كيْفَ نُغَنِّى لهم أُغْنيةَ الرَّب فى أَرْضٍ غَرِيبَةٍ . . . شُلَّت يَمينُك إنْ نَسِيتك يا أُورشَلِيم ، وإنْ لَم أَفْضِّلك على أَعْظَم أَفراحى يَا بِنْتَ بَابلٍ طُوبَى لِمَنْ يُجَازيك جَزَاءَكِ . . »

وفى الإِصحاح الأَول نحميا : « . . . جَاءَنى فى مَنَامِى وَاحِدٌ من إِخْوَتى هَو ورِجال من يهُوذَا . . . فسأَلْتُهم عن اليَهُود الذين بَقُوا من السَّبْى وعن أُورشَلِيم فَقَالُوا : إِنَّ الذين بَقُوا فى السَّبى هُنَاكَ فى بِلَادِهم فِى شَرٍّ عظِيم وعَارٍ . . »

وفى المزمور ٧٩ لآساف : « اللَّهم إنَّ الأُمم قَدْ دخلوا مِيَراثَك ، نَجَّسُوا هيْكل قُدْسِك . . . جَعلَوا من أُورشليم أَكْوَاماً ، دَفَعوا عَبِيدَك طَعَاماً لطيُور السَّماء ، لَحْمَ أَتْقِيَائِك لِوحُوشِ الأَرْض . . . سفكُوا دَمَهُم كالْماءِ حَوْل أَورشليم صِرْنَا عَارًا عِنْد جِيرَانِنا ... هُزءًا وسُخْرِيَةً للذين حَوْلَنَا . »

وفى المزمور الثمانين « كَرْمة[1] من مصْر طَرَدْتَ أُمَماً

---

(١) المقصود بتعبير « كرمة » : قبيلة أو بنو إسرائيل .



باذر الحب – للفنان ڤان جوخ – مجموعة بورهليه – زيوريخ .



الفلاحة المرضعة — للفنان فرانسوا ميليه — متحف اللوفر — باريس .

وغَرَسْتَها . فَلِمَاذَا هَدَمْتَ جُدْرَانها فَيَقْطِفُها كُلُّ عَابِرى الطَّرِيق . . »

هذه بعض أمثلة مما ورد فى كتب اليهود ، ومن الممكن أن نسوق أمثلة أكثر لحوادث ومواقع حربية تؤكد أن السكان الأصليين لم يسكتوا عن اليهود حينما دخلوا فلسطين ، ولعل فى هذا خير برهان وأسطع دليل للرد على مزاعم الصهيونية .

هذا بالنسبة لفلسطين . . أما بالنسبة لمصر التى يدخل اليهود شطراً منها وهو الوجه البحرى كما بينا فى أرض ميعادهم . . إنهم يدعون أيضاً أن هذا الجزء من مصر لهم فيه الحق التاريخى الذى يدعونه فى فلسطين . . ونحن نؤكد هنا أن بنى إسرائيل حين سكنوا مصر لم يكونوا من سكانها الأصليين ، وإنما كانوا مجرد قبيلة وفدت إلى مصر فى ظروف معينة يعرفها اليهود جيداً وقد ورد ذكرها فى التوراة والقرآن . . حين جاءوا إلى مصر بدعوة من يوسف ، وقد ثبت أن الإسرائيليين إبان وجودهم فى مصر لم يقوموا بواجبهم لا كمواطنين ولا كضيوف يحسنون رد الجميل لمضيفيهم . . بل جعلوا من أنفسهم عملاء للأجانب ، ظهر هذا بصورة واضحة أثناء حكم الهكسوس لمصر ، فقد ربط كثير من المؤرخين بين الهكسوس وبنى إسرائيل حتى إن بعض المؤرخين اعتبروا هؤلاء الإسرائيليين من الهكسوس ، وتألب الإسرائيليون على المصريين ، حتى قدر لمصر أن تتخلص من حكم الدخلاء على يد أحمس ، ثم قدر للإسرائيليين أن يخرجوا من مصر على يد موسى ليذهبوا إلى سينا ومنها إلى فلسطين ، وهناك يقوم النزاع بينهم وبين السكان الأصليين كما وضحنا .

فالإسرائيليون ليس لهم تاريخ قديم فى مصر . . إن تاريخهم ملىء

بالخزى والدسائس ، ومن أجل ذلك فخير لهم ألا يدعو لأنفسهم ماليس لهم .

وهنا يقفز إلى ذهننا هذا السؤال : لماذا قدر لليهود قديماً أن يحرزوا بعض الانتصارات على السكان الأصليين مع أنهم — أى اليهود — ليسوا أصحاب حق . . ؟

والإجابة على السؤال واضحة .. إن الانتصارات التى أحرزها بنو إسرائيل فى بضع سنوات من تاريخهم . . اقتضتها إرادة الله . . شأنه فى ذلك شأن مناصرته لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى غزواته ضد كفار قريش والتى كان من أوضحها : غزوة بدر وغزوة الخندق رغم كثرة عدد الكفار وقلة عدد المسلمين ، مع فارق واحد فى الحالتين هو أن المسلمين الأوائل الذين حاربوا كفار قريش لم يكونوا غرباء عن شبه الجزيرة العربية ، وإنما كانوا من سكانها . . بل من أشهر قبائلها ، فهو لا يعدو إلا أن يكون نزاعاً داخلياً بين فريقين يختلفان فى الاتجاه الدينى . هذا بالنسبة للمسلمين . . أما بالنسبة لبنى إسرائيل فالأمر يختلف كثيراً ، فإن النزاع بينهم وبين غيرهم كان نزاعاً بين فريقين يختلفان فى الأصل والموطن والاتجاه الدينى ، وبمعنى آخر فإن الإسرائيليين كانوا غرباء عن فلسطين وعن سكانها . فكأن انتصار الدعوة اليهودية وبنى إسرائيل كان بمشيئة الله وقدرته ، وذلك لإعلاء دينه ورفع اسمه . . حتى إذا ماانحاز الإسرائيليون عن طريق الهدى ، وعصوا ربهم ، واتبعوا الشيطان . . تخلى الله عنهم وتركهم يقاسون الشدائد والعذاب ، فألقى بهم إلى أعدائهم ، وحرمهم من مساعدته ونصرته ، يؤكد ذلك قوله تبارك وتعالى فى سورة الأعراف :

« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ وَرِثُوا الكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا » وقد تعرضت كتب اليهود لهذه الناحية .

في الإصحاح السادس قضاة : «وعَمِلَ بنُو إسْرائيل الشَّر فى عَيْنَى الرَّب فدفَعهم ليد مِدْيان سبعُ سنواتٍ ، فاعتزَّت يدُ مدْيان على الاسْرَائيليِّين ، وبسبب المديانيين عمل إسرائيل لأنفسهم الكهوف التى فى الجبل والمغاور والحصون ، وإذا زرع بنُو إسرائيل . . يصعدُون عليهم ويُتْلِفُون غَلَّة الأَرض ولا يتْركُون لإسْرائيل قُوتَ الحياة ، فذلَّ إسرائيل جداً من قبل المديَانيِّين وصَرَخَ إسْرائيل إلى الرَّب . . . »

وفى الإصحاح الثالث عشر قضاة : « ثم عاد بنو إسرائيل يعملون الشر فى عينى الرّب ؛ فدفعهم ليد الميديانيين أربعين سنة » .

وهكذا تبدو العلاقة بين انتصار اليهود ومساعدة الرب لهم ، فليس انتصارهم أمراً ذاتياً بقدر ما هو إرادة من عند الله .

وهناك نقطة أخرى يجدر بنا الإشارة إليها . . فإن قيام الدولة اليهودية فى فلسطين لم يكن بالمعنى السياسى المعروف . فلم تكن لهذه الدولة أسسها ومقوماتها السياسية . . بل كانت دولة — إن تجاوزنا هذه التسمية — مُذَبذَبة . . تقوى فترة قصيرة ثم تضعف وتضمحل فترات طويلة .. تشتد حيناً ثم لا تلبث أن تزول ، ولم تكن دولة ثابتة الأركان مثل الدولة الفرعونية فى مصر القديمة ، أو الدولة الفارسية بإيران أو غيرهما ، وإنما يمكن أن نعتبرها مرحلة من مراحل الدعوة اليهودية . . فترة مزدهرة من فترات تاريخ

هذه الدعوة . . ذلك لأن تلك الدولة لم تتمثل فيها عناصر الدولة الأساسية ؛ فالمعروف عن الدولة أنها جماعة من الناس يعيشون على مساحة من الأرض، تجمعهم حكومة واحدة ونظم سياسية مشتركة ، أو بمعنى آخر تقوم الدولة على وجود أرض وشعب ، فإذا طبقنا ذلك على الدولة اليهودية القديمة . . وجدنا أن عنصرى الدولة فيها مفقودان ، فالشعب أو القبيلة التى كونت هذه الدولة، ونقصد بها بنى إسرائيل لا تمثل شعباً بالصورة المعروفة للشعب كالشعب العراقى أو الشعب المصرى . . لأن الإسرائيليين كما ذكرنا قوم أجانب . . جاءوا من منطقة أخرى ومن حيث الأرض التى سكنوا فيها فهى ليست أرضهم ، وحتى حينما استولوا — أى الإسرائيليون — على هذه الأرض لم تكن خالصة لهم ، فما كانوا إلا أفراداً فيها ولم يكن لدولتهم حدود ثابتة حتى يمكن أن نطلق عليها تعبير « دولة » . إذن فعنصرا الدولة هنا مفقودان ، أو غير واضحين . . ومما يؤكد قولنا هذا : أن ملوك الدولة اليهودية فى فترة قوتها لم يكونوا ملوكاً بالمعنى الصحيح ، وإنما كانوا أنبياء جاءوا ليتمموا رسالة موسى عليه السلام ، وليتابعوا نشر تعاليمه ، وكان من أشهر هؤلاء الأنبياء داود وسليمان . .

قد يقول قائل: إذن فنعتبر قيام الدولة الإسلامية من هذا القبيل، أى نعتبرها مثل الدولة اليهودية القديمة على أساس أن العامل الأساسى فى الدولتين هو الدين . . ولكن هذا غير صحيح إطلاقاً . . إذ أن القياس هنا مختلف بين الحالتين ، فبنو إسرائيل أو اليهود لم يكن لهم موطن أصلى ولم يكن لهم — قبل موسى — دولة لها مقوماتها من الأرض والشعب ونظام الحكم ، وإنما كانوا قوماً هاجروا من منطقة كانوا فيها دخلاء وهى مصر إلى منطقة أخرى . أصبحوا فيها غرباء أيضاً ، فكأنما هم انتقلوا من غربة إلى غربة . أما الدولة العربية الإسلامية فهى على غير ذلك ، فقد كان للعرب قبل الإسلام وقبل مولد محمد عليه السلام . . دولة ، وكان لهم

أرض يقيم عليها شعب ، وكان لهذا الشعب نظامه السياسى مهما كان هذا النظام . كذلك كان للشعب العربى عاداته وتقاليده وآدابه ، ولم يكن ظهور الدين الإسلامى هو الذى أنشأ دولة لم تكن موجودة ، وإنما كان ظهوره عودة بالعرب إلى إنسانيتهم ودعوة إلى عبادة الله وحده ، ونبذ عبادة الأصنام . ثم إن الدين الإسلامى ظهر فى أرض مكة ، وبين شعبها حيث ولد رسول هذا الدين .ومن هذه المنطقة – أى من مكة – خرجت الدعوة الإسلامية إلى المدينة وهى الأخرى إحدى مناطق الحجاز ، ومن المدينة ومكة خرجت الدعوة إلى الأجزاء الأخرى إلى باقى شبه الجزيرة العربية ، ثم إلى خارجها .

إذن فقد كان للدولة العربية الإسلامية نواة ، وما تزال هذه النواة باقية حتى الآن بعد أن تقلصت الإمبراطورية الإسلامية ، ونقصد بهذه النواة . الدولة المعروفة الآن باسم المملكة العربية السعودية ، ثم إن كثيراً من المناطق التى دخلها الدين الإسلامى وكانت جزءاً من الإمبراطورية الإسلامية . . ما تزال حتى الآن تحمل الطابع الإسلامى وتحتفظ بتقاليدها الإسلامية وتتكلم اللغة العربية وتحفظ تراث آدابها ، ومن أمثلة هذه الدول : مصر والعراق وسوريا والمغرب ، وحتى فلسطين . فأين ذلك كله من الدولة اليهودية التى قامت فى فلسطين لفترة محدودة ، وسرعان ما اندثرت معالمها وتلاشى عنها الطابع والسمات اليهودية !! وكذلك المناطق التى دخلها الدين اليهودى لم تحافظ على الطابع اليهودى وانقرضت منها اللغة الآرامية ، وحلت محلها سمات أخرى تتفق مع التقاليد المسيحية أو الإسلامية أو تتميز بصفات وخصائص الشعوب نفسها .

وعلى هذا فلا يمكن أن يكون هناك تشابه بين الدولتين اليهودية والإسلامية . . حتى وإن تشابهتا فى عامل مشترك هو الدين . إلا أن كلاً منهما تختلف عن الأخرى اختلافاً كبيراً .

أما بالنسبة للسؤال الثالث وهو : هل يعتبر قيام الدولة اليهودية — قديماً — بصرف النظر عن عدم استقرارها أو شرعيتها . . سنداً يخول للصهاينة الحق فى أن يستعيدوا فلسطين ؟ ! !

إننا إذا سلمنا بهذا المبدأ . . فإنه يكون للعرب أيضاً أو بمعنى آخر يكون للمملكة العربية السعودية الحالية حق الاستيلاء على مصر والعراق وسوريا والمغرب وغيرها من الدول العربية التى كانت فى يوم ما ضمن أملاك الدولة الإسلامية إبان فترة ازدهارها ، وكانت هذه الدول بمثابة ولايات تدين بالطاعة والولاء للخلفاء الراشدين أو لخلفاء الدولتين الأموية والعباسية ، ثم بجاز للعرب كذلك أن يحتلوا الأندلس وإيران وتركيا وأجزاء من الهند وباكستان . . باعتبار أن هذه الدول كانت فى يوم ما ضمن أملاك الدولة الإسلامية ، بل إن بعضها ماتزال فيه بعض السمات الإسلامية ومعظم سكانها يدينون بالإسلام . فهل من حق المملكة العربية السعودية أن تستولى على هذه الدول وتطرد السكان الأصليين وتقضى على لغات هذه الدول وتحل محلها اللغة العربية كما يفعل الصهاينة الآن ؟ ! !

ثم لماذا نذهب بعيداً . . ؟ إن فلسطين هى الأخرى كانت تابعة للدولة الإسلامية ، وكانت جزءاً من هذه الدولة خلال فترة طويلة تربو على عشرة قرون . . حتى حينما سقطت الدولة العباسية على يد المغول . . دخلت فلسطين ضمن أملاك دولة المماليك ثم الدولة العثمانية وهما دولتان إسلاميتان ، ثم إن سكان فلسطين حتى سنة ١٩٤٨ كان معظمهم من العرب ممن يدينون بالدين الإسلامى ، وقياساً على ذلك يكون للمملكة السعودية الحق فى أن تستولى على فلسطين . . على الأقل على أساس أن معظم سكان فلسطين من العرب المسلمين وأن دخول الإسلام فى فلسطين كان أحدث من اليهودية . كذلك فإن المظاهر العربية والتقاليد الإسلامية كانت وما تزال فى فلسطين .

إننا لا نرضى بأن يستولى السعوديون على فلسطين، ويقيموا فيها دولة تابعة لحكومتهم، والسعوديون أنفسهم لا يرضون بذلك ، لأن هذا متروك لإرادة الشعب الفلسطيني ليقرر ما يشاء ، فكيف يحق للصهاينة أن يفرضوا أنفسهم على العرب ويستحلوا أرض فلسطين لهم ؟ ! !

وهناك نقطة أخرى تتعلق بالديانة المسيحية ، فالمعروف والذى لا شك فيه أن الديانة المسيحية نشأت فى فلسطين حيث خرجت منها هذه الدعوة إلى العالم كله ، وأن عيسى عليه السلام نبي هذه الدعوة ولد فى فلسطين بعكس موسى الذى ولد فى مصر أى بعيداً عن فلسطين . . فهل يمكن أن نعطى فلسطين للمسيحيين، ونجعلها مثلا تابعة لدولة الفاتيكان بروما؟! أو هل يرضى اليهود أن تنتقل البابوية من الفاتيكان إلى فلسطين ؟ ! . وهل يمكن كذلك أن نجمع مسيحيي العالم ونقيم لهم دولة مسيحية فى فلسطين على أساس أن فلسطين مصدر دعوتهم ومهبط ديانتهم ؟ ! !

معنى هذا أننا سنخرج فى النهاية بثلاث دول فى فلسطين : دولة يهودية ، ودولة مسيحية ، وثالثة إسلامية، وطبيعى سيكون اليهود أقل عدداً ، والمسلمون هم الأكثرية . . لقد انتهى عصر الإمبراطوريات الدينية ، ولسنا فى حاجة إلى مثل هذا التطاحن المذهبي فى فلسطين .

إن عنصر الاستعمار بكل صوره قد ولى أو كاد ، وبقاياه تتحطم يوماً بعد يوم ورواسبه تتلاشى مع الأيام . فهل يريد الصهاينة أن يعيدوا عصر الاستعمار ؟! وهل يريدون أن يعودوا إلى المنطقة التى قدر لهم يوماً ما أن يستعمروها ؟! إن معنى عودة اليهود إلى فلسطين . . عودة الاستعمار إلى مكانه . وعودة عصور القرصنة التى قاسى منها العالم كثيراً . وكأنى بهؤلاء الصهاينة يريدون أن يطفئوا الشمس ليعيش العالم فى ظلام حتى يستطيعوا أن يعبثوا فيه ! ! فهل يستطيعون ذلك ؟ كلا . .

وقبل أن نختم هذا الموضوع يجدر بنا أن نوجه هذا السؤال إلى

الصهاينة . . إذا كانوا يعتقدون أنهم أصحاب حق فى فلسطين ، فلماذا رضوا بجزء منها دون الآخر ؟ ثم لماذا تهاونوا ذات يوم فى هذا الحق حين راحوا يبحثون عن بديل لحقهم؟. حدث ذلك قبل الحرب العالمية الأولى.. حين لجأ الصهاينة إلى إنجلترا لتمنحهم أى منطقة أخرى غير فلسطين يقيمون دولة فيها . . ولماذا وجدناهم يفكرون فى مدغشقر أو أستراليا ؟ أو حتى قبرص؟! وصرح هرتزل ذات يوم .. وهو أحد دعاة الصهيونية ودعاماتها : « يكفى أن تعطونا أية قطعة من الأرض تتناسب وحاجات شعبنا ويكون لنا السيادة عليها . . » بل إن كثيراً من اليهود اعترضوا على التمسك بفلسطين ، ودعوا يهود العالم أن يستبعدوا من أذهانهم فكرة العودة إلى فلسطين ، وكان مما قاله واحد من زعمائهم هو ينسكر : « ليس هدفنا هو الأرض المقدسة ، ولكننا نريد أى بقعة من الأرض تخصص لنا . . »

لو أن اليهود مقتنعون بأحقيتهم فى فلسطين . . لما فكروا حتى مجرد التفكير فى أرض غيرها . . ترى لو قدر لليهود أن يستولوا على إحدى المناطق التى كانوا يريدونها مثل مدغشقر . . هل سيجد اليهود ما يبرون به استيلاءهم على هذه المنطقة؟! أعتقد أنهم سيحاولون بكل الحيل والأساليب أن يجدوا تعليلات لهم ، ولابد أنهم سيصوغون من الحجج والبراهين التى يحسنون صياغتها وتزويرها ما يدعون به أحقيتهم لهذه المنطقة . قد يقولون نفس ما قالوه عن فلسطين . . قد يقولون إن مدغشقر هى أرض ميعادهم ، وعند ذلك سيحشرون فى كتبهم وتلمودهم مايثبت أن الله وعدهم بمدغشقر ، وسيدعون أيضاً أن لهم فى مدغشقر حقاً تاريخياً ويستدلون على ذلك بأسانيد كاذبة وسيذكرون فى كتبهم تاريخ دولتهم فى هذه المنطقة ، فاليهود كما هو معروف عنهم لديهم القدرة الكافية على التزوير والافتراء وهم الذين يصدق عليهم قول الله تبارك وتعالى فى سورة الأعراف[1] :

---

(١) الآية ١٦٣ .

« فبدَّل الَّذينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلاً غيْرَ الَّذى قِيلَ لَهُمْ ، فَأَرْسَلْنَا عَلَيهم رِجْزًا مِنَ السَّماءِ بِما كَانُوا يَظْلِمُونَ » .

إن اليهود لا يتورعون عن تزييف كل حقيقة.. طالما أن ذلك يحقق لهم أهدافاً وأغراضاً .

هكذا يتبين لنا بصورة صادقة لا تقبل الشك أن اليهود ليس لهم حق تاريخى فى فلسطين . وأن هذا الزعم مجرد واحدة من تلك الأباطيل التى يطلقها الأفاقون ودعاة الصهاينة ليصدقها من فسدت أخلاقهم ، وساروا فى ركب الصهيونيين ، فأضلوهم سواء السبيل .

الفصل الثالث

وعد بلفور . . باطل

ويبدو أن الصهاينة أحسوا بضعف حجتهم فيما أسموه أرض الميعاد ، وفيما ادعوه من أن الله وعدهم بأرض فلسطين . . فراحوا يتلمسون حججاً أخرى يثبتون بها دعواهم الباطلة ، ويحاولون كسب قضيتهم الخاسرة ؛ فنراهم هذه المرة يتمسكون بما جاء فى وعد بلفور . هذا الوعد الذى أصدره وزير خارجية إنجلترا فى صورة رسالة موجهة إلى صديقه روتشيلد أحد زعماء الصهاينة وأثريائهم . وقد صدر هذا الوعد فى الثانى من نوفمبر سنة ١٩١٧ وجاء فى هذه الرسالة :

عزيزى روتشيلد :

يسرنى أن أبعث إليكم باسم حكومة جلالة الملك هذا التصريح المشوب بالعطف على الأمانى الصهيونية والذى عرض على الحكومة ووافقت عليه ..

تعتزم الحكومة البريطانية إقامة وطن للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل كل ما لديها من جهود لتحقيق هذه الغاية . . هذا مع العلم بأن حكومة جلالة الملك لن تفعل شيئاً ينطوى على أى أساس بالحقوق الدينية والمدنية للطوائف الغير يهودية فى فلسطين ، ولا بحقوق اليهود الذين يعيشون فى دولة أجنبية أو نظم أحوالهم الشخصية . .

وأكون شاكراً لو تكرمتم بإبلاغ هذا التصريح إلى اتحاد الهيئات الصهيونية .

إمضاء : جيمس أرثر بلفور

وقبل أن نناقش هذا الوعد من حيث صحته أو بطلانه . . يجدر بنا أن نسترجع الأحداث السياسية التى لازمت صدور هذا الوعد .

فى سنة ١٩١٤ قامت الحرب العالمية الأولى بين قوتين عالميتين متنازعتين : الأولى تتزعمها ألمانيا وتركيا ، والثانية تتزعمها إنجلترا وروسيا وفرنسا . . فى ذلك الوقت كانت سوريا الكبيرة « الشام » والعراق والحجاز كلها تتبع الإمبراطورية العثمانية . . بالإضافة إلى مصر التى كانت تتبع لتركيا تبعية اسمية رغم احتلال إنجلترا لها . وبمجرد إعلان الحرب . . أصبحت مصر تحت الحماية البريطانية .

كان الشعب العربى فى مصر وسوريا والعراق والحجاز . . يتطلع إلى اليوم الذى يستطيع فيه أن يتخلص من السيطرة العثمانية خصوصاً بعد أن زادت حدة التوتر والنفور بين العرب والأتراك بسبب السياسة العدائية التى اتبعتها الحكومة التركية تجاه العرب منذ أن تولى مقاليد الحكم فى تركيا جماعة الاتحاد والترقى سنة ١٩٠٨ والتى كانت تقوم على تتريك العرب ، والقضاء على القومية العربية ، وإحلال القومية التركية مكانها ، وفى الوقت نفسه كانت قوى الصهيونية العالمية هى الأخرى تتطلع إلى تحقيق آمال اليهود بإقامة وطن لهم فى فلسطين .

ومع قيام الحرب الأولى بدأت الآمال تداعب كلا من الفريقين : العرب واليهود . كل منهما يبغى تحقيق آماله ، وكل منهما يحاول هدم آمال الفريق الآخر .

كان على العرب فى ذلك الوقت أن يختاروا أى المعسكرين يختارون : تركيا أم الحلفاء ؟ . ورأى العرب أن الخير فى أن ينضموا إلى الأتراك على أمل أن تمنحهم تركيا استقلالهم حين يكتب لها النصر ، ولعل العرب أحسوا فى أن للحلفاء أطماعاً فى الشرق الأوسط خصوصاً بعد أن زادت العلاقات والمعاهدات بين إنجلترا ورؤساء القبائل العربية فى الجنوب

العربى ، ولذلك أعلن العرب استعدادهم لمساعدة تركيا فى الحرب ضد الحلفاء . . ولكن الأتراك لم يقابلوا هذا الجميل بمثله . . بل على العكس قابلوه بالجحود والنكران ، وكانت سياسة القائد التركى جمال باشا السفاح تجاه الشعب السورى أسوأ الأمثلة للبطش والتنكيل، فنصب المشانق ، وأعدم الكثير من أحرار الشعب وقادته . وكان يوم ٦ مايو سنة ١٩١٦ الذى عرف بيوم الشهداء . . نقطة تحول فى العلاقة بين العرب والأتراك . لذا رأينا العرب يتجهون إلى المعسكر الآخر المناهض للأتراك ، ويعلنون مساندتهم للحلفاء . وكان الإنجليز أرحب صدراً وأبعد نظراً من الأتراك ؛ فانتهزوا هذه الفرصة . . فرصة الانشقاق بين العرب والأتراك . . وراحوا يمنون العرب بالأمانى العذبة ، ويعدونهم بالاستقلال حين يقدر للحلفاء النصر . وقد اشترط العرب لمساعدة الحلفاء . . أن تعترف إنجلترا باستقلال العرب من جبال طوروس شمالا إلى المحيط الهندى جنوباً ، واعترفت إنجلترا بهذا الحق ، وذلك فى الرسائل المتبادلة بين الشريف حسين الهاشمى أمير مكة والسير هنرى ماكمهون الإنجليزى . وهذه هى الرسائل التى عرفت باسم رسائل (الحسين — ماكمهون) .

واتفق العرب مع الإنجليز على وضع خطة الانتقام من تركيا . .

كانت الخطة مبنية على أساس أن يقوم العرب بالثورة ضد الأتراك على أن يقود هذه الثورة الشريف حسين فى الحجاز ، بينما يكون ابنه فيصل يقود الثورة فى سوريا ، وتندلع نيران الثورة فى وقت واحد ، وفى الوقت نفسه تقوم الجيوش الإنجليزية بمهاجمة سوريا ودخول الشام ، وبذلك تصبح الجيوش التركية فى مواجهة خطرين كل منهما أصعب من الآخر : ثورة العرب ، وهجوم الحلفاء، مما يعجل بهزيمتهم، وعند ذلك يستولى الحلفاء على الشام . . حتى إذا ما انتهت الحرب عادت جيوشهم من حيث أتت . . تاركين للشعب العربى أرضه معلنين استقلال الأراضى

العربية فى الشام والحجاز تحت لواء الشريف حسين . كانت هذه هى الخطة .

ولقد كان العرب حريصين على تنفيذ الخطة بكل تفاصيلها . . لذلك عملوا على قطع المواصلات التركية بين شمال بلاد العرب وجنوبها ، وسدوا — بمساعدة الحلفاء — منافذ البحر الأحمر والمحيط الهندى أمام القوات الألمانية .

وفى اليوم العاشر من يونية سنة ١٩١٦ . . اندلعت نيران الثورة فى الحجاز وفى سوريا ، واستطاعت الجيوش العربية أن تحرر الحجاز من الأتراك ، ثم تقدمت متجهة شمالا إلى سوريا حتى وصلت العقبة ، وكانت الجيوش الإنجليزية قد زحفت بقيادة اللورد اللنبى ، واخترقوا سينا ، وساعدهم السوريون حتى دخلوا الشام .

هكذا قام العرب بدورهم خير قيام ، وكانوا أوفياء على عهودهم ، أصدقاء فى وعودهم . . أما اليهود فقد رأوا فى قيام الحرب فرصة لتحقيق آمالهم وأحلامهم ، وفكروا . . هل ينضمون إلى تركيا وألمانيا : وكانت تركيا هى الحاكم الفعلى لفلسطين — حتى قيام الحرب — وهى وحدها التى تملك تحقيق آمال اليهود إن شاءت ذلك . كما كان واضحاً عطف الألمان على الصهيونية ؟ . أم ينضم اليهود إلى إنجلترا التى أظهرت أكثر من مرة استعدادها لمساعدة اليهود . . ؟

ويبدو أن اليهود كانوا أكثر دهاء وحيطة من العرب . . فقد آثروا التريث ، ولم يندفعوا إلى أى المعسكرين . . حتى تتكشف لهم الحقيقة ، وتتضح مقدمات النصر لأحد من الطرفين . . وما كاد الحلفاء يدخلون أرض الشام وفلسطين بمساعدة العرب إثر ثورة سنة ١٩١٦ حتى هب اليهود يتملقون للحلفاء ، ويعلنون استعدادهم لمساعدتهم ، أو لعلهم تظاهروا

بذلك . . وراح أثرياؤهم ينتهزون الفرصة ليصلوا إلى ما يستطيعون من مكاسب .

وكان الإنجليز أكثر ولاء لليهود بقدر ما كانوا أكثر غدراً للعرب . . لذلك – وقبل أن تضع الحرب أوزارها – رأيناهم يعلنون حقيقة مشاعرهم الدنيئة ، ويبرهنون عن سوء نواياهم . ظهر هذا فى صورة الإعلان الذى أسموه « وعد بلفور » والذى أوردنا نصه فى أول هذا الفصل . . ثم تتضح معالم الغدر والخيانة بصورة أكثر خسة ودناءة.. حين تنكشف سر المعاهدة الثنائية التى عقدت بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٩١٦ والتى عرفت باسم معاهدة سايكس بيكو Sykes-Picoul ، والتى نصت على اقتسام الأراضى العربية إلى مناطق نفوذ بينهما . ولم يعرف العرب بهذه المعاهدة إلا فى أواخر سنة ١٩١٧ فكانت اكمالاً لصورة الخيانة البشعة التى أثرت على مستقبل الوطن العربى والتى ما تزال آثارها باقية حتى الآن .

هذه فكرة سريعة عن تلك الظروف التى لازمت إصدار وعد بلفور . وقد يعيب بعض المؤرخين على العرب مساندتهم للإنجليز ، ولكن الحقيقة هى أن العرب كانوا معذورين إلى حد ما . . صحيح كانوا يستطيعون أن يتخلصوا وحدهم من الحكم العثمانى منتهزين هذه الفرصة ، ولكنهم على أى حال لم يكونوا يتوقعون هذه الخيانة من دول كبرى أو المفروض أنها كبرى فى ذلك الوقت ، والخير لهؤلاء أن يعيبوا على الحلفاء غدرهم .. ولو أن الأتراك كانوا أكثر تعقلاً وحكمة . . ربما قدر لهم النصر ، ولما حدث للعرب ما حدث .

ولندع كل هذه الاحتمالات لنتناقش معاً وعد بلفور ، ولنأخذ فى الحسبان تلك الظروف التى اقترنت بصدور هذا الوعد . . وسنحاول أن نثبت بطلان هذا الوعد مما يقضى بعدم تنفيذه واعتباره كأن لم يكن :

١ – كل وعد يقتضي أن يكون لدينا : واعداً ، وموعوداً له ،

وموعوداً به . والواعد هناهو بلفور أو إنجلترا ، والموعود لهم هم اليهود ، والموعود به هو فلسطين . هذا صحيح . . ولكن الوعد يقتضى أيضاً أن يكون الواعد أهلاً لما يعدُ به ، وقادراً على تنفيذه ، وهذا لا يتأتى إلا إذا كان الواعد يمتلك الموعود به . فإذا ما طبقنا هذا الشرط على بلفور أو إنجلترا . لوجدنا أن كلا منهما لم يكن يملك فلسطين باعتبارها الشيء الموعود به ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، ولقد عبر الرئيس جمال عبد الناصر عن هذه الحقيقة فى رسالته إلى الرئيس الأمريكى الراحل كيندى ، وقد جاء بهذه الرسالة : « لقد أعطى من لا يملك منْ لا يستحق وعداً ، ثم استطاع الاثنان من لا يملك ومن لا يستحق أن يسلبا صاحبَ الحقّ حقه فيما يملكه وفيما يستحقه » فالوعد هنا إذن ينقصه عنصر هام وهو القدرة على تنفيذ ما وعد به .

قد يدعى الإنجليز أو اليهود أن ذلك الوعد معلق على ملكيته ، أى معلق تنفيذه على ملكية إنجلترا لفلسطين ، ولكننا نرد عليهم حجتهم ، فنقول لهم : إن إنجلترا لم يقدر لها فى يوم ما أن تمتلك فلسطين لا قبل وعد بلفور ولا بعده . . حتى الانتداب فى حد ذاته — انتداب إنجلترا على فلسطين — لا يمكن أن نعتبره تمليكاً ، فليس الانتداب صورة من صور الملكية المعروفة ، ولكنه مجرد مرحلة انتقال للدولة الواقعة تحت الانتداب (١) وهذا الانتقال لمدة ما تصبح بعدها هذه الدولة قادرة على حكم نفسها بنفسها ، كما أن الانتداب لا يسمح للدولة المنتدبة أن تتصرف فى أملاك الدولة المنتدبة عليها تصرف الملاك فيما يملكون ، ولا يسمح لها أيضاً بأى تصرف يكون فيه مساس بحقوق الشعب أو الدولة الواقعة تحت الانتداب .

---

(١) راجع الفصل الرابع من الباب الثانى فى هذا الكتاب ، وفيه أثبتنا أن الإنتداب الإنجليزى على فلسطين كان باطلا شكلا وموضوعاً ، وأن كل ما وقع فيه يعد باطلا . .

ومعنى ذلك أن وعد بلفور لا يعدو إلا أن يكون مجرد أمل . أمل شخص نحو مجموعة أفراد ، ولست أدرى لماذا ذهب كثير من الكتاب والمؤرخين ورجال السياسة إلى تسمية ما جاء فى رسالة بلفور . . وَعداً . إن الرسالة لا تعدو إلا أن تكون خطاباً موجهاً من شخص إلى شخص ، وإذا كان للشخص الأول وهو بلفور صفته الرسمية باعتباره نائباً عن إنجلترا . . فإن الشخص الآخر وهو روتشيلد لا يعدو إلا أن يكون شخصاً عادياً ليس له أى كيان رسمى أو صفة دولية . فلم يكن لليهود فى ذلك الوقت دولة معترف بها ، وبالتالى لم يكن روتشيلد نائباً عن هذه الدولة .

نقول : إن رسالة بلفور مجرد رسالة شخصية من صديق إلى آخر ، وفى هذه الرسالة تعلن إنجلترا أو يعلن بلفور نيابة عنها .. رغبتها ونيتها فى إقامة وطن للشعب اليهودى فى فلسطين . . مجرد رغبة أو أمنية سواء أكانت هذه الرغبة أو الأمنية عند اليهود أم عند إنجلترا أم بلفور . . فإن هذا لا يعطى لليهود الحق ، ولا يمكن أن يكون لهم سنداً . فلو أن وزير خارجية إحدى الدول العربية أرسل رسالة إلى رئيس أية دولة أخرى أو لأى شخص عربى . . يخبره فيها أنه ينوى أن يقيم للعرب دولة فى إنجلترا أو فرنسا أو أمريكا مثلا . . هل تعتبر هذه الرسالة سنداً يستند إليه العرب فى تحقيق ذلك ؟ ! ! أعتقد أن الإجابة بالنفى . . وعلى هذا نستطيع أن نقول . . إن وعد بلفور باطل وغير ملزم التنفيذ .

٢ ــ نصت رسالة بلفور على إقامة وطن لليهود فى فلسطين . . ولم تنص على إقامة دولة لهم . . وهناك فرق بين مدلول الكلمتين : وطن ، دولة . فالوطن يعنى مكان الاستيطان أى مكان للسكن والإقامة فقط دون أى ارتباط بأى تشكيل سياسى مهما كان هذا التشكيل . . أما الدولة فمعناها أكبر وأشمل . معناها إقامة شعب ، وحكومة يكون لها السيادة والسيطرة عليهما : الشعب والأرض . وإذا نحن رجعنا إلى رسالة بلفور

والتى جاء بها : « تعترم الحكومة البريطانية إقامة وطن للشعب اليهودى » . . وجدنا أن هذا الكلام لا يعنى إقامة دولة ، وإنما يعنى إقامة مكان يسكن فيه اليهود ويستوطنون فيه . ولكنها لا تعنى إطلاقاً إقامة دولة يكون شعبها يهودياً وحكومتها من اليهود .

والجلسات والمقابلات التى جرت بين روتشيلد واليهود وإنجلترا كان مثار الخلاف فيها واضحاً حول مدلول الكلمتين : وطن ، ودولة . ولكن يبدو أن إنجلترا اقتنعت بهذا التعبير « وطن » على أمل أن تحقق ما ترجوه باسم هذه الكلمة . .

مهما يكن من شىء . . فإن وعد بلفور فى حد ذاته لا يعطى لليهود حق إقامة دولة لهم، ولا يصح أن يكون حجة يتمسك بها اليهود .

٣ – نصت رسالة بلفور على « إقامة وطن للشعب اليهودى » فماذا يعنى بلفور وحكومته بتعبير « الشعب اليهودى » ؟ ! إن اليهودية كما ذكرنا من قبل دين سماوى شأنها فى ذلك شأن الدين الإسلامى أو الدين المسيحى ، وليس اليهود شعباً ، وإلا لكان فى العالم ثلاثة شعوب : شعب يهودى ، وشعب مسيحى ، وشعب إسلامى . . بالإضافة إلى الشعوب الأخرى التى تدين بالديانات الأخرى غير السماوية مثل البوذية ، والهندوكية والكنفوشية . . ولكن الواقع غير ذلك . . إن العالم ينقسم إلى شعوب بناء على عوامل أخرى ومقاييس خلاف الدين . كالأصل والجنس والنشأة والموطن والعادات والتقاليد . . وقد تدخل مجموعة من الشعوب تحت دين واحد ، فالشعب الأمريكى والشعب الإنجليزى وكذا الشعب الفرنسى والألمانى . . كلها تدين بالديانة المسيحية ، ومع ذلك فهى شعوب مختلفة ، والشعب العربى ، والشعب الباكستانى والشعب الإندونيسى وكذا الشعب التركى

كل منها شعوب مختلفة ، ولكنها كلها تدين بدين واحد هو الإسلام ومع أن الشعبين : الهندى والباكستانى . . كانا شعباً واحداً إلا أنهما مختلفان من حيث الدين .

فماذا يقصد بلفور بالشعب اليهودى ؟ هل يقصد به مثلا كل من يدين بالديانة اليهودية ؟ ! أعتقد أن ذلك أمراً مستحيلاً ، فلا يعقل أن يجتمع بفلسطين أكثر من خمسين مليون يهودى لمجرد أنهم يدينون بالدين اليهودى . ! !

وما يقال عن عدم تحديد معنى الشعب اليهودى يمكن أن يقال عن عدم تحديد مكانه . فأين هذا الشعب اليهودى ؟ هل فى الخريطة السياسية ما يدل على مكان الشعب اليهودى ؟! ! إن كل شعب له دولة، وله حدود مرسومة على خريطة العالم السياسية . فهل للشعب اليهودى شىء كهذا ؟ـ شىء من اثنين : إما أن بلفور كان غبياً حين كتب مضمون رسالته لأنه لا يدرك معنى ما يكتب، وإما أنه كان يضحك على اليهود لمجرد أن يمنحهم أملاً . وسواء كان هذا أم ذاك فإن وعد بلفور بالصورة التى جاء عليها غير واضح ، ولا مجال للاعتماد عليه فى إثبات حق يدعيه اليهود .

٤ ـ ونعود مرة أخرى إلى نص رسالة بلفور ، ونسلط عليها الأضواء ولنبحث بالذات هذه الفقرة من الرسالة : « تعتزم الحكومة البريطانية إقامة وطن للشعب اليهودى فى فلسطين » وهنا نريد أن نسأل بلفور هذا السؤال : ماذا كان يقصد بفلسطين ؟ ما حدودها ؟ وما مساحتها ؟ إننا إذا رجعنا إلى الخريطة السياسية فى تلك الفترة لما وجدنا فيها حدوداً واضحة لفلسطين بمعناها المعروف حالياً ، ولكننا نجد مساحة كبيرة تمتد من الفرات شرقاً إلى البحر المتوسط غرباً ، ومن حدود تركيا الجنوبية شمالاً حتى شبه الجزيرة العربية جنوباً وهذه هى المنطقة التى عرفت على الخريطة

باسم سوريا أو بلاد الشام[1] وهى التى قسمت فيما بعد أى سنة ١٩٢٠ إلى الوحدات السياسية المعروفة حالياً وهى : لبنان والأردن وسوريا وفلسطين .

إن حدود فلسطين الحالية لم تكن مرسومة بصورة واضحة حين أصدر بلفور وعده أو رسالته . فهل كان بلفور يقصد بفلسطين : المنطقة كلها ؟ أم كان يقصد جزءاً بعينه ؟ ! !

يفهم من هذا أن بلفور لم يكن يعرف بالضبط ماذا يريد ، ويجب أن نعتبر رسالة بلفور مجرد خيال أو كلام على الهامش « لا طلع ولا نزل !» وبالتالى فلا يمكن الاعتماد عليه فى إثبات حق .

٥ ــ وليت الأمر وقف عند هذا الحد . . فإن رسالة بلفور المليئة بالغموض والإبهام . . نجدها من ناحية أخرى مليئة بالمتناقضات ؛ فقد جاء فيها « . . مع العلم بأن حكومة جلالة الملك لن تفعل شيئاً ينطوى على أى مساس بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية فى فلسطين » والمقصود بالطوائف غير اليهودية : المسلمين والمسيحيين . ونحن إذا تأملنا هذه العبارة لوجدنا فيها تناقضاً عجيباً ، وإذا ربطنا ما جاء بهذه الفقرة وما جاء بالفقرة الأولى من الرسالة وهو إقامة وطن للشعب اليهودى . . وجدنا أن الأمر لا يمكن تصديقه ، فلا يمكن تنفيذ ما جاء فى الفقرتين معاً . إن تنفيذ الشطر الأول من الرسالة معناه عدم تحقيق الشطر الثانى ، ولا شك أن هذا التناقض يفسد الرسالة فحواها . وبالتالى يجعلها غير ذات قيمة ، وليس لها صفة معقولة يمكن الاستناد إليها .

٦ ــ إن رسالة بلفور أو وعد بلفور لايكسب اليهود حقاً فى فلسطين ؛ لأن هذا الوعد إن وافقنا على تسميته بذلك جوازاً . . ليس له صفة دولية .

---

(١) أثناء الحكم العثمانى كانت القدس مصرفية تخضع للسلطان العثمانى مباشرة .

فليست هذه الرسالة صادرة من دولة إلى دولة . . إنها من شخص إلى شخص . صحيح قد يكون روتشيلد ممثلاً لجماعة من اليهود شكلوا أنفسهم فى صورة منظمات أطلقوا عليها ما أسموه بالهيئات الصهيونية . ولكن هذه الهيئات لم يكن لها صفة دولية وليس لها كيان عالمى ، وبالتالى لا يكتسب الوعد صفة قانونية ، وبالتالى لا يكون لازم النفاذ ، وليس من حق الشخص الذى صدر له الوعد أو الهيئات التى يتزعم رئاستها هذا الشخص . . ليس من حق هؤلاء جميعاً أن يطالبوا بتنفيذه ، ولا يصح أن يكون أساساً للتدليل على حق اليهود فى فلسطين .

قد يكون الصهاينة حاولوا أن يكسبوا هذا الوعد صفة دولية حين طالبوا روسيا والولايات المتحدة وغيرها من الدول الأخرى الاعتراف بما جاء فى رسالة بلفور ولكن ذلك لم يحدث إلا بعد مدة من إصدار رسالة بلفور ، ولم يتضح موقف هذه الدول بصورة قاطعة . . وحتى لو وافقت أوعارضت الدول ما جاء فى رسالة بلفور فإن هذا لا يغير من الواقع شيئاً .

٧ — لو فرضنا جدلاً ، وسلمنا برسالة بلفور على أنها وعد منه لليهود.. فإننا نقول : إن إنجلترا وعدت العرب ذات يوم ، وكان وعدها سابقاً ، ولاحقاً لوعد بلفور . . فقد وعدت إنجلترا العربَ ممثلين فى شخصية الشريف حسين وابنه فيصل أن يساعدوهم فى الاستقلال بسوريا والحجاز . جاء ذلك فى الرسائل المتبادلة بين الشريف حسين وماكمهون ، ولا شك أن الشريف حسين كان يمثل دولة لها كيانها ولها معالمها بعكس روتشيليد الذى لا يمثل أى دولة كما ذكرنا .

نقول : إن الإنجليز وعدوا الشريف حسين باستقلال العرب عن الدولة العثمانية ، وكان ذلك سنة ١٩١٦ . وعلى أساس الوعد قام العرب بثورتهم ضد العثمانيين ، وكان عاملا كبيراً فى انتصار الحلفاء ، وحينما أحس العرب بخيانة إنجلترا وسوء نوايا الحلفاء . . قدم زعماؤهم فى مصر

فى مارس سنة ١٩١٨ — وهو تاريخ متأخر عن وعد بلفور — مذكرة طالبوا فيها بأن تعلن إنجلترا حقيقة أغراضها فى فلسطين ، وردت وزارة الخارجية الإنجليزية تؤكد عزم إنجلترا على تنفيذ تعهدها للشريف حسين ، والاعتراف بسيادة العرب . وأن يكون الحكم فى البلاد العربية وفقاً لرغبات الشعب العربى . وفى ١٧ فبراير سنة ١٩١٨ أصدرت إنجلترا وفرنسا مذكرة تؤكدان فيها أن هدفهما هو تحرير الشعوب التى كانت ترزح تحت نير الاستعمار العثمانى .

معنى ذلك أن اعتراف إنجلترا بسيادة العرب على أرضهم سبق اعترافها بإقامة وطن لليهود فى فلسطين . وإذا كان اليهود يقولون : إن وعد بلفور يلغى الأقدم أى يلغى ما جاء فى رسائل الحسين ماكمهون ، فإننا نقول لهم : إن إنجلترا أكدت مرة أخرى وعودها للعرب وكان ذلك بعد وعد بلفور أى سنة ١٩١٨ وبذلك يمكن أن نعتبر فى ذلك إلغاء لوعد بلفور .

٨ — مما لا شك فيه أن وعد بلفور لا يتفق مع المبادئ التى نادى بها الرئيس الأمريكى ولسن والتى كان من أهمها : حق كل دولة فى اختيار الحكم الذى يلائمها ، وحق الشعب أن يختار بنفسه وبحرية نظام الحكم الذى يريده ويرتضيه ، ولكل أمة أن تختار الطريق الذى تريده دون أى تأثير من دولة أخرى ، ولقد أكد ولسن آراءه أكثر من مرة ؛ وكان مما جاء فى خطاب ألقاه يوم ٤ يولية سنة ١٩١٨ . . إننا لا نريد إلا سيادة الحق القائم على إرضاء المحكومين أنفسهم » ولقد كان العرب محكومين من العثمانيين ؛ وكان ما يرضى العرب هو استقلالهم ، وقد أعلنوا ذلك أكثر من مرة . . أعلنوه حين عقدوا مؤتمراً لهم فى دمشق سنة ١٩٢٠ وأعلنوا فيه استقلال سوريا بحدودها الطبيعية ومنها فلسطين . ورفضوا أن يأخذ اليهود أى شبر منها ، كما رفضوا بقاء الجيوش الإنجليزية أو الفرنسية فى الأراضى العربية ولم يوافقوا على الانتداب الإنجليزى أو الفرنسى على الدول العربية ،

وهم بكل تأكيد وبإجماع لم يرضوا عما جاء فى رسالة بلفور ، فكيف يتفق هذا مع حق تقرير المصير الذى أعلنه ولسن ؟ ! !

إما أن ولسن كان غبياً ، وإما كان بلفور مخطئاً ، وإما كان الاثنان أغبياء . ولكن مهما يكن من شيء فإن ذلك لا يضيع حق العرب ، ولا يعطى لليهود حقاً فى فلسطين .

ولقد أثبتنا فى مكان آخر بطلان ما أسماه اليهود بالوعد المقدس أو أرض الميعاد ، وهنا نؤكد بطلان وعد بلفور . فهل يبحث اليهود عن وعد آخر يثبتون به حقهم ؟ ! ! لعل الشيطان هو الآخر قد وعدهم أن يعطيهم فلسطين ! ! ولعل الشيطان هو الذى سول لهم ظنونهم ، ولكن متى كان الشيطان قادراً على حمايتهم من عواقب أوهامهم . . عما قريب سيقول الشيطان :

« وَوَعَدْتُكُم فَأَخْلَفْتُكُم وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم من سُلْطَان إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُم فاسْتَجَبْتُم لِى فَلَا تَلُومُونِى ولُومُوا أَنْفُسَكُمْ . . »

الفصل الرابع

. . والانتداب . .

من سلسلة المزاعم الصهيونية . . ذلك الزعم الذى يدعى به اليهود حقاً لهم فى فلسطين بناء على ما جاء فى نصوص [صك] الانتداب الإنجليزى، والذى وافقت عليه عصبة الأمم المتحدة حين كانت هيئة عالمية لها كيانها الدولى ولها صفتها الرسمية . . هكذا يقول اليهود .

وقبل أن نناقش الموضوع من زواياه العديدة . . وقبل أن نبحث مدى شرعية هذا الانتداب أو بطلانه ، وتلك الاتجاهات الظالمة التى رسمتها نصوصه . . بل الطريقة التى نفذ بها . . قبل ذلك كله يجدر بنا أن نسترجع الأحداث التاريخية الهامة التى صاحبت إقرار هذا الانتداب .. وقد تحدثنا عن طرف منها فى الفصل السابق والذى أبرزنا فيه بعض الأحداث التى تلازمت مع وعد بلفور ، وهنا نتابع مجريات هذه الحوادث :

ما كادت الحرب العالمية الأولى تضع أوزارها إثر إعلان الهدنة بين المتحاربين فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ معلنة انتصار الحلفاء وهزيمة تركيا وألمانيا . . حتى راحت كل من فرنسا وإنجلترا تعملان كل ما فى وسعهما لاقتسام المنطقة العربية إلى مناطق نفوذ بينهما ؛ وفقاً لما جاء فى اتفاقية سايكس بيكو(١) .

---

(١) عقدت هذه الاتفاقية سراً بين إنجلترا وفرنسا سنة ١٩١٦ وكانت تنص على أن :

ا — تستولى فرنسا على سوريا وجنوب الأناضول والموصل .

ب — تستولى إنجلترا على المناطق الواقعة من الخليج العربى إلى العريش ،

وفى الوقت نفسه نشط الصهاينة ، وراحوا يكتلون جهودهم ، ويستغلون سلطاتهم وأموالهم من أجل إقناع إنجلترا والدول المنتصرة بتحقيق وعد بلفور .

أما العرب .. . فقد حاولوا هم أيضاً أن يحققوا آمالهم باستقلال سوريا والحجاز والعراق ، وأخذوا يطالبون إنجلترا بتحقيق الوعود التى قطعتها على نفسها فى رسائل الحسين ما كمهون خلال فترة الحرب . خصوصاً بعد أن أدى العرب دورهم على أكمل وجه .

وهكذا بدأ الصراع يدب بين الاتجاهات الثلاثة . . ولم تمض أيام قلائل حتى أسرعت إنجلترا تطلب من الأمير فيصل ترك الساحل السورى لفرنسا بحجة أغراض دفاعية ، واضطر العرب — كارهين — إلى الإذعان لمشيئة إنجلترا ، فأخلوا الساحل السورى ، وأسرعت الجيوش الفرنسية تحتله ، وكان ذلك إحدى الخطط التى رسمها الحلفاء لتنفيذ اتفاقية سايكس بيكو .

وأحس العرب بخيانة الحلفاء حين تكشفت لهم الحقائق ، ووضح لهم ما انتوته فرنسا وإنجلترا ، فقد كانت الأولى تبغى السيطرة على العراق وفلسطين ، وكانت الثانية تريد أن تستحوذ على سوريا ولبنان . . ولكن العرب لم يسكتوا ، وراحوا يعلنون عدم رضائهم عن فكرة التقسيم ، ويطالبون بالاستقلال .

وفى ديسمبر سنة ١٩١٨ سافر الأمير فيصل إلى لندن نيابة عن والده ، يطالب إنجلترا بتنفيذ وعودها للعرب ، ولكنه عاد دون نتيجة ، ولم ييأس فيصل ؛ فسافر إلى باريس فى يناير سنة ١٩١٩ يطالب مؤتمر الصلح

= وهذه المنطقة تشمل : العراق وشرق الأردن وفلسطين .

حـ — تقام فى الأماكن المقدسة بفلسطين إدارة دولية خاصة .

د — تستولى روسيا على القسطنطينية والمناطق المحيطة بالبسفور .

بالتسليم بحق العرب فى الاستقلال ، ولكن قرارات المؤتمر — للأسف — كانت على غير رغبة العرب . . حيث قرر المؤتمر فصل سوريا ولبنان والعراق وفلسطين ووضعها تحت الانتداب . .

وأيقن العرب عند ذلك مدى الخطأ الذى ارتكبوه حين تعاونوا مع الحلفاء ضد الأتراك ، ورجع فيصل وهو أكثر ما يكون إيماناً بخيانة الإنجليز وغدرهم . . ولكن . . هل سكت العرب ؟

لا . . لقد رفعوا أصواتهم يستنكرون قرارات مؤتمر الصلح ، ويطالبون بأخذ رأيهم فى تقرير مصيرهم بناء على تلك المبادئ التى أعلنها الرئيس الأمريكى « ولسن » والتى نصت على حق كل شعب فى تقرير مصيره بحرية تامة .

ووصلت صرخات الشعب العربى إلى آذان ولسن ، ولم تكن آذان أمريكا فى ذلك الوقت قد تفتحت لليهود ، ولذلك أسرع ولسن يؤكد حق الشعب العربى فى سوريا والحجاز والعراق فى تقرير مصيره ، واقترح ولسن تشكيل لجنة من مندوبين من إنجلترا وفرنسا وأمريكا وإيطاليا ؛ لبحث رغبات الشعب العربى . . ولكن إنجلترا وفرنسا لم يعجبهما هذا التصرف ، فأعلن لويد جورج الإنجليزى ، وكلمنصو الفرنسى رفضهما الاشتراك فى هذه اللجنة ، وقررا المضى فى خطتهما للسيطرة على المناطق العربية . فهل تذكر إنجلترا ذلك كله . . ؟ ! !

ومهما يكن من أمر ، فقد تكونت لجنة عرفت باسم لجنة كنج كرين King Crane ، وسافرت إلى سوريا ، واتصلت بالزعماء العرب ، وعرفت آراءهم ومطالبهم ، وكانت هذه المطالب تتلخص فى :

١ — ضرورة استقلال سوريا الكبرى (لبنان والأردن ، وفلسطين ، وسوريا الحالية) على أن يصبح الشريف حسين ملكاً عليها .

٢ ـ استقلال العراق على أن يصبح الأمير فيصل ملكاً عليه .

٣ ـ يرفض العرب كل ما جاء فى اتفاقية سايكس بيكو ؛ لأنه يتعارض مع رغباتهم .

٤ ـ يعلن العرب فى عزم أكيد رفضهم لما جاء فى تصريح بلفور ، ويصرون على أن فلسطين دولة عربية .

٥ ـ يصر العرب على الاستقلال، ويرفضون كل صورة من صور التدخل والسيطرة . . حتى ولو كانت فى صورة الانتداب .

كانت قرارات العرب صدمة قاسية للحلفاء والصهاينة على حد سواء ، وكانت فى نفس الوقت دليلاً صادقاً على وحدة الشعب العربى وإجماع كلمته ، وخشيت فرنسا وإنجلترا أن تضيع الفرصة منهما ، وأحس الصهاينة أن تحقيق آمالهم مرهون بمشيئة إنجلترا ، لذلك بدأ الجميع . . الصهاينة والمستعمرون . . يتجاهلون رغبات الشعب العربى ، وراح اليهود يوجهون جهودهم نحو أمريكا ، فقد اتضح الدور الذى يمكن أن تلعبه أمريكا فى هذه الظروف ، وبدأت الولايات المتحدة تتجه لمناصرة الصهاينة ، وضغط اليهود على أعضاء الكونجرس الأمريكى ؛ لإلغاء تقرير لجنة كنج كرين ، واعتبار هذه اللجنة كأن لم تكن .

ويبدو أن إنجلترا وفرنسا كانتا واثقتين من نفسهما ، ومن إهمال مقترحات لجنة كنج كرين . . لذلك عادت تؤكدان مرة أخرى عزمهما على تنفيذ ما جاء فى قرارات مؤتمر الصلح .

وثار العرب مرة أخرى ، وعقدوا مؤتمراً لهم بدمشق فى ٨ مارس سنة ١٩٢٠ . . أكدوا فيه ما أعلنوه أمام لجنة كنج كرين من ضرورة استقلال المنطقة العربية ورفض معاهدة سايكس بيكو ووعد بلفور . . ولكن إنجلترا وفرنسا لم توافقا على قرارات مؤتمر دمشق ، ولم تكد تمضى أيام قليلة حتى اجتمع مجلس الحلفاء فى سان ريمو بإيطاليا فى أبريل سنة

١٩٢٠ وأعلن أعضاؤه وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى . وفلسطين والعراق وشرق الأردن تحت الانتداب الإنجليزى .

وأسرعت فرنسا تستولى على باقى أجزاء سوريا . ولذلك أصدر الجنرال « جورو » قائد القوات الفرنسية أمره إلى الحكومة السورية فى ٢٤ يولية سنة ١٩٢٠ يطلب عدة طلبات منها : تسليم الخط الحديدى من رباق[1] إلى حلب ، وإلغاء التجنيد الإجبارى ، وتسريح الجيش ، وقبول الانتداب الفرنسى . . إلى غير ذلك من القرارات التى اعتبرها العرب تدخلا فى سياسة بلادهم ، ورفضوا الإنذار فى أول الأمر ، ولكنهم وجدوا من الحكمة أخيراً أن ينفذوا أوامر فرنسا ، وبالرغم من ذلك أسرعت القوات الفرنسية تهاجم السوريين ، وكانت معركة ميسلون المشهورة التى استشهد فيها البطل يوسف العظمة .

وهكذا استولت فرنسا على سوريا ولبنان ، وفرضت عليهما انتدابها بالقوة ، وكانت إنجلترا هى الأخرى تحتل العراق والأردن وفلسطين وتسيطر عليها .

وأخيراً وفى ٢٤ يولية سنة ١٩٢٢ . . وافقت عصبة الأمم المتحدة على نصوص الانتداب دون مناقشة جدية . وكان الصهاينة قد تدخلوا لدى الكونجرس الأمريكى ، وكانت إنجلترا قد استطاعت التأثير على المسئولين فى الولايات المتحدة فأعلنت موافقتها على الانتداب الإنجليزى على فلسطين فى ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٤ . حدث ذلك بعد أن بدئ فعلاً فى تنفيذ صكوك الانتداب رسمياً فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٣ ، وإن كان الواقع هو أن الانتداب بدأ منذ استولت إنجلترا على الشام بعد الحرب الأولى مباشرة .

هذه قصة الانتداب الإنجليزى على فلسطين . . والآن لنناقش معاً

---

(١) فى لبنان .

شرعية هذا الانتداب وقانونيته :

١ — إن قرار الانتداب هذا لم يكن وفقاً لرغبات الشعب العربى . وهذا يتنافى مع مبادئ عصبة الأمم المتحدة من ناحية . . كما يتعارض مع المبادئ التى أعلنها ولسن . فقد جاء فى الفقرة الثانية من المادة ٢٢ لميثاق عصبة الأمم المتحدة ما يأتى : « إن بعض الشعوب التى كانت خاضعة للإمبراطورية التركية . . وصلت إلى درجة من التقدم يمكن معها الاعتراف مؤقتاً بكيانها كأمم مستقلة خاضعة لقبول النصح والإرشاد والمساعدة من قبل الدولة المنتدبة عليها . . حتى ذلك الوقت الذى تصبح فيه هذه الشعوب قادرة على النهوض وحدها بتبعات الحكم ، ويجب أن يكون لرغبات هذه الشعوب المقام الأول فى اختيار الدولة المنتدبة عليها » . .

ومن ناحية أخرى . . فإن الرئيس الأمريكى ولسن أعلن فى خطاب له فى ٤ يولية سنة ١٩١٩ تأكيداً للمبادئ التى أعلنها من قبل ، فقد جاء فى هذا الخطاب « إن حل كل مسألة تتعلق بالأرض أو المسائل الاقتصادية والسياسية . . يجب أن ينبنى على قبول الناس الذين تتعلق بهم قبولاً حراً على المصالح المادية ، وليس لفائدة أية دولة أخرى ترغب فى حل آخر خدمة لنفوذها الخارجى أو لسيادتها » .

وعلى ذلك . . فقد كان من المفروض أن يؤخذ رأى العرب فى المصير الذى يرتضونه لأنفسهم ولأرضهم.. خصوصاً بعد أن زالت عنهم السيادة التركية . . ولكن . . هل حدث ذلك ؟

الحقيقة أن العرب فوجئوا بقرار التقسيم ، وحينما جاءت لجنة كنج كرين لتأخذ رأيهم — رغم معارضة إنجلترا وفرنسا — أبدى العرب رأيهم بصراحة ، وأعلنوا أنهم يرفضون كل صورة من صور السيطرة ، ويطالبون بالاستقلال التام ، وأكدوا ذلك مرة أخرى فى القرارات التى أجمع عليها مؤتمر دمشق فى ٨ مارس سنة ١٩٢٠ .

وكان من المفروض أن يوضع رأى العرب موضع التنفيذ . . ولكن الذى حدث هو عكس ذلك . . استمرت إنجلترا فى تنفيذ خطة انتدابها .
معنى ذلك أن الانتداب بنى على غير الأسس التى فرضت له ، وحكم ما بنى على غير أساس.. الهدم والبطلان، وما بنى على قرارات تخالف عهد عصبة الأمم .. لا يعتبر ملزم النفاذ .

٢ ــ إن هذا الانتداب لم يأخذ صفته الرسمية من أول الأمر ، بمعنى أن صكوك الانتداب لم تقم عصبة الأمم بوضعها ، ولكن جماعة من الصهاينة هم الذين وضعوها ؛ وكان ذلك برئاسة القاضى الأمريكى الصهيونى فيلكس فرانكفورت ، مع أن هذا مخالف لميثاق عصبة الأمم المتحدة وما نصت عليه الفقرة الثامنة من المادة ٢٢ وهذا الوضع لا يعطى لنصوص الانتداب الصفة الرسمية .

قد يقول الصهاينة : إن العصبة وافقت عليه فى يوليو سنة ١٩٢٢ . . ولكننا نرد عليهم لنقول لهم : إن هذا لم يحدث فى أول الأمر كما كان مفروضاً . وأن عصبة الأمم فى الحقيقة لم توافق على بنود الانتداب لأنها كانت مقتنعة بها أو بمحض إرادتها ، وإنما لمجرد أنها وجدت نفسها أمام الأمر الواقع ؛ فكان ذلك تحصيل حاصل . . ومن الثابت كذلك أن كثيراً من الدول عارضت هذا الانتداب ؛ وأن الولايات المتحدة نفسها لم تعترف بهذا الانتداب إلا بعد إقرار العصبة له بمدة طويلة . . حدث ذلك..حين تدخل اليهود لدى الكونجرس الأمريكى للموافقة على الانتداب.
وقد ثبت أيضاً أن عصبة الأمم المتحدة حين عرضت عليها صكوك الانتداب . . لم يحاول أعضاؤها مناقشة هذه الصكوك بصورة جدية ، وهذا ما يؤكد عدم اعتبارها صكوكاً رسمية ملزمة التنفيذ؛ وبالتالى فنحن لانعترف بهذا الانتداب، وحتى ولو كان قد حدث فعلاً.. فإننا نعتبره باطلا، وما بنى على الباطل .. فهو باطل .

وحقيقة أخرى . . هى أن الأمين العام لعصبة الأمم المتحدة اعترض على قرار مجلس الحلفاء بالانتداب ، وأنه ذات يوم قدم مذكرة بذلك إلى العصبة يستنكر فيها هذا التصرف ، وكان ذلك فى أواخر يوليو سنة ١٩٢٠ ، كما أن كثيراً من الدول مثل : بلجيكا وأمريكا أعلنتا ذات يوم أن ما اتخذه مجلس الحلفاء فى اجتماعه لتوزيع الانتداب لا يتفق مع عهد عصبة الأمم المتحدة ، وهذه مخالفة صريحة لمبادئ الهيئة العالمية.. فهل يبقى بعد ذلك شك فى عدم شرعية الانتداب ؟!!

هذا عن وضع الانتداب من الناحية القانونية . . ولكن هناك نقطة أخرى وهى هل هذا الانتداب بالصورة التى تم بها والتى نص عليها يعتبر عادلا ؟ . . .

الحقيقة. . لا . . ونستطيع أن ندرك هذا إذا تتبعنا نصوص الانتداب ، والتى نورد هنا بعضاً منها :

١ ــ فى المادة الثانية « تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن وضع البلاد فى أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن اليهودى . . وترقية الحكم الذاتى ، وتكون مسئولة أيضاً عن صيانة الحقوق الدينية والمدنية لجميع سكان فلسطين بغض النظر عن الجنس أو الدين » .

٢ ــ وجاء فى المادة الرابعة « يعترف بوكالة يهودية كهيئة عمومية لإسداء المشورة إلى إدارة فلسطين ، والتعاون معها فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك من الأمور التى تؤثر فى إنشاء الوطن اليهودى ومصالح السكان اليهود فى فلسطين ، ولتساعد وتشترك فى ترقية البلا د على أن يكون ذلك خاضعاً لمراقبة الإدارة ، ويعترف بالجمعية الصهيونية كوكالة ملائمة ، وعلى الجمعية الصهيونية أن تتخذ من التدابير بعد استشارة حكومة إنجلترا للحصول على معونة جميع اليهود الذين يبغون المساعدة فى إنشاء الوطن القومى لليهود » .

والمادة الخامسة تنص على أن « تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن عدم النزول عن أى جزء من أرض فلسطين إلى حكومة دولة أجنبية ، وعدم تأجيره أو وضعه تحت تصرفها بأية صورة » .

وفى المادة السادسة « على إدارة فلسطين مع عدم إلحاق الضرر بحقوق ووضع فئات الأهالى الأخرى أن تسهل هجرة اليهود ، وأن تشجع بالتعاون مع الوكالة اليهودية . . حشد اليهود فى الأراضى الأميرية والأراضى البور غير المطلوبة للأغراض العمومية » .

وتنص المادة السابعة على أن « تتولى إدارة فلسطين مسئولية سن قانون للجنسية ، ويجب أن يشتمل ذلك القانون على نصوص تسهل اكتساب الجنسية الفلسطينية لليهود الذين يتخذون فلسطين مقاماً لهم دائماً » .

وجاء فى المادة الحادية عشرة : « تتخذ إدارة فلسطين كل ما يلزم من تدابير تصون مصلحة الجمهور فيما يتعلق بترقية البلاد وعمرانها ، ويكون لها السلطة التامة فى وضع ما يلزم من الأحكام لتملك أى مورد من موارد البلاد الطبيعية أو الأعمال والمصالح والمنافع العمومية التى فى البلاد أو التى ستؤسس فيما بعد ، والسيطرة عليها بشرط مراعاة الالتزامات التى قبلتها الدولة المنتدبة على نفسها » .

أما المادة الثانية والعشرون فتنص على « تكون الإنجليزية والعربية والعبرية هى اللغات الرسمية لفلسطين ، وكل عبارة أو كتابة بالعربية وردت على طوابع أو عملة تستعمل فى فلسطين يجب أن تكرر بالعبرية ، وكل عبارة أو كتابة بالعبرية يجب أن تكرر بالعربية » .

وإذا أمعنا النظر فى هذه الصكوك أدركنا مدى المؤامرة التى قام بها واضعوا الانتداب ، وكيف أنهم قصدوا مصلحة اليهود . . دون مصلحة العرب . . بل العكس . . حاولوا أن يضيعوا حقوق العرب .

ويمكن أن ندلل على ذلك بما يأتى :

١ ـــ كل بنود الانتداب تشير إلى تحقيق المصالح الصهيونية مثل : إقامة وطن لليهود والاعتراف بوكالة يهودية ، وتشجيع الهجرة اليهودية ، وجعل اللغة العبرية لغة رسمية مثل العربية ، وغير ذلك من المكاسب التى تضمنها صك الانتداب وكلها من الأمور التى ترضى آمال اليهود وتمكنهم من السيطرة على فلسطين . وهذا يتنافى مع الغرض الذى قام من أجله الانتداب . فقد حددت المادة ٢٢ من عهد عصبة الأمم المتحدة وظيفة الدولة المنتدبة حيث نصت هذه المادة على أن الدولة المنتدبة مسئولة عن بذل المساعدة والإرشاد للدولة الخاضعة للانتداب حتى تصبح الأخيرة قادرة على النهوض وحدها بمسئوليات حكمها . . فهل يعتقد العاقلون أن تلك الأسس التى رسمتها صكوك الانتداب تتفق مع ما نصت عليه المادة ٢٢ ؟ ! ولعل النتائج التى وضحت آ ثارها بعد ذلك تبين ما انطوت عليه صكوك الانتداب من أضرار ومشاكل . لقد ترتب على ذلك صراع طويل بين العرب واليهود، وما صاحب ذلك من حروب، وتلك الاعتداءات المتكررة على العرب ، وما يسود دول الشرق الأوسط الآن من علاقات سيئة قد تؤدى إلى حرب عالمية .

لقد كان من الأجدر بمن وضعوا قوانين الانتداب أن يراعوا العدالة والحق ولكنهم لم يفعلوا .

٢ ـــ الانتداب يحمل بين طيات نصوصه عناصر بطلانه ، فنصوصه مليئة بالمتناقضات .. فقد جاء فى ديباجة الصك مايؤكد الاعتراف بالعلاقة التاريخية والدينية بين الشعب اليهودى وفلسطين، فقد جاء فى الديباجة . . اعتراف بتلك الصلة التاريخية التى تربط الشعب اليهودى بفلسطين ، والأسباب التى تبعث على إعادة إنشاء وطنهم القومى فى تلك البلاد . . وورد أيضاً فى كثير من نصوص الانتداب مايؤكد ذلك (كما جاء فى المادة الثانية) .. ومع ذلك وجدنا أن نصوص الانتداب تقرر (كما جاء فى المادة

الخامسة، على عدم التنازل عن أى جزء من أراضى فلسطين . . وكما جاء فى المادة السادسة التى نصت على عدم إلحاق الضرر بحقوق ووضع فئات الأهالى — غير اليهود — أى المسلمين والمسيحيين . . فكيف يتأتى ذلك ؟ كيف ننفذ هذه الصكوك .؟ كيف نحرم تمليك فلسطين للأجانب ؟ وكيف لا نفعل ما يضر بالشعب العربى، ثم مع هذا وذلك نقيم وطناً لليهود فى فلسطين ؟ ! ! أليس فى ذلك تعارض وتناقض عجيب؟! نفس ما جاء فى كلام بلفور . ! !

٣ — نصت صكوك الانتداب فى المادة الرابعة على الاعتراف بالوكالة اليهودية والجمعية الصهيونية وبدورهما فى حكم فلسطين ومساهمتهما فى إدارة شئون البلاد، بل فى إقامة الوطن اليهودى ، فكان ذلك بمثابة حكومة داخل حكومة . . حكومة صهيونية داخل حكومة إنجليزية . . بينما لم تهيئ صكوك الانتداب للعرب مثل هذه الفرصة ، ولم تنص على إقامة هيئة عربية . . بل لعل ذلك كان أولى لأن العرب هم الأكثرية وهم أصحاب حق ! !

٤ — حتى المادة الحادية عشرة التى نصت على ترقية البلاد وعمرانها .. لم تكن صريحة ، ولم تحدد بالضبط ما المقصود بذلك ؟ وما مدى هذه الترقية وهذا العمران . ! !

ومع ذلك . فهل لنا أن نسأل إنجلترا . . هل استطاعت حكومات الانتداب خلال الفترة من سنة ١٩٢٠ — سنة ١٩٤٨ أن تفعل شيئاً من أجل فلسطين أو من أجل عرب فلسطين ؟ لا ..!! لقد فعلت الكثير من أجل اليهود، ولم تخرج من فلسطين إلا إذا مكنتهم منها، ولكنها بالنسبة للعرب كانت ظالمة قاسية ، وبالنسبة لفلسطين . أخرتها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ، وليس وجود إسرائيل فى هذه المنطقة إلا دليلا على هذا التأخر .

ونستطيع أن ندلل على سوء الإدارة الإنجليزية فى فلسطين خلال

فترة الانتداب فى النقط الآتية :

(ا) طرد العرب من أرضهم وديارهم وإعطاؤها لليهود .

(ب) جلب أعداد كبيرة من اليهود من دول العالم المختلفةوإسكانهم فى فلسطين .

(جـ) تحريم عودة العرب إلى ديارهم إذا غادروها لظروف ما .

(د) الضرائب الفادحة التى كانت تثقل الشعب العربى .

(هـ) استغلال خيرات فلسطين لمصلحة الاستعمار والصهاينة وحرمان العرب من خيرات بلادهم .

(و) تأخير المنطقة اقتصادياً حيث لم تعمل حكومة الانتداب على الاهتمام بالمشروعات الاقتصادية .

(ز) سوء الحالة الاجتماعية وانتشار الفقر والجهل والمرض .

(ح) سوء الحالة السياسية ، ولا أدل على ذلك من قيام الدولة الإسرائيلية، وما ينجم عن ذلك من مشكلات سياسية .

(ط) العمل على إيجاد الفرقة بين المسلمين والمسيحيين ليكسب اليهود من هذا التنازع .

هذا قليل من كثير من تلك السياسة السيئة التى كانت تسود إسرائيل خلال فترة الانتداب، فهل يبقى بعد ذلك شك فى سوء هذا النظام؟!! إذن فالانتداب على فلسطين .. باطل .. ظالم — لم يحقق الغرض الذى قام من أجله . . فلماذا يبنى اليهود حجتهم عليه ؟ ! !

إنها محاولة فاشلة وحجة واهية . . فليبحثوا عن غيرها . .

الفصل الخامس

اليهود . . لم يشتروا أرض فلسطين

يزعم الصهاينة أنهم أصحاب حق فى فلسطين ؛ لأنهم – على حد قولهم – اشتروا أرضها ، ودفعوا لها ثمناً من أموالهم الخاصة ؛ فهم بحكم قانون الملكية أصحاب حق فيها . . ! !

وإذا نحن أمعنا النظر فيما يزعمه الصهاينة . . لوجدنا أنه بعيد كل البعد عن الحقيقة ؛ فإن الإحصائيات الرسمية تبين أن اليهود . . رغم كثرة محاولاتهم تملك أرض فلسطين بشتى الطرق القانونية وغير القانونية .. إلا أنهم لم يستطيعوا حتى سنة ١٩٤٨ ، وهو تاريخ إعلان إسرائيل ، امتلاك أكثر من ٧ ٪ من مساحة فلسطين أى حوالى مليونى دونم . وهذه المساحة الضئيلة انتقلت إليهم ملكيتها بطرق مختلفة معظمها طرق غير مشروعة يمكن أن نلخصها فيما يأتى :

١ – خلال الحكم العثمانى لفلسطين . . تمكن اليهود من الاستيلاء على ٦٥٠,٠٠٠ دونم .

٢ – قامت حكومة الانتداب الإنجليزية خلال سيطرتها على فلسطين فى الفترة من سنة ١٩٢٠ – سنة ١٩٤٨ ببيع كثير من الأراضى الأميرية للوكالة اليهودية بثمن بخس ، وفى الوقت نفسه حرمت الحكومة على العرب شراء الأراضى الفلسطينية ، وكان ذلك إحدى الخطط التى اختطتها حكومة الانتداب لتنفيذ المخطط الصهيونى. فإن إنجلترا منذ انتدابها على فلسطين عملت على أن يصل إلى أيدى اليهود أكبر قدر ممكن من مساحة الأراضى الفلسطينية . على كل حال .. فقد بلغ جملة ما استولى عليه اليهود بهذه

الوسيلة حوالى ٢٠٠,٠٠٠ دونم .

٣ – وإذا كانت حكومة الانتداب قد باعت لليهود مساحات كثيرة من أراضي فلسطين، فإنها لم تكتف بذلك بل راحت تمنح اليهود مساحات أخرى بدون مقابل ، ومن الأمور العجيبة والتى تعد مثالا لتواطئ حكومة الانتداب مع اليهود على حساب مصلحة العرب . . أن حكومة الانتداب كانت تستولى على كثير من المناطق العربية بحجة أنها مناطق عسكرية محرمة ، وبذلك تصبح هذه المناطق ملكاً للدولة ، ثم تقوم الحكومة بعد ذلك بمنحها لليهود . . ولم تجد حكومة الانتداب من يستطيع الوقوف فى وجهها ومنعها من هذا التصرف . وقد بلغ جملة ما استطاع اليهود الحصول عليه بهذه الطريقة حوالى ٣٠٠,٠٠٠ دونم .

وإذا نحن أردنا أن نبحث هذه التصرفات من الناحية القانونية . . لوجدنا أن فيها مخالفة للوائح الانتداب ونصوصه ، وتعارضاً واضحاً مع الغرض الذى من أجله وضعت فلسطين تحت الانتداب ، فقد جاء فى المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم : « يكون واجب الدولة التى تتولى الانتداب مقصوراً على بذل الإرشاد والمساعدة للدولة المنتدب عليها . إلى أن تبلغ تلك مرتبة النضج السياسى الكامل . . »

معنى هذا أن نصوص الانتداب لم تعط للدولة المنتدبة أحقية التصرف فى ملكية الدولة الخاضعة للانتداب تصرفاً مطلقاً ، بمعنى أنه لو جاز لها هذا التصرف فيجب ألا يكون فيه إضرار بمصلحة السكان والوطن الذى يقع تحت الانتداب ، والأمر الذى لا شك فيه أن إعطاء اليهود أرض فلسطين وبلا ثمن وحرمان الشعب العربى من أملاكه .. لا يمكن أن يدخل تحت عبارة الإرشاد والمساعدة التى يجب أن تقوم عليها سياسة دولة الانتداب ، بل يمكن أن ندخل هذا التصرف تحت تعبير « التبديد والإهمال فى حق الشعب الفلسطينى » . .

ولنا أن نتساءل : لماذا يكون لليهود الحق فى الحصول على الأراضى الفلسطينية الأميرية دون أن يكون للعرب هذا الحق ؟ ! ! مع أن اليهود أجانب ، والعرب هم أصحاب الوطن الأصليين ، فكيف تمنح الأرض لغير أصحابها دون أصحابها ؟ ! ! لقد صدق أحد الكتاب حين قال : « إن اليهود فى فلسطين لم يكونوا إلا الطفل المدلل لدى حكومة الانتداب » .

وعلى ذلك .. فإن كل الإجراءات وكل عقود البيع والمنح التى قامت بها حكومة الانتداب لليهود تكون باطلة من الوجهة القانونية ، وليس لها سند من الحق والمنطق . بل إن أحد عنصرى العقد وهو الإيجاب هنا غير متوفر . لأن العرب وهم أصحاب هذا الحق لم يوافقوا على هذا البيع . وبالتالى تكون هذه العقود غير نافذة ، ولا يترتب عليها أى أثر من الآثار التى تترتب على العقد الصحيح القائم على الإيجاب والقبول من الطرفين المتعاقدين : البائع والمشترى . أو المانح والممنوح له ، وعلى ذلك يجب أن يرد اليهود إلى العرب ما مساحته نصف مليون دونم وهى المساحة التى استولى عليها اليهود بطريق الشراء والمنح . .

٤ ــ بعض هذه الأراضى انتقلت ملكيتها إلى اليهود بطريق الشراء من ملاك ليسوا فلسطينيين من أمثال عائلات : سرسق والتوينى وسلام . . وهؤلاء ممن اضطرتهم الظروف إلى مغادرة فلسطين نتيجة لتلك الظروف السياسية والاقتصادية المتقلبة التى كانت تسيطر على فلسطين خلال فترة الانتداب ، وطبيعى لم يكن يهم هؤلاء غير الفلسطينيين إلا مصلحتهم الشخصية والحصول على أثمان عالية لممتلكاتهم ، وهو ما لم يستطعه العرب فى ذلك الوقت بسبب الظروف المالية السيئة التى كانوا يعيشون فيها نتيجة للضرائب الباهظة التى كانت تثقل كاهل العرب ، وعلى ذلك لم يكن أمام هؤلاء الأجانب إلا أن يبيعوا أملاكهم لليهود ؛ فهم الذين يملكون الكثير من المال والجاه والسلطان .

إذن . . فالظروف السيئة التى كان يعيش فيها العرب قد مكنت اليهود من شراء هذه الأراضى من الأجانب ، ولو كان عرب فلسطين يملكون من المال ما يستطيعون به شراء هذه المساحات من الأراضى..لما فرطوا فى شبر واحد من بلادهم ، ولما سمحوا للصهاينة أن يستولوا على أرضهم بهذه الطريقة . وتدل الإحصائيات على أن مساحة ما استولى عليه اليهود بهذه الطريقة ٦٥٠,٠٠٠ دونم من الأراضى التى توجد فى أرض ابن عامر ٤٠٠,٠٠٠ دونم ، وفى الحولة ١٦٥,٠٠٠ دونم ، وفى وادى الحراث ٣,٢٠٠ دونم ، والباقى فى مناطق أخرى مثل : الناصرة وعكا وبيسان وحنين وطولكرم .

٥ — نسبة ضئيلة جداً لا تتجاوز ٢٥٠,٠٠٠ دونم . . تملكها اليهود عن طريق الشراء من العرب . وهذه حقيقة لا ننكرها . . ولكننا يجب أن نبحث عن الدوافع الحقيقية التى تكمن وراء هذه المأساة مما دفع الفلسطينى إلى بيع أرضه ، فإن العربى الفلسطينى لم يكن يبيع أرضه لليهودى لمجرد البيع أو الربح ، وإنما كانت هناك ظروف أخرى اضطرته إلى هذا التصرف على كره منه .

ولنبحث معاً هذه الظروف وتلك الوسائل التى اتخذتها حكومة الانتداب من أجل إجبار العربى على بيع أرضه :

(ا) الضرائب الفادحة التى كانت تفرضها حكومة الانتداب على العرب ، التى كانت من الفداحة بحيث يعجز العربى عن دفعها مما يعرضه للاستدانة أو يضطره إلى ترك أرضه ، وبعملية حسابية نستطيع أن نقول : إن دخل الفلاح الفلسطينى فى ذلك الوقت لم يكن يزيد عن الثلاثين جنيهاً فى السنة هى متوسط قيمة ما يحصل عليه من أثمان للمحصولات التى تنتجها أرضه ، فإذا خصمنا من هذا المبلغ خمسة عشر جنيهاً قيمة النفقات اللازمة لتفليح أرضه وخمسة جنيهات قيمة الضرائب المستحقة.. لأصبح الباقى له حوالى عشرة جنيهات فى السنة.. أى بمعدل ثمانين قرشاً فى الشهر .

ومطلوب من هذا الفلاح بعد ذلك أن يأكل ويلبس ويتعلم ويعالج نفسه هو وأولاده بهذا المبلغ الضئيل !! فهل لأى شخص — مهما كانت لديه القدرة على التوفير والاقتصاد — أن يستطيع مواجهة نفقات المعيشة بثمانين قرشاً ؟ ! هذا مع التغاضي عن الذبذبة التي كانت تعترض هذا الدخل من عام لآخر ، ومن منطقة لأخرى .

وكانت هذه الظروف تضطر العربي إلى الاستدانة . فمن أى جهة يستدين ؟ لم يجد الفلاح العربي البنوك العربية التي تقرضه ما يريد ، وكانت البنوك الموجودة تخضع للسيطرة اليهودية لأنها كلها بنوك يهودية وليس من المعقول أن تقرض العربي قرضاً حسناً ينقذه من ورطته وضائقته المالية ، فضلا عن أن وضع العربي الاقتصادى لم يكن يشجع على الاستدانة . ولم يكن الفلاح العربي يستطيع أن يقترض من زميل آخر لسبب واضح هو أن زميله هذا لا يملك من المال ما يكفي به نفسه فكيف يقرض صاحبه وكيف يمنح ما لا يملك ؟ ! ! وهنا يخطط اليهود خططهم ويرسمونها بإحكام من أجل تحقيق مآربهم فنراهم يقرضون الفلاح العربي بالربا الفاحش وبشروط ليس من السهل تحقيقها حتى يوقعوا العرب في حبائلهم ، وتمضى السنوات والعربي لا يستطيع تسديد ما عليه ، وتتضاعف الأرباح وتتراكم الديون، وهنا يطارد اليهودىُّ العربيَّ ، ويعجز العربي عن السداد ، ويضرب اليهودى ضربته التي رسم لها من قبل فينتزع من العربي أرضه . . تسانده في ذلك حكومة الانتداب . ويبدو أن البنوك اليهودية أحست كسباً كبيراً بهذه الطريقة، فراحت تتخذ منها أداة لتحقيق أطماع اليهود .

وحتى لايدعى اليهود أننا نتجنى عليهم.. نسوق هنا بعض ما كتبه الخبراء غير العرب عن هذه الظروف : في تقرير للخبير الإنجليزى سمبسون(١)

---

١) كان سمبسون قد زار فلسطين في منتصف سنة ١٩٣٠ .

يقول فيه : « إن الفلاح العربى كان فى حالة يأس شديد، فقد كان مثقلا بالديون، فضلا عن أنه كان مكلفاً بدفع ضرائب فادحة . . »

لم تكن هذه إلا نتيجة من نتائج الضرائب الباهظة . . ولكن كانت هناك نتائج أكثر ظلماً وقسوة وضياعاً للحقوق ، فقد اضطر كثير من العرب إلى أن يهجروا أرضهم وقراهم هرباً من كثرة الضرائب . . كانوا يفضلون أن يكونوا بلا أملاك أو ديون خيراً لهم من أن يكونوا ملاكاً مدينين ، أو ملاكاً لأرض لا تغطى إيراداتها نفقاتها وضرائبها ، ولا تمنحهم مقابل كدهم وعرقهم وكفاحهم طول السنة، وما يكاد العربى يهجر أرضه حتى يأتى اليهودى فيستولى عليها بحجة الترك ، وبذلك تنتقل ملكية الأرض من العربى إلى اليهودى ! !

(ب) الحصار الاقتصادى : ركزت حكومة الانتداب الكثير من مرافق الدولة الاقتصادية فى أيدى اليهود ، وكان هدفها من ذلك حصار العرب اقتصادياً ، ولهذا وجدنا الشركات الصهيونية — تساندها الحكومة فى ذلك — تعمل على سد كل السبل فى وجه العربى حين يريد تصريف منتجاته . . حتى لا يجد أمامه غير الشركات اليهودية فيضطر إلى التعامل معها ، ويضطر إلى بيع محصولاته بأبخس الأثمان ، وكان هذا العامل له أثر كبير على قلة دخل الفلاح العربى وضياع كل مجهوده هباء ، ووقوعه تحت رحمة اليهود والخضوع لذبذبة الأسعار .

هكذا كانت حياة العربى الفلسطينى . . فهل نلومه بعد ذلك إن باع أرضه أو جزءاً منها أو بمعنى آخر إن اضطر إلى بيعها أو هجرها ؟ ! ! أم نلوم هؤلاء الحكام الذين جعلوا الفلسطينى يعيش فى مثل هذه الظروف القاسية كى يستفيدوا هم ويفيدوا أصدقاءهم من الصهاينة ؟

(حـ) القوانين الاستثنائية . وحاول بعض العرب الفلسطينين أن يتمسكوا بأرضهم رغم الظروف السابقة . . فآثروا البقاء فى أرضهم وأبوا أن

يتركوها . وهنا تظهر صورة أخرى من صور الظلم والتحيز ، فنجد أن حكومة الانتداب تعمل كل ما فى وسعها لترغم هؤلاء العرب على ترك أرضهم بطرق العنف ، ووسائل القسوة والتهديد وسفك الدماء ، فإذا لم يجد ذلك مع العرب . . أسرعت الحكومة بإصدار القوانين الاستثنائية لطرد العرب كما حدث فى مناطق مثل الحولة وغوربيسون وطبيعون وغيرها .

وكان من أعجب تلك القوانين . ذلك القانون الذى أصدرته الوكالة اليهودية [١] والذى نص على أن الأرض التى يشتريها اليهود من العرب تصبح ملكاً ثابتاً لليهود ، ولا يمكن إعادتها للعرب مرة أخرى . وهكذا استطاعت هذه الوكالة أن تساهم مساهمة فعالة فى انتقال ملكية الأرض من العرب إلى اليهود ، فحرمت على العربى استرداد أرضه ، وسهلت لليهودى الاستيلاء على الأرض العربية ، وبهذه الطريقة استطاع اليهود الاستيلاء على حوالى ٣٠٠,٠٠٠ دونم من أملاك العرب .

وهنا يحق لنا أن نتساءل : لماذا وافقت حكومة الانتداب الإنجليزية على أن تنتقل ملكية الأرض الفلسطينية من العرب إلى اليهود . . بينما حرمت إنجلترا على السكان الأصليين فى جنوب أفريقيا بيع أراضيهم للأجانب ؟!!

إن الإجابة الصحيحة على هذا السؤال توضح مدى التحيز الإنجليزى ، وتبين مدى دناءة الخطة التى رسمتها الصهيونية بإشراف الإنجليز ، أو رسمها الإنجليز بإشراف الصهاينة ، فمما لا شك فيه أن هذه التصرفات من أكبر العوامل لانتقال الأرض إلى اليهود .

قد يدعى اليهود غير ذلك . وقد ينكرون الحقائق المؤلمة التى ذكرناها . . وحتى نؤكد صدق ما قلنا . . نورد هنا بعض التقريرات التى كتبها كثير من

---

(١) الوكالة اليهودية : هى إحدى الأركان الهامة التى تمثل تعاون الاستعمار مع الصهيونية . وقد نص عليها قانون الانتداب فى المادة الرابعة — راجع الفصل الخامس من هذا الباب .

الخبراء الإنجليز ومنهم من يدين بالولاء للحركة الصهيونية :

فنى تقرير للخبير الإنجليزى سمبسون يقول : « إن العرب الذين أكرهوا على بيع أرضهم كان بسبب السياسة الصهيونية التى سارت عليها حكومة الانتداب » .

وفى تقرير للخبير شو يقول : « ثبت لنا أن معظم الفلاحين العرب كانوا يتمسكون بأرضهم ، وبالرغم من الظروف القاسية التى كانت تحيط بهم ، ومع ذلك فقد كانوا يرفضون التنازل عنها بأى ثمن لليهود » . .

وفى الكتاب الأبيض الذى صدر سنة ١٩٣٠ والذى عُرف بكتاب باسفيلد[١] ذكر صاحبه صوراً كثيرة من تلك الصور المخزية التى كانت تدور فى فلسطين ، والتى كانت ترمى إلى استيلاء اليهود على أملاك العرب ، وقد نادى باسفيلد فى كتابه هذا بضرورة وقف انتقال أملاك العرب إلى أيدى اليهود ، وناشد حكومته العمل على بحث الظروف التى تسبب ذلك .. وهنا نجد اليهود يثورون ويرفعون أصواتهم بالاحتجاج ، ثم يتدخلون لدى الحكومة الإنجليزية التى تسارع بسحب الكتاب ، وتتضح معالم الفضيحة ، ولم يجد باسفيلد بداً من الاستقالة ، وتستمر السياسة الإنجليزية اليهودية قائمة فى فلسطين لتنفذ ما رسمته الصهيونية ولينتزع اليهود مزيداً من الأرض العربية لتضاف إلى الأملاك اليهودية ! !

وبهذا استطاع اليهود أن يستولوا من أرض فلسطين على مليونى دونم موزعة فى خمسة عشر قضاء من أقضية فلسطين[٢] .

ولنتساءل الآن : لو سلمنا جدلا بأن اليهود قد اشتروا أملاكهم فى

---

١) باسفيلد : هو وزير المستعمرات البريطانية فى ذلك الوقت .

٢) راجع نسبة أملاك اليهود فى كل قضاء حسب ما جاء فى الإحصائية المدونة بهذا الكتاب فى الفصل السادس من الباب الثانى . .

فلسطين بأموالهم . ولو سلمنا كذلك — وهذا مستحيل — أن هذه الأملاك قد آلت إليهم بطرق مشروعة . . فهل هذا يخول لهم حق إقامة دولة يهودية فى فلسطين وطرد سكان البلاد الأصليين ؟!!

إن القانون الدولى . . إذا كان يبيح لغير المواطنين الأصليين حق الامتلاك أو البيع أو الشراء أو الانتفاع بالأرض ، فإنه لا يعطى لهؤلاء الملاك الغرباء الحق فى تكوين دولة باسمهم ، فالقانون على أى حال يعتبرهم أجانب ، ووضع اليهود فى فلسطين لا يخرج عن وضع أى أجنبى من دول العالم ، ويشبههم فى ذلك الجاليات العربية الموجودة فى كثير من الدول مثل البرازيل ودول أمريكا اللاتينية ، فهناك تشرف كثير من الجاليات العربية على كثير من المرافق الاقتصادية الهامة ، وهم يمتلكون الكثير من العقارات والمؤسسات والمصانع . ولكن لم يحدث إطلاقاً أن فكر العرب هناك فى إقامة دولة عربية تسمى باسمهم ، وتفرض قوميتهم ولغتهم كما فعل اليهود فى فلسطين . إن العرب فى أمريكا الجنوبية يعيشون كمواطنين عاديين يخضعون لحكومة الدولة التى يعيشون فيها ، وعليهم تنطبق قوانينها وأحكامها ، وهم هناك يعاملون أفراد الشعوب التى يعيشون فيها بمنتهى الصداقة والمعاملة الحسنة .

ولو أننا استعرضنا التاريخ لما وجدنا أجانب فى أية دولة فعلوا ما فعله اليهود فى فلسطين . نعم لم نجد أجانب أية دولة طردوا أصحاب الدولة ، واستولوا عليها وأقاموا لهم فيها دولة وحكومة . .

قد يقول اليهود : إن الأوربيين استولوا على أمريكا ، وأنهم كونوا لهم دولة فيها ، ولكننا نرد على اليهود حجتهم ، ونقول لهم : إن الوضع فى أمريكا يختلف عن الوضع فى فلسطين لعدة أسباب :

١ — أن اليهود حينما دخلوا فلسطين فى العصر الحاضر . . لم يدخلوها كفاتحين أو كمستعمرين وإنما دخلوها أجانب . مجرد ضيوف أقاموا فيها

وكان من المفروض أن تكون هذه الإقامة لفترة ما طالت أم قصرت ، ولكنها على أى حال إقامة غير دائمة إلا ما كان منهم أصلا من السكان الأصليين . أما الأوربيون حينما دخلوا أمريكا الشمالية مثلا دخلوها فاتحين مستعمرين . فالأمر يختلف فى الحالتين .

٢ - حينما دخل الأوربيون أمريكا لم يكن هناك من السكان الأصليين إلا أعداد قليلة جداً . وهذا الأعداد القليلة لم يكن لها كيان سياسى واضح أو أسلوب اجتماعى معروف ، ولم يكن هؤلاء يكونون دولة أو دولا معترف بها وبكيانها ، وإنما كانوا مجرد قبائل متفرقة ذات نزعات وحشية وحياة بدائية ، ولم يكن لهؤلاء صلات بالعالم ومن أجل ذلك اقترن استعمار القارة بكشفها . أما اليهود حينما دخلوا فلسطين على شكل هجرات متتابعة أيام الانتداب الإنجليزى ، فقد دخلوها وقت أن كانت دولة لها كيانها السياسى والاجتماعى . . أياً كان هذا الكيان . وكان لها مقومات الدولة من الشعب والأرض والنظام الحكومى .

صحيح كانت فلسطين خاضعة للسيطرة العثمانية قبل الانتداب ، ولكن ذلك لم يفقدها ذاتيتها كدولة ، ولم يغير من ملامحها كجزء من العالم له ماضيه التاريخى . بل لعله أوضح المناطق التاريخية على الإطلاق لما اتصف به من حضارات قديمة عريقة منذ العصور الأولى ، ولما عرف عنه من أنه مهبط الأديان السماوية (الديانتان المسيحية واليهودية ظهرتا فى فلسطين) . فدخول اليهود هذه المنطقة يخالف دخول الإنجليز والفرنسيين إلى أمريكا الشمالية .

٣ - لم يستطع الأوربيون طرد سكان أمريكا الأصليين من الزنوج أو الهنود الحمر بل أبقوا عليهم ، وإذا كانت معالم الجنس الأمريكى القديم قد تلاشت ملامحها كثيراً ، وإذا كانت هناك تفرقة عنصرية بين البيض والسود . . إلا أن ذلك على أى حال من الأحوال لم يؤد إلى طرد

السكان الأصليين كما فعل اليهود حين طردوا عرب فلسطين واستولوا على أملاكهم .

٤ – ثم لا ننسى أن الأوربيين اكتشفوا أمريكا، فهم كشخص وجد شيئاً ما دون أن يجد صاحبه. فمن حقه هذا الشيء، ولكن اليهود فى فلسطين لم يكتشفوها. وبالتالى فهم ليسوا أصحاب حق فيها .

وعلى هذا.. فلا يمكن أن نضع أمريكا فى كفة ميزان مع فلسطين لكثرة الاختلاف بين الاثنتين، وتباعد الظروف بينهما .

ونعود مرة أخرى إلى أملاك اليهود فى فلسطين لنقول : لو أن لليهود أملاكاً فى فلسطين.. فهل هذا يخول لهم حق إقامة دولة فيها؟ إن ذلك أمر لا يمكن أن يوافق عليه أحد . ذلك لأن كثيراً من الدول فى الوقت الحاضر تعمل على تأميم الأملاك والأموال الأجنبية كإحدى وسائل المحافظة على اقتصادها الوطنى ، وضماناً لمواردها الوطنية حتى لا تتسرب إلى الخارج . فعلت هذا ج . ع . م وكوبا وغيرهما . وطبيعى فإن هذا التأميم يتفق مع القوانين الدولية ، وعلى هذا يمكن أن نقول : إن من حق السكان الأصليين فى فلسطين أن يؤمموا أملاك الأجانب ، والسكان الأصليون هم العرب ، والأجانب هم اليهود . وبمعنى آخر يمكن أن نقول : إن من حق العرب أن يؤمموا أملاك اليهود فى فلسطين، فتصبح هذه الأملاك والأموال ملكاً للشعب. بل إن ذلك من ألزم الضروريات، ومن أوضح مظاهر العدل ؛ لما فيه من استعادة الحقوق المغتصبة .

وهناك سؤال نوجهه إلى اليهود . . لقد كانت لهم أملاك فى الدول التى كانوا يعيشون فيها قبل مجيئهم إلى فلسطين . . كانت لهم أملاك فى روسيا وألمانيا ورومانيا وإنجلترا وفرنسا ، بل فى أمريكا ، وكانوا يسيطرون على كثير من مرافق هذه الدول، كما كانوا يسيرون دفة أمورها السياسية والفكرية والاقتصادية . . فلماذا لم يستطيعوا أن يقيموا لأنفسهم دولة فى واحدة من

هذه الدول ؟ ولماذا جاءوا إلى فلسطين ، ليتخذوا منها قاعدة لدولتهم .

نخرج من كل هذا . . بأن اليهود لم يشتروا فلسطين ، وإنما انتزعوها ظلماً وقسوة، وأن هذا لا يخول لهم حق إقامة وطن لهم فيها ، وأن حجتهم هذه ساقطة من أساسها .

ومهما حاول اليهود أن يجدوا وسيلة يبررون بها استيلاءهم على فلسطين ، ومهما استطاعوا أن يحققوا بعض الانتصارات بفضل مساندة المستعمرين لهم . . نقول مهما حدث ذلك . . فإنه سيأتى اليوم الفاصل الذى سيعيد إلى الصهاينة عقولهم ، فإما أن يعودوا إلى بلادهم التى جاءوا منها ، وإما أن يدفنوا جثثاً فى فلسطين .. إن أصروا على البقاء فيها .

الفصل السادس

قسمة ضيزى

وهذه دعوى أخرى من دعاوى الصهيونية الباطلة.. يبررون بها دخولهم فلسطين وانتزاع ما لا حق لهم فيه . إنهم فى هذه المرة يبنون حقهم على القرار الذى أصدرته هيئة الأمم المتحدة فى ٢٩ نوفمبر سنة ١٩٤٧ ، وهم يؤكدون ذلك بقولهم : إن الأمم المتحدة لها كيانها العالمى ، ولها صفتها الرسمية ، باعتبارها الهيئة العالمية التى ارتضتها الدول حكماً بين المتنازعين ؛ لذلك نجد الصهاينة يلبسون حججهم هذه ثوباً مزيفاً من الصفة القانونية الدولية يحاولوا بها استجداء رضا الشعوب على عملهم ، والاعتراف بحقهم فى فلسطين ، وهم أيضاً يعملون على كسب عطف الدول عليهم ، ويظهرون بمظهر صاحب الحق المفترى عليه ، وأنهم — على حد قولهم — إنما ينفذون ما أوصت به الأمم المتحدة ، وما اتخذته من قرارات بالنسبة للنزاع بينهم وبين العرب .

ونحن لم نعرف إسرائيل فى يوم ما — منذ إعلان قيامها فى سنة ١٩٤٨ حتى الآن — ولم نعهد فيها تنفيذ قرارات الأمم المتحدة ، فلماذا نجدها تتمسك فقط بحق تنفيذ قرار التقسيم ؟ . وحتى قرار التقسيم هذا لم تعمل إسرائيل على تنفيذه بالصورة التى رسم بها يوم صدوره ، ولكنها حاولت بكل ما فى طاقتها بالحصول على مزيد من رقعة فلسطين وتوسيع المناطق التى حصلت عليها . غير عابئة بخطوط التقسيم بينها وبين العرب ، تلك الخطوط التى وضعت تحت إشراف هيئة الأمم المتحدة .

وسواء أنفذت إسرائيل قرارات الأمم المتحدة أم لا . . فإننا نريد هنا أن نؤكد حقيقة هامة، وهي أن قرار التقسيم باطل وظالم، وسنبحث فى هذا الفصل مدى صحة قرار التقسيم من الناحية القانونية أولا، ثم من حيث عدالته ثانياً، بمعنى آخر نناقش قرار التقسيم والظروف التى صدر بها، والطريقة التى نفذ بها، ثم لنرى هل توخت الأمم المتحدة الحق والعدالة فى قرار التقسيم ؟

وتحضرنى الآن قصة تشبه إلى حد ما قصة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود . . إنها قصة سليمان الحكيم أحد ملوك بنى إسرائيل وأنبيائهم، والذى يعتبر عصره من أزهى عصور تاريخ الدعوة اليهودية . .

تقول أحداث هذه القصة : ان امرأتين من بنى إسرائيل جاءتا إلى سليمان..تختلفان على بنوة طفل صغير كل منهما تدعى أنه ابنها .. ولم يكن واضحاً أى المرأتين أحق ببنوة الطفل، ولكن الذى لا شك فيه أن إحداهما كانت الأم الحقيقية بينما كانت الأخرى دخيلة عليه..باطلة فى دعواها . دفعها حقدها على زميلتها..وحز فى نفسها ما أصابها من عقر؛ فراحت تدعى لنفسها ما لا حق لها فيه . . ولم يستطع سليمان فى أول الأمر — رغم ما عرف عن حكمته — أن يتعرف أى المرأتين أحق ببنوة الطفل ؟ ... إن كلا منهما تدعى قولا تبرر به أحقيتها له، فماذا فعل سليمان ؟

استدعى سليمان أحد سيافيه، وأمره أن يقسم الطفل إلى قسمين لتأخذ كل من المرأتين نصفاً منه .. وهم السياف أن يفعل ما أمره به مولاه . . وهنا تظهر عاطفة كل من المرأتين . . لقد حز ذلك فى نفس إحداهما، وأحست بالألم يعصر قلبها والحزن يقلق خاطرها . . كيف لا وهى ترى وليدها وفلذة كبدها يكاد السياف يمزقه بهذه الصورة البشعة أمام عينيها، فصرخت فزعة، وغلبها البكاء فتشنج صوتها، واحتبست الدموع فى عينيها، وصاحت بكل معانى الأمومة التى تحملها فى نفسها كأم،

وراحت ترجو سليمان أن يبعد السياف عن الطفل ، ولتأخذه المرأة الأخرى . . لقد آثرت أن تبقى على الطفل ، معلنة أنه ليس ابنها ، ولم يكن ذلك زهداً فى ولدها ، ولا تفريطاً فيه ، ولكنها وجدت من الخير أن يبقى وليدها حياً عند المرأة الأخرى بدلا من أن يقتل بهذه الصورة التى لا ترضاها أم لابنها .

أما المرأة الأخرى . . الأم المزيفة ، فقد أثلج ذلك صدرها . . وراحت تستحث السياف على المضى فى عمله .. غير عابئة بصراخ الطفل ، ولا بصرخات أمه ونحيبها . .

وهنا أدرك سليمان من هى الأم الحقيقية للطفل ؟ إنها الأولى — فأعطاه لها ، بينما أنزل بالثانية ألوان العذاب جزاء كذبها وادعائها ما ليس لها حق فيه .

هذه هى صورة قريبة الشبه لما حدث فى فلسطين ، مع فارق فى الظروف . . فإن هيئة الأمم المتحدة التى تمثل فى هذه القصة دور سليمان الحكيم . . هذه الهيئة لم تتبع الحكمة التى اتبعها سليمان فى معرفة صاحب الحق فى أرض فلسطين ، ورغم أن أعضاءها فى ذلك الوقت كانوا أكثر من خمسين عضواً .. إلا أن معظمهم لم تكن لديه حكمة سليمان ، فكان أن حكمت الهيئة بتقسيم الطفل الذى هو هنا فلسطين .. إلى قسمين أحدهما للعرب والآخر لليهود .

وموقف الأم الثانية المدعية باطلا فى بنوة الطفل يمثل بالضبط موقف اليهود الذين أثلج مبدأ التقسيم صدورهم ، وراحوا يعملون على الحصول على ما ادعوه من نصيبهم فى فلسطين . ولكن موقف العرب أصحاب الحقوق الشرعية فى فلسطين ، والذى يمثل دور الأم الحقيقية فى القصة . . كان يوضح مدى رغبتهم فى عدم تقسيم الطفل . صحيح أنهم لم يسلموا بفلسطين لليهود طواعية كما فعلت الأم الحقيقية فى القصة السابقة . . ولكنهم — وهم القادرون على استعادة أرضهم — وجدوا الدفاع

عن الطفل وعدم تركه لأعدائهم ، وإذا كانوا قد فشلوا فى الماضى فى استعادة فلسطين.. فإن الذى لا شك أنه سيأتى اليوم الذى يستطيعون فيه الحصول على حقوقهم ، رضى اليهود أم كرهوا . .

ولندع الآن قصة سليمان الحكيم لنبحث معاً الظروف التى لازمت تقسيم فلسطين . . ولنتابع معاً الخطوات التى رسمتها الصهيونية العالمية بمعاونة الاستعمار ليحقق الاثنان أغراضهما .

ففكرة تقسيم فلسطين ظهرت أكثر من مرة كحل للنزاع القائم بين العرب واليهود ، وكان المنادون بهذه الفكرة ممن يهمهم مصلحة الصهاينة أو ممن يرون فى هذا التقسيم تحقيق مغانم أو مكاسب لهم ، ولكن هذه الفكرة — أى فكرة التقسيم — كانت تصطدم فى كل مرة بثورات العرب الذين لم يكفوا لحظة واحدة — رغم الظروف السيئة التى كانت تحيط بهم — عن المطالبة بحقهم والوقوف فى وجه كل محاولة لتقسيم الوطن .

وهذه هى مراحل فكرة تقسيم فلسطين :

١ — فى سنة ١٩٣٧ ظهرت أول دعوة لتقسيم فلسطين — حدث ذلك حينما جاءت لجنة بيل لبحث أسباب النزاع بين العرب واليهود . . ومما لاشك فيه أن اللجنة لم تكن مخلصة فى بحثها ، وأنها نظرت بتلك العين الصهيونية ، ومن خلال مصلحة اليهود دون العرب ؛ لذلك قدمت اللجنة مشروعها لتقسيم فلسطين ، وكان ذلك فى ٧ يولية سنة ١٩٣٧ ، ووضعت اللجنة أسس التقسيم على الوجه الآتى :

(ا) دولة يهودية : تشمل : السهل الساحلى من أسدود بما فى ذلك سهل شارون ومرج ابن عامر وألوية حيفا وطبرية وصفد وعكا ، على أن تبقى صفد وعكا وطبرية وحيفا تحت الانتداب الإنجليزى بصفة مؤقتة ، ثم تضم بعد ذلك إلى الدولة اليهودية .

(ب) دولة عربية : وتشمل غرب نهر الأردن وغزة وبئر سبع وصحراء

النقب والخليل ونابلس والجزء الشرقى من طولكرم وحنين وبيسان ويافا .

(ﺣ) تبقى القدس وبيت لحم والناصرة وشواطئ طبرية تحت الانتداب الإنجليزى مع ضرورة ربط هذه الأجزاء بساحل البحر المتوسط عن طريق ممر يربط ما بين القدس ويافا . وفى هذه المنطقة تقع اللد والرملة : شكل (٣ — ١) .

وأحس اليهود بشىء من الانتصار ، وبأنهم بدأوا يكسبون جولة جديدة ولكن طمعهم جعلهم يعترضون على قرار التقسيم لا من حيث المبدأ ، ولكن من أجل المزيد من الأرض الفلسطينية . نعم رضوا بالتقسيم ولكنهم طالبوا بمناطق أوسع ..

أما العرب وهم لا يؤمنون بضياع أى شبر من أرضهم ، ولا يرضون بفكرة التقسيم مهما كانت وبأى صورة . فإنهم يرون فى هذه الفكرة ظلماً وضياعاً لحق ثابت لهم ؛ ولذلك رفض العرب فكرة التقسيم ، بالضبط كما رفضت الأم الحقيقية تمزيق طفلها . مع فارق واحد .. هو أن العرب رفضوا أيضاً أن يسلموا فلسطين لليهود إطلاقاً ، وأصروا على إعلان استقلال فلسطين فى دولة عربية واحدة تسمى دولة فلسطين العربية .

شكل (٣ - ٢)

تقسيم لجنة بيل سنة ١٩٣٧

إزاء ذلك الموقف أحست إنجلترا أن الفرصة لم تكن مواتية لتنفيذ أغراضها ، فآثرت سحب المشروع . وهكذا فشل تقسيم بيل .

٢ – وكان المشروع الثانى لتقسيم فلسطين هو مشروع موريسون الذى ينسب إلى صاحبه موريسون نائب رئيس وزارة العدل البريطانية . ولقد ظهر هذا المشروع فى أواخر سنة ١٩٤٦ .

وتقوم فكرة موريسون على أساس تقسيم فلسطين إلى أربعة أقسام :

(ا) الدولة اليهودية : وتشمل الأراضى التى استولى عليها اليهود حتى سنة ١٩٤٦ على أن تضاف إليها المستعمرات والمناطق المحيطة بها . . ! !

(ب) منطقة القدس وبيت لحم والأجزاء القريبة منها .

(ج) منطقة صحراء النقب .

(د) الدولة العربية وتشمل الأجزاء الباقية من فلسطين بعد حذف المناطق السابقة ، وحتى يضفى موريسون على مشروعه ثوباً فضفاضاً مزيفاً .. اقترح أن تمنح كل من الدولتين العربية واليهودية استقلالا ذاتياً ، وتشكل لكل منهما حكومة محلية ويكون لكل منهما مجلس تشريعى ، ثم تشكل حكومة مركزية للدولتين ، ولهذا عرف المشروع باسم « المشروع الاتحادى »

ومرة ثانية رفض العرب المشروع فكرة وموضوعاً ، وطالبوا بضرورة استقلال فلسطين كلها فى دولة عربية . . أما اليهود فقد راحوا كعادتهم يطلبون مزيداً من الأراضى تضاف إلى نصيبهم المقترح فى تقسيم موريسون ، ويبدو أن الإنجليز كانوا يودون تنفيذ التقسيم . . لقد استعدوا لكل احتمالات اليهود ومطالبهم ، ولعلهم فصلوا صحراء النقب عن الدولة العربية « حسب تقسيم بيل » وأعطوها لليهود فى هذا التقسيم ، وألح اليهود فى تنفيذ التقسيم ، ولكن العرب قاوموا هذه المحاولة ، واضطرت إنجلترا إلى سحب المشروع .. وهكذا لم يقدر له التنفيذ .

٣ – مرة ثالثة عادت فكرة التقسيم إلى الظهور ، ولم يكن قد مضى على مشروع موريسون إلا شهور قليلة ، ولعل إنجلترا عز عليها أن تفشل فى المشروعين السابقين ، ولعل اليهود طال بهم الانتظار ، فرأى الطرفان :

اليهود والإنجليز أن يرسما خطة جديدة ليحققا ما يريدان ، وكانت الخطة هذه المرة الالتجاء إلى هيئة الأمم المتحدة .

أعلنت إنجلترا فشلها في حل النزاع بين العرب واليهود ، ولذلك أحالت المشكلة إلى هيئة الأمم المتحدة باعتبارها الهيئة العالمية التي تملك حق النظر في القضايا . . . هكذا تدعي إنجلترا .

وكان قرار إحالة قضية فلسطين إلى الأمم المتحدة في ١٨ فبراير سنة ١٩٤٧ وقد اجتمعت الجمعية العامة وقررت بجلستها المنعقدة في ١٥ مايو سنة ١٩٤٧ تشكيل لجنة [١] من ممثلي ١١ دولة لبحث النزاع بين العرب واليهود وكتابة مقترحات بشأن القضية ، ولم يسلم أعضاء هذه اللجنة من التأثير الصهيوني وأخذ اليهود يطاردونهم ويحاولون إغراءهم بكل الطرق . . وكانت النتيجة أن خضع أعضاء اللجنة للتأثير الصهيوني ؛ لذلك قررت اللجنة تقسيم فلسطين بين العرب واليهود .

واختلف أعضاء اللجنة حول صورة التقسيم ، فاقترحوا لذلك مشروعين : عرف المشروع الأول باسم مشروع الأقلية ، والثاني باسم مشروع الأغلبية .

أما المشروع الأول وهو مشروع الأقلية فقد وافقت عليه كل من الهند وإيران ويوغسلافيا ، وهو يقوم على تقسيم فلسطين إلى منطقتين :

(ا) منطقة عربية (ب) منطقة يهودية

على أن تتمتع كل منطقة بحكمها الذاتي ، وعلى أن تتحد الدولتان في دولة واحدة تكون القدس عاصمة لها . وهذا المشروع يشابه إلى حد كبير مشروع موريسون .

أما المشروع الثاني وهو مشروع الأغلبية والذي اقترحته أغلبية أعضاء

---

(١) كانت هذه اللجنة مكونة من مندوبين من : السويد — أستراليا — أوروجواي — إيران — بيرو — تشيكوسلوفاكيا — جواتيمالا — كندا — الهند — هولندة — يوغسلافيا .

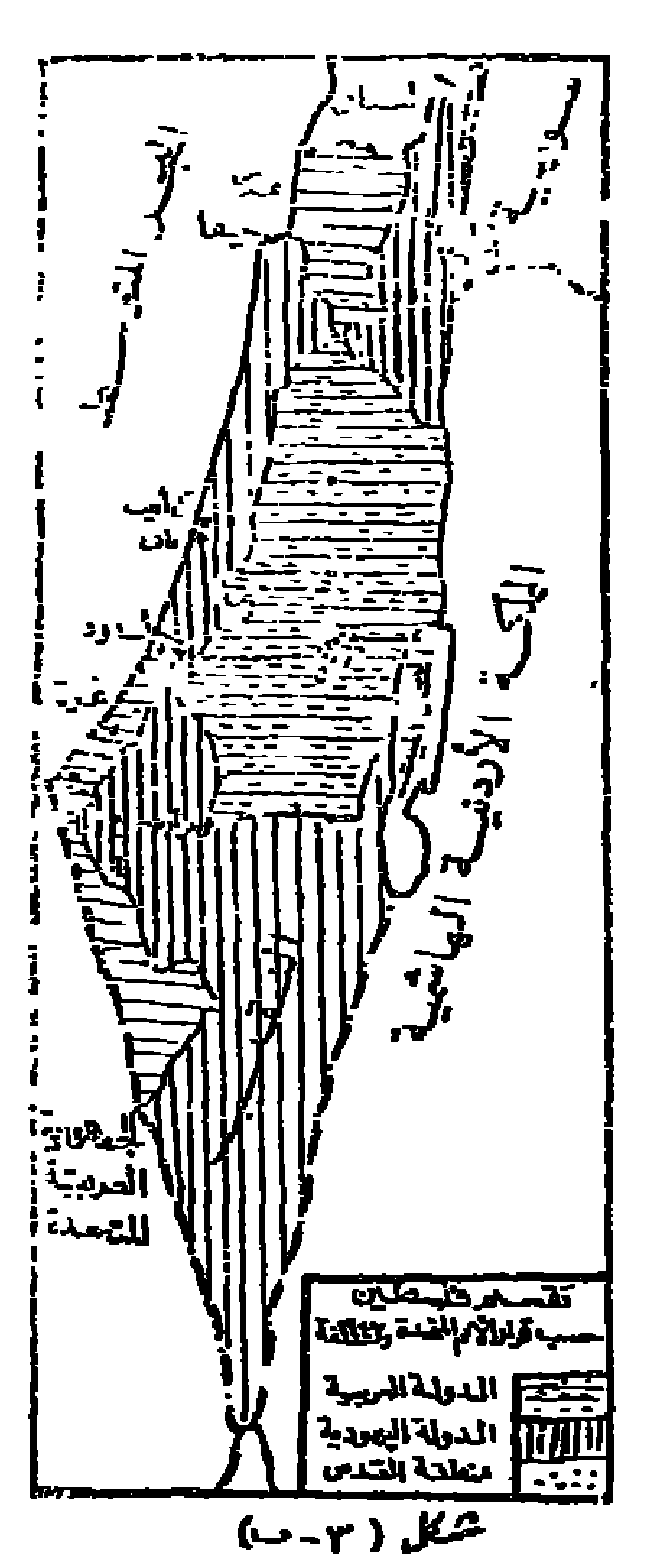
اللجنة فيقوم على أساس تقسيم فلسطين إلى دولتين :

(ا) دولة يهودية : وتشمل الجليل الشرقى ومرج ابن عامر والسهل الساحلى وبئر سبع والنقب .

(ب) الدولة العربية : وتشمل الجليل الغربى ونابلس والساحل من أسدود إلى حدود مصر ، وتدخل فيها منطقة الخليل والقدس وغور الأردن شكل (٣ — ب)

وعندما عرض المشروعان على الأمم المتحدة . . استبعدت مشروع الأقلية وراحت تناقش مشروع الأغلبية .

وفى ٢٦ نوفمبر سنة ١٩٤٧ عرض مشروع التقسيم على الأمم المتحدة ولم يحصل على أصوات كثيرة ، وكاد أن يرفض ، ولكن اليهود راحوا يبثون سمومهم ، ويحاولون التأثير على الأعضاء ؛ لذلك عندما عرض المشروع مرة ثانية فى ٢٩ نوفمبر — أى بعد العرض الأول بساعات قليلة — كان الصهاينة خلالها قد استجمعوا كل ما لديهم من جاه وسلطان ونفوذ واستغلوه فى إقناع بعض المندوبين بالوقوف فى صفهم ، فكانت النتيجة أن وافقت الجمعية العمومية للأمم المتحدة على قرار التقسيم بأغلبية ٣٢ دولة ، واعترضت عليه ١٣ دولة ، وامتنع عن التصويت عشر دول[1] .



شكل (٣-ب)

تقسيم الأمم المتحدة سنة ١٩٤٧

---

(١) الدول التى وافقت على قرار التقسيم هى : أستراليا — بلجيكا — بوليفيا =

ومرة أخرى ثار العرب ورفضوا الموافقة على تقسيم فلسطين ، ووضح جليا أن تنفيذ مشروع التقسيم أصبح أمراً صعباً . فاقترحت بعض الدول مثل بلجيكا وكندا إعادة بحث قرار التقسيم ومحاولة الوصول إلى قرار يرضى عنه الطرفان . أو بمعنى آخر يرضى عنه العرب .

ويبدو أن الولايات المتحدة هى الأخرى قد أحست بالخطأ الذى أقدمت عليه ؛ لذلك أسرع مندوبها لدى الأمم المتحدة يعلن فى ١٩ مارس سنة ١٩٤٨ سحب حكومته لقرار التقسيم ، ويطالب الأمم المتحدة بضرورة بحث الموضوع مرة أخرى . كما طالب ذلك المندوب بأن تبقى فلسطين تحت الوصاية حتى يتم بحث الموضوع .

ولكن ماذا حدث بعد ذلك ؟

خشيت إنجلترا من ضياع آمال اليهود ، وبالتالى تضيع معهم خططهم الاستعمارية التى أرادوا بها جعل فلسطين دولة يهودية ، لتكون لهم ملاذا وملجأ فى الشرق الأوسط حين تلمهم الأحداث ، وتحدق بهم الأخطار ؛ لذلك رأينا إنجلترا فى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ تعلن فجأة وبلا سابق إنذار انسحابها من فلسطين ، وعملت الجيوش الإنجليزية كل ما فى وسعهم على

= برازيل — روسيا — الولايات المتحدة — روسيا البيضاء — كندا — كوستاريكا — تشيكوسلوفاكيا — الدومنيكان — الدانيمرك — إكوادور — النرويج — فرنسا — جواتيمالا — هايتى — أيسلندة — السويد — ليبيريا — لكسمبرج — هولندة — نيوزيلندة — نيكارجوا — بارجواى — أرجواى — بناما — بيرو — الفلبين — بولندة — السويد — أوكرانيا — جنوب أفريقيا — فنزويلا .

الدول التى اعترضت على قرار التقسيم هى : مصر — سوريا — لبنان — اليمن العراق — باكستان — أفغانستان — الهند — إيران — تركيا — اليونان — وكوبا .

الدول التى امتنعت عن التصويت هى : الأرجنتين — شيلى — الصين — كولمبيا — الحبشة — إنجلترا — سلفادور — هندوراس — المكسيك — يوغسلافيا .

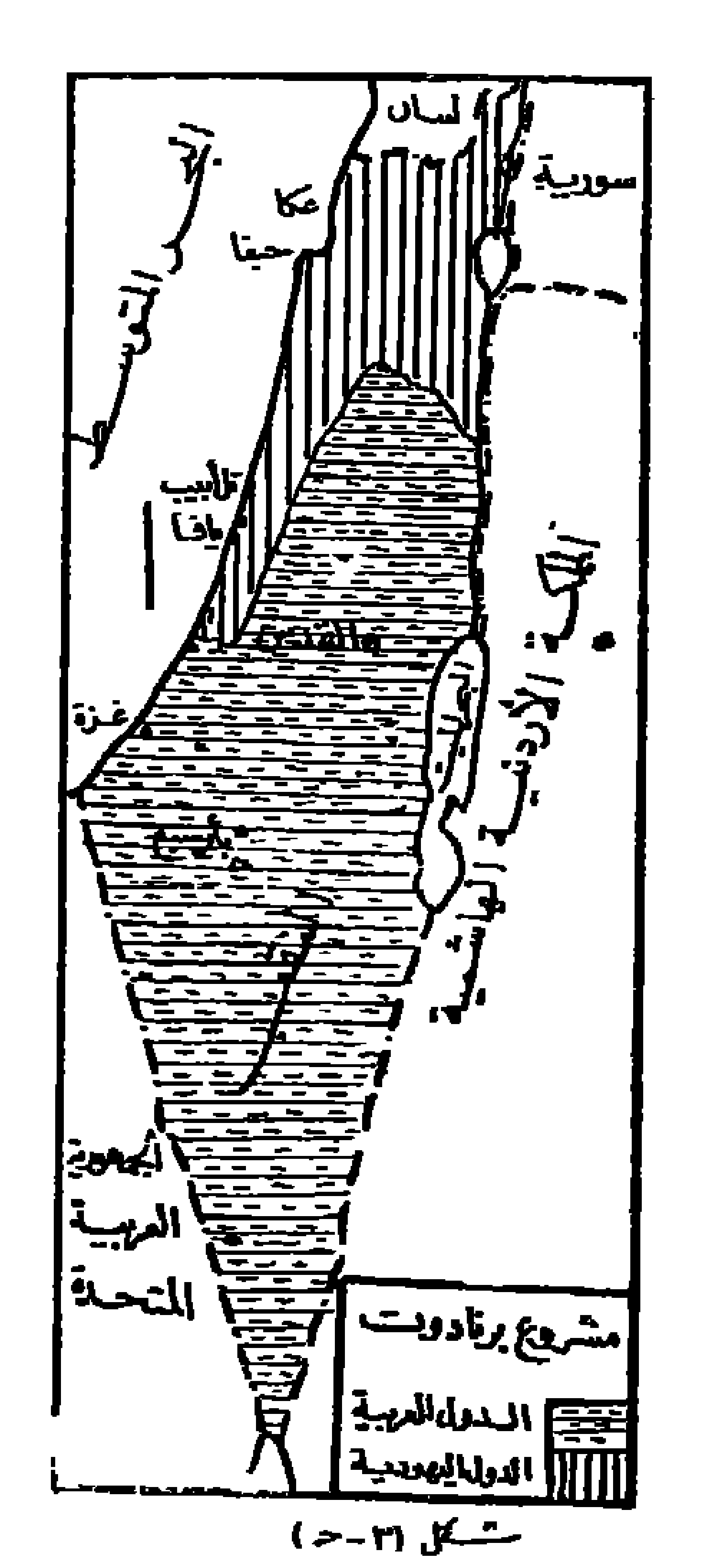
أن يستولى اليهود على المناطق التى يتركها الجيش ، وبهذا قدر للصهاينة أن يستولوا على مساحات كبيرة ، ولم تكد تمضى بضع ساعات حتى أعلن اليهود قيام دولة إسرائيل فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ وأسرعت إنجلترا تعترف بها.

وكان من الطبيعى ألا ينتهى الأمر عند هذا الحد ؛ فإن العرب لم يسكتوا. ولن يسكتوا عن ضياع جزء من فلسطين بهذه الوسيلة المملوءة خسة ودناءة ؛ لذلك قامت الحرب بين العرب واليهود ، وعبأ الأبطال العرب كل إمكانياتهم ، وأخذ الفدائيون يفدون إلى فلسطين يقاومون الصهاينة والمستعمرين .

قد لا نكون فى حاجة إلى أن تتبع تطور الحرب ، وتلك البطولات التى أظهرتها القوات العربية . . وبالرغم من الأسلحة الفاسدة ومؤمرات الرجعيين وأذناب الاستعمار . . كاد العرب ينتصرون ، ولكن اليهود صرخوا إلى أسيادهم فتقرر وقف إطلاق النار .

وكان ذلك إحدى الخطط الاستعمارية حتى يستجمع اليهود شتاتهم .

ولم تمض أيام قلائل على إعلان الهدنة حتى كانت محاولة أخرى من جانب الإنجليز لتنفيذ قرار التقسيم.. وضح ذلك فى صورة مقترحات قدمها الكونت برنادوت فى أواخر يونية سنة ١٩٤٨ وفيها اقترح ما يأتى :



شكل (٣١ - حـ)

مشروع برنادوت لتقسيم فلسطين

(ا) تضم صحراء النقب والقدس إلى الدولة العربية

(ب) تضم منطقة الخليل إلى الدولة اليهودية

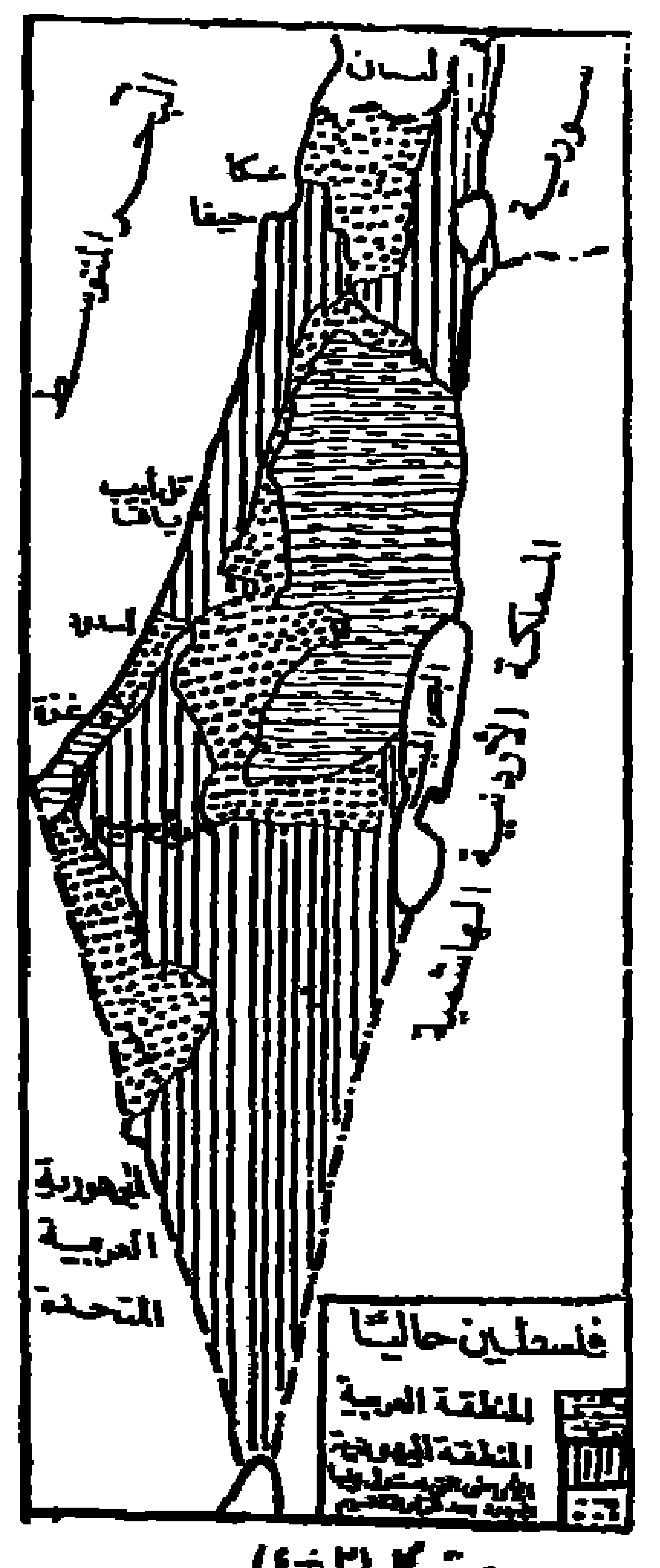
وقد أراد برنادوت بمقترحاته هذه أن يرضى العرب ! ! ولكن يبدو أن اليهود وجدوا فى هذه المقترحات تضييعاً لمناطق كانت من حقهم فى التقسيم السابق . ولعلهم ظنوا أنهم أصحاب حق فى النقب ؛ لذلك أسرعوا باغتيال برنادوت جزاء له على اقتراحه ! !

وعادت الحرب بين العرب واليهود مرة أخرى . ثم كانت الهدنة الأخيرة التى جمدت الحدود بين العرب واليهود لفترة ما . وبعد ذلك عقدت بعض معاهدات كان من أبرزها معاهدة رودس التى تم فيها الاتفاق على بعض الأمور التى لا نرى مجالا لسردها هنا .

ولكن هل بقيت الحدود؟ أو هل بقى خط الهدنة بين العرب واليهود كما رسم وقت معاهدة رودس ؟

الحقيقة .. لا !! فلقد حاول الصهاينة الاستيلاء على مزيد من المناطق وضمها إليهم حتى قدر لليهود أن يستولوا على مساحة $\frac{٣}{٤}$ فلسطين كما يتضح من شكل (٣ ــ د) الذى يمثل فلسطين حالياً .

هذه هى قصة التقسيم منذ بدأت فكرته حتى الآن . .



شكل (٣ ــ د)

فلسطين حالياً بعد أن اغتصب اليهود معظمها

ولنا أن نتساءل : هل كان تقسيم فلسطين صحيحاً من الوجهة القانونية؟

الواقع يقول : لا .. والأدلة على ذلك كثيرة نستطيع أن نوضحها فى النقط الآتية :

١ ـ إن الأمم المتحدة حين أصدرت قرار تقسيم فلسطين فى ٢٨ نوفبر سنة ١٩٤٧ لم توضح لنا الأسانيد ، ولم تبين الأسس القانونية التى بنت عليها قرارها . . ومن المعروف أن القاضى حين يصدر حكمه يعززه بما يطلق عليه فى العرف القانونى بحيثيات الحكم ، وفى هذه الحيثيات يدلل القاضى بالحجج والبراهين والقوانين ما يبرر به الحكم الذى أصدره . . ولكن هيئة الأمم المتحدة لم تفعل ذلك، فجاء قرارها خالياً من كل ما يبرره.

قد تكون هيئة الأمم المتحدة . رأت فى النزاع بين العرب واليهود ذريعة أو سنداً لها ، ولعلها قد اتخذت من ادعاءات الصهاينة وأكاذيبهم حقائق لم يحاول أعضاء الأمم المتحدة مناقشتها مناقشة جدية لتتبين مدى كذبها . ولكننا نقول : إن كل نزاع بين أجنبى دخيل ومواطن حقيقى لا يمكن أن ينتهى بتقسيم الوطن بين الأجنبى والمواطن الحقيقى . . إن اليهود فى فلسطين يكونوا إلا مجرد أجانب وليس من حقهم أن يعاملوا معاملة المواطنين .. وإلا لجاز لكل غريب فى وطن ما أن يقتسم الوطن مع صاحبه ، ولأصبح لليهود فى الولايات المتحدة ـ وهم يكونون طائفة كبيرة ـ أن يقتسموا الولايات المتحدة بينهم وبين الأمريكان . بل قد يكون ذلك أقرب إلى المنطق مما اتبع فى فلسطين ؛ ذلك لأن سكان الولايات المتحدة الحاليين البيض الذين يتحكمون فيها ليسوا من أصل أمريكى، وإنما هم دخلاء على أمريكا جاءوا من فرنسا وإنجلترا . . وغيرهما من الدول الأوربية واكتشفوا القارة واستعمروها ، وقد جاء هؤلاء سواء كانوا مسيحيين أم يهودا ومعنى ذلك أن يهود أمريكا من أصل أوربى لهم ما لغيرهم من فى حق أرض

فلماذا لم يقتسم اليهود أمريكا بينهم وبين باقى السكان ، وهل ترضى بذلك حكومة وشنطن ؟ الجواب لا . فلماذا إذن وافقوا على اقتسام فلسطين بين العرب واليهود ؟ ! !

٢ — إن قرار التقسيم هذا لا يتفق مع ما جاء فى صكوك الانتداب [١] ، فإذا ما رجعنا إلى المادة الخامسة من صك الانتداب وجدنا ها تقول : « تكون الدولة المنتدبة مسئولة عن عدم التنازل عن شىء من أرض فلسطين أو وضعه تحت حكومة دولة أجنبيه » .

ومما لا شك فيه أن قرار التقسيم هذا معناه انتزاع جزء من فلسطين ، وإعطاؤه لليهود ليقيموا عليه دولة أجنبية ، واليهود . . حتى صدور قرار التقسيم — وبعده — يعتبرون أجانب ، ولم يعترف بهم كمواطنين فلسطينيين. ولقد سبق أن اعترفت عصبة الأمم المتحدة باستقلال الدول العربية ومنها فلسطين ، وضح ذلك من خلال ما جاء فى المادة الثانية والعشرين من عهد العصبة والتى تقول : « إن بعض الشعوب التى كانت خاضعة للإمبراطورية التركية وصلت إلى درجة من التقدم يمكن الاعتراف مؤقتاً بكيانها كأمم مستقلة خاضعة لقبول الإرشاد الإدارى والمساعدة من قبل الدول المتندبة عليها حتى ذلك الوقت الذى تصبح فيه هذه الشعوب قادرة على النهوض وحدها . . »

ومعنى ذلك أن عصبة الأمم المتحدة ، وهى التى وافقت على صكوك الانتداب بعد ذلك — هذه الهيئة العالمية قد اعترفت بكيان فلسطين . وكان من المفروض بناء على تلك المادة أن ينتهى الانتداب الإنجليزى على فلسطين . . بعد أن أصبح أهلها قادرين على حمل مسئولية الحكم وحدهم . . ولقد أحست إنجلترا بذلك فكان عليها — بدلا من أن تعطى اليهود فلسطين — أن تخرج هى من فلسطين ؛ لتتركها لشعبها العربى ، ولكنها لم تفعل .

---

(١) راجع صكوك الانتداب فى الفصل الرابع من هذا الباب .

قد يدعى الصهاينة أن صك الانتداب نص على العمل على إقامة وطن لليهود فى فلسطين : ولكنا مع استنكارنا لما جاء بالانتداب عن هذه الناحية . . نؤكد هنا مرة ثانية أن هناك فرقاً كبيراً بين تعبير وطن، ودولة، وقد شرحنا ذلك من قبل .

٣ ـ من المفروض أن يلقى قرار التقسيم قبولا من الأطراف التى يعنيها الأمر . . ولكن من هى هذه الأطراف ؟ إن المنطق يقول : إنهم العرب.. والعرب . . وحدهم هم الذين يعتبرون الطرف الرسمى ، وهم وحدهم أصحاب حق لهذه الأرض . . اعترف لهم بذلك عهد عصبة الأمم . . واليهود لم يكن لهم حتى ذلك الوقت أى صفة رسمية ، ولو طبقنا ذلك على ما جاء على لسان الرئيس الأمريكى « ولسن » والذى يقول : «إن حل كل مسألة يتعلق بالأرض . . يجب أن ينبنى على قبول الذين يتعلق بهم هذا الأمر أو لا وأخيراً . . » فكأن العرب وحدهم هم الذين يملكون قرار الموافقة على قرار التقسيم ، وأن أمر نفاذه أوعدمه متروك لهم ، ومما لا شك فيه أن العرب قد رفضوا بالإجماع مبدأ التقسيم ، وبالتالى يعتبر هذا القرار باطلا..

وحتى لو فرضنا جدلا أن الطرفين المتنازعين اللذين يهمهما الأمر ـ كما يدعى المستعمرون ـ هم العرب واليهود . . فهل سلطت الأضواء على حقوق العرب وحججهم فى فلسطين كما حدث بالنسبة لتلك الادعاءات والأباطيل التى أشاعها الصهاينة ؟ وبمعنى آخر . . هل استطاع العرب أن يأخذوا حريتهم فى البرهنة على حقوقهم كما فعل اليهود ؟ وهل استطاع العرب أن يجدوا المحامى الغيور الذى يدافع عن قضيتهم وقت نظر مشروع التقسيم أمام هيئة الأمم المتحدة ؟ ! !

الواقع يقول : لا . . لقد شلت كل حركة قام بها العرب للدعاية لحقوق عرب فلسطين ، وقد ساعد على ذلك عدة عوامل منها : الظروف السياسية السيئة التى كان يرزح تحتها كثير من العرب . . أما الصهيونية

فقد وجدت من الأنصار والأموال من دافعوا عنها ، ولو بغير حق .

ولقد حملت إنجلترا لواء الدعاية للصهاينة . . وإن كانت قد وقفت من وراء الستار ترقب الموقف عن كثب ، وحتى تذر الرماد فى العيون ... رأيناها تمتنع عن إبداء رأيها بالنسبة لقرار التقسيم حين عرضه على الهيئة فى نوفبر لعلها كانت مطمئنة إلى أن القرار سيوافق عليه بدونها . . بعد أن رسمت الخطة بإحكام . . ولعلها وجدت فى قرار التقسيم أقل مما يستحقه اليهود . . . !! ولكنها على أى حال كانت متحمسة لنصرة الصهاينة ، فنى ذلك مصلحة لها .

وما قيل عن إنجلترا . . يمكن أن يقال بشىء من التشابه عن كل من فرنسا وأمريكا ، فكل منهما كانت له مصالح شخصية وأهداف دفعتهما لخدمة الأغراض الصهيونية . .

فالولايات المتحدة . كانت وما تزال تقاسى الكثير من اليهود ومشاكلهم الاجتماعية وسيطرتهم على المرافق الاقتصادية ، وتحكمهم فى كثير من البنوك والشركات . ولذلك فهم الذين يسيرون دفة كثير من الأمور السياسية وفق أهوائهم ونزعاتهم ، وللصهاينة أيضاً أعوان وأنصار من رجال الحكم . . يأتمرون بأمرهم وينفذون تعليماتهم ويضعون أنفسهم رهن مشورتهم . . وحكومة الولايات المتحدة فى ذلك الوقت كانت — وما تزال — لا تستطيع أن تخيب لليهود ظنا ولا يرفض لهم مطلباً مهما كلفها ذلك من خسائر ومهما ارتكتب من التزوير وفقدان الضمير . .

إذن فقرار التقسيم الذى أصدرته الأمم المتحدة كان قرارا غير طبيعى ؛ فإن الظروف التى صدر بها لم تعط للطرفين ، أو بمعنى أصح للطرف الحقيقى فرصه كافية لعرض قضيته . . بينما أعطيت هذه الظروف فرصة أكثر من اللازم لغير أصحاب الحق . . وبالتالى يمكن أن نعتبر هذا القرار كأن لم يكن .

٤ – من صفات القاضى الذى يصدر حكمه فى قضية ما أن يكون بعيداً عن التحيز فى حكمه بغض النظر عن مصالحه الشخصية ، وليس من سمات القاضى بصفته الرسمية أن يتخذ من مقعده وسيلة لتحقيق هدف لصالحه أو لصالح أصدقائه أو أقاربه . . وقد ثبت فعلا أن القضاة الذين حكموا فى مشكلة فلسطين والذين أقروا مبدأ التقسيم كلهم ممثلون فى هيئة الأمم المتحدة . . لم يكونوا يمثلون العدالة ، فقد كانوا قضاة متحيزين تخلصوا من كل القيم الأخلاقية ، وانحازوا إلى الباطل فجعلوه يلتهم الحق . . وضح ذلك من خلال نظر القضية فى جلسة ٢٦ نوفبر ، ولم يحصل مشروع التقسيم على الموافقة ، ولكن لم تمض على ذلك ساعات حتى أسرع نفس القضاة يوافقون على قرار التقسيم ويتنكرون لأبسط العدالة ، وساروا فى طريق ملتو رسمه لهم الصهاينة وخططه لهم المستعمرون .

وإذا نحن حللنا الموقف . . وجدنا أن الأعضاء الذين وافقوا على التقسيم من الدول الاستعمارية أو التى تسير فى فلكها طواعية أو كراهية ، وكلهم جميعاً يحاولون تحقيق آمال اليهود وهدم آمال العرب .

فمن الدول التى وافقت على قرار التقسيم « بلجيكا وهولندة وفرنسا » . وهى من الدول التى كانت تعيش بالعقلية الاستعمارية ، ولعل تقلص نفوذها الاستعمارى جعلها لا تسلم بالحق لصاحبه ، فآثرت مناصرة الباطل انتقاماً من الحق ، ولم يكن يعنى هذه الدول وهى ذات الماضى الأسود أن تناصر الحق بقدر ما يعنيها أن تنتشر الظلم والفساد لعلها تجد فى ذلك عزاء لها وسلوى ، ولعلها تجد فيه عوضاً عن خسائرها ، ولعلها كانت تطمع فى العودة إلى سيطرتها السابقة . .

أما الدول التى كانت تسير فى فلك الاستعمار ، وتأتمر بأمر سادتها مثل أستراليا ونيوزيلندة وليبيريا وجنوب أفريقيا وكندا . . فإن هذه الدول

لم توافق على قرار التقسيم لاقتناعها به ، وإنما لمشيئة أسيادها واتباعاً لأوامرهم .

ونوع آخر من الدول التى وافقت على قرار التقسيم هى تلك الدول التى لها مصالح شخصية فى قيام إسرائيل،ومن أمثلتها روسيا والولايات المتحدة الأمريكية وبولندة . . وكل ما يهم هذه الدول هو أن تتخلص من اليهود الذين يسببون لها كثيراً من المشاكل،ولم يكن يتأتى لهم ذلك إلا إذا استطاع اليهود أن يجدوا لهم مكاناً آخر يأويهم ، وقد وجدوا فى فلسطين فرصتهم . ومن أجل ذلك وافقوا على قرار التقسيم .

وهكذا يبدو جلياً ما اتصفت به الأمم المتحدة حين إصدار قرار التقسيم بالتحيز والتباطؤ مع الصهاينة ، مما يجعلنا نشك فى قانونية هذا الحكم وعدالته .

٥ — إن قرار التقسيم هذا قد بحث تحت ضغط الصهاينة وتهديدهم ؛ ذلك لأن الصهاينة حينما أحسوا بخيبة آمالهم فى الحصول على فلسطين . . راحوا يبذلون أموالهم فى الدعاية لقضيتهم ، ولكن يبدو أن ذلك لم يكن كافياً فاستعملوا طرقاً أخرى ووسائل أكثر خسة ودناءة ، وكان من تلك الوسائل : التهديد ، فقد سخروا نفوذهم لدى الدول واستطاع مندوبو الصهاينة أن يضغطوا على وفود الأمم المتحدة لكثير من الدول حتى إن الولايات المتحدة نفسها خضعت لسياسة التهديد ، يؤكد ذلك ما جاء فى مذكرة الرئيس الأمريكى ترومان حيث يقول : « فى الحقيقة إن الضغط الذى وقع على الأمم المتحدة فى ذلك لم يكن له نظير أبداً ، ولقد تعرض البيت الأبيض فى الوقت نفسه لضغط لم يتعرض له فى أى وقت آخر . . وكم ضايقنى كثيراً وأزعجنى حقاً كثرة إلحاح الزعماء الصهيونيين الذين كانت تحركهم دوافع سياسية مصحوبة بالتهديدات .. . حتى إن بعضهم كان يطالبنا بالضغط على دول أخرى ذات سيادة للحصول على

الأصوات المطلوبة فى الجمعية العامة للأمم المتحدة ».

ومما لا شك فيه أن القرار الذى صدر تحت هذه الظروف ، وبتلك الصورة غير الطبيعية لا يمكن أن يعتبر صحيحاً ، فمن الضرورى للعدالة أن تجد المتنفس الذى تبدو فيه الحقائق ، فلكل قضية ظروفها وحقائقها ومعالمها ، ومن واجب القضاة أن يكتشفوا حقيقة الأمور جلية واضحة ؛ وعملية التهديد ووسائل الضغط تبعد الحق عن أعين القضاة، وتغير الواقع إلى غير الواقع ، وبالتالى تكون النتيجة فى جانب الباطل . . وهذا أمر لا يمكن قبوله لا شكلا ولا موضوعاً .

٦ — إن قرار التقسيم الذى أصدرته الأمم المتحدة.. لو قدر له أن يعاد بحثه مرة أخرى كما كان متوقعاً بل كما كان من المفروض . . هذا القرار لو بحث مرة أخرى لكان مصيره الإلغاء.. يؤكد ذلك أن بلجيكا وكندا. وهما من الدول التى وافقت على قرار التقسيم فى جلسة ٢٩ نوفمبر . . هاتان الدولتان أحستا بخطئهما . . فاقترحتا إعادة النظر فى مشروع قرار التقسيم. ومن ناحية أخرى.. فإن الولايات المتحدة وهى الأخرى واحدة من الدول التى وافقت على التقسيم استيقظ ضميرها ، فقدم مندوبها فى ١٩ مارس سنة ١٩٤٨ مذكرة أعلن فيها سحب حكومته لقرار التقسيم لاقتناعها بعدم إمكان تنفيذه ، وطالب المندوب الأمريكى بوضع فلسطين تحت الوصاية وإعادة النظر فى القضية مرة أخرى . . فإذا حذفنا الدول الثلاثة وهى كندا وبلجيكا والولايات المتحدة من الدول التى وافقت على قرار التقسيم . . وضح لنا مقدار الذبذبة التى كانت ستحدث بالنسبة للقرار ؛ ومما لا شك فيه أن الدول الأخرى الباقية وعددها ٢٩ دولة لابد أن بعضها أحس بالجريمة . . ولو أن الموضوع أعيد بحثه لكانت النتيجة عكس ما حدث . . نعم لكانت النتيجة رفض المشروع ، وبالتالى لما أمكن لليهود أن يتمكنوا من فلسطين . . ،

قد يقول قائل : ولكن ذلك لم يحدث . . ونردّ على هذا القائل لنسأله نحن بدورنا : وماذا كان سبباً فى عدم إعادة بحثه ؟ لماذا لم يبحث المشروع كما كان من المفروض ؛ لتبدو الحقائق واضحة ؟ أحياناً يستطيع الإنسان أن يكسب قضية ما فى الاستئناف ، أحياناً يكسبها فى النقض طالما أن الحق بجانبه ، وإذا لم يكن فى هيئة الأمم نقض أو إبرام فإن للأعضاء الحق فى إعادة بحث الموضوع . . وقد حدث فعلا أن اتخذت الإجراءات لإعادة بحثه ، وكاد يحدث ذلك . . ولكن وقع ما غير الخطة . . .

ذلك لأن إنجلترا عزّ عليها أن تفلت الفرصة من يدها . . لذلك رأيناها تسرع بلا سابق إنذار وتعلن انسحابها من فلسطين . . ثم رأيناها تسلم لليهود المواقع الهامة . . لماذا ؟ . . ليصبح الخيال حقيقة ، ولتكون الأمم المتحدة أمام الأمر الواقع ، ولتثبت لأعضائها أن مالا يمكن تنفيذه قد نفذ فعلا ، وكأن إنجلترا تقول لهيئة الأمم المتحدة . . إذا كنتم ترغبون فى إعادة بحث الموضوع لأن قرار التقسيم لا يمكن تنفيذه . . فها نحن ننفذه ، وها هم اليهود يستولون على جزء من فلسطين . . فلا حاجة لكم فيما تعتزمونه من مناقشة الموضوع .

هكذا قسمت فلسطين بالصورة التى ارتضاها اليهود والمستعمرون ، وليس بالصورة التى يرتضيها العرب ، ولا الحق . وهكذا نفذ قرار التقسيم بصورة بعيدة كل البعد عن الطرق الطبيعية .

نخرج من هذا بأن قرار التقسيم باطل أساساً ، وأن الطريقة التى نفذ بها لا تكسبه حقاً ، ولهذا نرى أن يرد ما أخذ باطلا إلى صاحب الحق الذى اغتصب منه . .

هذا عن السؤال الأول وهو عدم مشروعية قرار التقسيم .

أما بالنسبة للسؤال الثانى . . وهو هل كان قرار التقسيم بالصورة التي وافقت عليه الأمم المتحدة أو بالموضع الذى نفذ به . . هل

كان فيه شيء من العدالة ؟

إننا حين نبحث هذه النقطة لا نعنى أننا سلمنا بقرار التقسيم فمما لا شك فيه أننا – نحن العرب – نرفض جميعاً كل صورة من صور التقسيم ولكننا نريد أن نبحث هذه النقطة لنثبت مرة أخرى مدى التحيز والبعد عن جانب الصواب فى هذه القضية التى أصبحت قضية عالمية لها نتائجها كما كانت لها أحداثها . .

ونؤكد هنا مرة أخرى أن أعضاء الأمم المتحدة بقرار التقسيم الذى أصدروه لم يكن همهم تقصى العدل وحل المشكلة وإنما كان كل ما يعنيهم خدمة الأغراض الصهيونية .

كان قرار التقسيم فى حد ذاته ظالماً . . وكان بصورته التى تم التصديق عليها أكثر ظلماً وقسوة . . نستطيع أن نتأكد من ذلك إذا تدبرنا الحقائق الآتية :

١ – بالنظر إلى خريطة تقسيم فلسطين التى سبقت فى شكل (٣ – ب) نجد أن المناطق التى أعطيت لليهود تعتبر أحسن المناطق فى فلسطين من حيث ظروفها الطبيعية والاقتصادية بعكس المناطق التى أعطيت للعرب .

وقد استولى اليهود على المناطق الآتية :

(ا) الشريط الساحلى المطل على البحر المتوسط « ما عدا غزة » وهذا الشريط الساحلى يمتاز بكثرة أمطاره لمواجهته للرياح العكسية ، وهذا الأمر بدوره يجعل المنطقة أكثر ملاءمة لحرفة الزراعة ونمو الأشجار المثمرة كالفواكه والموالح فضلاً عن أن هذا الساحل هو الواجهة البحرية الهامة لفلسطين ، وعليه تقع كثير من الموانى الهامة مثل : عكا وحيفا ويافا وتل أبيب ، وكلها من الموانى ذات الأهمية الاستراتيجية بالإضافة إلى أهميتها فى تجارة الصادرات والواردات ، ومن أجل ذلك كانت هذه المناطق من أحسن المناطق للاستقرار البشرى .

(ب) أخذ اليهود كذلك جنوب فلسطين ، فكانت له بذلك واجهة بحرية على البحر الأحمر . وهذه الواجهة لها أهمية استراتيجة كبيرة حيث إنها المنفذ الوحيد لفلسطين على هذا البحر ، ولقد خدمت هذه المنطقة إسرائيل كثيراً خصوصاً وأن سفنها ممنوعة من المرور فى قناة السويس.. . حتى لقد فكر اليهود ذات يوم فى حفر قناة تصل ما بين العقبة والبحر المتوسط لعلها تكون لهم عوضاً عن قناة السويس ، ولكن هذا المشروع لم ينفذ، ولن يقدر له التنفيذ بسبب ما يكتنفه وما يعترضه من صعوبات طبيعية ومادية وفنية . . .

وليس من شك أن خليج العقبة هى منطقة التقاء بين عدة دول عربية هى الأردن والسعودية والجمهورية العربية المتحدة بالإضافة إلى فلسطين ، ولا يخفى ما لهذا من أثر فى الظروف السياسية والأهمية العسكرية

(حـ) استولى اليهود فيما استولوا عليه على بعض المناطق المطلة على نهر الأردن من ناحية الشمال بما فى ذلك بحيرة الحولة وطبرية ، وفى هذه المناطق تتوفر مياه الرى اللازمة للزراعة حيث يمكن استغلال هذه المنطقة فى إنتاج الحبوب .

(د) واستولى اليهود كذلك على جزء كبير من البحر الميت وهى منطقة هامة لاستخراج كثير من الأملاح المعدنية مثل البوتاس والمنجنيز والبردمين .

(هـ) وصحراء النقب دخلت هى الأخرى فى أملاك اليهود ، وهذه المنطقة لها أهمية كبيرة . . فهى مصدر عظيم للإنتاج الحيوانى ، وبعض الإنتاج الزراعى حيث تتوفر الآبار والعيون فى الواحات . . بل إن اليهود يحاولون تنفيذ مشروع نهر الأردن لجر المياه إلى هذه المنطقة واستصلاح مساحات كبيرة لاستغلالها فى الزراعة ، وقد أثبتت الدراسات الجيولوجية وجود كثير من المعادن فى صحراء النقيب ، وحاول اليهود استخراج بعضها ..

فإذا ما أضفنا إلى ذلك كله أن هذه المنطقة تمثل صمام أمن لإسرائيل ، وأنه لولا صحراء النقب لتعرضت إسرائيل لضربات العرب المتلاحقة من الغرب والجنوب والشرق . . أدركنا حينئذ أهمية النقب .

وهكذا يبدو جلياً أن اليهود قد استحوذوا بناء على قرار التقسيم على الأجزاء الهامة والجيدة من فلسطين .

أما العرب . . فعلى النقيض من ذلك . . أخذوا مناطق أقل جودة وأقل حظاً فى الإنتاج .

(ا) فالمنطقة الواقعة غرب نهر الأردن . . قليلة الأمطار جداً . . اللهم إلا مساحات قليلة جداً تسقط فيها بعض الأمطار حيث تنمو الحشائش وتربى الأغنام ، والمعروف أن حرفة الرعى ليست من الحرف الوفيرة الكسب ، أما المنطقة المطلة على النهر نفسه فإن مياه هذا النهر لا تصل إلا لمسافة محدودة من الشريط المطل عليه حيث تزرع بعض الحبوب وتنمو بعض أشجار النخيل والزيتون .

(ب) أما منطقة غزة فليست فى مثل جودة المناطق الساحلية الأخرى فضلا عن أن هذه المنطقة رغم أنها المنفذ الوحيد للمنطقة العربية على البحر المتوسط إلا أن مساحتها ضيقة ومحدودة .

على ذلك يتضح لنا أن اليهود قد استحوذوا على كل المناطق الجيدة ، وتركوا للعرب الأجزاء الفقيرة ، بالإضافة إلى أنهم استولوا على كل المنافذ البحرية الهامة فى الوقت الذى لا توجد منافذ بحرية للمنطقة العربية إلا ميناء غزة . . فهل يتفق هذا الوضع مع عدالة التقسيم ؟ أصحاب الأرض الحقيقيون يحرمون من أرضهم ، والأجانب الذين لا حق لهم يأخذون ما لا حق لهم فيه .

٢ — يدعى الصهاينة أن قرار التقسيم هذا قد بنى على أساس الأكثرية المساحية لكل من العرب واليهود . . بمعنى أن اليهود أخذوا المناطق التى

كانت لهم فيها أكثرية فى المساحة قبل التقسيم ، بينما أخذ العرب المناطق التى كانت نسبة الأملاك العربية فيها أكثر . . هكذا يدعى اليهود ! ! ولكن هذا غير صحيح على الإطلاق .

فلو أننا سلمنا جدلا — بحق اليهود فيما كانوا يملكونه من أملاك فى فلسطين حتى سنة ١٩٤٨ رغم الطرق غير المشروعة التى حصلوابها على هذه الأملاك والتى أوضحناها فى فصل سابق ، لو سلمنا بهذا . . فإن الإحصائيات الرسمية التى تصدرها هيئة الأمم المتحدة تؤكد بصورة دامغة أن اليهود لم يحصلوا فى أى منطقة من فلسطين على نسبة أكثر من العرب ، وهذه إحصائية تؤكد ذلك :

المنطقة	نسبة أملاك اليهود	المنطقة	نسبة أملاك اليهود
يافا	٣٩	غزة	٤٪
طبرية	٣٨٪	عكا	٣٪
الناصرية	٣٨٪	القدس	٢٪
حيفا	٣٥٪	الخليل	١٪
بيسان	٣٤٪	رام الله	١٪
صفد	١٨٪	بئر سبع	٠.١٪
طولكروم	١٧٪	النقب	½٪
الرملة	١٤٪	حنين	أقل من ١٪
		نابلس	صفر ٪

ومن هذه الإحصائية يستدل على أن أكبر نسبة لأملاك اليهود فى خمس مناطق لم تتعد ٣٩ ٪ ، وأن أكثر المناطق تراوحت فيها النسبة بين ٤ ٪ ، ½ ٪ .

وتؤكد الإحصائيات الأخرى أن جملة ما تملكه اليهود حتى سنة ١٩٤٨ في فلسطين كلها لم يزد عن ١,٤٩٠,٠٠٠ دونم أى بنسبة ٦٪ تقريباً ، أما أملاك العرب فقد وصلت إلى ١٢,٥٧٥,٠٠٠ دونم أى بنسبة ٤٨٪ ومعنى ذلك أن نسبة أملاك اليهود إلى أملاك العرب هي ١ : ٨ وهذا لايتناسب مع المساحة التي حصل عليها كل من الطرفين في التقسيم .

٣ — وقد يدعي اليهود أن هذا التقسيم بني على أساس النسبة السكانية لكل من العرب واليهود . . وهذا ادعاء باطل وليس في حاجة إلى توضيح . فاليهود حتى سنة ١٩٤٨ لم تكن لهم أية أكثرية سكانية في أى منطقة في فلسطين إلا في تل أبيب ، ولم يكن عدد اليهود كلهم يزيد عن ¼ مليون ، أما عدد العرب فكان أكثر من مليون ، وهذا يؤكد الفارق الشاسع بين الطرفين في العدد .

ولنا أن نتساءل هل اتفق تقسيم فلسطين مع النسبة العددية كما يدعي اليهود ؟

الواقع . . لا فإن اليهود بناء على قرار التقسيم أخذوا ٥٥٪ من فلسطين ، وكان نصيب العرب حوالى ٤٥ ٪ ، ولم يكتف اليهود بذلك بل انتزعوا مساحات أخرى من أملاك العرب ووصل جملة ما اغتصبه اليهود من أملاك العرب بعد التقسيم حوالى ثلاثة آلاف ميل مربع أضيفت إلى ٥٥٠٠ ميل مربع فأصبح جملة ما اغتصبوه من الأرض الفلسطينية أكثر من ثمانية آلاف ميل مربع وهذه نسبة كبيرة جداً بالنسبة لأملاك العرب ، فهل هذا يتفق مع ما يدعيه اليهود ؟ ! !

٤ — أما بالنسبة لصحراء النقب . . فقد لاحظنا من الإحصائية السابقة أن نسبة ما كان يملكه اليهود منها حتى سنة ١٩٤٨ لم يكن يزيد عن ½ ٪ من مساحتها ، كما لاحظنا أن معظم اقتراحات التقسيم مثل تقسيم بيل وبرنادوت . . اعترفت بحق العرب في النقب ، ومع ذلك فقد أخذ

اليهود هذه المنطقة ، وهذا يظهر مدى التحيز الذى اتبعته الأمم المتحدة بالنسبة لتقسيم فلسطين .

وقبل أن نترك هذا الموضوع . . يجوز لنا أن نتعرض لزعم آخر يزعمه اليهود . فهم يدّعون أن تقسيم فلسطين . . إنما هو صورة من صور بعض التقسيمات التى حدثت فى أجزاء أخرى من العالم مثل تقسيم الهندستان إلى : الهند وباكستان ، وتقسيم ألمانيا إلى غربية وشرقية ، وتقسيم كل من فيتنام وكوريا إلى جنوبية وشمالية .

وهذا القول مردود إليهم لما يأتى :

١ — إن تقسيم الهندستان مثلا — رغم تدخل العناصر وسوء النوايا الاستعمارية — إلا أنه تم بناء على موافقة بين الطرفين : الهنود والباكستانيون وبرضاهم وهذا مخالف بالنسبة لما حدث فى فلسطين . . حيث رفض العرب هذا التقسيم .

٢ — إن تقسيم الهندستان . . إنما هو تقسيم منطقة بين شعب كان فى يوم من الأيام يكون دولة واحدة ، ولكل هندى وباكستانى الحق فى أرض هذا الوطن . . ومعنى هذا أنه تقسيم بين طرفين لكل منهما الحق فى القسمة ، ولكن هذا عكس الوضع فى فلسطين . . . إذ أن تقسيم فلسطين وقع بين عنصرين مختلفين : أحدهما العرب أصحاب الحق فى فلسطين ، والآخر اليهود وهم الأجانب الدخلاء .

٣ — إن قرار تقسيم الهندستان بين الهند وباكستان لم يترتب عليه أضرار فادحة لأحد الطرفين ، ومكاسب كبيرة للطرف الآخر ، وإنما أصبح لكل منهما نصيب معلوم بناء على الأكثرية السكانية من حيث المذهب الدينى . . أما بالنسبة لفلسطين : فالأمر يختلف ؛ فقد كسب اليهود كثيراً وخسر العرب كثيراً . . كسب اليهود أرضاً لم تكن لهم ، وخسر العرب أرضهم وديارهم وأموالهم . . وقد ترتب على ذلك أن شرد أكثر

من مليون عربي خارج فلسطين ، ما زالوا يعيشون حتى الآن يقاسون شظف العيش وصنوف الهوان والفاقة . . بينما راح اليهود ينعمون بفلسطين وخيرها .

٤ — إن تقسيم الهندستان قد اتسم بطابع أكثر تنظيما وتحقيقاً — بقدر الإمكان — للعدالة . ولذلك تبادل الهنود والباكستانيون التعويضات والممتلكات بعكس ما حدث في فلسطين ، فقد أخذ اليهود كثيراً من أملاك العرب ، واستولوا على أرضهم دون مقابل أو تعويض .

نعم . . . استولى اليهود على كثير من مزارع البرتقال العربية ، وأخذوا كثيراً من مصانع الماس والمنسوجات والمواد الكيميائية ، فضلا عن القرى والمنازل والمدن والمساحات الواسعة من الأراضي التي انتزاعها اليهود من العرب دون أي مقابل أو تعويض .

إذن فوضع تقسيم فلسطين بين العرب واليهود لا يتفق ولا يتشابه مع التقسيم بين الهند وباكستان لا من حيث المبدأ ، ولا من حيث الوضع وذلك لاختلاف الظروف بين الحالتين .

وألمانيا ، وفيتنام ، وكوريا . . كل هذه التقسيمات تمت لظروف ولأسباب وبطرق وأوضاع بعيدة كل البعد عن تلك التي صاحبت تقسيم فلسطين ؛ ومن أجل هذا فلا يمكن أن يكون هناك تشابه بين فلسطين وبين واحدة من هذه الدول .

نخرج من كل هذا بأن تقسيم فلسطين بين العرب واليهود . . باطل من حيث المبدأ ، وفيه ظلم كبير للعرب من حيث الوضع الذى تم فيه ، والصورة التى رسم بها ، وأن ما يدعيه اليهود من حق لهم بناء على هذا التقسيم . إنما هو وهم وافتراء .

الفصل السابع

إسرائيل . . تسير نحو الهاوية

ما كنا نريد أن نخوض فى هذا الموضوع الذى سيضطرنا إلى الدخول فى تفاصيل كثيرة . . ولكننا نرى لزاماً علينا أن نرد على ما يزعمه اليهود من أنهم استولوا على فلسطين ليرفعوا مستواها الاقتصادى والاجتماعى والثقافى . . . ! !

فالصهاينة يزعمون أن فلسطين مليئة بالموارد الأولية الهائلة ، وأن العرب لم يستطيعوا استغلال هذه الموارد ، ومن أجل ذلك جاء اليهود إلى فلسطين ، ليحققوا ما لم يستطعه العرب . هكذا يقولون . ! ! وليس من الغريب أن يساندهم فى هذا الزعم أنصارهم من المستعمرين الذين أطلقوا على منطقة الشرق العربى اسم « المنطقة المتخلفة اقتصاديا » ولعل هؤلاء نسوا أنهم هم المسئولون عن هذا التخلف .

ولنا أن نسأل الصهاينة : من الذى جعلهم وكلاء على هذه المنطقة حتى يكون لهم حق استغلالها والسيطرة على اقتصادياتها ؟ وأى منطق هذا الذى يخول لهم دخول فلسطين بهذه الحجة الواهية ؟! !

فلو فرضنا مثلا أن شخصاً ما يمتلك قطعة أرض فضاء فى موقع ممتاز ، ولكنه — لظروف خارجة عن إرادته — لا يملك من المال أو من مواد البناء ما يستطيع به أن يشيد قصراً كبيراً أو يقيم عمارة شاهقة على هذه الأرض . اللهم إلا كوخاً صغيراً يهدأ إليه هو وأسرته حتى يكبر أولاده

الذين سيكونون قادرين — فيما بعد — على تحقيق آمال أبيهم فى إقامة قصر أو تشييد عمارة . . .

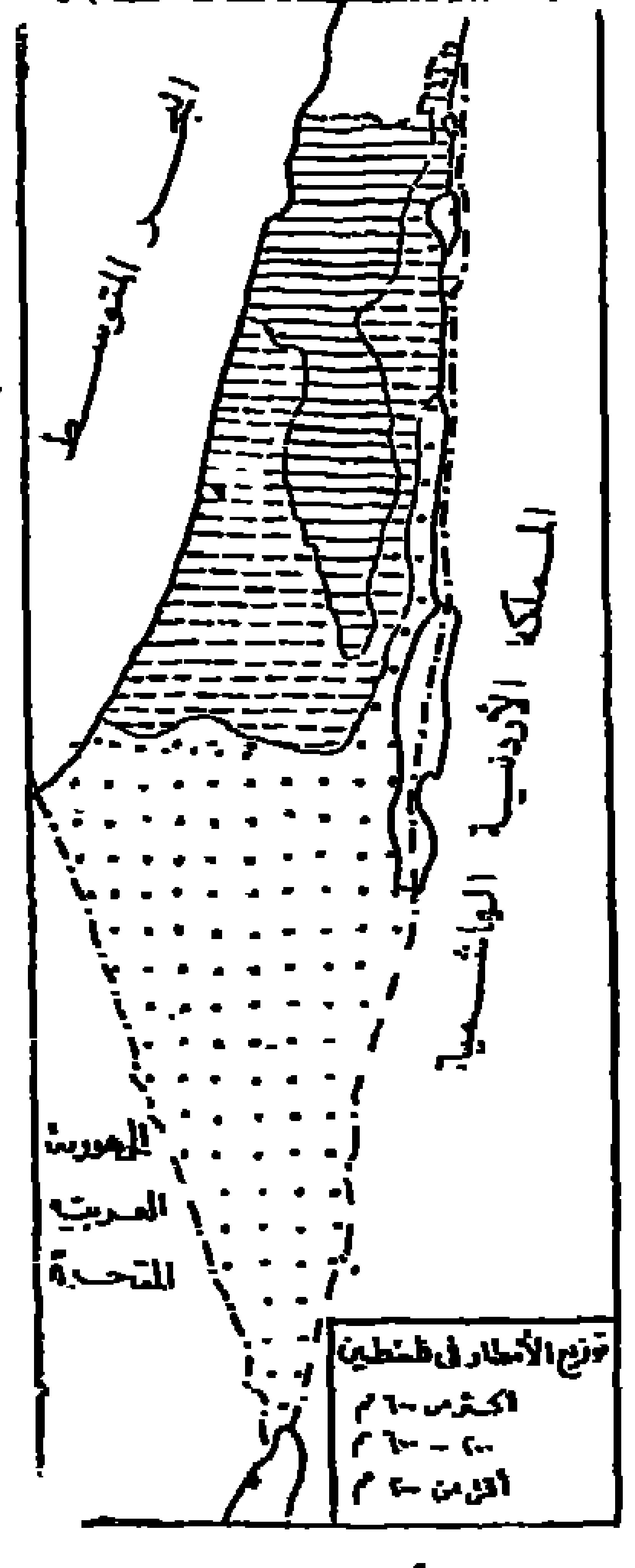
ولو فرضنا كذلك أن أحد الأثرياء ممن يمتلكون المال الذى جمعه بطرق غير مشروعة ، والجاه الذى حصل عليه بأساليب الخداع والتضليل.. لو أن هذا الثرى مرّ ذات يوم على تلك الأرض الفضاء ، فأعجب بها ، ورسم فى خياله صورة جميلة لمستقبلها ، فراح يتخيلها فى صورة قصر كبير ، أو عمارة شاهقة أو «فيلا» أنيقة ، فهل من حق هذا الثرى أن يستولى على الأرض ويأخذها لنفسه ليقيم عليها عمارة يسكنها هو وأقاربه ، ويترك صاحبها بلا مأوى بعد أن يهدم كوخه الصغير ويلقى به و بأولاده فى العراء ثم يقول فى تبجح : إنه يريد أن يعمرها ويصلح من شأنها ؟!! أى قانون يعطى الثرى هذا الحق ؟ وأى قانون يحرم على صاحب الحق حقه ؟! إن قانون الملكية الفردية مكفول للجميع فى جميع الدول ، أو بمعنى أصح فى معظم الدول . ثم إن الشرائع كلها حتى الشريعة اليهودية لا تسمح بالاغتصاب والنهب ، وإنما تحفظ لكل صاحب حق حقه . فلماذا يصر المغتصب على الاحتفاظ بما اغتصبه ؟ وإلى متى يبقى صاحب الحق يطالب بحقه ؟ ! !

هذا هو ما حدث فى فلسطين .. جاء الصهاينة.. واستولوا على هذه المنطقة ، وادعوا ادعاءات كثيرة .. كان أحد هذه الادعاءات هو أنهم أرادوا إصلاح حال فلسطين ونشر معالم الحضارة والعمران فيها .. فهل هذا من حق اليهود ؟ ! ! !

مما لاشك فيه أنه ليس من حقهم. وأن أى قانون لا يوافقهم على ذلك ، ولكننا نريد أن نناقش نقطة أخرى . . نريد أن نبحث هنا هل حقق اليهود شيئاً مما ادعوه؟ لقد حاولوا أن يتقدموا بفلسطين ، فتقهقروا بها إلى الوراء . .

فضلا عما سببوه للمنطقة العربية.. كلها بل للعالم كله من مشاكل وقلاقل.!!

وهنا يجدر بنا أن نلقى الأضواء على حقيقة الظروف الطبيعية لفلسطين، لنرى إلى أى حد يحاول الصهاينة أن يضللوا الرأى العام.



أكثر من ٦٠٠ مم

٢٠٠ — ٦٠٠ مم

توزيع الأمطار فى فلسطين

ففلسطين من الناحية الجغرافية جزء متمم لسوريا ولبنان وشرق الأردن وكانت كل هذه المنطقة تعرف قبل سنة ١٩٢٠ بسوريا الطبيعية أو بلاد الشام، ومساحة فلسطين ٢٧٠٠٠ كم^2 أى ما يعادل ٢٧,٠٠٠,٠٠٠ دونم(١).

ومن الخصائص المناخية لفلسطين: قلة أمطارها وعدم توزيعها، فهى تكاد تقتصر على الشريط الساحلى المطل على البحر المتوسط حيث تهب الرياح العكسية الممطرة شتاء، وكلما توغلت هذه الرياح جنوباً أو شرقاً.. كلما قلت كمية الأمطار حتى تكاد تنعدم فى الجنوب والشرق، ويمكن أن نقول إن ٧٥٪ من مساحة فلسطين لا يسقط فيها من المطر ما يكفى لقيام الزراعة. انظر شكل (٤)

يضاف إلى ذلك أن كمية المطر تتذبذب من عام لآخر ومن منطقة لأخرى.

---

(١) الدونم = $\frac{1}{4}$ فدان تقريباً أى ١٠٠٠ متر مربع.

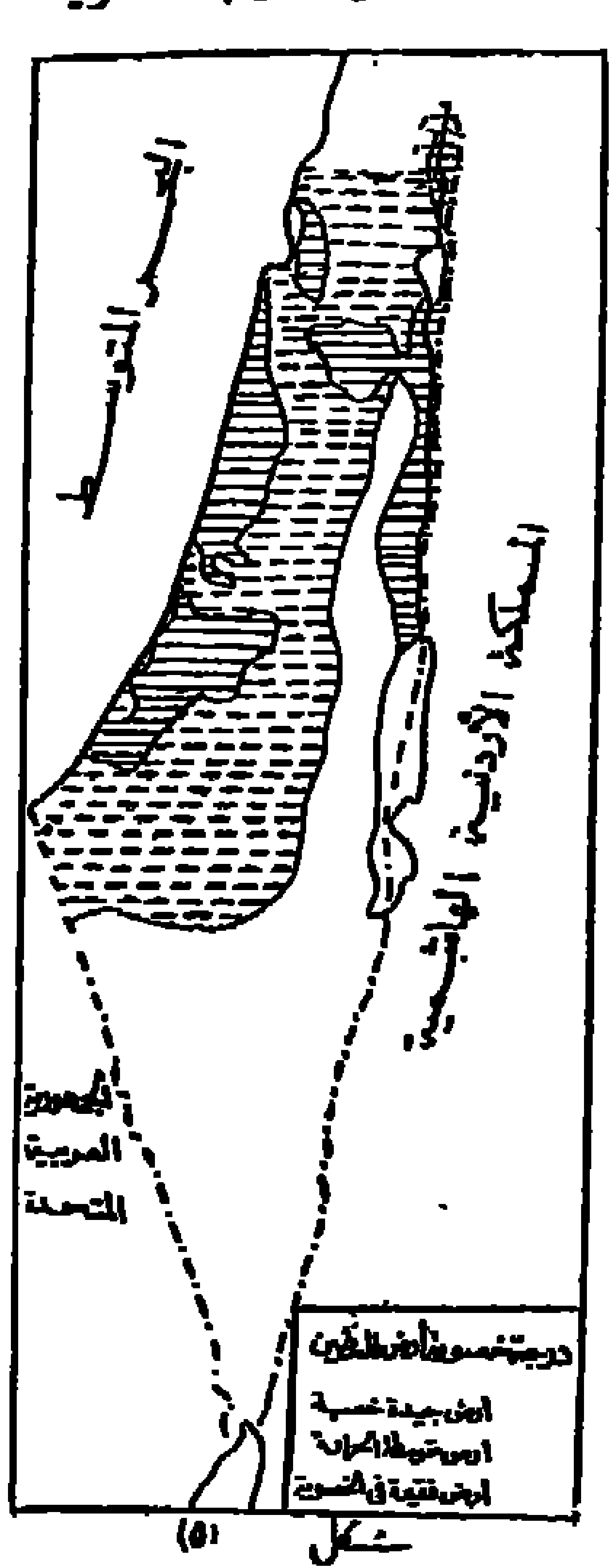
ومن ناحية المصادر الأخرى للمياه .. فإن فلسطين ليس بها مجار نهرية كبيرة .. اللهم إلا نهر الأردن الذى ينبع من سوريا ولبنان، ويصل إلى فلسطين حتى يصب فى البحر الميت « بحر لوط » .

ومن المعروف أن كمية مياه هذا النهر ضئيلة جداً بحيث إنها لا تزيد عن ١٪ من مياه نهر النيل . وليست هذه الكمية مقصورة على فلسطين وحدها . . . ولكن الدول العربية الأخرى مثل سوريا ولبنان وشرق الأردن تعتمد على مياه نهر الأردن فى مناطق كثيرة . . .

وفضلا عن ذلك: فإن مياه هذا النهر لا تصل إلى كل جهات فلسطين ، ولا تتعدى بضع كيلو مترات فى المنطقة المطلة عليه. ذلك لأن النهر يحتاج لعدة مشروعات مثل الخزانات والسدود لرفع مستوى المياه، وكثير من الترع لتوزيعها . . .

ومن ناحية التربة فإننا نلاحظ أن معظم المناطق فى فلسطين ليست جيدة التربة.. وبالتالى فهى ليست صالحة للزراعة . .

وإذا رجعنا إلى شكل (٥) استطعنا أن ندرك أن فلسطين ليست من المناطق التى حبتها الطبيعة بظروف حسنة مثل غيرها . . فإن الظروف الطبيعية فى مصر والعراق وسوريا –مثلا– أحسن حالا من تلك الظروف التى تسود فلسطين .



شكل (٥)

أرض جيدة خصبة
أرض متوسطة الحرارة
درجة خصوبة أرض فلسطين

ولقد كان لذلك كله آثار كبيرة على الإنتاج الزراعى .
ويمكن أن نلخص مصادر الثروة فى فلسطين فى النواحى الآتية :
١ ـ من حيث الإنتاج الزراعى :
نتيجة لقلة الأمطار وذبذبتها . نجد أن الإنتاج الزراعى قليل، فاقتصرت الزراعة على مناطق محدودة على ساحل البحر المتوسط ، وفى بعض الواحات المنتشرة فى الوسط، كما اقتصر الإنتاج على محصولات محدودة أهمها : بعض الحبوب كالقمح والشعير ، بالإضافة إلى الفواكه كالكروم والموالح .
٢ ـ أما من حيث الإنتاج الحيوانى : فهوليس أحسن حالا من الزراعة، فلا تربى فى فلسطين إلا أعداد قليلة من الأغنام والماعز والإبل ، ولا يمكن أن نعتبر حرفة الرعى مورداً هاماً من موارد الثروة فى فلسطين ، أو بمعنى آخر لا يمكن أن نجد فيها عوضاً عن النقص فى الإنتاج الزراعى .
٣ ـ ومن حيث المعادن فهى قليلة القيمة.. إلا إذا استثنينا بعض المعادن الموجودة فى البحر الميت، مثل الأملاح والفوسفات ، وهذه المعادن فى حاجة إلى خبراء للكشف عنها وأجهزة ومعدات لاستخراجها ، وهو ما لم يتوفر للعرب طوال مدة الاستعمار العثمانى وخلال فترة الانتداب الإنجليزى .. ولهذا كان استخراج المعادن مرتبطاً بحاجة الاستعمار وظروفه .
٤ ـ إذا انتقلنا إلى الإنتاج الصناعى . . وجدنا أن قلة الإنتاج الزراعى والمعدنى فى فلسطين فضلا عن ظروف الاستعمار التى عاشها الشعب الفلسطينى . . كان له أثر كبير على الصناعة . . فإن الاستعمار لم يسمح بإقامة أبسط أنواع الصناعات ؛ لأنه كان يرى فى فلسطين ـ شأنها فى ذلك شأن الدول المستعمرة الأخرى ـ سوقاً لتصريف مصنوعاته ومورداً هاماً للمواد الخام اللازمة لصناعاته ، وقد ترتب على ذلك اعتماد الشعب الفلسطينى على المصنوعات الأجنبية .
هذه فكرة سريعة عن الظروف الطبيعية والاقتصادية التى كانت تسود

فلسطين قبل سنة ١٩٤٨ ، ومنها تتضح عدم سخاء الطبيعة ، فإذا أضفنا إلى ذلك : الظروف السياسية ، أدركنا أن العرب كانوا معذورين فى عدم النهوض بوطنهم ، وأن ذلك لم يكن لتقصير منهم أو لعجزهم أو كسلهم ، وإنما لظروف خارجة عن إرادتهم . .

ونعود إلى ذلك الثرى الذى تحدثنا عنه فى أول الفصل ، والذى استولى على قطعة الأرض ذات الموقع الممتاز لنرى ماذا فعل ؟ لقد أحضر كل مواد البناء اللازمة من : «ظلط» ورمل وحديد وطوب وأسمنت .. أحضرها بطريقة ما .. بالسرقة أو النهب أو الاستجداء ..!! ولكنه فشل فى الحصول على العمال القادرين على حمل الأثقال ، والصعود على السقالات للقيام بعملية البناء . . بناء القصر أو العمارة . .

نعم لم يستطع هؤلاء العمال أن يصمدوا فى العمل ، ليحققوا الغرض الذى جاءوا من أجله أو الذى استحضروا من أجله .. وهنا أحس الثرى بالفشل ، واصطدم بالواقع الأليم ، واتضحت أمام عينيه معالم الحقيقة المرة . . ولكنه للأسف أغمض عينيه عن هذه الحقيقة ، أو لعله حاول ذلك ؛ حتى لا يترك لصاحب الأرض أرضه ، وعز عليه أن يسلم فى شىء اغتصبه ، فآثر الاستمرار فى التزوير والمجادلة ، ولكن صاحب الحق لم يسكت عن حقوقه ، فراح فى كل وقت وفى كل حين يطالب بحقه ، وأخذ يلقى بمواد البناء التى أحضرها الثرى فى عرض الشارع . . بل سد فى وجهه كل السبل حتى لا يستطيع تحقيق آماله .

هذا هو ما حدث لليهود فى فلسطين . . جاءوا بأموالهم وآلاتهم ، ولكنهم لم يستطيعوا الحصول على القوى البشرية المخلصة القادرة على القيام بمهمة تقدم وترقية فلسطين ! ! . . لقد أرادوا أن يجعلوا من فلسطين دولة كبرى ، ولكنهم عجزوا عن تحقيق كل ذلك ، لأنهم عجزوا عن الحصول على الخبرة والعزيمة والتعاون ، وفوق كل ذلك عجزوا على أن يصطحبوا

معهم الحق . لأنهم على باطل ، وويل لمن كان الباطل صاحبه، ومحال أن يتحقق أمل طالما لازمه الظلم والاستغلال .

وساءت حال فلسطين الاقتصادية ، ونقص إنتاجها ، ونضب معين خيراتها، وشح نعيمها.. لا نقول ذلك جزافاً، ولكنها الحقيقة .. الحقيقة المرة التى اعترف بها الصهاينة ، ووضحت من إحصائيات إنتاجهم الرسمية .

ولنستعرض معا صورة للظروف الاقتصادية الموجودة الآن فى فلسطين.

١ ـ بالنسبة للإنتاج الزراعى . . نجد أن اليهود قد استحضروا معهم الجرارات [١] والآلات الحديثة ، وجلبوا البذور ، وجاءوا بالكثير من الخبراء ، وأخذوا يقومون بالكثير من التجارب . . ولكن ذلك كله ذهب أدراج الرياح . فالإحصائيات الرسمية تؤكد أن مساحة الأراضى الزراعية فى فلسطين المحتلة قد قلت عما كانت عليه قبل سنة ١٩٤٨ بحوالى ١٥٪ من جملة المساحة المنزرعة؛ بمعنى أن مساحات من الأراضى الزراعية كانت تزرع فيما مضى . . أصبحت الآن بوراً وبلا زراعة،وطبيعى أن ترتب على ذلك قلة الإنتاج لكثير من المحصولات ، وعلى سبيل المثال نذكر أن إنتاج الموالح التى تعتبر مصدراً هاماً من موارد الثروة فى فلسطين كان قبل سنة ١٩٤٨ حوالى ٢٠ مليون صندوق نقص الآن إلى حوالى ١٢ مليون صندوق فقط أى بنقص قدره ٣٥٪ كما نقص إنتاج الزيتون والقمح بنسب كبيرة تتراوح بين ٢٠ ، ٤٥٪ فى بعض السنوات .

وحاول اليهود ذات يوم أن يزيدوا مساحة الأراضى الزراعية ، ونذكر على سبيل المثال: مشروع تجفيف مستنقعات بحيرة الحولة وتحويلها إلى

---

١) أكثر من نصف مليون جرار .

أراض زراعية ، وأنفق اليهود على هذا المشروع ملايين الجنيهات.. ولكنهم وقبل أن يجففوا عرقهم فاجأتهم الحقيقة المرة.. حين اندفعت المياه من ينابيع نهر الأردن، وحولت المنطقة مرة أخرى إلى مستنقعات .. مما كان سبباً فى ضياع مجهوداتهم هباء .

ويبدو أن الصهاينة أحسوا بخيبة أملهم فى التقدم الزراعى ، ولعلهم تأكدوا أن آمالهم كانت سراباً ، وأنهم لا يستطيعون أن يحققوا أحلامهم بالصورة التى رسموها فى أذهانهم . . فراحوا يبررون فشلهم، فقال بعضهم: إن ذلك يرجع إلى أن المهاجرين اليهود الذين جىء بهم من بلادهم الأصلية لم يكن لديهم الخبرة الكافية التى تؤهلهم للقيام بحرفة الزراعة . . لقد كانوا فى بلادهم تجاراً أو صناعاً، فهم لا يصلحون لأن يكونوا زراعاً ... ولكننا نرد عليهم هذا الكلام ، وتلك الحجج الواهية ، فنقول :

(ا) إنهم الآن يعتمدون فى الزراعة على الآلات أكثر من اعتمادهم على الطاقات البشرية ، وقد ذكرنا من قبل أن أعداداً هائلة من الجرارات والآلات والماكينات التى تقوم بمختلف مراحل الزراعة من حرث وحصاد قد استحضرها اليهود بطريقة أو بأخرى . فلو فرض وكان هناك عجز فى الطاقة البشرية فإنه يمكن تعويضه بواسطة الآلات .

(ب) إن اليهود الذين وفدوا إلى فلسطين . ليسوا كلهم من الدول الصناعية، ولم يكونوا كلهم تجاراً أو صناعاً . . وإنما كان منهم الكثير ممن نزحوا من الدول الزراعية كروسيا ورومانيا والمجر . . بل إن بعضهم جاء من العراق واليمن ، ولا بد أن يكون لهؤلاء أو لبعضهم دراية بعمليات الزراعة . ولكن هؤلاء وهؤلاء آثروا حياة الدعة والخمول ، وفضلوا أن

يعيشوا عالة على غيرهم .

(حـ) لو سلمنا جدلا بما يزعمه اليهود ، فإننا نريد أن نسألهم هذا السؤال : إذا كان هؤلاء الذين وفدوا إلى فلسطين . . لا يستطيعون القيام بحرفة الزراعة . . فلماذا جاءوا إليها ؟ وماذا كانوا يريدون ؟ هل كانوا ينتظرون أن تقوم القلة الباقية من العرب فى فلسطين بعملية الزراعة ، ليتتجوا من المواد الغذائية ما يكفى للأعداد القادمة من اليهود بينما يعيش هؤلاء القادمون مستريحين لأنهم كما يقولون : تجار أو صناع ؟ ! ! إذا كان هؤلاء المهاجرون قد أحسوا بعجزهم عن القيام بأهم مظاهر الإنتاج ، فلماذا جاءوا إلى فلسطين ؟! بل لماذا يصرون على البقاء بها ؟ لعل الأجدر بهم أن يرحلوا إلى حيث جاءوا .

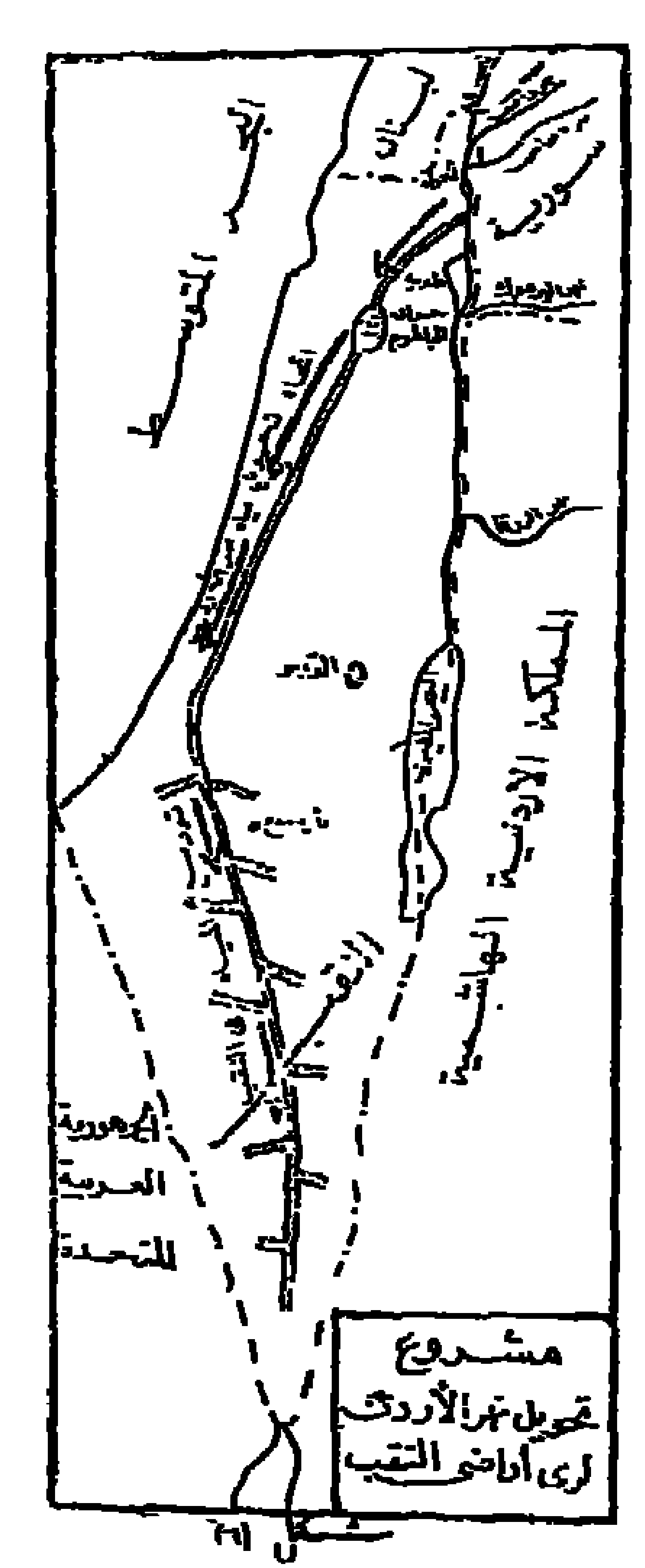
(د) فى الحقيقة أن فشل اليهود يكمن وراء عوامل كثيرة ، ولا يمكن أن نغض النظر عنها ، واليهود أنفسهم يعرفونها معرفة اليقين ، ولكنهم يحاولون أن يدفنوا رءوسهم فى الرمال . . إن فشلهم يكمن فى نفوسهم المليئة بالحقد والضغينة وسوء علاقتهم بعضهم ببعض ، وعدم تناسقهم أو تجانسهم ثقافياً واجتماعياً وأخلاقياً ولغوياً .. إنهم خليط مختلف النزعات والمشارب والأهواء والميول .. لا رابط بينهم . . إنهم عصابة مغتصبة ، وأفاقون مغترون ، وهذا الخليط العجيب من البشر لا يمكن أن يخلص أحد منهم فى عمله ، وقد أكد ذلك بن جوريون ذات مرة حين قال : « إن فوضى عنيفة ومخيفة تجتاح إسرائيل بسبب تباين خصائص اليهود الاجتماعية والثقافية لعناصر مختلفة لا تجمع بينهم أية رابطة » هذا هو قول زعيم الصهاينة فى الوقت الحاضر . . وشهد شاهد من أهلها . . وهذا بالطبع كانت له آثار بعيدة على الإنتاج ، فقد نتج عن ذلك كثرة المشاحنات ، والنزاع الداخلى بين

أفراد الشعب خصوصاً بين اليهود الشرقيين (السفراديم) واليهود القادمين من الدول الغربية (الاشكنازى) . . فمن المعروف أن الحكومة اليهودية وضعت اليهود الشرقيين فى المناطق الزراعية وجعلتهم يشتغلون فى الحرف التى تتطلب عملا مضنياً ومجهودات شاقة . . بينما سيطر اليهود الإشكنازى على الحرف الأكثر راحة وربحاً كالصناعة والتجارة ؛ ولهذا نفر الفلاح اليهودى من أرضه ، وأهمل زراعتها أو على الأقل أهمل عنايتها ، فقد رأى فى وضعه امتهاناً لمركزه ، وتحقيراً لشأنه وظلماً له ، وهذا كله دفعه إلى الحقد على زميله اليهودى القادم من الغرب ، ولذلك ترك كثير من الفلاحين أراضيهم الزراعية فى الريف ، واتجهوا إلى المدن يطلبون عملا أكثر راحة وأوفر ربحاً ، وحاولت الحكومة الإسرائيلية أن تعالج هذه المشكلة ، فلجأت إلى طرق الإغراء أحياناً ، وإلى طرق التعسف والضغط فى كثير من الأحايين ، وكثيراً ما حرمت الهجرة من الريف إلى المدن ، ولكن هذه المحاولات كلها لم تحقق نتائج مرضية ، وبقيت المشكلة الأبدية التى لا يجد اليهود لها حلا وهى مشكلة من يفلح الأرض . وكانت النتيجة التى لا شك فيها هى نقص الإنتاج .

وهناك بعض اليهود يبررون نقص الإنتاج الزراعى بتبريرات أخرى . فهم يرجعون ذلك إلى قلة المياه اللازمة للرى ، وأن الظروف السياسية وعلاقتهم مع العرب لا تمكنهم من الحصول على المياه اللازمة لزيادة المساحة الزراعية . . فمثلاهم يحاولون تنفيذ مشروع نهر الأردن . . هذا المشروع الذى يقوم أساساً على جذب مياه نهر الأردن وتحويلها إلى الصحراء بوساطة أنابيب تصل إلى خزان الباطوم ، ومنه إلى صحراء النقب . والغرض من ذلك استصلاح مساحات جديدة فى هذه

المنطقة لزراعتها وجلب أعداد جديدة من اليهود . انظر شكل (٦)

قد تكون حجة اليهود هذه صحيحة بالنسبة لهم ، فمما لا شك فيه أن العرب يقفون فى وجه كل محاولة يقوم بها اليهود للاستيلاء على مياههم . فهل يعتقد الصهاينة أن العرب من السذاجة بحيث يسمحون لهم بتنفيذ مشروعاتهم الاستعمارية القائمة على سياسة التوسع والسيطرة ؟! ! لقد انتزعوا جزءاً عزيزاً من أرضهم . . فهل ظن اليهود وهم يأتون إلى فلسطين أن العرب سيرحبون بهم ويساعدونهم أو يسمحون بتحقيق أحلامهم؟! ! وماذا يفيد العرب من هذا ؟! هل المساحات التى ستستصلح فى النقب ستنتج لهم محصولا ؟ . بالعكس . . إن ذلك سيكون ضرراً



مشروع تحويل مجرى نهر الأردن لرى أراضى النقب الذى يحاول اليهود تنفيذه

عليهم ، فإن معناه استحضار أعداد أخرى من اليهود فيزيد عددهم . . فليفهم اليهود أن العرب لن يسمحوا بأن تمتد مياه نهر الأردن إلى صحراء النقب إلا فى حالة واحدة . . هى أن تصبح صحراء النقب أرضاً

عربية خالصة للعرب ، وليفهم اليهود أنه لو كانت حياتهم متوقفة على قطرة ماء من نهر الأردن .. فخير لهم أن يموتوا جوعاً من أن يتصوروا أن العرب سيعطونهم هذه القطرة .

يكفى هذا عن الإنتاج الزراعى . . .

أما بالنسبة للإنتاج التعدينى ... فقد ذكرنا من قبل أن بعض المعادن مثل الأملاح توجد فى وحول البحر الميت (١) بخلاف المعادن التى قد تكون مختفية حتى الآن فى أرض فلسطين . ويجب أن نؤكد هنا حقيقة هامة ،وهى أن حكومة الانتداب خلال فترة حكمها على فلسطين لم تحاول الكشف عن المعادن ، ولم تستخرج منها إلا بقدر حاجتها شأنها فى ذلك شأن المستعمرين،ولعل إنجلترا أرادت بذلك أن تحتفظ بهذه المعادن حتى تسلمها لليهود كخطة من تلك الخطط الصهيونية . . يؤكد ذلك ما قاله الدكتور هومر : « إن جميع الحكومات الإنجليزية التى كانت منتدبة على فلسطين خلال الفترة التى تقع بين الحربين . هذه الحكومات قد أنكرت وجود كميات كبيرة من المواد المعدنية » .

فإذا كان الإنتاج المعدنى فى الفترة السابقة لسنة ١٩٤٨ قد اتصف بالتأخر ، فإن ذلك لم يكن يرجع إلى إهمال العرب أو تقصيرهم .. وإنما كان مرده إلى السياسة الإنجليزية التى سيطرت على فلسطين خلال تلك الفترة .. فضلا عن عدم توفر الآلات والأجهزة اللازمة لاستخراج هذه المعادن ، وعدم وجود الخبراء الذين لا يستطيعون القيام بدراسة فلسطين من الناحية الجيولوجية ، وحتى لو وجد الخبراء الذين يستطيعون ذلك .. فإن ضميرهم

---

(١) قدرت هذه المعادن بحوالى ½ بليون جنيه إسترلينى .

الاستعمارى، واتجاهاتهم التعصبية تجعلهم لا يصرحون بحقيقة ما فى فلسطين من معادن . . سواء عن نوع هذه المعادن أو مناطقها . .

فإذا ما قدر لليهود السيطرة على المناطق الخامة فى فلسطين . . وجدناهم وقد تحققت لهم كل مقومات التعدين من آلا ت وماكينات ومن الخبراء الأجانب ، ومن الأموال الكثيرة . . راحوا يحاولون استخراج ما فى الأرض من معادن . فهل نجحوا فى ذلك ؟

الجواب : لا ! ! فقد ثبت أن كثيراً من مشروعات التعدين التى أنشأها اليهود قد فشل فشلا ذريعاً ، ولم يحقق من النتائج ما يغطى نفقات المشروع وتكاليفه . ونذكر على سبيل المثال لا الحصر : مشروع استخراج النحاس من جنوب صحراء النقب . هذا المشروع الذى تكلف أكثر من أربعين مليوناً من الدولارات ، ولكنه فشل بسبب قلة نسبة النحاس الموجودة ، بحيث ثبت أن خام النحاس المستخرج أقل من تكاليف استخراجه . . ولهذا فشل المشروع . . . أما مشروع استخراج البوتاس من البحر الميت . . فقد أنفقت عليه حكومة إسرائيل ما يقرب من خمسين مليوناً من الدولارات ، ولكن إنتاجه من الضآلة بحيث لا يغطى نفقاته .

أما بالنسبة للإنتاج الصناعى . . فقد حاول اليهود أن يجعلوا من فلسطين منطقة صناعية كبيرة — على حد زعمهم — فراحوا ينفقون كثيراً من الأموال ، ويجلبون العديد من الآلات ، وواتتهم الظروف التى لم تكن مواتية للعرب فيما مضى ؛ فأقبلت عليهم الدول الاستعمارية التى اعتادت مساندة الصهاينة مثل الولايات المتحدة وألمانيا وإنجلترا وفرنسا ، وراحت تغدق عليهم الأموال والآلات والخبراء على أمل النهوض بالصناعة . . وكانت هذه كلها أو معظمها فى شكل هبات ومعونات وتعويضات ، بمعنى أن اليهود لم ينفقوا من أموالهم الخاصة كثيراً على هذه المشروعات ، وإنما اعتمدوا على ما يرد إليهم من الأموال الأجنبية ، ومع ذلك فهل نجحت إسرائيل ؟

الجواب : لا . ! ! ذلك لأن كثيراً من المشروعات قد فشل فشلا ذريعاً

ولم تستطع إسرائيل أن تحقق آمالها فى التقدم الصناعى ، ونتج عن محاولاتها العديدة خسارة كبيرة فى الأموال ، وضياع للكثير من الجهود ، ونذكر هنا على سبيل المثال بعض المشروعات الصناعية التى فشلت فيها إسرائيل : فمثلا مشروع مدينة الفولاذ الذى أنشأته إسرائيل قرب عكا لصهر الحديد وسبكه ، وأنفقت عليه الحكومة أكثر من ١٦٠ مليون دولار ، ولكن إنتاج هذا المشروع لم يغط نفقاته حيث قدر ما ينتجه هذا المصنع بما قيمته لا تزيد عن ٢٠,٠٠٠ دولار فقط فى السنة ، وهى قيمة ضئيلة جداً بالنسبة لرأس المال والنفقات . . ومشروع آخر هو مشروع ميرار لصنع مواسير الأسمنت وقد فشل هذا المشروع بسبب تلف المواسير المصنوعة نتيجة لحالات التشقق التى أصابها من جرّاء تعرضها لذبذبات المناخ وهو ما لم تعمل الشركة حسابه . وكثير من المشروعات الأخرى التى لا يتسع المقام هنا لسردها كلها .

وإذا كان اليهود يتشدّقون ببعض المشروعات الصناعية الأخرى التى يعتقدون أنهم نجحوا فيها ، مثل مشروعات الغزل والنسيج ، وصناعة الصابون وحفظ الفواكه . . فإننا نقول لهم : إن مقياس التقدم الصناعى لا يقاس بهذه المصنوعات دون المصنوعات الأخرى . ومن الملاحظ أن كثيراً من المصنوعات الخفيفة التى تقوم بها إسرائيل الآن ليس لها قيمة اقتصادية كبيرة ، مثل صناعة العطور وأدوات الزينة وغيرها من الصناعات الكمالية.

وحتى هذه الصناعات تتضاءل يوماً بعد يوم ، ويعتريها الكساد ، وكثيراً ما تتعرض مصانعها لأزمات اقتصادية عنيفة . . تؤدى فى كثير من الأحيان إلى توقف هذه المصانع وإفلاسها ، وقد حاولت حكومة إسرائيل أكثر من مرة مساعدة هذه المصانع كى تستطيع الصمود أمام الأخطار التى تتهددها ، ولكن كثرة المشكلات والمصاعب كانت أقوى من كل محاولات الحكومة ، وذلك لعدة أمور : منها أن هذه المصنوعات لا تجد حتى فى إسرائيل نفسها — سوقاً لتصريفها ، فإن اليهود أنفسهم لا يقبلون

على شرائها.. إما لعدم جودتها أو لارتفاع أسعارها بصورة تجعل الصناعات الأجنبية أكثر رواجاً منها . . ومنها أن المواد الخام اللازمة لهذه المصانع.. معظمها غير موجود فى إسرائيل مما يضطرها إلى استيرادها من الخارج ، وهذه الناحية من الأمور التى تعقد المشكلة، بسبب ما تتعرض له إسرائيل من ذبذبات فى علاقتها مع الدول الأخرى . . ولقد حاولت إسرائيل أن تغزو بمصنوعاتها دول آسيا وأفريقيا ، وسعت بكل الطرق لتجعل من هذه الدول سوقاً لتصريف بضائعها ، ولكنها اصطدمت بالكثير من المشاكل.. فإن أعداء إسرائيل يتزايدون يوماً بعد يوم ، وأصدقاءهم يقلون ، والعلاقات بينها وبين غيرها من الدول تضعف يوماً بعد يوم . . ومن هنا أصبح تصريف هذه المصنوعات غير مضمون .. الأمر الذى يهدد كل مصانع إسرائيل بالتوقف . . فإذا أضفنا إلى كل ما سبق أن كثيراً من الدول الآسيوية والأفريقية بدأت تنتج بعض مصنوعاتها لتكفى نفسها بنفسها . . أدركنا مدى ما تعانيه المصنوعات الإسرائيلية من مشاكل ، ومدى ما تواجهه من مصاعب ستظهر آثارها بصورة أكثر وضوحاً فى الأعوام القادمة ، مما قد يؤدى إلى شل الحركة الصناعية فى إسرائيل .

وعلى ذلك يمكن أن نقول : إن إسرائيل لم تنجح فيما أسمته بالتقدم الصناعى لفلسطين . . . .

أما بالنسبة للتجارة : فلم تكن أحسن حالا من الزراعة أو التعدين ؛ لأن النشاط التجارى مرتبط ارتباطاً وثيقاً بكل النواحى السابقة من حيث الإنتاج والاستهلاك ، ومن حيث الفائض للتصدير . . فضلا عن أن التجارة مرتبطة دائماً بالعلاقات الدولية ، وهذه كلها أمور ليست فى حاجة إلى الشرح حتى تثبت مدى ما تعانيه التجارة الإسرائيلية من مصاعب ، ولكننا نرى أن نضع أمام القارئ الحقائق الآتية :

١ – كثير من المواد الزراعية التى كانت تصدرها فلسطين قبل

سنة ١٩٤٨ قد قلّ كثيراً الآن ، فمثلا كان يصدر من البرتقال حوالى ٩ — ١٢ مليون صندوق فى السنة . . . أصبحت الكمية الآن تتراوح بين ٦ — ٩ ملايين صندوق فقط ، أى بعجز قدره حوالى ٣٥٪ تقريباً ، وما يقال عن البرتقال يمكن أن يقال عن الفواكه والزيتون والعنب التى تتراوح كمية النقص فيها بين ١٠ و ٢٥٪.

٢ — الميزان التجارى دائماً فى غير صالح إسرائيل.. حيث يتراوح العجز كل عام بين ٣٠٠ — ٥٠٠ مليون دولار . وهذه قيمة عالية بالنسبة لاقتصاد إسرائيل وماليتها .

٣ — تواجه إسرائيل فى تجارتها الخارجية صعوبات كثيرة منها عدم وفرة الأسواق التى تمتص تجارتها .. بالإضافة إلى الحصار الاقتصادى الذى تفرضه الدول العربية والذى كان من نتائجه تضييق حلقة المعاملات التجارية بين إسرائيل والدول الآسيوية والإفريقية . . وقد حاولت إسرائيل مراراً أن تغزو بمصنوعاتها التافهة والرديئة دول أفريقيا الوسطى والغربية ، ولكن هذه المصنوعات لم تستطع الصمود أمام مصنوعات الجمهورية العربية المتحدة ، الجيدة ، الوفيرة ، المعتدلة الثمن ، ورأت إسرائيل ذات يوم أن تحقق لنفسها بعض المكاسب عن طريق انضمامها للسوق الأوربية المشتركة حتى تضمن توزيع مصنوعاتها ولو عن طريق غير مباشر أى عن طريق الدول الأوربية ، ولكنها اصطدمت بالكثير من العراقيل ولم تنجح محاولاتها فى ذلك .

٤ — تواجه إسرائيل مشاكل اقتصادية لا حصر لها منها: كثرة ديونها التى تصل حوالى ٣ بلايين ليرة ، وستتضاعف حتماً فى الأعوام القادمة .. فضلا عن العجز فى ميزانيتها الذى يتراوح ما بين ١٠٠ — ١٨٠ مليون ليرة فى السنة ، بالإضافة إلى أن إسرائيل تضطر إلى إنفاق ما يقرب من نصف ميزانيتها على التسلح حتى يمكن — حسب ظنها — أن تواجهه قوة العرب ،

وقد ترتب على ذلك أن الحكومة لا تستطيع أن تتحمل فرق الأسعار ، ولا يمكن أن تخفض إسرائيل أسعار صادراتها بطريقة تستطيع بها المنافسة.. سواء بالنسبة للدول العربية .. أم الدول الأخرى .

٥ ــ الأصناف التي تصدرها إسرائيل معرضة من حيث الكمية والنوع للذبذبة ، وذلك بسبب كثرة الاضطرابات وحركات التمرد فى المصانع ، ولعل هذه الاضطرابات ترجع فى حد ذاتها إلى كثير من العوامل ، مثل قلة الأجور وسوء المعاملة ، والشعور بالنفور بين أفراد اليهود بعضهم وبعض ، نتيجة عوامل شخصية واتجاهات عنصرية لم يستطع.. ولن يستطيع المجتمع الصهيونى أن يتخلص منها ، وعلى كل حال فقد ترتب على ذلك إفلاس كثير من المؤسسات التجارية والصناعية ، وكثرت حوادث السلب والنهب ، وكلها من العوامل التى تؤدى إلى قلة الإنتاج وذبذبته ، ومن هنا ضعفت ثقة الدول التى كانت ترتبط بروابط اقتصادية مع إسرائيل ، وراحت كثير من الدول التى كانت تتعامل معها تلغى عقودها ومعاهداتها ؛ مما يهدد تجارة إسرائيل بالكساد والتوقف .

هذه هى الصورة الحقيقية للاقتصاد الإسرائيلى: إنتاج زراعى ناقص ، وإنتاج صناعى متهالك فاشل ، وأموال تنفق هنا وهناك بدون حساب ، ومقدمات تحذر من النتائج ، ومعاملات تجارية مذبذبة ، ومع ذلك تصر إسرائيل على قولها : إنها خلقت من فلسطين منطقة متقدمة ! !

وقبل أن نترك هذا الموضوع يجدر بنا أن نلقى نظرة عابرة على الظروف المالية والاجتماعية لإسرائيل ، ويمكن أن نلخصها فى النقط الآتية :

١ ــ غلاء مستمر فى الأسعار حتى لقد وصل ثمن البيضة إلى ما يساوى خمسة قروش ، والدجاجة الواحدة أكثر من مائة قرش .

١ ــ نقص فى المواد التموينية والسلع الضرورية اللازمة للاستهلاك المحلى. كاللحوم والخبز والبترول واختفاء كثير منها من السوق .

٣ ــ ازدياد الضرائب وتنوعها عاماً بعد عام ، فبالإضافة إلى زيادة

شرائح الضرائب العادية مثل ضرائب العقارات والملكية الزراعية وضريبة الدخل والجمارك .. استحدثت ضرائب أخرى مثل الضرائب على المسافرين إلى الخارج وضرائب الخمور والكماليات ومكوس الشراء والتنقل . . وهذه كلها تثقل كاهل الشعب .

٤ ـ انخفض سعر الليرة الإسرائيلية إلى النصف ، مما كان له أثر كبير فى انهيار الاقتصاد الإسرائيلى ، واضطرت الحكومة إلى عقد كثير من القروض الداخلية والخارجية ، والعمل على جلب مزيد من الإعانات والهبات الخارجية .

٥ ـ انتشرت كثير من العيوب الاجتماعية : كالسلب والنهب والرشوة والتشرد ، وامتد الفساد إلى كثير من مرافق الدولة ، وقد ساعد على ذلك ما اتصف به اليهود من ضعف ضمائرهم وحبهم للمال . وقد حاول كثير من اليهود أن يغادروا فلسطين ليعودوا إلى بلادهم هرباً من سوء الأحوال ، ولكنهم لم يستطيعوا ذلك ؛ فقد أوصدت فى وجوههم كل الأبواب ، ومنعوا من الخروج بكل الطرق والوسائل .

ونعود بعد ذلك لنبحث عن الثرى الذى تحدثنا عنه فى أول هذا الفصل فنجده قد فشل فعلا فى تحقيق ما كان يرجوه وما يدعيه ، وفشلت كل خططه ، وضاعت معها أوهامه .

وهكذا لم يستطع الصهاينة أن يحققوا ما رسموه . . بل على العكس من ذلك تسببوا فى تأخير هذه المنطقة . . لا اقتصادياً فحسب بل اجتماعيا أيضاً . . فضلا عن المشاكل التى سببوها لكل سكان الشرق بل للعالم كله ، وكثيراً ما كانوا ، وما يزالون ، نيراناً يتطاير شررها أحياناً ، لتشعل حرباً ، عالمية ثالثة لولا لطف الله .

لقد صدق أوسكار ليفى حين قال : «نحن اليهود .. لسنا إلا مفسدى العالم ومدمريه ، ومرتكبي الفتنة فيه ، وجلاديه . . »

فهرس

فهرس الخرائط

دار المعارف بمصر

استجابة لطلب الجمهور المتزايد ليحصل كل قارئ على نسخته من الكتب التى نفدت من سلسلة

اقرأ

قد انتهجت الدار خطة جديدة لمواجهة نتائج هذا النجاح الساحق

فتقدم فى منتصف كل شهر
طبعة جديدة من كتاب نفد

صدر من هذه الطبعات الجديدة :

- أحلام شهر زاد (الكتاب رقم ١) للدكتور طه حسين
- المساواة فى الإسلام (الكتاب رقم ٢٣٥) للدكتور على عبد الواحد وافى
- المعذبون فى الأرض (الكتاب رقم ١١٨) للدكتور طه حسين
- لماذا الاشتراكية العربية (الكتاب رقم ٢٤٣) للأستاذ لمعى المطيعى
- ثم غربت الشمس (الكتاب رقم ٧٦) للدكتورة سهير القلماوى
- شاعر الغزل (الكتاب رقم ٢) للأستاذ عباس محمود العقاد
- من النافذة (الكتاب رقم ٨٣) للأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى



تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر

٥ قروش ج.ع.م	١٠٠ مليم فى ليبيا	١,٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق. ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق. س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً

إقرأ

الوحدة الإفريقية

محمد أبو الفتوح الخياط

عارف بمصر

رسم الغلاف بريشة إيهاب شاكر

٥ قروش ج. ع. م.	١٠٠ مليم في ليبيا	١٫٥٠ ديناراً في الجزائر
٦٠ ق. ل	٧٥ فلساً في العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً في المغرب
٧٥ ق. س	١٢٠ فلساً في الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً في السودان	١٢٥ مليماً في تونس	

الوحدة الإفريقيّة

محمد أبو الفتوح الخياط

الوحدة الإفريقيّة

اقرأ ٢٧٥

دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٧٥ – نوفمبر ١٩٦٥

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

تقديم البحث

« إن الخطوة الإيجابية الأولى نحو الوحدة الإفريقية ، هى وحدة الفكر ، ولا تتحقق وحدة الفكر إلا باللقاء المباشر على أعرض الجبهات .

إن الاقتراب الفكرى القائم على الفهم المشترك ، والاحترام المتبادل بيننا جميعاً ، هو أعظم قوة دافعة يمنحها لمنظمة الوحدة الإفريقية التى صنعناها فى أديس أبابا . . .

لقد أنشأنا فى « أديس أبابا » كياناً لمنظمة الوحدة الإفريقية وعلينا الآن أن نعطى لهذا الكيان أعصابه وعضلاته القوية . . لكن تعميق الفهم المشترك هو ضمان أن تتحرك الأعصاب والعضلات القوية للمنظمة وفق إرادة متحدة . . .

وبقوة المنظمة المرتكزة على تعميق التفاهم يستطيع عملنا المشترك من داخلها وخارجها أن يتحرك بقوة إيجابية نحو كل الآفاق التى نستهدفها ونتطلع إليها . .

إن إفريقيا أثبتت فى كل امتحان تعرضت له أنها تستطيع أن تصمد للتحدى . .

جمال عبد الناصر

مؤتمر القمة الإفريقى الثانى

القاهرة « يوليو سنة ١٩٦٤ »

المقدمة

ما كادت تنتهى الحرب العالمية الثانية حتى ظهر فى إفريقيا كثير من حركات التحرير الوطنى . وقاد هذه الحركات زعماء إفريقيون قضوا أغلب أيام حياتهم بعيدين عن وطنهم من أجل العلم والتوعية بحق الدول فى تقرير مصيرها وقدسية احترام حقوق الإنسان . فقد اقتبس الطلبة الإفريقيون والمفكرون والزعماء السياسيون فى لندن ، وفى باريس ، وفى العواصم الإفريقية نفسها . اقتبسوا من الفكر الديمقراطى الغربى ومن الماركسية ومن فلسفة غاندى ومزجوها بصبغة رومانتيكية من التراث الثقافى والتاريخى للقارة الإفريقية بهدف خلق أيدلوجية عامة للوحدة الإفريقية .

وعاد أغلب هؤلاء إلى بلادهم ونفوسهم مملوءة بالعزم والتصميم على المضى طويلاً فى طريق الكفاح من أجل تحرير بلادهم وتخليصها من نير العبودية والاستعمار .

ووجد أغلب الزعماء الوطنيين أنفسهم مع أتباع متحمسين يستجيبون لنداءاتهم الوطنية المعادية للاستعمار فانقلبت أغلب بلادهم إلى ثورات عارمة تهدف كلها إلى الإطاحة بالاستعمار والقضاء التام عليه وعلى مؤمراته وأشكاله الجديدة . والسير بإفريقيا فى طريق الوحدة .

ولذلك أستطيع القول بأن فكرة الوحدة الإفريقية لم تبدأ أصلاً فى أرض إفريقيا نفسها وإنما بدأت فى أرض المهجر — فى العالم الجديد — حيث استقى أبناء إفريقيا الأفكار التى تدور حول هذا الهدف من دراساتهم التى تلقوها فى الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وفرنسا .

وكان نجاح ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ فى مصر بمثابة الدعامة القوية لنجاح الثورات التحررية التى خاضتهاالشعوب الإفريقية ضد الاستعمار . فقد أعلن زعيمها الرئيس جمال عبد الناصر منذ اللحظة الأولى « أن الثورة تعمل من أجل مساندة كل دعوة استقلالية تحررية من أجل تحرير إفريقيا وتخليصها من سيطرة الاستعمار والسيطرة الأجنبية » .

وبدأت أغلب الدول الإفريقية التى حققت لنفسها النصر والاستقلال فى عقد المؤتمرات والاجتماعات المشتركة من أجل تبادل وجهات النظر المختلفة فى سبيل تدعيم استقلال الدول التى تخلصت من قيود الاستعمار وسيطرته ومساندة الحركات التحررية فى البلدان الإفريقية التى ما زالت تصارع الاستعمار والسيطرة الأجنبية .

وكان أول هذه المؤتمرات « مؤتمر أكرا الأول » فى أبريل عام ١٩٥٨ واشتركت فيه ثمانية دول إفريقية مستقلة . وفى ديسمبر من نفس العام عقدت الشعوب الإفريقية أول مؤتمر لها اشترك فيه أكثر من ٢٠٠ عضو يمثلون أكثر من ٥٠ حزباً سياسياً ونقابة وحركة طلابية من مختلف البلدان الإفريقية . وتوالت بعد ذلك مؤتمرات عديدة تمثل لوناً جديداً من الوعى الجماعى الذى انبثق على الأرض الإفريقية .

وبدأت تظهر فى الأفق الإفريقى مجموعات ومنظمات واتحادات من بعض الدول الإفريقية المستقلة وفق نظم وأسس متفق عليها . فى ١٥ ديسمبر عام ١٩٦٠ تأسست مجموعة « برازفيل » بمدينة برازفيل وتحولت هذه المجموعة فى ١١ سبتمبر عام ١٩٦١ إلى منظمة الاتحاد الإفريقى الملجاش . وكانت مدينة تاناريف عاصمة مدغشقر عاصمة له وكانت هذه المنظمة تضم ١٢ دولة إفريقية تنطق الفرنسية وأطلقت على نفسها « إفريقيا المعتدلة » نسبة إلى موقعها المتسم بالاعتدال من الاستعمار .

وفى يناير عام ١٩٦١ أنشئت منظمة « الدار البيضاء » واشتركت فيها ست دول إفريقية مستقلة تمثل إفريقيا الثائرة . أما مجموعة منروفيا فقد تأسست فى مايو عام ١٩٦١ بمدينة منروفيا عاصمة ليبريا . وقد تمكنت هذه المنظمة من توحيد دول منظمة برازفيل الناطقة بالفرنسية وبين بعض الدول الإفريقية المستقلة الناطقة بالإنجليزية هذا بالإضافة إلى بعض الاتحادات التى ظهرت فى القارة كاتحاد وسط إفريقيا واتحاد غانا وغينيا ومالى ، وكذلك اتحاد شرق إفريقيا ثم اتحاد شرق ووسط وجنوب إفريقيا .

ولقد زعمت بعض الصحف الغربية أن مثل هذه الاتحادات والمنظمات تمثل تناقضات وانقسامات فى القارة الإفريقية . وأنه من الصعب التغلب عليها لتحقيق الوحدة الإفريقية الشاملة . وفى المؤتمر الصحفى الدولى الثالث بالقاهرة (أول أكتوبر عام ١٩٦٣) وجه الوفد الكينى سؤالا إلى الرئيس جمال عبد الناصر يقول : « ألا ترون أن مثل هذه الاتحادات الفيدرالية ستعمل يوماً على إضعاف روح ميثاق أديس أبابا ... ؟ »
وأجاب الرئيس جمال عبد الناصر :

« أنا فى رأيى أعتقد العكس ، وأعتقد أن كل اتحاد فيدرالى هو خطوة فى سبيل اتحاد إفريقيا كلها طالما هناك وحدة فى الهدف ، وطالما لا تقوم هذه الاتحادات لمخاصمة الاتحادات الأخرى بل متعاونة معها وفقاً لميثاق أديس أبابا » .

ولقد تمخض مؤتمر القمة الإفريقى الأول بمدينة أديس أبابا فى الثانى والعشرين من مايو عام ١٩٦٣ عن مولد ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية . وبذلك تعانقت إفريقيا الثورية وإفريقيا المعتدلة . كما تعانقت إفريقيا الناطقة بالفرنسية مع إفريقيا الناطقة بالإنجليزية ومع إفريقيا الناطقة بالعربية وأصبح زعم الغربيين مجرد حقد ملأ قلوبهم وأعمى بصيرتهم

عن رؤية هذا الوعى الثورى المتفجر على الأرض الإفريقية .

وكان مؤتمر القمة الإفريقى الثانى بالقاهرة فى الفترة من ١٧ – ٢١ يوليو عام ١٩٦٤ بمثابة نقطة الانطلاق العظيم إلى تحقيق الأهداف العليا لمنظمة الوحدة الإفريقية وتذليل العقبات التى اعترضت لجانها المختلفة فى الفترة منذ إعلان ميثاق أديس أبابا (مايو عام ١٩٦٣) وحتى موعد انعقاد هذا المؤتمر فى يوليو عام ١٩٦٤ .

ولقد تحدث الزعماء الإفريقيون فى هذا المؤتمر وأعربوا فى حديثهم عن شعورهم بالارتياح التام للقرارات والتوصيات التى توصل إليها أعضاء اللجان المختلفة والمنبثقة عن منظمة الوحدة الإفريقية .

وهكذا . . . انقشع الغمام . . وتبدد الظلام . . ولم تعد إفريقيا « قارة مظلمة » بل أصبحت « قارة ثورية » لا يكاد يمر عام حتى نسمع عن دولة جديدة بها . . . انتزعت حقها . . ونالت استقلالها بفضل كفاحها المرير .

وأصبحت الوحدة الإفريقية هدفاً للشعوب الإفريقية التى أجمعت عليه خلال نضالها فى سبيل الحرية والاستقلال بمختلف أنحاء القارة . فمما لا شك فيه أن الوحدة الإفريقية بمضمونها لا تعنى الإفريقيين أنفسهم بقدر ما يعنيهم أن يلتئم شمل القارة الممزق لتتوافر لها عوامل القوة . وهذا لن يتأتى إلا إذا ارتبطت أجزاء إفريقيا كلها ارتباطاً يقوم على أسس واضحة من العمل الموحد لصالح إفريقيا – ووحدة إفريقيا .

فمنظمة الوحدة الإفريقية التى ولدت منذ عام ١٩٦٣ عبرت تماماً عن الإرادة الإفريقية الجماعية وقضت على كل مظاهر التفكك والتفرقة والاحتكار . وفتحت أبواب العمل والأمل والانطلاق من أجل تدعيم الوحدة ، ومن أجل أن تصبح منظمة الوحدة الإفريقية من أقدر المنظمات فى المجال الإفريقى بصفة خاصة وفى المجال العالمى بصفة عامة . خاصة وأن

ميثاق الوحدة الإفريقية يتفق وميثاق هيئة الأمم المتحدة فى الأغراض الأساسية والمبادئ الرئيسية . وأى تقدم تحرزه الهيئات الإقليمية وفقاً لمبادئ ميثاق الأمم المتحدة من شأنه أن يوطد أركان الهيئة العالمية ويساعدها فى تحقيق التعاون الدولى .

إن قضية الوحدة الإفريقية ماضية إلى الأمام بسرعة ويمكن للدول الإفريقية أن تكون منفصلة كأصابع اليد فيما يتعلق بمسائلها المحلية ولكنها تستطيع أن تكون متحدة كقبضة اليد فيما يتعلق بشئونها الخارجية والعامة .

ولابد لأجهزة الإعلام بالدول الأعضاء فى منظمة الوحدة الإفريقية أن تنظم حملات تستهدف التوعية بأهمية الوحدة الإفريقية ، وأن تبذل كل دولة جهوداً لا حد لها وأن تعنى بدراسة الوحدة الإفريقية فى المدارس والمعاهد والجامعات لخلق جيل إفريقى ناضج يستطيع أن يحمل من الآن شعار « وحدة إفريقيا » على أسس من الوعى والإيمان بها ، وقد تقرر بالفعل إنشاء وكالة أنباء لجميع الدول الإفريقية ومعهداً لتدريب الصحفيين وهذا ما سيبحثه مؤتمر القمة الإفريقى الثالث بأكرا هذا العام .

وأرجو أن يؤدى هذا البحث جزءاً من الهدف المنشود . .

أسأل الله التوفيق .

محمد أبو الفتوح الخياط

هذه القارة الإفريقية

تبدو القارة الإفريقية على شكل مثلث قاعدته البحر الأبيض المتوسط ورأسه نقطة التقاء المحيطين الهندى والأطلنطى . وتبلغ مساحة هذهإ القارة ١٢ مليون ميل مربع . تنحصر ما بين خطى عرض ٣٧° شمالا و ٣٦° جنو باً .

وتقدر مساحة إفريقيا ستة أمثال مساحة شبه الجزيرة الهندية رغم أن تعداد سكان الهند يصل إلى ضعف سكان القارة الإفريقية . ولقد تعاونت القوى الباطنية وعوامل التعرية الجوية فى تشكيل سطح القارة وأصبحت تضم ثلاث مناطق تضاريسية متميزة بخصائص تختلف من منطقة لأخرى وهذه المناطق هى :

(ا) إفريقيا الصغرى وتشمل بلاد المغرب .

(ب) إفريقيا السفلى وتضم معظم نصف القارة الشمالى عدا بلاد المغرب . ويصل أقصى ارتفاع لهذه المنطقة ٥٠٠ متر .

(جـ) إفريقيا العليا وتشمل الجزء الجنوبى والشرقى للقارة . وتصل أعلى نقطة فى هذه المنطقة إلى ارتفاع ١٠٠٠ متر .

وتتميز سواحل القارة باستقامتها عدا الجزء الواقع فى الشمال الغربى ، وقد ترتب على ذلك صعوبة قيام الموانى الطبيعية بالإضافة إلى أن الظروف الطبيعية القاسية التى تحيط بالقارة جعلت الدخول إليها صعباً للغاية فتعذر النفاذ لداخلها .

ونظراً لأن القارة تمتد بين خطى عرض ٣٧° شمالا ، ٣٦° جنوباً فإنها تضم عدة أقاليم مناخية ونباتية مختلفة . هذا الاختلاف فى الأقاليم المناخية والنباتية أدى لتنوع نشاط السكان بها وكذلك تنوع الحاصلات

الزراعية والنباتية .

ويكاد خط الاستواء يخترقها فى الوسط فيسود المناخ المدارى كل القارة عدا أطرافها المعتدلة فى أقصى الشمال والجنوب .

ولقد ارتبط توزيع السكان فى القارة بتوزيع الأقاليم النباتية والمناخية فيها . ويبلغ عدد سكان القارة ٢٢٠ مليون نسمة . ويصل متوسط الكثافة السكانية بها ٦ نسمات للكيلومتر المربع فى حين أن هذا المتوسط فى بقية أنحاء العالم يصل إلى ١٥ نسمة فى الكيلو متر المربع .

ويرجع تأخر المواصلات داخل القارة إلى قسوة الظروف التضاريسية بها وكثرة وجود المساقط المائية على سواحلها . فلا يوجد بالقارة خط حديدى يربطها من الشمال إلى الجنوب أو من الشرق إلى الغرب فى قسميها الشمالى والجنوبى . وإن وجدت بعض سبل المواصلات على السواحل الغربية أو الشرقية فى الداخل فهذا يرجع إلى الاستعمار ذاته الذى أنشأ بعض الخطوط الحديدية وهذب بعض الطرق من أجل مصالحه الاقتصادية وسهولة نقل السلع وتصديرها .

ولعله من المدهش حقاً أن الاتصال التليفونى بين دول القارة بعضها والبعض الآخر صعب للغاية . وقد أوضح هذه الحقيقة الزعيم جوموكينياتا فى خطابه الذى ألقاه بمؤتمر القمة الإفريقى الثانى بالقاهرة . فقال :

« إن الاتصال التليفونى فى إفريقيا يحتاج إلى اهتمام عاجل ومما يثير السخرية أننى لا زلت مضطراً إلى حجز مكالماتى التليفونية عن طريق لندن وباريس إذا أنا أردت أن أتحدث مع صديقى بن بيلا . . .

وبعض الدول ذات المصالح المشتركة تستطيع أن تتحدث بالتليفون مع لندن وبروكسل وشنطن وموسكو . ولكنها لا تستطيع أن تتبادل

الحديث مع بعضها البعض عبر الحدود » .

وللقارة الإفريقية تاريخ طويل يسبق فترة الكشوف الجغرافية فقد ظهرت فيها حضارات وقامت ممالك ودول عديدة قبل أن يصل الرجل الأبيض (الاستعمار) إليها .

وكثير من المراجع الموثوق فيها عن تاريخ القارة الإفريقية تحكى لنا تاريخ غرب إفريقيا وشرقها وخاصة بعد أن دخل الإسلام القارة واستقرت فيها القبائل العربية .

ودخول الإسلام إفريقيا يعتبر أحد المنعطفات التاريخية الحاسمة فى حياتها . فقد تغير تاريخها واتخذت ملامحها شكلا جديداً يختلف عن سابقه وانتشرت القبائل العربية ووصلت حتى الصحراء الإفريقية حيث وجدت الهدوء والاستقرار وأصبحت بذلك تربط بين الإفريقيين فى الشمال والوسط والشرق والغرب . ولا زالت آثار اختلاط العرب بالإفريقيين موجودة حتى الآن بإفريقيا .

وحينما اتصل الأوربيون بالعرب عرفوا عن القارة ما لم يكونوا يعرفونه عن طريق الجامعات العلمية والكتب المترجمة وما كتبه العرب عن عن إفريقيا .

ولقد أشار الدكتور قوامى نكروما إلى هذه الحقيقة فى خطاب ألقاه فى الاحتفال بافتتاح المؤتمر الدولى الأول للصحفيين الإفريقيين بجامعة غانا فى الثانى عشر من ديسمبر سنة ١٩٦٢ . فقال :

« إن الرحالة العرب كثيراً ما كانوا غير متحيزين فى أعمالهم عن إفريقيا . ونحن مدينون لهم فيما كتبوه عن ماضينا . . .

. . . .

إن الأسطورة الأساسية لكل الأساطير التى أحاطت بإفريقيا هى رفض الاعتراف بماضيها الخاص . إنهم يزعمون أن إفريقيا ظلت جامدة

وخاضعة للركود فى حين أن قارات أخرى تصنع التاريخ وتتحكم فى مجراه ويزعمون كذلك أن إفريقيا لم تدخل مسرح التاريخ إلا بفضل التدخل الأوربى . وهكذا فإن تاريخها لا يعتبر فى أغلب الأحيان إلا امتداداً للتاريخ الأوربى . . . »

ثم قال نكروما :

« فى كل مكان بإفريقيا — فى السودان وأثيوبيا وتنجانيقا والصومال وكينيا وأوغندة . يبذل مجهود ضخم منظم من أجل إبراز المستندات الضرورية التى تستطيع وحدها أن تمكننا من إظهار تاريخنا كتاريخ للشعب الإفريقى وتاريخ للأعمال التى حققناها ولإيدولوجية المبادئ التى تقبع وراءها آلامنا وانتصاراتنا » .

ولقد كانت الكشوف الجغرافية بمثابة البداية الحقيقية لظهور القوى البحرية متمثلة فى دول غرب أوربا وشاطئ الأطلنطى .

وكانت ممالك المسلمين فى إفريقيا هى المسرح الذى لعبت عليه هذه القوى دورها فتفوقت وسيطرت على هذه المناطق .

لذلك فإن الكشوف الجغرافية هى التى مكنت أوربا من الوصول إلى القارة الإفريقية . ولا نستطيع أن نجزم أن هدف الكشوف الجغرافية فى حينها هو معرفة إفريقيا . ولكن نجاح عملية الكشوف الجغرافية هو الذى جعل إفريقيا جزءاً من المعرفة العالمية . ترتب على ذلك دخول القارة فى حلقة صراع القوى الكبرى على نطاق عالمى .

وقاد البرتغاليون تيار الكشوف الجغرافية واستولوا على مدينة سبتة العربية الواقعة على الشاطئ الإفريقى تجاه جبل طارق عام ١٤١٥ . ولم يوفق العرب فى مقاومتهم وظل البرتغاليون يتحركون جنوباً حتى وصلوا إلى غينيا عام ١٤٣٤ ثم مصب السنغال عام ١٤٤٦ واستطاع الإسبان القضاء على الدولة الإسلامية وإماراتها التى كانت تحكم الأندلس . كما استطاعوا

بالفعل غزو طرابلس وتونس والجزائر فى أوائل القرن السادس عشر ولم ينجحوا فى البقاء فى هذه الدول نتيجة لمقاومة العثمانيين لهم .

ولم يستتب الأمر للاستعمار الإسبانى فى مراكش إلا عام ١٩١٢ . حينما اشتد ساعد ألمانيا وبدأت فى منافسة بريطانيا على السيادة البحرية فى مطلع القرن العشرين اضطرت بريطانيا وفرنسا إلى توحيد كلمتهما فعقدا الاتفاقية المعروفة فى التاريخ باسم « الوفاق الودى » عام ١٩٠٤ ومن أهم نصوصه ألا تمانع بريطانيا فرنسا فى بسط نفوذها على المغرب وفى نفس العام عقدت اتفاقية بين فرنسا وإسبانيا حددت فيها كل منهما مصالحها فى المغرب واعترفت فيها إسبانيا بمركز فرنسا فى المغرب كما اعترفت فرنسا بمركز إسبانيا فى منطقة الريف الساحلية . وقد تأيدت تلك الاتفاقية بمعاهدة تمت بين الدولتين فى ٢٧ نوفمبر عام ١٩١٢ .

فى ٢٧ نوفمبر عام ١٩١٢ اتفقت فرنسا وإسبانيا على منطقة نفوذ كل منهما وأن يقوم فى المنطقة الإسبانية خليفة يعينه سلطان المغرب فى الوقت الذى يخضع فيه لرقابة المندوب السامى الإسبانى وأن يتمتع الخليفة فى المنطقة الإسبانية – التى سميت بالمنطقة الخليفية – باختصاصات الولاية العامة التى من شأنها أن تخول له الحق فى ممارسة الحقوق التى يتمتع بها سلطان المغرب كما نصت الاتفاقية أيضاً على ضرورة تعاون كل من فرنسا وإسبانيا وتشاورهما قبل اتخاذ أى إجراء من شأنه المساس بالنظام السياسى المتفق عليه فى المغرب .

وبذلك تفتتت مراكش لثلاث مناطق تخضع لثلاثة نظم مختلفة وهى :

١ – منطقة النفوذ الفرنسى .

٢ – منطقة النفوذ الإسبانى فى الريف .

٣ – منطقة طنجة الدولية .

وواصل الإسبان فتوحاتهم حتى استولوا على بعض الجزر الواقعة غرب إفريقيا . وحين وحد الملك فيليب الإسبانى عرش إسبانيا والبرتغال زادت قوتهما ولكن هولندا تفوقت عليهما وتمكنت من الوصول إلى البحار الشرقية والشواطئ الهندية عن طريق رأس الرجاء الصالح . ذلك أن الهولنديين تمكنوا من تأسيس « شركة الهند الشرقية الهولندية » وقامت تلك الشركة بتأسيس محطة لها عند رأس الرجاء الصالح إلا أن نجم الاستعمار الهولندى ما لبث أن اختفى حين تعرض له الإنجليز منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر . واستولت إنجلترا على منطقة الرأس عام ١٧٩٥ ، ثم حصلت عليها هولندة مرة ثانية بمقتضى معاهدة إفيان عام ١٨٠٢ ولكن إنجلترا استعادتها من جديد عام ١٨٠٦ .

وبدأت كل من إنجلترا وفرنسا تظهران على مسرح الأحداث فى إفريقيا حتى نجحتا فى السيطرة على معظم البلاد الإفريقية ثم سرعان ما دب التنافس بينهما من أجل السيطرة والاستغلال للدول الإفريقية . ولم تقف أطماع الاستعمار عند حد معين بل امتدت بشكل لا مثيل له فى التاريخ .

وحين انتهت الحروب الطاحنة التى كانت تدور فى أمريكا الشمالية بين إنجلترا وفرنسا عقد صلح باريس عام ١٧٦٣ وكان هذا الصلح إيذاناً ببدء حركة استعمارية جديدة تجتاح القارة الإفريقية .

ولما قامت الثورة الصناعية بأوربا اندفعت الدول الأوربية إلى السيطرة على مناطق خارج أراضيها سواء كانت زراعية أم صناعية أم معدنية وكانت الدول الإفريقية هى الضحية التى تقاسموها وفق اتفاقات تعقد بينهم .

ونتيجة لذلك اشتد التنافس الاستعمارى وتعقد الموقف بين الدول

الأوربية المتنافسة فلجأت الدول الاستعمارية إلى أدنأ الوسائل وأحط الأساليب وأشد ألوان الاستعباد كما ضربت أسوأ مثل فى التعصب العنصرى ضد الشعوب الملونة فتاجرت فى أهلها واعتبرتهم سلعاً تباع وتشترى وتسومهم سوء العذاب وتحرمهم الحياة الحرة الكريمة .

ولقد كان مؤتمر برلين[١] عام ١٨٨٤ بمثابة المرآة التى انعكست عليها نفسية أوربا تجاه القارة الإفريقية إذا اعتبرت إفريقية لقمة سائغة وأرضاً لا مالك لها تحتلها من تشاء من دول أوربا الاستعمارية .

ولم تأت الحرب العالمية الأولى حتى كانت إفريقيا كلها فريسة الأطماع الاستعمارية تتقاسمها الدول الأوربية (فرنسا — إنجلترا — ألمانيا — بلجيكا — البرتغال — إيطاليا — إسبانيا) .

وكان تقسيم القارة بين هذه الدول الاستعمارية بهذا الشكل :

الدولة المستعمرة	مساحة الأرض المستعمرة	عدد السكان
فرنسا	٤,٢٠٠,٠٠٠ ميل مربع	٢٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة
إنجلترا	٣,٣٠٠,٠٠٠ » »	٣٥,٠٠٠,٠٠٠ »
ألمانيا	١,٢٠٠,٠٠٠ » »	١٢,٠٠٠,٠٠٠ »
بلجيكا	٩٠٠,٠٠٠ » »	٧,٠٠٠,٠٠٠ »
البرتغال	٨٠٠,٠٠٠ » »	٨,٠٠٠,٠٠٠ »
إيطاليا	٦٠٠,٠٠٠ » »	١,٠٠٠,٠٠٠ »
إسبانيا	٧٥,٠٠٠ » »	٢٠٠,٠٠٠ »

معنى ذلك أن جملة الأراضى الإفريقية الخاضعة للاستعمار فى ذلك الوقت قد بلغت ١١,٠٧٥ مليون ميل مربع فى حين أن مساحة القارة لا تتعدى ١٢ مليون ميل مربع .

---

(١) عقد مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ لبحث مسألة الكنغو .

« الدكتور زاهر رياض — الاستعمار الأوربى لأفريقيا فى العصر الحديث »

إفريقيا بعد الحرب العالمية الثانية

كانت الفترة التى تفصل بين الحربين العالميتين الأولى والثانية بمثابة مرحلة التكوين والتشكيل للقومية الإفريقية . وهذا يرجع إلى أن الإفريقيين حين دخلوا فى نطاق الثورة الصناعية كانوا مجبرين على إحداث تغيير جذرى فى حياتهم فتغيرت حياة الإنسان الإفريقى نفسه وبدأ يفتح عينيه ليرى من حوله الاستعمار ومؤامراته الهادفة إلى تقسيم القارة الإفريقية لمناطق نفوذ تمهيداً لتحويلها إلى مستعمرات محتلة ومناطق استغلال . وتأمل الإفريقى فى سلوك الاستعمار نفسه داخل القارة ومحاولاته فى إيجاد التفرقة والتفكك بين أفراد البلد الواحد فخلق الأحزاب والطوائف التى تتصارع وتتنافس . ويقف الاستعمار من وراء ذلك كله راضياً سعيداً .

وهذا التغيير فى حياة الإفريقيين كانت نتيجته أن تغير شكل القارة من الصورة البشعة التى أورثها إياها الاستعمار إلى صورة حية نابضة بحركات التحرر والوعى تتمشى مع التطور وروح العصر .

ولقد تنبأ زعيم الهند الراحل نهرو فى إحدى رسالاته لابنته بهذا التغيير الحتمى لخريطة إفريقيا السياسية فقال : « إن الزمن يتغير ويتغير بسرعة أيضاً فى إفريقيا . التى ستؤدى دوراً عظيماً فى المستقبل » .

وتجمعت لدى الإفريقيين فرص كثيرة اتصلوا خلالها بمختلف شعوب العالم فى ميادين القتال وتعلموا منها الكثير والكثير وامتلأت أذهانهم بأفكار جديدة ذات قوة وفاعلية . وحين انتهت الحرب العالمية الثانية أصبحت فكرة القومية الإفريقية حقيقة واقعة يؤمن بها كل الأحرار والوطنيين من أبناء القارة . وظهرت واضحة جلية أمام أعين المستعمرين .

ومن أهم الأسباب التى كان لها الفضل فى ظهورها :

١ ــ شعور أهالى إفريقيا الأصليين بالاضطهاد والاستغلال .

٢ ــ اشتراك الإفريقيين فى الحروب جنباً إلى جنب مع قوات الحلفاء ضد بلاد المحور واتساع مداركهم نتيجة لهذه الحروب .

٣ ــ ظهور طبقة مثقفة من الزعماء الإفريقيين الذين كرسوا جهودهم من أجل تدعيم القومية الإفريقية والمناداة بتحررها من كل قيد . وقد اتجهت أغلب دراساتهم حول القضايا الإفريقية وطرق حلها . وهذا ما فعله جومو كينياتا الذى تتلمذ فى جامعة لندن على الدكتور مالينوفسكى أستاذ « الأنثروبولوجيا » فقد قدم رسالة الدكتوراه عن قبيلته الكيكويو وأشرف عليها الأستاذ الدكتور مالينوفسكى ونشرت لأول مرة عام ١٩٣٨ [1] وقد كتب الأستاذ مقدمة هذه الرسالة جاء فيها « إنها من الكتب التى يمكن اعتبارها ــ بحق ــ إضافات بناءة أصيلة « للأثنوجرافيا » الإفريقية كتبها باحث من أصل إفريقى نقى » . وقد أعيد طبع هذا الكتاب عام ١٩٥٣ .

٤ ــ عدم تنفيذ الحلفاء لوعودهم للإفريقيين التى قطعوها على أنفسهم أثناء الحروب .

٥ ــ انعقاد مؤتمر سان فرنسسكو فى الخامس والعشرين من شهر يونية عام ١٩٤٥ . وقد وقع فيه مندوبو ٥٠ دولة على ميثاق الأمم المتحدة والذى نص على مبدأ حق تقرير المصير للشعوب .

إزاء كل هذه الأسباب أدرك الإفريقيون بالفعل أن وضعهم غير طبيعى وهم يريدون تغييره .

إن يوماً براقاً يشرق على إفريقيا ومن الآن نرى أغلالها قد تحطمت

---

(١) قضية كينيا ــ للدكتور عبد العزيز كامل ص ٩ .

وأصبحت سهولها حمراء بالمحاصيل . وبلاد إثيوبيا قد أصبحت مقرًّا للعلم والدين تعكس مجد شمسها المشرقة من منائر كنائسها وجامعاتها . إن إفريقيا المكتظة بالسكان مشغولة بالأعمال وأبناءها جميعهم يعملون من أجل تقدم القارة تقدم السلام فيها وهو أكبر وأسمى من مساوئ الحروب.

إن بعث إفريقيا ينتمى إلى هذا الزمن الجديد الرائع . وعندما نستخدم لفظ « بعث » فإنما نعنى الدخول فى حياة جديدة تلمس مراحل وجود أسمى وأكثر تعقيداً .

إن العامل الأساسى الذى يضمن البعث كامن فى يقظة الضمير الخاص بجنسهم . وهذا هو ما يعطيهم إحساساً واضحاً باحتياجاتهم الأولية وبقواهم التى لم تنم بعد .

لذلك فإن من شأن هذا كله أن يقودهم إلى تحقيق مستوى للمعيشة أعلى وأكثر تقدماً .

إن البعث الإفريقى وإن لم يكن جنساً متشابهاً تماماً – يتميز مع ذلك بشعور واحد مشترك يتجلى فى كل مكان ويتبلور فى فكرة واحدة تتوسطه فإن الخلافات والمنازعات سرعان ما تتلاشى أمام القوة النافذة لهذا الضمير الواعى بحقيقة العلاقات التى تربط بين القبائل والتى يجب أن تظل قائمة لدى شعب يربطه مصير واحد .

إن أدوات هذا التقدم الاجتماعى والاقتصادى والدينى تبصرنا بنفاذ فكر جديد يعمل وكأنه نوع من الغليان الذى يجب أن يرفع الجموع المتحمسة إلى مستوى مجد أجدادها . إن عظمة ما فات ، والعبقرية الفذة ، وقدرة بعث الجنس وكذلك المثابرة والتمشى مع سنة التطور وروح العصر كلها أمور تحقق استمرار إفريقيا وتتضمن أكبر منابع إلهامها .

إن هذا الجنس أبى أن يظل إلى الأبد على حافة العالم الصناعى وتعلم الآن أن المعرفة هى القوة، وهو يعمل لتهيئة المعرفة لأبنائه؛ والبعث الإفريقى يعنى فى حد ذاته أن حضارة جديدة وفريدة على وشك أن تضاف إلى حضارات العالم ، فالإفريقى ليس مبتدئاً فى مجال العلوم والفنون فهو يستطيع تمجيد نفسه بخلقات لا حدود لقيمتها . وكلها من صنع عبقريته الخاصة .

وظهرت قوة الحركة الوطنية لتترجم واقعاً سياسيا ناضجاً تعبر عن وجوده وفاعليته منظمات سياسية تطالب بأهداف ومبادئ محددة هى التحرر الكامل من أوضاع ونظم الاستعمار . واستندت تلك المنظمات إلى إقامة حكومات وطنية مستقلة مسئولة تمثل الوطنيين الإفريقيين وتعتمد هذه المنظمات على الإرادة الإفريقية الحرة .

ويعتبر عام ١٩٤٩ بداية التغيير فى إفريقيا إذ يقترن هذا العام بظهور زعماء إفريقيين مروا بتجارب قاسية أمام الرى العام العالمى لم يمر بها من قبل زعماء الدول الأوربية .

ميلاد الزعامة الإفريقية

استطاع بعض القادة الإفريقيين أن يفلتوا من القيود الشديدة التى فرضها عليهم الاستعمار فى أوطانهم . من أجل العلم والمعرفة والتحقوا بالجامعات الغربية فى أوربا وأمريكا وبرزوا فى العلم وحققوا نتائج رائعة وتشبعوا بمبادئ الحرية والمساواة ، كما تشربوا بالروح القومية فى الوقت الذى يعرفون فيه ويحسون تماماً بما أصاب أوطانهم من تمزق وتأخر فى كل مجال .

ومن هؤلاء الزعماء البارزين الرئيس أحمد سيكوتورى الذى كان ثائراً على الاستعمار ولم يكن عمره قد تعدى الخامسة عشر عاماً . ظل سيكوتورى يتدرج فى المناصب حتى صار أقوى زعيم لنقابات عمال غينيا عام ١٩٤٥ ثم رئيساً لدولة غينيا .

والدكتور قوامى نكروما الذى حطم قيود الاستعمار البريطانى ورحل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٥ لدراسة الاقتصاد واللاهوت . وصاحب مؤلفات عديدة عن إفريقيا والتى أهمها وأشهرها « إفريقيا الجديدة » وحين عاد لبلاده مزوداً بالعلم والإيمان بحق غانا فى الحرية والاستقلال . وحين واجه الاستعمار بهذه الحقيقة حكمت عليه بريطانيا عام ١٩٥٠ بالسجن ثلاث سنوات ولم تكن نتيجة ذلك العمل التعسفى من جانب الاستعمار إلا ازدياد شعلة الكفاح الوطنى فى نفس نيكروما وأتباعه أعضاء حزب المؤتمر الشعبى . ولما فاز هذا الحزب فى الانتخابات عام ١٩٥١ اضطر البريطانيون إلى إطلاق سراحه ليصبح رئيساً للوزارة . وقد أطلق الشعب الغانى على نكروما اسم (أساجيفو) أى المنقذ .

ومن الزعماء أيضاً يوليوس نيريرى رئيس الجمهورية المتحدة لتنجانيقا وزنزبار « تنزانيا » فقد أتم تعليمه فى كلية ماكيريرى بأوغندة وهى الجامعة المركزية لدول شرق إفريقية ثم تمكن من السفر لبريطانيا عام ١٩٤٩ . لدراسة التاريخ والاقتصاد فى جامعة أدنبرة . ولما عاد لبلاده أخذ على عاتقة المضى فى طريق الكفاح حتى تنال تنجانيقا استقلالها . فتولى منصب رئيس حزب الاتحاد الوطنى الإفريقى لتنجانيقا (نانو) . وفى عام ١٩٥٨ فاز هذا الحزب فى انتخابات الجمعية التشريعية للبلاد وأصبح نيريرى رئيساً للوزارة ثم رئيساً للجمهورية عام ١٩٦٢ . وقد تم الاتحاد بين بلاده وزنزبار فى عام ١٩٦٤ بفضل جهوده الوطنية المثمرة وأصبح رئيساً للجمهورية المتحدة لتنجانيقا وزنزبار والتى تغير اسمها فيما بعد إلى (تنزانيا) .

ومن كلماته الوطنية : « إنه لن يكون هناك قوة استعمارية تحارب قوة أخرى من أجل التحكم فى إفريقيا لأنه سيكون أسلوباً ساذجاً لو نظرنا إليه فى إطار ستينات القرن الحالى » .

وقد كتب نيريرى عن إفريقيا الكثير ومن أهم الكتب فى هذا الشأن كتاب بعنوان « أسوار الديمقراطية » .

وحياة الدكتور نامدى أزيكيو هى الترجمة الصحيحة لأروع مثل فى البطولة والتضحية من أجل العلم والاستقلال فقد أرسله والده لأمريكا عام ١٩٢٥ لإتمام دراسته الجامعية ولم تكن معه نقود كافية لتحقيق ذلك . فاضطر نامدى أزيكيو إلى ممارسة الكثير من الأعمال الإضافية التى تدر عليه أموالاً تكفى نفقات دراسته ومن هذه الأعمال احترافه للملاكمة فى ولاية بنسلفانيا . وقد اشتهر أزيكيو كبطل عظيم فى الملاكمة فارتفعت روحه المعنوية وتضاعف حماسه للعلم وتنوعت أغراضه العلمية حتى إنه لم يأت عام ١٩٣٤ حتى نال أزيكيو أربع درجات علمية منها

الدكتوراه فى القانون والدكتوراه فى الأدب . وعاد أزيكيو إلى نيجيريا الوطن الأم ليقودها إلى طريق الحرية والاستقلال ، فعمل صحفيا ثم قاد بعد ذلك الحركة القومية التى أطلق عليها حركة « زيك » .

وظل أزيكيو يترقى فى مناصب أدبية ممتازة حتى أصبح أول نيجيرى يرأس الوزارة فى الإقليم الغربى فى أكتوبر عام ١٩٥٤ .

وفى نوفمبر عام ١٩٦٠ أصبح نامدى أزيكيو رئيساً لجمهورية نيجيريا .

أما الزعيم فيلكس هوفوه بونيه زعيم ساحل العاج فإنه علاوة على كونه مفكراً كبيراً يتميز بالأصالة والقوة . فقد أثبت قدرته كمفكر إفريقى أصيل وكبطل خاض المعارك بثبات وعزم وإيمان لا تزعزعه ألاعيب وتهديدات الاستعمار .

كان بونيه نقيباً للأطباء وفى عام ١٩٤٦ أسس النقابة الفلاحية الإفريقية والتى تحولت فيما بعد إلى (التجمع الديمقراطى الإفريقى

وفى عام ١٩٥٦ شكل بونيه الوزارة ثم أصبح رئيساً لجمهورية ساحل العاج عام ١٩٦٠ .

ومن كلماته المشهورة أمام اللجنة الرابعة للأمم المتحدة عام ١٩٥٧ :

« إننا نحن زعماء إفريقيا مهما اختلفت أفكارنا السياسية فإننا نرغب فى أن نتعاون مع جميع الدول تعاوناً أخويا مبنيا على أساس المساواة المطلقة فى الحقوق والواجبات » .

وهناك شخصية إفريقية أخرى عاشت فى خضم الكفاح المقدس أكثر من خمسين عاماً هى شخصية البطل الإفريقى الأصيل جومو كينياتا . فقد تعلم فى لندن ونال درجة الدكتوراه فى كلية الاقتصاد وكان موضوع رسالته فيها بحثاً قدمه عن قبيلته (الكيكويو) .

تزعم كينياتا حركة الما ماو عام ١٩٥١ وأرهب الاستعمار البريطانى

فى كينيا فحكمت عليه بريطانيا بالسجن سبع سنوات ونفته فى منطقة صحراء كينيا الشمالية ورغم ذلك ازداد إيمان الشعب الكينى بزعيمه وقائده كينياتا . فاختاره الشعب وهو المنفى رئيساً لحزب «كانوا» المشهور بحزب الاتحاد الوطنى الإفريقى . ثم رئيساً لبلاده بعد أن حقق لها الاستقلال التام فى ديسمبر سنة ١٩٦٣ وفى أكتوبر عام ١٩٦٤ كان كينياتا أول رئيس لجمهورية كينيا .

إن هذه الشخصيات الإفريقية العظيمة هى التى تساعدنا على فهم الظروف الإفريقية الجديدة فالبطل أو الزعيم هو القوة المحركة الكبرى التى تدفع بالأمة إلى الأمام وهو الذى يستوعب خصائص بلده وشعبه ثم يقدمها له بعد أن يكسبها شخصيته وفاعليته الفردية .

لقد أسلمت ملايين الشعب الإفريقى قيادتها للزعماء الجدد ليخرجوها من ظلمات الفقر والجهل والمرض ، وقد رأينا أن من هذه الشخصيات الشاعر والفيلسوف والطبيب والمدرس والعامل . كما رأينا أيضاً كيف أثبت هؤلاء الزعماء جدارتهم فى كل مجال . فى مجال الدبلوماسية . وفى مجال التخطيط الاقتصادى والوعى الاجتماعى .

وهناك خاصية هامة تميز هؤلاء الزعماء الإفريقيين عن غيرهم من زعماء العالم وهى أنهم يتمتعون بشعبية ضخمة فى بلادهم وبين مواطنيهم .

لقد تمت الثورة الإفريقية فى كل مكان بإفريقيا وتحققت دون أن تراق نقطة من دماء مما جعلنا نعتبرها أكبر ثورة سلمية فى العالم وإن اشتراك ٢٨ دولة فى مؤتمر القاهرة لدول عدم الانحياز الذى انعقد فى الخامس من أكتوبر عام ١٩٦٤ لدليل أكيد على سلمية الثورات الإفريقية وسلامة أهدافها . وإن مسئولية حوادث العنف التى وقعت فى إفريقيا الوسطى — تشاد — رواندا — يورندى وما زالت تقع حتى يومنا هذا فإن الاستعمار مسئول عنها مسئولية كاملة .

وأثناء افتتاح معهد الدراسات الإفريقية بغانا فى أكتوبر عام ١٩٦٣ ألقى الرئيس نكروما خطاباً وطنيا قال فيه: «إن ضخامة التغييرات الجارية الآن فى إفريقيا دليل إيجابى على مدى ما نحتاجه لإعادة بنائنا الاجتماعى وعلى جامعاتنا واجب إمدادنا بالقوة والفاعلية اللازمين للمحافظة على إعادة هذا البناء. إن قارتنا بعد سنين من الكفاح السياسى المر لاستعادة حريتنا واستقلالنا تنطلق من براثن الاستعمار وعسف الإمبراطوريات.

ويمكن استعادة شخصية الإفريقى التى أعجزها الكفاح من بين هؤلاء الأبطال إذاقمنا بمحاولة لاستعادة عظمة إفريقيا القديمة. ويمكن لنا ذلك فى حدود الحرية الكاملة والاستقلال من حكم الأجنبى وتدخله بشكل يحقق آمال شعبنا ويتيح للعبقرية الإفريقية أن تعبر عن نفسها بأجلى بيان».

ثورة ٢٣ يوليو ونمو الحركات الاستقلالية

فى الوقت الذى قامت فيه ثورة يوليو المجيدة بمصر عام ١٩٥٢ لم يكن فى القارة الإفريقية سوى أربع دول مستقلة وهى : (ليبيريا — مصر — إثيوبيا — ليبيا) وبقية الدول الإفريقية واقعة تحت السيطرة الاستعمارية .

وتعتبر دولة ليبيريا أقدم دولة إفريقيا مستقلة . فقد نشأت هذه الدولة عام ١٨٢٣ واعترف العالم باستقلالها عام ١٨٢٧ . كما أن هذه الدولة كانت ضمن الدول المؤسسة للأمم المتحدة عام ١٩٤٥ .

أما مصر فتعتبر شبه مستقلة منذ أن أصدرت بريطانيا تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ . ولا شك أن هذا التصريح من جانب بريطانيا كان لعبة استعمارية الغرض منها تأمين مصالحها فى مصر .

لذلك لا نستطيع أن نسمى هذا الاستقلال استقلالا بالمعنى الصحيح . ولكن الاستقلال الكامل والصحيح قد تم بالفعل بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ . فقد استطاعت الثورة بقيادة الرئيس جمال عبد الناصر أن تقود شعب مصر إلى خير الطرق وأسلمها ووقعت اتفاقية الجلاء فى التاسع عشر من شهر أكتوبر عام ١٩٥٤ .

وكان الاستعمار الإيطالى فى إثيوبيا ما يزال يسعى لتثبيت أقدامه رغم مقاومة الأحباش . وظلت إثيوبيا خاضعة لإيطاليا منذ عام ١٩٣٥ حتى منتصف مايو عام ١٩٤١ حين قام القائد العام الإيطالى بتسليم الحاميات الإيطالية للأحباش وتكون اتحاد فيدرالى من إثيوبيا وأرتريا تحت إدارة الحكومة الإثيوبية فى ٢ ديسمبر عام ١٩٥٠ وذلك أثناء انعقاد الدورة الخامسة للأمم المتحدة . وقد قبلت بالفعل فى عضوية

الأمم المتحدة بعد أن وافق جميع الأعضاء على هذا الاتحاد وأقروا دستوره .

وتعتبر المملكة الليبية آخر دولة إفريقية نالت استقلالها قبل قيام الثورة فى مصر . ولم يكن هذا الاستقلال وليد يوم وليلة . فحين تنازلت تركيا لإيطاليا عن طرابلس لم يسلم الشعب الإفريقى وقاوم الإيطاليين بعنف وشدة بقيادة الزعيم عمر المختار . وظلت حركة المقاومة مستمرة ضد الإيطاليين مما دعا الإيطاليين إلى القبض على الزعيم عمر المختار وإعدامه . فزاد ذلك الثورة اشتعالاً وتضخمت حركة المقاومة ضد الإيطاليين حتى أرغمت إيطاليا على التسلم وأعلنت استقلال ليبيا عام ١٩٤٦ . وفى ذلك الوقت كانت جامعة الدول العربية قد شكلت وخرجت لحيز الوجود وبدأت بالفعل فى تحقيق غاياتها . فوقفت بجانب الشعب الليبى وتعاونت مع الأمم المتحدة فى سبيل نيل ليبيا الاستقلال التام والانضمام لعضويتها . ولذلك فإن ليبيا تعتبر أول دولة تحصل على استقلالها عن طريق الأمم المتحدة فى الرابع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٩٥١ .

وانفجرت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ بمصر وأعلن قائدها : « إننا نعمل من أجل مساندة كل دعوة استقلالية تحررية . . . إننا نعمل من أجل تحرير إفريقيا وتخليصها من سيطرة الاستعمار والسيطرة الأجنبية» .

ووقفت مصر بالفعل خلف كل شعب يناضل الاستعمار فى أى مكان . وحين عقد مؤتمر القمة الإفريقى الثانى بالقاهرة عام ١٩٦٤ قال الدكتور نكروما :

« ليس من مجرد الصدفة أن نلتقى فى مؤتمرنا الثانى فى مصر . إن المؤرخين يذكرون لنا أن مصر قامت منذ خمسة آلاف عام ويذكر

هيرودوت أن مصر هبة النيل . ومن الواضح أنه لو عاش هيرودوت إلى الآن وأسعده الحظ بمقابلة الرئيس جمال عبد الناصر . ومشاهدة إتمام المرحلة الأولى من بناء السد العالى بأسوان لاختلف حكمه اختلافاً جذريا . وسواء أكان هيرودوت محقا أم لا فهناك حقيقة تاريخية رئيسية ذات أثر واضح فى اجتماعنا هنا . . .

ولذلك أومن بأن مصر التى كانت مهد حضارة العالم سوف تهيئ جواً ملائماً لخلاص قارتنا الإفريقية . ومن هنا ، فى هذه المدينة التى تمثل مجد إفريقيا وقوتها فى الماضى ، سوف تشهد مولد أكثر آمالنا سمواً وعظمة — وهى حكومة اتحاد إفريقيا » .

ويؤكد هذه الحقيقة ما قاله الدكتور باندا فى المؤتمر من أن زعيم مصر الحديثة جمال عبد الناصر قد علمهم كيف يقفون فى وجه القوى الكبرى وينتصرون عليها .

ونهجت مصر مبادئ معينة لتحقيق أهداف سيادتها فى القارة الإفريقية وهى :

١ — الاهتمام بالدعاية لكونها من أقوى الأسلحة فى المعركة التى تخوضها إفريقيا ضد الاستعمار ، فسارعت بتطوير الإذاعة وتقوية محطات الإرسال لتغطى جميع أنحاء القارة الإفريقية باللغات المختلفة واللهجات المتباينة للأهالى كما وجهت اهتماماً عظيماً للسينما أخطر أسلحة الدعاية فاهتمت باختيار موضوعات الأفلام ومضاعفة إنتاج الأفلام الدعائية والثقافية وبرزت الصحافة فى هذا العصر لتحشد قواها من أجل تأييد القضايا الإفريقية والوقوف إلى جانب الإفريقيين فى كفاحهم ضد الاستعمار .

٢ — الإسراع إلى إنشاء البعثات التمثيلية فى إفريقيا الجديدة وتزويد رجال السلك الدبلوماسى بالثقافة اللازمة والعناية باختيارهم من العناصر

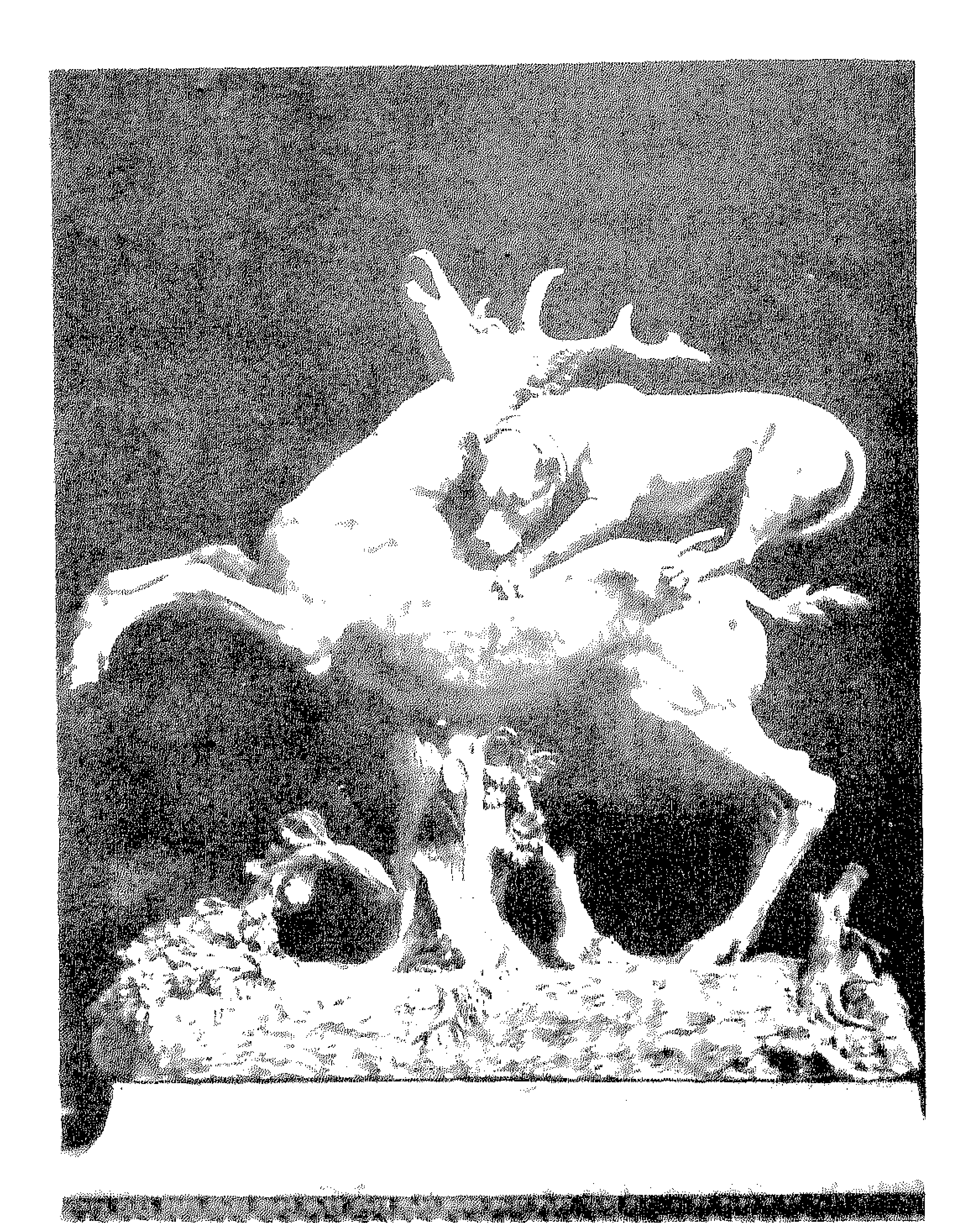
الممتازة ليكونوا على استعداد لتنفيذ السياسة الإفريقية لها .

وهناك نواح نشاط أخرى اهتمت بها الجمهورية العربية المتحدة فى سبيل تقوية الدعاية كالبعثات والدعوة إلى الاجتماعات وعقد المؤتمرات المختلفة من أجل التشاور الجماعى والتعاون فى الفكر والعمل . واهتمت الجمهورية العربية المتحدة أيضاً بتطوير الدراسة بمعهد الدراسات الإفريقية ووجهت كل تأييدها لجميع حركات التحرر الإفريقى فأيدت كفاح الشعب المغربى ضد الاستعمار الفرنسى وساعدته بكل متطلبات الكفاح المادية والفكرية حتى انتصرت إرادة الشعب فى المغرب وحققت لنفسها الاستقلال التام عام ١٩٥٥ ووقفت بجانب تونس فى أزمتها مع الاستعمار حتى انقشعت غيومه وتمتعت تونس بالاستقلال والسيادة .

وحين قامت ثورة الجزائر فى نوفمبر عام ١٩٥٤ لقيت من الشعب العربى الإفريقى فى مصر كل عون وتأييد مادى وفكرى . ذلك أن الحكومة فى مصر أعلنت منذ اللحظة الأولى لقيام الثورة الجزائرية أنها ستساعد ثورة الجزائر وستقف بجانبها حتى تنتصر وتحقق للجزائر الاستقلال التام غير المشروط . وقد ظلت ثورة الجزائر سبع سنين طوال ، ولم تهدأ روح الكفاح فى نفوس أبنائها الثائرين بل كانت تزيد يوماً بعد يوم حتى قدمت الجزائر أثناءها مليون شهيد ضحية الاستقلال الذى حققوه . ولهذا تسمى الجزائر ببلد المليون شهيد . ولم تجد فرنسا مفراً من التسليم للجزائر باستقلالها وأعلنت ذلك فى الثالث من يوليو سنة ١٩٦٢ بعد أن ظلت ١٣٢ عاماً تقاوم الكفاح والثورات المستمرة من جانب الشعب الجزائرى .

ولا شك أن انتصار الحرية فى الجزائر يعتبر بحق انتصاراً لإرادة الشعب الإفريقى .

ولم يعد خافياً اليوم أنه من بين الأسباب التى حملت إنجلترا وفرنسا



(الوعل والكلب الحارس) - تمثال قديم - متحف الفاتيكان - روما .



(ثعلب والقطة) للفنان فرانز سيندرز – متحف برادو – مدريد .

على عدوانهم الثلاثى الفاشل على مصر هو وقوف مصر بجانب حركات التحرر الوطنى الإفريقى. كما كانت الدولتان تستهدفان ضرب قاعدة النضال والحركات التحررية فى القارة .

وفى غانا وصل الدكتور نكروما إلى مكان الزعامة عام ١٩٥١ وأصبح القائد السياسى لحركة التحرر الإفريقى فى غانا . وتولى نكروما زعامة هذا الحزب الذى واصل كفاحه وانتصاراته الفكرية من أجل الاستقلال ، وظلت حركة البعث الغانى تتضاعف يوماً بعد يوم . ووقفت مصر بجانب غانا تؤيدها فى ضرورة تحقيق مطالبها فى الاستقلال . ونالت غانا استقلالها فى السادس من شهر مارس ١٩٥٧ وانضمت لركب التحرر الإفريقى لمناصرة الدول التى ما زالت تعانى سيطرة الاستعمار عليها . وبمجرد أن تولى نكروما رئاسة الدولة فى غانا قاد حركة البعث وخرجت من النطاق المحلى فى غانا إلى النطاق الإفريقى والعالمى فانضمت إلى الأمم المتحدة فى الثامن من مارس من نفس العام .

وفى غينيا قام الزعيم أحمد سيكوتورى بجهود موفقة فى سبيل قضية بلاده . فقد كان ثائراً على الاستعمار ولم يكن عمره قد تعدى الخامسة عشر عاماً . وظل وعيه ينمو ويتزايد حيناً بعد حين حتى تولى منصب زعيم فرع الاتحاد العام للعمال ثم تولى عملية الإشراف التام على الجمعية الغينية عام ١٩٥٧ وكون اتحاداً نقابياً إفريقياً بعيداً عن التأثيرات الاستعمارية . وحين عرضت مذكرة سبتمبر عام ١٩٥٨ فاز سيكوتورى بتأييد ٩٥٪ من الأصوات لمطالبته لغينيا بالاستقلال وللتصميم القوى الذى أعلنه حتى تنال غينيا استقلالها . وتحقق لغينيا الاستقلال بالفعل فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٩ .

وتطلع سيكوتورى إلى انتصار الشعب فى الجمهورية العربية المتحدة مرتين الأولى وفيها وقعت اتفاقية الجلاء النهائى بينها وبين بريطانيا

عام ١٩٥٤ . والثانية انتصار قواتها على قوات العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ . ووجد أن هذين الانتصارين قد قويا من مركز الجمهورية العربية فى المجال الدولى وكسبت عطف الرأى العام العالمى . وبعد كل هذا تطلع سيكوتورى إلى ثورة ٢٣ يوليو كاملة وبدأ ينهج ما نهجه قادة الثورة فى الجمهورية العربية من إصلاحات عديدة فى مجال السياسة الداخلية بتطبيق التجربة الاشتراكية ضماناً لتكافؤ الفرص . وفى مجال السياسة الخارجية باتباع سياسة الحياد الإيجابى وعدم الانحياز والعمل على نجاح منظمة الوحدة الإفريقية كقوة دافعة إلى السلام . واشتركت غينيا بالفعل فى مؤتمرى دول عدم الانحياز (بلجراد عام ١٩٦١ والقاهرة عام ١٩٦٤) .

وهذه الكلمة قالها سيكوتورى فى إحدى مؤلفاته عن تجربة الثورة فى غينيا فقال :

« إن الثورة فى غينيا اليوم تسير قدماً إلى الأمام مدفوعة بوحدة الشعب وإرادته للتقدم ولكنا نلاحظ أيضاً تطوراً ثورياً فى إفريقيا بجملتها ، ذلك أن حركات التحرير الوطنى تزداد قوة وفاعلية بفضل تماسكها الداخلى وتضامنها المتبادل . إن الكفاح للقضاء على الاستعمار فى كل بلد من بلاد العالم . كل ذلك يمثل عوامل لقيام تفاهم عالمى بين المجتمعات الإنسانية . وفى هذا الإطار من التقدم العام ، لا يحق لأى شعب أن يقصر اهتمامه بتطوره وحده . إننا فى مرحلة من التطور الإنسانى حيث لم يعد من المستحسن التفكير فى تطور المجتمع فى إطار من الانطواء الذاتى القومى » .

ولا شك أن هذه الكلمة تؤكد لنا اتساع نظرة الرئيس الغينى لتشمل كل ما يدور بإفريقيا من صراع مستمر من أجل الاستقلال وأكد أن الكفاح الجماعى هو السبيل الوحيد لخلاص إفريقيا من

الاستعمار . وتحقيق وحدتها . فقواعد الوحدة فى نظره يجب أن تحبذ وتدعم مبادئ عامة مقبولة وهى المساواة بين جميع الدول الإفريقية والتضامن الأخوى فى علاقاتها .

ويلى ذلك عام ١٩٦٠ . وهذا العام يتميز بكثرة الدول الإفريقية التى نالت استقلالها حتى إن كثيراً من المعلقين الدبلوماسيين أطلقوا عليه « عام إفريقيا » ففيه تغيرت الخريطة السياسية لإفريقيا تغييراً أساسياً فى الشكل والجوهر وطبيعى يرجع هذا التغيير إلى تراكم سلسلة طويلة من التغييرات الكثيرة التى اعترت حياة المجتمعات الإفريقية . وهناك أسباب هامة أدت لحدوث هذا التغيير أهمها :

١ — أثار الحربين العالميتين الأولى والثانية واشتراك أكبر مجموعة من أبناء إفريقيا فيهما . مما جعلهم يكتسبون المعارف والخبرات عن بلادهم وعن الأوضاع الاستعمارية فيها .

٢ — ما عرفه الإفريقيون عن شروط الرئيس ولسن وظهور عصبة الأمم وتصريح الأطلنطى والحريات الأربع ثم ميثاق هيئة الأمم المتحدة .

٣ — التقسيم السياسى الموجود بالقارة وتشتت الجماعات والأجزاء فى كيانات استعمارية وما قام به الاستعمار من فرض ثقافته الخاصة ونظامه السياسى والاقتصادى فى هذه الكيانات الاستعمارية .

٤ — تقدم وانتشار سبل المواصلات الحديثة بين أجزاء القارة وبين القارة والعالم الخارجى أدى إلى إحداث ثورة ضخمة فى أفكار المجتمعات الإفريقية نفسها ونقل أفكار جديدة إليهم واطلاعهم على أشياء جديدة لم يروها من قبل .

٥ — ظهور قوى سياسية أخرى على المسرح السياسى الدولى كالدول الاشتراكية والدول حديثة الاستقلال فى القارة الآسيوية والشرق الأوسط واستطاعت بتوحيد جهودها كشف أساليب الدول الغربية الاستعمارية

وتقديم مساعداتها للمستعمرات الإفريقية .

فكل هذه الأسباب كامنة فى نفوس الإفريقيين انفجروا على أثرها مطالبين بحريتهم فى بلادهم والتسليم باستقلالهم .

وفى أول يناير عام ١٩٦٠ نالت الكميرون استقلالها وفى أبريل من نفس العام استقلت توجولاند وأعلنت جمهورية مستقلة . وفى شهر يونيو استقلت مدغشقر والسنغال وأصبحت كل منهما جمهورية مستقلة . أما الصومال فكانت تحت وصاية الأمم المتحدة تدير إيطاليا الجزء الجنوبى وبريطانيا الجزء الشمالى وتمشياً مع سياسة الاستقلال التى عمت القارة والتى تميز بها ذلك العام عن غيره من الأعوام السابقة واللاحقة نالت الصومال استقلالها كاملا وأنشئت جمهورية الصومال بعيدة عن القيادات الاستعمارية المعادية فى أول يوليو عام ١٩٦٠ .

ويتميز شهر أغسطس من نفس العام بكثرة عدد الدول الإفريقية التى نالت استقلالها إذ بلغ عددها ثمانية دول كانت خاضعة للاستعمار الفرنسى هى :

(جمهورية الكنغو الفرنسى — جمهورية داهومى — مالى — السنغال — جمهورية النيجر — فولتا العليا — ساحل العاج — تشاد — جابون — وسط إفريقيا) .

هذا بالإضافة إلى جمهورية موريتانية الإسلامية التى أعلنت فى نفس الشهر . هذا وقد انضمت هذه الدول عدا موريتانيا إلى المجموعة الفرنفسية فور إعلان استقلالها وكانت تنجانيقا تحت الانتداب البريطانى منذ انتهاء الانتدب الألمانى عليها بعد الحرب العالمية الأولى . ونالت تنجانيقا استقلالها فى ٩ ديسمبر عام ١٩٦١ .

ولقد قال الرئيس جمال عبد الناصر فى مؤتمر القمة بالدار البيضاء (٤ / ٧ / ١٩٦١) : إذا كان العام الذى مضى عام ١٩٦٠ عام أعياد

الاستقلال في إفريقيا فإن هذا العام الذى بدأناه عام ١٩٦١ يجب أن يكون عام حماية الاستقلال ودعم تعاوننا الإفريقى حتى لا نكتفى من الاستقلال بالعيد وإنهاء الاستعمار في نفس يوم العيد على أيدى القوى الوطنية بفضل نضالها هذه السنين الطويلة. إن ما تصورناه عيداً للانتصار كان في واقع الأمر يوم الخطر الأكبر ».

وفى عام ١٩٦١ استقلت سيراليون عن بريطانيا وانضمت على الفور إلى الكومنولث البريطانى . وفى عام ١٩٦٢ استقلت أوغندة عن بريطانيا ورواندا أوراندى عن بلجيكا . أما عام ١٩٦٣ فقد حصلت فيه زنزبار على استقلالها عن بريطانيا . وكانت كينيا ما زالت تابعة للنفوذ البريطانى وكفاحها من أجل الاستعمار قد توج بأقدس معانى البطولة والتضحية حتى حققت لنفسها الاستقلال عام ١٩٦٣ وفى ٢٦ أبريل عام ١٩٦٤ اتحدت زنزبار وتنجانيقا . ثم يأتى عام ١٩٦٤ ليشهد موكب التحرر الإفريقى وقد نمى وتضاعف وزاد جهوده من أجل تدعيم استقلال القارة ودولها التى استقلت والتى مما زالت تناضل من أجل الاستقلال فاستقلت ملاوى وكانت تسمى نياسالاند ثم استقلت زامبيا أيضاً وانضمتا للجمعية العامة للأمم المتحدة . ليصبح عدد الدول المشتركة فيها ٣٣ دولة إفريقية . أى ما يقرب من $\frac{1}{3}$ الدول الأعضاء المشتركة فيها . ومما يعزز جهود هذا العدد الضخم فى سبيل خدمة وإقرار السلام العالمى أن هذا العدد العظيم قد أيد كويزون ساكس مندوب غانا فى الأمم المتحدة كمرشح لإفريقيا لرئاسة الجمعية العامة للأمم المتحدة فى دورتها التاسعة عشر .

وهذه هى المرة الأولى التى تحصل فيها إفريقيا على منصة الرئاسة؛ فمما لا شك فيه أن موازين العدالة السياسية قد أصبحت تميل الآن ميلا ظاهراً لصالح الدول النامية فى الأمم المتحدة واختيار السيد/ ساكس مندوب غانا رئيساً لدورة الأمم المتحدة التاسعة عشر يعنى انتصار منظمة

الوحدة الإفريقية فى أول جولة لها على الصعيد الدولى . وليست رئاسة الاجتماعات هى الهدف ولكن الهدف الحقيقى لإفريقيا هو أن تنتصر المبادئ التى تنادى بها . فجلوس رجل ملون على كرسى الرئاسة فى الأمم المتحدة يعتبر ولا شك بشارة من القدر بأن هذه المبادئ قد آن لها أن تنتصر وأن ترى النور واضحاً من أمامها .

وعلى الرغم من ازدياد الوعى الاستقلالى لدى الكثير من الدول فما زالت هناك ١٥ دولة إفريقية تعانى الاستعمار ومؤامراته وتغمرها روح التضحية والنضال من أجل استقلالها والتمتع بالحكم الذاتى . وهذه الدول هى الموضحة بالجدول الآتى :

رقم مسلسل	الدولة	المساحة بالكيلومتر المربع	السكان	الاستعمار وتاريخ دخوله
١	أنجولا	١٫٢٤٧,٠٠٠	٤,٥٥٠,٠٠٠	مستعمرة برتغالية منذ نهاية القرن التاسع عشر وتخوض الآن كفاحاً مريراً ضد الاستعمار البرتغالى .
٢	باسوتولاند	٣٠,٠٠٠	١٥٨,٠٠٠	محمية بريطانية منذ نهاية القرن التاسع عشر
٣	بتشوايالاند	٧١٢,٠٠٠	٣٣٧,٠٠٠	استولت عليها بريطانيا عام ١٨٨٥
٤	غينيا الأسبانية	٢٨,٠٠٠	٢١٦.٠٠٠	مستعمرة أسبانية منذ ١٨٦٠
٥	غينيا البرتغالية	٣٦,٠٠٠	٥٦٥,٠٠٠	مستعمرة برتغالية منذ القرن ١٨
٦	جزر الرأس الأخضر	٤,٠٠٠	١٩٢.٠٠٠	مستعمرة برتغالية منذ أواخر القرن الخامس عشر .
٧	منطقة إفنى	١,٥٠٠	٦٣,٠٠٠	تحت الحماية الأسبانية منذ عام ١٨٦٠.
٨	موريتوس	٢,٠٠٠	٦٣١,٠٠٠	مستعمرة بريطانية منذ عام ١٨٦٠

رقم مسلسل	الدولة	المساحة بالكيلومتر المربع	السكان	الاستعمار وتاريخ دخوله
٩	موزمبيق	٨٧٣,٠٠٠	٦,٢٣٤,٠٠٠	مستعمرة برتغالية منذ أواخر القرن التاسع عشر .
١٠	جزر القديس كومى وبرنسيب	١,٠٠٠	٦٢,٠٠٠	مستعمرة برتغالية منذ أواخر القرن التاسع عشر .
١١	الصحارى الأسبانية	٢٦٦,٠٠٠	١٣,٠٠٠	مستعمرة أسبانية منذ أواخر القرن التاسع عشر .
١٢	سوازيلاند	١٧,٠٠٠	٢٦٧,٠٠٠	محمية بريطانية منذ القرن ١٩،
١٣	سانت هيلانه	١٠٠	٥,٠٠٠	من الممتلكات البريطانية منذ عام ١٦٥٩
١٤	جزر سيشل	٤٠٠	٤٢,٠٠٠	استولت عليها بريطانيا عام ١٧٩٤ .
١٥	ريونيون	٢,٥٠٠	٣١٨,٠٠٠	استولت عليها فرنسا عام ١٦٤٣

ولا زالت هناك ثورات عارمة تجوب هذه البلاد الإفريقية من أجل تحقيق الاستقلال . ولا تزال البرتغال مصرة على أن تظل ممعنة فى استعمارها الدامى لدول موزمبيق وأنجولا وغينيا البرتغالية رغم كل القرارات التى صدرت ضدها من الهيئات المختلفة فى الأمم المتحدة . ورغم كل الثورات العالمية الناشبة ضدها فى جميع أنحاء العالم .

والسياسة الاستعمارية التى تنهجها البرتغال نابعة من عقيدة الدكتاتور سالازار وعصابته من أن الإفريقى ولد ليكون عبداً . ورغم كل الوسائل الإرهابية والإجرامية من جانب السلطات الاستعمارية . فقد قام الثوار الوطنيون فى نهاية أبريل عام ١٩٦٤ بثورات وطنية وهجوم مفاجئ لتدمير المزارع والقضاء على المستوطنين المنعزلين وامتد نشاط الثوار فى أنجولا الوسطى وهاجموا مدينة أمبريزة التى تبعد عن لواندا بمقدار ٨٧ ميلا ، وتضاعفت هجماتهم وأحالوا البلاد إلى بركان ثائر لعلمهم أن الوسائل السلمية لن تجدى مع البرتغاليين الاستعماريين . ومن ثم فلا سبيل لهم إلا الصراع المسلح والتكاتف من أجل طرد البرتغاليين من الوطن الإفريقى .

ومشكلة الكنغو ترجع إلى تاريخ حصوله على الاستقلال . ففى ٣٠ يونيو عام ١٩٦٠ انتزع شعب الكنغو استقلاله من أيدى الاستعمار رغم ما قاساه وما بذله من كفاح فى سبيل هذا الاستقلال وتدعيمه . وما كادت الكنغو تستقل حتى ظهر فى البلاد اتجاهان ووقعت البلاد فى فوضى حتى قتل الزعيم لومومبا ولا تزال قائمة على نطاق أضيق كالنار تحت الرماد إذ انقسمت البلاد وما زالت تعانى حتى اليوم من هذه المشكلة. هذا بالإضافة إلى مشكلة التنافس الدولى وهو أمر راجع إلى مركز الكنغو الاستراتيجى من جهة وما فيه من ثروات معدنية هائلة من جهة أخرى . وثار شعب الكنغو ونظم جهوده لتحقيق ثمانية مبادئ وضعها نصب أعينه وهى :

١ - تجديد السيادة الشعبية والسير مع القوى التقدمية للوصول إلى التغييرات التاريخية والتى تعتبر هدفاً رئيسياً للمجلس الوطنى للتحرير .

٢ - تثبيت الاستقلال الوطنى من جديد ، و إعادة الحرية والديمقراطية .

٣ - إرجاع الثروات الوطنية للشعب العامل صاحب السيادة .

٤ - إقامة حكومة وطنية ثورية شعبية .

٥ - المحافظة على وحدة الكنغو .

٦ - تنمية الاقتصاد الوطنى وضمان رفع مستوى معيشة الجماهير الكادحة والأخذ بنظام التخطيط .

٧ - الثقافة والعلم للجميع .

٨ - انتهاج سياسة خارجية تقوم على حتمية الوحدة الإفريقية والحياد الإيجابى ومكافحة الأمبريالية والاستعمار الجديد من أجل السلام بين كافة الشعوب .

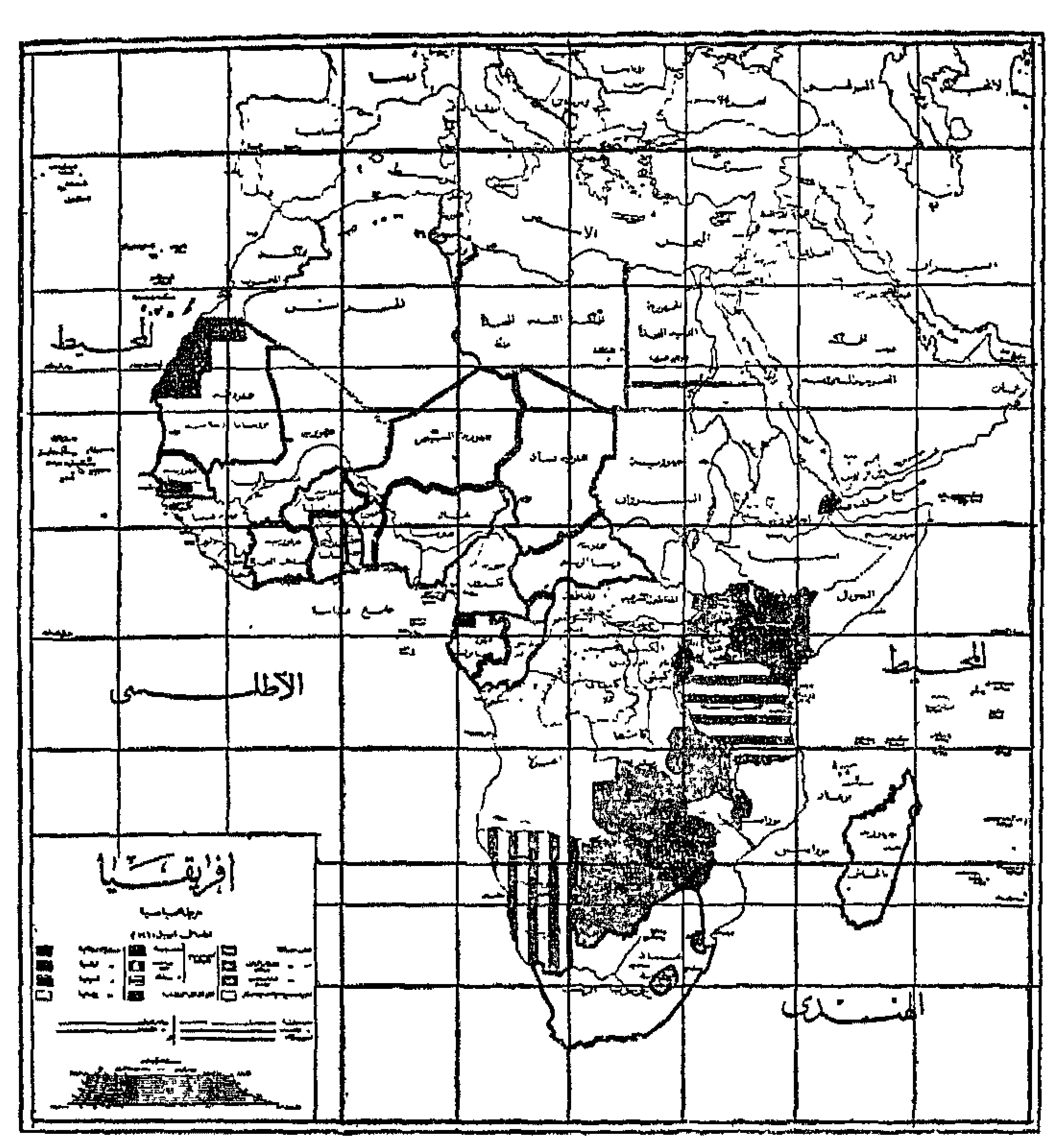
وفى الرابع والعشرين من نوفمبر عام ١٩٦٤ فوض تشومبى رئيس حكومة ليوبلدفيل حكومتى بلجيكا والولايات المتحدة رسمياً بالقيام بالعدوان المسلح ضد ثوار الكنغو . ولكن الثوار لعبوا دوراً إيجابياً فى مقاومة هذا الغزو المسلح من جانب السلطات الاستعمارية واختفوا فى أماكن مجهولة ليديروا عمليات المقاومة ولم تستطع السلطات الاستعمارية أن تقتل أو تأسر أى زعيم . وامتدت مجالات المقاومة حتى شملت البيوت والشوارع والميادين . هذا وقد أرسل توماس كانزا وزير خارجية حكومة الثوار ببرقية إلى أوثانت السكرتير العام للأمم المتحدة لعقد جلسة عاجلة لمجلس الأمن كما أبرقت جميع الدول الإفريقية إلى دياللو تيللى السكرتير العام لمنظمة الوحدة الإفريقية لجمع الصف الإفريقى ومواجهة العدوان بالطرق القانونية . وقد طلب الثوار الكونغوليون من الرئيس جمال عبد الناصر تأييدهم فى طلب مجلس الأمن للانعقاد . وطبيعى أن هذا الطلب من

الثوار للرئيس عبد الناصر يعتمد أساسا على أن ثورة ٢٣ يوليو بمصر وقائدها البطل عبد الناصر يوجهون الاهتمام المتزايد إلى كل حركة تحررية تجتاح القارة الإفريقية .

وفى مدينة نيروبى عاصمة كينيا عقدت اللجنة الإفريقية الخاصة ببحث مشكلة الكنغو اجتماعاً فى ٢٧ نوفمبر عام ١٩٦٤ والتى تتكون من تسع دول مهمتها إيجاد حل مناسب لهذه المشكلة . وهذه الدول أعضاء فى منظمة الوحدة الإفريقية وهى : (الجمهورية العربية المتحدة — إثيوبيا — غانا — نيجيريا — الكاميرون — فولتا العليا — تونس — الصومال) وكان الرئيس جومو كينياتا رئيس وزراء كينيا رئيساً للمؤتمر . ولقد كان من المقرر عقد هذا المؤتمر فى أول ديسمبر عام ١٩٦٤ إلا أن الرئيس كينياتا رئيس اللجنة المشكلة لهذا الغرض والمنبثقة عن دول منظمة الوحدة الإفريقية اتخذ قراراً بتقديم موعد الانعقاد بسبب زيادة خطورة الموقف . كما عقدت الدول الإفريقية المشتركة فى الوحدة الإفريقية اجتماعاً بقاعة الجمعية العامة للأمم المتحدة لنظر هذا الموضوع واتخاذ ما يلزم نحو إصدار القرارات التى تضمن للثوار الوطنيين حقوقهم كاملة فى الحرية والديمقراطية ومنع سفك الدماء الإفريقية على أرض أصحابها وطرد المستعمر الدخيل .

وفى جنوب إفريقيا يعيش عشرة ملايين إفريقى ومليون من الملونين ونصف مليون آسيوى وثلاثة ملايين من البيض . وبالرغم من كون البيض أقلية فإنهم يسيطرون تماماً على البلاد من كل النواحى الاقتصادية والسياسية فسياستهم تقوم على التميز العنصرى وعلى تجويع الإفريقيين وإذلالهم ومنعهم من حق التمثيل النيابى وقصره على البيض إلى غير ذلك من الوسائل الإجرامية التى لم تعد تناسب القرن العشرين .

والثوار الوطنيون يداومون على الثورات والإضرابات ضد هذه السياسة



خريطة سياسة للقارة الأفريقية حتى أبريل عام ١٩٦١

التعسفية وفى عام ١٩٥٧ قام ما يقرب من مائة ألف إفريقى بإضراب وقاطعوا شركة الأتوبيس مقاطعة جماعية وأخذوا يسيرون على الأقدام يومياً حتى لا يدفعوا للشركة مليماً واحداً . كما قام الإفريقيون بإضراب عام شل حركة البلاد احتجاجاً منهم على اتهام قادة النضال الوطنى فى جنوب إفريقيا بالخيانة العظمى .

ولقد بلغت جملة الإضرابات فى الفترة من ١٩٥٧ – ١٩٥٨ حوالى ١٧٣ إضراباً . ولا تزال حركات الإضراب تزداد شدة يوماً بعد يوم معتمدة على التأييد المادى والمعنوى من جانب الشعوب الآسيوية والإفريقية وعلى استنكار العالم لهذه التصرفات الجائرة التى تمتهن كرامة الإنسان وتؤذى شعوره .

وأثناء انعقاد مؤتمر القمة الإفريقى الأول فى أديس أبابا اجتمع الرئيس جمال عبد الناصر بجميع زعماء الحركات الوطنية فى موزمبيق وأنجولا وروديسيا الجنوبية وجنوب إفريقيا وغينيا البرتغالية . وأكد لهم ضرورة السير فى طريق الكفاح والنضال لتصبح إفريقيا حرة للإفريقيين .

ولقد قال روبرت ربشار الزعيم الوطنى فى جنوب إفريقيا :

« إن جميع الأحزاب الوطنية التى حضرت المؤتمر تقدر تقديراً عظيماً الدور الذى قامت به الجمهورية العربية المتحدة فى سبيل نجاح المؤتمر » .

المؤتمرات الإفريقية
أول خطوة على طريق الوحدة

تمثل المؤتمرات الإفريقية لوناً جديداً من الوعى الجماعى الذى انبثق على الأرض الإفريقية لينادى بالتعاون من أجل القضاء النهائى على الاستعمار وأعوانه . وليس هذا الوعى شيئاً جديداً فى حياة الإفريقيين .

فى عام ١٩٤٤ قامت ثلاث عشر منظمة طلابية وسياسية بتكوين الاتحاد الفيدرالى الإفريقى تحت زعامة المكتب الدولى للخدمات الإفريقية . وكان الزعيم جوموكينياتا من بين أعضائه . وكانت القضايا الإفريقية هى الشغل الشاغل لأعضاء هذا الاتحاد . فتعددت اجتماعاتهم وأصدروا القرارات التى تؤكد أن التفكير الجماعى والوحدة فى إفريقيا هما الطريق الوحيد لخلاص إفريقيا من الاستعمار وأذنابه .

وفى عام ١٩٤٤ قام الاتحاد الفيدرالى الإفريقى بعقد المؤتمر السادس فى مدينة مانشستر ببريطانيا وضم لأول مرة شباب إفريقيا أنفسهم . ويعد هذا المؤتمر نقطة الانطلاق الثورى العظيم فى حياة كينياتا ونكروما قد أفسح المجال أمام تطور أفكار الوحدة الإفريقية مما شجع هؤلاء الزعماء المجهولين على بذل التضحية من أجل قضايا بلادهم الوطنية وتهديدهم باستخدام العنف إذا ما أصر الاستعمار الغربى على الاستمرار فى استخدام أسلوب القوة فى حكم الجنس البشرى .

ولقد حضر هذا المؤتمر ٢٠٠ مندوب يمثلون مختلف التنظيمات السياسية فى العالم وتكونت لجنة دائمة لهذا المؤتمر وكان الزعيم نكروما سكرتيراً عاماً لها .

ثم أصبح نكروما سكرتيراً للجنة الخاصة بغرب إفريقيا وفى مارس عام ١٩٤٦ كان الزعيم نكروما قد تمكن من إصدار العدد الأول من مجلة (الإفريقى الجديد) تحت شعار (نحو الوحدة والاستقلال التام) وحشدها بالمقالات الوطنية التى تبين ضرورة الوحدة من أجل القضاء على الاستعمار . وفى الأعداد التى صدرت بعد ذلك تولى نكروما بنفسه شرح تفاصيل دخول الاستعمار لإفريقيا ودوره فى بذر بذور الشقاق بين دولها ليضمن لنفسه البقاء والسيادة والاستقلال .

وكان جوموكينياتا فى مدينة مانشستر يصدر مجلة أخرى تسير على نفس الطريق الذى تسير فيه مجلة (الإفريقى الجديد) .

وأدرك الإفريقيون أن وضعهم غير طبيعى ولا بد لهم من تغييره ليسيروا مع ركب التطور الذى يغزو العالم اليوم . وإن لم يكن الشعب الإفريقى جنساً متشابهاً تماماً فإنه يتميز بشعور واحد مشترك يتجلى فى كل مكان ويتبلور فى فكرة واحدة تتوسطه .

وهكذا ظل صوت الأحرار ينمو ويقوى يوماً بعد يوم حتى انفجرت ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ بمصر وأعلن قائدها :

« إننا لا نستطيع بحال من الأحوال حتى لو أردنا أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق إفريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الإفريقيين . لا نستطيع لسبب هام وبديهى هو أننا فى إفريقيا» .

نتيجة لما قامت به مصر تجاه الثورات التحررية فى مختلف بقاع إفريقيا . بدأت الشعوب الإفريقية تتطلع إلى مصر وإلى قائدها عبد الناصر . فالتقى الزعماء والتقت الشعوب فى المؤتمرات المختلفة لتقرر مصير الاستعمار فى إفريقيا . وضرورة الوحدة الشاملة حتى لا يكون هناك ثغرة ينفذ منها الاستعمار بألاعيبه ومؤامرته . وكان شعار هذه

المؤتمرات جميعها « يا شعوب إفريقيا اتحدوا فلن تفقدوا سوى أغلالكم » .
وأهم هذه المؤتمرات هي التي تمخضت عن قرارات إيجابية كان من شأنها تدعيم النضال الإفريقي وتقريب وجهات النظر المختلفة . ومنها :

١ — مؤتمر أكرا الأول :

انعقد هذا المؤتمر بمدينة أكرا عاصمة جمهورية غانا وذلك فى منتصف أبريل عام ١٩٥٨ بعد مضى عام على استقلال غانا .
وكانت شعارات هذا المؤتمر هي
١ — ارفعوا أيديكم عن إفريقيا .
٢ — ينبغي أن تكون إفريقيا حرة .
٣ — إفريقيا للإفريقيين .
وبلغ عدد الدول التى اشتركت فى هذا المؤتمر ثمانية هي :
(ليبيا — مراكش — السودان — تونس — مصر — الحبشة — غانا — ليبريا) .

وتباحث مندوبو هذه الدول فى كل ما يعزز العلاقات القائمة بينهم وتبادل الآراء لحماية استقلالهم . ولقد سيطرت روح باندونج على هذا المؤتمر فيما يختص بالسياسة الخارجية كما أنه أكد الشخصية الإفريقية فى المجال الدولى وفتح الطريق أمام الحركات التحررية والوحدوية التى تجتاح القارة الإفريقية .

والنقطة التى أغفلها هذا المؤتمر هي قضية فلسطين فكل ما أصدره بخصوصها لا يتعدى الرغبة فى العمل على إيجاد حل عادل للمشكلة . وربما أن ذلك يرجع إلى أن إسرائيل لم تكن قد ظهرت بما تبدوا عليه اليوم كأداة تسلل استعمارى فى إفريقيا .

٢ ـ مؤتمر الشعوب الإفريقية الأول :

فى ديسمبر عام ١٩٥٨ اجتمع أكثر من ٢٠٠ عضو يمثلون أكثر من ٥٠ حزباً سياسياً ونقابة وحركة طلابية من مختلف البلدان الإفريقية . وكان توم مبويا رئيس وفد كينيا فى المؤتمر رئيساً له . ولقد كان هذا المؤتمر إيذاناً بميلاد الرابطة الإفريقية الحقيقية على مستوى الشعوب . إذ تم فيه الاتفاق على التعاون والعمل معاً فى تضافر تام لتحرير إفريقيا والبعد بها عن الأحلاف العسكرية وجميع المنظمات الاستعمارية وضرورة مساعدة الدول المكافحة والتى لم تستقل بعد . كما أكد المؤتمر ضرورة القضاء على الحدود المصطنعة التى أوجدها الاستعمار هادفاً بذلك تقسيم القارة إلى مناطق نفوذ . ولتحقيق هذه الغاية الوطنية يجب إنشاء شبكة مواصلات موحد البلدان الإفريقية بعضها ببعض .

وهكذا كان طابع المؤتمر روح الاتحاد القائم على المبادئ والمثل العليا التى تسعى إلى تحقيق الهدف المشترك وهو استقلال دول القارة بأسرها . ولقد قال توم مبويا رئيس المؤتمر : «إن استقلال أى جزء من إفريقيا يعتبر ناقصاً ، ولا معنى له ، إلا إذا اقترن بالاستقلال الكامل لكل الأجزاء » .

٣ ـ مؤتمر ليوبلدفيل :

انعقد هذا المؤتمر بمدينة ليوبلدفيل فى الخامس والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٦٠ وضم ثلاث عشر دولة وافتتحه الزعيم الراحل باتريس لومومبا بخطاب سياسى هام شرح فيه أهمية الاستقلال لشعوب إفريقيا المناضلة وأهمية العمل الجاد بالنسبة للشعوب المستقلة لتحافظ على استقلالها من دسائس الاستعمار.

وقد أعد لومومبا برنامجاً يهدف إلى تدعيم كيان الكنغو خاصة وكيان إفريقيا عامة . وطالب الأعضاء المشتركين فى المؤتمر تبليغ رؤساء الدول التى ينتمون إليها ضرورة عقد اجتماع على مستوى الرؤساء لدراسة مشاكل القارة ووضع الخطوط العريضة للقضاء التام عليها .

٤ ــ مؤتمر الشعوب الإفريقية الثانى :

كان مقر هذا المؤتمر مدينة تونس فى الفترة من ٢٥ ــ ٣١ يناير عام ١٩٦٠ وكان عقد هذا المؤتمر يرجع إلى إحدى التوصيات التى كان المؤتمر الأول للشعوب الإفريقية بأكرا قد أصدرها عام ١٩٥٨ . وبحث هذا المؤتمر كل ما يتعلق بالقضايا الإفريقية والنهوض بمستوى التفاهم والوحدة بين الدول الإفريقية وتطوير الطرق والأساليب التى تمكن إفريقيا من التحرر من ربقة الاستعمار والعبودية وكذلك تطوير فكرة إنشاء مجتمع إفريقى واحد وذلك بتدعيم فكرة خلق ولايات متحدة إفريقية من أجل خدمة شعوب هذه القارة وحفظ السلام العالمى .

هذا وقد أصدر المؤتمر ١٤ قراراً تشمل القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وكلها تتبلور فى استقلال ووحدة إفريقيا كلها وبنائها الاقتصادى والاجتماعى من أجل السيادة الحقيقية لسكانها والصداقة والتعاون الأخوى مع جميع شعوب العالم .

٥ ــ مؤتمر الدار البيضاء :

عقد هذا المؤتمر بمدينة الدار البيضاء فى الفترة من ٤ ــ ٧ يناير سنة ١٩٦١ وحضره رؤساء الدول الإفريقية الآتية :

(الجمهورية العربية المتحدة ــ جمهورية غانا ــ جمهورية غينيا ــ

جمهورية مالى — جمهورية الجزائر المؤقتة — المملكة الليبية المتحدة — المملكة المغربية) وحضر مندوب عن سيلان . وكان هذا الاجتماع للأقطاب يشكل حدثاً تاريخياً بالغ الأهمية لكفاح كل الإفريقيين من أجل الاستقلال الحقيقى والسلام والتقدم والوحدة الإفريقية . إذ يعتبر المؤتمر تتويجاً للخطوات الكثيرة التى تمت فى الطريق الصحيح نحو آمال إفريقيا وأهدافها السلمية وفى هذا المعنى قال الرئيس جمال عبد الناصر :

«لقد كان مؤتمر الدار البيضاء بين عدد من الدول الإفريقية المستقلة أبرز هذه الخطوات على الطريق الصحيح» .

لقد كان اجتماع هذا المؤتمر رمزاً وتعبيراً عن إيمان القارة بوحدتها الطبيعية وبضرورة وحدة كفاحها تبعاً لذلك ، وبحتمية وحدة مصيرها فى نهاية الأمر .

وفى هذا المؤتمر التاريخى قدم الرئيس جمال عبد الناصر إلى أعضاء المؤتمر سبعة نقاط لحل مشاكل إفريقيا خاصة ومشاكل العالم عامة كان لها أعظم الأثر فى توجيه دفة هذا المؤتمر إلى النجاح وحصوله على التأييد الشامل من مختلف المنظمات والهيئات العالمية .

وانحصرت أهداف المؤتمر فى النقاط التالية :

١ — القضاء على النظام الاستعمارى بتحرير الأجزاء المستعمرة فى إفريقيا .

٢ — القضاء على التفرقة بجميع مظاهرها ونظمها .

٣ — القضاء على الاستغلال فى الأقطار الإفريقية المتحررة والعمل على الدفاع عنها .

٤ — الوحدة الإفريقية .

٥ — إقرار سياسة عدم التبعية فى الأقطار الإفريقية وضرورة الاشتراك فى مؤتمر الدول غير المنحازة ببلجراد .

٦ – إنهاء كل احتلال عسكرى فى إفريقيا .
٧ – معارضة كل تدخل من جانب الدول الاستعمارية فى الشئون الإفريقية .

وقد تمخض عن المؤتمر تأليف مجلس استشارى إفريقى يضم ممثلين عن كل الدول الإفريقية ويعقد جلسات دورية وأن يكون له مقر دائم . كما أقر المؤتمر تشكيل أربع لجان ومكتب اتصال لتنسيق بين هذه اللجان .

٦ – مؤتمر الشعوب الإفريقية الثالث :

عقد هذا المؤتمر بمدينة القاهرة فى الفترة من ٢٥ – ٣١ مارس ١٩٦١ وحضره أكثر من ٢٠٠ زعيم إفريقى يمثلون ٣٥ دولة إفريقية جاءوا معبرين عن ٦٧ منظمة سياسية وعمالية . وافتتحه الرئيس جمال عبد الناصر وألقى خطاباً سياسياً جامعاً عن مسئولية الشعوب الإفريقية وعلامات المستقبل فى حركة التحرير وأخطاء الماضى وكيف تستفيد منها الشعوب الإفريقية فى كفاح الحاضر والمستقبل ومن كلماته الخالدة :

« إن دول الاستعمار ، وحدتها مطامعها فى موقف واحد متساند مترابط ، أما نحن فإن الحق الذى نناصره لم ينجح فى أن يجمعنا على موقف واحد ، نصمد فيه ونعلم أن سلامة هذا الخط هى سلامتنا جميعاً وسلامة الحرية . . .

لا بد لى هنا أن أسجل أمامكم أن خطوات كثيرة قد تمت على الطريق الصحيح ، وأن هذه الخطوات تحمل من بواعث الأمل ما يملأ نفوسنا بالإيمان فى مستقبل النضال من أجل حرية القارة ووحدتها وتعميق شخصيتها المستقلة ، وتفجير طاقات شعوبها الخلاقة» .

وفى أغسطس عام ١٩٦١ بدأت اللجنة السياسية لدول ميثاق

الدار البيضاء اجتماعاتها بالقاهرة وقد حضر هذه الاجتماعات الرئيس جمال عبد الناصر والملك الحسن الثانى ملك المغرب والرئيس موديبو كيتا رئيس جمهورية مالى والسيد بن يوسف بن خده رئيس وزراء حكومة الجزائر المؤقتة ووزير خارجية غانا وغينيا نيابة عن الرئيسين نكروما وسيكوتورى .

وفى يونيو عام ١٩٦٢ اجتمع أقطاب دول ميثاق الدار البيضاء ثانية بالقاهرة واستمر الاجتماع من ١٥ – ١٧ يونيو واستعرض الأقطاب فى هذا الاجتماع البيان المشترك الذى أذيع فور انتهاء الاجتماعات الخاصة بلمشاكل الدولية والإفريقية .

وهكذا كان لقاء الأقطاب الإفريقيين فى يونيو عام ١٩٦٢ . بمثابة زاد جديد للنضال الإفريقى من أجل التحرر والوحدة الإفريقية ، فقد ساعد ذلك على نمو الوعى القومى فى إفريقيا .

وهذا يعنى أن الوحدة الإفريقية قد مرت فى صراعها القومى بمرحلتين هامتين .

الأولى : مرحلة الصراع الفكرى أو الدعوة الفكرية .

والثانية : مرحلة الصراع التطبيقى الخاصة ببناء الوحدة الإفريقية ولو استعرضنا صور التطبيق التى شهدتها القارة الإفريقية فى الطريق إلى الوحدة الإفريقية فسنجد أن أظهر التجارب التطبيقية للوحدة الإفريقية تمثلت فى ثلاث مجموعات تختلف كل منها عن الأخرى فمثلا كانت هناك مجموعة « برازفيل » التى تأسست فى ١٥ ديسمبر عام ١٩٦٠ بمدينة برازفيل . وقد تحولت هذه المجموعة إلى منظمة الاتحاد لإفريقى الملاجاشى فى ١١ سبتمبر عام ١٩٦١ بمدينة تاناريف عاصمة مدغشقر . وهذه المنظمة تضم اثنى عشر دولة إفريقية تنطق اللغة الفرنسية .

ومجموعة منظمة الدار البيضاء التى أنشئت فى يناير عام ١٩٦١ .

واشتركت فيها ست دول هي (غانا — غينيا — مالى — المغرب الجمهورية العربية المتحدة — الجزائر) وهذه المجموعة كانت توصف بأنها تمثل إفريقيا الثورية .

أما المجموعة الثالثة فهى مجموعة منروفيا نسبة إلى مدينة منروفيا التى انعقد فيها أول مؤتمر لهذه المجموعة فى مايو عام ١٩٦١ . وتتألف هذه المجموعة من الاثنى عشر دولة المكونة لمجموعة برازفيل ، ومن سبع دول إفريقية أخرى هى (نيجيريا — إثيوبيا — ليبريا — سيراليون — الصومال — توجو) .

وهكذا نجد أن القارة الإفريقية قبل عقد مؤتمر أديس أبابا فى مايو عام ١٩٦٣ كانت تتمثل فى الثلاث مجموعات السابقة وهى (مجموعة الدار البيضاء — ومجموعة برازفيل — ومجموعة منروفيا) .

وجدير بالذكر أن أشير إلى ما ذكرته جريدة الديلى تلغراف البريطانية فى عددها الصادر فى ١٤/٥/١٩٦٣ من أن الاجتماع القادم فى أديس أبابا يهدف إلى إيجاد صلة بين هذه المنظمات الإفريقية : ولكن فرص الاتفاق ضئيلة . إن الانقسامات بين الدول الإفريقية بعيدة الغور بحيث لن يتسنى التغلب عليها فى مؤتمر قمة واحد » .

هكذا زعم الغربيون . ولكن هل تحقق ذلك ؟

إن الذى تحقق بالفعل هو عكس ما كانوا يزعمون . لقد انعقد مؤتمر أديس أبابا فى موعده وتعانقت الدول الإفريقية واتفقت فى هذا المؤتمر على مبادئ مشتركة وأهداف مشتركة وخطط مشتركة من أجل الوحدة الإفريقية .

لقد عقد مؤتمر أديس أبابا فى الفترة من ٢٢—٢٥ مايو عام ١٩٦٣ واشتركت فيه الدول الآتية :

(الجزائر — بورندى — الكاميرون — جمهورية وسط إفريقيا —

تشاد — كونجو (برازفيل) — كونجو (ليوبلدفيل) — داهومى — إثيوبيا — جابون — غانا — غينيا — ساحل العاج — ليبريا — ليبيا — مدغشقر — مالى — موريتانيا — المغرب — النيجر — نيجيريا — رواندا — السنغال — سيراليون — الصومال — السودان — تنجانيقا — التوجو — تونس — أوغندة — الجمهورية العربية المتحدة) .

وقد افتتح الإمبراطور هيلاسلاسى جلسات المؤتمر بقوله : «إنكم لن تغادروا أديس أبابا إلا بعد أن تخلقوا منظمة واحدة للدول الإفريقية ، فإننا إذا نجحنا فى ذلك نكون عندئذ. وعندئذفقط قد بررنا وجودنا هنا » .

ولا شك أن هذا المؤتمر يعتبر نقطة تحول فى تاريخ القارة الإفريقية وهذا يرجع إلى أنه ضم جميع الزعماء حول مائدة واحدة ولمدة بضعة أيام اجتمعوا خلالها أكثر من عشر جلسات ولساعات طويلة . والأهم من ذلك لأول مرة فى تاريخ القارة الإفريقية بتقرر مصيرها وعمل دولها المشترك على أرض إفريقية وليس على موائد المؤتمرات فى لندن — باريس — برلين .

ولقد بحث المجتمعون فى هذا المؤتمر التاريخى العظيم سبع مسائل رئيسية هى :

١ — الوحدة الإفريقية .
٢ — تنمية التعاون بين الدول الإفريقية فى جميع الميادين .
٣ — القضاء على الاستعمار فى القارة .
٤ — القضاء على التفرقة العنصرية .
٥ — العمل على نزع السلاح .
٦ — إزالة القواعد العسكرية من كل دول القارة .
٧ — إقرار سياسة عدم التبعية واتباع سياسة عدم الانحياز .

منظمة الوحدة الأفريقية

حينما بدأت أعلام الاستعمار وحصونه تسقط من فوق البلدان الإفريقية . لم يستسلم الاستعمار لذلك . فلجأ إلى أن يغير من أسلوبه التقليدى فى التحكم والسيطرة على البلدان الإفريقية .

فحين فشل دستور الجمهورية الفرنسية الرابعة الذى كان يقضى بجعل المستعمرات التابعة لفرنسا أقاليم داخل إفريقيا سارعت فرنسا إلى لون جديد من ألوان الاستعمار وهو التبعية الاقتصادية أو الربط الاقتصادى . ذلك أن الأقاليم التى كانت خاضعة لها وحصلت على استقلالها وسيادتها الكاملة ربطتها من جديد باتفاقيات اقتصادية تضمن لفرنسا الكثير من الحقوق كما لو كانت مستعمرة .

وما يقال عن فرنسا يقال عن بريطانيا وغيرها من الدول الاستعمارية . ولكن الإفريقيين وعوا هذه الحقيقة ووقفوا على أسرارها وخباياها فتنبهوا إلى هذا اللون الجديد الذى يأتيهم مرة مباشراً عن طريق الدول الاستعمارية نفسها ومرة غير مباشر عن طريق إسرائيل أداة التسلل الاستعمارى وذلك من أجل تدمير استقلال الدول الإفريقية وهدم وحدتها .

ولذلك فقد قام الزعماء الإفريقيون مدفوعين بإرادة مشتركة لتوطيد التفاهم والتعاون فيما بينهم استجابة لآمال الشعوب الإفريقية ورغبة فى تدعيم الأخوة والتضامن فى نطاق موحد بتوقيع ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية ، فى الخامس والعشرين من مايو سنة ١٩٦٣ . ووقعها مندوبو : (الجزائر — بورندى — الكاميرون — جمهورية وسط إفريقيا — تشاد — كونجو برازفيل — كونجو ليوبلدفيل — داهومى — ليبريا — ليبيا —

مدغشقر — مالى — موريتانيا — المغرب — النيجر — نيجريا — راوندا — السنغال — سيراليون — الصومال — السودان — تنجانيقا — تونس — أوغندة — الجمهورية العربية المتحدة) .

وتتكون مواد الميثاق من ثلاثة وثلاثين مادة .

وكل مادة تشمل بنداً أو بندين أو ثلاثة . واتفق الجميع على أن تضم هذه المنظمة دول القارة الإفريقية ومدغشقر والجزر المجاورة للقارة . وأن يكون لكل دولة إفريقية مستقلة ذات سيادة الحق فى أن تصبح عضواً فى المنظمة وذلك بعد أن تخطر الأمين العام الإدارى للمنظمة برغبتها فى الانضمام لميثاق المنظمة . وفى هذه الحالة يقوم الأمين العام بإرسال نسخة من الطلب إلى جميع الدول الأعضاء وترسل كل دولة بعد ذلك رأيها إلى الأمين العام الإدارى .

وحين يتم وصول رد الدول الأعضاء كلها يتقرر قبول طلب العضوية حسب الأغلبية المطلقة للدول الأعضاء .. ويقوم الأمين العام الإدارى بعد ذلك بإخطار الدولة المعنية .

وقد أعلن أعضاء المنظمة ارتباطهم بسبعة مبادئ تأكيداً للوحدة والتعاون فيما بينهم وهى :

١ — المساواة فى السيادة بين جميع الدول الأعضاء .

٢ — عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأعضاء .

٣ — احترام سيادة كل دولة وسلامة أراضيها وحقها الثابت فى كيانها المستقل .

٤ — التسوية السلمية للمنازعات عن طريق التفاوض والوساطة والتوفيق أو التحكيم .

٥ — الاستنكار المطلق لأعمال الاغتيال السياسى فى جميع صوره

وكذلك ألوان النشاط الهدام التى تقوم بها الدول المجاورة أو أى دول أخرى .

٦ — التفاهم المطلق لقضية التحرير التام للأراضى الإفريقية التى لم تستقل بعد .

٧ — تأكيد سياسة عدم الانحياز تجاه جميع الكتل .

هذا وقد تم الاتفاق بين الدول الأعضاء فى المنظمة على أن يتم تحقيق أهداف ومبادئ المنظمة عن طريق أربعة فروع رئيسية هى :

أولاً : مؤتمر رؤساء الدول والحكومات :

ويعتبر هذا المؤتمر الجهاز الأعلى للمنظمة ويقوم وفقاً لأحكام الميثاق بمناقشة المسائل ذات الأهمية المشتركة لإفريقيا من أجل تنسيق السياسة العامة للمنظمة ويجتمع مرة كل عام . ولكل دولة عضو فى المنظمة صوت واحد وتصدر قرارات هذا المؤتمر بأغلبية ثلثى الأعضاء .

ثانياً : مجلس الوزراء :

يتألف هذا المجلس من وزراء الخارجية أو أى وزراء آخرين تعينهم حكومات الدول الأعضاء ويجتمع المجلس مرتين فى السنة . كما يجتمع فى دورات غير عادية بناء على طلب أية دولة عضو وموافقة ثلثى الأعضاء . وهذا المجلس مسئول أمام مؤتمر رؤساء الدول والحكومات ويعهد إليه بالأعمال التحضيرية لاجتماعات المؤتمر . وهو الذى يقوم بتنفيذ قرارات مؤتمر رؤساء الدول وتنسيق أوجه التعاون الإفريقى طبقاً لتوجيهات رؤساء الدول والحكومات ومؤتمر رؤساء الدول هو الذى يعين الأمين الإدارى للمنظمة ليقوم بإدارة شئونها . وقرارات هذا المجلس تصدر بالأغلبية المطلقة للأعضاء .

ثالثاً : الأمانة العامة :

يرأس الأمانة العامة أمين عام إدارى يختص بإدارة شئونها ويكون للأمانة العامة أيضاً أمين مساعد أو أكثر يعينهم مؤتمر رؤساء الدول والحكومات . كما يحدد مهامهم وشروط خدمتهم وفقاً للوائح الميثاق وعلى جميع موظفى الأمانة العامة أن يلتزموا الحياد تجاه الدول الأعضاء وأن يباشروا سلطاتهم دون التأثير من أى طرف .

رابعاً : لجنة الوساطة والتوفيق والتحكيم :

يتم تشكيل هذه اللجنة بمقتضى بروتوكول يوافق عليه مؤتمر رؤساء الدول والحكومات . ويعتبر هذا البرتوكول جزءاً لا يتجزأ من ميثاق المنظمة . ولهذه اللجنة عدة لجان أخرى فرعية يتم إنشاؤها بمقتضى قرار من مؤتمر رؤساء الدول والحكومات وأهمها :

(ا) لجنة اقتصادية واجتماعية .

(ب) لجنة للتربية والثقافة .

(ج) لجنة الصحة والرعاية الصحية والتنفيذية .

(د) لجنة الدفاع .

(هـ) لجنة علمية وفنية للأبحاث .

كما يقضى البرتوكول أن يكون أعضاء هذه اللجان الفرعية من الوزراء المتخصصين أو من ينوب عنهم .

وتحتفظ حكومة إثيوبيا بالوثيقة الأصلية للمنظمة . ووفقاً لأحكام المادة ١٠٢ من ميثاق الأمم المتحدة، يسجل ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية بعد التصديق عليه لدى سكرتارية الأمم المتحدة عن طريق حكومة إثيوبيا .

وقد قرر الأعضاء أنه يجوز تعديل هذا الميثاق إذا تقدمت أى دولة عضو بطلب كتابى يتضمن الغرض المقصود إلى الأمين العام الإدارى وتخطر الدول الأعضاء بذلك ولها حق بحث الموضوع فى بحر عام من تاريخ تقديمه .

الوحدة الإفريقية
بين
الفكر والعمل

منذ أن وقعت الشعوب الإفريقية ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية فى الخامس والعشرين من شهر مايو عام ١٩٦٣ . ونظرات الحقد والكراهية والمؤامرات الاستعمارية تحاول النيل من هذا الميثاق لتوهن العزيمة الإفريقية وتفكك قواها وشعوبها .

إنها المرة الأولى التى تتحد فيها شعوب القارة من أجل تقدمها . وتتجمع حكوماتها للعمل داخل إطار ميثاق محدد واضح من أجل الحرية السياسية والاقتصادية لشعوب القارة ومن أجل تقدمها العلمى والثقافى ومن أجل القضاء نهائياً على الجيوب الاستعمارية التى ما زالت تقبع فى أنجولا وموزمبيق وغينيا البرتغالية وجنوب غربى إفريقيا وإتحاد جنوب إفريقيا وباسوتولاند وبتشوانالاند وغينيا الإسبانية وسوازيلاند . وكذلك من أجل طرد بقايا النفوذ الاستعمارى المتجسمة فى الشركات الأوربية الاحتكارية ورءوس الأموال الأجنبية المستغلة لخيرات البلاد ومصادر الثروة فيها .

ولقد أثبتت جميع الأحداث السياسية التى مرت بها القارة بعد توقيع الميثاق قوة العمل بالميثاق والتمسك بأهدافه ونصوصه وتخطيه لجميع الحواجز الاستعمارية والقضاء التام على المناورات الاستعمارية .

وقد كانت هناك انفجارات سياسية حدثت على الحدود بين الدول الإفريقية (المغرب والجزائر — الصومال وإثيوبيا — والصومال وكينيا) . بالإضافة إلى الاضطرابات التى شهدتها منطقة شرق إفريقيا فى كل من تنجانيقا وكينيا وأوغندة . كل ذلك قد زال نهائياً من سماء القارة

الإفريقية بفضل روح الميثاق ومنظمة الوحدة الإفريقية التى جعلت للميثاق الفضل الأكبر فى تهدئة الخواطر والتخفيف من حدة المشاكل حتى لا يكون هناك منفذ للدول الاستعمارية .وتعيد سيطرتها من جديد على القارة الإفريقية .

ولذلك فقد شهدت القارة منذ توقيع الميثاق اجتماعات متوالية للجان الفنية والاقتصادية والعلمية والدفاع والصحة والتغذية والمواصلات والتربية والثقافة والخبراء القانونيين

وفيما يلى سنرى أهم الاجتماعات واتجاهاتها نحو الوحدة وكيفية التطبيق العملى لنصوص ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية .

١ ـــ مؤتمر داكار :

عقد هذا المؤتمر فى الثانى من شهر أغسطس عام ١٩٦٣ بمدينة داكار عاصمة السنغال . واشترك فيه ٣٢ وزيراً من وزراء خارجية الدول الإفريقية المستقلة . وقد تناول هذا المؤتمر دراسة المشاكل والقضايا السياسية وكيفية حلها بالطرق السلمية لصالح استقلال الدول وتجنبها نفوذ الاستعمار ومؤامراته . كما بحث المؤتمر أيضاً الشئون الإدارية الخاصة بمنظمة الوحدة الإفريقية وقد انبثقت عن هذا المؤتمر لجنتان .

الأولى : لعلاج المشاكل الخارجية والمشاكل الخاصة بالاستعمار.

والثانية : لعلاج المشاكل الداخلية الناجمة عن سلوك المستعمر ، وكانت دولة أوغندة رئيسة لهذا المؤتمر وترجع أهمية هذا المؤتمر إلى أنه :

١ ـــ عقد فى قت انعقاد مجلس الأمن لنظر شكوى الدول الإفريقية ضد البرتغال وجنوب إفريقيا . لذلك فقد احتلت القضيتان المكان الأول فى أعمال المؤتمر .

٢ — انعقد المؤتمر فى وقت توقيع معاهدة وقف التجارب النووية بين الاتحاد السوفييتى وأمريكا وبريطانيا . وشعوب القارة الإفريقية لا تبغى سوى المحبة والسلام ووقف الحروب .

٣ — انعقد المؤتمر قبل افتتاح دورة الجمعية العامة للأمم المتحدة الثامنة عشر وقد ناشد الزعيم أحمد بن بيلا زعماء القارة الإفريقية فى رسالته الخاصة للمؤتمر بضرورة حضورهم جميعاً دورة الأمم المتحدة لتكثر الدول الإفريقية عدداً ورأياً فى هذه القاعة العالمية .

وقد كان جدول أعمال هذا المؤتمر حافلا بالموضوعات الهامة التى تخص إفريقيا والإفريقيين ومن أهمها :

١ — ضرورة تمثيل إفريقيا فى مجلس الأمن والمجلس الاقتصادى والاجتماعى وأجهزة التخصص التابعة للأمم المتحدة على أساس مبادئ المساواة بين الدول الأعضاء والتوزيع الجغرافى العادل الذى يتناسب وميثاق الأمم المتحدة .

٢ — دراسة التقارير المقدمة من رئيس المجموعة الإفريقية فى الأمم المتحدة .

٣ — إنهاء الصفة السياسية للمجموعات الإقليمية الإفريقية كالاتحاد الإفريقى الملاجاشى .وجعله مقصوراً على النواحى الاقتصادية والفنية ويسير فى إطار ما تقرر المنظمة ولجانها الفنية . تمشياً مع متطلبات خطوات تنفيذ الوحدة الكاملة والشاملة .

٤ — دراسة تقرير لجنة التنسيق الخاصة بحركات التحرير الإفريقية .

هذا وقد دارت فى هذا المؤتمر مناقشات عديدة حول القضايا الإفريقية وضرورة الإسراع فى حلها بما يحفظ لإفريقيا حقها الكامل فى السيادة والاستقلال .

وأنهى المؤتمر جلساته وأصدر قرارات اتسمت بالفاعلية والإيجابية ومن أهمها :

١ ـ دعوة رؤساء الدول الإفريقية وحكوماتها لحضور دورة الأمم المتحدة الثامنة عشر من أجل المطالبة الجماعية بإنهاء الاستعمار فى إفريقيا والقضاء نهائياً على سياسة التفرقة العنصرية .

٢ ـ التأييد الرسمى لحركة التحرير الوطنى بأنجولا والتى يتزعمها هولدن روبرتو والدعوة إلى تأييده والاعتراف بحكومته التى شكلها فى مدينة ليوبلدفيل وضرورة تقديم المساعدات المادية والمعنوية لحركته .

٣ ـ دعوة جميع الدول إلى المساهمة فى الصندوق الخاص بتحرير إفريقيا .

٤ ـ مطالبة جميع أعضاء المجموعة الإفريقية بالأمم المتحدة لبذل أقصى الجهد للحصول على أحسن الشروط التى بمقتضاها تمثل إفريقيا تمثيلا عادلا عن طريق الميثاق وإعادة توزيع المقاعد الحالية والمستجدة .

لجنة الدفاع الأفريقية

تعتبر هذه اللجنة إحدى اللجان المنبثقة عن منظمة الوحدة الإفريقية . وقد اجتمعت هذه اللجنة فى مدينة أكرا عاصمة غانا فى شهر أكتوبر عام ١٩٦٣ وذلك ليبحث عدة موضوعات تتعلق بشئون الدفاع وتقوية الجيوش الإفريقية ومن أهم الموضوعات التى اهتمت بها لجنة الدفاع الإفريقية :

١ ـ بحث مشاكل الدفاع الإفريقية المشتركة .

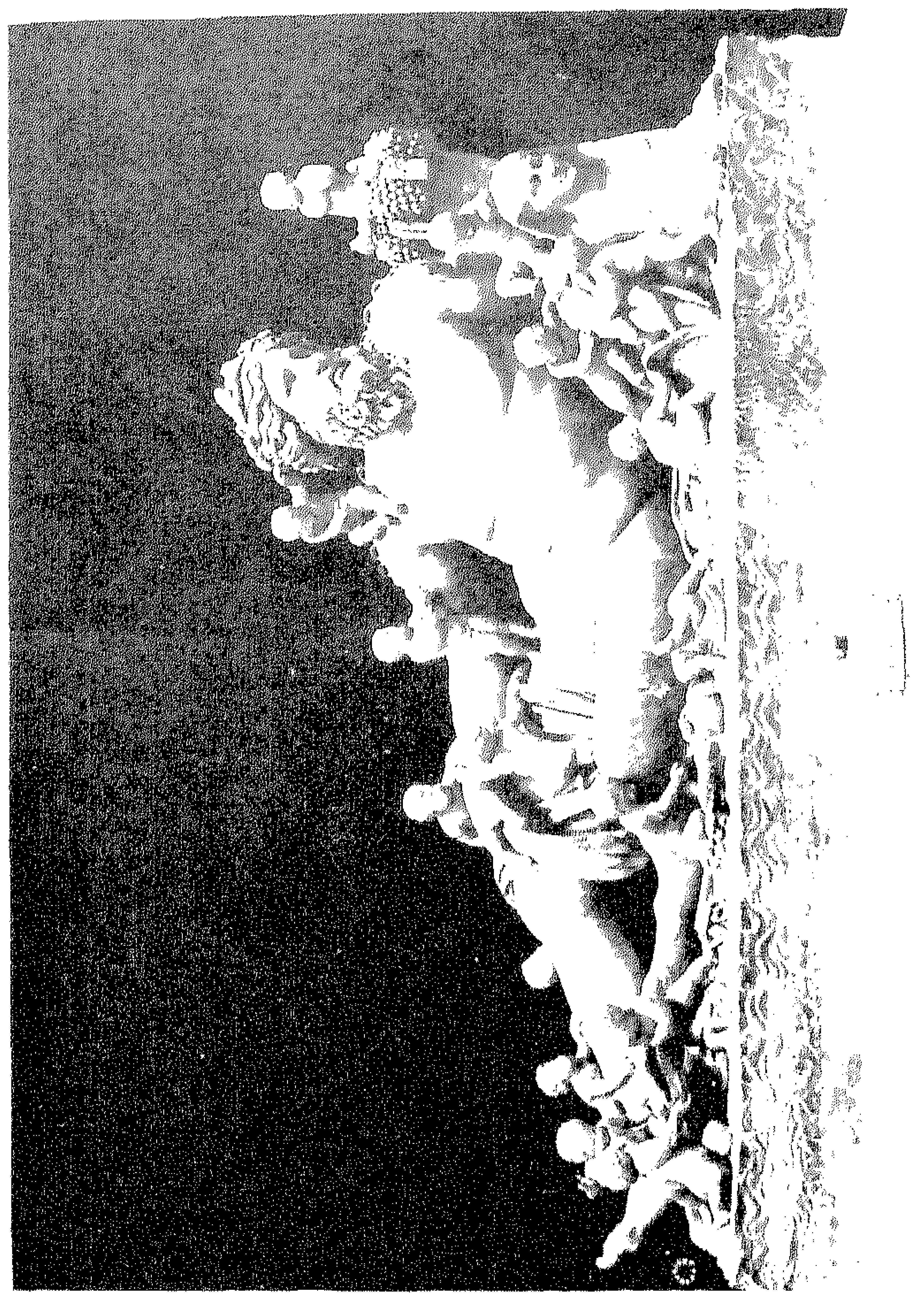
٢ ـ بحث الشئون الدفاعية بين الدول الإفريقية .

٣ ـ بحث الاقتراحات التى تدعو إلى إنشاء قوة إفريقية متحدة .

٤ ـ دراسة المسائل التى تحال إلى اللجنة من هيئة رؤساء الدول



(الصيد) للفنان بول دى فو — متحف برادو — مدريد .



(النيل) – تمثال – متحف الفاتيكان – روما .

الإفريقية الأعضاء أو من مجلس وزراء المنظمة .

ونظراً لأن هذه الأمور كلها تتسم بالصبغة العسكرية فقد أحيطت قراراتها بالسرية التامة .

مؤتمر باماكو الرباعى :

اجتمع وزراء خارجية دول منظمة الوحدة الإفريقية فى نوفمبر عام ١٩٦٣ فى أديس أبابا لبحث انفجار النزاع المسلح على الحدود المغربية الجزائرية وظل المؤتمر منعقداً أربعة أيام وافق خلالها على تشكيل لجنة تحكيم من سبع دول هى :

(ساحل العاج — إثيوبيا — مالى — نيجريا — السنغال — السودان — تنجانيقا) وذلك لدراسة وسائل وأسباب هذا النزاع وتقديم تقرير بنتائج أبحاثها إلى اجتماع لاحق يعقده وزراء خارجية الدول الإفريقية .

وقد أوصى المؤتمر بضرورة دعوة الطرفين المعنيين إلى الامتناع عن أى إجراء قد يعرقل نشاط اللجنة فى أداء مهمتها . وتألفت لجنة رباعية مشتركة للإشراف على تنفيذ وقف إطلاق النار وأحيل الموضوع إلى مؤتمر وزراء الخارجية لدراسة إمكانية الوصول إلى حل سلمى فى نوفمبر عام ١٩٦٣ .

ولا شك أن انحصار هذه المشكلة داخل حدود القارة الإفريقية يعتبر نصراً عزيزاً لميثاق المنظمة فلولاه لانتقلت إلى الأمم المتحدة ولعبت فيها الأيدى الاستعمارية .

اللجنة الاقتصادية :

تعتبر اللجنة الاقتصادية إحدى اللجان الهامة المنبثقة عن منظمة الوحدة الإفريقية وهى الخاصة بالتنسيق والتعاون الاقتصادى بما فى ذلك النقل والمواصلات . وقد اجتمعت هذه اللجنة فى شهر ديسمبر عام ١٩٦٣

بمدينة نيامى عاصمة النيجر ومن أهم أغراض هذه اللجنة :

١ ــ بحث علاقة واشتراك دول القارة الإفريقية بمنظمة السوق الأوربية المشتركة . فهناك ١٦ دولة إفريقية ترتبط بالسوق الأوربية وفى الوقت نفسه أعضاء فى منظمة الوحدة الإفريقية .

٢ ــ بحث وسائل تنظيم وتنسيق خطط التنمية والنقل والمواصلات والطيران والتشريعات العمالية فى القارة الإفريقية .

٣ ــ تنظيم النقد بين الدول الإفريقية ووسائل تشجيع التجارة وتخفيض الرسوم الجمركية بينها وضرورة وضع تعريفة جمركية موحدة .

وبالنسبة للغرض الأول نجد أن الشعوب الأوربية تسعى جاهدة إلى ربط اقتصاد الدول الإفريقية باقتصادها، لذلك أنشأت دول السوق الأوربية صندوق الاستثمار للتنمية فيما وراء البحار ورصدت له ٥٨١ مليون دولار ويسرى هذا الاتفاق خمس سنوات قابلة للتجديد تبدأ من أول يناير عام ١٩٦٣ وتنتهى فى ٣١ ديسمبر عام ١٩٦٧ .

ولهذا فقد أوصت اللجنة بدراسة الموضوعات الهامة التى تتعلق بالقارة وارتباطها بالمنظمات الاقتصادية العالمية ومنها :

١ ــ ضرورة اتخاذ موقف موحد من جانب الدول الإفريقية بالنسبة للسوق الأوربية المشتركة .

٢ ــ اتخاذ موقف موحد من المؤتمر العالمى للتجارة والتنمية الذى عقد فى مارس سنة ١٩٦٤ بجنيف .

٣ ــ بحث وسائل تنظيم وتنسيق خطة التنمية فى القارة الإفريقية والمسائل المتعلقة بها من نقل ومواصلات وطيران وتشريعات عمالية .

٤ ــ نقص الأموال اللازمة للاستثمار . وقد تمت الموافقة بالفعل على إنشاء بنك التنمية الإفريقى برأسمال قدره ٢٥٠ مليون دولار من أجل خلق منظمة مشتركة لرءوس الأموال فى إفريقيا مما يساعد على تسهيل

عمليات التمويل لمختلف المشروعات الإنمائية فى إفريقيا ولقد حدد أول يوليو عام ١٩٦٥ موعداً نهائياً لتصديق الدول الإفريقية على اتفاقية إنشاء هذا البنك، وكذلك مشروع البنك العربى الإفريقى برأسمال قدره ١٠ ملايين جنيه إسترليني موزعة على ٣ ملايين من الأسهم .

٥ — تنظيم النقد بين الدول الإفريقية ودراسة وسائل تشجيل التجارة وتخفيض الرسوم الجمركية بينها لتسهيل عملية التبادل التجارى بين دول القارة . وضرورة وضع تعريفة جمركية موحدة .

ولا شك أن ذلك يرجع غالباً إلى أثر استعمارى متسلط على الدول الإفريقية فى نشاطها التجارى . وهو أن نصيب التجارة بين الدول الإفريقية ودول أوربا الغربية ضعف نصيب التجارة بين دول القارة مع بعضها .

ومن أجل القضاء على المشاكل الاقتصادية ومشاكل النقد بالقارة صدرت عدة اتفاقيات اقتصادية تهدف كلها إلى تدعيم الوحدة الإفريقية وتأكيدها فى المجال الدولى بما يتناسب وسمعة إفريقيا . ومنها :

١ — اتفاقية السوق الإفريقية المشتركة .

٢ — اتفاقية البنك الإفريقى للتنمية برأسمال قدره ٣٠ مليون دولار أمريكى .

٣ — اتفاقية التعاون الاقتصادى والفنى .

٤ — اتفاقية الاتحاد الإفريقى للمدفوعات .

٥ — اتفاقية مجلس الوحدة الاقتصادية .

٦ — اتفاقية هيئة الطيران الإفريقية .

مؤتمر وزراء العمل الأفريقيين :

عقد هذا المؤتمر بقاعة الاجتماعات بمبنى مجلس محافظة القاهرة

فى المدة من ١٠ – ١٢ ديسمبر سنة ١٩٦٣ وافتتحه الرئيس جمال عبد الناصر وألقى فيه خطاباً سياسياً رائعاً تحدث فيه عن مشاكل إفريقيا وكيف نتعاون جميعاً من أجل القضاء عليها وبين فى هذا الخطاب أهمية دور القوى العاملة فى إفريقيا وضرورة توحيد النظم والتشريعات العمالية.
ولقد تم بالفعل دراسة كل ما يتعلق بتوحيد التشريعات العمالية فى المجال الإفريقى وتنسيق العمل فى المجالين الفنى والاجتماعى بالنسبة للعمل والعمال فى إفريقية وذلك على ضوء ما رسمه ميثاق مؤتمر القمة الإفريقى الأول بأديس أبابا .

وقد قدم بعض وزراء العمل الإفريقيين للمؤتمر أبحاثاً قيمة عن الحركة العمالية الوطنية فى مختلف البلاد الإفريقية كما تقرر بالإجماع طرد جنوب إفريقيا من منظمة العمل الدولية نظراً للأوضاع اللاإنسانية التى تتبعها .

هذا وقد صدر عن المؤتمر عدة توصيات عمالية هامة تدور كلها حول ضرورة توحيد النظم والقوانين العمالية والعناية بمظاهر النهضة العمالية من الناحية الثقافية والصحية .

لجنة التربية والثقافة :

تختص هذه اللجنة ببحث إمكانية التعاون التربوى والثقافى طبقاً لما أشارت إليه مبادئ منظمة الوحدة الإفريقية . (البند الثالث)

وقد اجتمعت هذه اللجنة فى الكنغو ليوبلدفيل فى شهر ديسمبر عام ١٩٦٣ بالعاصمة ليوبلد فيل وذلك لدراسة تنمية النشاط التعاونى فى ميدان التربية والثقافة التى لها أثر مباشر على رفع مستوى المعيشة بين الشعوب ومن أجل أن تسهم فى تنفيذ خطة تطوير التربية الإفريقية.
وقد اتفقت جميع الأطراف المعنية بهذه اللجنة على وضع هذه الأهداف

موضع التنفيذ العملى وأهمها :

١ — وضع برنامج عمل مفصل للجنة يستغرق مدة لا تقل عن ثلاث سنوات وأن يتضمن كل برنامج ما يلى :

(ا) التغلب على الحواجز اللغوية .
(ب) تنسيق التعليم الجامعى .
(ج) تنمية التعليم العالى والتكنولوجى
(د) التخطيط الشامل للتطوير التربوى .
(هـ) تنمية أوجه النشاط الثقافى والأدبى .

٢ — تأسيس وكالة للأنباء الإفريقية تعنى بالمجال الإعلامى وتدعو كل منظمات الإعلام الإفريقية لتتحد فى هيئة واحدة تعمل على تدعيم التعاون مع اللجنة بصورة فعالة وعلى تدعيم الصلة بين لجنة التربية والثقافة لمنظمة الوحدة الإفريقية ومنظمات الإعلام الإفريقية . وقد كلفت الدول الإفريقية الأعضاء فى المنظمة الجمهورية العربية المتحدة بإعداد أول برنامج تليفزيونى إفريقى موحد وسيذاع هذا البرنامج فى جميع دول القارة فى السابع والعشرين من مايو عام ١٩٦٥ . فهذا اليوم يعتبر يوم إفريقيا فقد اجتمع فيه لأول مرة أقطاب الدول الإفريقية بأديس أبابا . وقد أصبح من المقرر الآن ضرورة التنسيق بين اتحاد الإذاعات والتليفزيون الإفريقى واتحاد الصحفيين الإفريقيين واتحاد وكالات الأنباء الإفريقية إذ أن هذه الاتحادات جميعها ترتبط فى النهاية بالهدف الواحد الذى تسعى إليه جميع الدول الإفريقية باعتبار أن ذلك سوف يؤدى ولا شك إلى دعم جهودها فى خدمة إفريقيا والإفريقيين . ويجرى البحث الآن لضم هذه الاتحادات إلى منظمة الوحدة الإفريقية . لتعمل فى المجال الوحدوى بما يعزز الوحدة ويجعلها بحق وثيقة التضامن والاستقلال .

لجنة التحرير الأفريقية :

وهى تختص بجمع التبرعات فى البلدان الإفريقية من أجل مساعدة الثوار المناضلين فى مختلف بلاد إفريقيا التى ما زالت تعانى من جرائم الاستعمار ومؤامراته ومخازيه . وحين عقد مؤتمر القمة الأول بأديس أبابا أشار الرئيس جمال عبد الناصر إلى ضرورة مساعدة الثوار بالبلاد الإفريقية التى لم تستقل واستضافتهم وتدريبهم تحت إشراف الدول المضيفة ومساعدة بلادهم مادياً وفكرياً وعسكرياً ومن أجل ذلك أنشئت هذه اللجنة التى تضم تسعة أعضاء هم (الجمهورية العربية المتحدة — تنجانيقا — نجيريا — غينيا — أوغندة — السنغال — إثيوبيا — الجزائر — الكونغو ليوبلدفيل) .

واجتمعت هذه اللجنة بالفعل فى شهر يوليو وديسمبر من عام ١٩٦٣ بمدينة دار السلام عاصمة (جمهورية تنزانيا حيث يوجد المقر الدائم لها .

وبحثت اللجنة فى اجتماعها إمكانية تجميع الجماعات الوطنية الإفريقية فى جبهة متحدة وتعبئة القارة فى عمل مشترك لإنهاء الاستعمار فى إفريقيا . وأن تقوم بتوجيه الدعوة إلى الغالبية العظمى من الجماعات الوطنية فى جنوبى القارة لتوحيد جهودها وصفوفها وإيجاد أساس مشترك لهذه الجماعات والمنظمات التى تعمل من خلاله فى سبيل تحرير الدول التى لم تستقل بعد . وبحثت اللجنة أيضاً تنسيق المساعدات للدول الإفريقية التى لم تستقل بعد مثل أنجولا وموزمبيق وجزر الرأس الأخضر وجنوب إفريقيا .

وقررت اللجنة فى ختام أعمالها تشكيل لجنة فرعية تتكون من (الجمهورية العربية المتحدة — نيجريا — غينيا — تنجانيقا — الجزائر)

وذلك لوضع جدول الأعمال النهائى الخاص ببحث النقاط التالية :

١ — إنشاء سكرتارية تنفيذية .

٢ — إنشاء الصندوق الخاص بتمويل حركات التحرر الوطنى ووضع ميزانية خاصة به لمدة ٦ أشهر .

٣ — توزيع المساعدات الخاصة بحركات التحرير الوطنية فى جميع الميادين .

٤ — الإسراع فى تنفيذ القرارات الخاصة بجنوب إفريقيا والبرتغال .

٥ — دراسة المشاكل المتعلقة بتصفية الاستعمار فى كل إقليم وتحديد السياسة التى ستتبعها اللجنة إزاء هذه المشاكل .

لجنة الصحة والتغذية :

انعقدت هذه اللجنة فى الفترة من ١٣—١٥ يناير عام ١٩٦٤ وضمت وزراء الصحة بالدول الإفريقية الأعضاء فى منظمة الوحدة الإفريقية . وذلك بمقر معهد البحوث الطبية بالإسكندرية لدراسة كل ما يتعلق بالميدان الصحى والرعاية الصحية وشئون التغذية وفقاً لما أشارت إليه نصوص الميثاق .

ومن أهم الموضوعات التى بحثها المؤتمر ضرورة تنسيق الجهود التى تبذلها الدول الإفريقية فى مجالات الصحة العامة نظراً لأن بعض المجموعات الإقليمية الحالية تكافح بعض الأمراض الشائعة فى الدول على أساس لغوى . وضرورة تكوين المجموعات الإقليمية مستقبلا على أساس جغرافى لتيسير تنفيذ البرامج . وأن ينشأ قسم للصحة يتبع السكرتارية العامة لمنظمة الوحدة الإفريقية وأن تنظم وظائفه بإنشاء مكتب للاستعلامات لتنسيق إذاعة المعلومات المتعلقة بموضوعات الصحة والنشاط الطبى وإنشاء صندوق للخبراء . وتقوم السكرتارية العامة بتكوين لجان فنية كلما اقتضت الحاجة لذلك .

اللجنة العلمية والفنية :

تكونت هذه اللجنة طبقاً لما أشار إليه ميثاق المنظمة فى مادته العشرين . وانعقدت بالفعل فى مدينة الجزائر فى الفترة من ١ — ٧ فبراير عام ١٩٦٤ وضمت ٢٥ دولة إفريقية . وفى هذا الاجتماع تم بحث جميع المشاكل التى تواجه القارة وتحتاج لدراسة علمية مشتركة . ومن أهمها :

١ — رسم الخطوات العلمية أمام مجلس وزراء منظمة الوحدة الإفريقية وتحديد الخطوط الرئيسية والشكل الكامل لما يجب أن تكون عليه العلوم والتكنولوجيا فى القارة الإفريقية بحيث تبنى الشعوب الإفريقية نهضتها على أسس علمية تطبيقية ولتتمكن هذه الشعوب من استغلال خيراتها لمصالح أبنائها ورفاهية شعوبها .

٢ — ضرورة تطوير القارة الإفريقية باستخدام العلوم والتكنولوجيا فى ظل التعاون المشترك والاستفادة بكل معونة علمية وفنية يمكن أن تساهم بها منظمات الأمم المتحدة أو غيرها من المنظمات العلمية والفنية .

٣ — إنشاء لجنة تنفيذية لها سكرتارية دائمة لرسم السياسة العلمية والتكنولوجية وأن يكون للجنة مجلس استشارى يعتبر نواة للمجلس العلمى الإفريقى .

٤ — تنشئ كل دولة إفريقية جهازاً علمياً منظماً بحيث يتيسر التعاون العلمى الكامل فى شتى القطاعات وعلى مختلف المستويات سواء فى النطاق المحلى أو الإقليمى على مستوى القارة .

هذا وقد بحثت اللجنة ضرورة دراسة المسائل التى تحال إليها من لجنة الدفاع والصحة والتغذية والتعليم والاقتصاد .

مؤتمر دار السلام :

فى شهر فبراير عام ١٩٦٤ أرسل الرئيس يوليوس نيريرى رئيس جمهورية تنزانيا رسالة إلى جميع رؤساء الدول الأعضاء فى منظمة الوحدة الإفريقية يطلب فيها ضرورة عقد جلسة طارئة لوزراء الخارجية والدفاع لبحث الموقف المضطرب فى شرق إفريقيا . وانعقد المؤتمر فى مدينة دار السلام ولأول مرة فى تاريخ القارة نجد المشكلات الإفريقية تناقش وتحل على موائد إفريقية على أرض إفريقية بأيد إفريقية .

وحضرت هذا المؤتمر ٢٨ دولة إفريقية وقامت الدول الأعضاء فى المؤتمر بالموافقة على تشكيل هيئة من خمسة أعضاء اثنين من إثوبيا وإثنين من الصومال وعضواً آخر . وذلك للتحقيق فى الادعاءات المتبادلة والخاصة بالعدوان . وأن ترفع تقريرها إلى مؤتمر المنظمة الذى سيعقد فى مدينة لاجوس عاصمة نيجريا خلال عشرة أيام من تاريخ هذا المؤتمر . ولقد كانت مهمة اللجنة التى شكلها المؤتمر للتفرغ الكامل لبحث هذا الموضوع هو تشكيل قوة إفريقية تحل محل القوات البريطانية فى تنجانيقا من أجل أن تزيل العار وتمحو الإذلال الذى عبر عنه نيريرى فى رسالته بقوله : « إن القوة البريطانية التى تحافظ على السلام فى بلادنا أصبحت مصدراً للإذلال الوطنى » .

مؤتمر لاجوس :

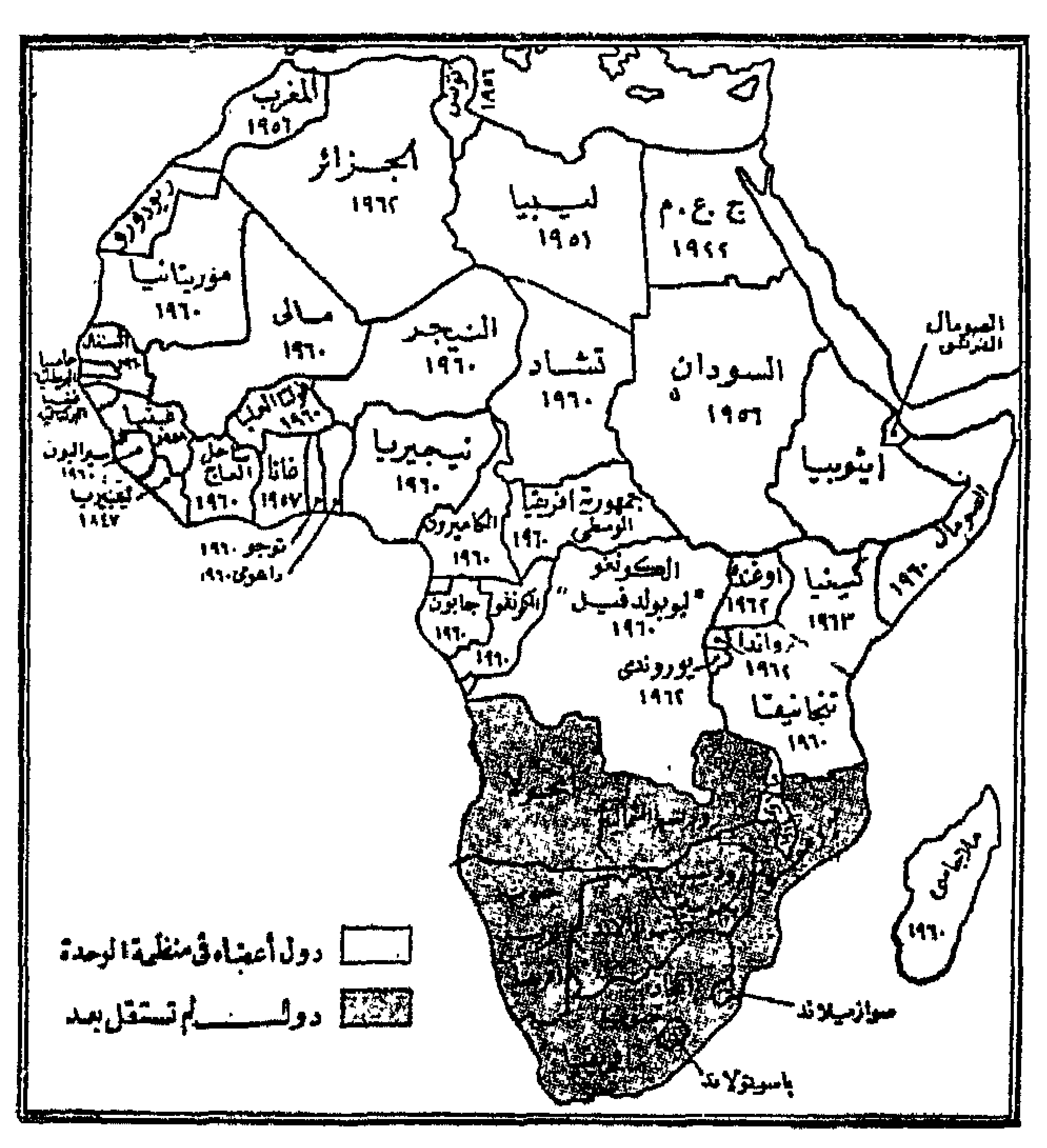
إنعقد هذا المؤتمر فى المدة من ٢٤ — ٢٨ فبراير عام ١٩٦٤ وضم وزراء خارجية الدول الإفريقية الأعضاء فى منظمة الوحدة الإفريقية . وذلك بمدينة لاجوس عاصمة نيجريا الاتحادية . وبحث الأعضاء المشتركون فى هذ المؤتمر كل النتائج والقرارات الخاصة باللجان المختلفة والمنبثقة عن منظمة الوحدة الإفريقية وهى :

(ا) لجنة الدفاع التى اجتمعت فى أكرا فى نوفمبر سنة ١٩٦٣ .
(ب) اللجنة الاقتصادية التى اجتمعت فى نيامى فى ديسمبر سنة ١٩٦٣
(جـ) لجنة التربية والثقافة التى اجتمعت فى ليوبلدفيل فى شهر ديسمبر سنة ١٩٦٣ .
(د) لجنة الصحة والتغذية التى اجتمعت فى الإسكندرية فى شهر يناير سنة ١٩٦٤ .
(هـ) اللجنة العلمية والفنية التى اجتمعت فى الجزائر فى فبراير سنة ١٩٦٤ .
(و) لجنة التوفيق ومؤتمر باماكو الرباعى الخاص بالتوفيق بين الجزائر والمغرب .

قد استعرض هذا المؤتمر الظروف التى تمر بها القارة الإفريقية وضرورة تنظيم التكتل الإفريقى داخل الأمم المتحدة .

ولقد أعلنت عدة قرارات وتوصيات تدور كلها حول تدعيم التفاهم السلمى بين دول القارة واتخاذها موقفاً موحداً بالنسبة لسياسة عدم الانحياز وأن تكون القاهرة مقراً لمؤتمر الأقطاب الإفريقيين الثانى .

وهكذا نرى أن الفترة التى انقضت منذ اجتماع الأقطاب فى أديس أبابا فى شهر مايو عام ١٩٦٣ حتى اجتماعهم الثانى بالقاهرة فى يوليو عام ١٩٦٤ كانت مليئة بالنشاط والاجتماعات المستمرة لمجلس وزراء منظمة الوحدة الإفريقية والمؤتمرات العديدة التى عقدتها اللجان الفنية وشهدتها عواصم إفريقية مختلفة . وكلها تهدف إلى خلق جو من التفاهم السلمى والتعاون الإيجابى من أجل إفريقيا البيضاء ومن أجل أن تصبح إفريقيا للإفريقيين .



خريطة سياسية للقارة الأفريقية عام ١٩٦٤

مؤتمر القمة الإفريقى الثانى

فى اليوم السابع عشر من شهر يوليو عام ١٩٦٤ عقد بمدينة القاهرة مؤتمر القمة الإفريقى الثانى وضم ٣٤ دولة إفريقية وهى :
(الجزائر — بورندى — الكاميرون — جمهورية وسط إفريقيا — تشاد — كونجو برازفيل — كونجو ليوبلدفيل — داهومى — إثيوبيا — الجابون — غانا — غينيا — ساحل العاج — ليبريا — ليبيا — مدغشقر — مالى — موريتانيا — المغرب — النيجر — نيجيريا — رواندا — السنغال — سيراليون — الصومال — السودان — تنجانيقا — التوجو — تونس — أوغندة — الجمهورية العربية المتحدة — فولتا العليا — كينيا — ملاوى) .

وفكرة عقد هذا المؤتمر بالقاهرة ترجع إلى مؤتمر لاجوس فى فبراير ١٩٦٤ حيث تقرر أن تكون القاهرة مقراً للاجتماع الثانى للأقطاب الإفريقيين . وقد أجازت المادة الثامنة والعشرون أن لكل دولة إفريقية مستقلة الحق فى الانضمام إلى منظمة الوحدة الإفريقية بعد أن تخطر الأمين العام الإدارى بذلك . وبناء عليه فقد انضمت كينيا وملاوى زامبيا

وقد جاء هذا المؤتمر بالقاهرة ليكون مرحلة الوثوب من الميثاق إلى التطبيق العملى فى ظل رابطة الكفاح المشترك من أجل أسمى غايات الحرية والوحدة . ولقد جاءت قرارات هذا المؤتمر دليلا على أن حركة التحرر والوحدة فى إفريقيا أصبحت أقوى من كل عائق . وعقد هذا المؤتمر ست جلسات عدا الجلسة الختامية التى تحدث فيها الرئيس جمال عبد الناصر . وتحدث الزعماء الإفريقيين عن مشروعاتهم وأهدافهم تجاه وطنهم الإفريقى . وتحدث فى هذا المؤتمر الأمين العام للأمم المتحدة فقال :
« إن مؤتمر القمة الإفريقى الأول كان حدثاً فذاً فى التاريخ لا لأنه كان

أول اجتماع من نوعه . بل لأنه أدى إلى مولد منظمة الوحدة الإفريقية .
هذا وقد أشار الأمين العام إلى أن ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية بمثابة وثيقة تاريخية تؤكد من جديد رغبة الأقطار الإفريقية لتحقيق الوحدة والتضامن بل ربما أيضاً بلوغ هدف أعظم شأناً وهو التعاون الدولى
وقبل أن ينتهى الأمين العام من إنهاء خطابه أشار إلى أن ميثاق الوحدة الإفريقية لا يتفق وميثاق الأمم المتحدة فى الشكل فحسب بل إنه ايؤكد من جديد الأغراض الأساسية والمبادئ التى يتضمنها ميثاق الأمم المتحدة ، وإن قيام إفريقيا الناهضة باعتناق هذه المبادئ لهو تأييد ترحب به الأمم المتحدة باعتبارها هيئة إقليمية . فلا شك أن التقدم الذى تحرزه الهيئات الإقليمية وفقاً للمبادئ التى ينادى بها ميثاق الأمم المتحدة من شأنه أن يوطد أركان الهيئة العالمية ويدعم نشاطها وجهودها .
وفيما يلى نص البيان الذى أصدره ملوك ورؤساء إفريقيا عقب انتهاء المؤتمر .

نص البيان المشترك
لمؤتمر ملوك ورؤساء إفريقيا
المنعقد بالقاهرة فى المدة من ١٧ — ٢١ يوليو سنة ١٩٦٤

أولاً : بحث المجلس خلال دورته التى استمرت خمسة أيام من ١٧ إلى ٢١ يوليو عام ١٩٦٤ الأساليب والوسائل التى تؤدى إلى تدعيم التعاون داخل القارة الإفريقية وذلك فى مجال المحاولات التى تبذل للوصول إلى الهدف الأسمى وهو تحقيق التضامن والوحدة الإفريقية .
ثانياً : وافق المجلس على مسودة لائحة الإجراءات الداخلية المقدمة

من مجلس الوزراء وتنص اللائحة على أن يجتمع المجلس مرة فى كل عام فى دورته عامة .

ثالثاً : استعرض المجلس ووافق على التقارير التى وضعها .

(ا) مجلس الوزراء فى دوراته العادية الأولى والثانية والثالثة .

(ب) مجلس الوزراء فى دورتيه غير العاديتين الأولى والثانية .

رابعاً : وافق المجلس بالتصويت بطريقة رفع الأيدى على التوصية التى اتخذها مجلس الوزراء فى دورته التى عقدت فى داكار (أغسطس ١٩٦٣ والتى تقضى بأن تكون أديس أبابا مقراً لمنظمة الوحدة الإفريقية .

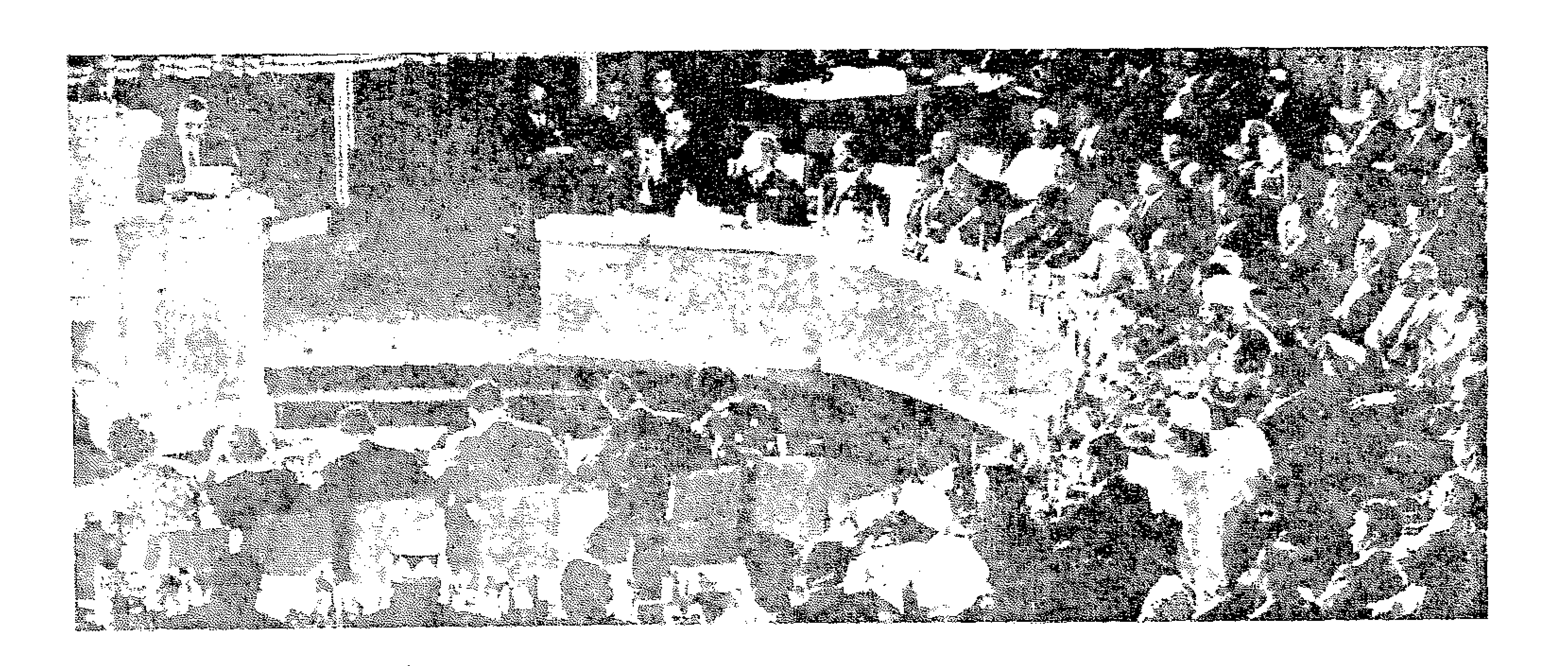
خامساً : قرر المجلس بمقتضى المادة ٢٠ من الميثاق تكوين لجنتين : لجنة من المشرعين ولجنة للنقل والمواصلات كلجان متخصصة تابعة لمنظمة الوحدة الإفريقية .

واللجان المتخصصة التابعة للمنظمة هى :

١ — اللجنة التعليمية والثقافية .
٢ — اللجنة الاقتصادية والاجتماعية .
٣ — لجنة الصحة والتغذية .
٤ — البحث العلمى والفنى .
٥ — الدفاع .
٦ — لجنة القانونيين .
٧ — لجنة النقل والمواصلات .

سادساً : بحث المجلس التقارير والتوصيات المقدمة من لجانه المتخصصة الخمس وقد عقدت جميع اللجان دوراتها الأولى ووافق المجلس على التوصيات التى تقدمت بها هذه اللجان .

سابعاً : وافق المجلس أيضاً على مسودة البروتوكول الخاص بلجنة



الرئيس جمال عبد الناصر يعلن فى افتتاح مؤتمر القمة الأفريقى الثانى بالقاهرة
« إن الحرية والحياة من حق إفريقيا »

الوساطة والتوفيق والتحكيم وهى المسودة التى قدمها مجلس الوزراء فى دورته الثالثة .

ثامناً : خلال مؤتمر القمة الذى عقد فى العام الماضى تم تعيين وزراء خارجية كل من ليبريا ومدغشقر وسيراليون وتونس لكى يمثلوا الأعضاء فى منظمة الوحدة الإفريقية لدى مجلس الأمن خلال بحث مسائل التفرقة العنصرية والاستعمار البرتغالى وقد قدم ممثلوا هذه الدول تقاريرهم إلى المجلس .

تاسعاً : كانت مسألة تصفية الاستعمار فى القارة الإفريقية فى مقدمة المسائل التى بحثها المجلس .

عاشراً : وقد اتخذ المجلس القرار التالى فيما يتعلق بمسألة التفرقة العنصرية .

(ا) مطالبة جميع الدول وخاصة التى تقوم بينها وبين حكومة جنوب إفريقيا علاقات تجارية بالتعاون فى مجال مقاطعة جنوب إفريقيا .

(ب) مناشدة جميع الدول المنتجة للبترول بأن تكف فى الحال عن تزويد جنوب إفريقيا بالبترول وكافة المنتجات البترولية الأخرى .

(جـ) الدعوى إلى الإفراج عن نلسون مانديلا ووالترسيزولو ومانجوليسوسوبوكوى وغيرهم من المعارضين لمسألة التفرقة العنصرية الذين سجنوا أو اعتقلوا طبقاً للقوانين التعسفية الجائرة لحكومة جنوب إفريقيا .

حادى عشر : قرر المجلس أيضاً إنشاء مكتب داخل السكرتارية العامة لمنظمة الوفود الإفريقية تسند إليه مهمة تنسيق خطط وأعمال الدول الأعضاء وذلك لتنفيذ إجراءات مقاطعة جنوب إفريقيا على نحو فعال ويتعين أن نذكر أن المؤتمر الدولى الذى عقد فى لندن فى أبريل الماضى

بشأن بحث العقوبات الاقتصادية ضد حكومة جنوب إفريقيا قد دعا إلى إنشاء مثل هذا المكتب .

وسوف تسند إلى المكتب أيضاً (بالتعاون مع الهيئات الدولية الأخرى) مهمة تشديد الحملة التي تدعو إلى توقيع العقوبات الاقتصادية ضد جنوب إفريقيا بكافة الطرق الممكنة .

ثاني عشر : بالنسبة لمسألة روديسيا الجنوبية تعهد المجلس باتخاذ خطوات عنيفة وعاجلة ضد أى إعلان لاستقلال روديسيا الجنوبية تتخذه حكومة الأقلية الأوربية من جانبها فقط . وقد تعهد رؤساء الدول الإفريقية باتخاذ الإجراءات الملائمة بما فى ذلك الاعتراف بل تأييد قيام حكومة وطنية إفريقية فى المنفى فى حالة ظهور مثل هذا الاحتمال .

ثالث عشر : ناشد المجلس الحكومة البريطانية عقد مؤتمر دستورى عاجل يضم ممثلين عن كافة الأحزاب السياسية فى روديسيا الجنوبية وذلك لإعداد دستور ديمقراطى جديد يضمن حكم الأغلبية على أساس مبدأ صوت واحد لرجل واحد .

ودعا المجلس أيضاً إلى الإفراج فوراً عن مستر جوشوا نكومو وندا ونينجى سيتهولى وغيرهم من المسجونين والمعتقلين السياسيين .

رابع عشر : عين المجلس حكومات كل من ملاوى وتنجانيقا وزنزبار المتحدة، لبذل مساعيها الحميدة لدى الأحزاب الوطنية فى روديسيا الجنوبية بقصد تكوين جبهة موحدة لتحقيق هدفها المشترك وهو الاستقلال على وجه السرعة وناشد المجلس أيضاً الحركات الوطنية فى رديسيا الجنوبية بأن تدعم نضالها من أجل تحقيق الاستقلال العاجل .

خامس عشر : وبالنسبة لمسألة الأراضى الواقعة تحت سيطرة البرتغال أدان رؤساء الدول والحكومات الإفريقية البرتغال لإصرارها على

رفض الاعتراف بحق الشعوب التى تخضع لسيطرتها فى تقرير المصير والاستقلال وإدانتها أيضاً لعدم انصياعها لقرارات مجلس الأمن والجمعية العامة للأمم المتحدة .

سادس عشر : قرر المجلس إنشاء مكتب داخل نطاق السكرتارية العامة لمنظمة الوحدة الإفريقية للقيام بالمهام الآتية :

(ا) تنسيق العمل بين الدول الأعضاء لتنفيذ قرارات منظمة الوحدة الإفريقية بدقة بالغة .

(ب) تنسيق التعاون مع الدول الصديقة حتى يمكن تنفيذ إجراءات المقاطعة الفعالة ضد البرتغال .

سابع عشر : قرر المجلس أيضاً مد فترة انتداب وزراء خارجية كل من ليبريا ومدغشقر وسيراليون وتونس لمواصلة تمثيلهم للدول الأعضاء فى منظمة الوحدة الإفريقية لدى مجلس الأمن .

ثامن عشر : بحث رؤساء الدول والحكومات الموقف الذى قد يواجه المناطق الخاضعة للوصاية وهى باسوتولاند وبتشوانالاند وسوازيلاند عند حصولهم على الاستقلال وقرروا أن تقوم منظمة الوحدة الإفريقية بالتشاور مع المسئولين فى المناطق الثلاث بالعمل على أن تقوم الأمم المتحدة بمنح المناطق الثلاث التكامل الإقليمى والاستقلال والسيادة .

تاسع عشر : فوض المجلس المجموعة الإفريقية فى الأمم المتحدة بأن تتخذ الإجراءات الضرورية بالتشاور مع لجنة التحرير والحركة الوطنية فى هذه المناطق لعرض المسألة على مجلس الأمن فى الوقت المناسب .

عشرين : بحث المجلس التقرر المقدم من لجنة التحرير وقرر رؤساء الدول والحكومات زيادة عدد الدول فى اللجنة وتتألف اللجنة فى

الوقت الحاضر من تسعة أعضاء وقرر المجلس أيضاً أن تقوم كل دولة عضو بدفع مبلغ إلزامى طفيف عن عام ١٩٦٤ لصندوق التحرير الخاص حتى يتم وضع النظام الذى سيحدد نصيب كل دلة فى هذا الصندوق .

الحادى والعشرين : بحث المجلس التقرير المقدم من اللجنة الخاصة بمشكلة اللاجئين وطلب من اللجنة وضع مسودة إتفاق تشمل جميع مظاهر مشكلة اللاجئين فى إفريقيا .

الثانى والعشرين : انتخب المجلس دياللو تيللى سكرتيراً عاماً إدارياً لمنظمة الوحدة الإفريقية .

الثالث والعشرين : انتخب أربعة سكرتيرين مساعدين من كل من الجزائر وكينيا ونيجريا وداهومى .

الوحدة الافريقية

كما يراها زعماء القارة

سبق أن تحدثنا عن ميلاد الزعامة الإفريقية وكيف استطاع الزعماء الإفريقيون تخطى الحواجز التى أقامها الاستعمار فى طريقهم كعقبة تحول دون وصولهم إلى قدر من التعليم يعكس على حياتهم الثورات والسخط العام ضدهم ، ورأينا أن من بين هؤلاء الزعماء من شرد ونفى وعذب ، ونسى الاستعمار من وراء ذلك كله أن وعى الشعوب فى وقتنا الحاضر يعتبر أخطر سلاح يوجه إليه . وكان الاستعمار يظن أنه بهذا التصرف المشين تجاه زعماء القارة يستطيع القضاء تماماً على الثورات التحررية المنتشرة ضده فى كل مكان والتى ستكون نتيجتها إرغامه على الرحيل وترك الأرض لأصحابها الشرعيين .

ولكن النتيجة كانت عكسية فى كل شىء . فقد أدى تصرفه هذا إلى زدياد روح الكفاح والنضال بين أبناء الشعوب واتسمت الثورات التحررية فى إفريقيا بالجماعية والشمول . ذلك أن كل ثورة كانت تضم عناصر مختلفة من الشعب أسلمت قيادتها لزعيم إفريقى صميم وهب حياته من أجل بلده ومن أجل كرامتها وسيادتها .

ولذلك فإن هؤلاء الزعماء الإفريقيين يتمتعون دون غيرهم من زعماء العالم بشعبية ضخمة فى بلادهم وبين مواطنيهم .

وفى أكثر من مرة التقى الزعماء الإفريقيون من أجل تفاهم مشترك ومن أجل وحدة إفريقية تؤكد وتدعم السلام فى العالم وتبشر بمولد مجموعة جديدة من الدول قاست من الحروب والمؤمرات وتريد أن تجنب العالم ويلات ما رأته وعاشت فيه .

وتحدث هؤلاء الزعماء فى أكثر من مناسبة كانت آخرها مؤتمر القمة الإفريقى الثانى بالقاهرة فى المدة من ١٧ — ٢١ يوليو عام ١٩٦٤ .

وسنرى على الصفحات القادمة ومن خلال بعض الكلمات لزعماء إفريقيا المناضلة . كيف أن الوحدة الإفريقية فى مضمونها العام الحصانة التى تجنبهم شرور الاستعمار بنوعيه القديم والجديد وتبعدهم عن سياسة التبعية التى تربطهم بالاستعمار من كل النواحى . وتجعلهم فى سياستهم يتميزون بالإيجابية والدفع الثورى البناء فى كلا المجالين الداخلى والخارجى .

ومن هؤلاء الزعماء الإفريقيين الذين تحدثوا عن الوحدة الإفريقية ووسائل تدعيمها وتقويتها فى المجال الدولى .

الرئيس جمال عبد الناصر :

فى مؤتمر القمة الإفريقى الثانى بالقاهرة ألقى الرئيس جمال ثلاث خطب فى أعضاء الوفود بصفته رئيساً للدولة المضيفة . الأولى فى الجلسة

الافتتاحية التى عقدت بعد ظهر السابع عشر من يوليو سنة ١٩٦٤ . والثانية مساء الثامن عشر من نفس الشهر بمناسبة مأدبة العشاء التى أقامها الرئيس للسادة أعضاء ورؤساء الوفود . أما الثالثة فكانت فى الجلسة الختامية للمؤتمر وكان ذلك فى الحادى والعشرين من يوليو .

ومن كلمات الرئيس عبد الناصر فى الجلسة الافتتاحية عن الوحدة الإفريقية :

« إن الخطوة الإيجابية الأولى نحو الوحدة الإفريقية هى وحدة الفكر ، ولا تتحقق وحدة الفكر إلا باللقاء المباشر على أعرض الجبهات .

إن الاقتراب الفكرى القائم على الفهم المشترك ، والاحترام المتبادل بيننا جميعاً هو أعظم قوة دافعة تمنحها لمنظمة الوحدة الإفريقية التى صنعناها فى أديس أبابا . . .

لقد أنشأنا فى أديس أبابا كياناً لمنظمة الوحدة الإفريقية ، وعلينا الآن أن نعطى لهذا الكيان أعصابه وعضلاته القوية . . . لكن تعميق الفهم المشترك هو ضمان أن تتحرك الأعصاب والعضلات القوية للمنظمة وفق إرادة متحدة ، فلا يكون هناك تناقض يؤدى إما إلى التمزق وإما إلى الشلل » .

وفى الجلسة الثانية للمؤتمر تحدث هيلاسلاسى فألقى خطاباً سياسياً جامعاً لكل مشاكل القارة والعقبات التى اعترضت لجان المنظمة فى العام الماضى . ودور هيلاسلاسى فى مؤتمر القمة الإفريقى دور حيوى يتميز بالإيجابية والفاعلية ويتضح ذلك من كلماته التاريخية التى ألقاها فى أعضاء مؤتمر القمة الإفريقى الأولى بأديس أبابا (مايو ١٩٦٣) وفى هذا المؤتمر أعلن هيلاسلاسى قائلا :

« لا يوجد بديل الآن للتعاون والوحدة الإفريقية فما من دولة إفريقية يمكنها أن تأمل فى أن تحقق عاجلا حياة مادية أفضل لشعبها إذا وقفت

فى عزلة من الدول الإفريقية الأخرى . وما من دولة إفريقية يمكنها أن تعاون بجهدها المنفرد على خلاص الدول الإفريقية التى ما زالت ترزح تحت نير العبودية وأكثر من ذلك . . . فما من دولة إفريقية يمكنها اليوم أن تساهم مساهمة ذات بال فى الحفاظ على السلام العالمى إذا وقفت على انفراد .

أما بالاتحاد - أيها الأصدقاء - فإن مشاكل إفريقيا تصبح تحديات للنضال الذى يتمخض عن نجاح يتغلب على الصعاب» .

وفى الجلسة الثانية أيضاً تحدث الدكتور نكروما عن الوحدة الإفريقية . والدكتور نكروما كما نعلم قد لعب دوراً حيوياً للغاية فى سبيل الوحدة الإفريقية وتدعيمها كقوة دافعة للسلام والاستقلال وحين يتحدث نكروما عن الوحدة الإفريقية فإن حديثه فى هذا الشأن يكون مطنباً غاية الإطناب ليوهم السامع ويؤكد له عظمة إفريقيا فى الماضى وما ينتظرها فى المستقبل . فى مؤتمر القمة الثانى بالقاهرة ألقى خطاباً شاملا فى أعضا المؤتمر يعتبر أكبر خطاب ألقاه رئيس دولة . تضمن كل المشاكل الإفريقية وكيفية حلها وضرورة الحذر من الأشكال الجديدة للاستعمار التى بدأت تطرق أبواب إفريقيا وطالب الأمم المتحدة بضرورة إعادة تنظيمها بما يتناسب وعدد الدول الإفريقية بها . كما وجه رسالة إلى الثورات فى مختلف بقاع إفريقيا يؤيدهم ويطالبهم بالمزيد . وفى حديثه عن الوحدة الإفريقية قال : «إن الإمبرياليين يعتبرون ميثاق وحدتنا وحدة رمزية ، ولن يحترموها إلا إذا اتخذت شكل حكومة اتحاد . فلا يعقل أن يقوموا بتحدى قارة متحدة ، ولكن من السهل أن نفهم أنهم لا يصدقون أننا قادرون على تحقيق الخطوة القادمة - وهى تنظيم وتجميع قوانا الاقتصادية والعسكرية والسياسية لشن معركة حقيقية ضد العنصرية ، والفاشية البرتغالية ، وضد من يؤيد هذه الشروط عن طريق التجارة والأسلحة . . .

إننا لم نقم بما يجعل الإمبريالية تقتنع بأننا نستطيع أن نبرز قارتنا كقوة اقتصادية قادرة على الوقوف معاً كشعب موحد متقدم . . .

إننا فى إفريقيا نعيش حقبة خالدة من تاريخنا ، ففى أقل من عقد واحد تحولت معظم أقاليم قارتنا من الاستعمار إلى السيادة والاستقلال وبعد سنوات قليلة يمكن أن نتصور أن تصبح إفريقيا بأكملها وقد تحررت من الحكم الاستعمارى ولا تستطيع أى قوة أن تمنع تقدمنا نحو الاستقلال والحرية والوحدة» .

ويقوم مجلس الشباب العالمى بدراسات خاصة بالوحدة الإفريقية وينشرها على لسان زعماء إفريقيا ومنهم الرئيس يوليوس نيريرى الذى تحدث لهم عن الوحده الإفريقية . فى الوقت الذى لم تكن الوحدة قد ولدت بالفعل . ذلك أن نيريرى قد تحدث لهم بإسهاب فى سبتمبر عام ١٩٦١ . وكان حديثه عن الوحدة الإفريقية مجرد أمل يتمناه لإفريقيا وقد بدأ خطابه بقوله : « لقد طلبتم منى التحدث عن الوحدة الإفريقية ، وأنا من الداعين إلى الوحدة الإفريقية . إنى أعتقد بعزم أنه مثلما كانت الوحدة ضرورية لتحقيق الاستقلال فى تنجانيقا أو أية أمة أخرى — فإنها ضرورية بالمثل للتدعيم — والمحافظة على الاستقلال الذى نحققه فى الوقت الحاضر فى أجزاء مختلفة من إفريقية .

وأعتقد أنهم لو تركونا وشأننا — لاستطعنا تحقيق الوحدة فى القارة الإفريقية ولكنى لا أعتقد أنهم سيتركوننا وشأننا . وإنى أعتقد أن المرحلة التى نجتازها بنجاح هى المرحلة الأولى للجرى وراء إفريقيا — وموقف إفريقية من هذا — أننا ندخل الآن مرحلة جديدة . إنها مرحلة الجرى الثانى وراء إفريقيا — ومثلما كانت القبيلة منقسمة على القبيلة الأخرى فى المرحلة الأولى فهل ذلك انقسام إفريقيا . سيكون الأسلوب المتبع فى المرحلة الثانية محاولة بث الفرقة بين أمة وأمة حتى يكون من الأسهل وضع يدهم على

إفريقيا عن طريق إضعافها وبث الفرقة بين أممها .

ويجب علينا قبل أن نستطيع التحدث باطمئنان عن (الوحدة الإفريقية) أن نلخص بعناية الأفكار الخارجية التى من المحتمل أن تفرض علينا — وتفرض لا بقصد توحيدنا ولكن بقصد تقسيمنا » .

وحين عقد مؤتمر لاجوس فى الخامس والعشرين من شهر يناير عام١٩٦٢ ألقى الرئيس نامدى أزيكيو خطابا أمام رؤساء الدول الإفريقية الأعضاء فى منظمة الوحدة الإفريقية . وكان الخطاب تعبيراً عن عقلية واعية مفكرة عاشت فى جو إفريقيا الرهيب وقاست من ويلاته العديد ونبتت على الأحداث وشاء لها القدر أن تشهد عن ثقة ما يدور بإفريقيا اليوم من حركات تحررية تجمعت حول مبدأ واحد هو الوحدة الإفريقية .

وتحدث أزيكيو عن الوحدة الإفريقية فقال :

« إن السبب الرئيسى الذى اجتمع من أجله هذا المؤتمر هو أن يتبادل الزعماء الإفريقيون وجهات النظر فيما بينهم ، على أعلى مستوى ممكن — من أجل وحدة الكيان السياسى الذى تتألف منه القارة الإفريقية . . .

إن الرحلة القصيرة إلى الماضى البعيد والماضى القريب لإفريقيا لأمر ضرورى لكى نتفهم الانتفاضة السياسية التى تحدث فى إفريقيا المعاصرة . وهى أيضاً المصباح الذى يوجه خطواتنا نحو المستقبل ، وحتى نستطيع إدراك قيمة الوحدة والتعاون كعوامل فى تطوير الأمم فى أية قارة .

ويجب على مؤتمر لاجوس معالجة مشاكل الوحدة الإفريقية بطريقة واقعية . لقد اتفقنا فى مؤتمر منروفيا على العيش فى سلام واجتمع خبراؤنا فى داكار لاقتراح وسائل محددة لتحقيق التعاون الاقتصادى والثقافى والتربوى والعلمى والفنى . . . الذى يؤدى حتماً إلى نوع من التقارب السياسى ، قد يكون فى الإمكان تطبيقه . إن مهمتنا فى هذا

المؤتمر هى توضيح أسلوب العمل الذى سيحقق الوحدة الناجحة التى ترغب فيها إفريقيا بشدة . إن الوحدة الإفريقية التى ينشدها هذا المؤتمر ليست بالوحدة القائمة على أساس التوحد المفروض فرضاً . . إن الوحدة الشاملة أمر مستحيل فى إفريقيا . كما هو مستحيل فى القارات الأخرى فى العالم . ولكننا نستطيع أن نحقق الوحدة فى ظل التنوع .

إن قضية الوحدة الإفريقية ماضية إلى الأمام بسرعة وفى إمكان الدول الإفريقية أن نكون منفصلة كأصابع اليد ، وذلك فيما يتعلق بمسائلها المحلية — ولكنها تستطيع أن تكون متحدة كقبضة اليد فيما يتعلق بالمسائل الخارجية والاهتمامات العامة .

فلنسر قدماً بعملية الحنكة السياسية من أجل تحقيق الوحدة فى هذه القارة العظيمة .

وبإيماننا بالنجاح النهائى لمحاولتنا المخلصة لحماية الحرية الإنسانية دعونا نبنى إفريقيا جديدة — لعالم جديد حيث لا مكان بعد ذلك للإنسان يفترس أخاه الإنسان» .

وفى مؤتمر القمة الإفريقى الثانى بالقاهرة تكلم سيكوتورى عن الوحدة الإفريقية موضحاً الحقائق التى يجب أن تسير عليها الوحدة وأصولها . فقال : « إن تجسيم الوحدة الإفريقية كما نريدها أيها الزملاء الأعزاء يفترض مقدماً تحقيق مثل هذه الشروط . وإن الأسس الحتمية لتطورنا التاريخى والعوامل المدافعة لتقدمنا العام عديدة ومعقدة . وهى تتطلب منا وعياً سامياً وإرادة ثابتة وإيماناً لا يتزعزع بمصير إفريقيا وبالقدرة الخلاقة لشعوبنا .

إن من أول مستلزمات الوحدة الإفريقية اختفاء الإمبرياليه والاستعمار فى إفريقيا والتفاهم المتبادل بين دولها والثقة المشتركة والتعاون الأخوى بين حكوماتنا . . .

إن منظمة الوحدة الإفريقية ، بوصفها هيئة عليه تتولى توحيد السياسة الإفريقية من واجبها أن تضفى طابع برنامجها على نواحى نشاط حركات الجماهير التى تعمل فى إفريقيا لإفريقيا . . .

إن الوحدة الإفريقية خارج نطاق أسسها العاطفية ترتكز على إراد يجب أن يفسر مدلولها بطريقة منطقية جميع الأمانى المشروعة .

إن حكومة جمهورية غينيا تنظر إلى مشروع إنشاء حكومة إفريقية نظرتها إلى نهاية حتمية أى إلى ضرورة قد اندرجت بالفعل فى الآفاق التى يستشرفها نمو الوحدة الإفريقية وإذ أن تلك فكرة صادقة فلمؤتمر القمة أن يقدر الأوان المناسب لتحقيقها » .

هذه الحقائق التى ساقها سيكوتورى فى خطابه تؤكد ولا شك روحه الثورية العظيمة التى ثارت على الاستعمار ولم يكن قد تعدى الخامسة عشر من عمره . وفيها معنى جديد للوحدة الإفريقية . وفيها بدء مرحلة جديدة فى حياة الوحدة الإفريقية .

ومن الزعماء الإفريقيين الذين قضوا أجل عمرهم فى كفاح لا يعرف هوادة ونضال دامى ضد الاستعمار الزعيم المناضل جومو كينياتا (رئيس جمهورية كينيا) .

فقد حضر كينياتا مؤتمر القمة الإفريقى الثانى بالقاهرة لأول مرة بعد استقلال بلاده وإلحاقها بمنظمة الوحدة الإفريقية . وتكلم كينياتا من خلال السنوات الطوال التى قضاها فى غمرة كفاح مستمر فقال :

« إن انتصار كينيا يعتبر انتصاراً لإفريقيا . والوحدة الإفريقية فى أعرض معانيها هى هدفنا الذى نحلم به وإن رغبة دول شرق إفريقيا فى الاتحاد تعد اتجاهاً طبيعياً ومنطقياً على ضوء ما حققناه بالفعل على مر السنين . . إن مستقبلنا فى أيدينا ولا يمكن للخلاص الإفريقى أن يتم إلا فى إفريقيا نفسها . فلنتحد ونبنى إفريقيا واحدة لها مصيرها المشترك .

ومنظمة الوحدة الإفريقية هى الجهاز الذى يجب أن يواجه الآن هذا التحدى .

عاشت منظمة الدول الإفريقية .

عاشت إفريقيا .

عاش السلام العالمى» .

وفرانسو تومبالباى رئيس جمهورية تشاد تحدث فى مؤتمر الأقطاب الإفريقيين بالقاهرة . فاستعرض سيادته كيف تمت الوحدة الإفريقية منذ أن ولدت فى أديس أبابا عام ١٩٦٣ وحتى انعقاد مؤتمر القمة الثانى بالقاهرة ووضح أن هناك دولا استقلت فى تلك الفترة وانضمت إلى المنظمة لتزيدها قوة وفعالية . مثل كينيا وملاوى وتنجانيقا ثم قال : إن الوحدة الإفريقية تعنى إعادة الحياة إلى القوى المعنوية جميعاً . ويجب ألا نشك فى أن منظمة الوحدة الإفريقية يجب أن تكشف عن عزمها على أن تسير قدماً بالمسائل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى الدول الأعضاء ويجب أن يكون همنا الأول رفع مستوى الحياة فى القارة جميعاً على أن الواقعية تقضى بأن نركز على هذا فى بلادنا فرادى ثم نحقق الوحدة بعد إنشاء وحدات اقتصادية إقليمية تجمع البلاد المجاورة . وقال رئيس وزراء أوغندة دكتور أ . ميلتون أوبوتى فى المؤتمر :

إن سياستنا هى توحيد إفريقيا حتى يمكن أن نعيش فى سلام مع باقى العالم . وإن سياستنا هذه على النقيض تماماً من تلك السياسة التى تقول : « إننا فقدنا دولا كثيرة إلا أننا لم نفقد قائداً » .

إن الدول الإفريقية لا تشعر بالتدخل من جانب القوى الغربية فى شئوننا الداخلية . إن هذا الشكل من أشكال الاستعمار الجديد الذى تبلور فى تلك الكلمات الشهيرة والذى تمثل فى جعل الحكم فى يد خدم الاستعمار وأتباعه بدلا من أبناء إفريقيا الحقيقيين ربما يكون أبشع خطر

يتهدد القواد الإفريقيين الوطنيين .

وليس ثمة دولة إفريقية واحدة بعيدة تماماً عن هذا الخطر وسوف أتجاسر وأقول إن الزمن ليس بجانبنا على الإطلاق وإنه يجب تعيين لجنة خاصة من بين لجنة التسعة كى تبحث مدى خطورة هذه القوى الخصبة التى هى ألاعيب الاستعمار الجديد – فى تسابقهم الثانى على إفريقيا .

لقد حان الوقت لمواطنى العالم لأن يتطلعوا لزعامة جهات لم يألفوها من قبل ، وأريد أن أوقظ الأرواح الخاملة لأبناء وبنات إفريقيا وأن أستدعيهم لزعامة عالم إفريقيا المجهد والذى خاب أمله . يجب أن نقبل التحدى . إن هذه البداية الموفقة المنظمة تعد انتصاراً منقطع النظير سجلته صفحات التاريخ .

وما الانتصارات التى توجت جهودها والتغيير الذى طرأ على طريقة حياة ووحدة الغرض للشعب الإفريقى –

ما كل ذلك إلا علامات تشير إلى شكل المستقبل .

وفيما يلى نص الخطاب الذى ألقاه الأمين العام للأمم المتحدة فى الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الثانى لدول منظمة الوحدة الإفريقية فى القاهرة فى الفترة من ١٧ – ٢١ يوليو عام ١٩٦٤ والذى يوضح حقيقة الوحدة الإفريقية والأمم المتحدة :

تلبية لدعوة مؤتمر القمة الإفريقى ، ألقى أوثانت الأمين العام للأمم المتحدة الخطاب الآتى :

إننى لأعده شرفاً عظيماً لى وامتيازاً بارزاً أن يتاح لى الاشتراك فى هذا المؤتمر التاريخى ، ولقد كان الأمل يساورنى فعلا فى حضور المؤتمر الأول لرؤساء الدول والحكومات الإفريقية الذى عقد بأديس أبابا فى العام الماضى والذى كان دون ريب حدثاً تاريخياً ولكن لسوء الحظ حيل بينى وبين تحقيق هذه الأمنية فى آخر لحظة وما فتئت من ذلك

الحين أتطلع إلى حلول هذه المناسبة التي أستطيع فيها أن أحيي زعماء إفريقيا الجديدة وأن أتبادل الآراء معهم .

وقد أشرت منذ لحظة إلى مؤتمر القمة الإفريقي الأول ووصفته بأنه كان حدثاً فذاً في التاريخ لا لأنه كان أول اجتماع من نوعه بل لأنه أدى لمولد منظمة الوحدة الإفريقية وأن ميثاقه كما ذكرت في العام الماضي لهو بمثابة وثيقة تاريخية تؤكد من جديد رغبة الأقطار الإفريقية لتحقيق الوحدة والتضامن بل ربما بلوغ هدف أعظم شأناً هو التعاون الدولي .

ولقد كان لمؤتمر أديس أبابا ومنظمة الوحدة الإفريقية أثر مشهود في شئون العالم وفي الأمم المتحدة .

أما فيما يتصل بالأمم المتحدة فإننا ما فتئنا منذ عدة أعوام نعترف بالحاجة الملحة لإسداء المعونة للدول الإفريقية وهي بسبيل بذل الجهود لجعل الاستقلال السياسي تطوراً ذا معنى وكذلك اعتبار الوحدة الإفريقية أداة لتحقيق التقدم السياسي والاقتصادي للقارة بأسرها .

وهكذا . . في حين عملت الأمم المتحدة على تزويد القارة بأكبر نصيب في حدود مواردها من المعونة لتنفيذ البرامج القومية للتنمية ، فقد اشتركت أيضاً في السير قدماً بالخطط الإقليمية وأنشأت معاهد مثل اللجنة الاقتصادية لإفريقيا كوسيلة لتحقيق التعاون بين كافة الدول الإفريقية .

ولقد أخذت وكالات الأمم المتحدة فعلا في التعاون مع الأجهزة ذات الشأن التابعة لمنظمة الوحدة الإفريقية وإننا لنتطلع إلى مشاركة أوثق وفقاً للمبادئ التي يتضمنها ميثاق الأمم المتحدة .

وإنه لمن دواعي اغتباطي أن أرى أن ميثاق الوحدة الإفريقية لا يتفق وميثاق الأمم المتحدة في الشكل فحسب بل إنه ليؤكد من جديد الأغراض الأساسية والمبادئ التي يتضمنها ميثاق الأمم المتحدة . فقد جاء

فى ديباجته تعزيز ما يوحى للدول الإفريقية أن تؤيد المبادئ الواردة فى ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان — فقد جاء فى المادة الثانية من ميثاق الوحدة الإفريقية ما يقضى بأن يكون من أغراض منظمة الوحدة الإفريقية :

« إن تعزيز التعاون الدولى بما يتفق وميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان » ويؤكد كذلك من جديد طائفة من المبادئ مثل المساواة فى السيادة بين كافة الدول وعدم التدخل فى الشئون الداخلية لها والعمل على تسوية المنازعات بالوسائل السلمية وهو من أهم المبادئ التى ينادى بها ميثاق الأمم المتحدة .

وإن قيام إفريقيا الناهضة باعتناق هذه المبادئ لهو تأييد ترحب به الأمم المتحدة كما أن التقدم الذى تحرزه الهيئات الإقليمية ، وفقاً للمبادئ التى ينادى بها ميثاق الأمم المتحدة ، من شأنه أن يوطد أركان الهيئة العالمية . . ففى مؤتمر أديس أبابا أكدت الدول الإفريقية مرة أخرى رغبتها « فى أن تعزز وتؤيد الأمم المتحدة ، وأن تؤكد من جديد أنها تكرس جهودها لتحقيق الأغراض وتأييد المبادئ الواردة فى ميثاق الأمم المتحدة وقبولها كافة الالتزامات التى يشملها الميثاق » .

وقد قررت أن تعرض مشكلاتها الحيوية على أجهزة الأمم المتحدة رغبة فى حلها .

ولقد ظل لإفريقيا على الدوام مركز خاص بالقياس إلى تلك المبادئ التى تنفذها الأمم المتحدة رغبة فى إسداء المعونة إلى الأقطار النامية وهى تؤدى مهمتها العظمى لإحراز التقدم لشعوبها فى الميدانين الاقتصادى والاجتماعى ، وإننى لأعتقد أن الثروة العظيمة للقارة التى قد تم فعلا استغلال بعض ما اكتشفت منها لكفيلة بتزويدها فى الوقت المناسب بما يكفل رفع مستوى المعيشة لكافة أبنائها ، وأمامنا فى تلك الأثناء مهمة

إسداء المساعدة إلى الأقطار الإفريقية لتنمية مواردها البشرية وكذلك كشف وتقدير ثروتها الخفية ومواردها المعدنية والبترولية وتوليد القوى الكهربائية من مساقط المياه .

وكما قلت فى مناسبة أخرى « إن لإفريقيا أكثر من شأن بوصفها الحارسة للكثير من الموارد التى لم يتم استغلالها فى الناحيتين البشرية والمادية وإن الأمر ليقتضى تنمية هذه الموارد دون إبطاء كلما كان ذلك فى حيز الإمكان لفائدة إفريقيا وسائر بنى البشر » .

وقد يجوز لى فى هذا المقام أن أقول كلمة بشأن المسائل التى هى موضع اهتمام للدول الإفريقية وفى مقدمتها الاستعمار والتمييز العنصرى ـ وأن موقف الأمم المتحدة نحو هذين الموضوعين وفقاً للأحكام الواردة فى ميثاقها وما تضمنه الإعلان التاريخى لحقوق الإنسان ، لهو موقف لا سبيل إلى التحول عنه والأمم المتحدة تؤيد الحكم الذاتى والاستقلال لكافة الشعوب والقضاء على التمييز العنصرى دون أية تحفظات ولا يمكن أن تقبل أية مساومة فى هذه المبادئ الأساسية .

وقد عنيت الأمم المتحدة عناية بالغة منذ إنشائها بحل هاتين المشكلتين واليوم لا تعتبر احترام حق الشعوب فى تقرير المصير وتأكيد المساواة من مبادئ الميثاق فحسب بل إنها لمن مقومات الأمم المتحدة التى أصبح يقف أعضاؤها من الدول الآسيوية والإفريقية التى نالت استقلالها منذ عهد قريب . .

وإن الأمم المتحدة لتفخر بما أحرزته من تقدم فى هذا الصدد مهما يكن متواضعاً أو ما قد يبدو متسماً بالتردد فى بعض الأحيان وإننا لنغتبط بمسلك الدول الاستعمارية فى هذا التطور إذا استثنينا دولة احدة أو اثنتين منها . فالدول الاستعمارية وتلك التى تصر على إنتهاج سياسة التمييز العنصرى ليزداد انعزالها ولتفقد اعتمادها على رضى الدول الأخرى وما تظهره

من صبر نحوها وهذا الانعزال للدول الاستعمارية قد أدى إلى تحقيق رغبة الدول الإفريقية لإبعاد المشكلات الاستعمارية والمتصلة بالتمييز العنصري من نطاق الحرب الباردة .

وإننا لنأمل أن يزداد الشعور بالحكمة وسداد الرأى الاعتراف بالواقع فلا يؤدى إصرار بعض الدول المتطرفة فى إصرارها على انتهاج هذه السياسة إلى تفاقم أسباب النزاع إلى نحو قد ينجم عنه تطورات خطرة فى القارة .

وأرى لزاماً أن أبرز أمراً هاماً وهو أن تحقيق الكيان الشامل لهو أهم أهدافها ولو أنه هدف ضمنى للأمم المتحدة فلن تستطيع الهيئة العالمية أن تكون لها سلطة أو صلاحية كاملة إلا إذا مثلت منها كافة الشعوب التى تؤيد أغراضها ومبادئها .

ولقد كان استقلال الشعوب الإفريقية مصدراً لقوة الأمم المتحدة والرأى عندى أن هدف التمثيل الشامل لعضوية الأمم المتحدة يحتاج إلى القضاء على الاستعمار وعلى عدم إنكار الحقوق الأساسية للأشخاص بسبب العنصر أو الدين أو اللغة أو الجنس .

ولذلك فإن المشكلات التى أشرت إليها ، ليست من المشكلات التى تعنى بها الأمم المتحدة فحسب بل لما يؤثر فى مركز الهيئة ذاتها .

وقد اعترفت الجمعية العامة بأن دوافع الرغبة التى تبديها الدول الإفريقية فى إحراز مزيد من التمثيل فى مختلف الأجهزة التابعة للأمم المتحدة لهى رغبة تقوم على أساس من الحقوق المشروعة والأمل وطيد فى تحقيق ذلك قبل انقضاء زمن طويل وإن الأمل ليساورنى أيضاً فى أن المصاعب العملية سيتاح التغلب عليها وأن القارة ستنال ما هو من حقها من تمثيل عادل فى الهيئة .

وهل لى أن أذكر فى هذا الصدد أن المسألة الجوهرية ليست بشأن

عدد الأصوات أو المقاعد ولكن بما تؤديه الدول من أعمال تكفل تأييد مبادئ الأمم المتحدة وأغراضها .

فقد يكون من رأى البعض فى بعض الأحيان أن إنشاء تكتلات أو جماعات فى نطاق الأمم المتحدة قد يؤدى إلى تسرب الضعف إلى كيانها يدفع الدول إلى القيام بمساومات بدلاً من اتخاذ قرارات إيجابية لحل هذه المشكلات ، فالأمم المتحدة بطبيعة الحال لن تقوم بدور محدود فى عالم منقسم إلى تكتلات يناهض بعضها البعض ولكن الأمل وطيد فى أن تعيش معاً فى سلام وحسن جوار سواء كان ذلك وفقاً لما إصطلح على تسميته « بالتعايش السلمى » أو « الحياد الإيجابى » أو « عدم الانحياز » وأن ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية قد أيد مبدأ عدم الانحياز وأنه لمما يدعو للغبطة أن هذا المبدأ قد أخذت به عدة دول أخرى .

ويعترف ميثاق الأمم المتحدة ذاته بالقيمة الإيجابية للتدابير الإقليمية التى تتفق وأغراضها ومبادئها ، فقد يكون لتدابير إقليمية كهذه أثر ذو شأن فى تنمية الشعور بأن الأمم المتحدة مركز صالح للعمل على تناسق أعمال مختلف الدول على نحو يؤدى إلى بلوغ هذا الهدف المشترك ، ويمكن ذكر عدة أمثلة خلال العشرين عاماً الماضية ، على التضامن والمشاعر الأخوية بين الشعوب التى تقطن إحدى المناطق الآسيوية أو العربية أو الإفريقية أو الأمريكية — اللاتينية — وقد ساعد نشاط هذه الهيئات الإقليمية على منع قيام منازعات أو تفاقمها بحيث تصبح ذات خطر .

وطالما أمكن كفالة الاعتراف والاحترام لما يقع على كاهل الأمم المتحدة من مسئولية فإن هذه التكتلات الإقليمية لخليقة بأن تؤدى لتحقيق الأغراض التى ينادى بها الميثاق ، فالمهمة القائمة أمامنا هى فى الواقع تعزيز نشر هذه المشاعر بين كافة بنى الإنسان .

وأرى لزاماً أن أشير فى هذه المناسبة إلى مشكلة لا تزال موضع اهتمامى الشديد منذ تقلدت مهام منصبى هذا وهى الحالة المالية للأمم المتحدة ، فإنها لتعانى فى الوقت الحالى ضائقة يرجع أغلب أسبابها إلى ما حدث منذ أربع سنوات حين عهد إليها بأن تقوم بعملية واسعة النطاق لإقرار السلام فى قلب قارة إفريقيا .

وبعد تلك الفترة الطويلة انتهت هذه المهمة منذ بضعة أيام بعد أن أن أمكن تحقيق أغلب الأهداف التى حددها مجلس الأمن . والجمعية العامة ، والأزمة المالية التى حدثت فى أعقاب القيام بهذه المهمة تهدد بإحداث أثر سيئ لا لصلاحية الهيئة فى المستقبل للقيام بعمليات لإقرار السلام فحسب بل أيضاً لصلاحيتها بوصفها هيئة عالمية وهذه مشكلة أرغب فى أن ألفت أنظاركم إلى ماتتطلبه من إجراء عاجل . وأعتقد أن جميع الدول الأعضاء ترغب فى التعاون على الأخذ بالوسائل والسبل التى تتيح للهيئة أن تتغلب على أسباب هذه الضائقة التى تجتمع سحبها فى الأفق . فيتاح فى الوقت المناسب حل المشكلة بأثرها على أساس موجب للرضى .

واسمحوا لى بأن أنهى هذه الكلمة القصيرة بالإشارة مرة أخرى إلى ميثاق الأمم المتحدة فقد كان من الأهداف المؤسسة للامم المتحدة منذ تسعة عشر عاماً « أن تنقذ الهيئة الأجيال القادمة من ويلات الحرب التى فى خلال حياتنا الراهنة قد جلبت على الإنسانية ويلات يعجز عنها الوصف » . . . ولتحقيق هذه الغاية يقرر الميثاق — فيما يعلنه — أن تعمل الدول الأعضاء على « أن نأخذ أنفسنا بالتسامح وأن نعيش معاً فى سلام وحسن جوار وأن نضم قوانا لنحتفظ بالعلم والأمن الدولى » .

فكيف يتاح لنا أن نأخذ أنفسنا بالتسامح ؟ . . . وكيف يمكننا أن نوجه عقولنا الوجهة التى تمكننا من أن نعيش معاً فى سلام وحسن

جوار ؟ . . وكيف يمكننا أن نضم قوانا لكى نحتفظ بالسلم والأمن الدولى . . ويبدو لى أن الإجابة عن هذه الأسئلة امتاح بما يكون فى وسعنا من أن نعتمد على خير ما فى نفوسنا وأن نعود إلى الأخذ بالمبادئ الخلقية التى تقوم على أساسها كل الديانات العظمى فلنكرس أنفسنا إذن للوفاء بعهد جديد بأن نجعل من المسلم والهندوسى والمسيحى والبوذى أشخاصاً أصلح مما هم عليه الآن .

وبعد . فهذه الكلمة للسيد أمين عام الأمم المتحدة توضح فى صدق كيف يتفق ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية مع ميثاق الأمم المتحدة . وأن ميثاق الوحدة الإفريقية من شأنه أن يؤكد من جديد الأغراض الأساسية والمبادئ التى تضمنها ميثاق الأمم المتحدة . وقد جاء ذلك ضمن المادة الثانية (الأغراض) حيث تقول إن من أهدافها :

«تنمية التعاون الدولى، آخذين فى الاعتبار ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان » .

وقد أشار أوثانت أيضاً إلى أن مواد ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية قد صاغ طائفة كثيرة من المبادئ مثل :

(ا) المساواة فى السيادة بين جميع الدول الأعضاء .

(ب) عدم التدخل فى الشئون الداخلية لها والعمل على تسوية المنازعات بالوسائل السلمية .

ولا شك أن ذلك من صميم مبادئ وأهداف الأمم المتحدة .

تعريف ببعض الزعماء الإفريقيين الذين وقعوا ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية في أديس أبابا — مايو عام ١٩٦٣

الرئيس جمال عبد الناصر :



الرئيس جمال عبدالناصر
رئيس الجمهورية العربية المتحدة

ولد جمال عبدالناصر فى ١٥ يناير عام ١٩١٨ بمدينة الإسكندرية وقبل أن يمر على مولده عامان اندلعت ثورة ١٩١٩ المشهورة ورضع جمال لبان هذه الثورة . فانعكست آثار ذلك على صفحات عقله وجرت الثورة فى عروقه .

كان والده عبد الناصر حسين يعمل موظفاً بالبريد وكان يتنقل من بلد إلى آخر بحكم عمله هذا . ولذلك فقد تعلم جمال تعليمه الأولى فى بلدة الخطاطبة. وأتم دراسته الابتدائية فى الإسكندرية

وبعد ذلك التحق جمال بالقسم الداخلى بمدرسة حلوان الثانوية عام ١٩٢٩ ومكث بها عاماً واحداً وانتقل بعد ذلك إلى مدرسة رأس التين الثانوية ثم عاد للقاهرة ليلتحق بمدرسة النهضة حيث استكمل دراسته الثانوية بها . ونال شهادة البكالوريا فى يونيو عام ١٩٣٦ .

وكانت رغبته بعد ذلك أن يلتحق بالكلية الحربية ليؤهله ذلك إلى

خدمة وطنه والدفاع عنه . لكنه لم يقبل وتحول منها إلى كلية الحقوق بجامعة القاهرة فى أكتوبر عام ١٩٣٦ . وظل بكلية الحقوق خمسة شهور يدرس القانون حتى أعلنت الكلية الحربية عن حاجتها إلى طلاب جدد فتقدم إليها وقبل مع أربعين آخرين وكان ذلك فى مارس عام ١٩٣٧ .

تخرج فى الكلية الحربية فى أول يوليو عام ١٩٣٨ وجاء فى تقرير الكلية الحربية عنه ما يأتى :

١ — حصل على درجة جيد فى العلوم العسكرية .
٢ — محب للضبط والربط والألعاب الرياضية .
٣ — خدم فى كتيبة البنادق الخامسة المشاة فى منقباد ثم الثالثة المشاة .
٤ — رقى إلى ملازم أول فى مايو عام ١٩٤٠ . ثم إلى يوزباشى فى سبتمبر سنة ١٩٤٢ .
٥ — أسند إليه منصب أركان حرب الكتيبة على الرغم من أنه برتبة يوزباشى وذلك لكفاءته .
٦ — انتدب مدرساً فى الكلية الحربية فى ٧ فبراير عام ١٩٤٣ والتف حوله الطلبة راضين عنه لأنهم وجدوا فيه شيئاً جديداً يقوم على التفاهم والإقناع والعدل .
٧ — نجح فى امتحان القبول لكلية أركان الحرب فى نوفمبر عام ١٩٤٥ .

وكان من رفاقه الملازم عبد الحكيم عامر ويشغل حالياً منصب النائب الأول لرئيس الجمهورية العربية المتحدة ونائب القائد الأعلى للقوات المسلحة .

٨ — جاء فى التقرير النهائى عنه فى كلية أركان الحرب أنه على درجة كبيرة من الخلق والتحفظ وأنه وديع ومسالم . وقد منح النجمة العسكرية والمشبك فى عام ١٩٤٩ .

رقى إلى رتبة بكباشى أركان حرب عام ١٩٥١ .

قاد ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ بنجاح وإيمان لا حد له .

فى ٣٠ يناير عام ١٩٥٣ أعلن جمال عبد الناصر أن الجلاء الكامل شرط لتحسين العلاقات مع بريطانيا . وقال كلمته المشهورة « على الاستعمار أن يحمل عصاه على كتفه ويرحل أو يقاتل حتى الموت دفاعاً عن بقائه » .

وكانت ثورة ٢٣ يوليو أول ثورة فى إفريقية تطرد المستعمر من أرض الوطن وتواجه عدواناً مسلحاً تنتصر عليه بإرادتها الثورية، وبقوى الرأى العام العالمى .

لقد قدم عبد الناصر قائد هذه الثورة عونه وتأييده التام لكل حركات التحرر الوطنى فى إفريقيا . حتى أصبحت ثورة ٢٣ يوليو نوراً وضاء يعاون تلك الشعوب على تبديد الظلام الذى تعيشه شعوب القارة الإفريقية .

وزعماء إفريقيا أنفسهم يقرون هذه الحقيقة وبأن ثورات إفريقيا كلها مدينة له .

فقال موديبو كيتا رئيس جمهورية مالى : « نحن الذين عرفنا من قبل الرئيس جمال عبد الناصر من خلال كتابه الرائع « فلسفة الثورة » لم ندهش من مثل هذا التصميم فى الدفاع عن مثل عليا ندين بها ولا من مثل هذه الإرادة التى تستهدف توفير الرفاهية لشعبه . . . إنه واحد من القادة القلائل فى العالم الذى استطاع بخبرته ودرايته وثقافته واطلاعه أن يحرر ليس شعب الجمهورية العربية المتحدة فحسب ولكن شعوب إفريقيا مدينة له بتلك الصيحة المدوية التى أطلقها من القاهرة فاهتزت لها أركان القارة الإفريقية كلها . . . إن ثورات إفريقيا إنما تدين له بهذه الصيحة العالمية التى أرعبت المستعمرين وهزت شعوبنا فثارت وتحررت . . . إن ما يعجبنى فى الرئيس جمال عبد الناصر هو ثقته بنفسه وبمبادئه وكفاءته وحزمه وحسن تقديره » .

وقال الرئيس جوموكينياتا رئيس جمهورية كينيا : « لقد قضيت أياماً قليلة مع الرئيس جمال عبد الناصر . وقبل أن أقدم إلى مصر قرأت بياناً عنه . ولما جئت هنا أستطيع أن أصدر حكمى على هذا الرجل العظيم . إن جمال عبد الناصر لا شك رجل عظيم وإن الثورة لمدينة له ولإخلاصه . . . إن الثورة دون جمال عبد الناصر لن تكون ثورة » .

وقال الدكتور هاستنجز باندا رئيس دولة ملاوى : « إن جمال عبد الناصر علمنا اليوم كيف نقف فى وجه القوى الكبرى وننتصر عليها . ولدينا الدليل فى إدارته دفة قناة السويس بكفاءة أدهشت العالم وأبطلت أقاويل الاستعمار . وكذلك قال الاستعمار إن مصر لا تصلح للصناعة بحجة جفاف جوها وغير ذلك .

ولكن الرئيس جمال عبد الناصر . أبطل هذه الأقاويل وأنشأ فى مصر صناعة ناهضة ناجحة» .

لقد شغلت شخصية عبد الناصر الرأى العام العالمى ويتحدث الكثير عنه بالخير والرضى ولا يتسع لى المقام هنا لذكرها ولكنى سأعود حتماً ومن جديد لمحاولة أخرى عن شخصية هذا البطل وما تتسم به من حب للسلام وحرص دائم على صداقة الشعوب . .

لقد وثب عبد الناصر بالثورة المصرية إلى مكانة مرموقة على المسرح الدولى بعد أن خطا خطوات عظيمة منها :

١ ــ طرد الملك .
٢ ــ إعلان النظام الجمهورى .
٣ ــ توزيع الملكية الزراعية .
٤ ــ إخراج الإنجليز .
٥ ــ كسر احتكار السلاح .
٦ ــ مؤتمر باندونج .
٧ ــ الحياد الإيجابى .
٨ ــ تأميم قناة السويس .
٩ ــ سحق قوات العدوان الثلاثى .

١٠ — تمصير البنوك والشركات الأجنبية .
١١ — مولد القطاع العام .
١٢ — بدء الحركة التعاونية .
١٣ — تجربة الوحدة بين مصر وسوريا .
١٤ — اتفاقية السد العالى .
١٥ — الانطلاق فى السياسة الإفريقية .
١٦ — خطة مضاعفة الدخل القومى .
١٧ — بدء العمل فى مشروع السد العالى .
١٨ — إعلان الثورة الاشتراكية .
١٩ — إعلان مشروع الميثاق الوطنى .
٢٠ — قانون الاتحاد الاشتراكى العربى .
٢١ — افتتاح أول مجلس أمة يمثل تحالف قوى الشعب العاملة .
٢٢ — تحويل مجرى نهر النيل .
٢٣ — تجميع قوى عدم الانحياز لحماية البشرية من اندلاع الحرب المدمرة

ولم يكن من السهل تحقيق كل هذه الأحداث العظيمة وهذا التطور الضخم والخطير فى مصر أولا ثم فى المنطقة العربية ، ثم فى المنطقة الإفريقية . . ثم على المستوى العالمى . فى ثلاثة عشر عاماً من عمر ثورة ٢٣ يوليو . . ثورة عبد الناصر .

ولكنه قد تحقق بالفعل وسر ذلك يكمن فى صلابة ثورية متطرفة لا تعرف اللين .

إن هذه الخطوط العريضة التى ترسم ملامح التطور والتحول على مستوى شعبه وأمته العربية وعلى مستوى إفريقيا كلها وعلى الصعيد العالمى اعتمدت أولا وأخيراً على صلابة جمال عبد الناصر . وعلى إيمانه بأن

الشعب قادر على الحركة ، وعلى الصمود . وعلى تحقيق تطلعاته . إذا هو انطلق عن هدف . ووضحت أمامه معالم الطريق .

وقبل أن أختم حديثى عن شخصية جمال عبد الناصر مضطراً يجدر بى أن أشير إلى أن إفريقيا قبل ثورته البيضاء لم يكن بها سوى أربع دول مستقلة هى :

ليبريا — إثيوبيا — مصر وكان استقلالها غير كامل — ليبيا واليوم وبعد ثلاثة عشر عاماً من ثورة عبد الناصر أصبحت الدول المستقلة فى إفريقيا ستة وثلاثين دولة . تجمعهم منظمة الوحدة الإفريقية والعمل المشترك من أجل سيادة إفريقيا وحريتها وتحقيق الرفاهية لشعوبها . .

الإمبراطور هيلا سلاسى :

تعنى كلمة هيلاسلاسى الإرادة القوية والمختار من الرب . ويرجع عرش هيلاسلاسى فى التاريخ إلى : بلقيس ملكة سبأ .

هو من مواليد عام ١٨٩٢ بأديس أبابا .

تعلم بمدرسة مثليك فى نفس البلدة وهذه المدرسة كانت خاصة بأبناء الطبقة الأرستقراطية . ولم يتعد عمره حينئذ العاشرة !.



الإمبراطور هيلاسلاسى
الأول إمبراطور إثيوبيا

توج ملكاً على الحبشة عام ١٩٢٨ وفى عام ١٩٣٠ توج إمبراطوراً عليها .

وحينما أعلنت إيطاليا الحرب على إثيوبيا عام ١٩٣٥ فى شهر أكتوبر زحفت الجيوش الإيطالية نحو بلاده واستعملت أشد أساليب العنف والقسوة لتحقيق أغراضها الاستعمارية .

وفى أبريل عام ١٩٣٦ ترك البلاد ولجأ إلى أوربا وعاش فى إنجلترا

نفسها ولم يلبث أن انتقل إلى مصر والسودان وبقى بهما مدة طويلة .

وفى ٥ مايو عام ١٩٤١ عاد هيلاسلاسى إلى بلاده واستطاع أن يطرد المستعمرين من بلاده ويحقق لبلاده الاستقرار والسلام وفى عام ١٩٦٠ قام بعض الناس من أهالى مدينة أديس أبابا بانقلاب ضده ولكنه تمكن من إخماد ذلك .

والإمبراطور هيلاسلاسى هو الذى وجه الدعوة إلى عقد مؤتمر يضم رؤساء الدول الإفريقية المستقلة فى أديس أبابا فى الفترة من ٢٢–٢٥ مايو عام ١٩٦٣ . وعن هذا المؤتمر انبثقت منظمة الوحدة الإفريقية وأصبحت أديس أبابا مقراً للمنظمة .

ومن كلماته المأثورة :

« لا يوجد بديل الآن للتعاون والوحدة الإفريقية . فما من دولة إفريقية يمكنها أن تأمل فى أن تحقق عاجلا حياة مادية أفضل لشعبها إذا قفت فى عزلة عن الدول الإفريقية الأخرى .

وما من دولة إفريقية يمكنها اليوم أن تعاون بجهدها المنفرد على خلاص الدول الإفريقية التى مازالت ترزح تحت نير العبودية » .

الرئيس أحمد سيكوتورى :



الرئيس أحمد سيكوتورى
رئيس جمهورية غينيا

ولد أحمد سيكوتورى فى يناير عام ١٩٢٢ وهو حفيد الزعيم الإسلامى الكبير (سامورى تورى) الذى حارب فرنسا حتى نهاية القرن التاسع عشر . وينتسب أحمد سيكوتورى إلى قبيلة مالينيك وهى الأسرة المحاربة المشهورة التى تمكنت من أن تلحق بفرنسا أفدح الخسائر .

وقد شبت فيه روح الثورة على الاستعمار ولم يكن عمره قد تعدى

الخامسة عشر عاماً . وبعد أن أتم تعليمه الابتدائى التحق بكلية التدريب الفنى . وأكمل دراسته بالمراسلة ، ثم عمل موظفاً بالسكة الحديد . ثم عين عضواً فى المؤتمر التأسيسى لحزب التجمع الديمقراطى . ثم سكرتيراً للحزب الديمقراطى فى عام ١٩٥٢ .

تدرج فى مناصب نقابية كثيرة حتى صار أقوى زعيم لنقابات العمال فى غينيا . ومن هنا كانت له شعبية ضخمة كان لها الفضل الأكبر فى التأثير على الشعب الغنى ودفعه ليقولا كلمة « لا » أثناء الاستفتاء على دستور ديجول عام ١٩٥٨ .

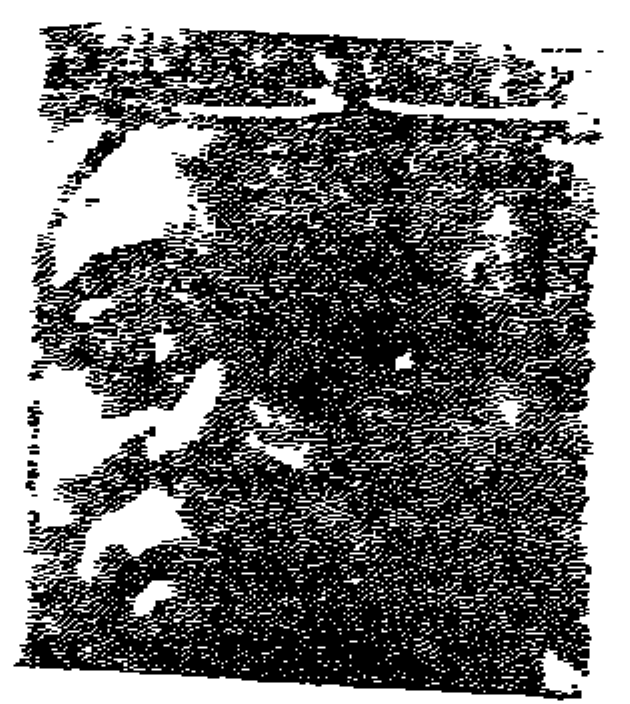
استقلت بلاده فى أكتوبر عام ١٩٥٨ . وتولى رياسة الحكومة .

وفى عام ١٩٦١ انتخب أول رئيس لجمهورية غينيا .

وهكذا كان سيكوتورى دائماً على رأس الطليعة الثورية الواعية بغينيا حتى وصل لمركزه بالعمل والكفاءة .

ومن أهم كلماته المأثورة :

« إن تطور بلادنا فى جو من السلام والانسجام يتطلب درجة عالية من التعاون ، إننا نرى دائماً أنه يجب اعتبار إفريقيا كجسم آدمى ، إذا بتر منه إصبع تألم جميع الجسم » .



الرئيس موديبوكيتا
رئيس جمهورية مالى

الرئيس موديبوكيتا :

ولد كيتا فى ٤ مايو عام ١٩١٥ فى باماكو انتخب سكرتيراً لحزب المجتمع الديمقراطى منذ عام ١٩٤٦ . كان مدرساً منذ بدأ حياته العملية وحتى عام ١٩٥٦ .

وفى عام ١٩٥٨ انتخب سكرتيراً عاماً لحزب المجتمع الديمقراطى .

عين عضواً بالاتحاد الفرنسي عام١٩٥٣ . وفاز كذلك فى انتخابات سنة ١٩٥٥ ، وأصبح عضواً فى الجمعية الوطنية الفرنسية عن السودان الفرنسى .

تولى رئاسة الحكومة فى إتحاد مالى بداكار حتى إنضم للاتحاد فى أغسطس عام ١٩٦٠ .

هو صاحب فكرة تغيير اسم بلاده من السودان الفرنسى إلى جمهورية مالى إحياء لإمبراطورية مالى الإسلامية القديمة التى كانت تمتد من نهر السنغال غرباً حتى نهر النيجر شرقاً فى القرن الثالث عشر الميلادى . .

وأعلن استقلال مالى فى ٢٢ سبتمبر عام ١٩٦٠ .

وموديبو كيتا هو أحد الزعماء الذين اختارهم مؤتمر دول عدم الانحياز الأول فى بلجراد لمقابلة الرئيس الراحل جون كيندى من أجل السلام العالمى وتدعيمه .

الدكتور قوامى نكروما :

ولد نكروما فى ٢١ سبتمبر عام ١٩٠٩ بقرية نكروفول بالمنطقة القريبة من ساحل الذهب . وينتمى إلى أسرة من عامة الشعب . ألحقه والده بمدرسة الإرسالية الكاثوليكية المارونية فى مدينة هاف أسينى . حيث كان يعمل فيها . وبعد ذلك انتقل إلى مدرسة كاثوليكية أخرى فى سيكوندى حيث أتم تعليمه الفنى وحصل على منحة دراسية للتدريب على التدريس فى كلية أشيموتا .



الدكتور قوامى نكروما
رئيس جمهورية غانا

وبعد أن نضج فكرياً صمم على السفر للخارج للقيام بدراسات عليا . وسافر لأمريكا بالفعل عام ١٩٣٥ . وبعد أن حصل على بكالريوس فى الآداب تحول إلى دراسة العلوم الاجتماعية وتخرج بدرجة ماجستير فى الآداب وفى الفلسفة وماجستير فى العلوم السياسية من جامعة بنسلفانيا .

عمل محاضراً فى جامعة لنكولن فى العلوم السياسية عام ١٩٤٣ .وفى عام ١٩٤٥ وصل لندن والتحق بمعهد الدراسات الاقتصادية كطالب متفرغ ليحصل على درجة الدكتوراه .

وفى العام نفسه انتخب نائباً لرئيس اتحاد طلبة إفريقيا الغربية .

وفى عام ١٩٤٨ نفى الدكتور نكروما من أكرا مع غيره من الزعماء الوطنيين . وأفرج عنه عام ١٩٥١ وأصبح رئيساً للوزارة .

استقلت بلاده فى مارس عام ١٩٥٧ .

تزوج من أسرة عربية فى مصر .

يطلقون عليه فى بلاده اسم « اللاوساجيفو » أى المنقذ .

ومن كلماته المأثورة : «إن العامل الأساسى الذى وحدنا فى أديس أبابا العامل القوى الذى جعل جميع الخلافات والمصاعب تبدو تافهة وغير ثابتة ـ هو حاجتنا إلى أن نحرر هذا الجزء من قارتنا الذى لا يزال فى قبضة الإمبريالية . . . .

كانت منظمة الوحدة الإفريقية إعلاناً لعزمنا على الاتحاد . وكانت تلك بداية مبشرة بالخير . ولكننا نحتاج إلى أكثر من ذلك يجب أن نتحد الآن تحت لواء حكومة اتحاد إذا كان لهذا العزم أى معنى أو أى ثبوت » .

الرئيس يوليوس نيريرى :



الرئيس يوليوس نيريرى
رئيس جمهورية تنزانيا

من مواليد عام ١٩٢١ كان أبوه زعيماً لقبيلة تنجانيقية .

أتم تعليمه فى كلية « ماكيربرى » بأوغندة . وهى الجامعة المركزية لدول شرق إفريقيا .

بدأ نيريرى حياته مدرساً . وسافر بعد ذلك إلى إنجلترا عام ١٩٤٩ وحصل على ليسانس فى التاريخ والاقتصاد من جامعة أدنبرة .

وفى عام ١٩٥٣ أصبح رئيساً لحزب الاتحاد الوطنى الإفريقى لتنجانيقا والذى كان يسمى « نانو » .

وفى عام ١٩٥٨ دخل نيريرى أول انتخابات الجمعية التشريعية للبلاد وفاز حزبه « نانو » بسعبين مقعداً وبمقتضى ذلك أصبح نيريرى رئيساً للوزراء .

وفى نوفمبر عام ١٩٦٢ اكتسح انتخابات رئاسة الجمهورية وحصل على ٥٥,٠١٤ مقابل ١٦٧٣ صوتاً .

من الأحداث الهامة التى أكدت للعالم الإفريقى إيمان نيريرى بالوحدة الإفريقية وفعاليتها . أنه فى أول عام ١٩٦٤ حدثت اضطرابات فى بلاده من جانب الجيش ونزلت القوات البريطانية بلاده . ولكن نيريرى بعث ببرقيات إلى رؤساء الدول الإفريقية لعقد جلسة طارئة لمنظمة الوحدة الإفريقية لمسح الإذلال الوطنى وهو احتلال بريطانيا لبلاده .

يطلق على حكم نيريرى حكم « تعايش الأجناس » ذلك أن آراءه بالنسبة للأوربيين تتسم بالاعتدال .

من مؤلفاته « أسوار الديمقراطية » .

ومن كلماته :

« إنى أعتقد بعزم أنه مثلما كانت الوحدة ضرورية لتحقيق الاستقلال فى تنجانيقا أو أية أمة أخرى ؛ فإنها ضرورية بالمثل للتدعيم والمحافظة على الاستقلال الذى نحققه فى الوقت الحاضر فى أجزاء مختلفة من إفريقية » .

وقد تم الاتحاد بين بلاده وبين زنزبار فى ١٩٦٤/٤/٢٥ .

الرئيس آدن عبد الله عثمان :



الرئيس آدن عبدالله عثمان
رئيس جمهورية الصومال

ولد آدن عام ١٩٠٨ ، وعمل موظفاً أثناء الاحتلال البريطانى لبلاده .

وفى عام ١٩٤٤ أصبح آدن من أبرز الشخصيات لحزب وحدة الشعب الصومالى . وفى عام ١٩٥٦ أصبح رئيساً له .

استقلت بلاده فى يوليو عام ١٩٦٠ .

ومن أهم أهدافه تحقيق مشروع الصومال الكبير الذى يضم الصومال الحبشى والكينى والفرنسى بالإضافة إلى جمهورية الصومال الآن .

ومن كلماته فى مؤتمر القمة الإفريقى الثانى : «إن الشعب الصومالى وكذلك أنا ، ندرك مبلغ أهمية هذا المؤتمر من رؤساء الدول الإفريقية ، فجميع آمالنا فى التضامن والوحدة الإفريقية تقع تماماً على عاتق هذه المنظمة العظيمة التى أنشأناها » .

الدكتور نامدى أزيكيو :



أبو بكر تفاوا بليوا
رئيس وزراء نيجيريا

من مواليد نوفمبر عام ١٩٠٤ بمدينة زنجير إحدى مدن شمال نيجيريا . وقد أتم مراحل تعليمه كلها بتفوق .

وفى عام ١٩٢٥ أرسله والده إلى أمريكا للدراسة . وتمكن أزيكيو بفضل تصميمه وعزيمته من ممارسة رياضة الملاكمة ليكسب منها ويواصل دراسته الجامعية .

فى عام ١٩٣٤ حصل أزيكيو على أربع درجات علمية منها الدكتوراه فى القانون والدكتوراه فى الآداب .

عاد لنيجيريا فى عام ١٩٣٧ واشتغل بالصحافة فأسس جريدة وست أفريكان بيلوت West African Billot .

وفى عام ١٩٤٤ اختير سكرتيراً عاماً لحزب المجلس الوطنى لنيجيريا والكاميرون . وفى عام ١٩٤٧ انتخب عضواً فى المجلس التشريعى المركزى بلاجوس ثم عضواً فى البرلمان المحلى ثم وزيراً فى الحكومة المحلية .

وفى نوفمبر عام ١٩٦٠ احتفلت جمهورية نيجيريا بتنصيبه حاكما عاماً

وفى عام ١٩٦٣ أصبح أزيكيو أول رئيس لجمهورية البلاد .

وتحدث الدكتور أزيكيو أمام رؤساء الدول الإفريقية المجتمعين فى لاجوس فى ٢٥ يناير عام ١٩٦٢ .

فقال سيادته عن الوحدة الإفريقية ما يأتى :

« إن قضية الوحدة الإفريقية ماضية إلى الأمام بسرعة وفى إمكان الدول الأفريقية أن تكون منفصلة كأصابع اليد ، وذلك فيما يتعلق بمسائلها المحلية . ولكنها تستطيع أن تكون متحدة كقبضة اليد فيما يتعلق

بالمسائل الخارجية والاهتمامات العامة » .

وقال أيضاً :

« إن الوحدة التي ينشدها هذا المؤتمر ليست بالوحدة القائمة على أساس التوحيد المفروض فرضاً . . إن الوحدة الشاملة أمر مستحيل . . ولكننا نستطيع أن نحقق الوحدة فى ظل التنوع » .

الرئيس أحمدو أهيدوجو :



الرئيس أحمد وأهيدوجو
رئيس جمهورية
الكاميرون

ولد أهيدوجو عام ١٩٢٢ فى مدينة جروا فى شمال الكاميرون وأتم تعليمه الابتدائى والعالى فى مدينة ياوندة .

وفى عام ١٩٤٢ عمل موظفاً بالبريد .

بدأ أهيدوجو نشاطه السياسى عام ١٩٤٧ إذ انتخب عضواً بالمجلس النيابى بالكاميرون وأعيد انتخابه عام ١٩٥٢ .

وفى العام نفسه انتخب مستشاراً بمجلس الاتحاد الفرنسى .

تولى أهيدوجو رئاسة الوزارة بموافقة مجلس الأمة فى ١٨ فبراير عام ١٩٥٨ . ثم رئيساً للجمهورية منذ عام ١٩٦٠ بعد أن فاز حزبه بأغلبية ساحقة فى الانتخابات .

وفى أول أكتوبر عام ١٩٦١ اتحد الكاميرون الذى كان تحت الوصاية البريطانية مع جمهورية الكاميرون وكونا معاً جمهورية الكاميرون الفيدرالية .

الرئيس جوزيف كازافوبو :



الرئيس جوزيف كازافوبو رئيس جمهورية الكنغو ليوبلدفيل

من مواليد عام ١٩١٧ .. أتم تعليمه فى مدارس الإرساليات التبشيرية ليصبح قسيساً . ينتمى إلى قبيلة أباكو التى تقطن المنطقة بين ليوبلدفيل والمحيط الأطلسى .

ويعتبر كازافوبو من أنصار الحكومة الفيدرالية بالكنغو .

استقلت جمهورية الكنغو « ليوبلدفيل » فى يونيه عام ١٩٦٠ ومنذ ذلك التاريخ والصراع الاستعمارى على أشده بسبب ثروتها المعدنية .

قامت هناك حروب أهلية عجزت الحكومة تماماً عن القضاء عليها . وأرسلت الأمم المتحدة قواتها هناك لمدة عامين .

وأثناء الاحتفال بالعيد الرابع للاستقلال رحلت قوات الأمم المتحدة .

وفى شهر يونيو عام ١٩٦٤ عاد تشومبى إلى الوزارة فاستقال رئيس وزرائها واشتد الصراع من جديد . ولم يلبث أن طرده كازافوبو وكلف إيفاريستى كيمبا بتأليف الوزارة . .

ولم تزل الأوضاع فى الكنغو ليوبلدفيل تتسم بالاضطرابات المستمرة والحروب الأهلية الطاحنة . والاستعمار من وراء ذلك كله يدبر ويخطط ليحقق أطماعه الدنيئة .

الرئيس جرجوار كايباندا :



الرئيس كايباندا
رئيس جمهورية رواندا

رئيس جمهورية رواندا التي استقلت في يوليو عام ١٩٦٢ واشتركت في تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية بأديس أبابا عام ١٩٦٣ .

عمل كايباندا فترة طويلة بالصحافة البلجيكية واكتسب خبرات عظيمة مكنته من أن يقود بلاده من نصر إلى نصر ويحقق لهم الأمن والسلام بالرغم من أن سكان رواندا ينتمون إلى باهوتو وهم يمثلون أكثر من ٨٣٪ من مجموع السكان . وبانونس ويمثلون حوالى ١٧٪ من مجموع السكان .

ومن كلماته المشهورة :

« إن الوحدة الإفريقية استطاعت دائماً أن تكلل أعمالها بالنجاح ضد المستعمرين أو ضد أعداء إفريقيا » .

الملك مواميوتسا :



الملك مواميوتسا
ملك بوروندى

رئيس دولة بوروندى التي تقع في وسط إفريقيا جنوب رواندا شرق الكنغو « ليوبلدفيل » وعاصمتها « كيتيجا » ويرفض مواميوتسا فكرة إقامة اتحاد بين بلاده وجمهورية رواندا خاصة بعد الانقلاب الذى حدث بها وطرد ملك رواندا .

وطبيعة تقسيم السكان إلى باهوتو وبانونس تشبه تماماً مثيلاتها في رواندا .

ويطلق على رواندا ويورندى سويسرا إفريقيا لما تتمتع به من جمال الطبيعة الجبلية الخيالية .

وقد حضر الملك موامبوتسا مؤتمر القمة الإفريقى الثانى بالقاهرة وألقى خطاباً وطنياً قال فيه :

« إننا يجب أن نجعل أساساً لعملنا تسوية خلافاتنا وانقساماتنا وأن نعمل تحت راية التفاهم على إقامة تعاون فعال . . . إن مهمة المنظمة الإفريقية ستبقى فعالة فى تحرير شعوب أنجولا وموزمبيق وغينيا البرتغالية وتطهير روديسيا الجنوبية » .

وقد أعرب الملك موامبوتسا عن إيمان شعب بلاده بالحياد الإيجابى ودعا إلى العمل من أجل إخراج القارة من التخلف الذى تعانيه شعوبها .

الرئيس ليون مبا :



الرئيس ليون مبا
رئيس جمهورية جابون

ولد ليون مبا عام ١٩٠٢
وفى عام ١٩٥٦ تولى منصب عمدة ليبرفيل .
وفى عام ١٩٦١ أصبح رئيساً لجمهورية جابون وتولى منصب وزير الدفاع فيها .
أصبحت بلاده عضواً فى الجمعية العامة للأمم المتحدة بعد شهر من الاستقلال .
اشترك فى تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية عام ١٩٦٣

الرئيس ألفونس ماسامباديبا :



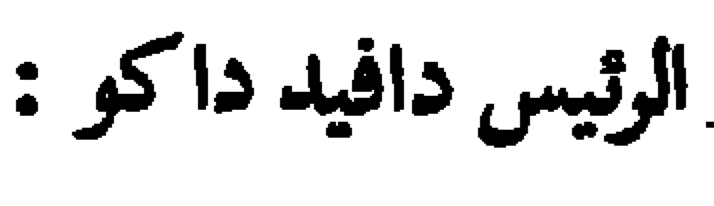
الرئيس الفونس
ماسامباديبا
رئيس جمهورية الكنغو
برازفيل

رئيس جمهورية الكنغو « برازفيل » التى تقع فى إفريقيا الاستوائية الفرنسية .

استقلت بلاده فى أغسطس عام ١٩٦٠ ويعتبر ألفونس ماسامباديبا أول رئيس حكومة مؤقته قامت فى ١٥ أغسطس عام ١٩٦٣ . بعدالانقلاب الذى أطاح بحكومة الأب يولو.

وقد انضمت جمهورية الكنغو برازفيل إلى الأمم المتحدة بعد شهر من الاستقلال .

كانت بلاده عضواً فى المجموعة الفرنسية الإفريقية .



الرئيس دافيد داكو :



الرئيس دافيد داكو
رئيس جمهورية وسط
إفريقيا

رئيس جمهورية وسط إفريقيا التى تقع فى إفريقيا الاستوائية .

تخرج من مدرسة المعلمين وأصبح ناظراً لمدرسة بانجوى .

شغل منصب نائب للمجلس التشريعى عام ١٩٥٨ ثم زعيماً لحزب التحرر الاجتماعى عام ١٩٦٠ .

وقد استقلت بلاده فى أغسطس عام ١٩٦٠ ودخلت الأمم المتحدة فى ٢٠ سبتمبر عام ١٩٦٠ .

قضى معظم أيام عمره فى بانجى عاصمة بلاده . منذ مولده وحتى شغل منصب رئيس الجمهورية .

الرئيس فرانسو تومبالباى :



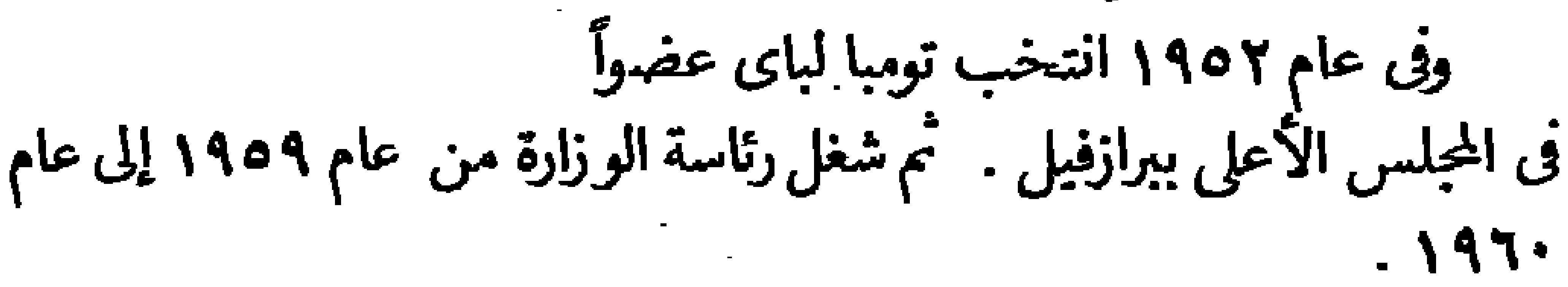
الرئيس فرنسوا تومبالباى
رئيس جمهورية تشاد

من مواليد عام ١٩١٨ ببلدة بيسادا من مقاطعة كومرا شرق جمهورية النيجر .

استهل حياته بالتدريس وكانت له شعبية عظيمة .

انتخب مستشاراً لمقاطعة كومرا فى عام ١٩٤٦ .

وأعيد انتخابه فيما بعد .



وفى عام ١٩٥٢ انتخب تومبا لباى عضواً فى المجلس الأعلى ببرازفيل . ثم شغل رئاسة الوزارة من عام ١٩٥٩ إلى عام ١٩٦٠ .

وكان تومبالباى المرشح الوحيد للانتخابات التى أجريت فى شهر مارس عام ١٩٦٢ . وقد فاز فيها .

دخلت بلاده الأمم المتحدة فى سبتمبر عام ١٩٦٠ واشتركت فى تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية عام ١٩٦٣ .

وقد حضر تومبالباى مؤتمر القمة الإفريقى الثانى بالقاهرة ١٧ — ٢١ يوليو عام ١٩٦٤ .

ومن كلماته المشهورة عن الوحدة الإفريقية :

« إن الوحدة الإفريقية تعنى إعادة الحياة إلى القوى المعنوية جميعاً . ويجب ألا نشك فى أن منظمة الوحدة الإفريقية يجب أن تكشف عن عزمها على أن تسير قدماً بالمسائل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى الدول الأعضاء ويجب أن يكون همنا الأول رفع مستوى الحياة فى القارة جميعاً على أن الواقعية تقضى بأن نركز على هذا فى بلادنا ثم نحقق

الوحدة بعد إنشاء وحدات اقتصادية إقليمية تجمع البلاد المتجاورة »[١]

الملك مويتسا الثانى:



الملك مويتسا الثانى
رئيس جمهورية أوغندة

كان ملكاً بالانتخاب لمقاطعة يوجندا أكبر مقاطعات أوغندة . انتخب رئيساً لجمهورية أوغندة فى عام ١٩٦٣ بواسطة أعضاء البرلمان« الكاباكا» لمدة خمس سنوات .

معروف عنه شجاعته فى الرأى والعمل . عارض كثيراً وزير المستعمرات البريطانى « أوليفر ليتلتون » وتصريحاته . نفته بريطانيا خارج البلاد عام ١٩٥٣ . وترتب على ذلك انفجار ثورة عارمة بسبب منفاه.

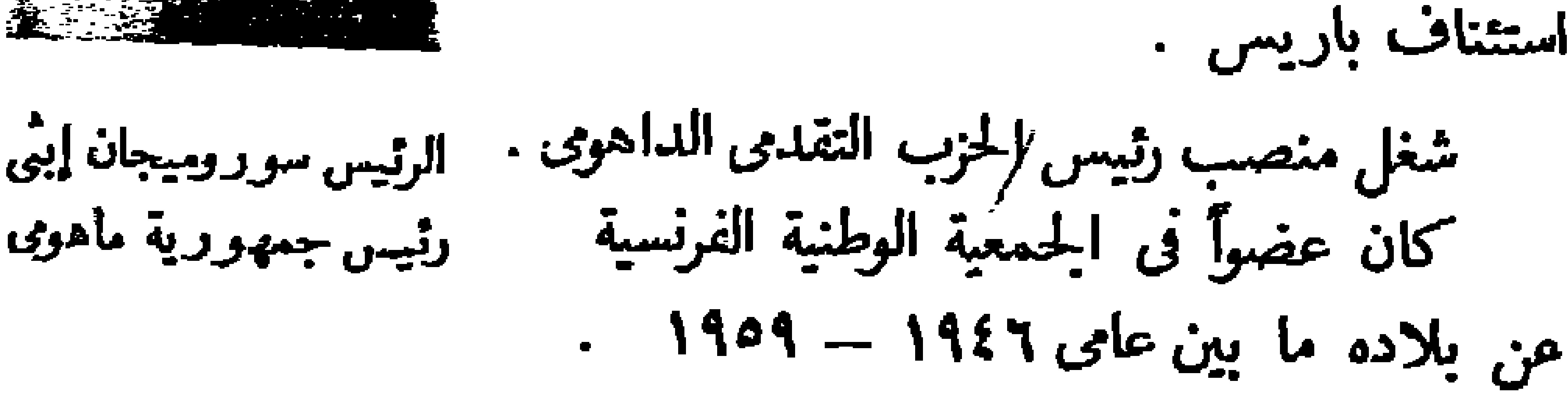
أعادته بريطانيا تحت ضغط الثورات المتلاحقة من شعب أوغندة .

الرئيس سورو ميجان إبثى :



رئيس جمهورية داهومى. من مواليد عام ١٩١٣ .

درس السياسة فى مدرسة العلوم السياسية بباريس . وعمل خبير حسابات أمام محكمة استئناف باريس .



الرئيس سورو ميجان إبثى
رئيس جمهورية داهومى

شغل منصب رئيس الحزب التقدمى الداهومى . كان عضواً فى الجمعية الوطنية الفرنسية عن بلاده ما بين عامى ١٩٤٦ — ١٩٥٩ .

---

(١) النص الكامل للخطاب باللغة الفرنسية منشور فى الطبعة الفرنسية من كتاب « مؤتمر رؤساء الدول والحكومات لمنظمة الوحدة الإفريقية » .

كما شغل مناصب وزير المالية والدولة والاقتصاد قبل أن تستقل بلاده .
استقلت بلاده فى أغسطس عام ١٩٦٠ .
عين وزيراً للتنمية والتخطيط ثم نائباً لرئيس جمهورية داهومى .
ومن كلماته المشهورة عن الوحدة الإفريقية :
« إن منظمة الوحدة الإفريقية يجب أن تعيننا على أن يصبح هذا العصر — فى الواقع — عصر إفريقيا . . . لقد كان العالم الخارجي يظن أن اجتماع أديس أبابا ليس إلا رحلة سياحية . ولكن إفريقيا قد أذهلت العالم بعد تسوية الخلافات بين المغرب والجزائر . . وهدأت الخلافات بين الصومال وإثيوبيا . . ولم يعد الآن مجال للشك فى سلطة منظمتنا وفعاليتها » .

الرئيس هومنييه بوينييه :



الرئيس هومنييه بوينييه رئيس جمهورية ساحل العاج

رئيس جمهورية ساحل العاج . من مواليد عام ١٩٠٥ بمدينة ياما سوكرو . وينتمى إلى عائلة ثرية من أصحاب مزارع القهوة والكاكاو .
وقد باشر مهنة الطب فى مدينة داكار حتى عام ١٩٤٠ ، وشغل منصب نقيب الأطباء .
وفى عام ١٩٤٦ أسس بوينييه « النقابة الفلاحية الإفريقية » والتى تحولت فيما بعد إلى « المجتمع الديمقراطى الإفريقى »
انتخب بوينييه نائباً عن ساحل العاج فى المجلس التأسيسى ثم فى مجلس الأمة منذ عام ١٩٤٥ .

وفى عام ١٩٥٦ شكل الوزارة وانتخب شيخاً لمدينة أبيدجان ثم رئيساً للجمهورية عام ١٩٦٠ . بعد أن استقلت بلاده فى أغسطس عام ١٩٦٠ .

الرئيس فولبير تسيرانانا :

رئيس جمهورية مدغشقر « ملاجاش »

كان يعمل منذنشاطه بالتدريس وظل فى هذه المهنة حوالى ١٢ عاما .

وفى عام١٩٥٦ انتخب نائباً عن مدغشقر فى الجمعية الفرنسية ثم سكرتيراً عاما للحزب الاشتراكى الديمقراطى الملاجاشى .

وعندما أصبح رئيساً للحكومة المؤقته عام ١٩٥٨ عفا عن جميع المسجونين السياسيين .

استقلت بلاده فى مارس عام ١٩٦٠ .

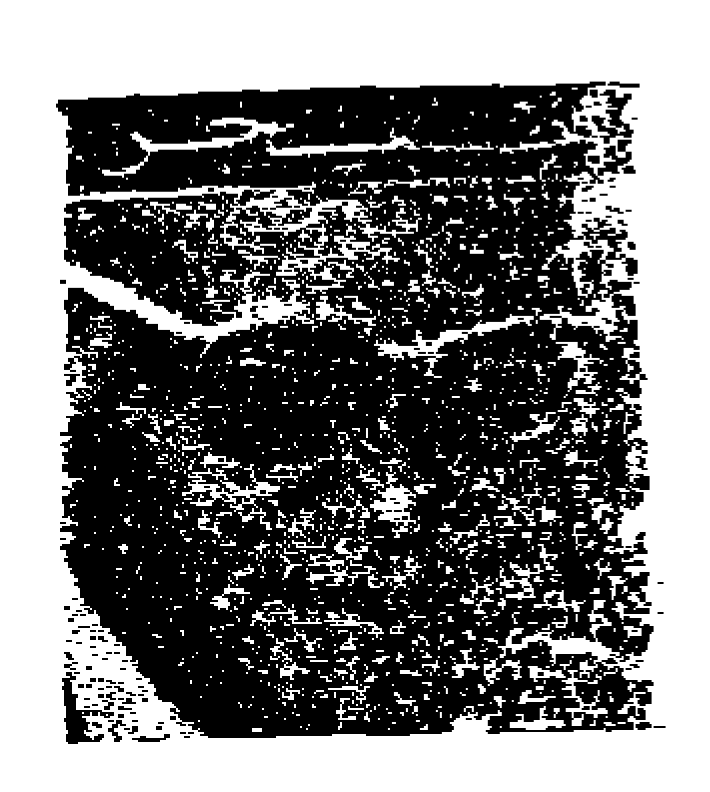


الرئيس فولبير تسيرانانا
رئيس جمهورية
ملاجاش « مدغشقر »

ويقول فيلبرت سيرانانا عن الوحدة الإفريقية : « إن الوحدة الإفريقية ستكون ثمرة الكفاح ضد أعدائنا المشتركين. وإن منظمة الوحدة الأفريقية يجب أن تكون لها قوة قوية لدى وجود أى خطر يتهدد أى دولة إفريقية بدلا من تدخل أى دولة أجنبية » .

ثم قال : « إن خلاص إفريقيا من الاستعمار يكمن فى وحدتها التى تعتمد على التنمية الثقافية والتجارية والمعاملات بين الدول » .

الرئيس هامانى ديورى :

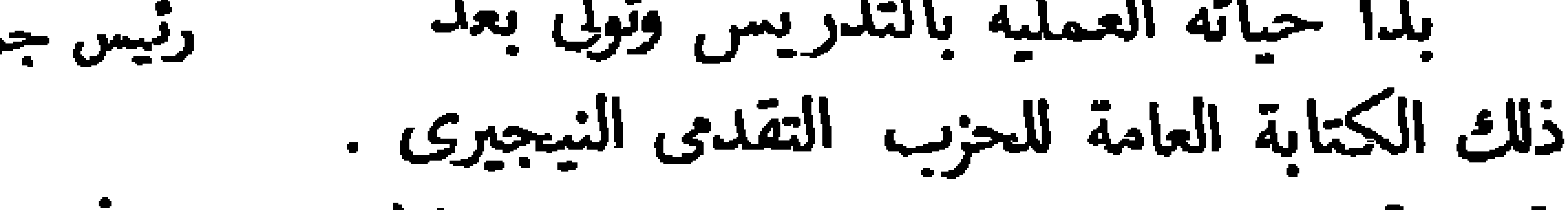


الرئيس هامانى ديورى
رئيس جمهورية النيجر

رئيس جمهورية النيجر . من مواليد يونيو عام ١٩١٦ ببلدة بسودورى فى مديرية نيامى بالنيجر .

أتم تعليمه الابتدائى فى المدرسة الإقليمية بنيامى وانتقل بعد ذلك إلى مدرسة وليام بونتى بالسنغال .

بدأ حياته العملية بالتدريس وتولى بعد ذلك الكتابة العامة للحزب التقدمى النيجيرى .



وفى الفترة من عام١٩٥٨ حتى عام١٩٥٩شارك ديورى فى إدارة الاتحاد للجامعة الفرنسية الإفريقية .

لمع اسمه عندما انتخب نائباً عن منطقة زندر فى المجلس التشريعى الذى صار فيما بعد الجمعية الوطنية (١٩٥٩) شغل منصب رئيس حزب التقدم النيجيرى .

فى عام ١٩٥٨ كان أول رئيس للحكومة المؤقتة ثم لمجلس الوزراء فى عام ١٩٦٠ . وفى نوفمبر من العام نفسه انتخب ديورى رئيساً للجمهورية النيجيرية .

الرئيس موريس ياميجو :



الرئيس موريس ياميجو
رئيس جمهورية فولتا
العليا

رئيس جمهورية فولتا العليا :

من مواليد عام ١٩٢١ بكودوجو .

بدأ حياته محاسباً واكتسب شعبية عظيمة في بلاده .

انتخب رئيساً للاتحاد الديمقراطي في فولتا العليا المتفرع عن المجتمع الديمقراطي الإفريقي منذ ٣٠ ديسمبر عام ١٩٥٩

تولى منصب وزير الاقتصاد الزراعي ثم الداخلية في عامى ٥٧—١٩٥٨ .

وفي عام ١٩٥٩ تولى منصب رئيس الوزارة . ثم رئيساً للجمهورية عام ١٩٦٠ بعد أن حصلت بلاده على الاستقلال .

الرئيس ليوبلدسيدار سنجور :



الرئيس ليوبلد سنجور
رئيس جمهورية السنغال .

رئيس جمهورية السنغال : من مواليد أكتوبر عام ١٩٠٦ بجوال . تلقى دراسته في المدارس الكاثوليكية في السنغال . توجه بعد ذلك إلى معهد لويس الرابع عشر ويلقب «لويس الأعظم» في باريس .

أكمل تعليمه العالي في السوربون بباريس . وكان سنجور أول إفريقي يحصل على إجازة للتدريس .

خدم سنجور مع المشاة الفرنسية واعتقله الألمان وسجنوه مدة أربع سنوات . وبعد انتهاء الحرب أصبح عضواً نشيطاً في ميدان السياسة

الفرنسية الإفريقية وانتخب أربع مرات كممثل للسنغال فى الجمعية الوطنية الفرنسية . انخرط فى حزب « أحرار ما وراء البحار » وانتخب مستشاراً عاماً للسنغال وعضواً فى المجلس الأعلى لإفريقيا الغربية .

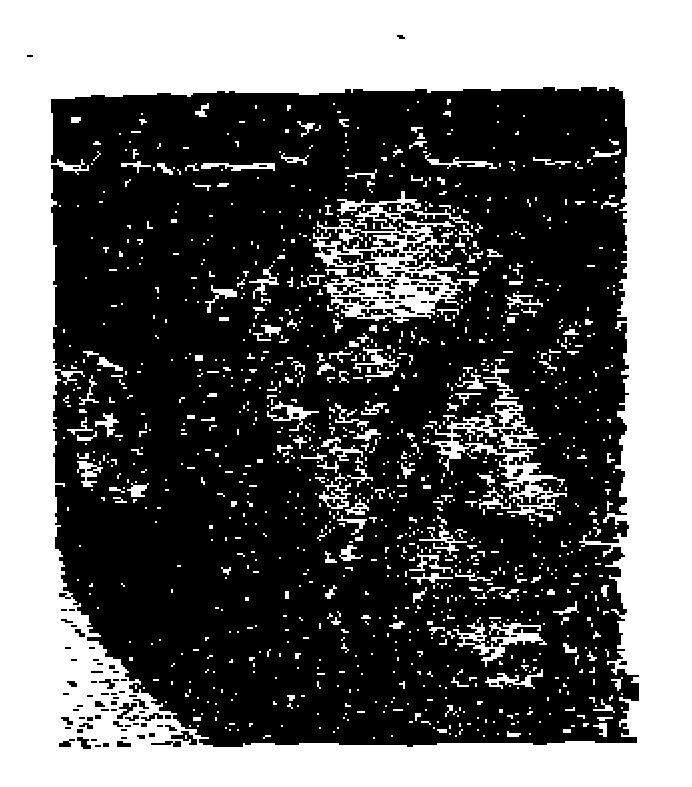
وفى عام ١٩٥١ قام بتنظيم الكتلة الديمقراطية السنغالية التى حصلت على أغلبية المقاعد فى الانتخابات الداخلية لمجلس النواب فى السنغال .

وفى عام ١٩٥٨ انضم حزبه إلى الاشتراكيين السنغاليين بزعامة لامين جوميه لتكوين الاتحاد السنغالى التقدمى .

عند تأسيس جمهورية مالى التى كانت تضم السنغال — والسودان الفرنسى السابق — انتخب رئيساً لمجلس الأمة . وحين انفصلت السنغال عن اتحاد مالى قصير الأجل فى عام ١٩٦٠ انتخب سينجور رئيساً لجمهورية السنغال . وعلاوة على نشاطه السياسى ومركزه الأدبى الممتاز فهو شاعر وأديب فقد نشر أربعة مجلدات عن الشعر وديواناً للشعراء لإفريقيين . كما أنه من المنادين بإحياء الثقافة المقتربة بمفهوم الزنجية .

ويكتب سينجو للنشر فى جمعية الثقافة الإفريقية .

الرئيس ألبرت مارجاى :



الرئيس ألبرت مارجاى
رئيس جمهورية
سيراليون

رئيس جمهورية سيراليون .

من مواليد عام ١٩١١ فى قرية مندى بإقليم موپامبا .

شقيق رئيس الوزراء الراحل ميلتون مارجاى .

تلقى مارجاى تعليمه فى المدارس الكاثوليكية فى يونتى وسيراليون .

وفى عام ١٩٣٢ أدخله والده مدرسة الخدمات الطبية ليصبح طبيباً مثل شقيقه ميلتون .

كان شديد الحب للسياسة ولذلك فقد ذهب للندن فى عام ١٩٤٤ للدراسة القانون واهتم بدراسة قضايا المستعمرات .

كان أول محام عرفته سيراليون قبل الاستقلال كما كان شقيقه أول طبيب .

انتخب مارجاى عضواً فى مجلس مقاطعة موبامبا .

وفى عام ١٩٤٩ انتخب عضواً فى مجلس سيراليون وعرف بطلاقة لسانه وقوة رأيه بين أعضاء المجلس .

تولى عدة وزارات مثل المعارف والمالية والثروة الطبيعية . وفى عام ١٩٥٧ . انضم إلى حزب المعارضة الذى ألفه سا كيا وهو حزب المؤتمر الشعبى .

فى عام ١٩٦٠ كان ضمن أعضاء وفد مباحثات الدستور فى لندن وعند عودته انفصل عن حزب المؤتمر الشعبى . له شعبية عظيمة ومحبوب فى سيراليون من مؤيديه ومعارضيه .

استقلت بلاده عن بريطانيا فى أبريل عام ١٩٦١ .

من كلماته عن الوحدة الإفريقية : إن « المهمة الكبرى التى أمامنا اليوم ، هى أن نجعل منظمتنا والأجهزة المختلفة التابعة لها تعمل بفاعلية وإنه للزام علينا ألا ندخر وسعاً فى سبيل جعل منظمة الوحدة الإفريقية حقيقة واقعة فى وقتنا هذا . فلنبذل كل ما فى وسعنا لمحاربة تسلل الاستعمار والاستعمار الجديد الذى يتخذ أشكالا مختلفة من أجل تحطيم وحدتنا والتقليل من شأنها . . .

إن شعوب إفريقيا قادرة على الاتحاد وتقرير . مصيرها مجتمعة . . »

الرئيس وليام توبمان :

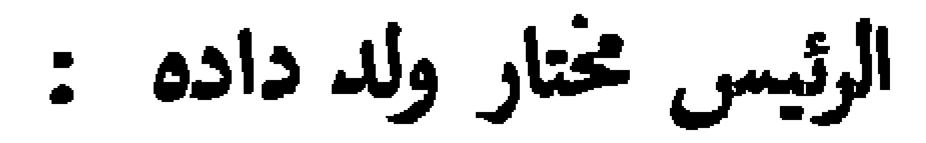


الرئيس وليام توبمان
رئيس جمهورية ليبريا

رئيس جمهورية ليبريا. من مواليد عام ١٨٩٨ تخرج من المدرسة المسيحية بكاب ومعهد كاتنتين .

دخل المحاماة فى عام ١٩١٧ . وانتخب فى مجلس الشيوخ عام ١٩٢٣ — ١٩٣١ ثم عام ١٩٣٤ — ١٩٣٧ .

وتعتبر ليبريا أقدم دولة إفريقية مستقلة فيعود تاريخ استقلالها إلى ٢٦ يوليو عام ١٨٤٧ . فقد أسست الولايات المتحدة الأمريكية بلاده عام ١٨٢٢ بواسطة جمعية المستعمرات الأمريكية . واعترف بها فى عام ١٨٤٧ .



الرئيس مختار ولد داده :



الرئيس مختار ولد داده
رئيس جمهورية
موريتانيا

رئيس جمهورية موريتانيا . من مواليد ديسمبر عام ١٩٢٤ ببوتيلميت بالقرب من نواكشوت عاصمة موريتانيا .

من رجال المحاماة البارزين .

حاصل على شهادة مدرسة اللغات الشرقية الحية .

كان كاتباً عاماً للحزب الموريتانى الجمهورى منذ يناير عام ١٩٥٨ .

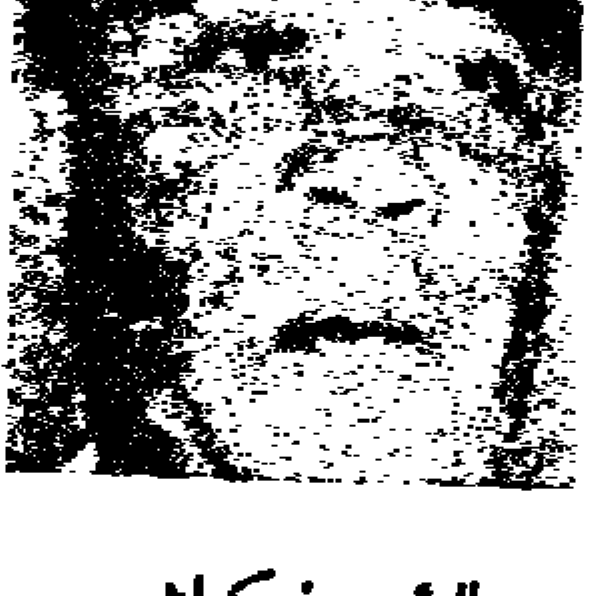
انتخب مستشاراً لمنظمة الادرار فى ٣١ مارس عام ١٩٥٧ ثم نائباً فى المجلس التأسيسى فى ٢٨ نوفمبر عام ١٩٥٨ .

شغل منصب وزير للشباب ثم التربية القومية عامى ١٩٥٧–١٩٥٨ .

ثم رئيساً لمجلس الوزراء ثم رئيساً للحكومة المؤقتة للجمهورية الإسلامية الموريتانية من ٢٦ يوليو عام ١٩٥٨ حتى ٢٦ يونيو عام ١٩٥٩ .

أمر بإعادة جميع المنفيين خارج البلاد بعد أن تولى منصب رئيس الجمهورية الموريتانية الإسلامية .

الرئيس نيكولاس جرونتسكى :



الرئيس نيكولاس جرونتسكى رئيس جمهورية توجو

رئيس جمهورية توجو ينحدر من أب ألمانى وأم توجية .

لأن توجو قبل استقلالها فى أبريل عام ١٩٦٠ كانت مستعمرة ألمانية منذ عام ١٨٨٤ حتى الحرب العالمية الأولى .

شغل منصب زعيم الحزب التقدمى فى عهد سيلفانوس أولمبيو .

شكل أول حكومة فى توجو عام ١٩٥٦ – ١٩٥٨ .

ظل فى منفاه بداهومى منذ عام ١٩٥٨ حتى استدعته حكومة الانقلاب فى يناير عام ١٩٦٣ لتشكيل الوزارة .

وهو صهر الرئيس سيلفانوس أولمبيو الذى قام ضده الانقلاب [١] .

---

(١) لم تشترك التوجو فى مؤتمر أديس أبابا نظراً لعدم وصول المؤتمر إلى اتفاق بشأن ذلك . كما لم توقع على الميثاق إلا بعده بشهرين .

الملك الحسن الثانى :



الملك الحسن الثانى
ملك المغرب

ملك المغرب : من مواليد عام ١٩٢٩ درس الحقوق فى فرنسا بجامعة بوردو عام ١٩٥١ . ثم حصل على شهادة الدراسات العليا للقانون المدنى من نفس الجامعة عام ١٩٥٢ .

نفته السلطات الفرنسية مع والده عام ١٩٥٣ . وحين رجع من المنفى تولى منصب قيادة القوات المسلحة الملكية . كان ينوب عن والده أثناء سفره للخارج فى حكم البلاد .

وفى ٢٩ مايو عام ١٩٦٠ عين الملك الحسن وكيلا لرئيس الحكومة ورأس الوفد المغربى فى هيئة الأمم المتحدة .

أصبح ملكاً للبلاد فى ٢٦ فبراير عام ١٩٦١ حين توفى والده المرحوم « محمد الخامس » .

الملك إدريس الأول :



الملك إدريس الأول
ملك ليبيا

ملك المملكة الليبية المتحدة : من مواليد عام ١٨٩٠ وهو أكبر رئيس دولة عربية سناً . ابن السيد محمد المهدى .

له نشاط عظيم ضد الإيطاليين أيام احتلالهم لبلاده .

قضى مدة طويلة بمصر أيام الحرب العالمية الثانية عندما احتلت دول المحور بلاده .

فى ٢ ديسمبر عام ١٩٥٠ وقعت مبايعته ملكاً على ليبيا .

وفى ٢٤ ديسمبر من عام ١٩٥١ جلس على عرش ليبيا .

يقوم ولى عهده الأمير الحسن الرضا بالاشتراك فى أغلب المؤتمرات الخارجية نظراً لكبر سنه وسوء صحته وقد حضر الأمير الحسن مؤتمر القمة الإفريقى الثانى بالقاهرة وتحدث عن الوحدة الإفريقية فقال :

« إن النجاح الذى حققناه خلال عام من قيام منظمتنا ليحفزنا إلى الاستمرار بقوة أكثر فى التعاون والتضامن وتحقيق الأهداف النبيلة التى نص عليها ميثاقنا » .

ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية

نحن رؤساء دول وحكومات إفريقية المجتمعين بمدينة أديس أبابا بإثيوبيا .

- مقتنعين بأن حق جميع الشعوب فى التحكم فى مصيرها إنما هو حق ثابت .
- ومقدرين بأن الحرية والمساواة والعدالة والكرامة هى أهداف أساسية لا غنى عنها لتحقيق الآمال المشروعة لشعوب إفريقيا .
- ومقدرين لمسئولياتنا فى توجيه الموارد الطبيعية والطاقات البشرية لقارتنا لتقدم شعوبنا التام فى مجالات النشاط الإنسانى.
- ومدفوعين بإرادة مشتركة لتوطيد التفاهم بين شعوبنا والتعاون بين دولنا استجابة لآمال شعوبنا فى تدعيم الأخوة والتضامن فى نطاق وحدة أكبر تتخطى كافة الاختلافات القومية والإقليمية .
- مقتنعين بأنه لترجمة هذا العزم إلى قوة دافعة تعمل على تحقيق التقدم الإنسانى فإنه يتعين توفير الظروف المواتية للسلام والأمن والمحافظة عليهما .
- ومصممين على المحافظة على الاستقلال الذى حصلنا عليه بمشقة وعلى تدعيمه وكذلك المحافظة على سيادة دولنا وسلامة أراضينا وتدعيمها ومكافحة الاستعمار الجديد فى كافة أشكاله .
- مكرسين أنفسنا للتقدم الشامل لإفريقيا .
- مؤمنين بأن ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان اللذان نؤكد هنا من جديد التزامنا بما تضمنا من مبادئ يهيئان أساساً متيناً لتعاون سلمى مثمر بين دولنا .

- تحدونا الرغبة بأن نرى من الآن جميع دول إفريقيا متحدة لتكفل الرفاهية والرخاء لشعوبها .
- كما عقدنا العزم على توثيق الروابط بين دولنا وذلك بإقامة منظمات مشتركة وتقويتها .
- واتفقنا فيما بيننا على ما يأتى :

المنظمة

المادة الأولى

اتفقت الأطراف السامية المتعاقدة بهذا الميثاق على إقامة منظمة تعرف باسم « منظمة الوحدة الإفريقية » وتضم هذه المنظمة دول القارة الإفريقية ومدغشقر والجزر المجاورة للقارة .

الأهداف

المادة الثانية

١ ـ تنحصر أهداف المنظمة فيما يأتى :

(ا) تقوية وحدة دول إفريقيا وتضامنها .

(ب) تنسيق وتقوية تعاونها وجهودها لتحقيق حياة أفضل لشعوب إفريقيا .

(جـ) الدفاع عن سيادتها وسلامة أراضيها واستقلالها .

(د) القضاء على الاستعمار فى جميع أشكاله من إفريقيا .

(هـ) تشجيع التعاون الدولى ، آخذين فى الاعتبار ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان .

٢ ـ لتحقيق هذه الأهداف ، ينسق أعضاء المنظمة سياساتهم العامة ويعملون على التوفيق بينها ، خاصة فى الميادين التالية :

(ا) التعاون السياسى والدبلوماسى .

(ب) التعاون الاقتصادى ، بما فى ذلك النقل والمواصلات .

(ج) التعاون التربوى والثقافى .

(د) التعاون الصحى والرعاية الصحية والتغذية .

(ه) التعاون فى الدفاع والأمن .

المبادئ

المادة الثالثة

تحقيقاً للأهداف المبينة فى المادة الثانية يؤكد أعضاء المنظمة ويعلنون ارتباطهم بالمبادئ الآتية :

١ ـ المساواة فى السيادة بين جميع الدول الأعضاء .

٢ ـ عدم التدخل فى الشئون الداخلية للدول الأعضاء .

٣ ـ احترام سيادة كل دولة وسلامة أراضيها وحقها الثابت فى كيانها المستقل .

٤ ـ التسوية السلمية للمنازعات عن طريق التفاوض ، الوساطة ، التوفيق أو التحكيم .

٥ ـ الاستنكار المطلق ، لأعمال الاغتيال السياسى فى جميع صوره وكذلك ألوان النشاط الهدام التى تقوم بها الدول المجاورة أو أى دول أخرى .

٦ — التفانى المطلق لقضية التحرير التام للأراضى الإفريقية التى لم تستقل بعد .

٧ — تأكيد سياسة عدم الانحياز تجاه جميع الكتل .

العضوية

المادة الرابعة

لكل دولة إفريقية مستقلة ذات سيادة الحق فى أن تصبح عضواً فى المنظمة .

حقوق الدول الأعضاء وواجباتها

المادة الخامسة

تتمتع جميع الدول الأعضاء بحقوق وواجبات متساوية .

المادة السادسة

تتعهد الدول الأعضاء بالالتزام الدقيق بالمبادئ المنصوص عليها فى المادة الثالثة من هذا الميثاق .

فروع المنظمة

المادة السابعة

تعمل المنظمة على تحقيق أهدافها عن طريق الفروع الرئيسية الآتية :

١ ــ مؤتمر رؤساء الدول والحكومات .
٢ ــ مجلس الوزراء .
٣ ــ الأمانة العامة .
٤ ــ لجنة الوساطة ، التوفيق والتحكيم .

مؤتمر رؤساء الدول والحكومات

المادة الثامنة

إن مؤتمر رؤساء الدول والحكومات هو الجهاز الأعلى للمنظمة . ويقوم وفقاً لأحكام هذا الميثاق بمناقشة المسائل ذات الأهمية المشتركة لإفريقيا بغية تنسيق السياسة العامة للمنظمة .
ويجوز لها بالإضافة إلى هذا إعادة النظر فى تكوين جميع أجهزة المنظمة وأوجه نشاطها أو أوجه نشاط أية وكالات متخصصة قد تنشأ وفقاً لأحكام هذا الميثاق .

المادة التاسعة

يتكون المؤتمر من رؤساء الدول والحكومات ومن ممثليهم المعتمدين ويجتمع المؤتمر مرة على الأقل كل عام . ويجتمع المؤتمر كذلك فى دورات غير عادية بناء على طلب أية دولة عضو وموافقة أغلبية الدول الأعضاء .

المادة العاشرة

١ ــ لكل دولة عضو صوت واحد .
٢ ــ تصدر جميع القرارات بأغلبية ثلثى أعضاء المنظمة .

٣ – يبت في المسائل المتصلة بالإجراءات بالأغلبية المطلقة ويقرر ما إذا كانت مسألة ما ذات صبغة إجرائية أم لا بأغلبية مطلقة لأعضاء المنظمة.

٤ – يتألف النصاب القانوني للمؤتمر من ثلثي أعضاء المنظمة وذلك في أي اجتماع له .

المادة الحادية عشرة

يضع المؤتمر لائحته الداخلية .

مجلس الوزراء

المادة الثانية عشرة

١ – يتألف مجلس الوزراء من وزراء الخارجية أو أي وزراء آخرين تعينهم حكومات الدول الأعضاء .

٢ – يجتمع مجلس الوزراء مرتين في العام على الأقل ويجتمع في دورات غير عادية بناء على طلب أية دولة عضو وموافقة ثلثي الأعضاء .

المادة الثالثة عشرة

١ – يكون مجلس الوزراء مسئولا أمام مؤتمر رؤساء الدول والحكومات . ويعهد إليه بالأعمال التحضيرية لاجتماعات المؤتمر .

٢ – يحاط المجلس علماً بأية مسألة محالة إليه من المؤتمر ، كما يقوم بتنفيذ قرارات مؤتمر رؤساء الدول وتنسيق أوجه التعاون الإفريقي طبقاً

لتوجيهات رؤساء الدول والحكومات ووفقاً للمادة الثانية (٢) من هذا الميثاق .

المادة الرابعة عشرة

١ — لكل دولة عضو صوت واحد .

٢ — تصدر جميع القرارات بالأغلبية المطلقة لأعضاء مجلس الوزراء .

٣ — يتألف النصاب القانونى من ثلثى أعضاء مجلس الوزراء وذلك فى أى اجتماع له .

المادة الخامسة عشرة

يضع مجلس الوزراء لائحته الداخلية .

الأمانة العامة

المادة السادسة عشرة

يعين مؤتمر رؤساء الدول والحكومات أميناً عاماً إدارياً للمنظمة يقوم بإدارة شئونها .

المادة السابعة عشرة

يكون للمنظمة أميناً عاماً مساعداً أو أكثر يعينهم مؤتمر رؤساء الدول والحكومات .

المادة الثامنة عشرة

تحدد مهام الأمين العام الإدارى وشروط خدمته وكذلك مهام الأمناء العامين المساعدين وشروط خدمتهم وغيرهم من موظفى الأمانة العامة وفقاً لأحكام هذا الميثاق واللوائح التى يقرها مؤتمر رؤساء الدول والحكومات .

١ — على الأمين العام الإدارى وهيئة الأمانة العامة ألا يطلبوا أو يتلقوا فى قيامهم بواجباتهم تعليمات من أية حكومة أو من أية سلطة خارجة عن المنظمة ، وعليهم الامتناع عن القيام بأى عمل قد يمس مراكزهم باعتبارهم موظفين دوليين مسئولين فقط أمام المنظمة وحدها .

٢ — يلتزم كل عضو فى المنظمة باحترام الصفة المطلقة لمسئوليات الأمين العام الإدارى وهيئة الموظفين ، وأن يمتنع عن التأثير عليهم فى قيامهم بمسئولياتهم .

لجنة الوساطة والتوفيق والتحكيم

المادة التاسعة عشرة

تتعهد الدول الأعضاء بتسوية جميع المنازعات التى تنشأ فيما بينها بالوسائل السلمية ، وقررت تحقيقاً لهذه الغاية ، إنشاء لجنة للوساطة والتوفيق والتحكيم ، ويكون تشكيل هذه اللجنة وتحديد شروط الخدمة فيها بمقتضى بروتوكول يوافق عليه مؤتمر رؤساء الدول والحكومات . ويعتبر هذا البروتوكول جزءاً لا يتجزأ من هذا الميثاق .

اللجان المتخصصة

المادة العشرون

ينشئ مؤتمر رؤساء الدول والحكومات اللجان المتخصصة التى يرى ضرورة إنشائها ، بما فى ذلك ما يلى :

١ ــ لجنة اقتصادية واجتماعية .
٢ ــ لجنة للتربية والثقافة .
٣ ــ لجنة الصحة والرعاية الصحية والتغذية .
٤ ــ لجنة الدفاع .
٥ ــ لجنة علمية وللأبحاث .

المادة الحادية والعشرون

تتألف كل لجنة من اللجان المتخصصة المشار إليها فى المادة العشرين من الوزراء المعينين أو من وزراء آخرين أو من مفوضين تعينهم حكومات الدول الأعضاء .

المادة الثانية والعشرون

تكون مباشرة اللجان المتخصصة لأعمالها وفقاً لأحكام هذا الميثاق وطبقاً للوائح التى قررها مجلس الوزراء .

الميزانية

المادة الثالثة والعشرون

يصدق مجلس الوزراء على ميزانية المنظمة التى يعدها الأمين العام الإدارى وتمول الميزانية بأنصبة من الدول الأعضاء طبقاً لجدول الأنصبة

المعمول به في الأمم المتحدة بشرط ألا يتجاوز نصيب أية دولة عضو ٢٠ ٪ من الميزانية السنوية العادية للمنظمة .

توافق الدول الأعضاء على دفع أنصبتها بصورة منتظمة .

توقيع الميثاق والتصديق عليه
المادة الرابعة والعشرون

١ — بجميع الدول الإفريقية المستقلة ذات السيادة أن توقع هذا الميثاق وتقوم الدول الموقعة بالتصديق عليه طبقاً لإجراءاتها الدستورية .

٢ — وتوزع الوثيقة الأصلية المحررة بلغات إفريقية إن أمكن — وباللغتين الإنجليزية والفرنسية وجميع هذه النصوص التي لها حجية متساوية تودع لدى حكومة إثيوبيا التي تقوم بإرسال نسخ معتمدة من هذه الوثيقة إلى جميع الدول الإفريقية المستقلة ذات السيادة .

٣ — وتودع وثائق التصديق لدى حكومة إثيوبيا التي تقوم بإخطار جميع الدول الموقعة على هذا الميثاق بهذا الإيداع .

دخول الميثاق دور التنفيذ
المادة الخامسة والعشرون

يدخل هذا الميثاق دور التنفيذ بمجرد استلام حكومة إثيوبيا لوثائق التصديق من ثلثي الدول الأعضاء الموقعين .

تسجيل الميثاق
المادة السادسة والعشرون

يسجل هذا الميثاق بعد التصديق عليه لدى سكرتارية الأمم المتحدة

عن طريق حكومة إثيوبيا طبقاً لأحكام المادة ١٠٢ من ميثاق الأمم المتحدة .

تفسير الميثاق

المادة السابعة والعشرون

يفصل فى أية مسألة تثار بشأن تفسير هذا الميثاق بأغلبية ثلثى أعضاء مؤتمر رؤساء الدول والحكومات .

القبول والانضمام

المادة الثامنة والعشرون

١ - يجوز لكل دولة إفريقية مستقلة ذات سيادة أن تخطر الأمين العام الإدارى فى أى وقت برغبتها فى الانضمام لهذا الميثاق .

٢ - يقوم الأمين العام الإدارى عند استلام مثل هذا الإخطار بإرسال نسخة منه إلى جميع الدول الأعضاء . ويتقرر قبول العضوية بالأغلبية المطلقة للدول الأعضاء . وتقوم كل دولة عضو بإبلاغ قرارها فى هذا الشأن إلى الأمين العام الإدارى الذى يقوم بدوره عند تلقى العدد اللازم من الأصوات بإبلاغ القرار إلى الدولة المعنية .

أحكام مختلفة

المادة التاسعة والعشرون

تكون اللغات التى يعمل بها فى المنظمة وفى جميع أجهزتها اللغات الإفريقية - كلما أمكن - واللغتين الإنجليزية والفرنسية .

المادة الثلاثون

يجوز للأمين العام الإدارى أن يقبل — نيابة عن المنظمة — الهبات والوصايا وغيرها المقدمة إلى المنظمة بشرط موافقة مجلس الوزراء .

المادة الحادية والثلاثون

يقرر مجلس الوزراء المزايا والحصانات التى يتمتع بها موظفو الأمانة العامة فى أقاليم الدول الأعضاء .

الانسحاب من العضوية

المادة الثانية والثلاثون

أية دولة ترغب فى الانسحاب من المنظمة تقدم إخطاراً كتابياً بذلك إلى الأمين العام الإدارى .

ويصبح الميثاق غير نافذ بالنسبة لها بعد انقضاء عام واحد من تاريخ الإخطار ، ما لم تعدل عن طلبها خلال هذا العام وإلا انتهت عضويتها فى المنظمة .

تعديل الميثاق

المادة الثالثة والثلاثون

١ — يجوز تعديل هذا الميثاق إذا تقدمت أية دولة عضو بطلب كتابى بهذا الغرض إلى الأمين العام الإدارى بشرط ألا يعرض التعديل المقترح على المؤتمر للنظر فيه إلا بعد إخطار جميع الدول الأعضاء به

وانقضاء عام على هذا الإخطار ويشترط لقبول هذا التعديل موافقة ثلثي الدول الأعضاء على الأقل .

٢ – وإقراراً منا بهذا قمنا ، نحن رؤساء الدول والحكومات الإفريقية بتوقيع هذا الميثاق .

صدر بمدينة أديس أبابا فى الخامس والعشرين من مايو سنة ١٩٦٣ م الموافق الثانى من المحرم سنة ١٣٨٣ هـ .

الموقعون نيابة عن :

الجزائر	مالى
بورندى	موريتانيا
الكميرون	المغرب
جمهورية وسط إفريقيا	النيجر
تشاد	نيجريا
كونجو « برازفيل »	رواندا
كونجو « ليوبلدفيل »	السنغال
داهومى	سيراليون
إثيوبيا	الصومال
الجابون	السودان
غانا	تنجانيقا
غينيا	التوجو
ساحل العاج	تونس
ليبريا	أوغندة
ليبيا	الجمهورية العربية المتحدة
مدغشقر	فولتا العليا

بيان تفصيلى عن الدول الإفريقية المستقلة
الأعضاء فى منظمة الوحدة الإفريقية

اسم الدولة	الموقع	المساحة	السكان	العاصمة	تاريخ الاستقلال والانضمام لكل من الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية
الجمهورية العربية المتحدة	الركن الشمالى الشرقى لإفريقيا	١,٠٢١,٠٠٠ كيلومتر مربع	٢٦,٠٥٩,٠٠٠ نسمة	القاهرة	تعتبر شبه مستقلة منذ تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ . أما الاستقلال الفعلى فقد تحقق نهائياً فى أكتوبر عام ١٩٥٤ . كما أنها من الدول التى اشتركت فى تأسيس الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ . ومنظمة الوحدة الإفريقية عام ١٩٦٣ فى أديس أبابا .

اسم الدولة	الموقع	المساحة	السكان	العاصمة	تاريخ الاستقلال والانضمام لكل من الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية
ليبريا	فى أقصى غرب إفريقيا بين سيراليون وساحل العاج	٤٣,٠٠٠ ميل مربع	١,٧٦٢,٠٠٠ نسمة	منروفيا	استقلت فى يوليو عام ١٨٤٧ واشتركت فى تأسيس الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ وفى تكوين منظمة الوحدة الإفريقية عام ١٩٦٣ .
إثيوبيا	شرق إفريقيا فى منطقة القرن الإفريقى	٣٩٥,٠٠٠ ميل مربع	٢١,٨٠٠,٠٠٠ نسمة	أديس أبابا	تم جلاء الجيوش الإيطالية عنها فى ٢٠ مايو عام ١٩٤١ وفى ٢ ديسمبر عام ١٩٥٠ تكون اتحاد فيدرالى من إثيوبيا وإرتيريا وانضمت للأمم المتحدة فى يوليو عام ١٩٥١ واشتركت فى تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية وجعلت من عاصمتها مقراً لها .
ليبيا	شمال إفريقيا بين الجمهورية العربية شرقاً	١,٧٥٩,٥٤٠ كيلومتر مربع	١,٠٩٢,٠٠٠ نسمة	البيضاء	استقلت عن إيطاليا عام ١٩٥١ وانضمت للأمم المتحدة فور استقلالها وهى أول دولة تحصل على

اسم الدولة	الموقع	المساحة	السكان	العاصمة	تاريخ الاستقلال والانضمام لكل من الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية
	وتونس غرباً				الاستقلال عن طريق الأمم المتحدة واشتركت فى تكوين منظمة الوحدة الإفريقية .
السودان	جنوب الجمهورية العربية المتحدة على نهر النيل	٩٦٧,٥٠٠٠ ميل مربع	١٢,٦٥٠,٠٠٠ نسمة	الخرطوم	كانت بريطانيا تشارك مصر فى حكم السودان منذ عام ١٨٨٩ وقد نالت استقلالها فى يناير عام ١٩٥٦ وانضمت الأمم المتحدة فى نوفمبر عام ١٩٥٦ . كما اشتركت فى تكوين منظمة الوحدة الإفريقية عام ١٩٦٣
المغرب	فى أقصى الشمال الغربى لإفريقيا وتطل على ساحل البحر الأبيض والمحيط الأطلسى	٤٤٣,٦٨٠ ميل مربع	١٢,٥٩٨,٠٧٠ نسمة	الرباط	كانت تحت وصاية كل من فرنسا وإسبانيا وأيدتها جامعة الدول العربية حتى نالت استقلالها فى مارس ١٩٥٦ وانضمت الأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٥٦ . ولم تحضر(١) مؤتمر القمة الإفريقى فى أديس أبابا إلا بصفة

(١) لم تحضر المغرب مؤتمر القمة الإفريقى الأول بأديس أبابا فى مايو ١٩٦٣ إلا بصفة مراقب نظراً لاشتراك موريتانيا .

اسم الدولة	الموقع	المساحة	السكان	العاصمة	تاريخ الاستقلال والانضمام لكل من الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية
					مراقب ثم انضمت ووقعت على ميثاق الوحدة الإفريقية .
تونس	فى شمال إفريقيا بين ليبيا شرقاً والجزائر غرباً	٦٣,٣٦٢ ميل مربع	٤,٢١٠,٠٠٠ نسمة	تونس	كانت تحت الحماية الفرنسية منذ عام ١٨٨١ ووقفت بجابها جامعة الدول العربية حتى نالت استقلالها فى مارس عام ١٩٥٦ وانضمت للأمم المتحدة فى نوفمبر ١٩٥٦ كما اشتركت فى تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية ١٩٦٣ .
الجزائر	شمال إفريقيا تطل على البحر المتوسط شمالا والصحراء جنوباً	١١٣,٨٨٣ ميل مربع	١١,٠٠٠,٠٠٠ نسمة	الجزائر	احتلتها فرنسا عام ١٨٣٠ . وتمكنت فرنسا من إخماد كل الثورات التى قامت ضدها وفى عام ١٩٥٤ اندلعت ثورة التحرير الجزائرية ولم تخمد نيرانها حتى نالت الجزائر استقلالها عام ١٩٦٢ واشتركت فى

اسم الدولة	الموقع	المساحة	السكان	العاصمة	تاريخ الاستقلال والانضمام لكل من الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية
					تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية .
غانا	فى غرب إفريقيا أعلى خليج غانا	٩٢,١٠٠٠ ميل مربع	٧,٠٩٩,٠٠٠ نسمة	أكرا	استقلت عن بريطانيا فى مارس عام ١٩٥٧ وفى نفس الشهر انضمت للأمم المتحدة واشتركت فى تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية.
غينيا	فى أقصى غرب إفريقيا بين غينيا البرتغالية وسيراليون	٩٠,٠٠٠ ميل مربع	٣,٤١٥,٠٠٠ نسمة	كوناكرى	نالت استقلالها من فرنسا عن طريق الاقتراع فى أكتوبر عام ١٩٥٨ وانضمت للأمم المتحدة فى ديسمبر من نفس العام كما اشتركت فى تأسيس منظمة الوحدة الإفريقية .
الكميرون	فى غرب إفريقيا على خليج بيافرا	٤٧٤,٩٠٠ ميل مربع	٤,٩٠٠,٠٠٠ نسمة	ياوندى	يتكون الكميرون من الكميرون الفرنسى والكميرون البريطانى وأعلن ستقلالهما فى يناير عام ١٩٦٠ وانضمت للأمم المتحدة فى سبتمبر عام ١٩٦٠ واشتركت فى تأسيس

اسم الدولة	الموقع	المساحة	السكان	العاصمة	تاريخ الاستقلال والانضمام لكل من الأمم المتحده ومنظمة الوحدة الإفريقية
					منظمة الوحدة الإفريقية .
توجولاند	فى غرب إفريقيا على ساحل غانا بين داهومى شرقاً وغانا غرباً	٥٧,٠٠٠ كيلو متر مربع	١,٦٤٢,٠٠٠ نسمة	لومى	كانت تديرها فرنسا تحت وصاية الأمم المتحدة أعلن استقلالها فى أبريل عام ١٩٦٠ وانضمت للأمم المتحدة فى سبتمبر عام ١٩٦١ واشتركت فى تأسس منظمة الوحدة الإفريقية .
مدغشقر (ملاجاش)	جزيرة منفصلة تقع عند الساحل الجنوبى الشرقى لإفريقيا	٥٩٥,٧٩٠ كيلو متر مربع	٤,٦٥٨,٠٠٠ نسمة	تناناريف	كانت مستعمرة فرنسية استقلت فى يونيو عام ١٩٦٠ وانضمت للأمم المتحدة فى سبتمبر ١٩٦٠ . واشتركت فى التوقيع على ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية عام ١٩٦٣
الصومال	فى شرق إفريقيا بمنطقة القرن الإفريقى	٢,٤٦١,٣٥٠ ميل مربع	٢,٣١٠,٠٠٠ نسمة	مقديشو	كانت تحت وصاية الأمم المتحدة تدير إيطاليا الجزء الجنوبى وبريطانيا الجزء الشمالى . استقلت فى يونيو

اسم الدولة	الموقع	المساحة	السكان	العاصمة	تاريخ الاستقلال والانضمام لكل من الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية
					١٩٦٠ وانضمت للأمم المتحدة فى سبتمبر ١٩٦٠ ووقعت ميثاق الوحدة الإفريقية .
السنغال	فى أقصى غرب إفريقيا على المحيط الأطلسى	١٩٧,١٦١ ميل مربع	٢,٩٧٣,٠٠٠ نسمة	داكار	استقلت عن فرنسا فى يونيو ١٩٦٠ وانضمت للأمم المتحدة فى سبتمبر ١٩٦٠ ووقعت ميثاق الوحدة الإفريقية
الكنغو (ليوبلدفيل)	وسط إفريقيا فى حوض نهر الكنغو	٢,٣٤٤,١٠٦ ميل مربع	١٤,٠٥٠,٠٠٠ نسمة	ليوبلدفيل	نالت استقلالها عن بلجيكا فى يونيو عام ١٩٦٠ وانضمت للأمم المتحدة فى سبتمبر عام ١٩٦٠ واشتركت فى منظمة الوحدة الإفريقية .
الكنغو (برازفيل)	إفريقيا الاستوائية الفرنسية	٣٤٢,٠٠٠ ميل مربع	٨٩٠,٠٠٠ نسمة	برازفيل	استقلت فى أغسطس عام ١٩٦٠ وكانت تسمى الكنغو الأوسط وهو عضو فى المجموعة الفرنسية . دخلت الأمم المتحدة فى سبتمبر من نفس العام — عضو فى منظمة الوحدة

اسم الدولة	الموقع	المساحة	السكان	العاصمة	تاريخ الاستقلال والانضمام لكل من لأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الوحدة
					الإفريقية .
اهومى	بين النيجروفولتا العليا شمالا وخليج ساحل غانا جنوباً	١١٥,٧٦٢ كيلو متر مربع	٢,٠٥٠,٠٠٠ نسمة	بورتونوفو	كانت مستعمرة فرنسية . استقلت فى أغسطس عام ١٩٦٠ وانضمت للأمم المتحدة فى سبتمبر عام ١٩٦٠ وقد وقعت ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية .
لنيجر	فى غرب إفريقيا جنوب الصحراء بين تشاد شرقاً ومالى غرباً	١,١٨٨,٧٩٤ كيلو متر مربع	٢,٨٥٠,٠٠٠ نسمة	نيامى	استقلت عن فرنسا فى أغسطس عام ١٩٦٠ وانضمت للأمم المتحدة ووقعت ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية
ساحل العاج	على ساحل إفريقيا الغربية غرب غانا	٣٣٠,٢٧٧ كيلو متر مربع	٣,٣٢٠,٠٠٠ نسمة	أبيدجان	كانت مستعمرة فرنسية نالت استقلالها فى أغسطس عام ١٩٦٠ وانضمت للأمم المتحدة فى نفس العام ـ عضو فى منظمة الوحدة الإفريقية .

اسم الدولة	الموقع	المساحة	السكان	العاصمة	تاريخ الاستقلال والانضمام لكل من الأمم المتحدة ومنظمة الوحده الإفريقية
فولتا العليا	فى غرب إفريقيا شمالى غانا	٢٧٤,١٢٢ ميل مربع	٤,١٠٠,٠٠٠ نسمة	أوجادوجو	نالت استقلالها عن فرنسا فى أغسطس عام ١٩٦٠ وانضمت للأمم المتحدة فى سبتمبر من نفس العام واشتركت فى التوقيع على ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية .
جمهورية موريتانيا الإسلامية	غرب إفريقيا على ساحل المحيط الأطلسى جنوب غرب الجزائر	١,٠٨٥,٨٠٥ كيلو متر مربع	٧٢٧,٠٠٠ نسمة	نواكشوت	استقلت عن فرنسا فى سبتمبر عام ١٩٦٠ . وانضمت للأمم المتحدة فى نفس العام أثناء دورتها الخامسة عشر كما أنها عضو فى منظمة الوحدة الإفريقية .
تشاد	تقع عند بحيرة تشاد شرق جمهورية النيجر	١.٢٨٤,٠٠٠ كيلو متر مربع	٢,٦٥٠,٠٠٠ نسمة	فورت لامى	استقلت عن فرنسا فى أغسطس عام ١٩٦٠ وانضمت للأمم المتحدة فى نفس العام — عضو فى منظمة الوحدة الإفريقية .

اسم الدولة	الموقع	المساحة	السكان	العاصمة	تاريخ الاستقلال والانضمام لكل من الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية
جمهورية وسط إفريقيا	فى إفريقيا الاستوائية	٦١٧,٠٠٠ كيلو متر مربع	١,٢٠٠,٠٠٠ نسمة	بانجو	استقلت عن فرنسا فى أغسطس عام ١٩٦٠ وانضمت للأمم المتحدة فى نفس العام ــ عضو فى منظمة الوحدة الإفريقية .
جمهورية جابون	فى إفريقيا الاستوائية	٢٦٧,٠٠٠ كيلو متر مربع	٤٥٠,٠٠٠ نسمة	ليبرفيل	استقلت عن فرنسا فى أغسطس عام ١٩٦٠ وانضمت للأمم المتحدة فى نفس العام ــ عضو فى منظمة الوحدة الإفريقية.
جمهورية مالى	غرب إفريقيا جنوب الصحراء الكبرى	١,٢٠٤,٠٢١ كيلو متر مربع	٤,٠٦٠,٠٠٠ نسمة	باماكو	كانت تعرف باسم السودان الفرنسى استقلت فى سبتمبر عام ١٩٦٠ وانضمت للأمم المتحدة ــ عضو فى منظمة الوحدة الإفريقية .
سيراليون	غرب إفريقيا على المحيط الأطلسى	٢٧,٩٢٥ كيلو متر مربع	٤٥٠,٠٠٠ نسمة	فريتون	كانت سيراليون عبارة عن محمية ومستعمرة تابعتين لبريطانيا . ونالت الاستقلال فى شهر أبريل عام ١٩٦١

اسم الدولة	الموقع	المساحة	السكان	العاصمة	تاريخ الاستقلال والانضمام لكل من الأمم المتحدة ومنظمة الوحده الإفريقية
					وانضمت للأمم المتحدة فور استقلالها ـ عضو فى منظمة الوحدة الإفريقية .
جمهورية تنزانيا	شرق إفريقيا على المحيط الهندى	٢,٦٤٠ ميل مربع	٦٩٨,٢١١ نسمة	دار السلام	استقلت تنجانيقا فى ديسمبر ١٩٦١ وزنزبار فى ديسمبر ١٩٦٣ وأعلن الاتحاد بينهما فى أبريل عام ١٩٦٤ وكانت تسمى الجمهورية المتحدة لتنجانيقا وزنزبار ثم سميت جمهورية تنزانيا . انضمت للأمم المتحدة والوحدة الإفريقية عام ١٩٦٤ .
أوغندة	شرق إفريقية فى هضبة البحيرات عند منابع نهر النيل	٩٣,٣٨١ ميل مربع	٦,٥٢٣,٦٢٨ نسمة	كمبالا	كانت محمية بريطانية منذ عام ١٨٩٠ نالت استقلالها فى سنة ١٩٦٢ . وانضمت للأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية .
رواندا	تقع وسط	١٠,١٦٩	٢,٧٠٠,٠٠٠	كيجالى	استقلت عن بلجيكا فى يوليو ١٩٦٢

اسم الدولة	الموقع	المساحة	السكان	العاصمة	تاريخ الاستقلال والانضمام لكل من الأمم المتحده ومنظمة الوحدة الإفريقية
	إفريقيا شرق الكنغوليوبلدفيل	ميل مربع	نسمة		وانضمت للأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الإفريقية .
أوراندى	وسط إفريقيا شرق الكنغو ليوبلدفيل	١٠,٧٤٧ ميل مربع	٢,٢١٣,٠٠٠ نسمة	كتييجا	استقلت عن بلجيكا فى يوليو ١٩٦٢ وانضمت للأمم المتحدة فى شهر سبتمبر عام ١٩٦٢ وهى عضو فى منظمة الوحدة الإفريقية
كينيا .	شرق إفريقيا على ساحل المحيط الهندى	٢٢٣,٤٧٨ ميل مربع	٧,٤٨٠,٠٠٠ نسمة	نيروبى	كانت كينياتابعة للنفوذ البريطانى حصلت على وعد بالاستقلال فى فبراير ١٩٦٠ ثم حصلت على الاستقلال الذاتى فى ديسمبر ١٩٦٣ وانضمت للأمم المتحدة فى نفس الشهر — انضمت لمنظمة الوحدة الإفريقية عام ١٩٦٤ .
نياسالاند « ملاوى »	وسط إفريقيا على بحيرة	٣٦,٦٨٦ ميل مربع	٢,٩٢١,٠٠٠ ميل مربع	بلاييتر	استقلت عن بريطانيا فى يوليو ١٩٦٤ وسميت ملاوى . انضمت لمنظمة

اسم الدولة	الموقع	المساحة	السكان	العاصمة	تاريخ الاستقلال والانضمام لكل من الأمم المتحدة ومنظمة الوحدة الأفريقية
	نيابالاند جنوب تنجانيقا				الوحدة الإفريقية فى نفس الشهر وحضرت أيضاً المؤتمر الثانى لأقطاب الوحدة الإفريقية فى يوليو ١٩٦٤ بالقاهرة — انضمت للأمم المتحدة واشتركت فى دورتها التاسعة عشر (تلك الدورة التى تعطل نشاطها نتيجة الأزمة المالية للهيئة العالمية
روديسيا الشمالية « زامبيا »	وسط الجزء الجنوبى من أفريقيا تحدها ملاوى شرقاً وأنجولا غرباً شمال نهر الزمبيرى	١٠,٤٠٠ كيلو متر مربع	٢٨٩,٠٠٠ نسمة .	باثورست	استولت عليها بريطانيا وفى عام ١٦١٥ ومنذ أن انتشرت حركة التحرير فى فى إفريقيا نشبت فيها الثورات الوطنية حتى حصلت زامبيا على استقلالها التام بقيادة كينيت كاوندا فى فبراير ١٩٦٥ وانضمت للأمم فى دورتها الحالية. ومنظمة الوحدة الإفريقية .

خاتمة

من جميل الصدف أن يكون موعد نشر كتابى هذا متفقاً مع موعد عقد مؤتمر القمة الإفريقى الثالث بأكرا . ففى الحادى والعشرين من أكتوبر اجتمع رؤساء الدول الإفريقية الأعضاء فى منظمة الوحدة الإفريقية بأكرا « عاصمة جمهورية غانا » وذلك لبحث المشاكل التى اعترضت اللجان الفرعية المنبثقة عن المنظمة وكذلك التقارير التى أعدتها اللجان المتخصصة وبعض المسائل التنظيمية المتعلقة بها .

وسبق هذا المؤتمر الكبير للأقطاب اجتماع آخر عقده وزراء خارجية هذه الدول لوضع جدول الأعمال فى صيغته النهائية . وجدير بالذكر أن أشير إلى أن حكومة غانا منذ التوقيع على ميثاق المنظمة فى أديس أبابا (مايو ١٩٦٣) وهى تقف بكل ثقلها خلف دعوتها لإنشاء حكومة إفريقية موحدة . ولا زلت أذكر للدكتور نكروما هذه الكلمة فى مؤتمر القمة الإفريقى الثانى بالقاهرة (يوليو ١٩٦٤) ضمن خطاب له .

« إن الإمبرياليين يعتبرون ميثاق وحدتنا وحدة رمزية ، ولن يحترموها إلا إذا اتخذت شكل حكومة اتحاد . فلا يعقل أن يقوموا بتحدى قارة متحدة » .

وتقوم حكومة غانا الآن بدعاية كبيرة لمشروع الرئيس نكروما الخاص بإقامة حكومة إفريقية موحدة . فطبعت له كتاباً تحت عنوان « إفريقيا لابد أن تتحد » ونشرته على مختلف الأوساط من أجل نشر

الفكرة على أوسع نطاق .

وحتى موعد عقد هذا المؤتمر فى الحادى والعشرين من أكتوبر الحالى تكون منظمة الوحدة الإفريقية قد أتمت ٢٩ شهراً من عمرها حافلة بالنشاط والعمل .

مما يؤكد مدى أهمية هذه المنظمة والدور الذى تلعبه من أجل إفريقيا . . . ووحدة إفريقيا .

أهم مصادر البحث

١ ـ صحوة إفريقيا — « مترجم »
بازيل دافيدسون

٢ ـ الاستعمار الأوربى لإفريقيا فى العصر الحديث .
« الدكتور زاهر رياض »

٣ ـ منظمة الوحدة الإفريقية
الدكتور بطرس بطرس غالى

٤ ـ نهاية الاستعمار مترجم —
جون ستراش

٥ ـ نحو وحدة إفريقية
« سلسلة كتب سياسية »

٦ ـ تطور العلاقات العربية الإفريقية
الدكتور عبد العزيز رفاعى — ١٩٦٣

٧ ـ سقوط الإمبراطورية — مترجم .
« سلسلة كتب التحرير السياسى »

٨ ـ أيديولوجيات الأمم الآخذة فى النمو — مترجم
— بول سيجموند — Ball Cigemond

٩ ـ حول إفريقيا — مترجم —
أنتونى سمسون Antoni Cimusoon

١٠ ـ وثائق وخطب الملوك والرؤساء فى مؤتمر القمة الإفريقى الثانى بالقاهرة
يوليو عام ١٩٦٤ .

١١ ــ خطب وتصريحات الرئيس جمال عبد الناصر ــ جزء ثالث ورابع ــ مصلحة الاستعلامات

١٢ ــ العدد ١٣٢ من مجلة الأهرام الاقتصادى .

١٣ ــ الأمم المتحدة ــ الكتاب رقم ١١٩ من المكتبة الثقافية.

١٤ ــ فلسفة الثورة ــ للرئيس جمال عبد الناصر .

محتويات الكتاب

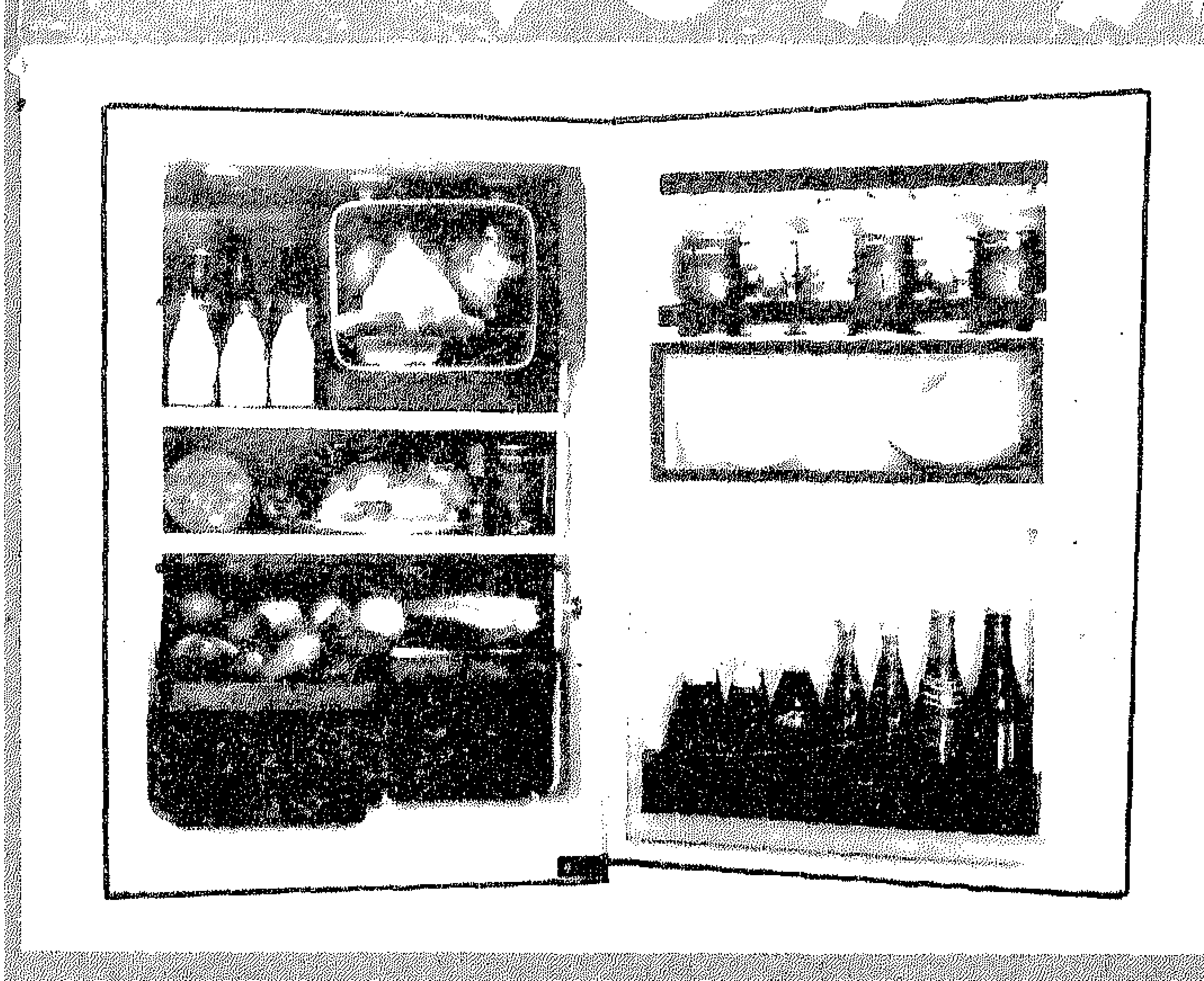
الموضوع	صفحة

تم طبع هذا الكتاب
على مطابع دار المعارف بمصر



منارات الثقة
.... والأمان
أكبر شبكة محطات
على الطرق فى جميع أنحاء الجمهورية
الزراعية والصحراوية والوادى
الجديد وسينا والصحراء الشرقية
خدمة ممتازة
تشحيم فنى
خبراء مدربين
فى التشحيم والصيانة
الجمعية التعاونية للبترول
ش.ع.م

ايديال ٦ قدم



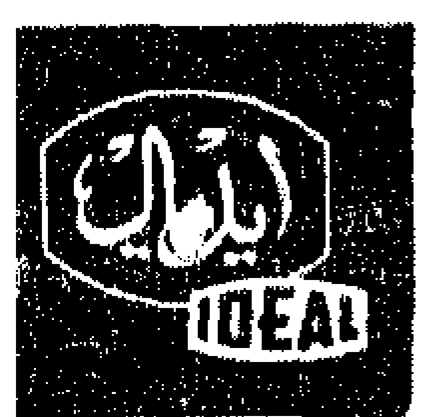
الثلاجة الجديدة

فى سلسلة من انتاج ايديال العالمى للثلاجات

الثلاجة التى تناسب كل أسرة .. وكل ميزانية ...

٨٥ جنيهًا

ادفع ٢٥ جنيهًا
واحجز ثلاجتك من الآن



شاهدوها بمعارض الشركة
فى جميع أنحاء الجمهورية

